

خواطر في زمن السراب
إبراهيم أبو عواد

مقدمة

هذا الكتاب عبارة عن مقالات فلسفية واجتماعية وثقافية، تعتمد على التأصيل (وضع أصول نظرية معرفية شاملة)، وتستند إلى التّقييد (وضع قواعد بناء فكري متماسك) . وهذه المقالات تُمثل خواطر ذاتية وأفكاراً شخصية ، دون العودة إلى أي مرجع . وقد حاولت جاهداً تأسيس نظام فلسفي قائم بذاته ، وتكوين نسق ثقافي مُكتنفٍ بنفسه ، بعيداً عن تقليد الآخرين ، أو نسخ الفلسفات الشرقية والغربية ، وبعيداً عن الغرور والتكبر والتبجح والتواضع الكاذب ، فأنا شخصٌ مُتحرّر من عُقدة الخواجة ، ولا أشعر أنني مغلوب حتى أُقلد الغالب ، وأخضع له ، وأسرق أفكاره . إنني أقدم أفكارِي الشخصية في محاولة مني للوصول إلى رتبة فيلسوف ، وهذا حق مشروع لي ولغيري . قد أكون نجحت ، وقد أكون فشلت . ومهما يكن من أمر ، فإن هذا الكتاب هو صوتي الخاص ، وليس أصوات الآخرين . والصوت أفضل من الصدى ، وأن يكون الإنسان نفسه أفضل من أن يكون نسخة مُقلدة أو علامة مُزوّرة . ودائماً سيكون هناك شخص أجمل مني ، وأغنى مني ، وأذكى مني ، وأعظم مني ، وأكثر نجاحاً وشهرةً وحضوراً وإنجازاتٍ مني ، ولكنه لن يكون أنا . وهذا يدل على ضرورة أن أترك بصمتي الشخصية في تاريخ الأفكار وذاكرة الحضارة ، وأن يكون لي أثرٌ واضحٌ وبارق في الوجود، يدلُّ عليّ بعد غيابي، وكُلُّ شخص له مكان تحت الشمس، ولا أحد يأخذ مكان أحد .

إنّ مقالات هذا الكتاب تُقدّم تحليلاً فلسفياً للأنظمة الحياتية ، والعلاقات الاجتماعية ، والبنى اللغوية ، من أجل الوصول إلى معنى الحياة المُتشعّب ، والغوص في أعماق الإنسان السّحيقة، والتّقيب عن نقاط القوّة والضعف في بنية المُجتمع الداخلية والخارجية ، ممّا يساهم في تفسير الحُلم الإنساني في المُجتمع ، وتعميق الفهم الإنساني للذكريات والزمن بكل أشكاله وانعكاساته على الرّوح والجسد . وشرعية الإنسان والمُجتمع لا تُوجد خارج الزمن والفكر والتاريخ، وهذه العناصر مُرتبطة بشكل وثيق مع اللغة على الصّعيدين التواصلية والرمزية . وكُلُّ تأويل لغوي هو بالضرورة تأويل للفعل الاجتماعي ، وهذا يُؤدّي إلى تفكيك معالم فلسفة التاريخ الاجتماعية ، وتحديد الفروقات الفكرية بين الحتمية الاجتماعية والاحتمالية الثقافية . والمُجتمع والثقافة لا ينفصلان عن الوجود والشّعور . وهذه الحقيقة تُعتبر طريقاً إلى الخلاص الجماعي ، وتحقيق الحُلم الإنساني في المُجتمع الاستهلاكي .

تُوضَّحُ مَقَالَاتُ هَذَا الْكِتَابِ وَظِيفَةُ النِّظَرِيَّاتِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ فِي الْحَيَاةِ ، وَقُدْرَةُ الشُّعُورِ عَلَى تَوَلِيدِ الزَّمَانِ وَصِنَاعَةِ الْمَكَانِ ، وَكَيْفِيَّةُ ارْتِبَاطِ التَّارِيخِ بِالشَّخْصِيَّةِ الْإِنْسَانِيَّةِ بِكُلِّ أبعادِهَا . وَلَا يُمكنُ اسْتِيعَابُ الْأَسَاسِ الْفَلَسَفِيِّ لِلتَّارِيخِ إِلَّا ضَمِنَ مَنْظُومَةِ السُّلُوكِ وَالْوُجُودِ . وَلَا يُمكنُ الْمُوَازَنَةُ بَيْنَ الْمَاضِي وَالْحَاضِرِ إِلَّا مِنْ خِلَالِ تَأْوِيلِ الرَّمُوزِ فِي تَارِيخِ الْمُجْتَمَعِ وَطَبِيعَةِ اللُّغَةِ، وَهَذَا يُؤَدِّي إِلَى إِنْقَازِ الْفَرْدِ وَالْمُجْتَمَعِ مِنَ الْفَرَاغِ وَالْعَدَمِ ، وَمُوْاجَهَةِ التَّنَاقُضَاتِ وَالصَّرَاعَاتِ فِي رَحْلَةِ الْإِنْسَانِ الْمَصِيرِيَّةِ ، الَّتِي لَا تَكْتَمِلُ إِلَّا بِالتَّوْفِيقِ بَيْنَ الْفِعْلِ وَالْمَعْنَى وَالْوَعْيِ ، وَهَذَا يَحْمِي الْإِنْسَانَ مِنَ السُّقُوطِ خَارِجَ التَّارِيخِ . وَلَا شَكَّ أَنَّ الْإِنْسَانَ وَالتَّارِيخَ مُرْتَبِطَانِ بِاللُّغَةِ ، لِأَنَّ اللُّغَةَ هِيَ السُّلْطَةُ الْوُجُودِيَّةُ وَالْهُوِّيَّةُ الْمَعْرِفِيَّةُ اللَّتَانِ تَحْرُسَانِ الْكِيَانَ الْإِنْسَانِيَّ وَالْكَيْنُونَةَ التَّارِيخِيَّةَ مِنَ الْغُرْبَةِ وَالْإِغْثَابِ وَالْإِسْتِلَابِ . وَاللُّغَةُ لَا تَنْفَصِلُ عَنِ الْعَقْلَانِيَّةِ فِي الثَّقَافَةِ وَالْمُجْتَمَعِ وَالْوَعْيِ . وَالْعَقْلَانِيَّةُ هِيَ الْقُوَّةُ الدَّافِعَةُ لِلْعَلَاقَاتِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ فِي ظِلِّ التَّحْدِيَّاتِ الْوُجُودِيَّةِ وَضَغْطِ الْأَسْئَلَةِ الْمَصِيرِيَّةِ الَّتِي تَنْبَعُثُ مِنْ جَسَدِ الْمُجْتَمَعِ وَرُوحِ الْإِنْسَانِ ، كَمَا أَنَّ الْعَقْلَانِيَّةَ هِيَ الضَّمَانَةُ الْأَكِيدَةُ لِتَحْقِيقِ التَّجَانُسِ الْاجْتِمَاعِيِّ مَعْنًى وَمَبْنًى ، وَتَفْعِيلِ التَّكَامُلِ الْإِنْسَانِيِّ نَظَرِيًّا وَتَطْبِيقِيًّا ، وَتَوْضِيحِ مَعَالِمِ طَرِيقِ الْإِنْسَانِ فِي الْحَيَاةِ ، وَتَحْلِيلِ مُكَوِّنَاتِ الْبِنَاءِ الْاجْتِمَاعِيِّ . وَالْعَقْلَانِيَّةُ لَيْسَتْ نَقِيضًا لِلخَيَالِ وَاللُّغَةِ، بَلْ هِيَ إِطْلَاقٌ لِلخَيَالِ بِاعْتِبَارِهِ مَنْظُومَةٌ أَكْثَرُ أَهْمِيَّةً مِنْ سُلْطَةِ الْمَعْرِفَةِ ، وَتَفْجِيرٌ لِلطَّاقَةِ الرَّمْزِيَّةِ فِي اللُّغَةِ بِاعْتِبَارِهَا كَيْنُونَةً أَكْثَرُ أَهْمِيَّةً مِنْ هُويَّةِ الزَّمَنِ . وَلَا بُدَّ مِنَ الْحَفَرِ فِي تَارِيخِ الْمَعْنَى دَاخِلَ الْإِنْسَانِ ، مِنْ أَجْلِ الْوُصُولِ إِلَى الْأَثَرِ الْاجْتِمَاعِيِّ ، وَمَنْعِ انْفِصَالِ الْوَعْيِ عَنِ الْإِرَادَةِ ، وَهَذَا يَحْمِي مَسَارَ التَّارِيخِ مِنَ الْقَطِيعَةِ الْمَعْرِفِيَّةِ ، وَيُظْهِرُ الْخَصَائِصَ الْفَلَسَفِيَّةَ لِلْبِنَاءِ الْاجْتِمَاعِيِّ ، وَيُبْرِزُ أبعادَ الْفِعْلِ الْاجْتِمَاعِيِّ وَالْفِكْرِ النَّقْدِيِّ ، وَيُوضِّحُ الرِّابِطَةَ بَيْنَ الْحَدَاثَةِ وَالتُّرَاثِ .

لَقَدْ قُذِّمَتْ بِنَشْرِ مَقَالَاتِ هَذَا الْكِتَابِ فِي الصُّحُفِ وَالْمَجَلَّاتِ فِي الْوَطَنِ الْعَرَبِيِّ وَأَوْرُوبَا وَآمَرِيكَا وَكَنْدَا وَأُسْتْرَالِيَا، وَارْتَأَيْتُ أَنْ أَجْمَعَهَا فِي كِتَابٍ، لِلْمُحَافَظَةِ عَلَيْهَا كَمَنْظُومَةٍ وَاحِدَةٍ وَمُتَمَاسِكَةٍ، فِي مُحَاوَلَةٍ مَنِّي لِتَأْسِيسِ نِظَامِ فِلَسَفِيٍّ اجْتِمَاعِيٍّ ثَقَافِيٍّ عَمِيقٍ، يَغُوصُ فِي أَعْمَاقِ الْمُجْتَمَعِ ، وَلَا يَقِفُ عِنْدَ السَّطْحِ ، وَيُحَلِّلُ شَخْصِيَّةَ الْإِنْسَانِ الظَّاهِرِيَّةِ وَالْبَاطِنِيَّةِ ، وَلَا يَقِفُ عِنْدَ رُذُودِ الْأَفْعَالِ ، وَيُؤَسِّسُ نَسَقًا وَجُودِيًّا مَنْطَقِيًّا مُتَسَلِّسًا يَجْمَعُ بَيْنَ مَفَاهِيمِ الزَّمَنِ وَالتَّارِيخِ وَاللُّغَةِ وَالشُّعُورِ وَالْوَعْيِ ، مِنْ أَجْلِ إِيجَادِ الْمَعْنَى الْكَامِنِ فِي الْهُوِّيَّةِ وَالسُّلْطَةِ وَالْكَيْنُونَةِ . وَبِشَكْلِ عَامٍ ، إِنَّ الْوُجُودَ الْحَيَّ وَالْحُرَّ هُوَ رَحْلَةُ الْبَحْثِ عَنِ الْمَعْنَى . وَلَا مَعْنَى بِدُونِ الْإِنْسَانِ وَالْمُجْتَمَعِ .

إِبْرَاهِيمُ أَبُو عَوَادٍ

الفلسفة الروحية هي الحياة الحقيقية

١

تستمد الفلسفة شرعيتها من التوازن بين رمزية اللغة وذكريات الإنسان . واللغة هي الحاضنة لتاريخ الروح وجغرافيا الجسد . والإنسان هو صانع الإنجازات الحضارية . وكما أن الطائر لا يمكن أن يطير إلا بوجود جناحين ، كذلك الفلسفة ، لا يمكن أن تخلق إلا بوجود اللغة والإنسان .

٢

تفجير الطاقة الرمزية في اللغة هو الوسيلة الأكثر نجاعة لإعادة بناء الفرد وفق منظور الحرية والتحرر . وهذه العملية تستلزم انبعاث الشطأيا في الألفاظ والمعاني ، واندلاع حريق في النظام اللغوي . ودور الفلسفة في هذا السياق يتجلى في ترتيب الشطأيا لتصبح قوة متجانسة وفعالة ، والسيطرة على الحريق ليصبح وقودا يحرك عجلة التنمية الفكرية الحقيقية لا الشعاراتية .

٣

قوة الأطفال في الحياة تكمن في عدم فهمهم لمعنى الموت . إنهم يضحكون ويلعبون ويمرحون ، لأن الحياة بالنسبة إليهم هي مركز مشاعرهم ومنبع أحاسيسهم ، مع غياب تام للموت عن تفكيرهم . وعندما يكبرون ، يدركون معنى الموت ، ويعرفون أنه كان قريبا منهم في كل مراحل حياتهم ، وأن الموت لا يصيب الآخرين فقط . إن الجميع خاضعون لقانون الموت ، وهو أقرب مما يتصور الإنسان ، وهذا يؤدي بالضرورة إلى تغيير طريقة التفكير ، وتغيير زاوية الرؤية للأشياء .

٤

البحث عن معنى الحياة في خطام الروح ، قد يبدو أمرا متعبا وشاقا ، ولكن العيش اللذيذ كامن في التعب والمشقة ، والمتعة تتجلى في الصعوبة والتحدى . واللذة مخبئة في الألم . ونحن لا نعرف قيمة الأشياء التي تأتي بيسر وسهولة ، وإنما نعرف قيمة الأشياء التي جاءت بعد معاناة وألم . وكل شيء يأتي بسهولة يذهب بسهولة ، وما تأتي به الرياح تأخذه الزوايع ، وكلام الليل يمحوه النهار . إن العذاب هو طريق القلوب العظيمة . وتحويل هذا العذاب إلى متعة ولذة ، والانتصار على العذاب والألم ، يمثلان الامتحان الحقيقي لفلسفة وجود الإنسان في هذا العالم . والإنسان قد ينسى الشخص الذي أضحكه ، ولكنه لا ينسى الشخص الذي أبكاه ، لأن الألم متجذر في طبيعة النفس البشرية ، وبصمة البكاء أشد تأثيرا من بصمة الضحك .

يَخْتَرِعُ الْإِنْسَانُ الْوَهْمَ وَيَعِشُّقَهُ ، لِأَنَّهُ يَرَى فِي الْوَهْمِ خَلاصًا رُوحِيًّا ، وَهُدْنَةً بَيْنَ أَحْلَامِهِ وَإِخْفَاقَاتِهِ ، وَهُرُوبًا مِنَ الْمَاضِي وَالذِّكْرِيَّاتِ . وَكَأَنَّ الْحَيَاةَ صَارَتْ كَابُوسًا ، وَبَدَلًا مِنْ أَنْ يُوَاجِهَ الْإِنْسَانُ مَصِيرَهُ بِشَجَاعَةٍ ، وَيَسْأَلَ عَنْ مَوْعِدِ إِفَاقَتِهِ مِنْ هَذَا الْكَابُوسِ ، فَإِنَّهُ يَأْخُذُ حَبَّةَ مُتَوَمٍّ ، كَيْ يَغْرُقَ فِي خَيَالَاتِهِ ، وَيَتَجَنَّبَ مُوَاجَهَةَ الْإِسْتِحْقَاقَاتِ الْمَصِيرِيَّةِ . وَهَذِهِ لُغْبَةٌ قَاتِلَةٌ ، وَلَا فَائِدَةَ مِنْهَا ، لِأَنَّ أَفْضَلَ طَرِيقَةَ لِلتَّخَلُّصِ مِنَ الْخَوْفِ هِيَ اقْتِحَامُهُ . وَضَرِيبَةُ مُوَاجَهَةِ الْعَدُوِّ وَالتَّصَدِّي لَهُ أَقْلٌ بِكَثِيرٍ مِنْ ضَرِيبَةِ الْهُرُوبِ مِنْهُ ، لِأَنَّ الْهُرُوبَ مِنَ الْعَدُوِّ سَيُعْطِيهِ فُرْصَةً كَيْ يَتَمَدَّدَ وَيَزْدَادَ وَحْشِيَّةً وَشَرَّاسَةً ، أَمَّا مُوَاجَهَتُهُ فَتَعْنِي إِيقَافَهُ عِنْدَ حَدِّهِ ، وَتَعْرِيفَهُ بِحُجْمِهِ الْحَقِيقِيِّ .



متى تنتهي تجربة الروح ؟

١

نبحث عن البصيرة في المُنْذِن العمياء. قد نَجِدْها، وقد لا نَجِدْها. الحياة غير مضمونة النتائج ، وغير معروفة العواقب . نَقْضِي وقتنا في السَّباحة على أمل الوصول إلى برِّ الأمان . نَسْبَح في المنطقة العميقة ، وبرُّ الأمان بعيد . لكنَّ الأمل هو قَمَرُنَا في مَمَرَاتِ الذِّكْرِيَّاتِ الْمُتَوَحِّشَةِ ، وهو سِلاحُنَا في مَتَاهَاتِ الْقُلُوبِ الْمُوحِشَةِ .

٢

نَعْرِقُ في الاحتمالات ، لأنَّ الخِياراتَ في بلادِ المَوْتِ قليلة . وَضَفَّتَا نَهْرُ الدَّمُوعِ مَزْرُوعَتَانِ بالأشواك . تُوَلَّدُ أحزاننا بين الشَّكِّ واليقين، ونعيش في بلادٍ مَنْسِيَّةٍ تُنْكَرُ وُجُوهَنَا، وَتُحَطِّمُ أَحْلَامَنَا ، ولا تَعْرِفُنَا أَحْيَاءً، وَلَكِنَّهَا تَمْدَحُنَا عِنْدَمَا نَمُوتُ . بلادٌ خَرَجَتْ مِنَ التَّارِيخِ ، واستقالت من الحَضَارَةِ، ولا تَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانَ إِذَا كَانَ مَيِّتًا ، وكأنَّ المَوْتَ هو شَهَادَةُ حُسْنِ السَّيْرِ والسُّلُوكِ اللازمة للحصول على الوظيفة .

٣

نَنْظُرُ فِي الْمَرَايَا ، لَكِنَّنَا نَخَافُ مِنْ رُؤْيَا وَجُوهَنَا. نَبْحَثُ فِي لَمَعَانِ الْمَرَايَا عَنْ أَحْلَامِ الطُّفُولَةِ البعيدة. والمرايا هي صورة آباءنا الراحلين بين السَّرَابِ والصَّحْرَاءِ . سَيَّكِي السَّرَابِ عَلَى صَدْرِ الصَّحْرَاءِ فِي زَمَنِ الرِّصَاصِ . وَنَحْنُ الْإِيْتَامُ الْمَنْسِيَّينَ . نَبْحَثُ عَنْ جُغْرَافِيَا قُلُوبِنَا فِي تَارِيخِ الْحُبِّ الضائع. نَحْنُ إِلَى الْأَشْيَاءِ الْغَامِضَةِ، وَنَأْمُلُ أَنَّهَا تَحْمِلُ لَنَا الْخَلَاصَ . وَلَكِنْ لَا خَلَاصَ لَنَا إِلَّا بِالتَّحَرُّرِ مِنَ الْوُحُوشِ السَّاكِنَةِ فِي دَوَاتِنَا ، وَالانِعْتَاقِ مِنَ الْأَحْزَانِ الْكَامِنَةِ فِي أَعْمَاقِنَا ، وَقَتْلِ الْأَوْهَامِ الْعَائِشَةِ فِي أَذْهَانِنَا. نَبْحَثُ عَنِ السَّعَادَةِ فِي الْبَيْتَةِ الْمُحِيطَةِ بِنَا، وَلَكِنَّ السَّعَادَةَ تَنْبَعُ مِنْ دَوَاحِلِنَا. نَسْعَى إِلَى السَّلَامِ مَعَ النَّاسِ الْمُحِيطِينَ بِنَا ، وَلَكِنَّنَا نَخُوضُ حَرْبًا طَاحِنَةً بَيْنَنَا وَبَيْنَ أَنْفُسِنَا . وَإِذَا نَجَا الْإِنْسَانُ مِنَ الْحَرْبِ الْأَهْلِيَّةِ فِي قَلْبِهِ وَرُوحِهِ وَجِسْمِهِ ، فَإِنَّهُ سَيَنْجُو مِنْ حَرْبِ الذِّكْرِيَّاتِ وَالْمُسَدَّسَاتِ .

٤

الأبوابُ كَثِيرَةٌ ، وَلَا نَزَالَ نَبْحَثُ عَنِ الْمِفَاتِيحِ . كَمْ نَحْتَاجُ مِنَ الْوَقْتِ لِتَجَرِبَةِ الْمِفَاتِيحِ كَيْ نَحْصُلَ عَلَى الْمِفْتَاحِ الْمُنَاسِبِ ؟ . هَلْ نَدْرُسُ تَارِيخَ الطَّرِيقِ أَمْ تَضَارِيسَ خُطُواتِنَا ؟ . لَا وَقْتُ لآبَاءِ الْجُنُودِ الْمَهْزُومِينَ كَيْ يَدْفِنُوا أَبْنَاءَهُمْ ، وَلَا مَكَانَ لِلْأَوْسَمَةِ الصَّدِئَةِ فِي أَزَقَّةِ الْفَتْرَانِ وَالْقَمَامَةِ .

٥

الإنسان الوحيد لَمْ يَجِدْ مَنْ يَدْفِنُهُ إِلَّا الْوَهْم . لَنْ يَتَخَلَّى الْبَشَرُ عَنِ الْوَهْم ، وَلَنْ تَتَخَلَّى
الصَّحْرَاءُ عَنِ السَّرَاب . الْوَهْمُ طَعْمُهُ خُلُو ، وَلَكِنْ تَأْثِيرُهُ قَاتِلٌ . إِنَّهُ السُّمُّ اللَّذِيذُ ، لَكِنَّهُ مُمِيتٌ .
يُعِيدُ الْوَهْمُ تَأْوِيلَ الذِّكْرِيَّاتِ وَالْحِكَايَاتِ ، لِيَصِيرَ الزَّمَنُ هُوِيَّةً لِلْهََاوِيَّةِ ، وَيَصِيرَ الْمَكَانُ أَبْجَدِيَّةً
لِلنَّسِيَانِ . وَالْهُوِيَّةُ لَنْ تَصْفُلَ أَنْيَابَ الْمَاضِي الَّذِي لَا يَمْضِي ، وَالْأَبْجَدِيَّةُ لَنْ تُزَوِّجَ الصَّحْرَاءَ لِلْسَّرَابِ .

٦

نَضْحَكَ فِي طَرِيقِ الْإِنْتِحَارِ التَّدْرِيجِي . أُمَّةٌ تُدَمِّرُ نَفْسَهَا بِنَفْسِهَا ، وَيُصْبِحُ التَّدْمِيرُ الذَّاتِي طَرِيقًا
لِلْحَيَاةِ ، وَطَرِيقَةً لِمُتَعَادَةِ الْأَحْلَامِ . وَالْأَعْلَامُ مُنْكَسَّةٌ فِي خُرُوبِ الْقَبَائِلِ . هُذُنَةٌ بَيْنَ الْقَاتِلِ وَالصَّحِيَّةِ .
لَا قَانُونُ فِي مَمَالِكِ السَّرَابِ إِلَّا الرَّمْلُ ، وَلَا دُسْتُورُ فِي مُدُنِ الْهَزِيمَةِ إِلَّا الْبُكَاءُ .

٧

أَيْنَ أَنْتِ أَيْتُهَا الْحَضَارَةُ ؟ أَشْلَاؤُنَا هِيَ جُذُورُ الْأَشْجَارِ . وَالْأَغْصَانُ تَمْتَدُّ فِي عُرُوقِنَا . نَبْكِ ،
وَنُخْفِي دُمُوعَنَا ، وَنَضْحَكَ كَمَا نَضْحَكَ عَلَى أَنْفُسِنَا ، وَهَذَا الضَّحْكُ هُوَ الْجُزْءُ الظَّاهِرُ مِنْ جَبَلِ
الْجَلِيدِ ، وَمَا خَفِيَ أَعْظَمُ .

٨

الذِّكْرِيَّاتُ لَيْسَتْ هُزُوبًا إِلَى الْمَاضِي ، وَإِنَّمَا هِيَ تَنْقِيبٌ فِي دَاخِلِ الْإِنْسَانِ عَنِ الرَّابِطَةِ الرُّوحِيَّةِ
بَيْنَ الزَّمَنِ وَالْمَشَاعِرِ . الزَّمَنُ الَّذِي ذَهَبَ وَلَكِنْ يَعُودُ ، وَالْمَشَاعِرُ الَّتِي تَوَهَّجَتْ كَالشُّمُوعِ فِي لَيْلِ
الرَّحِيلِ ، ثُمَّ انْطَفَأَتْ عِنْدَمَا هَجَمَتِ الرِّيحُ عَلَى النُّوَافِذِ الْحَدِيدِيَّةِ الصَّدِئَةِ .

*

البحث عن اللمعان في زمن الانطفاء

١

العلاقة بين الشَّكْلِ والمُضمون تُشبه العلاقة بين الجسد والروح . الجسد كيان ثرابي حامل للروح السَّامِيَّة ، والجسد _ أيضًا _ هو سجنُ الروح ، وما دام الإنسان على قيد الحياة ، فهو يُمثِّل منظومةً اعتباريةً قائمةً على ثنائية الجسد (الحامل) والروح (المَحْمول) ، بلا تعارض ، ولا تناقض . وعندما يموت الإنسان تنفصل الروح عن الجسد، وهذا يعني أنَّ الموتَ عملية تحرير للروح من سجنها (الجسد الثرابي) . الموتُ تحريرُ المَاهِيَّةِ مِنَ الْهُويَّةِ ، وتخليصُ الكينونة مِنَ الْكِيَانِ ، وتصفيَةُ الْمَرْكَزِ مِنَ الْهَوَامِشِ ، وتنقيَةُ السُّلْطَةِ مِنَ الزَّمَنِ .

٢

البحث عن معنى الحياة هو استعادة للمشاعر الدافئة في صقيع الذاكرة. وعملية البحث لا بُدَّ أن تكون مُتواصلَةً ومُرَكَّزةً ، لأنَّ قُوَّةَ الأشياءِ كامنة في الاستمرارية والتواصلية . وقليلٌ دائمٌ خَيْرٌ من كثيرٍ مُنقطع . وقطراتُ الماءِ تُؤثِّرُ في الصَّخْرِ بسببِ استمراريَّتها وتتابعها ، وليس بسببِ قُوَّتِها الذاتية . وفي أحيان كثيرة ، تكون العناصرُ المُحِيطَةُ بِالشَّيْءِ أقوى مِنَ الشَّيْءِ نَفْسِهِ ، تَمَامًا كالأشواك التي تُحيط بالوردة . إنَّ سِلَاحَ الوردة هو أشواكُها لا عِطْرُها . الأشواكُ لِلحِفاظِ على الحَيَاةِ ، والعِطْرُ لِلحِفاظِ على الأحاسيس .

٣

الطريقُ أَمْ الخُطْوَةُ ؟ . ينبغي ترتيبُ الأولويات ، وإيجادُ منظومةٍ تُوازن بين الكُلِّ والجُزْءِ ، والأصلِ والفرع ، والمُطلَقِ والنَّسَبِي . إنَّ اختراعَ تناقضاتٍ وَهْمِيَّةٍ بينَ المعنى الشُّمُولِي والمعنى الجُزْئِي ، يُؤدِّي إلى إعاقة عملية السَّير ، وإذا تصادمت الخُطْوَةُ معَ الطريق ، فسوفَ يَتَعَدَّرُ الْمُضِيُّ قُدَمًا ، وكُلُّ صِدَامٍ بينَ الْكِيَانِ وَالْكَيْنُونَةِ يَقُودُ إلى تَشْطِيٍّ هُويَّةٍ الْمَعْنَى ، وكُلُّ صِرَاعٍ بينَ الطريقِ والطريقةِ يَقُودُ إلى تَمَرُّقِ سُلْطَةِ الْمَعْرِفَةِ .

٤

الْفَرَّاشَةُ التي تَحُومُ حَوْلَ النَّارِ ، ثُمَّ تَقَعُ فِيهَا . هَلْ هِيَ فَرَّاشَةٌ جَاهِلَةٌ لَا تَعْرِفُ عَوَاقِبَ الْأُمُورِ ؟ . هَلْ هِيَ قَاتِلَةٌ أَمْ صَحِيَّةٌ ؟ . لَقَدْ خَدَعَهَا الضَّوُّ وَالْبَرِيقُ وَاللِّمَعَانُ وَالتَّوَهُجُ ، وَذَهَبَتْ إِلَى الْإِحْتِرَاقِ بِمِلءِ إِرَادَتِهَا ، وَدُونَ ضَغْطٍ مِنْ أَحَدٍ . انْهَتْ حَيَاتُهَا كَيْ تَصْبَحَ أَيْقُونَةً فِي الْوَهْمِ وَذَاكِرَةً لِلْسَّرَابِ .

وَلَنْ تَتَكَّرَسَ أُسْطُورَةُ الْفَرَّاشَةِ إِلَّا بِاحْتِرَاقِهَا ، وَالْمَوْتُ يُغْلِقُ الدَّائِرَةَ ، وَلَا بُدَّ مِنْ صَحِيَّةٍ كَيْ يَكْتَمِلَ
الْغِيَابُ الَّذِي لَا يَغِيبُ ، وَلَا بُدَّ مِنْ قُرْبَانٍ كَيْ تَصِيرَ الْهََاوِيَةُ هُوِيَّةً . وَكُلُّ لُغَةٍ تَجِيءُ مِنْ انْتِحَارِ
الْمَعْنَى سَتَصْبِحُ طَيِّفًا لِمِزْمَارِ الرَّاعِي الَّذِي يَغْتَصِبُ الْغَنَمَ ، وَيَدْفَعُهَا نَحْوَ حَافَةِ الْهََاوِيَةِ . وَإِذَا صَارَ
الرَّاعِي عَدُوَّ الْغَنَمِ ، فَإِنَّ رَصَاصَةَ الْقَنَاصِ لَنْ تُمَيِّزَ بَيْنَ السَّجَّانِ وَالسَّجِينِ .

هـ

يُسَافِرُ الْبَشَرُ إِلَى شَتَّى بَقَاعِ الْأَرْضِ . وَلَكِنَّ السُّؤَالَ الَّذِي يَطْرَحُ نَفْسَهُ : كَمْ شَخْصًا يُسَافِرُ فِي
ذَاتِهِ ؟ . كَمْ شَخْصًا يُهَاجِرُ إِلَى قَلْبِهِ ؟ . لَقَدْ بَحَثْنَا عَنْ السَّعَادَةِ فِي الْعُنَاصِرِ الْمُحِيطَةِ بِنَا ،
وَالْأَشْيَاءِ الْبَعِيدَةِ عَنَّا ، وَلَكِنَّا نَنْسَى أَنْ نَبْحَثَ عَنْ السَّعَادَةِ فِي ذَوَاتِنَا . نَسْعَى إِلَى مَعْرِفَةِ الْآخَرِينَ
وَإِكْتِشَافِ أَسْرَارِهِمْ وَمَشَاعِرِهِمْ وَتَفَاصِيلِ حَيَاتِهِمْ ، وَلَكِنَّا لَا نَهْتَمُّ بِمَعْرِفَةِ أَنْفُسِنَا ، وَإِكْتِشَافِ الْأَشْيَاءِ
الْغَامِضَةِ فِيْنَا . نَقْتَشِ عَنْ غُيُوبِ الْآخَرِينَ ، كَمَا لَوْ كَانَتْ كَنْزًا ثَمِينًا أَوْ صَيِّدًا وَفِيرًا . وَلَكِنَّا لَا نُدْرِكُ
أَنَّ لَدُنَّا غُيُوبًا كَثِيرَةً . وَلَوْ اِنْشَغَلَ كُلُّ إِنْسَانٍ بِتَصْحِيحِ أَخْطَائِهِ لَا تَبَرِيرِهَا ، وَعَمَلٍ جَاهِدًا لِعِلَاجِ
غُيُوبِهِ لَا التَّحَايُلِ عَلَيْهَا ، فَإِنَّ الْمُجْتَمَعَ سَيُصْبِحُ وَاحِدَةً لِلْأَمْنِ وَالْأَمَانِ ، وَسَاحَةً لِلْحَوَارِ وَالاحْتِرَامِ
الْمُتَبَادِلِ . وَلَكِنْ ، لَا أَحَدٌ يَتَعَلَّمُ مِنَ التَّارِيخِ ، لِأَنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ يَظُنُّ أَنَّ حَالَةَ اسْتِثْنَائِيَّةٍ ، وَمَا أَصَابَ
غَيْرَهُ لَنْ يُصِيبَهُ . وَهَكَذَا ، يُصْبِحُ التَّارِيخُ فَخًّا ، وَالْحَضَارَةُ مِصِيدَةً ، وَيَتَنَقَّلُ مَصِيرُ الدُّوَلِ الْوَهْمِيَّةِ
— كَالْأَزْهَارِ الصَّنَاعِيَّةِ — مِنَ الْمَآسَةِ إِلَى الْمَهْزَلَةِ ، وَمِنَ الْمَهْزَلَةِ إِلَى الْمَرْبَلَةِ .

*

الحُزْنُ وَمَعْنَى الْحَيَاةِ

١

هَلْ الْحُزْنُ خَشْبَةُ الْمَذْبَحِ الَّتِي تَتَمَدَّدُ عَلَيْهَا أَجْسَادُنَا ، أَمْ عمليةٌ تطهير لأرواحنا الغارقة في فوضى الاستهلاك الخائفة ؟ . نعتبر الحُزْنَ وَحْشًا كَاسِرًا ، ونُحاول أن نَهْرُبَ مِنْهُ ، لكنَّ هذا الْوَحْشَ سَاكِنٌ فِيْنَا . وَالْهَرَبُ مِنْهُ كَالْهَرَبِ مِنْ ظِلَالِنَا . وَلَا أَحَدٌ يَهْرُبُ مِنْ ظِلِّهِ . يَنْبَغِي تَحْوِيلُ الْحُزْنِ مِنْ نَقْطَةٍ ضَعْفٍ إِلَى نَقْطَةٍ قُوَّةٍ ، وَمِنْ عَقَبَةٍ فِي طَرِيقِ أَحْلَامِنَا إِلَى وَقُودٍ لِتَحْرِيكِ قِطَارِ أَعْمَارِنَا نَحْوَ الْقِمَّةِ .

٢

نَبْحَثُ عَنْ مَعْنَى أَرْوَاحِنَا فِي حُطَامِ قُلُوبِنَا ، وَنُفَقِّشُ عَنْ جَدْوَى حَيَاتِنَا بَيْنَ الْأَنْقَاضِ . لَكِنُّ الْحَيَاةَ مُسْتَمِرَّةٌ بِكُلِّ آلَامِهَا وَمُضَاعَبِهَا ، لِأَنَّ الْإِنْسَانَ كَائِنٌ مُتَأَقْلِمٌ مَعَ كُلِّ الظُّرُوفِ ، وَقَادِرٌ عَلَى الْعَيْشِ فِي الْبُيُوتِ الْمُعَادِيَةِ . وَالْإِنْسَانُ سَيُشْعِرُ بِأَهْمِيَةِ عُمْرِهِ عِنْدَمَا يُحَوِّلُ النِّقْمَةَ إِلَى مِثْحَةٍ ، وَالدَّكْرِياتِ إِلَى كَيَانٍ مَحْسُوسٍ ، وَالْخَيَالَ إِلَى وَاقِعٍ مَلْمُوسٍ .

٣

أَيْنَ نَجِدُ ذَوَاتِنَا فِي زَحْمَةِ الْوُجُوهِ وَضَجِيجِ الْأَصْوَاتِ ؟ . تَسِيلُ أَعْمَارُنَا بَيْنَ أَصَابِعِنَا كَمَا يَسِيلُ الْمَطَرُ بَيْنَ شُقُوقِ جُلُودِنَا ، وَنَظَلُّ نَرَكُضُ وَرَاءَ الظُّلَالِ الْغَامِضَةِ فِي زَوَايَا قُلُوبِنَا ، وَنَلْهَثُ خَلْفَ الْأَطْيَافِ السَّرِّيَّةِ فِي أَعْمَاقِ أَرْوَاحِنَا ، كَأَنَّ أَوْرِدَتَنَا طُرُقَاتٍ مُغَطَّاةَ بِالثَّلُوجِ الْوَهَّاجَةِ ، وَكَأَنَّ أَجْسَادَنَا مَوَانِي مَرصُوفَةً بِمَنَادِيلِ الْوَدَاعِ . وَلَنْ يَأْتِيَ أَحَدٌ لِمُسَاعَدَةِ أَحَدٍ .

٤

اللُّغَةُ هِيَ وَعَاءُ الْأَحْلَامِ ، وَمَخْزَنُ الدَّكْرِياتِ ، وَمُسْتَوْدَعُ الْأَسْرَارِ . وَلَنْ تَقُومَ قَائِمَةٌ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا إِذَا بَنَى وَجُودَهُ عَلَى اللُّغَةِ . وَالْقُوَّةُ الرِّمَازِيَّةُ فِي اللُّغَةِ هِيَ شَرْعِيَّةُ الْوُجُودِ الْإِنْسَانِيِّ فَرْدِيًّا وَجَمَاعِيًّا . وَكُلَّمَا تَعَامَلْنَا مَعَ اللُّغَةِ بِاعْتِبَارِهَا كَيَانًا مَعْرِفِيًّا قَادِرًا عَلَى مَنَحِنَا الْخُلُودَ ، خُلُودَ اللَّحْظَةِ وَخُلُودَ الدَّكْرِىِ ، أَذْرَكْنَا أَنَّ الْأَلْفَاظَ وَالْمَعَانِي أَكْبَرُ مِنْ دَائِرَةِ الْخِطَابِ وَوَسَائِلِ الْإِتِّصَالِ .

٥

عِنْدَمَا تَنْتَقِلُ الْأَحْلَامُ الْبَشَرِيَّةُ مِنْ إِطَارِ الْحَتْمِيَّةِ إِلَى فِضَاءِ الْإِحْتِمَالِيَّةِ ، تَنْفَتِحُ الْمَعَانِي الْوُجُودِيَّةُ الْإِنْسَانِيَّةُ عَلَى الْوَعْيِ وَالْوَعْيِ الْمُضَادِّ . وَهَذَا يَضْمَنُ تَكْوِينَ مُعَادَلَةٍ مُتَوَازِنَةٍ مِنَ الْفِكْرِ وَالتَّقْدِيرِ . وَعَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَسْعَى إِلَى مَعْرِفَةِ وَجْهَةِ النَّظَرِ الْمُخَالَفَةِ لِوَجْهَةِ نَظَرِهِ ، لِأَنَّ الْاِكْتِفَاءَ بِوَجْهَةِ النَّظَرِ

الشخصية ، هو تَخَنُّدٌ في زاوية صَيِّقَةٍ ، وَتَقَوُّعٌ في إطار هامشي ، وَغَرَقٌ في فِكْرٍ أُحَادِي مَعزُولٍ عن باقي التَّياراتِ الفِكْريَّةِ . وهذا الأمرُ في غاية الخطورة ، لأنَّه يُوهِمُ الإنسانَ بأنَّه يَمْتَلِكُ الحقيقةَ المُطْلَقَةَ ، ويَحْتَكِرُ الحَقَّ الكامل . وهذا الغرورُ هُوَ مَقْبَرَةُ الإبداعِ ، ونهايةُ الفِكْرِ الإنساني الراقي .

٦

كُلَّمَا وَجَدَ الإنسانُ نَفْسَهُ وَجَدَ الآخرين . وإذا أضاعَ الإنسانُ نَفْسَهُ أضاعَ الآخرين . وهذا يَعْنِي أَنَّ النَّفْسَ الإنسانيَّةَ الشخصيةَ هي المَحْوَرُ المركزي في العلاقات الاجتماعية ، والركيزةُ الأساسيّةُ في الروابط المعرفية . وأيُّةُ عمليةٍ تغيّر في المُجتمع ، ينبغي أن تَنطَلِقَ مِنَ الذاتِ الفرديَّةِ باتجاه الدَّوَاتِ الجَماعيةِ ، لأنَّ الفردَ المُبدِعَ هو صاحبُ المُبادَراتِ ، وهو الذي يَرْمِي الحَجَرَ في الماءِ الراكدِ ، وهو الذي يُعَلِّقُ الجَرَسَ . وَجَرَسُ الإنذارِ قد يُشيعُ الخَوْفَ لفترةٍ زمنيةٍ مُحدَّدةٍ ، وَلَكِنَّهُ وسيلةٌ فَعَّالةٌ لِلحِفاظِ على الحَيَاةِ ، وَضَمَانُ البَقَاءِ في الطُّرُوفِ الصَّعْبَةِ . وهكذا ، يَكُونُ الخَوْفُ سَبِيلًا لِلسَّلامَةِ ، وطريقًا لِلنَّجاةِ ، وطريقَةً لِلخُلُودِ . وَمَنْ خَوَّفَكَ حَتَّى تَلْقَى الأَمْنَ ، أَفْضَلُ مِمَّنْ أَمَّنَكَ حَتَّى تَلْقَى الخَوْفَ . وَمَنْ أَبْكَاكَ بِقَوْلِ الحَقِيقَةِ وَصَدَمَكَ بِالْحَقِّ ، أَفْضَلُ مِمَّنْ أَضْحَكَكَ بِقَوْلِ الأكاذيبِ ، وَأَنعَشَكَ بالوَهْمِ . والوَهْمُ قَاتِلٌ في كُلِّ الأحوالِ ، والسُّمُّ مُمِيتٌ مَهْمَا كَانَ لَدِيدًا .

*

فلسفة الحزن

هل نَعشَقُ الحزنَ أو نَكْرَهُه ؟. كُلُّنا نَهْرُبُ مِنَ الإِجَابَةِ كَمَا نَهْرُبُ مِنَ المَاضِي. المَاضِي لا يَنَامُ ، ولا يَمُوتُ . المَاضِي هو الحَاضِرُ والمُسْتَقْبَلُ . وَمُسْتَقْبَلُ الإنسانِ وَرَأَاهُ . هل الحزنُ شعورٌ أو موقِفٌ فلسفي ؟ . يَنبَغِي أن نُحدِّدَ المفاهيمَ قبل أن نطرحها للنَّقَاشِ . الحزنُ غَايَةٌ بِكُرٍّ غَيْرِ مُكْتَشَفَةٍ ، وَعَلَيْنَا اكْتِشافُها. رُبَّمَا نُنْقَبُ عَنِ الحزنِ لِنَعْرِفَ مَعْنَى الفَرَحِ . والحزنُ يُعَلِّمُنَا أن نُغَيِّرَ زاوِيَةَ الرُّؤْيَةِ باستمرارٍ ، ولا نَطْمِنُ إلى الأفكارِ التي تُصَبِّغُ بهالة القَدَاسَةِ . كثيرٌ مِنَ الحقائقِ والمُسَلِّماتِ في المَاضِي ، صَارَتْ أوهامًا وخُرافاتٍ في الحاضرِ ، لأنَّ الإنسانَ كائنٌ جاهِلٌ مُحَاصِرٌ بَيْنَ الفَرَاغِ العاطفيِّ والفَرَاغِ الاجتماعيِّ ، وَمَحْصُورٌ في نِظامِ استهلاكيٍّ وَخَشِي . وهذا النِّظامُ الاستهلاكيُّ القاتِلُ يَجْعَلُ الإنسانَ ضَيِّقَ الأفقِ ، وقَصِيرَ النظرِ . لقد تَحَوَّلَ الإنسانُ إلى خُرافَةٍ تُدافِعُ عَنِ الخُرافاتِ ، وصَارَ ذَنْبًا يَنْتَظِرُ الوَقْتَ المُناسِبَ لِلانْقِضاضِ على الذَّنَابِ . وهذا سببٌ منطقيٌّ لاندلاعِ الحزنِ في تاريخِ الحضارةِ الإنسانيةِ . ولكنَّ الحضارةَ الإنسانيةَ هي وَهْمٌ قاتِلٌ ، ولُعبَةٌ يَضَعُ الأقوياءُ قوانينَها . والتاريخُ يَكْتِبهُ المُنتَصِرُونَ . إِنَّ الحَضَارَةَ تاريخٌ يُحْتَضَرُ ، والتاريخُ حَضَارَةٌ مُوحِشَةٌ . الحزنُ بُركانٌ خامدٌ ، قد يَثُورُ في آيَةٍ لَحْظَةٍ . وَنَحْنُ نَجْهَلُ ساعةَ ثَوْرانِهِ ، لأنَّنا نَجْهَلُ أَنْفُسَنَا . كانَ عَلَيْنَا أن نُنْقَبَ في ذَوَاتِنَا لاستِخراجِ الحزنِ القديمِ ، ونَقْضِ الغُبارِ عنه ، كي يُضِيءَ طَريقَنا إلى أرواحنا . الأرواحُ مُشَقَّقَةٌ ، والدُّوَلُ تَتَساقَطُ كَطِلاءِ أَظافرِ العرائسِ . نَحْتَاجُ إلى صَدْمَةِ الحزنِ كي نَسْتِيقِظَ مِنْ سُبَاتِنَا الطويلِ . لا فائدةَ مِنَ الجَمالِ إذا كان قائمًا على المِكيَّاجِ ، لأنَّ المِكيَّاجَ عَرَضٌ زائلٌ ، وقِناعٌ سَيَسْقُطُ عاجِلًا أو آجَلًا . والعَرَضُ لا يَدُومُ زَمَانَيْنِ . الجَمالُ الحقيقيُّ هو الجَوْهَرُ ، وَنَحْنُ نَحْتَاجُ إلى مَشاعِرِ الحزنِ كي نَكْتَشِفَ هذا الجَوْهَرَ . وَكُلُّ أُنُوثَةٍ مَحْصُورَةٍ بَيْنَ المِكيَّاجِ والنِّعَاجِ هي وَرْدَةٌ بلاستيكيةٌ ، وَكُلُّ عَلاقَةٍ مَحْصُورَةٍ بَيْنَ كِبَشِ الفِدَاءِ وَنَعِجَةِ الفِدَاءِ هي خَشْبَةٌ مَدْبِجٌ . نَحْنُ في سِباقٍ مَعَ الزَّمَنِ لاكتِشافِ ذَوَاتِنَا . نَحْنُ في سِباقٍ مَعَ أَحراننا لِلتَّنْقِيبِ عَنِ قُلُوبِنَا داخلَ أنقاضِ قُلُوبِنَا . ولكنَّ ما الفائدةُ مِنَ اكْتِشافِ الإنسانِ لِدَواتِهِ ؟ . لا بُدَّ مِنَ مَعْرِفَةِ الذَّاتِ في الطَريقِ إلى المَرَايا . الذَّاتُ هي استِعادَةُ الأحلامِ المَكبُوتَةِ ، واستِرجاعُ الحِكاياَتِ المُهَمَّشَةِ ، وتَأويلُ الذِّكْرِيَّاتِ المُنْسِيَّةِ ، سَنَمُشِي إلى الصَّوءِ في نِهايةِ النَّفَقِ . وَقَدْ يَكُونُ هذا الصَّوءُ هو لَمَعانُ شَهِيدِ القَبْرِ . لا شَيْءٌ مَضْمُونًا في مُدُنِ السَّرابِ . لا تاريخٌ لِلْمَرَايا سِوى سُقُوطِ الأَقْعةِ . إِنَّ المِرْأَةَ هي الاختِراعُ الأشَدُّ خُطُورَةً في تاريخِ الوُجُودِ الإنسانيِّ .

قَدْ يَكُونُ الْحُبُّ هُوَ الطَّعْنَةُ الْمَسْمُومَةُ ، وَقَدْ تَكُونُ زُجَاجَةُ الْعِطْرِ هِيَ قَارُورَةُ السُّمِّ . وَقَدْ يَأْتِي الْمَوْتُ مِنْ أَزْهَارِ الرَّبِيعِ . وَقَدْ تُحْرِقُ قُلُوبُنَا الْأَخْضَرُ وَالْيَاسَ ، وَتَحْتَرِقُ فِي أَحْلَامِ لَيْلِي الْخَرِيفِ . وَقَدْ يَنْقَلِبُ الرَّبِيعُ عَلَى الْقَطِيعِ، وَيَنْقَلِبُ السَّحَرُ عَلَى السَّاحِرِ . لَا شَيْءٌ مَضْمُونًا فِي مَمَالِكِ الصَّبَابِ . هَلِ الْخُزْنُ غُنْصُرُ أَصِيلٍ فِي الْكِتَابِ الْإِنْسَانِيِّ أَوْ غُنْصُرُ دُخِيلٍ ؟ . هَلِ يَسْتَطِيعُ الْأَغْرَابُ تَحْدِيدَ الْعُنَاصِرِ الْأَصِيلَةِ وَاللَّدْخِيلَةِ ؟ . نَخَافُ أَنْ نَنْظُرَ إِلَى الْمَرَايَا ، وَإِذَا نَظَرْنَا نَكْتَشِفُ كَمْ نَحْنُ أَغْرَابٌ عَنْ دَوَاتِنَا ، وَغُرَبَاءُ فِي تَارِيخِنَا . نَهْرُبُ مِنَ الْمَاضِي ، لَكِنَّ الْمَاضِي هُوَ الْحَاضِرُ وَالْمُسْتَقْبَلُ . الْمَاضِي لَا يَمُضِي ، وَاللَّيْلُ لَا يَنَامُ ، وَالْإِنْسَانُ لَا يَمُوتُ . نَحْنُ نَحَاصِرُ أَنْفُسَنَا بِأَنْفُسِنَا ، وَنَمْشِي إِلَى حَافَةِ الْهَاطِيَةِ ضَاحِكِينَ ، كَأَنَّا تَحْتَ تَأْثِيرِ التَّنْوِيمِ الْمَغْنَطِيسِيِّ . مَاتَ الرَّاعِي ، وَمَاتَ الْقَطِيعُ ، وَاخْتَفَى أَنْبُؤُ النَّائِي إِلَى الْأَبَدِ .

الْخُزْنُ فَلَسَفَةٌ مُتَكَامِلَةٌ ، وَنِظَامٌ فَلَسَفِيٌّ يُؤَلَّدُ فِينَا لِيُطَهَّرَنَا ، وَتُولَدُ فِيهِ كَيْ نَرَى وَجُوهَنَا خَارِجَ سُلْطَةِ الْأَقْنَعَةِ . وَهَذَا النِّظَامُ الْفَلَسَفِيُّ يَصْنَعُ فَلَسَفَةَ الْأَلَمِ . وَالْأَلَمُ ذَاكِرَةُ التَّطَهُّرِ ، وَأَبْجَدِيَّةُ التَّطَهُّرِ ، وَكَيْنُونَةُ التَّحَرُّرِ ، وَهُوِيَّةُ التَّحْرِيرِ . وَإِذَا تَكَرَّسَ الْأَلَمُ وَاقِعًا مَلْمُوسًا ، سَيَتَحَوَّلُ إِلَى نَدَمٍ ، وَالنَّدَمُ هُوَ الرُّكْنُ الْأَعْظَمُ فِي التَّوْبَةِ .

كَيْفَ يُولَدُ الْخُزْنُ ؟ . إِنَّهُ كَامِنٌ فِينَا . إِنَّهُ الذَّهَبُ بَيْنَ أَجْزَاءِ التُّرَابِ فِي الْمَنَاجِمِ الْوَاقِعَةِ تَحْتَ الْأَرْضِ . وَنَحْنُ الْعُمَالُ الْفُقَرَاءُ الَّذِينَ نُنْقَبُ فِي الْمَنَاجِمِ . نَعِيشُ تَحْتَ الْأَرْضِ ، وَنَمُوتُ تَحْتَ الْأَرْضِ . وَلَدُنَا فِي الْمَقْبَرَةِ ، وَنَمُوتُ فِي الْمَقْبَرَةِ . لِلْأَغْرَابِ الثَّرْوَةُ وَالْمَجْدُ وَالتَّارِيخُ ، وَلَنَا الْخِزْيُ وَالْعَارُ وَالسَّيْئَانُ . لَا أَحَدٌ يَسْأَلُ عَنَّا فِي حَيَاتِنَا ، وَلَا أَحَدٌ يَتَذَكَّرُ وَجُوهَنَا بَعْدَ مَوْتِنَا .

نَذْهَبُ إِلَى الْمَعَارِكِ ، وَقَدْ لَا نَعُودُ . وَإِذَا عُدْنَا ، لَا نَعُودُ كَمَا كُنَّا . كُلُّ شَيْءٍ فِينَا يَتَغَيَّرُ . كُنْ أَنْتَ كَمَا أَنْتَ . الصِّيَّادُونَ نَزَعُوا جُلُودَهُمْ ، وَلَبَسُوا جُلُودَ الْحَيَوَانَاتِ الَّتِي اصْطَادُوهَا . خَلَعْنَا وَجُوهَنَا ، وَارْتَدَيْنَا الْأَقْنَعَةَ . الْأَقْنَعَةُ تُرِيحُنَا ، لِأَنَّهَا تُخْفِي حَقِيقَتَنَا . الْحَقِيقَةُ دَائِمًا صَادِمَةٌ وَمُرَّةٌ . وَالْمَرَايَا جَارِحَةٌ كَمَخَالِبِ الصُّقُورِ . نَحْنُ الْوَهْمُ ، نُقَاتِلُ عَدُوًّا وَهْمِيًّا ، وَنَفْرَحُ بِالْإِنْتِصَارِ عَلَيْهِ . وَفِي الْحَقِيقَةِ ، إِنَّ الْوَهْمَ انْتَصَرَ عَلَيْنَا ، فَصَارَ الْخَيَالُ وَاقِعًا جَدِيدًا لَنَا . أَجْدَادُنَا صَنَعُوا الْإِنْتِصَارَاتِ ، وَنَحْنُ أَبْنَاءُ الْهَزَائِمِ، وَرَثْنَا انْكَسَارَاتِ آبَائِنَا، وَضَعْنَا بَيْنَ صَدَأِ الْمُسَدَّسَاتِ وَانْتِظَارِ الْمُعْجَزَاتِ . لَا تَارِيخَ لَنَا إِلَّا الْمَاضِي . وَلَا إِنْجَازَاتَ لَنَا إِلَّا مَا حَقَّقَهُ أَجْدَادُنَا . نَحْنُ مَهْزُومُونَ ، وَأَعْلَامُنَا مُنْكَسَةٌ ، لِذَلِكَ نَحْنُ نَرْفَعُ عِظَامَ أَجْدَادِنَا أَعْلَامًا فِي الدُّوْنِيَّاتِ اللَّقِيطَةِ الَّتِي تَرْفَعُ لُحُومَ النِّسَاءِ أَعْلَامًا . وَالْبَدْوُ الرَّحْلُ مَشْغُولُونَ بِخُرُوبِ الْقَبَائِلِ الَّتِي نَسِيَتْ رَايَاتِهَا بَيْنَ فَسَاتَيْنِ الرَّفَافِ وَثِيَابِ الْحِدَادِ .

كُلُّ شُعُورٍ إنساني إذا تَحَوَّلَ إلى مَوْقِفٍ فِكْري ، صارَ فِلْسَفَةً . والحُزْنُ إذا انتقلَ مِن طَوْرِ الشُّعُورِ إلى طَوْرِ المَعْنى ، صارَ فِلْسَفَةً . أنا ضِدُّ الحُزْنِ حِينَ يَتَحَوَّلُ إلى مَحْرَقَةٍ ، فَعِنْدَئِذٍ ، سَنَقْضِي وَفْتَنَا في البَحْثِ عن كَبْشِ المَحْرَقَةِ . فَلَئِكنَّ الحُزْنَ هُوَ المَاءُ المُقَطَّرُ . قَدْ لا نَسْتَسِيغُ مَذَاقَهُ ، لَكِنَّ وُجُودَهُ ضَرُورِي في حَيَاتِنَا . وَلِئِكنَّ الحُزْنَ سِلَاحًا في مُوَاجَهَةِ الوُخُوشِ السَّاكِنَةِ في أعْمَاقِنَا . وَلِئِكنَّ الحُزْنَ خُطَّةً لِأَحْيَاءِ الأشياءِ التي مَاتَتْ فِينَا . هَكَذَا ، يَتَحَوَّلُ الحُزْنَ مِنَ الوَهْمِ إلى المَعْنى ، وَمِن رَدَّةِ الفِعْلِ إلى الفِعْلِ ، وَمِن زِنَانَةِ الضَّحِيَّةِ إلى فِضَاءِ الأَبْجَدِيَةِ .

يَنْبَغِي تَحْوِيلُ الحُزْنِ إلى قُوَّةٍ دَافِعَةٍ لِلإِبْدَاعِ ، كَمَا يَنْبَغِي أَنْ يَدْفَعَنَا المَوْتُ إلى اسْتِثْمَارِ كُلِّ لَحْظَةٍ في الحَيَاةِ . الحُزْنَ هُوَ المَعْنى التَّكْوِينِي الذي يَصْنَعُ إِرَادَةَ القَوِيِّ . وَالْقَوِيُّ قَوِيٌّ بِذَاتِهِ ، يَصْنَعُ طُرُوفَهُ بِنَفْسِهِ . لا يَنْتَظِرُ الآخَرِينَ كِي يَضْعُفُوا أَوْ يَنْهَارُوا ، وَيَنْبِي مَجْدَهُ على انْكَسَارِهِمْ ، وَإِنَّمَا يَكُونُ عِمْلًا قَاهِرًا لِلْعَمَالِقَةِ ، وَلَيْسَ عِمْلًا قَائِمًا بَيْنَ أَقْرَامِ . وَالْقَوِيُّ لا يَنْتَظِرُ أَحَدًا كِي يُسَاعِدَهُ وَيَمُدُّ لَهُ يَدَ العَوْنِ ، ولا يَتَوَقَّعُ شَيْئًا مِن أَحَدٍ ، ولا يُعَوِّلُ على أَحَدٍ . يَمْشِي في طَرِيقِهِ ولا يَلْتَفِتُ ، لِأَنَّهُ يَعْرِفُ مَسَارَهُ وَمَصِيرَهُ . إِنَّهُ يَعْرِفُ نَقْطَةَ البِدَايَةِ ونُقْطَةَ النِّهَايَةِ . يُقَاتِلُ مِن أَجْلِ كُلِّ شَيْءٍ ، ولا يَتَوَقَّعُ أَيَّ شَيْءٍ . والوَاقِعُ لا يَسِيرُ مَعَ التِّيَّارِ ، بَلْ يَكُونُ هُوَ التِّيَّارَ .

قَدْ يَكُونُ الإنسانُ حَزِينًا ، ولا يَعْرِفُ أَنَّهُ حَزِينٌ . هُنَا تَتَجَلَّى مُتْعَةُ الاكْتِشَافِ ، وَتَتَضَحُّ أَهْمِيَّةُ العُنُورِ على المُدْهَشِ في العَنَاصِرِ اليَوْمِيَّةِ المَيِّتَةِ . كَيْفَ نَعُثِرُ على مَعْنَى النِّظَامِ في فَوْضَى الاستِهْلَاكِ وَجُنُونِ العَنَاصِرِ المَادِيَةِ العَمِيَاءِ ؟ . يَنْبَغِي التَّسَلُّحُ بِالْحُزْنِ الذي يَشْعُ في طُلُمَاتِ قُلُوبِنَا . الحُزْنَ هُوَ بَرِيقُ الفَاسِ التي تُعِيدُ تَرْتِيبَ أَشْجَارِ المَقْبَرَةِ . وَكَمَا تَنْبَعثُ طَاقَةُ هَائِلَةٍ مِن انْشِطَارِ الدَّرَّةِ الصَّغِيرَةِ ، سَيَنْبَعثُ مَعْنَى الحَيَاةِ مِن انْشِطَارِ قُلُوبِنَا الصَّغِيرَةِ . هَذَا القَلْبُ الصَّغِيرُ الذي يَضُخُّ الدَّمَاءَ في أُنْحَاءِ الجَسَدِ ، يَمْتَلِئُ بِالْحُزْنِ والمَوْتِ ، لَكِنَّهُ يَبْثُ الفَرَحَ والحَيَاةَ في الجَسَدِ . والجَسَدُ هُوَ العَالَمُ الصَّغِيرُ الذي يُلَخِّصُ تَفَاصِيلَ العَالَمِ الكَبِيرِ ، الذي نَعِيشُ فِيهِ ، وَنَمُوتُ فِيهِ . وَسَوْفَ تُضِيءُ الشُّمُوعُ فِرَاشَ المَوْتِ في لَيَالِي الوَدَاعِ البَارِدَةِ .

*

الانتحار التدريجي في ممالك الخديعة

١

انتحار المعنى هو الخطر الأكبر على هوية الإنسان اللغوية وطبيعتها الرمزية . وإذا مات المعنى في حياة الإنسان ، اختفت الألفاظ من لغته ، وصار ظلاً باهتاً للذكريات القديمة والأحاسيس الميتة . ولا يمكن للمعنى أن يتكرس ويتفجر وتنبعث شظاياه في آفاق الروح ، إلا إذا نشأ في بيئة معرفية قائمة على الاتزان العقلي والتوازن الروحي .

٢

عندما يتداخل الشك مع مشاعر الإنسان في حياته اليومية ، تتحول أحلامه إلى أوهام قاتلة ، وتصير حياته كابوساً ، ويخسر السلام الروحي الذي ينتشر في تفاصيل وجوده ، ويفقد المصالحة الداخلية في أنحاء جسمه ، لأنه سيقضي وقته في السؤال عن موعد إفاقة من هذا الكابوس . وكل سؤال عن أمر مستقبلي يحمل معنى الانتظار ، والانتظار دائماً صعب ، لأنه يحرق الأعصاب ، ويتلاعب بعواطف الإنسان وجزئيات حياته . وعندئذ ، يصبح الإنسان كالسنبلة التي تنتظر موعد الحصاد . وهنا تبرز المفارقة المؤلمة ، إذ إن حصاد السنبلة مؤت لها ، وحياة الآخرين .

٣

الإنسان الذي يختار الغزلة ، ويعيش وحيداً ، لا بد أنه وقع في حب نفسه ، وسقط في غرامها ، فتزوجها . وحين يتزوج الإنسان نفسه ، يخسر ثقته بالآخرين ، ولا يثق إلا بنفسه . تتغير نظرتة إلى الأشياء ، ويفكر بالكلام بين السطور ، ويحلل الكلام الذي لم يقل ، ويسبح في تعابير وجوه الناس كي يفك شيفرتها ، ويترجم الصمت المؤلم إلى أبجدية منطوقة وحالمة . وهكذا ، تتداخل الأحلام مع الواقع ، ولن يتمكن الإنسان من السيطرة على التشظي والانبعاث ، إلا بامساك العصا من المنتصف ، وإحداث نوع من التوازن بين المعنوي والمادي . مما يعني بالضرورة ولادة حياة جديدة في عقل الإنسان ومشاعره وتصوراتة . وهذه الحياة الجديدة سوف تسير جنباً إلى جنب مع حياته الأصلية . وكل إنسان له ولادتان ، ولادة مفروضة عليه ، لا شأن له بها ، وولادة هو يصنعها ويختارها . الولادة الأولى هي الولادة البيولوجية المتعلقة بوجود الجسد ، والولادة الثانية هي الولادة الفكرية المتعلقة بانبعاث الحلم .

٤

هل يُفكّر حارسُ المقبرة بنوع الأزهار على القبور ؟ . هل هي أزهار طبيعية أم صناعية ؟ .
الأزهارُ الطبيعية تَحْمِلُ معنى الحياة وقيمة الماء الذي سقاها ، والأزهارُ الصناعيّة تَحْمِلُ معنى
المادة الخام ومهارة الصانع الذي كوّنَها . ورغم مشاعر الوداع ، وأحاسيس الحزن ، وذكرىات
الرحيل ، واحتراق القلوب ، إلا أن الموت لا يُفرّق بين الأزهار الطبيعية والأزهار الصناعية ، ولا
يُميّز بين القبور الكِلسية والقبور الرُخامية .

٥

الحَدّ الفاصل بين القلوب والذكرىات هو مُجرّد لحظة زمنية ، ولقطة عابرة في امتداد المكان .
والزمنُ الحقيقي هو امتداد المشاعر في جسد الإنسان ، وَلَيْسَ حركةً فيزيائية لعقارب الساعة .
والمكانُ الحقيقي هو ظلال القلوب على أفكار الإنسان، وَلَيْسَ بُقْعَةً جُغرافية من التُّرابِ والحجارة.

٦

في أحيانٍ كثيرة يُكونُ هُدوءُ الإنسان مُحاولَةً للتغطية على العاصفة العنيفة التي تَضْرِبُ قَلْبَهُ ،
وَمُحاولَةً لإخفاء الضجيج المُرعب الذي ينتشر في داخله . وكأنَّ الإنسانَ في سِباق مع الزمن
لترميم ذاته المكسورة ، وَجَمْع شظايا رُوحه ، وتضميد جراح قَلْبِهِ . إِنَّ الإنسانَ كَيانٍ نازف ،
يَتَوَارى عن الأنظار في غابات الذاكرة ، في مُحاولَة مصيرية لإيقاف نزيفه ، فَإِنَّ نَجَحَ في ذلك ،
صَارَ أقوى وأكثرَ صلابَةً، لأنَّ الصَّرْبَةَ التي لا تَقْتُلُ الإنسانَ تُحْيِيهِ وتزِيدُه قُوَّةً، وإنْ فَشِلَ في ذلك،
ماتَ كالفريسة التي أصابها الصيَّادُ في مَقْتَل. والأحياءُ وَخَدَهُم يَقْفُونَ أمام العواصف ، وَيَقْرَضُونَ
أسماءَهُم على التاريخ ، أمّا الأمواتُ فلا مكانَ لهم تحت الشمس ، والنَّسِيانُ سَوْفَ يَطْوِيهِمْ ، كما
تَطْوِي الزَّوابعُ أوراقَ الخريف بلا ذاكرةٍ ولا ذِكْرىات .

*

البحث عن منبع نهر الحياة

١

لا مفر من المغامرة المحسوبة في الحياة ، لأن مفهوم المغامرة يشتمل على روح المبادرة والانطلاق واقتناص الفرص التي قد لا تتكرر . والفرصة مثل القطار ، إذا جاء الشخص إلى المحطة في الموعد المناسب ، فسوف يركب القطار الذي يوصله إلى هدفه ، أما إذا تأخر عن الموعد ، فسوف يفوته القطار ، ويظل الشخص جالساً على أحد مقاعد المحطة ، وحيداً حزيباً بائساً ، يعرض أصابه ندماً ، ويتحسر على ذهاب القطار ، وضياع فرصة ركوبه . سوف يندم حين لا ينفع الندم ، ولا مجال للتعويض ، ولا تدارك ما فات . والأساس الفكري لاقتناص الفرص يقوم على التمييز بين المغامرة والمقامرة . المغامرة لحظة مدروسة ومحسوبة تركز على الشجاعة والإقدام والجسارة ، أما المقامرة فهي لحظة جنونية انفعالية ارتجالية ، تعتمد على الطيش والتهور والعصية وفورة الدم .

٢

من المستحيل أن تتضح الصورة ، إلا إذا اجتمعت زوايا الرؤية في بؤرة مركزية واحدة . وهذا يتحقق بالنظر إلى القضية من جميع الجوانب ، والوصول إلى نقطة ما في المنتصف ، تمثل الحل السخري الأكثر نجاعةً وفعالية . وتعدُّ زوايا الرؤية دليل واضح على التحكم بالموقف ، والسيطرة على جميع الاحتمالات ، وتحييد عنصر المفاجأة القاتل .

٣

السلام الداخلي والمصالحة مع الذات ، هما الركنان الأساسيان لتشييد الطبيعة الإنسانية كبنية رمزية عابرة للزمان والمكان . ولا يمكن للإنسان أن يجد السعادة في العناصر المحيطة به ، إلا إذا وجدها في نفسه أولاً . والإنسان إذا تخندق في ثنائية (اللحم والدم) ، وغرق في طينته ، دون أي اعتبار لأشواقه الروحية ، وفكره الإبداعي ، ورمزية وجوده ، فإنه سيتحوّل إلى شيء مادي في موضع العرض والشراء ، تماماً كالسلع والبضائع . والقوة الحقيقية للإنسان لا تكمن في جسده الذي سيصبح طعاماً للدود المقابر ، وإنما تكمن في طبيعته الفكرية ولغته الرمزية القادرة على الانطلاق في الفضاء بلا حدود ولا حواجز ، والقادرة على صناعة الأمل والغد المشرق ، وانتشال الناس من الوهم ، وزراعتهم في قلب الحقيقة . إن الفكر الخلاق القائم على اللغة المتدفقة هو

العنصر الدائم الذي ينطلق في الفضاء، وينتقل عبر الحَقَب الزمنية. وما عدا ذلك فهو زائل وفانٍ ،
وَكُلُّ مَا فوق التُّراب تُراب .

٤

قد ينجح الإنسان في الهروب من سُلطة الألفاظ، لكنه لا يَقْدِر أن يَهْرَب من سُلطة المعنى .
لأن الألفاظ واقعة تحت اختيار الإنسان ، فهو يَخْتار منها ما يشاء ، ويرفض ما يشاء . أمَّا المعنى
فهو عنصر فِكْري يَفْتَحِم عَقْلَ الإنسان وَوَجْدَانَهُ دُون مَوْعِد مُسَبِّقٍ أَوْ خُطَّةٍ جاهزة . إِنَّ المعنى
يُهاجِم كَيَانَ الإنسان ، وَيَقْتَحِم عَالَمَهُ ، وَيُحَاصِرُهُ من كل النواحي ، وإذا استسلمَ الإنسان للمعنى
واعتنقه ، سيبحث عن الألفاظ التي تُعَبِّر عن هذا المعنى ، وتُخْرِجُهُ مِنَ الفِكْرة الهَلَامِيَّة السابحة
في الذَّهْن إلى حَيَازِ الوجود المادي المحسوس .

٥

إنَّ احترامَ الإنسان لِنَفْسِهِ هو حَجَرُ الزاوية في العلاقات الاجتماعية والروابط الوجدانية .
والإنسان في بحثه عن جدوى حياته ومَغْزَى وجوده، ينبغي أن ينطلق من الذات إلى الآخر، ومن
الداخل إلى الخارج ، ومن الجزء إلى الكلِّ ، ومن الأصل إلى الفرع . وَمَنْبَعُ النهر هو الذي يُحدِّد
طبيعة روافده . وَكُلُّ نَهْرٍ ينطلق من المَنْبَعِ إلى المَصَبِّ ، وَلَيْسَ العَكْسُ . وَكُلُّ قَلْبٍ يَضْحُ الدَّمُ إلى
الشرابين ، وَلَيْسَ العَكْسُ ، مِمَّا يَعْنِي أَنَّ المَصْدَرَ الذاتي هو الفعل، وَكُلُّ مَا عَدَاهُ هو رَدَّةُ الفعل.
ومن سَيَطَرَ على الأصل ، سَيَطَرَ على الفروع تَلْقَائِيًّا . والسَّيْطَرَةُ على الجذور تَعْنِي السيطرة على
الشجرة . ولا معنى لوجود الأغصان إذا كانت الجذور مُهدَّدة بالخطر . ولا معنى لبريق الأظافر إذا
مات القلب .

*

اِحْذَرُ أَنْ تَمُوتَ قَبْلَ الْمَوْتِ

١

النَّسيانُ هو لُغَةُ الذِّكْرِيَّاتِ السَّرِّيَّةِ التي يَطْمِسُهَا الزَّمَنُ، كما يَطْمِسُ الْقُبُورَ في المدافن القديمة. والنسيانُ هُدْنَةٌ بين الذاكرة والذكريات . إنه استراحة المُحَارِبِ في مدن السراب . ومهما كان المُحَارِبُ قوياً وشجاعاً ، لا بُدَّ أن يَشْعُرَ بالتعب والإرهاق . وفترة الاستراحة تُعْطِي المُحَارِبَ فُرْصَةً ذهبية لإعادة حساباته، وتقييم مواقفه، وبناء تصوُّراته. وبما أن التناقضات تدل على بعضها البعض، وبِضْدِهَا تَتَبَيَّنُ الأشياءُ ، كان النسيان فرصة لإعادة البناء من الذاكرة ، كما أن استراحة المُحَارِبِ فرصة لإعادة التخطيط للحرب .

٢

لا يُمكن أن يجد الإنسانُ نَفْسَهُ إلا إذا استطاعَ أن يتحرَّرَ من سَطْوَةِ الزمان وأَسْرِ المكان . وهذا يستلزم بالضرورة التَّخَلُّصَ من تاريخ الوُهم ، والانعتاق من جُغرافيا الخديعة . وتَحَرُّرُ الإنسانِ من سيطرة العناصر المحيطة به ، يعني حصوله على الحرية المادية . وهذه خطوة أولية ضرورية للحصول على الحرية المعنوية ، أي تحرُّر عقله من المُسَلِّمات الثابتة بِحُكْمِ الاعتيادية والمصلحة وسياسة الأمر الواقع . وهذه المُسَلِّمات الافتراضية لا تَقُومُ على الدليل والحُجَّة والبرهان . وأكبرُ إهانة للعقل البشري أن يَقْبَلَ شيئاً بلا دليل .

٣

ينبغي أن تكون حياة الإنسان رحلةً مستمرة إلى عوالمه الداخلية . وكلما سافرَ إلى قلبه اكتشفَ ماهية الأشياء . وكلما هاجرَ إلى ذكرياته ، أدركَ أبعادَ الزمان . وكلما رحلَ إلى أقاصي مشاعره عرفَ قيمة الوجود . والماءُ الراكد يُصبحُ آسناً ، والدراجةُ إذا توقفت عن الحركة سَقَطَتْ . وهذا يدل على أهمية الحركة المستمرة في كل الاتجاهات . حركة مُنظَّمة وفعَّالة تقوم على الوعي والتخطيط والتطبيق والوصول إلى أبعد نُقْطة ، وليست حركة ارتجالية فَوْضوية ، لأن الحراثة في البحر تحطيم للوقت ، وإضاعة للجُهد .

٤

إِنَّ صَفَاءَ الدِّهْنِ وَنَقَاءَ الْجَسَدِ هُمَا الرُّكْنَانِ اللِّدَانِ تقوم عليهما السُّلْطَةُ الإنسانية المعرفية . وهذه السُّلْطَةُ هي التي تُغْذِّي المشاعرَ وتمدُّها بالوعي المنطقي والبناء الذاتي . والإنسانُ العاجز

عن بناء نَفْسِهِ بِنَفْسِهِ ، يجب عليه أن يُعيد حساباته ، ويُفَتِّش عن نقاط قُوَّتِهِ ونقاط ضِعْفِهِ ، وبيتكر منظومة فلسفية متوازنة بين الفعل ورد الفعل. ولا فائدة من انتظار مساعدة الآخرين، ولا جدوى من البحث عن حلول خارجية. وكُلُّ إنسان عليه أن يقتلع شَوْكِهِ بِيَدَيْهِ، لأنه سيمشي في طريقه وحيداً .

•

كُلُّ شَعْبٍ يخاف من الحرب الأهلية . وكُلُّ إنسان يخشى من القتل والإبادة . ولكن الإنسان لا يُفَكِّر بالحرب الأهلية التي تَحْدُثُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ ، والصَّرَاعِ المرير بين أعصابه وذكرياته ، ولا يُعْطِي أَيْةَ أهمية للمذابح التي تَحْدُثُ في داخله. كَمَ مَرَّةً ذُبِحَ قَلْبُهُ؟. كَمَ مَرَّةً جُرِحَتْ مشاعره؟. كَمَ عدد الأشياء التي ماتت فيه ؟ . كَمَ عدد الأحلام التي انكسرت في أعماقه ؟ . إِنَّ المَوْتَ قادمٌ لا مَحَالَةَ ، ولكنْ هُنَاكَ مَوْتًا قبل المَوْتَ، وهُنَاكَ مَوْتَ في الحياة. وكثير من الأموات يسرون بيننا ، ويتحرَّكون في كل الاتجاهات . وهؤلاء أمامهم خِيَارَانِ لا ثالث لهما : إمَّا أن يجدوا شخصًا يُعيدهم إلى الحياة ، ويُشعل قلوبهم التي انطفأت وضاعت في زحام الأحداث وضجيج الأيام ، ويُعيد الأشياء التي ماتت فيهم إلى الحياة والإشراق ، أو يجدوا شخصًا يدفِنهم في الأحزان القديمة ، والذكريات التي ذَهَبَتْ وَلَنْ تَعُودَ . ولا تُوجد منطقة وَسْطَى بين الحياة والموت ، ولا معنى للخلول الوَسْط بين الوجود والعدم .

*

قانون الذاكرة وذاكرة القانون

١

عندما يجد الإنسان الأبعاد الرمزية لهويته اللغوية ، سيرى الأشياء بعيون جديدة ، ويُعيد ابتكار المعاني المدهشة ، لأن الاعتيادية قاتلة ، وتؤدي إلى موت الذكريات ، وتبليد الأحاسيس ، وانتحار الشغف ، وفقدان الدهشة . والتعود على رؤية الأشياء يمنع الإنسان من الوصول إلى حقيقتها ، لأن حقيقة الأشياء تُرى بالقلب (البصيرة) ، أما ظاهر الأشياء فيرى بالعين (البصر) . والتعود حاجز بين قوة البصيرة وجوهر الأشياء .

٢

الحزن اختبار الذكريات البعيدة ، وامتحان الحاضر القاسي ، وفحص المستقبل المجهول . وعندما يحزن الإنسان ، فإنه يُعيد اختراع جغرافيا حياته السرية ، ويتكر زمنًا جديدًا لأحلامه السحيقة ، ويكون طقوسًا خاصة لآماله المحصورة بين أبجدية الألم وقسوة الذاكرة . ولن تتحرر المنظومة الفلسفية المحيطة بالحزن من ضغط الزمان وسطوة المكان ، إلا بانقلاب الذاكرة على الذكريات ، وتحرر الذكريات من عناصر الاستبداد الزمكاني (الزماني - المكاني) . وانقلاب الذاكرة وتحرر الذكريات وجهان لعملة واحدة اسمها البصيرة .

٣

ثروة الإنسان الحقيقية تتجلى في قدرته على التحلي ، وليس الامتلاك . وثروة الإنسان الحقيقية تتجلى في قدرته على التنظيم ، وليس القوضى . والثروة والثورة فكرتان مركبتان ، تفقدان مصالحةً بين الإنسان وإنسانيته ، وتعيدان السلام الداخلي للكيان الإنساني القائم على العناصر الروحية والمادية . والإنسان كيان واحد ، له جوانب متعددة ، تمامًا كالمرآة الواحدة التي تعكس أطيافًا كثيرة وظلالًا متعددة . وكل نهر مهما تعددت روافده له منبع واحد ، وكل شجرة مهما تعددت أغصانها لها جذر واحد . والإنسان يمتلك شرايين دموية كثيرة ، لكن الأصل واحد ، وهو القلب الذي يضخ الدم في الجسم . والمنظومة المعرفية التي تتكون من واحدة المصدر وتعدد الفروع ، تجعل الفصل بين المظهر والجوهر مستحيلًا ، فلكل جوهر مظهر يدل عليه . وكل مضمون له شكل يُشير إليه .

سوف تولد لغة معرفية جديدة، وتنبعث أبجدية فكرية وهاجة ، عندما نكتشف العلاقة الرمزية بين الرسالة وطابع البريد . وهذا التلازم بين الشكل والمضمون قائم على عنصر المفاجأة ، وجاذبية الغموض ، وحب الفضول. وطابع البريد يظل ملتصقا بالرسالة حتى وصولها إلى غايتها ، ولا يتخلى عنها في منتصف الطريق، ولا يتركها تحت أية ظرف . وهذا الالتصاق الاضطراري يدل على أهمية المسار للوصول إلى الهدف ، وأهمية الطريق للوصول إلى الغاية . وكل بداية لا تقوم على أساس سليم ، لن توصل إلى نهاية سعيدة .

القانون في المجتمعات الوهمية هو لعبة الأقوياء ، يُفصلونه على مقاسهم ، ويضعونه للسيطرة على الضعفاء وابتزازهم واستغلالهم . وشيئا فشيئا ، يصبح القانون أغنية وطنية لتخدير الناس ، وشعارا براقا يدل على الديمقراطية ودولة القانون وحقوق الإنسان واحترام المواطن . وهذه المعاني مجرد جبر على ورق ، ومواد قانونية في دستور مهجور لا أحد يقرؤه ، لأن الشعب يلهث وراء رغيف الخبز ، ومتطلبات الحياة اليومية الضاغطة . لذلك ، يقوم المواطن بتسليم عقله ومصيره للسياسيين كي يرتاح من عبء التفكير وثقل السياسة ، ويتفرغ لتحصيل قوت يومه .

رحلة الإنسان إلى أعماقه السحيقة

١

أحياناً ، يتعلق الإنسان بامرأة ، ليس لأنه يحبها ، بل لأنها تُذكّره بامرأة كان يحبها . وهذا الغرق في الذكريات يُمثّل استسلاماً للماضي ، وعودةً إلى العمق التاريخي للأحزان الدفينة والآمال الضائعة . ولا بُد من انقلاب الذاكرة على الذكريات ، وتحول الذكريات إلى فأس تُحطّم جبل الجليد الجاثم على القلب . والهروب إلى الأمام ليس حلاً لمواجهة العواطف الحيّاشة ، والمشاعر المتمردة . والحلّ يكمن في قدرة الإنسان على التحوّل إلى أيقونة لا تُكسر ، وزهرة لا تُسحق تحت الأقدام . وهذا لا يتحقق إلا إذا صار الإنسان رُوحاً للآخرين ، وصوّتاً لمن لا صوت له .

٢

عندما يستمع الإنسان إلى الصرّخات المُنبِهة من أعماقه السحيقة ، سيُدرِك أن الثورة الحقيقية تتجلى في تفجير الطاقة الرمزية في لغة الأحلام ، وعندئذ تصير الأحلام واقعاً مُعاشاً وملموساً . وإذا امتلَكَ الإنسان القدرة على تأويل الأصوات وتفسير الألوان ، والسيطرة على دلالتها الرمزية ، سيتوصّل حتماً إلى فك شيفرة أحاسيسه المُختلطة ، ومشاعره المُتداخلة ، لأن عناصر الطبيعة هي مصدر المشاعر الإنسانية ، والإنسان ابن بيئته . ولا يُمكن معرفة مسار حركة النهر إلا من خلال معرفة متبعه لا روافده ، لأن الروافد فروع ، والمُحكّ الحقيقي هو تحديد الأصل . والطبيعة هي أمّ الإنسان ، الذي جاء من التراب ، وسيعود إلى التراب . وهذا يعني أن البداية والنهاية معروفان . ومع هذا ، فالغموض يتّضح في الحياة لا الموت ، لأن الحياة حركة ، والموت سُكون ، والحركة تولّد انفعالات كثيرة ، تتفجّر وتنبعث كالشّظايا . وكلما ازدادت الشّظايا صُعبت السيطرة عليها ، وصار من العسير تحديد أماكنها . أمّا الموت فهو نقطة مركزية واحدة ، مثل الضربة القاضية ، التي تُنهي اللعبة ، وتقضي على الأحاسيس ، وتجتث المشاعر من جذورها .

٣

رحلة الإنسان إلى أعماقه السحيقة هي مسار الحُرّيّة والتحرّر . الحُرّيّة في عالم استهلاكي يقوم على تقديس المادة ونبذ الرُّوح ، والتحرّر من سطوة الذكريات الحزينة التي تتكرّس كوحش كاسر يُطارِد الإنسان ، ويُصادر المعنى من حياته اليومية. واكتشاف الذات هو اكتشاف للعالم. ومن يطمح إلى اكتشاف تفاصيل الحياة ، وهو عاجز عن اكتشاف نفسه التي بين جنبيه ، كمن يُريد اكتشاف سرّ الموت ، وهو عاجز عن معرفة أسرار حياته . وليس كلّ عايش حياً ، وليس كلّ مدفون ميتاً .

طبيعة الحُلُم الإنساني في المجتمع المادي

١

يبدأ الحُلُم الإنساني من حيث انتهى المعنى اللغوي للوجود . وهذه المُعادلة تُكشِف الترابط المصيري بين الحُلُم وماهيّة الوجود ، وتُبيّن العلاقة الحتمية بين مسار الإنسان ومصيره . والإنسان في رحلة بحثه عن ذاته ، سيكتشف أن الحُلُم هو الوجه الحقيقي للحياة ، وما عداه عبارة عن أفنعة زائلة وكوابيس وهمية . وفي هذه الرحلة المُدهِشة ، سوف تتساقط الأفعنة ، وتزول الأعراض المؤقتة ، ليظل الجوهر الحقيقي ، والمعدن النفيس ، الذي لا يطرأ عليه الصدأ ولا الصدى . ويجب على الإنسان أن يكون صوتاً لا صدى ، ويتعد عن المعارك الجانبية في الحياة ، لأن الهامش لا يصنع مجداً ، ولا يَفُود إلى نصر . والتعويل إنما يكون على المركز وإصابة الهدف .

٢

إنّ الحقيقة كالدواء المُر ، لا بُد من شربه ، مهما كان مذاقه ، لأن فيه النفع والفائدة . ومهما كانت الحقيقة صعبة وجارحة وصادمة ، لا بُد من تقبلها واعتاقها ، لأنها هي الواقع الملموس ، المؤثر على حياة الإنسان . والخيار الآخر هو الوهم القاتل ، ومهما كان لذيذاً وناعماً ، فعاقبته وخيمة ، ونتيجته مُدمرة . والإنسان قد يَخُدع الآخرين . وهذه مُصيبة . لكنّ المُصيبة الأكبر أن يَخُدع ذاته ، ويكذب على نفسه ، ويصدق الكذبة .

٣

عندما يُهاجر الإنسان من مادية اللغة إلى رُوح اللغة ، سيُدرك أن الألفاظ والمعاني ليست وسيلة لتوصيل الأفكار فَحَسْب ، بل هي أيضاً منظومة رمزية ، وطاقات معرفية ، وبنية مشاعرية ، وهذه هي الأضلاع الثلاثة في مُثلث الوجود الإنساني . وهذا الوجود ليس محصوراً في الزمان والمكان ، وإنما هو عابر للتاريخ والجغرافيا . وإذا بنى الإنسان حياته في قلب اللغة ، امتلك معنى الخلود ، لأن الكلام باقٍ ، بسبب مصدره الروحي ، أمّا الجسد فمصيره إلى التراب والتحلل والدوبان في عناصر الأرض ، وكل شيء يعود إلى أصله ومصدره ، كما يعود الطفل إلى حضن أمّه .

٤

إذا لم يمتلك الإنسان صَوْتَه الخاص ، سيصبح صدى للآخرين ، وعندئذ سيكتب تاريخ الآخرين لا تاريخه الشخصي . وهذا يعني أنه قضى حياته خادماً لا سيّداً ، ونسي أن يعيش حياته

في ضجيج مصالح الآخرين ، وَلَمْ يَقْدِرْ على اكتشاف وجهه في زحمة الأفتعة ، وَلَمْ يَسْتَطِعْ إيجادَ بَصْمَتِهِ الخاصة في ظِلِّ الصراعات على احتكار المجتمع والسيطرة عليه . والمجتمعُ الإنساني تَحَوَّلَ إلى غابة، مِمَّا كَرَّسَ مَبْدَأَ الصَّدَامِ ، وَعَزَّزَ مفهومَ الصَّرَاعِ . وبالتالي ، ظهر نَوَعان من الصراع: الصراع في الإنسان ، والصراع على الإنسان . وهذا يعني أن الإنسان يخوض حربًا معنوية على جبهتين : الجبهة الداخلية ، حيث يتصارع مع أهوائه ورغباته وأحلامه وأفكاره وهواجسه ، ويُحاول التغلُّبَ عليها ، وتطويعها ، وتحويلها مِن خَيالات هُلامية إلى أحداث واقعية . والجبهة الخارجية ، حيث يتصارع مع العقل الجَمْعِي المُسَيَّس الذي يُحاول السيطرة على الإنسان ، والهيمنة على حياته جُمْلَةً وتفصيلاً ، والتحكُّم بمساره ومصيره ، من أجل تحويل الإنسان إلى شيء استهلاكي وغنصر ضِمن القطيع ، الذي يُساق إلى الذبح _ وقت الحَاجة _ بلا اعتراض ولا شكوى .

*

الإحساس بالذكريات والموت والزمن

١

إنَّ الإحساس بالذكريات لا يَعْنِي العُودَةَ إلى الماضي ، كما أنَّ الإحساس بالموت لا يعني الذهاب إلى الموت . وهذا الفرق بين الإحساس والواقع يَدْفَعُ باتجاه توليد صِيغ جديدة للحياة باعتبارها مرحلة مُؤَقَّتة تنتهي بالموت . وبِعبارة أُخْرَى ، إن الحياة هي الطريق إلى الموت ، والموت هو الضوء في نهاية النَّفَق ، واليقظة بعد النَّوم . وفي ظل هذه المنظومة الفكرية ، تستمد الحياة شرعيتها من الموت ، لأن الحياة امتحان ، والموت نتيجة . والتعويل إنما يكون على النتائج ومآلات الأمور وخواتيمها . وَمَنْ يَضْحَكُ أخيراً يَضْحَكُ كثيراً .

٢

الذكريات سِباق المسافات الطويلة ، والحلقة الواصلة بين أحلام الطفولة وانطفائها . والإنسان لا يَقْدِرُ أن يتخلَّص من طفولته مَهْمَا امْتَدَّ بِهِ العُمُرُ ، لأن الطفولة مغروسة في الذهن ، وثابتة فيه ، كنبوت الأعضاء في الجسم . وأحلام الطفولة قد تَخْبُو وَيَضْعُفُ لمعانها أثناء حياة الإنسان ، ولكنها لا تنطفئ إلا بموته. وهنا تَبْرُزُ ملاحظتان مُتعلِّقتان بالطفولة والموت : الأولى _ إذا كَفَّ الإنسان عن ممارسة طفولته مات . والثانية _ إذا مات الإنسان انطفأت أحلام طفولته . وهكذا يُصْبِحُ العُمُرُ هو المسافة بين لمعان أحلام الطفولة وانطفائها . وهذه المسافة تُحدِّدُ زاوية الرؤية للحياة باعتبارها ظلاً زائلاً ، كظلِّ شجرة منسية في مقبرة قديمة . وكما أنَّ المَوْتَ يَضْرِبُ حياة الإنسان فيُنْهِيها ، كذلك الصاعقة تَضْرِبُ الشجرة فَتَقْسِمُها . وكما أنَّ المَوْتَ يُعْرِِي الإنسان ، ويُجْبِرُهُ على الخروج من الدنيا عارياً، بلا مال ولا سُلْطَة، كذلك الخريف، يُعْرِِي الشجرة ، ويُسْقِطُ أوراقها ، ويجعلها عاريةً بلا ثمر ولا ظل . وهكذا يَزُولُ الظِّلُّ المُؤَقَّت ، ويختفي المجد الوهمي ، لأنه عَرَضٌ لا جَوْهَر ، والعَرَضُ لا يَدُومُ زَمَانَيْنِ .

٣

إذا استطاع الإنسان بناء منظومة فكرية تقوم على الموت والذكريات ، فسوفَ يَتِمَكَّنُ من اكتشاف ماهية الزمن بعيداً عن الآلات والأدوات . وقيمة الزمن لا تتحدَّدُ وَفْقَ الحركة الميكانيكية لعقارب الساعة ، وإنما تتحدَّدُ وَفْقَ الحركة الفكرية للمشاعر والأحاسيس . والإحساس بالزمن هو الذي يُعْطِي الزمنَ شرعيته وماهيته ، لأنَّ الإحساس بالشَّيْء يجعله موجوداً في الذهن ، ومُسَيَّطِراً

على التفكير . وغيابُ الإحساس يُمثّل إزالةً للأشياء ، وطَمَسًا للعناصر المحيطة بالإنسان .
وعندئذ، يسقط الإنسانُ في الفراغ ، ويتحرّك في العدم ، ويفقد القدرةَ على التَّخَيُّل ، ويخسر مُتعةَ
الدهشة والانبهار ، ممّا يُحوّل الإنسانَ إلى رَجُلٍ آليٍّ ذِي وَعْيٍ زائفٍ ، ومشاعرٍ ميكانيكيةٍ ، مَيّتٍ
في الحياة ، لا يَحُسُّ بها ، ولا يَشْعُرُ بِوُجُوده .

*

الرُّوحُ فِي الجَسَدِ والذِّكْرِيَّاتِ

إنَّ أهمية اللغة تكمن في قُدْرَتِها على جمع شظايا المعاني الرمزية التي تتفجّر في الحروف والكلمات . وهذه القُدرة اللغوية الذاتية لها دلالات فكرية وأشكال اجتماعية . وكلما اقترب الفكرُ الذهني من بُنية المجتمع الواقعية ، اقتربت الرموزُ اللغوية من العلاقات الاجتماعية المُعاشة . أي إنَّ الرموز تأخذ أشكالاً اجتماعية واقعية ، وتُصبح على تَماس مباشر بحياة الإنسان القائمة على التفاصيل والمشاعر والأحداث اليومية .

وكلُّ إنسان يعيش حَيَاتَيْنِ معاً: حياة في جِسْمه (الحياة الداخلية)، وحياة في مُجتمعه (الحياة الخارجية) . وعليه أن يجد القواسم المشتركة بين هَاتَيْنِ الحَيَاتَيْنِ ، كي يُحافظ على التوازن بين الأشياء ، ويَحْمِي نَفْسَه من فقدان المشاعر والأحاسيس . وهاتان الحَيَاتَانِ تَسيران جَنباً إلى جَنبٍ ، وتوازبان جِئاً ، وتتقاطعان جِئاً آخر . ولا يُمكن السيطرة عليهما إلا بإيجاد فلسفة (التَّزَامُن / التَّعاقُب) ، وتحديد مدى تغلغلها في النسق الحياتي والفكر الذهني .

والتزامُن هو حُدُوث العلاقات الاجتماعية في نَفْسِ اللحظة ، أمّا التعاقب فهو حدوث العلاقات الاجتماعية علاقةً بَعْدَ أُخْرَى . وهذه المنظومة الفلسفية (التزامن / التعاقب) في غاية الأهمية ، لأنها تكشف طبيعة العلاقات الاجتماعية ، وتُميّر الوجوه من الأَقنعة ، وتُفَرِّق بين المشاعر الحقيقة والمشاعر المصلحية . والإنسان كائن مُحايد ، وَخَيَالُه سابقٌ على جَوْهَرِه ، وَمَاهِيَّتُه سابقةٌ على وُجُودِه . وما يُحدّد جوهرَ الإنسان هو علاقاته بِنَفْسِه والناس والبيئة والطبيعة . ووفق هذه العلاقات ، تتحدّد شخصية الإنسانية ، وتشكّل منظومته القِيَمِيَّة ، وتتكوّن صفاته وأخلاقه وفلسفته في الحياة ، ويتّضح مَسَارُه ومَصِيرُه ، لأن المسار يكشف طبيعة المصير ، وكلُّ جَوْهَرٍ له مَظْهَرٌ ، وكلُّ مَاهِيَّةٍ لها كِيَان . ولا يُمكن فَصْل المُرْتَكزَات الإنسانية عن سِياقها التاريخي، وطبيعتها الاجتماعية ، ونظامها اللغوي ، وإطارها المشاعري .

وكلما سَيَطَرَ الإنسان على نَفْسِه بكل تناقضاتها وتشابكاتها، سيطرَ على العناصر المحيطة به ، والمنتشرة حَوْلَه ، لأن الذات الإنسانية هي الأساس في عملية ولادة العلاقات الاجتماعية ، وتشكّل الوعي الذهني ، الذي ينعكس على المنظومة الإنسانية بكل تفاصيلها .

وإذا اعتنى الإنسان بِنَفْسِه سيظهر في المِرْآة جميلاً، ولكنه إذا اعتنى بالمرآة ونَسِيَ نَفْسَه ، فَلَن يَتَغَيَّر شيء ، لأن الأصل _ وليس الصورة _ هو أساس القِيَم المعرفية . والعلاقات الاجتماعية

صورة مُعكسة عن الأصل . ومهما كانت الصورة في المِرآة جميلةً وبرّاقة، ستظل صورةً. والإنسانُ الواقف أمام المِرآة هو الأصل، والتَّعويل عليه ، وهو المَصْدَر (المَنْبَع) . وَمَنْبَعُ النهرِ هو الذي يُحدّد اتجاه روافده وطبيعتها . ومهما كان البرواز أنيقًا وغاليًا ، سيظل إطارًا خشبيًا أو بلاستيكيًا ، بلا رُوح ولا جَسَد ، لأنَّ الرُّوح في الجَسَدِ (الشرعية) والذكرياتِ (المشروعية) .



الأركان الثلاثة لتحقيق حلم الإنسان

إنَّ اتجاه العلاقات الاجتماعية في بُنية الشُّعُور الإنساني يتَّخذ عدَّة مسارات ، لأنَّ الإنسان كيان من الشظايا الفكرية والشُّعُورية ، وهو خليط من المشاعر المتضاربة، والأحاسيس المتعارضة. وهذا العالم الداخلي للإنسان محصور في العالم الخارجي القائم على النَّفاق، والعُنف، والرِّياء ، وقانون الغاب ، والمظاهر الخادعة ، والعلاقات الاجتماعية المصلحية . وفي ظل هذه التحديات الجسيمة ، ينبغي على الإنسان أن يجد نَفْسَه ، ثُمَّ يَجِد وَجْهَه الحقيقي ، ثُمَّ يجد صَوْتَه الخاص . وهذه عملية في غاية الصعوبة، لأنها تَفُرض على الإنسان تأسيس منظومة (التَّطَهُّر / التَّطهير) وترسيخ نظام (التَّحَرُّر / التَّحرير) ، في عالمه الداخلي وعالمه الخارجي على السَّواء . والإنسان في سباق مع الزمن لإزالة ألقنته ووجوه الآخرين وأصواتهم من كيانه الشخصي ، كي يَغْدُو شخصاً واحداً مُتصالحاً مع ذاته ، ومُنسجماً مع تاريخه. وهذه الواحدة هي الطهارة الشاملة ، والخُلُم النهائي ، والخلاصُّ الأكيد . ولا يُمكن تحقيقها على أرض الواقع ، إلا بتأسيس الإنسان كبناء معرفي ومشاعري ، بعيداً عن تَقمُّص الآخرين وارتداء وجوههم التي تُصبح ألقنة ذاتية للإنسان معَ مُرور الوقت ، وجزءاً من حياته الشخصية . وكلُّ إنسانٍ هو أكثر من شخص ، وأكثر من وجه ، وأكثر من صَوْت، وأكثر من تاريخ. وكلُّ إنسان لهُ أكثر من شَهَادَة ميلادٍ ، وأكثر من شَهَادَة وَفَاة . وحياة الإنسان هي رحلة البحث عن دَاته وهُوِيَّته ومَاهِيَّته وَكَيْنُونَتِهِ وَسُلْطَتِهِ ، كي يموت شخصاً واحداً ذا وجه واحد وصَوْت واحد ، بلا ألقنة ولا وجوه ولا أصوات . وميلاد الإنسان هو العُدُّ التنازلي لتحقيق حلمه الحياتي الذي يقوم على ثلاثة أركان : ١_ اكتشاف الإنسان لألقنته وتحديدها والتخلُّص منها، لأنَّها أوهام غير حقيقية. ولا فائدة من الأوهام مهما كانت ناعمة ومُريحة. ٢_ اكتشاف وجوه الآخرين المُسيطرَة على وجه الإنسان، والتي تَتَحَكَّم بشخصيته خلف الكواليس (من وراء السُّتار)، والعُثور على وجهه الحقيقي الوحيد، والتخلُّص من باقي الوجوه . ٣_ اكتشاف أصوات الآخرين الموجودة في أعماقه ، والتخلُّص منها ، والتحرُّر من إيقاعها وصداها . وهذه الأركان الثلاثة تُمثِّل التَّطَهُّر من العناصر الدخيلة ، والتَّطَهُّر الشامل لِزُوج الإنسان وجَسَدِهِ ، والضَّمانَة الأكيدة لِكَي يَظَلَّ الإنسان هو القائد والأصل ، وَلَيْسَ تابعاً للآخرين ، وَلَيْسَ نسخة مُقلَّدة . ولا شك أن الإنسان الذي اعتاد أن يكون رأساً ، لا يَسْتَطِيع أن يعيش ذَكَباً . والتَّطَهُّر يُؤدِّي إلى تَحَرُّر الذاكرة من الاغتراب، والتَّطَهُّر يُؤدِّي إلى تحرير الذكريات من الاستلاب.

الزمن والفكر والتاريخ

١

لا يُمكن للإنسان أن يتصالح مع نفسه ، ويصل إلى حالة الونام الداخلي ، إلا إذا أدرك حقيقة نفسه ، وطبيعة ارتباطها بالعلاقات الاجتماعية . والنفس الإنسانية هي رمزية البنية الاجتماعية ، لكن المشكلة تكمن في تشظي هذه الرمزية ، وتناثرها في التفاصيل الحياتية ، بفعل ضغط العناصر المركزية في الواقع المعاش . ووظيفة الإنسان أن يجمع شظايا حياته ، ويُعيد ترتيبها ، من أجل الوصول إلى الأشكال الجمالية المنبثقة عن المجتمع ، ومعرفة القيم الأخلاقية التي تذوب في التفسيرات المادية الاستهلاكية لطبيعة الوجود الإنساني . وهذه المهمة في غاية الصعوبة ، لأن المجتمع ليس كتلة واحدة ، ولا يتحرك ضمن خط أحادي ، ولا يخضع لمعادلة خطية بسيطة . إن المجتمع تيارات مختلفة ، ويتحرك ضمن مسارات متوازية حيناً ، ومُتقاطعة حيناً آخر ، وهو يتكرر مُعادلاته المُعقدة أثناء حركته ، كما يتكرر النهز روافده الجديدة أثناء سيره . والأفراد بشكل عام يتحركون في اتجاه أهوائهم الذاتية ومصالحهم الشخصية . وهذا التشابك الاجتماعي أفقيًا وعموديًا ، يؤسس لأزمة فكرية جديدة ، تضغط على وعي الإنسان ووعيه المُضاد . وهذه المنظومة الثنائية (الوعي / الوعي المُضاد) تحفظ حالة التوازن بين العناصر الأساسية في الواقع الحقيقي والوجود الخيالي .

٢

عندما تنعكس الطبيعة المعرفية للعلاقات الاجتماعية على ماهية اللغة ، تتكاثر الأشكال الرمزية في الألفاظ والمعاني ، ويحدث تداخل بين مراحل الزمن ، حيث يُعاش الماضي في الحاضر ، ويتم حمل الماضي إلى المُستقبل . وفي هذه الحالة المُلتبسة ، لا يعود الماضي ماضيًا . وبعبارة أخرى ، إن الماضي لا يمضي ، وإنما يتقمص أشكالاً حياتية مُعاصرة ، وينبعث من جديد في الفكر الإنساني والسلوك الاجتماعي . ومن يُحاول التخلص من ماضيه ، كمن يُحاول الهرب من ظله ، وخلع جلده . وهذا يستلزم بناء المراحل (الماضي ، الحاضر ، المُستقبل) على قاعدة الفكر لا الزمن ، كما يستلزم إعادة تعريف التراث ، من منظور الطبيعة التواصلية بين الأنا والأنا المُقابلة ، أي : بين صوت الإنسان وصدى أفكاره . والتعامل مع الفكر يؤدي إلى حلول توفيقية لا تُلَفِيقية ، في حين أن التعامل مع الزمن ، يؤدي إلى التعارض بين المراحل والحقب التاريخية ،

لأن التاريخ يقوم على المشاعر والانتماءات الوجدانية ، ويكتبه كُلُّ شخص وفق وجهة نظره ومصلحته الشخصية ، أمّا الفكر فلا مكان فيه للمشاعر ، لأنه يقوم على الدليل ، ومقارعة الحجّة بالحجّة. وإذا كان التاريخ يكتبه المنتصرون الذين يمتلكون منطق القوة ، فإن الفكر يكتبه العلماء الذين يمتلكون قوة المنطق . والتاريخ موجود بفعل العوامل الخارجية الداعمة له ، وضغط العقل الجمعي ، وتبني السلطة الحاكمة له . أمّا الفكر فقوّته ذاتية ، لأن عوامل قوّته كامنة فيه ، وغير مستمدة من الخارج . لذلك، الرأي الصائب يُؤخذ بالحجّة القوية ، وليس بالأغلبية . والفرد _ إذا كان على الحق _ فهو الجماعة والمجتمع والأغلبية الحقيقية . والإنسان _ أولاً وأخيراً _ فكر ، والفكر هو الجوهر الدائم ، أمّا باقي العناصر الإنسانية الثّرائية ، فهي أعراض مؤقتة وزائلة. لذلك ، ليس غريباً أن تنطلق رُوح الإنسان ، ويكوّن جسده طعام الدُّود . وهذا التفاوت الطبقي بين الروح (المحمول) والجسد (الحامل) مرجعه إلى مركزية المعنى الإنساني ، وأهمية الهدف ، واستعلاء المصير على المسار .

٣

الهدية الثمينة تُحمّل في كيس بسيط لا قيمة له ، ولا أحد يعبأ به . وأعلى أنواع البضائع تُحمّل في عربات القطار الحديدية ، ورُبّما أكلها الصّدأ. واللوحه الفنية التي تُباع بالملايين، لا أحد يسأل هل رُسِمَتْ بألوان غالية أو رخيصة . وهذا يعني أن مركزية النتيجة تُعطى على السبب المُوصل إليها ، وسعادة الوصول إلى البيت ، تُنسب للإنسان مُعاناته من عُورة الطريق . والعبرة بكمال النهايات لا بنقص البدايات . وكلُّ شيء جميل ، إذا انتهى بشكل جميل . وهذا يعني أنّ جمال الشيء كامن في وظيفته ودوره ، وليس في ذاته وشكله .

*

مخالفة الزمن الفلسفي باللغة

١

كُلُّ فلسفة لا تتكرّس في قلب اللغة رُوحًا ومادّةً ، ستقع في الفراغ ، وتؤسّس للعدم . ولا يُمكن للأنساق الفلسفية أن تعيش وتنمو وتتكاثر ، إلا إذا ارتمت في أحضان اللغة بشكل إرادي لا قسري . واللغة الحاملة للفلسفة هي وسيلة للتخاطب ، ونظام للرموز ، وعالم من الإشارات ، ومكان لتوليد الأحلام ، وزمان توحيد المراحل ، أي إن اللغة تُوحّد الماضي والحاضر والمستقبل في زمن فلسفي واحد ، يمتد في أعماق الإنسان وتفصيل المجتمع وجزيئات الأحلام ، وهذا دليل على أن اللغة بُنية معرفية قائمة بذاتها ، وكيونة حضارية مُكتفية بنفسها .

٢

لا مكان في الزمن الفلسفي لعملية حرق المراحل ، لأن المراحل وُجدت لتبقى علامات في الطريق ، ومعالم في مسيرة الإنسان . وما يحدث هو ظهور فترات ذهنية عابرة للمراحل ، وهذه القفزات الذهنية تكون على شكل طفرات اجتماعية (تغييرات في تسلسل أنماط الوجود الاجتماعي ، تُؤدّي إلى تكوين أنماط جديدة تمتاز بالقدرة على بعث الدهشة والانبهار) . وهذه التغييرات مفاجئة وصادمة وغير متوقّعة ، لأنها تقوم على الإبداع وصناعة الفعل ، وليس الاتباع وانتظار رد الفعل . والمراحل لا تُعيق انطلاق الفكر ، وإنما تُنظّم حركته ، وتضبط تحركاته ، تمامًا كإشارات المرور التي تُنظّم حركة السيارات ، وتمنع تصادمها . والسيارات تتحرّك وتمضي إلى وجهتها ، في حين أن إشارات المرور تظل ثابتة في مكانها . ومن يُطالب بحرق المراحل لضمان تدفّق الأفكار وانطلاقها نحو المستقبل ، كمن يُطالب بحرق إشارات المرور للسماح بانطلاق السيارات إلى هدفها .

٣

الواقع انعكاس لمحتويات الذهن . والتغيير الاجتماعي على الأرض إنما يبدأ بفكرة ذهنية . والسفينة تُصنّع على اليابسة ، ثم يَتَمُّ إنزالها إلى البحر . وهذا يدل على الارتباط الوثيق بين فلسفة التغيير الواقعية ولغة الذهن المُجرّدة . وإذا استطاعت الفلسفة أن تندمج في اللغة ، وتحوّلها إلى بوتقة لصهر الأحلام الإنسانية ، وتحويل الأفكار المُجرّدة إلى واقع محسوس ، ستصبح — أي الفلسفة — هي التعبير الدقيق عن فاعلية الفرد (قدرته على إحداث تأثير إيجابي) ودافعية المعنى

الاجتماعي (حالة المجتمع التي تُسهّل استجابته للتأثير الإيجابي وُصولاً إلى التّوازن بين الفكر والغريزة) .

٤

بناءً الزمن الفلسفي على لغة الذهن ، يستلزم التفريق بين البنية القصديّة في الفلسفة (قصديّة الفلسفة) والبنية الحدسيّة في اللغة (حدسيّة اللغة) . وهذا التفريق ضروري لتحديد أسبقية العوامل الفكرية ، وترتيبها بشكل منطقي وفّعال ، وتعيين الفعل وردّ الفعل دون الخلط بينهما . وقصديّة الفلسفة هي التّوجّه المركزي في أنساق الشعور الفكري نحو معرفة خصائص الأشياء ، وطبيعة العناصر ، وظواهر المجتمع ، وتحليل جُرباناتها بشكل منطقي مُتسلسل ، للوصول إلى نقاط القوة ونقاط الضعف ، والربط بين العلّة (السبب) والمعلول (النتيجة) . أمّا حدسيّة اللغة فهي انبعاث الشّعور في الداخل الإنساني دون القدرة على تفسيره . وهذا الانبعاث يكون مُفاجئاً ، لأنه يظهر دون ترتيب مُسبق ، ولا تخطيط منطقي . ورغم هذا ، فإن الشعور الإنساني غير المُفسّر هو نوع المعرفة ، وله منطق خاص به . ووظيفة الفلسفة أن تكشف عن هذا المنطق الخاص .

٥

الإنسان يستمتع بِزَقزقة العصافير ، ويشعر بها ، وتُسيطر على حواسّه وأحاسيسه ، ومع هذا فهو عاجز عن تفسير هذه الزَقزقة ، ولا يعرف معناها . ويَطرب لصوت المطر أو هدير أمواج البحر ، ويتفاعل مع تفاصيل الصّوت بكل مشاعره . ورغم هذا ، لا يُقدّر أن يُفسّره ويفهمه . ورُبّما يبكي الإنسان من الفرح ، أو يضحك من الألم (شرّ البليّة ما يضحك) . وهذا الأمر له منطق خاص في حالات مُحدّدة ، ولا يُمكن تعميمه ، ولا أخذه على إطلاقه . وقانون المنطق العام يرفض العلاقة بين البكاء والفرح ، أو الضحك والألم . وفي العقل الجمعي ، يرتبط البكاء بالألم ، والضحك بالفرح . وهذا يُثبت أنّ للمنطق مفهوميّن: خاص (نسبي) وعام (مُطلق) . وإذا استطاعت الفلسفة دراسة الأشكال الاجتماعية المُنبثقة عن هذين المفهوميّن ، سيتجذّر المعنى الفلسفي في المجتمع كلغة رمزية قائمة بذاتها ، وقادرة على كشف الأنساق الفكرية المُستترة في مشاعر الفرد ، وأحاسيس الجماعة ، وعواطف المجتمع . وعندئذ ، تُصبح فلسفة اللغة الكاشفة للأنساق الاجتماعية ، هي لغة الفلسفة التي تُعيد تعريف الفرد والجماعة والمجتمع ، اعتماداً على الجوهر لا الشكل .

تأويل المِغْل الاجتماعي لَعَوِيَّا وَرَمَنِيَّا

١

إنَّ اللغةَ مُجْتَمَعٌ قائم بذاته ، ومنظومةٌ فِكْريةٌ قادرة على المُوازنة بين التصريح والتلميح ، والمُواءمة بين الإشارة والرمز، وتوليد الأفكار الغامضة ، وصناعة المشاعر العميقة . وهذه التراكيب مُجْتَمَعَةٌ تَدْفَعُ باتجاه إعادة تعريف الفعل الاجتماعي في ضَوْءِ اللغة باعتبارها قُوَّةً اجتماعية ، وركيزةً نَفْسِيَّةً ، لأنَّ الفِعلَ الاجتماعي هو ابن اللغة الشرعي ، الذي يَرِثُ أدواتها الرمزية والواقعية . والإشكالية المركزية في حياة الأفراد والجماعات ، تَكْمُنُ في تفسير الفعل الاجتماعي كأداء ميكانيكي ، مُجَرَّدٌ مِنْ رمزيته السَّريَّة وخلفيته الغامضة . وهذا وَهْمٌ قاتل ، نَتَجُّ عن فكرة ساذجة مُفادها أن الإنسان مُجَرَّدٌ كائن يأكل ويشرب ويتكاثر ويموت . وهذه السطحية في التفكير أدَّتْ إلى سُوءِ تأويل الفعل الاجتماعي . مِنَّا انعكسَ سلبًا على حركة الأفكار والمشاعر في أحلام الفرد، وآمال الجماعة ، وطُمُوحات المجتمع . وللخروج من هذا المأزق الصادم ، ينبغي إحداث ثَوْرَةٍ في فهم طبيعة الأفكار الغامضة التي تسيطر على الفرد ، وتدفعه إلى اتخاذ قرارات مُعَيَّنَةٍ دُونِ غيرها . والفرد لا يتحرَّك بحثًا عن الطعام والشراب فقط . إن هناك منظومة رمزية شديدة التعقيد تتكرَّس كمنهج إنساني حياتي ، وتتحكَّمُ بأفعال الفرد وعواطفه وقراراته . وهذه المنظومة مُتشابكة مع أحلام الطفولة ، ومُتماهية مع تحديات الواقع المُعاش ، ومُترابطة مع الخَوْفِ مِنَ المُستقبل .

٢

هناك خَلْطٌ بين النَّوَةِ الاجتماعية البدائية الأَوَّلِيَّة ، والفِكرِ المُتخَلَّفِ الساذج . وسبب الخلط هو اعتقاد الكثيرين أن البدائية والتخلف وجهان لعملة واحدة . وهذا الرؤية المُضَلَّلَةُ قائمة على اعتبار الزمن هو الحاكم المُسيطر على الأفكار والمشاعر والبنى الاجتماعية . وفي واقع الأمر ، إن علاقة الزمن محصورة في المجالات المادية التقنية فقط . فعلى سبيل المثال، كان الإنسان قديمًا يَستخدم الحِمَارَ كوسيلة نقل، أمَّا الآن فيستخدم السيارة . إن السيارة وسيلة نقل مُتقدِّمة مُقارنةً مع الحمار، ولكن هذا لا يستلزم أن يكون راكب السيارة أكثر تقدُّمًا ورُقِيًّا من راكب الحمار . وهذا المَثَل الذي يبدو بسيطًا ، يُشير بوضوح إلى أن حركة الزمن تُؤثِّرُ في الأدوات والتقنيات والتكنولوجيا ، ولكنها لا تُؤثِّرُ في تكوين الإنسان الروحي والفكري، لأن تكوين الإنسان قائم على الخبرات المُتراكمة الناتجة عن البيئة والمجتمع وأفكار الآخرين وسلوكياتهم . ومفهومُ الأَوَّلِيَّة

مُرتبط بالعُقُويَّة وبداية التكوين ، والتأسيس لنقطة الانطلاق نحو المُستقبل، أمَّا مفهوم التخلُّف فمرتبط بالانتكاسة والانهدار والرجوع إلى الوراء . ولا يمكن تكوين حضارة إلا بوجود نواة بدائية ، تكون بمثابة الجنين الذي يسعى إلى اكتشاف الحياة . ولا يُمكن تكوين مدنيَّة إلا بوجود نقطة أولية تكون بمثابة الركيزة التي يتم الوقوف عليها من أجل الانطلاق إلى الأمام .

٣

الزمنُ المُجرَّد المحصور في الحركة الميكانيكية لعقارب الساعة ، ليس له أيَّة أهمية ، ولا يعني شيئاً . وأهمية الزمن تنبع من الإنجازات البشرية في تاريخ الحضارة . وهذا يعني أن الزمن تابع لمركزية الإنسان في الوجود ، وإسهاماته في إعمار الأرض معنوياً ومادياً . كما أن العِلْم المُجرَّد المحصور في الكُتُب ، ليس له أيَّة أهمية ، ولا فائدة منه . وإنما العبرة كامنة في العمل بالعِلْم النافع ، وتطبيقه على أرض الواقع لتغييره إلى الأفضل . وإذا أردنا إنشاء حراك اجتماعي إيجابي وفَعَّال في المجتمع ، فلا بُد من توظيف الزمن لخدمة العِلْم ، وتوظيف العِلْم لتحسين الواقع . وضمن هذه المنظومة ، يُصبح للزمن ماهيَّة اعتبارية ، ويُصبح للعِلْم وظيفة اجتماعية ، فتتحوّل القواعد الاجتماعية الجامدة إلى تيار حيوي وحركة تصحيح ، وتعود الأشياء التي ماتت في الإنسان إلى الحياة ، ويعود الإنسان إلى اكتشاف شخصيته ومعنى وجوده .

*

فلسفة التاريخ الاجتماعية

١

مشكلة الإنسان المركزية في حياته أنه ينظر إلى التاريخ باعتباره تسلسلاً زمنياً عابراً بحكم الأمر الواقع ، وهذا يعني أن التاريخ مُجرّد وعاء للأفعال الماضية التي انقضت وانتهت . وهذه نظرة قاصرة شديدة الخطورة . إن التاريخ ترجمة الزمن إلى معنى ، وتحويل الوقت إلى فكر ، وإحالة الموضوع إلى مُحتوى . والفعل الماضي وُجد ليبقى في نواة المجتمع الأساسية ، ويتكرّس كحياة اجتماعية متكاملة وقائمة بذاتها ، وملبئة بالدروس والعبر ، من أجل الاستفادة منها ، وصناعة الحاضر ، والانطلاق إلى المُستقبل . والماضي هو المُستقبل المُؤجّل، والقوة الدافعة للابحاث في قلب المدنية والحضارة . والماضي بابّ مفتوح على الحاضر والمُستقبل ، لا يُمكن إغلاقه ، ولا كسره . والإنسان لا يستطيع الخروج من جلده حتى لو أراد . وكما أن الباب المفتوح لا يُفتح ، كذلك الماضي لا يمضي .

٢

تتمحور رمزية التاريخ حول قيمة المعنى الإنساني وبنية التحليل الفكري . وفي كُلّ نسقٍ معرفي تُشكّل القيمة والبنية منظوراً اجتماعياً متماسكاً ذا تماس مباشر مع حياة الفرد والجماعة ، وأحلام العقل الجمعي ، وطموحات المجتمع الكُلّي . وإذا انتقل التاريخ من حصار عقارب الساعة إلى ديمومة الفعل الاجتماعي ، فإن مجتمعاً فكرياً سينشأ في قلب الأنساق الاجتماعية ، ويظهر المعنى الإنساني من العوامل السلبية والعناصر الفوضوية . وبالتالي ، ستظهر مفاهيم جديدة تتعامل مع التاريخ كجزء أساسي من الحاضر، وقاعدة انطلاق نحو المُستقبل. ولا يمكن للإنسان أن يعرف ماهية التاريخ، ويصل إلى جوهره العميق ، إلا إذا امتلَكَ الشغفَ للتنقيب في مناجم التاريخ اللغوية والفكرية . وعملية التنقيب تستلزم القيام بحفريات معرفية في أعماق التاريخ ، لاستخراج المظاهر الأسلوبية في تحليل أنماط الحياة القائمة على الوَعْيِ والوَعْيِ المُضاد . والإنسان هو الإنسان في كُلّ زمان ومكان ، مهما كان دينه وعرقه ولونه . ومن خلال تحليل الأضداد وتفكيك التناقضات ، يمكن الوصول إلى طبيعة الأنظمة الفكرية الحاكمة على الأفكار الاجتماعية ، والخصائص النفسية للفرد والجماعة . ومفهوم الأنظمة الحاكمة أكبر من عالم السياسة ، وغير محصور في العلاقات الدولية . إن الأنظمة الحاكمة موجودة في كل تفاصيل المجتمع من القمة حتى القاع . والكشف عن هذه الأنظمة وروابطها ضروري جداً لتحليل مضامين الواقع المُنعكسة عن مُحتويات الدّهن .

الحتمية الاجتماعية والاحتمالية الثقافية

١

إنَّ بُنية الذات الإنسانية لا يمكن أن تتحدّد معالمها إلا من خلال منظومة اجتماعية حيوية وفعّالة ، لأن الإنسان جزءٌ من الكلّ الاجتماعي ، وانعكاسٌ عن مرآة العقل الجمعي . والغصن لا يقدّر على إنكار الشجرة التي جاء منها ، مهما كان ضلّياً وقاسياً ، والسمكة لا تستطيع العيش خارج الماء ، مهما كانت قوية ومنتردة . وهذا يعني أن أهمية الجزء مُستمدّة من قيمة الكلّ . وكلّ السلوكيات الاجتماعية الفردية نابعة من إفرازات المنهج الاجتماعي العام ، الذي يقوم على تكريس النماذج التقليدية كمُسلّمات ونظريات ثابتة . والمسؤولية المعرفية للفرد تُحمّ عليه أن يطرح الأسئلة على الأنساق الاجتماعية ، ويبحث عن إجابات شافية نابعة من قوة المنطق ، وغير مفروضة بقوة الأمر الواقع . وكثيرٌ من الأفكار الاجتماعية تکرّست بفعل التراكمات الزمنية (القوة الخارجية المفروضة بحكم العادات والتقاليد) ، وليس بفعل القوة الذاتية والتماسك الداخلي . وهذا الأمر يجعل الفرد مُجرّد ردّ فعل ، يتلقّى الأوامر ، ويستقبل التعليمات ، ويُشاهد الأحداث ، دون أيّ دور في صنعائها وتوجيهها . وهذه الإشكالية الكبرى تُهدّد ماهيّة الفرد كقيمة معرفية وكيان فكري وبنية ثقافية ومنظومة شعورية ، وتُحاصر هويّة الفرد ضمن إطار من العزلة الخائقة ، التي تنمّاهي مع الاضمحلال التدريجي . وإذا أراد الفرد كسر الحصار المفروض عليه ، فلا بُد أن يجعل سلوكه الاجتماعي رمزاً للانفتاح على المعنى الإنساني الراقى ، ويحوّل القيم الذهنية التجريدية إلى مُعطيات واقعية ، تُعيد إنتاج الواقع ، وصناعته من جديد ، بشكل يتوافق مع الحلم الإنساني في الحرية والتحرر بعيداً عن العبث والفوضى .

٢

لا يُمكن للفرد أن يشعر بِجدوى الحياة ، إلا إذا نجح في تحويل الحلم الإنساني إلى ظاهرة اجتماعية . وبعبارة أخرى ، تحويل القيم الذهنية الهلالية إلى منظومة اجتماعية ثقافية . ولا بُد في هذا السياق من ربط الحتمية الاجتماعية بالاحتمالية الثقافية ، والتفريق بينهما في الخصائص والماهيات والتطبيقات . إذ إنّ القيم الاجتماعية ذات طبيعة إنسانية ، والإنسان هو الإنسان في أي مكان في العالم ، مهما كان دينه أو جنسه أو عرقه أو لونه ، وهذا يجعل الحالة الاجتماعية ذات صفة حتمية ، وتتمتّع بمسار أحادي ، في حين أن القيم الثقافية مُتنوعة ومُختلفة تبعاً

لاختلاف الزمان والمكان وطبيعة الأُمم والشُعوب، وهذا يجعل الحالة الثقافية ذات مَنحى احتمالي مُتَشَعِّب ومُتَعَدِّد المسارات . وهذا الفرقُ الجوهرِي يُحدِّد طبيعة المساراتِ الإنسانية التي يسير فيها الفكرُ. وإذا عُرِفَت قيمةُ العُنصر الاجتماعي ، عُرِفَ مَوقِعُه ودَوْرُه في المنظومة الثقافية . ولا شك أن القِطعة إذا عُرِفَت قِيَمَتُها ، عُرِفَ مَوقِعُها ودَوْرُها في الآلة .

٣

كُلُّ عُنصر في البنية الاجتماعية الثقافية له وظيفة حياتية ودَوْر وجودي . وثنائِيَّة (الوظيفة / الدَوْر) تختلف باختلاف المكان ، والمكانُ هو الذي يُحدِّد المكانة . والشَّيْءُ نَفْسُهُ قد تنتقل وظيفته من النقيض إلى النقيض ، تَبَعًا للموقع الذي يُوجد فيه . فمثلاً ، إن وظيفة المِسمار في خشب السفينة ، تختلف عن وظيفة المِسمار في خشب النَّعْش . إنَّ ماهِيَّةَ المِسمار لَمْ تتغيَّر ، لكن مكانه تغيَّر. ووَفق طبيعة المكان ، يتم تحديد طبيعة الوظيفة والدَوْر والمكانة . وهذا المِثال الذي يبدو بسيطاً ، يدل على أهمية المنظومة الكُلِّيَّة الجامعة ، وسَطوتها على العناصر ، ويُشير إلى سيطرة الكُلِّ على الجزء. والوسيلة الوحيدة لمنع التعارض بين الكُلِّ والجزء ، هي تحديد مسارات التوازي والتقاطع في عَالَم الأفكار وتطبيقاتها ، لأن الأفكار صانعة الواقع . ومهما كانت الأفكار مُتحرِّرة ومُنطلقة ، فلا بُد أن تُصَبَّ في قوالب واقعية محدودة ، لأن الواقع نابع من بيئة الحياة الملموسة ، لذلك يتَّصف بأنه محدود ومحصور ، أمَّا الأفكار فنابعة مِن نِظام الخَيال غَيْر الملموس ، لذلك تتَّصف بالتحرُّر والانطلاق . وكما أن السيطرة على سِكِّك الحديد ، تمنع تصادم القطارات ، فكذلك السيطرة على مسارات المجتمع ، تمنع تصادم الأفكار .

*

افتَحِ الخَوْفَ حَرَبًا فِي السَّفِينَةِ

البُنية الرمزية للظواهر الاجتماعية تُحدّد مسارات الخيال الذي يتم إسقاطه على الواقع . وهذا الخيال ليس كُتلةً هلامية سباحة في الفراغ الفكري والعدم الاجتماعي ، وإنما هو كُتلة مركزية ذات أبعاد واقعية ، قابلة للتطبيق على الأرض . وكلُّ الأحداث الواقعية هي نتيجة حتمية للخيال ، لأن الأفكار تنشأ في الذهن ثم تنزل إلى الواقع ، تمامًا كالسفينة التي تُصنّع على اليابسة ثم تنزل إلى البحر . ولا يُمكن للخيال أن يتكرّس كواقع محسوس إلا إذا تحوّلت الرموز الذهنية إلى أشكال للأخلاق الاجتماعية ، وتحوّلت الإشارات الفكرية إلى ثقافة منهجية توازن بين طُموح الفرد ومصلحة الجماعة . وعندئذ ، سيقنع الفرد بأهمية الخيال كمشروع للخلاص الواقعي ، وخُطوة أولى لا بُد منها من أجل تأسيس ظواهر اجتماعية عقلانية، تُقدّم حُلولاَ عملية لمشكلات المجتمع . يُمثّل الأساس الاجتماعي للخيال تجسيدًا حقيقيًا لحياة الفرد روحيًا وماديًا . وهذه الحياة المُتشعبة لا تتحرّك وَفْقَ نظام خَطِّي بسيط، وإنما تتحرّك وفق أنظمة متوازية ومتقاطعة شديدة التعقيد. والفرد في سباق مع الزمن من أجل أن يجد نَفْسَه الحقيقية في الزّحام ، ويجد صَوْنَه الخاص في الضجيج . وكلما اقترب الفرد من عوالمه الداخلية ، اقترب من فلسفة الظواهر الاجتماعية . وهذا الأمر ليس غريبًا، لأن الفرد ظاهرة اجتماعية قائمة بذاتها، وهو مندمج بالكُلِّية مع تراكيب المجتمع المادية ، وتقاطعات بُنية المشاعر والأحاسيس . وفي ظلّ هذه الأنظمة المعرفية المتشابكة ، يصنع الفرد تاريخه الشخصي ، ويبني أسطوره الخاصة ، ويؤسّس ملحمة الحياتية الذاتية ، ويوصل معنى وجوده إلى عناصر البيئة المُحيطة به . الأمر الذي يجعل الفرد أيقونةً مُتفرّدة ، وهويّةً مُتميّزة . وكلُّ فرد _ مهما كانت مكانته الفكرية والاجتماعية _ يخوض معركةً يوميةً حقيقيةً داخل جسمه وخارجه ، فهو يُقاتل على الجبهة الداخلية التي تتمثل في المشاعر المُختلطة ، والأحاسيس المُبعثرة ، والأفكار المتناقضة ، والصّراعات الفكرية . ويُقاتل أيضًا على الجبهة الخارجية المتمثلة في تناقضات السلوك الإنساني، وتَشَطّي الهويّات، وتحديات الأصول والمنابت، والخوف الإنساني من المستقبل المجهول . وينبغي على الفرد أن يتعلّم من الرُّبَّان الذي يَقُود السفينة في بحر هائج . إنه يُواجه العناصر الطبيعية غير المُتوقّعة ، ويتصادم مع الأحداث المُفاجئة ، ويُسيطر على حركات البحّارة ، ويرى الموتَ بأمّ عَيْنَيْهِ . ومع هذا ، لا يَسْتسلم ، ولا يندبُ حَظَّهُ ، ولا يُعلّق أخطاءه على القضاء والقَدَر . وإنما يُقاتل حتى النهاية ، ويقتحم قلب الخَوْف . وأفضلُ وسيلة للتخلّص من الخوف أن تقتحمه .

الوجود والشعور في حياة الفرد والمجتمع

١

التصورات الذهنية عن البيئة الواقعية مرتبطة بثقافة المجتمع والتاريخ الشخصي للفرد . وكلُّ فرد يبحث عن صورته الخاصة في أنساق المجتمع ، ويُصدر أحكامه وفقًا لتجربته الذاتية في الحياة . لذلك ، تختلف أحكام الناس وتتعدّد قناعاتهم حول القضية الواحدة . وهذا يدل على أن بُنية تفسير الأحداث خاضعة للأفكار الذهنية المُسبّقة ، والمصالح الشخصية ، وتعدّد زوايا الرؤية . وإذا أردنا تحديد الخصائص الجوهرية للتحوّلات الاجتماعية ، فلا بُد من تحليل البنى الإنسانية رمزيًا ، لأن الرمز الاجتماعي عابر لحدود الزمان والمكان وطبيعة الناس ، كما أن الرمز الاجتماعي لا يتأثر باختلاف الأمم والشعوب ، لأنه مُرتبط بالصيغة الإنسانية ، ولا يرتبط بالعقائد والعادات والتقاليد . وكلُّ البشر مُتشابهون في التكوين الإنساني والتركيب العاطفي ، ولكن الاختلاف يظهر في العقائد والثقافات ، كما أن البنية الإنسانية سابقة على البنية العقائدية ، وكلُّ إنسان يأتي إلى هذا العالم بدون عقيدة ، ثم بعد ذلك يعتنق العقيدة التي يقتنع بمبادئها وتعاليمها ، ويطمئن إليها ، ويفرح بها . وأسبقيّة الوجود الإنساني على الوجود العقائدي ينبغي أن تُوضّح في سياق التعاون بين البشر لإعمار الأرض ، والنهوض بالإنسان ، وصناعة الحضارة ، بعيدًا عن القهر والإذلال والاحتقار . واختلاف الأديان والعقائد والثقافات ليس عقبة في طريق صناعة عالم جميل ، وحضارة إنسانية راقية ، لأن قوانين الدنيا تختلف عن قوانين الآخرة . والدنيا قائمة على السلوك الاجتماعي ، والتعامل الحسن ، والاحترام المتبادل ، والسُّمو الروحي ، والنهضة المادية . أمّا الآخرة فتقوم على أساس العقيدة الدينية التي محلّها القلب ، وكلُّ إنسان حر في اختياره ، ويتحمّل مسؤولية اختياره أمام الله تعالى . والإنجازات البشرية والثورة التكنولوجية والنظريات العلمية لا دين لها .

٢

لا يُمكن تحليل الشعور الإنساني اعتمادًا على الحالات الوهمية العابرة في المجتمع ، لأن الشعور الإنساني كتلة حقيقية واحدة قائمة بذاتها ، وشديدة الاستقطاب ، ومُؤسّسة على المنطق الذاتي المركزي الذي يملك القدرة على الانبعاث الدائم والتشكُّل المستمر . وهذا يعني أن تحليل الشعور الإنساني يجب أن يعتمد على القيم المُطلقة اليقينية ، والقيم النسبية الحقيقية . وهذه الثنائية القيميّة (المُطلقة / النسبية) تُمثّل كيانًا فكريًا فعليًا ، وتُجسّد تيارًا اجتماعيًا محسوسًا ،

وتقوم على أرضية منطقية صلبة ومتماسكة ، بعيدًا عن الأوهام والشكوك والشبهات . والشعور
الإنساني يجب أن يتأسس على اليقين والحتمية ، من أجل تحليله بشكل علمي منهجي ، وربطه
بعناصر التفاعل الاجتماعي ، لإيجاد حلول واقعية لمشكلات الفرد وأزمات المجتمع . واليقين
يُغلق الطريق أمام الشكوك والظنون والمُكُونات الفاسدة ، وما قامَ على باطل فهو باطل . أمّا
الحتمية فتُغلق الطريق أمام الاحتمالات والمَتَاهَات . وما طَرَأَ الاحتمال ، سَقَطَ به الاستدلال.
وكما أن العِمارة تُبنى على أساس قوي ومتين، يَقدِر على حَمْلها ، كذلك المنهج العلمي يُبنى على
الأدلة القاطعة ، التي لا مكان فيها للشكوك والاحتمالات وأنصاف الحلول . ولا معنى للحِجَاد
حين يتعلّق الأمر بالحقيقة والوَهْم .

*

الفرق بين المُغامرة والمُقامرة في الفكر الاجتماعي

١

العواطف الإنسانية تُجسّد العلاقة المركزية بين هوية الإنسان وتاريخه الشخصي . وهذه العلاقة لا تنفصل عن مسار البنى الاجتماعية ، لأن الإنسان كيان فكري اجتماعي قائم بذاته ، حتى لو كان مُنعزلاً عن الآخرين ، فالعزلة فلسفة اجتماعية وموقف فكري من عناصر الوجود ، وأحد أشكال البنى العقلية المعرفية . والعزلة لا تعني أن الإنسان صار وحشاً بلا قيم إنسانية أو فلسفة اجتماعية، وإنما تعني أن القيم الإنسانية الجمّعية تمّ اختزالها في قيمة فردية مُحاطة بشرنقة، تمنع العالم الخارجي من الوصول إلى عوالم الإنسان الداخلية . وما دام الإنسان على قيد الحياة ، فهو يملك بالضرورة شروط المعنى الإنساني ، وحتمية الوجود الاجتماعي . والمنظومة الفكرية المتكوّنة من المعنى والوجود تمثّل الأساس الفلسفي للفكر الاجتماعي ، الذي لا تقوم له قائمة ، إلا إذا عرّف الإنسان معنى إنسانيته ومارسها قولاً وفِعلاً ، وأدرك تفاصيل وجوده في الخيال والواقع معاً . وكلّ إنسان يتحرّك في الوجود أفقيّاً وعمودياً ، استناداً إلى المعنى الإنساني المُسبق . والوجود الأفقي هو التحرك في المسارات الحياتية الواقعية ، والوجود العمودي هو التحرك في عوالم الخيال والأحلام . وينبغي على الإنسان إيجاد صيغة منطقية عقلانية محسوبة بدقّة ، لحفظ توازنه المعنوي والماديّ ، بعيداً عن المُقامرة بمصيره ، واللعب على الأضداد والتناقضات ، وتعرض معنى حياته للخطر . والإنسان العاقل الذي يملك شروط الوعي والوعي المضاد ، لا يُحاول تقليد لاعب السيرك الذي يمشي على الحبل بدون شبكة أمان، لأنه مُعرّض للسقوط في أيّة لحظة، وخسارة حياته. والخطأ الأول هو الخطأ الأخير، ولا مجال للتعويض ، ولا الحصول على فرصة ثانية. والحلّ هو المشي على أرض صلبة، وتأسيس الفكر العقلاني على قاعدة اجتماعية مُتماسكة، مع فتح جميع النوافذ على المعنى الإنساني ، والحياة الأخلاقية الفاضلة ، من أجل حراسة الإنسان من الوحشية والتوّحّش ، وحمايته من الغرق في النظم الاستهلاكية الموحشة . وعملية فتح النوافذ على الحياة بكل تفاصيلها ضرورية للغاية ، لأنها تضمن وجود خيارات كثيرة أمام الإنسان ، وإذا أُغلقت نافذة سيجد نوافذ أخرى ، ولن يقف حائراً مكتوف الأيدي . وإذا وصّل إلى طريق مسدود ، سيرجع ، ويبحث عن طريق آخر ، وخيار جديد. ولن يقف عاجزاً يعصّ أصابعه من الندم . والعاقل لا يضع كلّ البيض في سلّة واحدة ، ولا يستثمر جميع أمواله في مجال

واحد. كما أن الدولة الناجحة تُعدّد مصادر الدّخل ، ولا تعتمد على مصدر واحد . وبشكل عام ، ينبغي فتح جميع النوافذ في انتظار صوّء الخلاص ، فلا أحد يعرف من أيّة جهة سيأتي .

٢

المعنى الإنساني كجلد الإنسان ، لا يستطيع أن يخلعه ، حتى لو أراد ذلك . والفكر الاجتماعي كبصمة إصبع الإنسان ، لا يمكن أن يتحایل عليها ، حتى لو أراد ذلك . وهذا الأمر يدفع باتجاه حتمية مواجهة المشكلات ، وعدم الهروب منها ، ولا ترحيلها إلى الأجيال القادمة . والوقت الذي يقضيه الإنسان لتبرير أخطائه وشرّعتها ، يكفي لإصلاحها وتعديل المسار . والوقت الذي يقضيه الإنسان في دفن النار تحت الرماد ، يكفي لإطفائها ، والتخلص من شرّها .

٣

إذا اندمجَ المعنى الإنساني الداخلي بالسلوك الاجتماعي الخارجي ، وصلَ الإنسان إلى حالة التوازن الذاتي بين الأفكار العقلانية والغرائز الجسدية ، وتصلحَ مع نفسه ، وعقدَ هدنة دائمة بين مصلحته الشخصية ومصلحة الجماعة التي ينتمي إليها . وكما أن الحق لا يتصادم مع الحق ، في البيئة المبنية على قواعد المنهج العلمي السليم ، الذي يقوم على ثنائية (العقل الصريح والنقل الصحيح) ، كذلك مصلحة الفرد لا تتصادم مع مصلحة الجماعة ، في المجتمع القائم على العقلانية المؤمنة والفطرة النقيّة ، لأن منهجية الاعتدال والتوازن مؤسّسة على نظام الحقوق والواجبات ، وتبادل المنافع المشروعة ، وهذا يحفظ مصالح جميع الأطراف .

٤

ينبغي على كلّ صاحب منظومة فكرية أن يُحيطها بالولونات اختبار ، تتلقى الضربات ، ويتم التضحية بها ، من أجل حماية أساس المنظومة الفكرية وجذورها ، وكلّ ضربة يمكن امتصاصها وتجاوزها بشرط أن لا تصل إلى الأساس ، لأن الأساس إذا ضربَ انهارَ البناء . والعمود الفقري إذا تعرّض لضربة قد يُصاب الجسم بالشلل ، وإذا تلوّث منبع النهر ، فإن النهر سيصبح فاسدًا بشكل كامل . وهذه المعاني تعكس أهمية ترتيب الأولويات . وإذا كانت التضحية حتمية ولازمة ، ولا مفر منها ، فيجب التضحية بالعناصر الرخيصة لحماية العناصر الثمينة . والأمر يُشبه قيام الطبيب بقطع أحد أعضاء الإنسان من أجل الحفاظ على حياته . وهذا هو الحل الأخير ، بعد استنفاد جميع الحلول الممكنة . وكما يُقال : آخر الدواء الكي . ولا يمكن أن تتكرّس هذه المبادئ كنظام فكري ، إلا بعد معرفة الأولويات ، وترتيب العناصر حسب درجة أهميتها . والدكاء لا يتجلّى في

تميز الأبيض من الأسود ، فهذا أمر معروف وسهل ، ولكن الذكاء يتجلى في تمييز الأسود من الأسود ، أي : تمييز درجات السواد والخطر ، ودفع الضرر الأكبر بالضرر الأصغر (وجوب ارتكاب أخف الضررين) ، والتضحية بالرخيص من أجل الغالي .

٥

أحياناً، تكون أنصافُ الخُلُول قاتلةً، والمنطقة الرمادية مرفوضة ، والحياد غير مقبول ، ولا بُد من المواجهة حتى النهاية، وعلى الإنسان ضرب رأس الأفعى، وعدًا ذلك ، سيكون ضحيةً للأفعى. وهناك جوانب كثيرة من الحياة تُشبه لعبة الشطرنج ، إمّا أن تكسب كُلَّ شيء وتنتصر ، أو تخسر كُلَّ شيء وتنهزم . واللعبة الصُّفْرِيَّة هي أخطر أنواع الألعاب ، لأنَّ مُحَصِّلَتها صِفْر ، ويَكُون مَكْسَب شخص ما فيها مُعَادِلًا لخسارة شخص آخر . وهذا يَعْنِي أَنَّ الشخص إمّا أن يَكُون آكِلاً أو مَأْكُولاً ، قاتلاً أو مَقْتُولاً ، ولا يُوْجَد خيار ثالث ، ولا حل وَسَط .

*

البُنى الاجتماعية والسيطرة على مُنصر المفاجأة

١

تحليل النُظم الرمزية في البنى الاجتماعية ضروري من أجل فهم التغيرات النفسية للأفراد، واستيعاب السلوكيات المُتقلبة للمُجتمعات الإنسانية. ولا يُمكن فهم حركة الأفكار والمشاعر في النُسق الاجتماعي العام، إلا بفهم الأساس الفكري لهذا النُسق. وإذا أردنا فهم الطبيعة النفسية للإنسان، لا بُد من العودة إلى طُفولته وتحليلها. وإذا أردنا معرفة طبيعة الشجرة، لا بُد من العودة إلى جذورها ودراساتها. وهذا يدل على الترابط الحتمي بين الماضي والحاضر، باعتبارهما كياناً واحداً مُتصلاً، وصيغةً رمزية فلسفية، وكُتلة اجتماعية مُترابطة ومُتشابكة، وليس مرحلتين مُنفصلتين زماناً ومكاناً.

٢

الماضي لا يَمضي. هذه حقيقة فلسفية لها تطبيقات على أرض الواقع، تتعلق بعودة الإنسان إلى ماضيه وجذوره، من أجل فهم حاضره. وكُلُّ شخص وصل إلى البيت، ينبغي ألا يَحصر تفكيره بين جدران البيت، لأن هذا يدل على قِصر النظر، وعدم رؤية الأشياء من كل الزوايا. والواجب عليه أن يَنشغل بالطريق المُوصل إلى البيت، ويُفكر في طبيعة المسار الذي أوصله إلى هدفه، والعلاقة بين الوسيلة والغاية، والسبب والنتيجة. والبيت مكان الراحة والهدوء والاستقرار، في حين أن الطريق مكان التعب والمَشَقَّة والحركة. والإنسان الواعي يقضي وقته لإيجاد حلول للمشكلات، وعلاج الأزمات، ومُواجهة التحديات، ولا يقضي وقته في تحصيل الحاصل، والتفكير بالأشياء المضمونة الجاهزة. وبعبارة أخرى، إن الوعي الإنساني والجُهد العقلي يجب أن يتم تركيزهما على الأشياء المطلوبة لا الأشياء المضمونة.

٣

الطالب الناجح يَحصر تفكيره في الإجابة عن أسئلة الامتحان بشكل صحيح، ولا يُضيِّع وقته في التفكير بالنتيجة وما بعد الامتحان. والقائد العسكري الناجح يسعى إلى الانتصار في المعركة، ولا يُفكر في الأوسمة العسكرية وأكاليل الغار. والأديب المُبدع يُفكر في صناعة نص لُغوي باهر ومُدْهِش، ولا يُفكر في الجوائز الأدبية وقيمتها المالية. والصيَّاد الماهر ينظر إلى الفريسة البعيدة عنه، ولا يُفكر بالفريسة الواقعة في يده.

المشكلة المنتشرة في المجتمعات الإنسانية ، هي استعجال الأشياء قبل أوانها ، لأن الإنسان كائن محدود القدرات ، قصير النظر ، يَمَلُّ بسرعة ، ولا يملك نَفْسًا طويلة ، ولا يُتقِن الطبخ على نار هادئة ، ولا يُريد التخطيط على المدى البعيد. والتَّسَرُّعُ والعَجَلَةُ صِفَتان لازمتان للإنسان. إنه يُريد كُلَّ شيء بضربة واحدة ، وَيَنسى أن الحياة سباق مسافات طويلة ، وينبغي توزيع الجُهد الروحي والطاقة الجسدية على المسافة كُلِّها ، وَمَنْ يَضْحَك أخيرًا يَضْحَك كثيرًا. والمُباراة تنتهي مع صَفارة الحَكَم. وَكَمْ مِنْ فريق افتتح التسجيل في المُباراة، وفرح اللاعبون ، ثُمَّ خسروا المُباراة. وَكَمْ مِنْ شَخْص ضَحِكَ في البداية ، وَبَكَى في النهاية . وَكَمْ مِنْ قائد انتصرَ في معركة ، وَخَسِرَ الحربَ . وهذه التحديات التي تمتاز بالتغيُّرات والتقلُّبات ، يُمكن السَّيطرة عليها إذا تَمَّت السيطرة على عُنصر المفاجأة القاتل ، وهذا لا يتأتَّى إلا بحساب احتمالات الربح والخسارة معًا ، ووضع خُطط عملية للتعامل مع حالة الانتصار وحالة الهزيمة . وعندئذ ، لا يُصاب الإنسان بخيبة الأمل ، ولا تنزل الأحداثُ على رأسه كالصاعقة، ولا يُباغته عُنصرُ المُفاجأة الذي قَدْ يَقْضي عَلَيْهِ، ويُحطِّمُهُ، وَيُسَبِّب له الانهيار . والوعيُ الإنساني الفَعَّال ، لا يَتْرَك شيئًا للمُصادفة أو المُفاجأة ، فكل شيء مَحسوب ومدروس ومُسَيَّطَر عَلَيْهِ، وهناك خُطَّة أساسية، وخُطَّة بديلة لحالات الطوارئ ، وهناك تشكيلة أساسية ، وتشكيلة احتياط ، للتعامل مع كافة المواقف وجميع الحالات . والعاقِلُ يُقَاتِل مِنْ أَجْلِ كُلِّ شيء ، ولا يَتَوَقَّع أَيَّ شيء .

*

النظام الاجتماعي بين الفردية والإنسانية

١

تُشكّل السِّياقاتُ المعرفية في النظام الاجتماعي صياغةً مُتجددة لعلاقة الفرد مع نفسه ، ضمن مُحيطة إنساني وبيئته الوجودية. وكُلُّ نظام اجتماعي لا يمكن أن يستمر إلا إذا تركّزَ عنصرُ التَّجَدُّد في نَوَاتِهِ المركزية ، لأنَّ التَّجَدُّد هو الضمانة الأكيدة لمنع الجمود والانغلاق ، وبالتالي ضمان جريان الماء تحت جُسور المعرفة ، ولا شك أن سُكون الماء يجعله آسِنًا . والحلُّ الوحيد يتجلى في الحركة المُستمرة في الاتجاه الصحيح ، ولا فائدة من سرعة القطار إذا كان سائرًا في الطريق الخاطئ ، كما أن التَّجَدُّد هو العامل الثقافي القادر على إحداث توازن بين سُلطة المعرفة وسياسة الحداثة، التي تقوم على الإبداع الذاتي ، وليس تقليد الآخرين ، واستيراد النظريات منهم . وكُلُّ حادثة لا تنبع من الذات ، ستسقط لا مَحَالَة ، لأن مصير الأقنعة السُّقوط ، وسوف يَنكشف الوجه الحقيقي في يوم من الأيام. لذلك، ينبغي أن يكون التَّعْوِيلُ على تَجْمِيل المجتمع بالإنجازات الحقيقية على أرض الواقع ، وليس باستخدام عمليات التجميل ، أو انتهاج أسلوب التَّرقيع ، ودفن النار تحت الرماد. وكما أن جمال الشجرة الحقيقي ينبع من جُودة ثمرها ، وليس شكلها الخارجي، كذلك جمال المجتمع الحقيقي ينبع من إبداع أفرادهِ ، وليس أشكالهم وملابسهم .

٢

إنَّ تكوين علاقة منطقية بين قُدرة الأفراد على الإبداع، وبين قِيَم المجتمع الإنساني ، يُمثّل تَحَدُّبًا حقيقيًا، وامتحانًا لضمير المجتمع. ففي كُلِّ مجتمع أعداء للنجاح، وفي كُلِّ بيئة سياسية قُوَى شَدَّ عَكسي ، تُحارب الإبداع والحداثة والتجديد ، حِفَاطًا على مصالحها الشخصية وامتيازاتها الذاتية. وإذا أردنا أن يسير قطارُ المجتمع على السَّكة بأمن وأمان، فينبغي إزالة العقبات من طريقه، وحمل جميع الرُّكَّاب في القطار، لئلا يَشعر أحدهم أنه مَبْذُور أو مُهْمَش أو مرفوض. وإذا شَعَرَ الرُّكَّابُ أن القطار يُحَقِّق مصالحهم جميعًا، ويوصلهم إلى أهدافهم، فسوف يُدافعونه عنه، ويعتبرونه جُزءًا من نسيج حياتهم وأفكارهم وحاضرهم ومُستقبلهم ، لا يُمكن الاستغناء عنه ، ولا الاعتداء عليه. وهذا يدل على أهمية الحاضنة الشعبية في تَبَنِّي الأفكار ، وتطبيقها بشكل صحيح. وتحقيقُ هذا الخُلُم لا يتأتَّى إلا باختيار القرار الصحيح في التَّوَقُّيت الصحيح ، ولا أحد يستطيع أن يتجاوز طبيعة الزمن، أو يَقفز على عُنصر الوقت، لأن الفرد يتحرَّك في قَالْب محصور ،

وصيغة زمنية محدودة ذات خصائص مُعيَّنة ، يجب أخذها بِعَيْن الاعتبار ، لحماية الفرد من السقوط في الفراغ ، ومنع المجتمع من القفز في المجهول .

٣

كُلُّ الإنجازات المادية في طبيعة النظام الاجتماعي ، هي انعكاس للمشاعر الإنسانية الفردية ، وإفراز للأحاسيس البشرية الجماعية . والعواطف الوجدانية ليست خيالات هُلامية ، أو جُزءًا من الرِّفَاهِيَّة الرومانسية الحالمة . إن هذه العواطف تُجسِّدُ شرعيةَ الوجود الإنساني في الإطار المكاني والحرِّير الزماني ، وهي سُلطة معرفية اعتبارية ، تمنح الفرد مشروعته الوجودية ، وتُصنع التحولات الاجتماعية . وكما أن القلب ملك الجوارح وزعيم الأعضاء ، وليس مُجرَّد كلمة في أغنية عاطفية ، كذلك العواطف الوجدانية ، هي مِلَكَّة الحَرَكَ الاجتماعي ، وزعيمة السُلطة الشعورية المركزية ، ذات الامتدادات في تفاصيل بُنية المجتمع ، وقواعد السلوك الفردي .

٤

الفرد ليس كُنلة أَسْمَنِيَّة ، ولا آلة بيولوجية للأكل والشُّرب والتكاثر . إن الفرد كيان اجتماعي سياسي قائم بذاته ، وهو صانع سياسات ذهنية وواقعية ، بغض النظر عن مُستواه العلمي والثقافي . وكُلُّ فرد في الحياة له سياسته الخاصة ، التي تنعكس على سلوكه وتعامله مع الناس وعناصر الطبيعة ، وهذا لا يعني أنه صار سياسيًا . وكُلُّ فرد في الوجود له فلسفته الخاصة ، التي تنعكس على تصوُّراته الفكرية وقناعاته الحياتية ، وهذا لا يعني أنه صار فيلسوفًا . وهناك فرق واضح بين السياسة كإجراء واقعي لَحْظي ومُمارَسة يومية ، وبين السياسات كتخطيط للحاضر والمستقبل . وهناك فرق جوهري بين الفلسفة كنظام تفكيري عقلاني تجريدي ، وبين الفلسفات كقواعد للسلوك الإنساني ومبادئ للتعامل مع الآخرين .

٥

إنَّ سَعْيَ الفرد الدُّؤُوب نحو صناعة حُلْمه الشخصي ، والمُساهمة في تحقيق آمال المجتمع وطُمُوحاته، يُؤدِّي - مع مرور الوقت - إلى تحوُّل حُلْم الفرد إلى مشروع لخلاص المجتمع ، وانتشاله من مأزقه الوجودي . وكُلُّ جُزء إذا وُضع في مكانه الصحيح ، سيَتحوَّل إلى منظومة جماعية مركزية لا غنى عنها . وقيمةُ الأشياء لا تتحدَّد حَسَب حجمها ، وإنما تتحدَّد حَسَب السياق الذي وُردت فيه . والكلمة لا تملك تأثيرًا فعليًّا إلا ضمن الجملة اللغوية والسياق العام للكلام . ولا يمكن معرفة قيمة البرغي إلا من خلال موقعه ودوره في الآلة الميكانيكية . والكُلُّ

يَمنح الشرعية والأهمية للجزء ، والجزء يَمنح الإضافة النوعية اللازمة للكل . وهذه المنظومة الفلسفية (الجزء / الكل) القائمة على المنفعة المتبادلة ، لتحقيق المصلحة المشتركة العليا ، تنقل الفرد من فرديته إلى إنسانيته. أي إن الفرد من خلال بحثه عن معنى وجوده وجدوى حياته ، وإسهامه في نهضة مجتمعه ، وصناعة حاضره ومستقبله ، والنهوض بالحضارة الإنسانية والمدنية العالمية ، يُصبح إنساناً ذا موقع مركزي على خريطة الإبداع ، وذا بصمة مؤثرة في تاريخ الحضارة والمدنية . وهذا يُشير إلى أن الفردية خطوة في طريق الوصول إلى الإنسانية ، كما أن المحلية خطوة في طريق الوصول إلى العالمية . وبعبارة أخرى ، كل إنسان فرد ، وليس كل فرد إنساناً . وكل عالمي محلي ، وليس كل محلي عالمي .

*

رحلة البحث عن الخلاص الجماعي

١

الأفكار الاجتماعية ملكية عامة ، وليست مشروعًا شخصيًا احتكاريًا . وهذه الأفكار تُمثّل حصيلة معرفية نابعة من العقل الجمعي ، وتجارب الأمم والشعوب على مدار التاريخ . والأفكار تيارات ذهنية وإفرازات وجدانية عابرة للأزمنة والأمكنة ، ولا يُمكن تجنيسها والسيطرة على عملية تفجّرها وانطلاقها ، لأن الأفكار تَسبَح في داخل الإنسان ، وتتأثر في الذهن البشري كالشظايا ، وتنطلق في كل الاتجاهات ، لذلك كان من المُستحيل حصر إبداعات العقل البشري في أنساق التاريخ وطبيعة الجغرافيا . والسؤال الذي يطرح نفسه في هذا السياق : ما فائدة الأفكار إذا كُنّا عاجزين عن السيطرة عليها ؟ . إن الأفكار تطير في الذهن كما تطير العصافير في الفضاء . والحلّ الوحيد للسيطرة على العصافير هو الإمساك بها ، وإدخالها إلى القفص . وهذا المبدأ يجب تطبيقه في عالم الأفكار القائم على الخيالات الهلامية ، والتصورات الذهنية ، والشظايا العقلية المُتناثرة . ينبغي إدخال الأفكار إلى حدود الحياة العملية ، وإخراج البنى العقلية من الذهنية غير المحسوسة إلى الواقع المحسوس ، ممّا يؤدي بالضرورة إلى صناعة تطبيقات حقيقية فعّالة ذات تماس مباشر مع حياة الفرد وطبيعة المجتمع . وصورة الإنسان مهما كانت جميلة في المرأة ، تظل مُجرد صورة محصورة في إطار ضيق ، والعبرة كامنة في الأصل ، والتعويل إنما يكون على الشكل الحقيقي للإنسان على أرض الواقع ، خارج نفوذ المرايا والإضاءة والمؤثرات البصرية وزوايا الرؤية . والأمُر ينطبق على عوالم الإنسان الذهنية . والأفكار مهما كانت جميلة ، تظل مُجرد إفرازات ذهنية هلامية سابحة في فضاء العقل ، والعبرة كامنة في تجسيدها على هيئة كيانات واقعية ومشاريع محسوسة .

٢

يُمثّل مبدأ نقل الأفكار الخيالية إلى أرض الواقع مشروعًا لخلاص الفرد من مأزقه الحياتي ، ونجاة المجتمع من أزمته الوجودية . ولكن الأمر ليس بهذه السهولة ، لأن هناك عوائق معنوية ومادية في طريق تحويل الأفكار إلى واقع مُعاش . ومن أبرز هذه العوائق أن يشعر الفرد بالغربة عن نفسه ، والاعتراب عن مجتمعه ، مع أنه عائش في قلب مُحيطه وبيئته ، وهذه الشائبة الصادمة (الغربة / الاعتراب) تجعل الإنسان ينكمش على ذاته ، وينسحب من الحياة العامة ، ويتقوّل على أحلامه الشخصية ، بحثًا عن مصلحة شخصية وخلاص فردي ، ممّا يُشكّل تهديدًا لوحدة

المجتمع وتجانسه وتماسكه ، لأن فلسفة الخلاص الفردي تعني أن الفرد يُريد القفز من السفينة ، للبحث عن النجاة الشخصية ، وترك السفينة ومن فيها لمواجهة مصيرهم . وهذه الفلسفة خطيرة وغير مضمونة النتائج ، لأن الفرد إذا قفز من السفينة في عرض البحر ، لن يتمكن من السباحة إلى شاطئ الأمان ، بسبب بُعد المسافة ، وتلاطم الأمواج ، وطاقته المحدودة على السباحة . والشاطئ إذا كان بعيداً ، فليس من الذكاء أن يثق الإنسان بقدرته على السباحة ، ولا يوجد عاقل يُعرض نفسه لامتحان صعب ، مهما كان واثقاً من قدرته العقلية وقوته البدنية ، لأنه _ ببساطة _ قد يسقط في الامتحان . وكما يُقال في المثل الشعبي : ((المية تُكذب الغطاس)) . وأفضل علاج لأزمة الإنسان الوجودية، هو أن يبقى مع مجتمعه في السفينة ، ويُحاول الجميع إصلاحها بشئ الوسائل ، وتحصين الجبهة الداخلية عن طريق منع وصول الماء إلى داخل السفينة . والسفينة لا تغرق من مياه البحر العظيمة ، ولكنها تغرق إذا تسَلَّلت المياه إلى داخلها . والتعاون الجماعي لتحصين السفينة يُحقق مَصَالِحَ الكلِّ ، ويضمن النجاة للجميع ، فيخفي الصراع بين الفائز والخاسر ، لأن الجميع سيكونون فائزين . ومهما كانت السفينة قديمة ومُهترئة ، فإن قضاء العُمر في إصلاحها أفضل من أن يُصبح الإنسان طعاماً للأسماك ، ويذهب إلى النسيان في أعماق البحر . وإن الوقت الذي يأخذه الإنسان لتبرير أخطائه ، أو ندب خطئه ، أو التباكي على حياته ، أو جلد ذاته ومجتمعه ، أو شرعنة تعاسته ، يكفي لإصلاح أخطائه ، والمُساهمة في علاج أزمات المجتمع ، والتقدم إلى الأمام ، وفق الإمكانيات المُتَوَفَّرة والظروف المُتاحة . وإذا وجد الإنسان الطريق مسدوداً ، فعليه أن يبحث عن طريق آخر ، ولا يُضيّع وقته في البكاء على الأطلال . والحياة رحلة بحث طويلة حتى اكتشاف الطريق الصحيح . والمُحاولة بحد ذاتها إنجاز .

٣

على الإنسان أن يبدأ مسيرة الإصلاح والتطوير بما يملك من إمكانيات وقدرات ، حتى لو كانت ضئيلة وبسيطة . وكما أن رجل الأعمال الناجح يبدأ مشروعه التجاري بما يملك من مال ، ولا ينتظر حتى يصبح مليونيراً ليتحرك ، كذلك المُصلح الاجتماعي يبدأ مشروعه الاجتماعي بما لديه من أفكار وتصوّرات ، ولا ينتظر أن يصبح فيلسوفاً ، أو يُصبح المجتمع مثالياً وخالياً من العيوب . ووظيفة الطبيب علاج المرضى لا علاج الأصحاء ، ومُحاربة المرض ، وليس مُحاربة المريض . وهذا المبدأ الإنساني هو أساس العلوم الاجتماعية .

تحقيق الحُلم الإنساني في المجتمع الاستهلاكي

١

إنَّ الحُلمَ الحقيقي في حياة الإنسان ليس الذي يراه في المنام ، وإنما الذي يراه في الواقع . والحُلمُ منظومة اجتماعية تُفسَّر القيمُ المعرفية ، وتستمد شرعيتها وجذورها من تكريس العلاقة بين قدرة الفرد على الإبداع ، وقُدرة المجتمع على احتضان إبداع الفرد . وإذا تَكَرَّسَ الحُلمُ في المجتمع كبنية مركزية، فإن التفاعل بين الأنا والكلَّ سيغدو ظاهرةً فلسفية عامة ، تمنع انقلاب المعنى الإنساني على التطبيقات الاجتماعية ، وتَحمي المعنى الإنساني من إفرازات النظام الاستهلاكي المادي المُغلق ، الذي يَقْتُل رُوحَ الإنسان ، ويُحوِّله إلى كُومة شظايا مُتناثرة في صحب الحياة اليومية ، وتانهة في ضجيج الأحلام الضائعة والآمال المقتولة .

٢

كُلُّ حُلمٍ إنساني هو بالضرورة سُلطة معرفية ، تَقْتُل الوهمَ ، وتُحيي الأملَ . وهذا الدَّور المَحْوَري للحُلم الإنساني ينبغي أن يُوظَّف للكشف عن الآمال المقتولة في داخل النَّفس البشرية، لأن الإنسان _ في أثناء سَيره في تفاصيل الحياة _ يَحْسر كثيرًا من أحلامه وذكرياته ، ومُت في كثيرٍ من القيم والمبادئ . ومن أجل إعادة إنسانية الإنسان إلى قيمة المعنى ، والإحساس بالوَعْي البَنا ، ينبغي عَقْد مُصالحة بين الإنسان وذاته ، والوصول إلى حالة من السلام الداخلي ، قبل البحث عن السلام مع عناصر الطبيعة ، ومُكوّنات البُنى الاجتماعية ، والتصالح معها .

٣

أسوأ كابوس يُمكن أن يحصل في المجتمع الإنساني ، هو تحوُّل الإنسان إلى مقبرة مُتَنَقِّلة ، ومدفن للآمال والطموحات والأحلام ، وهذا هو الموت في الحياة ، الذي يجعل الإنسان ظلاً باهتًا للذكريات المُتَوَحَّشة والماضي المُوحش والحاضر القاسي والمستقبل المجهول . وللإبقاء على شُعلة الحياة في قلب الإنسان بدون انطفاء ، ينبغي تسخير القيم الاجتماعية المعرفية من أجل تأسيس الذات الإنسانية كحالة من الوَعْي المنهجي ، الذي يربط بين السلام الروحي الداخلي والتوازن الاجتماعي الخارجي . وهذا يُمثِّل ضمانة أكيدة لمنع انحراف القطار الإنساني عن السَّكة الاجتماعية . ويجب على الإنسان _ أثناء رحلته في هذه الحياة _ أن يَسْتوعب العناصر الفكرية في مُحيطه الداخلي وبيئته الخارجية ، تمامًا كالرُّبَّان الذي يجب عليه _ لضمان إبحار السفينة

بشكل آمن _ أن يستوعب حركة المياه في البحر ، واحتمالية دخول المياه إلى داخل السفينة ، لأن هذا يعني الغرق الأكيد والهلاك الحتمي. وإذا عُرف الشرُّ مُسَبِّقًا ، يُمكن الوقاية منه بسهولة .

٤

إذا أُجبر الإنسان على السَّير في حقل ألغام ، فينبغي أن يُحافظ على هُدوءه واتزانهِ وتركيزهِ ، ويتبعد عن ندب خطئه ، أو لؤم الظروف ، أو شتم الألغام ، لأن هذه أفعال طائشة لا فائدة منها ، وهي تستنزف جُهد الإنسان ، وتسرق إمكانياته الذهنية ، وتسلب قُدرته على التَّحرُّك والمُراوغة . ولا يَقْدِر الإنسان على اتخاذ القرار الصحيح في الوقت الصحيح ، إلا إذا امتلَكَ مشاعره ، وسيطرَ على عواطفه . وإذا انتشر الهدوء كحالة وجدانية واعية في داخل الإنسان ، استطاع السيطرة على العناصر الخارجية . وإن السَّباح في غُرُض البحر ، ليس أمامه إلا مُواصلة السَّباحة كخيار وحيد ، وإذا خاف أو ارتبك غَرِقَ ، والتَّقدُّم إلى الأمام أسهل من العُودة إلى الوراء ، لأن الشاطئ الذي انطلق منه السَّباح صار بعيدًا جدًّا عنه ، ولا يُمكن العُودة إلى الخلف ، وعقارب الساعة لا ترجع إلى الوراء. والحلُّ الوحيد هو مُقاومة الأمواج حتى الوصول إلى بر الأمان. والدربُ الموصل إلى الغاية النبيلة شاق ، والطريقُ إلى قِمة الجبل لا بُد أن يكون صعبًا ومحفوفًا بالمخاطر، ولكنَّ لذة الوصول تُنسي الإنسان عذاب الطريق . والانتصارُ الحقيقي هو انتصار الإنسان على نفسه ، والتَّفُوق عليها ، وتجاوزها .



السلوك الاجتماعي والفكر الإنساني

١

فلسفة السلوك الاجتماعي ليست ظاهرةً مصلحيةً محصورة في الأطر المادية ، والسلوك الاجتماعي ليس فعلاً روتينياً يومياً عابراً، لأن أفعال الإنسان تنبع من قناعاته الداخلية والقيم الفكرية الرمزية المسيطرة على مشاعره . وبعبارة أخرى، إن أفعال الإنسان _ مهما بدت سطحية وساذجة وظاهرية وعرضية _ تنطلق من جوهر رمزي مركزي في داخل الإنسان ، وهذا هو المنبع الفكري الذي يُسيطر على روافد السلوك الاجتماعي، ويتحكم بها ، كمّاً ونوعاً، رُوحاً ومادّةً. وكما أن فلتات اللسان البسيطة تكشف _ في الغالب الأعم _ عن محتويات القلب ، كذلك الأفعال الإنسانية البسيطة تكشف عن أنساق ثقافة المجتمع، وطبيعة النظام الاجتماعي المسيطر على القيم الفردية والجماعية . والإنسان أولاً وأخيراً هو ابن بيئته ، ونتاج عصره .

٢

لا يمكن إنكار تأثير العقل الجمعي في ثقافة الفرد ومبادئه وقناعاته ، ولا يمكن تجاهل الإحساس الإنساني بإفرازات الشعور العام في المجتمع . وهاتان المُسَلِّمَتَان تُجسِّدان الأساس الفلسفي لمنظومة الوعي والوعي المضاد. ومهما كان الإنسان قوياً ، لا يستطيع الإفلات من سطوة المكان (الذكريات المتمركزة في الذهن ، وليس التضاريس الجغرافية) ، كما أنه لا يستطيع الخروج من جلده ، والقفز في الفراغ ، تماماً كالسمكة التي لا تستطيع الخروج من البحر ، والقفز على اليابسة. وهذه البنية الإنسانية المحصورة في إطار الزمان وحيز المكان، تُنشئ وعياً خاصاً بها، يتماهي مع ذاتية الإنسان كبنية اعتبارية مُستقلة نسبياً ، ويندمج مع مصالحه الشخصية ضمن التيار العام في المجتمع . وفي نفس الوقت ، ينشأ وعي مُضاد ناتج عن العقبات الاجتماعية في طريق الإبداع الشخصي للإنسان . وهذا الوعيان الجزئي (الفردي) والكلي (الجماعي) سيصطدمان عندما تتناقض مصلحة الفرد مع مصلحة الجماعة، وتُصبح الحرية الفردية تهديداً لوجود المجتمع . وبالتأكيد ، لا توجد حرية مُطلقة في الأنساق الاجتماعية، ولا يمكن ترك الحبل على الغارب . والحرية المطلقة هي الفوضى الشاملة. وهذا الأمر يدفع باتجاه بناء حرية الإنسان النسبية على قاعدة العمل الجماعي لتحرير المجتمع من الأمراض الروحية ، والخوف من المستقبل ، وتطهير الفكر الاجتماعي من الاتكالية ، والسلبية ، وجلد الذات ، وانتظار الخلاص والحلول السحرية ،

والبَحْثِ العَبْثِي عن مُجْتَمَعٍ مِثَالِي . وَإِذَا أَدْرَكَ الْإِنْسَانُ أَنَّ حُرِّيَّتَهُ الْحَقِيقِيَّةَ تَعْنِي أَنْ يَبْدَأَ قَوْرًا بِاصْلَاحِ نَفْسِهِ، وَيَقْتَلِعَ شَوْكَهُ بِيَدِهِ، وَلَا يَضَعُ أَخْطَاءَهُ عَلَى الْآخَرِينَ، وَلَا يَنْتَظِرُ مَجِيءَ أَحَدٍ لِيُسَاعِدَهُ، فَإِنَّ الْمُجْتَمَعُ _ عِنْدُنَا _ سَيُصْبِحُ مُتَقَدِّمًا ، بِدُونِ صِدَامٍ بَيْنَ وَغْيِ الْفَرْدِ وَوَعْيِ الْجَمَاعَةِ ، وَبِدُونِ نِزَاعٍ بَيْنَ الْخُلْمِ الْجُزْئِيِّ وَالْمَصْلَحَةِ الْكُلِّيَّةِ . وَلَا يُمَكِّنُ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَحْصُلَ عَلَى حُجْرَةٍ هَادِئَةٍ وَمُريحَةٍ فِي سَفِينَةٍ تَغْرُقُ ، وَهَذَا يَعْنِي وَجُوبَ تَحْوِيلِ الْخُلْمِ الْإِنْسَانِيِّ إِلَى مَشْرُوعٍ لِلنَّهْضَةِ الْجَمَاعِيَّةِ . وَمِنْ غَيْرِ الْمَعْقُولِ حُصُولَ صِدَامٍ بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَمُجْتَمَعِهِ ، إِذَا تَكَرَّسَتِ النَّهْضَةُ كَخُلْمٍ جَمَاعِيٍّ يُوَازِنُ بَيْنَ الرُّوحِ وَالْمَادَّةِ ، وَإِذَا صَارَتْ فِلَسْفَةُ السُّلُوكِ الْاجْتِمَاعِيِّ سَفِينَةً نَجَاةٍ تَتَّسِعُ لِلْجَمِيعِ ، لِأَنَّهُ عِنْدُنَا لَنْ يَخَافَ الْإِنْسَانُ مِنَ الْمَجْتَمَعِ ، وَلَنْ يَشْكَّ الْمَجْتَمَعُ فِي الْإِنْسَانِ ، وَهَذَا يَعْنِي الْوَصُولَ إِلَى حَالَةِ السَّلَامِ الرُّوحِيِّ، وَالسَّلَامِ الْاجْتِمَاعِيِّ، وَالْمُصَالَحَةِ الدَّخَلِيَّةِ، وَلَنْ يَخَافَ الْبَحَارَةُ مِنْ بَعْضِهِمُ الْبَعْضَ، وَلَنْ يُوجِّهُوا جُحُودَهُمْ لِتَدْمِيرِ أَنْفُسِهِمْ، وَإِغْرَاقِ السَّفِينَةِ، لِأَنَّهُمْ أَمَامَ خَطَرٍ وَاحِدٍ يُهْدِّدُ حَيَاتَهُمْ جَمِيعًا، وَهُوَ مَوْجُ الْبَحْرِ . وَإِذَا تَكَرَّسَ الْخَطَرُ كَتَهْدِيدٍ وَجُودِيٍّ شَامِلٍ وَعَامٍ ، اتَّحَدَتِ الْجُحُودُ لِمُوَاجَهَتِهِ ، وَالتَّصَدَّى لَهُ .

٣

إِنَّ كَيْنُونَةَ السُّلُوكِ الْاجْتِمَاعِيِّ نِتَاجٌ لِتَفَاعُلِ الْفِكْرِ الْإِنْسَانِيِّ مَعَ الْجَوْهَرِ (حَقِيقَةِ الْوُجُودِ) . وَالْوُجُودُ الْإِنْسَانِي لَا يَتِمُّ تَحْلِيلُهُ إِلَّا مِنْ خِلَالِ خِصَائِصِ الثَّقَافَةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ وَرُمُوزِ الظَّوَاهِرِ الْعَقْلِيَّةِ . وَإِذَا تَمَكَّنَ الْمَجْتَمَعُ مِنَ التَّفْرِيقِ بَيْنَ الْخِصَائِصِ وَالرُّمُوزِ فِي أَنْسَاقِهِ، وَصِنَاعَةِ تَوَازُنِ مَنْطِقِيٍّ بَيْنَ الْفَاعِلِيَّةِ الدَّهْنِيَّةِ وَالِدَّافِعِيَّةِ الْوَاقِعِيَّةِ، وَمَعْرِفَةِ الْحُدُودِ الْفَاصِلَةِ بَيْنَ الْعُنَاصِرِ الْوِجْدَانِيَّةِ وَالتَّرَاكِيِبِ الْعَمَلِيَّةِ، اسْتَطَاعَ التَّهَوُّضَ ، وَالْإِنْتَظَاقَ إِلَى الْأَمَامِ . وَعَمَلِيَّةُ النَّهْضَةِ لَا مَعْنَى لَهَا إِذَا انْفَصَلَتْ عَنِ قِيَمَةِ الْإِنْتَظَاقِ ، لِأَنَّ النَّهْضَةَ لَيْسَتْ مَقْصُودَةً لِدَاتِهَا ، وَأَهْمِيَّتُهَا تَتَجَلَّى فِي كَوْنِهَا مَرَحَلَةً أَسَاسِيَّةً لِصِنَاعَةِ الْوَعْيِ بِأَهْمِيَّةِ الْإِنْتَظَاقِ . وَإِذَا صَارَ الْوَعْيُ ثِقَافَةً اجْتِمَاعِيَّةً عَامَّةً ، انْطَلَقَ الْمَجْتَمَعُ إِلَى أَحْلَامِهِ ، وَتَجَاوَزَ حَاضِرَهُ ، وَتَقَدَّمَ إِلَى الْمُسْتَقْبَلِ ، بِدُونِ خَوْفٍ وَلَا تَرَدُّدٍ . وَكَمَا أَنَّ الْخَوْفَ يَشُلُّ قُدْرَةَ الْإِنْسَانِ عَلَى التَّفَكِيرِ ، كَذَلِكَ يَشُلُّ قُدْرَةَ الْمَجْتَمَعِ عَلَى الْإِنْتَظَاقِ وَاقْتِحَامِ الْمُسْتَقْبَلِ .

٤

لَا يَسْتَطِيعُ الْإِنْسَانُ أَنْ يَلْعَبَ دَوْرَ الْبَطُولَةِ عَلَى خَشْبَةِ مَسْرَحِ الْحَيَاةِ ، إِلَّا بَعْدَ خُرُوجِهِ مِنَ الْكُوَالِيسِ وَإِزَاحَةِ السُّتَارِ الْفَاصِلِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ، وَمُوَاجَهَتِهِمْ . وَهَذِهِ الْمُوَاجَهَةُ ضَرُورِيَّةٌ ، لِأَنَّهَا تُمَثِّلُ لَحْظَةً الْحَقِيقَةِ، وَتُجَسِّدُ عَمَلِيَّةَ صِنَاعَةِ الْحَدَثِ . وَكُلُّ حَدَثٍ مَنْطِقِيٍّ هُوَ نِظَامٌ مِنَ الْعِلَاقَاتِ

الفكرية ، التي تُشكّل إيقاعاً اجتماعياً واعياً، يربط بين القواعد التفسيرية للمعنى الإنساني وطبيعة الإنسان بكل تناقضاتها. وقُوَّة النظام الاجتماعي لا تتجلى في مَنْع تَشَطُّي الأنساق الإنسانية ، وإنما في السَّيطرة على الشطايا، لأن التَّشَطُّي لا بُدَّ مِنْهُ. وأيضاً، إن المجتمع المُنظَّم ليس الذي يَخلو من عناصر الفوضى، وإنما الذي يُسيطر على عناصر الفوضى، ويجد لها مكاناً ضمن آليَّة البناء الاجتماعي رُوحياً ومادياً .

*

فنشل السياسة المحصورة بين الرهائن والغنائم

١

الفكر الاجتماعي لا ينفصل عن منظومة المشاعر الفردية ، ولا ينفصل عن الإطار العملي للرموز المعرفية ، ومراحل تاريخ العقل الجمعي . وهذا الترابط المركزي المصيري يُحوّل الأنساق الاجتماعية إلى وعاء حاضن لأحلام الناس وآمالهم ، ممّا يدل على أن الأنساق الاجتماعية تُمثّل زُمورًا فكرية ذات مرجعيات نفسية عميقة، وضاربة جذورها في كيان الفرد وبنية المجتمع. ولا يمكن اعتبار الأنساق الاجتماعية مُجرّد تحوُّلات في بنية التاريخ ، أو تغيُّرات في طبيعة الجغرافيا ، لأن المجتمع لا يتحرّك في الإطار المادي فَحَسْب ، بل أيضًا يتحرّك في الفضاء المعنوي غير المحسوس ، والذي يقوم على إفرازات الظواهر النفسية الداخلية المتجذرة في وعي الفرد وإحساسه بذاته ، وشعوره بالعالم المحيط به. وكلُّ فرد أثناء رحلته في الحياة يبتكر منهجه الخاص في التعامل مع الظواهر النفسية والحقائق الاجتماعية ، وهذا يدفع باتّجاه توليد تصوّرات خصوصية عن الأشياء والقيم والرموز والعلاقات التي تنتشر في المجتمع الإنساني ، وتتحرّك باتّجاه حركته ، وماهيّة أفكاره ، وهويّة مساره ، وشخصيته الاعتبارية . وتعدّد التّصوُّرات واختلاف الأحكام ، لا يُشير إلى تشظّي المجتمع الإنساني وانفصام شخصيته وانكسار أحلامه ، وإنما يُشير إلى تعدّد زوايا الرؤية ، واختلاف وجهات النظر المُركّز إلى اختلاف قدرات الأفراد . لذلك تعدّد الأحكام حول الحقيقة الواحدة ، لأنَّ كلَّ فرد يراها بعينه ، ويحكم عليها وفق تصوّره الشخصي . وكما أن المرأة واحدة ، والصُّور فيها مُختلفة تَبَعًا لاختلاف الأفراد الواقفين أمامها ، كذلك المجتمع الإنساني واحد ، ووجهات النظر مُتباينة بسبب تباين القُدرات العقلية للأفراد . وإذا لم تكن الصورة في المرأة جميلةً ، فإن المُشكلة في شخصية الفرد، وليست في طبيعة المرأة .

٢

العلاقة الوثيقة بين أبعاد الوجود الإنساني (الشعور ، الرَّمز ، التاريخ ، الجغرافيا) هي الضمانة الأكيدة للحفاظ على إحساس الأفراد بالحقائق المعرفية والبنى الاجتماعية ، ومنع التعارض بين المُعطيات النفسية والعلاقات الاجتماعية . وكلّما اتّجه الشعور الإنساني إلى الرَّمز الاجتماعي ، اتّضح منهج تفسير مصادر المعرفة في المجتمع الإنساني ، لأن الشعور والرَّمز عابران للتجنيس ، ولا يخضعان لعملية الأدلجة ، لذلك كانت القيم الأخلاقية المُطلّقة _ التي تقوم على ثنائية الشعور

والرَّمز _ واحدة في كُلِّ المجتمعات ، رغم اختلاف العقائد والثقافات . فمثلاً ، إن الصِّدق والإخلاص والأمانة والاحترام ... إلخ ، قيم ثابتة في كل المجتمعات ، وتمتَّع بِسُلْطَة أخلاقية اعتبارية نابعة من العقل الجمعي ، ومُعْتَرَف بها في كُلِّ الأوساط دُونَ الحاجة إلى عمليات أدلجة ، أو ضغط نَفْسي ، أو إرهاب فكري . وهذه القيم مفروضة في أنساق المجتمعات بِحُكْم قُوَّتها الذاتية وماهيتها المُطلقة ، وليس بقرارات سياسية أو أحكام سُلْطوية عُليا . وأكْبُر خطر يُهدِّد المنظومة الفكرية المُتكوَّنة مِنَ الشُّعور والرمز والقيم الأخلاق المُطلقة ، هو المصالح الشخصية الضيقة والتَّزَوَّات الذاتية والرغبات الأنانية، لأنها تُحوِّل القيم المُطلقة إلى مُكوِّنات نسبية ، وتُحوِّل العقائد الدينية إلى أيديولوجيات سياسية نفعية لحشد الناس واستغلالهم والسيطرة عليهم . وخطورة هذه العملية تتجلى في جَعْل اختلاف الآراء الفكرية صراعاً اجتماعياً دموياً ، وتحويل تعدُّد وُجْهات النظر إلى صِدَام ديني مُركَّز إلى التناحر المذهبي والعصبية القَبَلِيَّة والعنصرية العشائرية . وبعضُ الرُّعماء يرسم مُستقبله السياسي اعتماداً على طائفته وقاعدته الانتخابية، دُونَ اعتبار لمركزية الوطن والشعب بكافة مُكوِّناته وشرائحه. وهذا يستلزم بالضرورة ترسيخ سياسة التَّحْشيد والأدلجة ، وأخذ الطوائف رهائن لتوجُّهات بعض السياسيين ومصالحهم الشخصية . لذلك ، يُصبح الوطن مُجرَّد فندق للإقامة المؤقتة بدون انتماء حقيقي . ممَّا يُسبِّب اضطرابات اجتماعية ، وتفكُّكاً في النسيج الوطني، وانتهاءً شاملاً في مؤسسات الدولة. وفي ظل هذا السُّقوط المُريع، يبرزُ تُجَارُ الحروب، وزُعماء الطوائف ، وسماسرة الكوارث . وبعضُ السياسيين مُستعد للتَّضحية بطائفته كاملةً مُقابل الحفاظ على منصبه وامتيازاته ومُكتسباته الذاتية ومصالحه الشخصية ومنافعه المادية . وهكذا ، يختفي معنى الوطن، ويغيب من الأذهان، وتُحلُّ مكانه الحزبية والطائفية والمذهبية . والسياسة _ أولاً وأخيراً _ هي وسيلة منطقية وأداة فكرية لتغيير الواقع إلى الأفضل ، وتسهيل حياة الناس ، وتحقيق أحلامهم . وكُلُّ مجتمع يَنْظر إلى السياسة مِنْ هذه الزاوية ، سيتقدَّم إلى الأمام ، ويَصْهر المراحل في الطريق نحو الازدهار والرخاء الشامل . وليست السياسة أَخَذ الطوائف رهائن للحصول على الغنائم ، وتحقيق منافع شخصية ، والمتاجرة بأحلام الناس وآلامهم ومُعاناتهم ، كما يفعل بعض السياسيين ، الذين يَدْفَعون بلادهم إلى الهاوية ، وأبناء شعبهم إلى اليأس .

٣

كُلُّ أيديولوجية سياسية تُوظَّف الدِّينَ لتمزيق المجتمع ، وتقطيع أوصاله ، والتمييز ضدَّ أبنائه ، مصيرها الفشل الحتمي والسُّقوط المُدوِّي . ومهما كان تُجَارُ السياسة ماهرين في التَّوظيف

السياسي للدين لتحقيق أهداف شخصية، والتلاعب بمشاعر الناس المذهبية ، ودغدغة عواطفهم
الإيمانية ، إلا أنهم سيقعون في شر أعمالهم ، وينقلب السحر على الساحر ، ومن يلعب بالنار
تُحرق أصابعه ، كما أن دفن النار تحت الرماد ليس حلاً لعلاج الأزمات ، وكثرة الضغط تولّد
الانفجار . وحتى لو بدا البركان خامداً ، فلا أحد يعرف موعد ثورانه . وإذا ثار سيُحرق الأخضر
واليابس. لذلك ، ينبغي إطفاء حقد القلوب بالعدل والمساواة ، وإخماد الفتنة النائمة بإطلاق قطار
التنمية الحقيقية الذي يتسع لجميع الناس ، وإشراكهم في مسيرة التقدم والازدهار ، كي ينشغلوا
بالتعمير لا التدمير ، والبناء لا الهدم . ونفسك إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل .

*

الظواهر العقلية الإنسانية وتحليل التراث

إنَّ المُجتمعات الإنسانية لا تُبنى على الوهم والأهواء الشخصية ، وإنما تُبنى على الظواهر العقلية القادرة على صناعة نظام التحولات الاجتماعية ، الذي ينقل الأفكار المُتناثرة من الفوضى إلى النظام ، ومن الارتجالية إلى التخطيط . وهذا الحراك الفكري البناء يصنع عالمًا معرفيًا من الحقائق الاجتماعية ، والتصورات النفسية ، والسلوكيات الإنسانية . الأمر الذي يؤدي بالضرورة إلى إنتاج لغة جديدة في أنساق المجتمع ، تقوم على الوعي والحوار الهادئ ، ولا تقوم على التناحر والضجيج . وإذا نجح المجتمع في ابتكار لغته المنطقية الخاصة به ، استطاع تكوين شخصية اعتبارية لحاضره ومستقبله ، قائمة على غربة تراث الماضي ، والتعامل معه بإنصاف ، بدون تقديس أعمى ، ولا قطيعة عدائية . والتراث إسهامات بشرية تشتمل على الصواب والخطأ . واللغة المجتمعية المنطقية تتعامل مع التراث باعتباره نظامًا من المعارف والرموز والبنى الفكرية المنعكسة عن الواقع المعاش والبيئة المحيطة ، وهذا البناء التراثي المعرفي يحتاج إلى أدوات فاحصة ، واختبارات عقلانية ، ومنهج نقدي تحليلي ، للوقوف على مواطن القوة ، والاستفادة منها للانطلاق نحو المستقبل بلا خوف ولا قلق ، وللوقوف على مواطن الضعف ، وتجنبها ، وأخذ الدروس والعبر منها لضمان عدم تكرارها .

وإذا أردنا بناء منظومة الاختبارات الموضوعية في تراكيب التراث ، فلا بد من دراسة البنية الاجتماعية كنسق من التحولات المعرفية ، قائم بذاته ، ومُفتتح على خصائص العواطف الإنسانية ، والأشواق الروحية، والنزعات المادية، لأن التوفيق بين الروح والمادة هو أساس التفاعل الرمزي ، الذي يصنع قوانين المجتمع العقلية ، ويحدد طبيعة مساره المنطقي. وإذا اتحدت الظواهر العقلية مع الأنظمة الاجتماعية المنطقية، تشكلت الكينونة الاجتماعية الاعتبارية ، التي تتجلى في وجود مجتمع حي وحر وذو شخصية مُستقلة . وهذه العناصر الوجودية ضرورية لتكوين جوهر الحقائق الاجتماعية، الذي يقوم على الأدلة والبراهين، ولا يتأثر بالمصالح الشخصية الضيقة ، والمحاولات المُغرِضة لإعادة إنتاج الإنسانية كأيديولوجية عنيفة تُعادي وجود الإنسان .

ووظيفة المجتمع المتصالح مع نفسه ، والمتحرر من الخوف والقلق، هي تحرير الإنسان من المعاني الزائفة، والوجود الوهمي ، والمُسلّمات الافتراضية غير المنطقية ، ودفع الإنسان باتجاه قيم التسامح بلا ضعف ، وهذا يمنع الإنسان من التحوّل إلى ذنب لأخيه الإنسان .

والإنسانية تعني قتل الوحش داخل الإنسان ، واجتثاث هستيريا التوحش من الوعي السلبي،
والشعور العنيف، والإفراقات المُسيّسة الصّدامية للتاريخ والجغرافيا. ولا تعني الإنسانية قتل
الحضارة ، وتدمير المدنية ، وتدجين الإنسان . وكلّما ابتعدت الحضارة عن الدم والجماجم
واستغلال الآخرين ، اقترب الإنسان من معنى الوجود ومركزية الوعي . وهذا يُساهم في اكتشاف
الإنسان لإنسانيته ، والتصالح مع نفسه ، وإيجاد حالة من الوئام بين مُكوّناته الروحية والمادية ،
وتجذير السلام بين اللفظ والمعنى داخل أفكاره المنطقية وعناصر لغته الاجتماعية .

*

وظيفة النظريات الاجتماعية في الحياة

النظريات الاجتماعية التي تُعنى بتفسير حياة الناس في مختلف الأزمنة والأمكنة ، ليست أفكاراً ذهنيةً مُجرّدةً، ولا خيالات بعيدة عن الواقع ، ولا تلاعباً بالألفاظ والمعاني ، ولا تنميقاً للبارات الرّنانة والفلسفات الفخمة، بل هي إفرازات طبيعية لمشاعر الناس العاديين وأحلامهم وآمالهم ، وانعكاس لها ، وتجسيد لمسارها .

وفي واقع الأمر ، إن الناس العاديين هم الذين يتكرون النظريات الاجتماعية أثناء تحركهم في الحياة معنوياً ومادياً ، ولكنهم لا يملكون القدرة اللغوية على التعبير عن هذه النظريات، وتحويلها إلى علوم اجتماعية قائمة على التسلسل المنطقي ، الذي يعتمد على الأدلة والحجج والبراهين . ومهمّة المفكرين تتجلى في اصطيد اللحظة الزمنية ، وتدوين الملاحظات المعرفية ، وبناء الهرمية اللغوية المعرفية التراتبية ، وتحويل المبادئ الفكرية الشعبية الصامتة إلى أفكار علمية ناطقة ومنطقية ومتماسكة ، واستنباط النظريات الاجتماعية ، وتأسيسها على قواعد المنهج العلمي الدقيق ، الذي يشتمل على الفروع والأصول ، والألفاظ والمعاني ، والروحانية والمادية ، والمثالية والواقعية .

وكلّ عملية استنباط لا بُد لها من وجود منبع (مصدر) يُجسّد الشرعية التاريخية الأصيلة ، ويمنح شهادة الميلاد للأفكار . وفي هذا السياق ، تبرز حقيقتان مركبتان : الحقيقة الأولى _ تاريخ ظهور الأفكار لا يقل أهمية عن الأفكار ذاتها . وهذا يكشف أهمية التسلسل الزمني لبناء التسلسل الفكري ، والزمن ليس حركةً ميكانيكيةً في إطار حياتي محصور بين نقطتي البداية والنهاية . إنّ الزمن هو الوعاء التاريخي للأفكار العقلية والأحاسيس الوجدانية، والرحم الحاضنة لبذرة الإبداع الإنساني. والجنين الفكري لا يتكوّن إلا في رحم الزمن . وكلّ فكرة لا يدخل الزمن في تكوينها الفلسفي ، تستقط في الفراغ . وجغرافيا الفكر الإنساني لا تُصبح كياناً ملموساً إلا في ظل شرعية التاريخ .

والحقيقة الثانية _ الاستنباط هو البنية الفوقية . ولا تُوجد بنية فوقية إلا بوجود بنية تحتية ، والبنية التحتية في العلوم الاجتماعية تتجلى في حياة الناس ، وصراعهم مع قسوة الحياة ، ومدى تحمّلهم للمصاعب ، وقدرتهم على التأقلم مع الظروف الاجتماعية المتغيرة، وسعيهم الدؤوب وراء قوت يومهم، وتحسين حاضريهم ، وتكوين مستقبلهم . والإنسان _ مثل الحضارة _ إذا عجز عن

التأقلم مع الظروف الصعبة ، وفشل في التكيف مع التغيرات الاجتماعية المفاجئة ، سقط في النسيان ، وخرج من التاريخ ، وصار ديناصورًا مُنقرضًا .

والخطورة تكمن في أن الإنسان إذا وقع ، قد لا تأتيه فرصة أخرى للوقوف . والحضارة إذا سقطت ، قد لا تملك زمنًا آخر للتهوض . وهذه ليست فلسفة سوداوية أو تشاؤمية . صحيح أن الإنسان يجب عليه أن يحاول باستمرار، ويتعلم من أخطائه ، ويحاول الوقوف من جديد إذا وقع على الأرض ، ولا ييأس . ولكن في نفس الوقت ، يجب عليه أن يعلم أن هناك أشياء في الحياة لا تتكرر ، وكثير من الفرص لا تعود . وفي كثير من الأحيان ، يكون الخطأ الأول هو الخطأ الأخير، وتكون الفرصة الأولى هي الفرصة الوحيدة ، وعلى الإنسان أن يستغلها إلى أقصى حد ممكن ، ويضرب ضربته الحاسمة ، ويترك بصمته النهائية المؤثرة ، والأمر يشبه غود الثقب ، فهو لمرة واحدة فقط ، وعلى الإنسان أن يحافظ على اللهب أطول فترة ممكنة ، لأن مصير غود الثقب هو الانطفاء الأبدى . ويكفي الإنسان أن يعلم أن حياته الشخصية واحدة ، لا تتكرر ، ولا توجد فرصة ثانية ، ولا محاولة أخرى .

والنشاط الإنساني الحياتي اليومي (الحياة الخارجية) ، مرتبط بشكل وثيق مع بنية المشاعر والأحاسيس والعواطف (الحياة الداخلية) . ولا يمكن للعلوم الاجتماعية أن تكون منطقية وفعالة وقابلة للتطبيق على أرض الواقع، إلا إذا اعتمدت على ربط مادية النظريات الاجتماعية بالمشاعر والأحاسيس المُختلطة في ضمائر الناس ودواخلهم . وكلُّ إنسان _ مهما كان مستواه الروحي والمادي _ يخوض معركة يومية في داخله ، حيث تتأجج المشاعر في نفسه ، وتختلط الأحاسيس في وجدانه ، وتتعارض الأفكار في عقله . وهذه المعركة بين الإنسان ونفسه تحدث ضجيجًا هائلًا في داخل الإنسان ، ولكنه ضجيج خفيّ ، ومستتر ، وغير مسموع ، وغير مكشوف أمام الناس . ووظيفته النظريات الاجتماعية أن تكتشف هذا الضجيج ، وتكشف معناه وماهيته ، وتحلل أبعاده ، وتسيطر على انبعاثاته وشظاياه ، وتدرس تأثيراته في الأنساق الاجتماعية المحسوسة ، والواقع اليومي المُعاش .

وشرعية النظريات الاجتماعية مُستمدة من تحويل ضجيج الأفكار وصخب المشاعر في داخل الإنسان، إلى بُنى فكرية اجتماعية قائمة على التحليل العلمي المنطقي ، والتسلسل المعرفي البناء، الذي يصهر فوضى المشاعر الإنسانية في بؤققة المنهج العلمي ، للحصول على نظريات اجتماعية مُنظمة ، ذات تماس مباشر مع حياة الإنسان وأحلامه ، وقادرة على إيجاد تفسيرات منطقية

للتحوُّلات الاجتماعية على الصعيدين الشعوري والوجودي. وكُلُّ شيء يُمكن تفسيره بشكلٍ علمي منهي، يُمكن السيطرة عليه، والتحكُّم به ، والاستفادة منه .

والتحدي الأساسي أمام كل نظرية اجتماعية يتجلى في مدى فُدرة هذه النظرية على تحويل الفوضى الفكرية إلى نظام معرفي ، والضجيج العاطفي إلى هدوء عقلائي، والارتجال الكلامي إلى تخطيط نظري ، والعفوية البسيطة إلى تطبيق عملي مدروس .

ومن أجل التغلُّب على هذا التحدي ، لا بُد من صناعة فلسفة واقعية عملية خاصّة بالنظريات الاجتماعية، تهدف إلى إيجاد حلول لمشكلات الإنسان، وإزالة الحواجز بينه وبين نفسه من جهة (تحقيق المصالحة مع الذات)، وبينه وبين مُجتمعه من جهة أُخرى (تكريس السَّلم الاجتماعي).

وهذا الأمر في غاية الأهمية ، لأن القطار الاجتماعي لا يسير في ظلّ تعارض اتجاه العربات . ينبغي أن تكون العرباتُ كُلها مترابطة ، وفي اتجاه واحد ، كي يصل القطار إلى هدفه ، ويصل الرُّكَّاب إلى أحلامهم .

*

قدرة الشعور على توليد الزمان وحناكة المكان

التحليل الاجتماعي للعناصر النفسية المتحركة في داخل الإنسان ، يلغي الفرق بين العالم الواقعي والعالم الافتراضي، ويوحد الزمان والمكان في سياق فكري واحد ، لأن الإنسان لا يتحرك في الحياة وفق مسار خطي بسيط ، وإنما يتحرك في مسارات متشعبة معنويًا وماديًا ، وينتقل عبر أطوار معرفية معقدة ، كما أن مشاعره ليست كتلة محدودة ومتجانسة ، وإنما كتل كثيرة متعددة ومتناقضة . وكثير من الناس يعيشون ويموتون، وهم لا يعرفون ما يريدون. ويأتون إلى هذه الحياة، ويخرجون منها، وهم لا يعرفون الهدف من وجودهم ، ولا يدركون طبيعة مسارهم ومصيرهم . وهذا يدل بوضوح على أن النفس الإنسانية كيان في غاية التعقيد ، ومتشابك مع عناصر الحياة بكل تناقضاتها وتقلباتها .

وكما أن وجود الإنسان مؤزّع بين الضحك والبكاء، والخب والكراهية، والفوز والخسارة، والنصر والهزيمة ، والحياة والموت ، كذلك حالته النفسية مؤزعة بين الأضداد، ومُنقسمة بين التناقضات ، بسبب الصراع الإنساني الداخلي بين الحلم والقدرة على تحقيقه، والصدام بين الرغبة وإرادة تنفيذها. وبنية الصراع تعني بالضرورة وجود شطأيا فكرية ، وانبعاثات معرفية يصعب السيطرة عليها ، لأن بنية الصراع في داخل الإنسان لا تقع تحت سيطرته ونفوذه، ولا يملك القدرة على التحكم بها ، وتوجيه مسارها . تمامًا كالحرب ، يستطيع الإنسان أن يحدد موعد بدايتها ، ولكنه لا يستطيع أن يتحكم بمسارها ، ولا يقدّر على تحديد موعد نهايتها ، لأنّ هناك تفاصيل كثيرة ، ومفاجآت غير متوقعة ، وأحداثًا متجددة ، لم تكن في الحسبان . وكما يُقال : الشيطان كامن في التفاصيل . والإنسان قد يرمي عُود ثقاب مُشتعلًا في غابة من الأشجار بسهولة ، ولكنه لا يستطيع أن يعرف مدى الحريق وانتشار النار التي ستأكل الأخضر واليابس .

والحروب التي يخوضها الإنسان في داخله ، والمعارك التي يخوضها بينه وبين نفسه ، لا يمكن التنبؤ باتجاهها ، ولا معرفة حركتها ، لأن الإنسان في هذه الحالة يكون محصورًا في زاوية رد الفعل لا الفعل ، ويكون في إطار المفعول به لا الفاعل . لذلك ، تخضع سلوكيات الناس الاجتماعية ، وتصرفاتهم في الحياة ، لمشاعرهم العميقة ، وأحاسيسهم الدفينة ، ومشكلاتهم النفسية التي سيطرت على اللاوعي منذ طفولتهم ، والماضي لا يمضي، وطفولة الإنسان بأفراحها وأحزانها _ تنتقل مع الإنسان في كل مراحل وجوده رَغْمًا عنه . والإنسان لا يقدّر على تجاوز

مرحلة الطفولة مهما بَلَغَ مِنَ العُمُر ، لأنها راسخة في تفاصيل كيانه وأعماق وجدانه . وَمَنْ يَعْتَقِد أَنَّ بإمكانه تجاوز مرحلة الطفولة ، كَمَنْ يَعْتَقِد أَنَّ بإمكانه خَلْعَ جِلْدِهِ ووجهه ، والعيش بجِلْدٍ جديد وقِناع مُستعار . والشُّعُورُ الإنساني العميق يُكُونُ زَمَنَهُ الخاصَّ به ، لِكَيْلَا يَقْفِزَ الإنسان في الفراغ .

والمراحل الزمنية في حياة الإنسان (الماضي ، الحاضر ، المستقبل) تُشَبِّهُ الحَوَاجِزَ العسكرية في الطريق ، فهذه الحَوَاجِزُ موجودة ، والإنسان مُجَبَّرٌ على التَّوَقُّفِ أمامها ، ولكنها لا تُغَيِّرُ شَيْئاً في طبيعة الطريق ، ولا تُبَدِّلُ اتجاهاه . والطريق جَوْهَرٌ ثابت ، والحَوَاجِزُ أعراضُ زائلة ، وَسَوْفَ تَحْتَفي الحَوَاجِزُ يَوْمًا ما ، ويظل الطريقُ كما هُوَ . وهذا يعني ضرورة التركيز على الطريق ، لأنَّه الثابت في عَالَمِ التَّحَوُّلات .

وحياة الإنسان هي طريقه الأساسي الثابت ، أمَّا الواقع والخيال ، فهُما عُنصران مُتَغَيِّرَان ، وخاصعان للتأثيرات الروحية والمادية . وجَوْهَرُ الوجود الإنساني واحدٌ في العَالَمِ الواقعي والعَالَمِ الافتراضي ، لذلك ينبغي التركيز على هذا الجَوْهَر ، لأنَّه الطريق الرئيسي ، وعدم إضاعة الوقت في الطَّرِيقِ الجانبية والشوارع الخلفية .

وتحليل الوجود الإنساني لا يتأتَّى إلا بإزالة الفرق بين العَالَمِ الواقعي والعَالَمِ الافتراضي ، كي يرى الإنسان وَجْهَهُ في المِرْآة ، بدون مِكيَاج ولا إضاءة خادعة ، ولا مُؤثِّرات خارجية . وقُوَّةُ الإنسان الحقيقية تنبع من ذاته ، وتنبع من أعماقه ، ولا تُسْتَمَدُ من عناصر دخيلة ، أو إسناد خارجي .

وكما أن الإنسان لا يَقْدِرُ على رؤية جسده إلا إذا خَلَعَ ثِيَابَهُ ، كذلك لا يَقْدِرُ على رؤية قُوَّتِهِ الحقيقية وإمكانياته الفِعلية ، إلا إذا خَلَعَ أَقْنَعَتَهُ ، وتَخَلَّصَ من عناصر الإسناد الخارجية ، واعتبرَ العَالَمَ الواقعي والعَالَمَ الافتراضي شَيْئاً واحداً ، واعتبرَ الزمانَ والمكانَ شَيْئاً واحداً ، لأنَّ العِبْرَةَ لَيْسَتْ في عناصر البيئة المُحيطة بالإنسان ، وإنَّما في ذات الإنسان باعتباره كِياناً قائماً بذاته ، يتمتَّعُ بالسُّلْطَةِ الاعتبارية ، وشرعية حياته مُستمدة من حياته ، وَغَيْرُ مُستمدة من العناصر الخارجية . والإنسانُ قد يَشْعُرُ بالفَرَحِ في العَالَمِ الافتراضي ، كما يَشْعُرُ به في العَالَمِ الواقعي ، والنائم قد يَجِدُ لَذَّةً في مَنامه ، كما يَجِدُها الشخص المُستيقظ في الواقع ، ممَّا يدل على أن الشعور الإنساني هو الأساس ، وليس البيئة .

وكثيرٌ مِنَ الناس يَشْعُرُونَ بغربة بين أهلهم وفي وطنهم ، ممَّا يدل على أن الغربة الحقيقية هي غربة الرُّوح لا غربة المكان . وكثيرٌ مِنَ الناس يَشْعُرُونَ بأحلام الطفولة في مرحلة الشيخوخة ، وَكَمْ

مِنْ عَجُوزٍ يَشْعُرُ بِوُجُودِ طِفْلِ صَغِيرٍ فِي أَعْمَاقِهِ ، مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الزَّمَانَ الْحَقِيقِيَّ هُوَ مَا يُفَرِّزُهُ الشُّعُورُ الْإِنْسَانِي ، وَلَيْسَ مَا يُفَرِّزُهُ مُرُورُ السَّنَوَاتِ . وَهَذِهِ الْأَمْثَلَةُ تُشِيرُ بِوُضُوحٍ إِلَى أَنَّ الْإِنْسَانَ كَيْانٌ قَائِمٌ بِذَاتِهِ ، وَمُسْتَقِلٌّ بِوُجُودِهِ وَأَحْلَامِهِ عَنِ الْعَالَمِ الْوَاقِعِيِّ وَالْعَالَمِ الْإِفْتِرَاضِيِّ وَالزَّمَانِ وَالْمَكَانِ ، وَأَنَّ هَذِهِ الْمَفَاهِيمَ مُجَرَّدُ عَنَاصِرٍ تَابِعَةٌ لِلشُّعُورِ الْإِنْسَانِيِّ الدَّاخِلِيِّ ، الَّذِي يُمَثِّلُ التَّجَسُّدَ الْحَقِيقِيَّ لِمَعْنَى الْوُجُودِ الْإِنْسَانِيِّ وَشَرْعِيَّتِهِ وَمَاهِيَّتِهِ .

وَالْمَشْكَالَةُ أَنَّ الْبَشَرَ الْمَحْصُورِينَ ضِمْنَ الْأَنْظِمَةِ الْاِسْتِهْلَاقِيَّةِ الْمُغْلَقَةِ ، يَبْتَهِتُونَ عَنِ السَّعَادَةِ فِي الْعَنَاصِرِ الْخَارِجِيَّةِ ، وَلَا يُدْرِكُونَ أَنَّ السَّعَادَةَ كَامِنَةٌ فِي ذَوَاتِهِمْ وَأَعْمَاقِهِمْ ، وَلَكِنَّهَا تَحْتَاجُ إِلَى عَمَلِيَّةٍ تَنْقِيبٍ وَغَوْصٍ فِي الْأَعْمَاقِ ، كَمَا يُنْقَبُ عُمَالُ الْمَنَاجِمِ عَنِ الذَّهَبِ فِي التُّرَابِ ، وَكَمَا يُغْوِصُ الصَّيَّادُ فِي أَعْمَاقِ الْبَحْرِ لِلْخُصُولِ عَلَى اللُّؤْلُؤِ .

وَبِشْكَالٍ عَامٍ ، يَنْبَغِي عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَكُونَ كَالشَّمْسِ لَا الْقَمَرِ ، لِأَنَّ نُورَ الشَّمْسِ ذَاتِيٌّ وَأَصْلِيٌّ ، أَمَّا نُورُ الْقَمَرِ فَهُوَ مُسْتَمَدٌّ مِنْ نُورِ الشَّمْسِ . وَقُوَّةُ الْإِنْسَانِ تَتَجَلَّى فِي الْقُدْرَةِ عَلَى الْاِسْتِغْنَاءِ لَا الْاِمْتِلَاقِ ، وَكُلُّ شَيْءٍ تَمْلِكُهُ فَهُوَ يَمْلِكُكَ بِصُورَةٍ أَوْ بِأُخْرَى . وَالْغِنَى هُوَ الْمُسْتَغْنَى . وَالِدَوْلَةُ (الْكَيْانُ السِّيَاسِيُّ) لَا تَمْلِكُ قَرَارَهَا وَسِيَادَتَهَا إِلَّا إِذَا كَانَتْ قَائِمَةً بِنَفْسِهَا ، وَمُكْتَفِيَةً ذَاتِيًّا ، وَكَذَلِكَ الْإِنْسَانُ . وَالْخُضُوعُ بِقَدْرِ الْحَاجَةِ ، وَمَنْ أَحْتَاجَ إِلَى شَيْءٍ ، كَانَ فَقِيرًا إِلَيْهِ ، وَخَاضِعًا لَشُرُوطِهِ .

*

الحضارة الباحثة عن المبدأ الموهبي

لا يُمكن تمييز القيم المركزية والقيم الفرعية في المجتمع الإنساني ، إلا بتكوين منظومة فكرية قائمة على طرح الأسئلة ، وتجميع الفرضيات ، واختبارها وفق قواعد المنهج العلمي ، من أجل الوصول إلى صيغة معرفية متماسكة ، تكون أساساً منطقيًا لبناء النظريات الاجتماعية القادرة على تفسير وعي الإنسان ، وسلوكه ، وعلاقته بنفسه ، وعلاقته بالآخرين ، وطبيعة ارتباطه بالعناصر المعرفية في داخل كيانه وخارجه .

والنظرية فرضية تمّ التحقق منها ، وإثباتها بالأدلة والبراهين ، فانقل المعنى من أطوار الشك إلى حالة اليقين ، وتحوّلت الأسئلة المصيرية إلى إجابات شافية ، تُحدّد معالم الطريق أمام الفرد والجماعة . والوصول إلى حالة اليقين هو التحدي الصعب في المجتمع الإنساني ، لأن العلاقات الاجتماعية لا تُبنى على الشك ، والأسس المعرفية للحضارة تفقد معناها في حالة غياب الثقة . وحالة اليقين هي قمة الجبل ، التي تتطلب جهداً هائلاً لبلوغها ، لأن الطريق إليها مليء بالعقبات والصعوبات . وإذا أراد المجتمع الإنساني تذليل العقبات والصعوبات وتجاوزها ، لا بد أن يُفجّر الطاقات الإبداعية في نفوس أبنائه ، ويُحرّزهم من الخوف ، لأن الخوف يشلّ قدرة الفرد على التفكير ، ويُفقدته ثقته بنفسه ، ممّا يؤدي إلى انهيار الجزء في المنظومة الاجتماعية ، وإذا انهار الجزء ، انهار الكل تلقائيًا .

وفي بعض الأحيان ، يخاف الإنسان من نفسه ومُجتمعهِ ، لأن الإنسان _ في السيّاقات الاجتماعية الضاغطة _ يتمّ احتكاره ، والاستحواذ عليه ، والسيطرة على أحلامه ، وقمعها ، ومنعه من التفكير ، وإقناعه بأن هناك مَنْ يُفكّر نيابةً عنه ، ويتخذ القرارات باسمه ، فلا معنى لإعمال عقله ، ولا إعتاب نفسه في التفكير . وهذا الانهيار الشامل يظهر بوضوح في المجتمع الإنساني الاستهلاكي المادي الذي سلّع الإنسان ، وجعله سلعةً مسلوّبة الإرادة ، وخاضعةً لقانون السوق .

والنظام الاجتماعي الموهوس بالاستهلاك المُتوحّش ، الذي يعتمد على تدمير عناصر البيئة واستنزاف موارد الطبيعة للحصول على المُتعة واللذة والرّفاهية ذات الصبغة الأنانية ، أحكم قبضته على العلاقات الاجتماعية ، وفرغ الإنسان من محتواه الإنساني ، وحوّله إلى كيان مُوحش ومُتوحّش ، وفاقد لشروطه وجوده الحر . لذلك ، صار هدف الإنسان هو الوصول إلى منفعة الشخصية ، وتحقيق مُتعة الذاتية ، ونيل الخلاص الفردي ، دون أيّ اعتبار آخر ، ودون اهتمام

بمسير مُجتمعهم . ومن أجل تكريس هذه الأناية المركزية ، يسحق الإنسان أخاه الإنسان ، ويُدمّر عناصر البيئة ، لأنّه صارَ يعتبر البشر أعداء ، يجب إخضاعهم وإذلالهم ، من أجل التحكم بهم ، ونهب ثرواتهم ، والاستحواذ على حاضريهم ومُستقبلهم ، وصار يعتبر عناصر البيئة عبئاً في طريق التقدّم الصناعي والرخاء الاقتصادي ، لذلك لم يُعدّ يُبالي بطبقة الأوزون ، أو الاحتباس الحراري ، أو التغيّر المناخي، أو ذوبان الجليد في القطب الشمالي أو الجنوبي ، أو حرق الغابات التي تُنقّي هواء كوكبنا ، فالغاية هي بناء المجد الذاتي وتحقيق الرخاء الشخصي على حساب تعاسة الآخرين وشقائهم . وهذا مجد وهمي ، وانتصار مُتخيّل ، لأن الإنسان لا يحصل على الأمان عن طريق قتل جاره ، أو تهديد سُكّان منطقته ، أو إحداث فوضى في عالمه ، وإنما يحصل على الأمان عن طريق الحوار الهادئ مع الآخرين ، والوصول إلى صيغة توافقية تحفظ حقوق جميع الأطراف ، مع بناء منظومة تعاون مُشتركٍ لِمَا فيه خير الحضارة وسعادة البشرية . ومهما كان الإنسان ماهراً باللعب بالنار وتهديد الآخرين ، سيحترق بها يوماً ما ، ويدفع ثمن أنانيته ، وكلّ كاسٍ مَكسورٍ ، وقانونٌ تداول الحضارات يسري على الجميع ، ولا يرحم أحداً، لذلك ينبغي أن تكون العلاقات الانسانية قائمة على التراحم والاحترام المتبادل ، بدون إخضاع ولا إذلال ولا استغلال ، لأن القوي لا يظل قوياً إلى الأبد ، والضعيف لا يظل ضعيفاً إلى الأبد . والدُّنيا دَوّارة ، والأيام مُتَقَلِّبة ، ودَوّام الحال من المُحال. والدَّهرُ يومان: يوم لك ، ويوم عليك. والتاريخُ يُعيد نَفْسَه بأدوات عَصْره، ولا جديد تحت الشمس. الحُبُّ هو الحُبُّ في كُلِّ مراحل التاريخ، ولكن وسائل التعبير عنه تختلف باختلاف الزمان والمكان وطبيعة الناس. وأيضاً ، الحربُ هي الحرب في كُلِّ العصور ، ولكن الاختلاف في نوعية الأسلحة. وهذا يدل على أن المشاعر الإنسانية واحدة، سواء كانت إيجابية أم سلبية، لسبب بسيط ، وهو أن الحضارة تستطيع أن تبتكر تقنيات جديدة ، وتبتكر وسائل تكنولوجية حديثة ، ولكنها لا تستطيع أن تبتكر إنساناً جديداً ، وتبتكر مشاعر وعواطف حديثة . والإنسان لا يتعلّم من التاريخ ، لذلك يُكرّر أخطاء مَنْ سَبَقوه ، والمشكلة أن كل إنسان يعتقد أنّه أذكى من الآخرين ، وأنّه الاستثناء من القاعدة ، وما أصاب الآخرين لَنْ يُصيبه ، وما حَدَثَ لهم لَنْ يَحْدَثَ له. وهذا الغرور قاتل، لأن الإنسان يتحرّك في حَلَقَةٍ مُغلَقَةٍ مُسيطر عليها ، وهي مُحَكَّمة بقانون التاريخ الذي لا يستثنى أحداً. ومهما كان الإنسان ذكياً، لا يَقْدِر أن يَهْزِمَ التاريخ . ومهما كان السَّبَّاح قوياً ، لا يَقْدِر أن يَهْزِمَ البحر . وما ينطبق على الإنسان (العنصر الجزئي) ينطبق على الحضارة (المنظومة الكلّية) .

وللأسف الشديد ، وقعت الحضارة الباحثة عن المجد الوهمي، في فخِ الواحدية الفلسفية ومُصيدة أحادية القطب، أي إنها اعتقدت أن وجودها يستلزم نفْي الآخرين وشطب تراثهم الحضاري، وأن المكان لا يتسع إلا لحضارة واحدة فقط . وبالتالي، لا مجال للتعدد، ولا فرصة لصناعة عالمٍ مُتعدد الأقطاب . وهذه نظرة قاصرة ، لأن البشرية في سفينة واحدة ، وكل حضارة لها حُجرة في هذه السفينة ، وإذا تصادمت الحضارات ، وحاولت كُلُّ حضارة أن تُنفي الحضارة الأخرى، وتُلغي خصوصيتها الثقافية، فإنَّ السفينة ستغرق ، وتنهار المنظومة الحضارية الجَمعية برُمَتها . وهنا تبرز خطورة اللعبة الصِّفوية (إمّا أنا أو أنت) ، التي تشتمل على المبدأ الوَحْشي : " المكان يتسع لشخص واحد فقط " . وفكرة الإقصاء تُقود الإنسان إلى تدمير نفسه بنفسه ، وتحطيم عناصر الطبيعة ، لأنه يدخل في صراع مستمر ودائم ، يستنزفه حتى الرمق الأخير . وهذا هو انتحار الإنسان التدريجي الذي يتم على مراحل زمنية ، ويتطلّب البحث عن أعداء جُدد باستمرار، لإبقاء نار الحقد مُشتعلة .

وفي رحلة البحث الجنوني عن الصِّراع والصِّدام واحتمالات الانتصار والهزيمة ، يغرق الإنسان في هوس الاستهلاك ، وأحلام السيطرة على موارد الطبيعة وعناصر البيئة ، والتفكير بأساليب قتل جديدة ، قتل الرُّوح ، وقتل الجسد . وتتركّز مفاهيم مُتوحّشة كالاستئصال والإبادة والتطهير العرقي والإلغاء الشامل . وهذا يعني أن الإنسان ابتلع جُرثومة الحضارة الباحثة عن المجد الوهمي، وتجدّدت بذرة انهيار الإنسان في داخله ، لأنه اعتقد أن حياته تستلزم مَوْت الآخرين ، ووجوده يتطلّب فناء عناصر الطبيعة ، وأنَّ الحضارة مشروع مادي استغلالي شخصي ، يسعى إلى تحقيق الانتصار ، بغضِّ النظر عن الوسيلة ، ومهما كان الثمن . وهذا يجعل الحضارة وحشًا كاسرًا ، يُشكِّل خطرًا على وجود الأفراد والمجتمعات . وبدلًا من أن تكون الحضارة هي الحل لمشكلات الإنسان ، صارت هي المشكلة . وهذا يعني حدوث مُواجهة كارثية بين الإنسان والحضارة ، ينتج عنها دمار شامل. والأمر يُشبه حدوث مُواجهة بين الرُّبّان والسفينة ، ولا يُمكن أن ينتج عنها إلا الغرق .

وهذا الانحرافُ الخطير ينبغي أن يُواجه بمنهج حضاري إنساني غير مُوحش ولا مُتوحّش ، يقوم على ثنائية (أنا وأنت) ، وليس (أنا أو أنت) ، فالطريقُ يتسع لجميع المآرة ، والحضارة الإنسانية إسهامات تراكمية عابرة لحدود الزمان والمكان . وكلُّ من يعتقد أن إلغاء إنسانية الآخرين سيُجعله إنسانًا مُتفردًا ومُميّزًا ، ومُستقرًا في قلب الأحداث ودائرة الضَّوء لوَحده ، هو وَحش ،

وليس إنساناً ، وسيخسر نفسه والآخرين . ومن يُردُّ كُلُّ شيء ، يخسر كُلَّ شيء . وكما قيل :
كسر مجاديف الآخرين ، لا يزيد من سرعة قاربك .
و " البشرية في سفينة واحدة " ليس شعاراً رومانسياً حالماً لإظهار المحبة بين الناس ، وصناعة
الأخوة البشرية ، وبيان وحدة المصير الإنساني. إنَّ هذا الشعار هو مُلخَّص الوجود الإنساني ،
والحقيقة الواقعية الثابتة في عصر المُتغيِّرات . وكُلُّ تهديد وجودي في أيَّة بُقعة في هذا العالم ، هو
بالضرورة تهديد للوجود الإنساني بأكمله . وكُلُّ مُشكلة صحيّة ، أو معرفية ، أو بيئية ، أو
تكنولوجية ، مهما بدت صغيرة وبعيدة ، هي مشكلة لكل البشر، وقريبة منهم أكثر ممَّا يتخيّلون ،
وتؤثّر على حياتهم ووجودهم ومصيرهم بشكل أو بآخر . فإمّا النجاة معاً ، أو الغرق معاً .

*

الحُرِّيَّةُ سِلَاحٌ ذُو حَدَّيْنِ

١

تُمَثِّلُ القُدْرَةُ على صناعة التاريخ امتحاناً حقيقياً للإنسان ، في رحلته داخل نفسه وخارجها . وهذا الامتحان لا يقوم على ثنائية (الأسئلة / الأجوبة) ، وإنما يقوم على ثنائية (الصُّمود / التَّكْيُف) ، إذ إنَّ وُجُودَ الإنسان الفِعْلي والفَعَال لا يتكرَّس في بُنية العلاقات الاجتماعية ، إلا إذا صمَدَ الإنسانُ في وجه التحديات المصيرية ، ونجح في تجاوزها ، وتَكَيَّفَ معها . وهذا التَّكْيُف لا يعني الدَّوْبَان فيها ، ولا الاستسلام لها ، بل يعني العمل المتواصل لإيجاد حلول للمشكلات الفردية والجماعية، لأن المشكلات جزءٌ من تركيبة المجتمع الإنساني ، وهي دليل على حياة المجتمع وحيويته ، وسَعْيِهِ إلى العمل الدؤوب، وصناعة الإنجازات، والتَّقدُّم إلى الأمام . ووجودُ الأخطاء طبيعي ومُتَوَقَّع ، لأن كُلَّ مَنْ يَعْمَلُ مُعَرَّضٌ للخطأ ، وَمَنْ لا يَعْمَلُ لا يُخْطِئُ . ووجودُ المرض ومُقاومته دليلان على حياة الإنسان وإرادته وإصراره ، والمَيِّتُ _ وَحْدَهُ _ لا يُصاب بالمرض ولا يُقاوم . والباحثُ عن مجتمع بلا مشكلات ، كالباحث عن حياة بلا موت .

٢

رحلة الإنسان في هذا الوجود عبارة عن حركة تصحيحية مُتواصلة ، تهدف إلى تصحيح الأخطاء ، وتدارك ما فات ، وإنقاذ ما يُمكن إنقاذه . وَلَنْ يَنْجَحَ الإنسانُ في صناعة التاريخ إلا إذا تحرَّرَ مِنَ الخوف . وأكْبَرُ خطر يُهدِّدُ الإنجازَ البشري والتَّقدُّمَ الحضاري ، هو ترك العمل خوفاً من ارتكاب الخطأ ، والوقوف على الجِياذِ خوفاً من لُومِ الناس وعِتابهم ، وعدم أخذ زِمَامِ المُبادَرة خوفاً من رَدَّةِ فعل المُجتمع . وهذه الرُّهبة المُتَجذِّرة في نفوس الكثيرين ، تُحطِّمُ المواهب ، وتقتل الإبداع، وتَجْعَلُ الإنسانَ مَيِّتاً في الحياة ، بلا هُويَّةٍ مستقلة ولا شخصية اعتبارية . وبسبب الخوف ، والتفكير في أحكام المُجتمع المُسَبَّقة ، وعدم الثِّقة بالنَّفْس ، يتحوَّل الإنسانُ إلى شبح فارغ ، وظل باهت ، وتابع مكسور ، وجزء منسي في المجموع الكُلِّي ، بلا أحلام ولا آمال . وعندئذ ، يَخْسِرُ المجتمعُ مواهب أبنائه الإبداعية وطاقاتهم الهائلة . وكثير من الناس لَدَيْهِمْ وُجْهات نظر خاصَّة ، وكلام تحليلي للأحداث ، وبُنى فلسفية عميقة ، ومع هذا ، يَلُودُونَ بالصَّمْت ، ويَدْفِنُونَ كلامهم في قلوبهم ، خوفاً من نَظَرَةِ المجتمع ، أو رَدَّةِ فعل الآخرين (السُّخْرية ، الاستهزاء ، التَّوْبِيخ) . ومَواهبهم الذاتية وإمكاناتهم الشخصية تُؤْهِلُهُمْ أن يكونوا قادة للرأي في المُجتمع

الإنساني ، ومع هذا يَقْبَلُونَ بدور الكومبارس، والتابع لإفرازات العقل الجَمعي ، والخاضع للأفكار الشعبية التي تَمَّ ترسيخها كُمُسَلَّمات ، بفعل ضَغَط الجماهير ، وهَيَجَان الرأي العام ، وليس بفعل الدليل الصحيح ، والمنطق السديد . وسلوك الجماعة بلا تفكير ولا تخطيط يُجَدِّر سياسة القطيع في المجتمع الإنساني ، وَيَقُودُهُ إلى الهاوية السحيقة ، لأنَّه أَغْفَلَ الحُجَجَ والبراهين ، واعتمدَ على الأفكار الشعبية العاطفية ، والمشاعر الجماهيرية الحماسية . والرأي الصحيح يُؤْخَذُ بالحُجَّةِ القوية ، وليس بالأغلبية . وعلى الإنسان أن يثق بِنَفْسِهِ وإمكاناته ، ويمتلك الشجاعة للتعبير عن آرائه بشكل هادئ وعلمي ومنطقي ، لأنَّ الخَوْفَ سيقتله من الداخل ، ويجعله كَيَانًا مُفْرَغًا مِنَ الحُلْمِ والإبداع والإنجاز ، وهذه العملية بداية الانهيار والنهاية ، لأنَّ الكيان الإنساني الفارغ سيسقط ، كما تَسْقُطُ العِمارة المُفْرَغة من الهواء بفعل الضغط الخارجي . وقد قِيلَ : في البداية ، يتجاهلونك ، ثمَّ يَسْخَرُونَ مِنْكَ ، ثمَّ يُحَارِبُونَكَ ، ثمَّ تنتصر ! .

٣

الذكاء الاجتماعي على الصعيدين الفردي والجماعي يقوم على ثلاثة أركان : أ_ الذهاب إلى أبعد نقطة بأقل تكلفة . ب_ التأقلم مَعَ الظروف الصعبة ، وتَطْوِيعُهَا ، وتحويلها من مِحْنَةٍ إلى مَنَحَةٍ . ج _ الإمساك بِطَرَفِ الخِيطِ مَهْمَا كانت التهديدات والضغوطات ، لأنَّ التَشَبُّثَ بِطَرَفِ الخِيطِ يعني أن الإنسان على الطريق الصحيح ، وسيصل إذا واصلَ المشي ، مهما كان بطيئًا وضعيفًا . ولكنَّ فَقْدَانِ طَرَفِ الخِيطِ يعني خسارة الطريق ، وضياح الإنسان في متاهة . ولا فائدة من التقدُّم ، والمشي بسرعة ، وصهر المراحل ، إذا كان الطريقُ خاطئًا ، كما أنَّه لا فائدة من سرعة القطار إذا كان في الاتجاه الخاطئ .

٤

عندما يصل المجتمع الإنساني إلى الحضيض ، ويغيب اليقين ، وينتشر الشك ، وتزول الثقة بالنفس ، ويصبح الشُّركاء في الوطن أعداء ، وتصير مؤسسات الوطن عِبْثًا ثَقِيلًا على المواطنين، تُصاب الجماهيرُ بالعمى الأيديولوجي ، وتفقد القدرة على التمييز ، وتتكسّر سياسة القطيع كحالة نهائية للخلاص الوهمي ، ويؤول العقلُ الجَمعي إلى عواطف غير منطقية ، وإفرازات اجتماعية مَهووسة ، وتُصبح الحُرِّيَّةُ خطرًا على الناس ، لأنَّ الحُرِّيَّةَ مسؤولية ، وإذا عَجَزَ الإنسانُ عن تحمُّلِ المسؤولية ، ولم يَسْتَطِعْ تقدير قيمة الحُرِّيَّةِ، ولم يَقْدِرْ على استخدامها في المجال الصحيح ، سوف يُؤْذِي نَفْسَهُ ، وَيَضُرُّهَا بدلًا من أن يَنْفَعَهَا . والأمرُ يُشْبِهُ إعطاءَ طفلٍ سَكِينًا كَي يَقْطَعُ تُفَاحَةَ

ويأكلها. إن هذه العملية تهديد لحياة الطفل، وليست حرصًا على تغذيته وتقوية جسمه . وينبغي أن نعرف أن الزعيم النازي أدولف هتلر وصل إلى السلطة بانتخابات ديمقراطية حرة ونزيهة ، وفقًا لقواعد السلوك الانتخابي ، ولم يَجِْ بانقلاب عسكري ، ولم يَسفك قطرة دم واحدة في طريقه إلى الحكم . ولكن النتيجة كانت كارثية ، ومعروفة للجميع . وهذا يعني أن الجماهير التي منحتهم أصواتها الانتخابية كانت في حالة غرق ، والغريق يتعلّق بِقَشَّة ، أو يتعلّق بحبال الهواء . صحيح أن هذه حالة نادرة ، والنادر لا حُكم له ، ولكن حُداث شيء مرّة واحدة على أرض الواقع ، يعني أن احتمالية تكراره واردة . وكلُّ إنسان لا يعرف قيمة النعمة سيجعلها نعمةً، وتكون وبألا عليه. والشعوب التي لا تعرف معنى الحرية، سوف تستخدمها لذبّ نفسها. وهذا ليس دفاعًا عن الاستبداد ، أو دعمًا للطغاة ، ولكن ينبغي معرفة أن الحرية مُمارسة تعليمية تدريجية جماعية، وليست قفزة في المجهول، أو انتقالًا من الوجود إلى العدم ، أو تفكيكًا لمؤسسات الدولة ، أو تدميرًا للمُنجزات الوطنية الحضارية ، أو إضاعةً لحاضر الشعوب ومُستقبلهم . ومن أراد تعلّم السباحة ، عليه أن يذهب برفقة مُدرّب إلى بركة ماء صغيرة ، ولا يذهب إلى البحر وحيدًا ، لأنّه سيفرق حتمًا. والحرية شُعلة نار، قد تُنير طريق الإنسان في الظلام ، وتوصله إلى أهدافه وأحلامه ، وتجلب له الدّفء ، وتوفّر له الحماية من الأعداء. وفي نفس الوقت، قد تُنهّي حياة الإنسان، وتُحرق الأخضر واليابس ، وتجعل الحياة جحيماً لا يُطاق .

*

صناعة التاريخ بين الجذور والأغصان

١

التاريخ ليس ظاهرة عقلية مُجرّدة ، أو إحساساً مُؤقَّتاً بالمراحل الزمنية . إن التاريخ شرعية الوجود الإنساني ، وماهيّة المحتوى الاجتماعي التراكمي ، الذي يحتضن أحلام الفرد وطموح الجماعة. وكما أنّه لا يُمكن تصوّر شجرة بدون جذور ، كذلك لا يُمكن تصوّر إنسان بدون تاريخ . والإشكالية في بُنية العلاقات الاجتماعية تتجلّى في اعتبار التاريخ زمنًا سابقًا وراثيًا ماضيًا ، لذلك يرتبط التاريخ في أذهان الناس بالعودة إلى الماضي ، والرّجوع إلى الوراء ، وهذا فُهم مغلوط وقاصر ، لأن التاريخ شرعية مُتجدّدة ، وماهية مستمرة ، وزمن مُتواصل ، وكتاب مفتوح ، وكُلّ إنسان يترك بصمته الشخصية في هذا الكتاب ، وكُلّ حضارة تكتب تفاصيل وجودها فيه . وهذا يعني أن صناعة التاريخ تمتاز بالديمومة غير المحدودة بالأطر الزمنية . وفي حقيقة الأمر ، نحن نتقدّم إلى التاريخ، ولا نعود إلى التاريخ ، لأن التاريخ معنّا وفينا ، بكل إيجابياته وسلبياته . والعودة إلى الشّيء تعني غيابه عن المشهد الراهن ، ومُحاولة استرجاعه من ذاكرة الماضي السحيق ، ونقله من الماضي إلى الحاضر. في حين أن التاريخ حاضر في قلب الأحداث اليومية ، وليس غائبًا حتى يتم استرجاعه، ولا يُوجد وراء ظُهورنا كي نُحاول إحضاره أمام أعيننا . إن التاريخ كائن حي نتعامل معه ، ويتعامل معنا ، في كُل وقت وحين . وهو كتاب مفتوح على الماضي والحاضر والمستقبل معًا ، ضمن عملية صَهر المراحل في بوتقة الوجود الإنساني . والإنسان يعيش في قلب التاريخ . وهذا يعني أن التاريخ ليس غائبًا تُنتظر عودته، وليس تراثًا ضائعًا في متاهة الماضي حتّى يُسترجع ، ويُنفّض عنه الغبار ، وليس فعلاً ماضيًا حتى يُسمّى إلى تحويله إلى فعل مُضارع .

٢

الشجرة الباسقة لا تعتبر جذورها مُجرّد مرحلة زمنية أتت وانقضت ، وتمّ تجاوزها . وتاريخ الشجرة كيان واحد مُتماسك، يتمتّع بالاستمرارية المعنوية والمادية ، ويمتاز بديمومة الحياة ، ولا يُمكن فصل الجذور عن الأغصان، ولا يُوجد صراع حول شرعية الوجود بين الجذور والأغصان، ولا أحد يطرح سؤال : من الأكثر أهمية الجذور أم الأغصان ؟ ، لأن منظومة (الأصل السابق / الفرع اللاحق) تتحرّك في قلب الحياة بشكل مُتوازن ومُنسّق وفَعّال لإنتاج الثمر. ووُجود الثمر يعني أن أجزاء الشجرة جميعها تعمل بروح الفريق الواحد، دُون صراع، ولا صدام ، وأن جميع الوسائل والجهود مُتضافرة ومُرتبطة معًا ، من أجل الوصول إلى النتيجة المرَضية . والعناصرُ تعرف

وظيفتها بدقّة ضمن الكيان الواحد، وهي مشغولة بالعمل وإنتاج الثمر . والعمل والجدل ضدّان لا يجتمعان ، ونقيضان لا يلتقيان . إذا خَصَرَ أحدهما غاب الآخر . وهذا يُشير إلى أن دَوْران عَجَلَة الإنتاج هو الحلّ السّحري لسد الثغرات ، وإزالة الخصومات ، وإنهاء النزاعات ، لأن الجهود عندئذ تكون مُوحّدة ومُرَكّزة ومُوجّهة نحو التقدّم والإنتاج والازدهار . وإذا كان فريق العمل يسعى إلى هدف مُشترك ، وغاية واحدة ، ستزول جميع الخلافات بين أفرادهِ . أمّا إذا زال الهدف المُشترك ، واختفت الغاية الواحدة، وتوقّفت عَجَلَة الإنتاج، فعندئذ ستظهر الصراعات بين أفراد فريق العمل ، ويُسيطر عليهم التناحر والنزاع، ويغرقون في الفرقة والصّدام .

٣

كُلُّ شجرة موجودة في هذه الحياة تحمِل شرعيّتها الوجودية الذاتية (الجذور)، وهويّتها الخاصة (الأغصان) ، ومظهرها الجذّاب (الثّمار). وهذا يجعل شخصية الشجرة متماسكة ، بلا انفصام ، ولا تشتّت . ويجعل كيانها راسخاً بلا صراع بين الماضي والحاضر . وكُلُّ إنسان على قيد الحياة ، لا يتحرّك في هذا الوجود وحيداً ، وإنّما يتحرّك حاملاً آباءه في شخصيته الاعتبارية وطبيعة تكوينه المعنوي والمادي . والإنسانُ جزء من سُلالة مُستمرة ومُتواصلة ، لذلك يعيش الماضي والحاضر والمستقبل معاً . والأب ليس مجموعة جينات وراثية عفا عليها الزمن ، وذهبت إلى النسيان . إنّ الأب وجود وشرعية وشخصية ومعنى وفكر . وكذلك التاريخ . والتاريخ ليس كومة من الأفعال الماضية التي ضاعت في إحدى زوايا ذاكرة الثّرات . إنّ التاريخ فعل مُتجدّد، يُؤلّد باستمرار ، ويتكاثر بلا توقّف ، وهو مرتبط بأدق التفاصيل الإنسانية اليومية المُعاشة ، ومغروس في الوُعي (العقل في حالة الإدراك) واللاوُعي (الشعور الباطن الذي يَنشأ دون إدراك) . وتاريخ الإنسان مثل جلده ، لا يستطيع أن يُغيّره حتى لو أراد ذلك . وكُلُّ مُحاولَة لمُحاربة التاريخ ستَبوء بالفشل ، والواجب على الإنسان أن يُساهم في صناعة التاريخ، وترك بصمته الشخصية، وغرس وجهة نظره ، وتكريس رؤيته الشخصية النابعة من تجاربه الشعورية والواقعية. وصناعة التاريخ معركة حقيقية يخوضها الإنسان ضدّ أحزانه وإخفاقاته ونقاط ضَعفه، من أجل الوصول إلى حالة التوازن الروحي، والسلام مع ذاته والآخرين ، والمُصالحة مع عناصر الطبيعة . وما دام الإنسان في قلب المعركة (صناعة التاريخ) فهو يعيش أجواء المعركة بروحه وعقله وجسده ، وعليه أن يكون صَوْتاً لنفسه لا صدى لأصوات الآخرين . والحياة قصيرة ، وهذا يعني ضرورة أن يترك الإنسان بصمته الشخصية ، ويعيش حياته الذاتية ، ويكوّن نفسه ، ولا يتقمّص شخصيات الآخرين ، ولا يعيش حياتهم .

الشخصية الإنسانية وإحدى تدوير المشاعر

١

المُهْمَةُ الأساسية للعلوم الاجتماعية هي الوصول إلى الإنسان ، وفك شيفرة مشاعره الغامضة ، وتحليل أبعاده النفسية العميقة ، ومعرفة مفاتيح شخصيته الظاهرة والباطنة . وطبيعة الشخصية الإنسانية قائمة على التَّشْطِّي ، لأنَّ الإنسان يتحرَّك في عَالَمِهِ الفكري وبيئته الاجتماعية ومساره الحضاري ، في ظلِّ التحديات المصيرية . كما أنَّه واقع تحت الضغوطات الحياتية، ومُحَاط بالأزمات المعنوية والمادية، وهذا الأمر ليس غريباً، ولا يُشكِّل مُفاجأة ، فالحياتُ معجونة بالتعب والأخطار ، ومع هذا فهي جديرة بأن تُعاش بكامل تفاصيلها ، والمُتعة كامنة في تجاوز العقبات . وقدَّرَ السفينة أن تُبحر في مياه مُضطربة ، وتواجه الأخطار والعواصف ، فهذا جزء أساسي في حياة البحر والبحارة . ولو انتظرَ كُلُّ رُبَّانٍ هُدوءَ البحر وسُكونه كي يُبحر بسفينته ، لصارَ عاطلاً عن العمل، ونام في بيته. ولو انتظرَ كُلُّ طَيَّار الطقْس المُشمِس للإقلاع بطائرته، لَمَا طارت طائرة واحدة في هذا العَالَم . وهذا يعني أن الصُّعوبات هي التي تَمْنَح الطَّعْمَ للأشياء ، كما يَمْنَح المِلْحُ المَذَاقَ للطعام. ولا شيء يُعادل فرح الطالب الذي يَنجح في امتحان صعب ، ويتمكَّن من اجتيازهِ، لأنَّه عندئذ سترداد ثقته بنفسه ، ويؤمن بقدراته وإمكاناته ، ويَقْتَنع بأنَّه يَنتمي إلى نُخبة المجتمع التي تمتلك مؤهلات عقلية خاصَّة ، وسوف يَنْظر إلى نفسه باعتباره مُمَيَّزًا ، وقادرًا على صَهر المراحل ، والتفوق على الذات والآخرين. أمَّا إن كَانَ الامتحانُ سهلاً وبسيطاً، فلا تُوجد أَيْة مُتعة في اجتيازهِ، لأنَّه الجَميع سينجحون فيه بلا تعب. وبالتالي، لا يَشعر الإنسان بتميُّزه ، فهو جزء من الكل ، وواحد من الناس، بلا بصمة مُؤثِّرة ولا موهبة مُتفردة . والبطلُ لا يَتَكَرَّس كشخصية كاريزمية جذابة ، إلا إذا استطاع التفوق على الخُصوم الأقوياء ، وكلَّما كان الخصمُ قويًا وشديدًا ، كان قاهره وغالبه أقوى وأشدَّ . ولا يَفْلُ الحديد إلا الحديد .

٢

التَّشْطِّي في طبيعة الشخصية الإنسانية لا يعني أن الإنسان مُصاب بانفصام في الشخصية ، أو أنَّه مريض نفسيًا ، أو يُعاني من عُقد اجتماعية ، لأنَّ التَّشْطِّي يعني أن الإنسان في رحلته الحياتية يُقَاتِل على عِدَّة جَبَهَات، فهو يُقَاتِل أفكاره الانهزامية ، وإحباطاته اليومية ، وشَهَوَاتهُ المُتَأَجِّجة ، ونقاطَ ضَعْفِهِ ، وصراعاته الداخلية ، وأزماته الخارجية ، وكأنَّ الإنسان قسَّم نفسه إلى أجزاء ،

وَوَزَعَهَا عَلَى الْجَبَهَاتِ ، مِنْ أَجْلِ الْإِنتِصَارِ عَلَى ذَاتِهِ ، وَتَطْوِيعِهَا ، حَتَّى يَجِدَ السَّلَامَ الدَّاخِلِيَّ ، وَيُحَقِّقَ الْمُصَالِحَةَ مَعَ ذَاتِهِ وَالْآخَرِينَ وَعِنَاصِرِ الطَّبِيعَةِ . وَهَذِهِ الْمُصَالِحَةُ لَا تَعْنِي الْإِسْتِسْلَامَ لِلْأَمْرِ الْوَاقِعِ ، وَإِنَّمَا تَعْنِي تَغْيِيرَ السَّلْبِيَّاتِ فِي الْوَاقِعِ ، وَصِنَاعَةَ وَاقِعٍ جَدِيدٍ أَكْثَرَ إِشْرَاقًا . وَهَذَا لَا يَتَأَتَّى إِلَّا إِذَا كَانَ الْإِنْسَانُ قَادِرًا عَلَى الْحُلْمِ بَعْدَ أَفْضَلِ ، وَامْتَلَكَ أَدَوَاتِ الْإِبْدَاعِ وَالتَّغْيِيرِ نَحْوَ الْأَحْسَنِ . وَالْخَيَالُ هُوَ الْأَسَاسُ الْفِكْرِي لِتَغْيِيرِ الْوَاقِعِ ، وَتَطْهِيرِهِ مِنْ مَوَاطِنِ الْقُبْحِ ، وَنَشْرِ الْجَمَالِ وَالْبَهَاءِ فِيهِ . وَكُلُّ الشُّظَايَا الَّتِي تَتَسَاقَطُ فِي دَاخِلِ الْإِنْسَانِ نَتِيجَةُ عَمَلِهِ تَحْتَ الضَّغْطِ الْيَوْمِيِّ رُوحِيًّا وَمَادِّيًّا ، يَجِبُ أَنْ يُحَوَّلَهَا إِلَى قَاعِدَةٍ صُلْبَةٍ يَبْنِي عَلَيْهَا أَحْلَامَهُ وَطُمُوحَاتِهِ ، وَهَذَا يَعْنِي ضَرُورَةَ تَوْظِيفِ شُظَايَا الْكَيَانِ الْإِنْسَانِيِّ كَعِنَاصِرٍ لِبِنَاءِ الْإِنْسَانِ الْجَدِيدِ ، وَلَيْسَ هَدْمُهُ وَتَحْطِيمُهُ . وَهَذِهِ الشُّظَايَا مِثْلُ كَلَامِ الْأَعْدَاءِ ، إِمَّا أَنْ يَجْرَحَ الْمَشَاعِرَ ، وَيُحْطِمْ الْمَعْنَوِيَّاتِ ، أَوْ يَكُونَ سَبَبًا لِلْإِصْرَارِ وَالتَّحَدِّيِّ ، وَدَافِعًا نَحْوَ التَّفَوُّقِ وَالْعَمَلِ الدَّوَّوبِ .

٣

كُلُّ إِنْسَانٍ _ مَهْمَا كَانَتْ دَرَجَةُ ذِكَاثِهِ وَمَكَانَتِهِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ _ يَمْتَلِكُ شَخْصِيَّتَيْنِ : الشَّخْصِيَّةَ الظَّاهِرَةَ السُّطْحِيَّةَ ، وَالشَّخْصِيَّةَ الْبَاطِنَةَ الْعَمِيقَةَ . وَالْعِلَاقَةُ بَيْنَ الشَّخْصِيَّتَيْنِ كَالْعِلَاقَةِ بَيْنَ الْجُزْءِ الظَّاهِرِ مِنْ جِبِلِّ الْجَلِيدِ ، وَالْجُزْءِ الْخَفِيِّ الَّذِي يُمَثِّلُ الْكُتْلَةَ الْأَكْبَرَ وَالثَّقَلَ الْحَقِيقِيَّ . وَلَا يُمَكِّنُ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَجِدَ نَفْسَهُ فِي ضَجِيجِ الْحَيَاةِ وَزِحَامِ النَّاسِ ، إِلَّا إِذَا حَقَّقَ التَّوَازْنَ وَالتَّكَامُلَ بَيْنَ الشَّخْصِيَّتَيْنِ ، لِحِمَايَتِهِمَا مِنَ التَّعَارُضِ وَالتَّصَادُمِ . وَهَذِهِ الْغَايَةُ لَنْ تَتَكَرَّرَ كَوَاقِعُ مَلْمُوسٍ إِلَّا إِذَا غَاصَ الْإِنْسَانُ فِي أَعْمَاقِهِ السَّحِيقَةِ ، وَبَحَثَ عَنِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي مَاتَتْ فِيهِ ، وَبَقَايَا الذِّكْرِيَّاتِ وَالصُّوَرِ الْمُخْتَبِئَةِ فِي زَوَايَا قَلْبِهِ ، وَرَوَاسِبِ الْأَزْمَةِ وَالْأَمَكْنَةِ الْمُتَجَمِّعَةِ فِي وَجْدَانِهِ ، وَشُظَايَا أَفْكَارِهِ وَمَشَاعِرِهِ الْمُبْعَثَةِ فِي كَيَانِهِ . وَعِنْدَمَا يَجِدُ هَذِهِ الْعِنَاصِرَ غَيْرَ الْمُتَجَانِسَةِ ، يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَصْهَرَهَا فِي بَوْتَقَةِ وَاحِدَةٍ ، لَصِنَاعَةِ سَبِيكَةِ إِنْسَانِيَّةٍ قَادِرَةٍ عَلَى مُقَاوَمَةِ الشَّدَائِدِ ، كَمَا يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَعْمَلَ جَاهِدًا عَلَى إِعَادَةِ تَدْوِيرِ مَشَاعِرِهِ الْمَكْسُورَةِ وَأَحَاسِيسِهِ الْمُحْطَمَّةِ وَأَمَالِهِ الْمُجْهَضَةِ ، لَصِنَاعَةِ حَيَاتِهِ مِنْ جَدِيدٍ ، وَبِنَاءِ كَيَانِهِ الْإِنْسَانِيِّ الْمَتَمَاسِكِ ، وَتَقْدِيمِ نَفْسِهِ كَمُنْتَصِرٍ عَلَى الظُّرُوفِ ، وَلَيْسَ ضَحِيَّةً لَهَا . وَالْعِنَاصِرُ الْمُبْعَثَةُ فِي دَاخِلِ كَيَانِ الْإِنْسَانِ ، تُشَبِّهُ الْأَسْلِحَةَ الْقَدِيمَةَ الصَّدِيدَةَ ، وَالتَّعَامُلُ مَعَهَا إِنَّمَا يَكُونُ بِتَنْظِيفِهَا وَصِيَانَتِهَا ، وَإِعَادَتِهَا إِلَى الْخِدْمَةِ فِي حَرْبِ الْإِنْسَانِ ضِدَّ الْأَعْدَاءِ السَّاكِنِينَ فِيهِ ، وَالْعَائِشِينَ مَعَهُ (الْخَوْفُ ، الْوَهْمُ ، عَدَمُ الثِّقَّةِ بِنَفْسِهِ) . وَكَمَا أَنَّ الْفِكْرَ لَا يُجَابَهُ إِلَّا بِالْفِكْرِ ، كَذَلِكَ الْمَشَاعِرَ لَا تُجَابَهُ إِلَّا بِالْمَشَاعِرِ .

الفرق الجوهرى بين اللغة والإنسان

١

الحقائق الاجتماعية لا تتجذر في بُنية العلاقات الإنسانية ، إلا إذا كانت اللغة هي الحاضنة لأحلام الفرد وطموحات الجماعة . واللغة ليست آليّة ميكانيكيّة عابرة ، أو عملية تجميع روتينية للحروف والكلمات ، إن اللغة هي الشرعية الرمزية الدائمة للوجود الإنساني المؤقت . وبعد موت الإنسان ، تظل لغته حيّة ، وشاهدة على وجوده وأفكاره وأسلوب حياته ، لذلك ينبغي الاستثمار في اللغة ، لأنّها البصمة المؤثرة التي لا تُزور ، والوجود الحقيقي الفعّال في عالم الأقبعة والزيف والرياء ، وكلّ فلسفة اجتماعية لا تُبنى في قلب اللغة ، ستسقط في الفراغ ، وتؤسّس للعدم .

٢

التعامل مع اللغة هو تعامل مع وجود الإنسان وعناصر الطبيعة، لأنّ اللغة هي العالم السّخري القادر على اختزال المشاعر، وتكثيف المضامين الاجتماعية ، وتأطير الرّمكان (الزمان_ المكان)، وصهر عناصر الطبيعة ومكوّنات البيئة في بوتقة معرفية واحدة ، وربط النّظم العقلانية المُجرّدة بالروحانية الحاملة . وهذا يعني أن اللغة هي المنظومة الشمولية التي لا تنفكّك ، والكُل الذي لا يتجزّأ.

٣

إذا أردنا معرفة أهميّة الشّيء ، ينبغي تصوّر الحياة بدونه . وإذا أردنا معرفة أهميّة اللغة ، ينبغي أن نتصوّر وجود الإنسان في هذا العالم بدونها . سيكون العالم كئيّباً متوحّشاً ، ويكون قلب الإنسان مُحوحّشاً ، وكيانه فارغاً ، وأحلامه ضائعة . سيولّد الإنسان ، ويعيش ، ويموت ، ويذهب إلى النسيان ، ضمن دائرة استهلاكية مُغلقة تقوم على الأكل والشرب والنوم والتكاثر . وهذا دليل واضح على أن اللغة هي التي تمنح المعنى للوجود والجدوى للحياة . وإذا أدرك الإنسان أن حياته لها معنى ، سيُدافع عنها ، ويعيشها بكل تفاصيلها ، رُوحياً ومادياً . أمّا إذا أدرك الإنسان أن حياته بلا معنى ، فإنّه سينسحب منها ، ويتراجع إلى داخل نفسه ، ويهرب من الزمان والمكان ، وعندئذ سيشعر أن سجنه في داخله ، وأنّه مُحاصر من كل الجهات . وهذا هو الموت في الحياة ، والانتحار التدريجي .

٤

اللغة تحمي الإنسان من الانتحار المعنوي والماديّ ، لأنّها تصنع له حياة ذات معنى على الصعيدين الرمزي والشّعوري، وتوجد في المجتمع منظومة فكرية قادرة على تفسير المشاعر،

واحتضانِ الأشواقِ الروحية ، والعنايةِ بالنزعاتِ المادية ، فيَصِلُ الإنسانُ إلى التوازنِ الداخلي، الأمر الذي يجعله ذا شخصية سَوِيَّة قادرة على التعامل مع عناصر الطبيعة بحُب واحترام ، وهكذا تزول العداوة بين الإنسان ومُحيطه الخارجي، وتختفي دوافع الانتقام والثأر من المجتمع ، التي تُسيطر على مشاعر بعض الناس ، نتيجة شعورهم بأنهم مَبْذُورُونَ ومُضْطَهَدُونَ ومَظْلُومُونَ ، وأنَّ المجتمع يتآمر ضِدَّهم ، ويتحرَّك باتجاه مُناوئٍ لمصالحهم . وفي المُجتمع الظالم ، سَيَشْعُرُ الجميعُ أنهم مَظْلُومُونَ ، سَوَاءٌ كانوا جَلَّالِينَ أَمْ ضَحَايَا .

٥

اللغة مشروع خلاص جَمَاعِي ، يُشارك جميعُ الناس فيه بدافع المحبة والإحساس بالواجب ، بدون ضغط ولا إكراه . والسبب في هذا الأمر يرجع إلى كَوْن اللغة عَصِيَّة على التَّدجين ، ولا تخضع للاحتكار . ولا يُوجد إنسان _ مهما علا شأنه _ يَسْتَطِيع أن يدَّعي امتلاك اللغة ، أو يزعم أن اللغة ملك شخصي له ، أو سُلْطَة خاصَّة ورثها عن أسلافه . إِنَّ اللغة هي السُلْطَة العُلْيَا التي تَفرض قواعدها على الجميع ، ولا تتلقَّى الأوامرَ من أحد ، وهذه السيادة الفوقية ، تجعل اللغة هي الأُم الحاضنة لأبنائها، الراعية لهم ، حيث يعودون إلى حِضْنِها ، ويَحْتَكِمُونَ إليها ، وهذا يُشْعِرُهُم بالعدالة والمساواة والأمان ، حيث إن لهم مرجعيةً شرعيةً ، وحِضْنًا دافئًا .

٦

صِفَة الجَمَاعِيَة في اللغة هي القدرة على تفسير مصادر المعرفة، وربط المشاعر غير المحسوسة بالوجود المحسوس، وإنهاء الصراع بين الإنسان ونفسه، وبين الإنسان وأخيه الإنسان، وبين الإنسان وعناصر الطبيعة ، لأنَّ الصراع نار مُتأجَّجَة في صدر الإنسان ، انتقلت إلى الواقع ، وانتشرت بشكل كارثي ، وأحرقت الأخضر واليابس ، لأنها لم تجد مَنْ يُطْفِئُها في مُهْدِها . وَلَوْ فرَّغ الإنسانُ أحزانه في اللغة ، وأطفأ نارَ حِقْدِه بالكلام المنطقي العقلاني الهادئ ، واعتبر اللغة هي طبيبه النفسي الذي لا يخدعه ، ولا يخونه ، ولا يُجامله ، لاختفى الصراعُ ، وزال الصَّدَام . فاللغة قائمة على القواعد المنطقية ، والحُجَج العقلانية ، والأدلة المعرفية ، والبراهين الفكرية ، أمَّا الإنسان فهو كُتْلَة من المشاعر المُتغيِّرة ، والأحاسيس المُتقلِّبة ، وهو كائن خاضع لضغط العناصر الحياتية ، وهذا يُفسَّر مزاجية الإنسان ، واختلاف سلوكه حَسَب الوقائع والأحداث . وهذا الفرق الجوهرى بين اللغة والإنسان ، يجعل اللغة هي الكائن الحي صاحب السيادة المُطلَّقة على الإنسان (الكائن الحي المِزاجي النَّسبي الذي لا يُمكن أن يصُدَّر عنه قِيم مُطلَّقة) .

البحث عن التاريخ السري للأحداث

١

إحساس الإنسان بالتغيرات الاجتماعية ليس خيالات هلامية ، وإنما هو نظام فكري متماسك يتكوّن من الصُّور الذهنية الناتجة عن الواقع ، ومصادر تفسير هذا الواقع . ولا يُمكن فصل الصورة الذهنية التي تتشكّل في وعي الإنسان عن إطارها الواقعي ، لأنّ الواقع هو المنظومة المعرفية المركزية التي تُقدّم التفسير المنطقي للأحداث ، كما أن الواقع هو المرجعية لتحليل العناصر المثالية والمادية في العلاقات الاجتماعية ، وهذا يستلزم بالضرورة تفكيك عناصر التاريخ كما هو على أرض الواقع ، وليس كما نُحبّ أن يكون ، وليس كما نتخيّله في الأذهان. والتاريخ الحقيقي هو الذي حدث على أرض الواقع، وليس الذي تمّت أدلجته وتسييسه في الأذهان تحت ضغط السُّلطات الأبوية ، التي تَخترع المُسلّمات الافتراضية لتحقيق مصالح شخصية ومنافع ذاتية .

٢

مَنْ أُصِيبَ بالعطش في الصحراء ، عليه أن يبحث عن المياه الجوفية داخل الأرض ، ولا يُضَيّع وقته في مطاردة السراب فوق الأرض . ومَنْ أَرَادَ التفسير المنطقي للأحداث ، عليه أن يبحث عن العلاقات الاجتماعية داخل تاريخ الأمم والشُّعوب، ولا يُضَيّع وقته في مطاردة التفسيرات الجاهزة، والتأويلات المُعدّة مُسَبِّقاً، والمُسلّمات المُكرّسة بفعل التكرار الخاضع لمنطق القُوّة لا قُوّة المنطق

٣

التفسير الحقيقي للتاريخ يُشبه الطعام الثقيل الذي يُطبخ على نار هادئة ، ويستغرق وقتاً طويلاً للنضج ، ولا يُمكن أن يكون وجبة سريعة ، لأن عملية التفسير فعل تراكمي تحليلي يقوم على تفكيك العناصر ثمّ تجميعها ، وترتيبها بشكل منطقي تسلسلي ، وهذا يستغرق وقتاً طويلاً، ويتطلّب مجهوداً فكرياً كبيراً. وبما أن أغلب الناس يميلون إلى الاستسهال ، ويتبعون من التفكير العميق ، ولا يُريدون إرهاق أنفسهم في عمليات عقلية مُعقّدة ، فإنّهم يقبلون بالشيء المُتداول دون فَحصه ، ويتمسكون بالحلول الجاهزة دون اختبارها ، ويقبلون بالأمر الواقع دون النظر إلى ما وراء الواقع ، ويلتزمون بالتفسيرات الشائعة دون عرضها على قواعد المنهج العلمي في البحث والاستدلال . إنّهم مُعجبون بجمال الشجرة التي تُغطّي الغابة ، ولا يُريدون اقتحام الغابة ، ومعرفة أشجارها. وهم بذلك يُشبهون الأشخاص الذين يتناولون الوجبات السريعة ، ويذهبون إلى النوم ، ولا يُريدون إضاعة وقتهم في المطبخ لتحضير الطعام .

التعاملُ مع التاريخ يعني التعامل مع ثلاثة سياقات معرفية متشابكة : أ _ التاريخ في الواقع (التاريخ الحقيقي) . ب _ التاريخ في الذهن (التاريخ المُتَخَيَّل) . ج _ تفسير التاريخ (التاريخ المُختبئ وراء التاريخ) . ومن أجل السيطرة على هذه السياقات الثلاثة ، وكشف أبعادها ، وتحليل مضامينها ، ينبغي إجراء عملية تنقيب في الأنساق الاجتماعية ، وهذه العملية هي الضمانة الأكيدة للوصول إلى حقيقة المشاعر الإنسانية ، وماهية السلوكيات الفكرية ضمن الزمان والمكان . ولا معنى للتاريخ إلا من خلال إجراء حفريات واسعة في المُكوّنات المعرفية للحضارة بشكل عام ، والمُكوّنات الإنسانية للمجتمع بشكل خاص . ولا شرعية لتفسير التاريخ إذا لم يتم التفتيش عن الإنسان داخل الإنسان ، والبحث عن التاريخ السري للأحداث الموجود خلف الكواليس . وإذا لم يتم الوصول إلى الوجه ، فلا فائدة من معرفة الأقنعة .

*

البحث عن الجُندى المجهول في العلاقات الاجتماعية

١

الثقافة الاجتماعية ليست تجميعاً للإحصائيات والبيانات ، وإنما هي نظام فكري قائم على دقة الملاحظة، وكشف العلاقات الاجتماعية ، وإيجاد روابط منطقية بينها . والأنساق الثقافية في بنية المجتمع _ بدون فلسفة مركزية تفسيرية _ تظل أفكاراً مُبعثرة ، وخواطر مُتناثرة ، وأنماط هلامية سابحة في الخيال . وهذا يعني أن تجميع العناصر الاجتماعية لا يكفي لبناء منظومة فكرية متماسكة، بل يجب ربط العناصر وترتيبها بشكل عقلائي، وتفسيرها بشكل منطقي ، ومعرفة قيمة كل عنصر ، وأهميته في بناء المجتمع ، وكيفية استخدامه وتوظيفه في سياق العلاقات الاجتماعية، لتحقيق منفعة الفرد ، ومصلحة الجماعة .

٢

تجميع العناصر الاجتماعية المُجرّدة يُشبه تجميع الأدوية دون معرفة استخداماتها . وهذه العملية العشبية مضيعة للوقت ، ولا فائدة منها . ومعرفة اسم الدواء ليس مقصوداً لذاته ، وليس له أية أهمية إذا لم يُعرف استخدامات هذا الدواء . وكما أن أهمية الدواء مُستمدة من دوره في بناء صحة الإنسان خلال رحلة العلاج ، كذلك أهمية العنصر الاجتماعي مُستمدة من دوره في بناء المجتمع خلال رحلة الحياة . وكما أنه يجب معرفة استخدامات الدواء للاستفادة منه ، كذلك يجب معرفة خصائص العنصر الاجتماعي لوضعه في المكان المناسب للاستفادة منه .

٣

معرفة خصائص الشيء واستخداماته تُؤدّي إلى التّحكّم به ، والسيطرة عليه ، لكن التّحكّم والسيطرة لا يَكفيان لتوظيف العناصر الثقافية الفعّالة في العلاقات الاجتماعية . لا بُد من ترسيخ العقل القيادي الذي يستطيع إدارة البنى الاجتماعية، لمنع حدوث تصادم بينها. والعقل القيادي هو الضمانة الأكيدة لوضع العنصر المناسب في المكان المناسب ، كما أن العقل القيادي هو الأساس الوحيد القادر على إفراز فلسفة مركزية تفسيرية، وزراعتها في الأنساق الثقافية الاجتماعية. وهذه الفلسفة في غاية الأهمية ، لأنها بمثابة المغناطيس الجاذب للعناصر الاجتماعية ، والقادر على تفسيرها ، وتوظيفها في الأطر المعنوية والمادية . وكما أن السيارة بدون مُحرك تكون عبارة عن قطع ساكنة ، كذلك العناصر الاجتماعية بدون فلسفة ، تكون مُجرّد عناصر خرساء بلا روح .

المُوظَّفُ الجالس في مكتبه ، والمسؤول عن منع تصادم القطارات ، لا يقلُّ أهميةً عن سائق القطار . والدَّلالةُ الرمزية لهذه الفكرة لها تطبيقات فلسفية عميقة في بُنية العلاقات الاجتماعية . وهذه التطبيقات تتعلَّق بالمنظومة الاجتماعية الفكرية التي تتكوَّن من النظرية (الجزء الباطني) والتَّطبيق (الجزء الظاهري) ، وُصُولًا إلى المنظومة الإنسانية الواعية التي تتكوَّن من العقل المُدبِّر (الجندي المجهول) والعقل المُنفَّذ (الجندي المعروف) . ومن أجل إحداث توازن بين هاتين المنظومتين ، ينبغي البحث عن إسهامات الجنود المجهولين في المجتمع، الذين يعملون في الظل بعيداً عن الأضواء ، فهؤلاء هم الذين يرسمون الطريق ، كي يسير عليه الآخرون، ويصلوا إلى هدفهم . وكما أن السيطرة على روافد النهر ، والاستفادة منها ، تستلزم تحديد مَنبعه ، كذلك السيطرة على العناصر الاجتماعية وتحويلها إلى مشاريع تنموية حقيقية ، تستلزم تحديد مصدر الأنساق الثقافية في المجتمع. وثنائية (المَنبع/ المصدر) تُمثِّل الجزء الخفي البعيد عن الأضواء ، والمُستتر خلف الأحداث . ومع هذا ، فهو سبب الأضواء ، وصانع الأحداث . وبشكل عام ، إن الوَعْي الثقافي لا يتركّس في المجتمع كنظام إنساني ومنظومة معرفية ، إلا باكتشاف جذور شجرة العلاقات الاجتماعية ، وعدم الوقوف عند جَمال ثمرها ، أو شكل أغصانها ، لأن الفرع تابع للأصل ، والأعضاء تابعة للقلب .

*

الجُرثومة الصغيرة والجُرثومة الكبيرة

١

دور العقل الجمعي في تأسيس المفاهيم الاجتماعية يُمثّل جوهر السُلطة الفكرية ذات السيادة المعنوية على إفرازات الحياة اليومية . وهذه الحقيقة ترجع إلى كون العقل الجمعي هو المؤهل لتفسير ثقافة الأفراد ، وعلاقاتهم الاجتماعية ، وسلوكياتهم الحياتية النابعة من التفاعل مع الأحداث الواقعية والأحلام الخيالية . والعقل الجمعي ليس صيغة من قواعد التعامل الاجتماعي الجامدة ، والتعليمات المحفوظة مُسبقًا، وإنما هو مرآة تعكس درجة رُقّي المجتمع روحيًا وماديًا . وهذا الرُقّي قائم على أساس القدرات العقلية في جمع المعلومات، وفحصها، وإيجاد روابط منطقية بينها، والاستفادة منها في التخطيط للحاضر والمستقبل ، ولا يقوم الرُقّي على هوس المنظومة الاستهلاكية ، لأن التقدّم الحقيقي يكمن في صناعة العقل القادر على استخدام العلم النافع لمصلحة البشرية ، وليس صناعة التّوَحُّش الاستهلاكي ، وحمى الشراء والتسوّق ، والغرق في المُنتجات المادية للحضارة البشرية ، واستنزاف موارد الطاقة ، وتدمير البيئة والمناخ ، وقتل رُوح الإنسان ، وإرهاق جسده .

٢

الوظيفة المركزية للعقل الجمعي في الحضارة ، هي منع التعارض بين المسار والمصير ، لأن الغاية الشريفة يجب أن يكون الطريق إليها نظيفًا ، والطريق إلى البيت الجميل يجب أن يكون جميلًا ، لأن الجمال مبدأ أساسي مُطلق ، لا يتجزأ ، ولا يتغيّر حسب المصالح الشخصية والظروف الاجتماعية. ولا يوجد عاقل يبني بيتًا جميلًا في مكان مليء بالقمامة . وهذا الاتصال الوثيق بين المبدأ والغاية ، يُشير إلى الترابط الوجودي الحتمي بين العقل الجمعي ، باعتباره المُتحدّث الرسمي باسم ذكريات الناس وأحلامهم وآمالهم ، وبين الإفرازات الاجتماعية للحياة اليومية. وكما أن الإنسان ابن بيئته ، كذلك العقل ابن بيئته ، ولكن بيئة الإنسان تستمد شرعيتها من الحركة في المجتمع والتعامل مع الناس ، أمّا بيئة العقل فتستمد شرعيتها من الحركة في الخيال والتعامل مع الأفكار ، ومُحاولة نقلها إلى المجتمع ، لتغيير حياة الناس إلى الأفضل . وإذا كانت بيئة الإنسان قائمة على التفاعل المادي مع الأشخاص والأحداث اليومية ، فإن بيئة العقل قائمة على التفاعل الرمزي مع تاريخ الأشخاص المُستتر (الذكريات والأحلام والمشاعر) ، وتاريخ

الأحداث الخَفِيَّة (الأسباب الحقيقية للسلوكيات الفردية والجماعية) . والفرق بين بيئة الإنسان وبيئة العقل يجب أن يكون دافعاً إلى التكامل ، وليس الصراع . والإنسان بلا عقل يتحوّل إلى وحش شهواني كاسر ، والعقل بلا إنسان يتحوّل إلى أداة للقتل وتدمير مُنجزات الحضارة. وبالتأكيد، لا تستطيع أيّة حضارة — مهما كانت إنسانية ومُتقدّمة وراقية — أن تمنع الجرائم ، ولكنها تستطيع رفض تبرير الجرائم ، ومنع إيجاد شرعية لها . ولا يُمكن إيجاد إنسان بلا ذُنوب ، ولكن يُمكن إيجاد إنسان بلا تَوَخُّش . وهذا يعني ضرورة تحقيق الشَّرْط الإنساني في الحياة ، أي أن يكون الإنسان إنساناً حقيقياً ، ولا يكون وحشاً يَرْتدي قِناع الإنسان .

٣

من أجل إيجاد حضارة أكثر إنسانية ورحمة وأخلاقاً ، يجب قتل الوحش النائم في الإنسان ، وتطهير الحضارة من التَّوَخُّش الاستهلاكي الكامن فيها. وهذه المهمة الصعبة لا يُمكن الوصول إليها إلا بتكريس معاني البذل والعطاء ومُساعدة الآخرين والعمل التَّطَوُّعي ، وتنظيف المسار الحضاري من مفاهيم القهر والنهب والإذلال والأنانية ، وبناء المجد الوهمي على شقاء الآخرين وتعاستهم . وكما أن العالم يتوحد لمواجهة جُرثومة صغيرة تجعل مصيره على المحك، يجب عليه أيضاً أن يتوحد لمنع الحضارة من التَّحوّل إلى جُرثومة كبيرة تُدمّر حاضر البشر ، وتقضي على مستقبلهم . وكما أن غسل الأيدي مُهم لمنع وُصول الأمراض إلى الجسد ، كذلك غسل القلوب مُهم لمنع وُصول الأمراض إلى الرُّوح . وإن العاجز عن حماية رُوحه ، سيكون أكثر عجزاً عن حماية جسده . ومن المنطقي أن يُكافح الإنسان الأوبئة والأمراض ، ويسعى إلى تطهير الحياة من الجرائم ، لكن الكارثة عندما يتحول الإنسان إلى جُرثومة ضد أخيه الإنسان ، ويصير وحشاً كاسراً ضد المدنية ، وخطراً حقيقياً على الوجود البشري .

٤

الحيوان الذي يتصرّف كحيوان ، يمارس دَوْرَه المرسوم له بدقّة ، ويُؤدّي مهمّته في النظام البيئي بكفاءة ونشاط . لكن الإنسان الذي يتصرّف كحيوان ، يخون إنسانيته ، ويُسِيء إلى نفسه، وهذا هو السُّقوط الأخلاقي المُريع ، والانهيار الشامل ، والانتكاسة الصادمة . والجدير بالذكر أنّ الحيوان يلد حيواناً، أمّا الإنسان فلا يولد إنساناً، بل يجب تربيته وتعليمه وثقافته كي يصير إنساناً ، فالإنسانية مُكتسبة . ولا تُوجد مشكلة في وجود الذئب في الطبيعة ، لكن المشكلة في تحوّل الإنسان إلى ذئب لأخيه الإنسان .

حُبُّ التَّمَلُّكِ الجُنُونِي إِذَا سَيطَرَ عَلَى الإنسان، قاده إِلَى ارتكاب الجرائم وافتعال الحروب بكافة أشكالها . ومُحاوَلَةُ الاستحواذ عَلَى كل شيء ، وعدمُ الاعتراف بحقوق الآخرين وأحلامهم المشروعة، يُؤَدِّيَانِ إِلَى انتشار القتل العشي ، والحروب التي لا تنتهي . وهذا سيكون عَلَى حساب الإنسان والحضارة والمُنَاخ. وإن الموتى الذين يتحركون عَلَى ظَهْرِ الأرض هُمُ الخطر الحقيقي عَلَى الحياة ، وليس الموتى فِي بطن الأرض . وَمَوْتُ القَلْبِ هُوَ الانتحار التدريجي للتاريخ والحضارة ، وَيَجْعَلُ الإنسانَ كيانًا فارغًا ، بلا مشاعر ولا أحاسيس ولا إنسانية . وسيظل مَوْتُ الإنسان فِي الحياة هُوَ التَّحَدِّي الأبرز فِي الوجود ، والامتحان الحقيقي لضمير الحضارة .

*

تاريخ الأمم والشعوب ومصيدة الحضارة

١

لا يُمكن تحليل الظواهر التاريخية بِمَعزِلٍ عن البنية النَّفسِيَّةِ للأفراد والجماعات ، لأن التاريخ المادي انعكاس عن التاريخ المعنوي ، والأحداث الواقعية هي مِرآة للصُّور الكامنة في النَّفس البشرية . وعندما نتعامل مع المِرآة ، ينبغي التركيز على شفافية رُوح الإنسان الواقف أمام المِرآة ، وليس شفافية زجاج المِرآة وسطحها المَصقول. وهذا الأمرُ يستلزم وضع حاجز ذهني بين صُورة الإنسان الحقيقية، وانعكاس هذه الصُورة في المِرآة. وهذا الحاجزُ ضروري من أجل التفريق بين الأساس والانعكاس . وكُلِّما ازدادت هذه الفِكرة رُسوخًا في بُنية التقاطعات الاجتماعية مع الزمان والمكان ، ازدادت قُدرة الفكر الإنساني على التمييز بين الفعل ورد الفعل . وهذا يُؤدِّي بالضرورة إلى التفريق بين الأشكال الاجتماعية ومضمونها المعرفي ، ممَّا يُولِّد نظامًا معرفيًا قادرًا على تحديد الوظائف الاجتماعية للعناصر والمُركِّبات ، وتكوين فلسفة جامعة بين إحساس الفرد بالحقيقة والحقيقة ذاتها، تُشبه رابطة الوجود الجامعة بين إحساس الفرد بحرارة الشمس والشمس ذاتها . وهذا المبدأ القائم على العلاقة بين الإحساس والمصدرُ يُمثِّل أساس النظام الحياتي بأكمله . والحيَاة قائمة على الثنائيات : (الشَّكل / المَضمون) ، (الصُّورة / الأصل) ، (الكم / الكيف) .

٢

الإحساسُ هو المادة الخام للألفاظ والمعاني، وإذا تَكَرَّسَ في الوَعْيِ الإنساني ، تَحَوَّلَ إلى تطبيقٍ فِعْلي على أرض الواقع. وكُلُّ تطبيقٍ فِعْلي (حَدَثٌ واقعي) هو بالضرورة تاريخٌ مَحسوس . ممَّا يدل على أنَّ الترابط بين البنية النَّفسِيَّةِ التي تتكوَّن من الأحاسيس الظاهرة والباطنة، وبين التاريخ المَحسوس الذي يتحوَّل مع مُرور الوقت إلى ظواهر تاريخية قائمة بحد ذاتها ، هو ترابط حتمي واقعي فَعَّال، وليس خيالًا ذهنيًا، أو صُدفة عابرة. والظواهر التاريخية هي تراكمات للأفعال وزُدود الأفعال ، التي تقوم على الوَعْيِ الكامل بالمصير والمصلحة والسيطرة . وأيضًا ، إن الظواهر التاريخية هي عمليات منطقية بشكل كامل ، والتاريخ هو المنطق الخالص ، لكنَّ العبث والقوضى يظهران في سياق التاريخ بسبب اختلاف زوايا الرؤية، وسوء التقدير، وظهور المفاجآت غير المتوقَّعة، وعدم دِقَّة الحسابات، وعدم دراسة احتمالات الرِّيح والخسارة ، بسبب سيطرة الطَّمع والجشع والامتلاك والاستحواذ . وقد قيل : مَصَارِعُ الرِّجال تحت بُروق الطمع .

لا أحد يدخل حرباً كي يخسرها ، ولا يُوجد طالب يتقدّم إلى امتحان من أجل الرُسوب .
 جميعُ الناس يُريدون الفَوز والرَّيح والنجاح والانتصار ، ولكن هذه الأمور مُجرّد أُمْنِيَّات وأحلام ،
 ينبغي وضع خُطّة مُحكّمة لتطبيقها على أرض الواقع . والفأرُ الذي وَقَعَ في المِصِيدَةِ ليس غيّباً ولا
 جاهلاً ، ولكنّ تفكيره كان مَحْصُوراً في قِطعة الجُبْن، وهذا أَعْمَاه عن تحليل عواقب الأمور .
 والفريسةُ التي تقع في يد الصياد ليست ساذجةً أو عديمة الخبرة ، ولكن عدم تحليل عناصر
 المَشْهَد أدّى إلى خسارة حياتها . وفي أحيان كثيرة ، يخسر الإنسان حياته ، وتنهار الأمم
 والحضارات ، لأن الظواهر التاريخية لم تُشَيّد على أساس متين ، وهذا يجعلها فريسة سهلة للفراغ
 والعَدَم ، ممّا يُؤدّي إلى سُقوط تاريخ الأمم والشعوب في فَخ الحياة ومِصِيدَةِ الحضارة ، وبالتالي
 اندثاره وزواله إلى الأبد .

مَنْ أرادَ العِسلَ ، عليه ألا يُفكّر في العِسلَ لأنّه نتيجة عادية، ولكن عليه أن يُفكّر في كيفية
 تجاوزِ إِبَر النَحْل، وإذا تجاوزها بنجاح دُونَ خسائر، فإنّ العِسل عندئذ يكون تحصيل حاصل. ومَنْ
 أرادَ الانتصارَ في المعركة ، عليه ألا يُفكّر في أقواس النصر وأكاليل الغار ، ولكن عليه أن يُفكّر
 في كيفية إلحاق الهزيمة بِعدُوّه على أرض المعركة . ومَنْ أرادَ الوُصولَ إلى لَيْلَى، عليه ألا يُفكّر في
 جَمالها، ولكن عليه أن يُفكّر في كيفية التخلُّص من الذئب . وإذا تجاوزَ الفرْدُ العَقَبات بنجاح،
 فعندئذ تكون كُلُّ الأحلام والأُمْنِيَّات في مُتناول اليد . وقد قيل : لا تَعْبُرَ الجِسْرَ قبل وُصوله .

*

الصيادُ الحقيقي لا يُصبحَ فريسةً

١

يُحاول الإنسانُ اكتشافَ العناصرِ المُحيطة به ، لكنَّ الأوَّلَى أن يكتشفَ نَفْسَه ، ويغوص في أعماق ذاته بحثًا عن أسرار حياته المعنوية والمادية . والإنسانُ الذي يجهلُ نَفْسَه ، ولا يَعْلَمُ نِقَاطَ قُوَّتِهِ ولا نِقَاطَ ضَعْفِهِ ، هو أعمى البصيرة ، وَيَسْبَحُ في الاتجاه الخاطئ ظَنًّا مِنْهُ أن يقترب من بَرِ الأمان ، وهو في الحقيقة يبتعد عنه ، وَيَقَامِرُ بمصيره ، وَيُخَاطِرُ بحياته . وَمَنْ باعَ نَفْسَه مَجَانًّا ، وقادها إلى الهاوية السحيقة ، فلا ينبغي أن ينتظر طُوق النجاة ، ولا يطمع في وجود مَنْ يُمُدُّ له يدَ المُساعدة . وكما أن القانون لا يَحْمِي المَغْفَلِينَ ، كذلك البحر لا يَحْمِي مَنْ لا يَعْرِفُونَ السباحة .

٢

يَحْرِصُ الإنسانُ على اختراع مُبررات لأخطائه ، ويقضي وقتًا طويلًا في اختلاق الأعذار لمواقفه السلبية ، وهذا الوقتُ كان كافيًا لإصلاح الأخطاء ، وإعادة بناء ذات الإنسان المُتشظية في متاهة القرارات الخاطئة ، ولكنَّ غرور الإنسان وعِنادَه يَمْنَعُهُ مِنَ الاعتراف بأخطائه والإقرار بانحرافاته ، لأنَّه يَعْتَقِدُ أن الاعتراف بالخطأ ضَعْفٌ ومَهَانَةٌ ، وَتَشْوِيهِ لصورته اللامعة أمام الناس ، وبالتالي سيخسر اسمَه ومكانته الاجتماعية . وهذا الوهمُ القاتل يَدْفَعُهُ إلى الغرق في أخطائه ، والاستمرار في ارتكاب الحماقات والسلبيات ، حتى يتلقَّى الضربة القاضية ، ولا فائدة من الندم بعد فَوَاتِ الأوان . ولو اقتنَعَ الإنسانُ أن الاعتراف بالخطأ شجاعة ، والعودة إلى الصواب فضيلة ، وأن أوَّلَ خُطوة لعلاج المريض هي اعترافه بالمرض وعدم المُكَابَرَةِ ، لَوَفَّرَ الوقتَ والجُهدَ ، وأعادَ القطار إلى السَّكَّةِ الصحيحة ، مِمَّا يُوَدِّي بالضرورة إلى تعزيز قُوَّة الإنسان ، وزيادة مكاسبه على كافة الأصعدة .

٣

إذا لَمْ تكن قُوَّة الإنسان ذاتية ، ومُنْبَعَثَةٌ مِنْ أعماقه ، فيجب عليه أن يُحاول جاهدًا بناء قُوَّتِهِ الذاتية ، وتفعيل عناصر الاكتفاء الذاتي بكل الوسائل ، ولا يترك مصيره في أيدي الآخرين ، لأنَّهم سَيَلْعَبُونَ به حتمًا ، ولا تُوجَدُ مساعدة مَجَانِيَّةٌ ، وَكُلُّ دَعْمٍ لَهُ ثَمَنٌ يجب دفعه . والعاقِلُ لا يَرْمِي كُلَّ أوراقه في أوَّلِ اللعبة ، بَلْ عليه أن يَحْتَفِظَ بأوراق كثيرة مُؤَثَّرَةٌ ، وَيُخَبِّئُهَا لِلْأَزِمَاتِ والشدائد وحالات الطوارئ . وَإِنَّ عَدَمَ الثَّقَّةِ أَفْضَلُ مِنَ الثَّقَةِ العَمِيَاءِ ، وَكُلُّ ثِقَةٍ يَنْبَغِي أن تكون مدروسة بعناية ،

ومحسوبة بدقّة ، وموضوعة في سياقها الصحيح . وإذا لم يجد الإنسان صديقاً مُخلصاً نجح في اختبارات الثقة وتجارب الحياة ، فالأفضل أن يعيش وحيداً بدون أصدقاء . كما ينبغي الاحتفاظ بمسافة مع الآخرين (مسافة الأمان) ، لتجنّب تأثير طعنة الغدر ، التي قد تظهر في الأحوال المتغيّرة ، تبعاً لتبدّل القلوب والمشاعر. وقد سُمّي القلب قلباً من الثقلب والتغير . ولا بُد من فتح جميع النوافذ مع كافّة الأطراف ، والحفاظ على خطّ الرجعة ، وعدم وضع جميع البيض في سلّة واحدة ، لأنّ السلّة إذا وقعت، ستكون الخسارة شاملة وعامّة . وإن أخطر التّحديات التي تُواجه مصير الإنسان وجدوى وجوده يتمثّل في تعامله مع الحالات التي يكون فيها الخطأ الأول هو الخطأ الأخير . وهذه الحالات في غاية الخطورة ، لأن هامش المناورة فيها ضئيل ، والخطأ الأول قاتل ، وسيُنهى كلّ شيء ، ولا تُوجد فرصة للتعويض وتدارك ما فات ، ولا مجال لوجود محاولة أخرى . والعاقِلُ يبتعد عن هذه الحالات قدر الاستطاعة ، ولكن إذا فُرِضَتْ عليه ، واضطُرّ إلى التعامل معها تحت ضغوطات مُعيّنة ، فعندئذ ينبغي أن يكون في أعلى درجات التركيز ، فهو إمّا أن يربح كلّ شيء ، أو يخسر كلّ شيء . ومن أجبرته الظروف على التعامل مع الذئاب، فيجب ألا يفترض حسن النّية ، وعليه أن يحمي نفسه بشتّى الوسائل ، لكيلا يُصبح الصياد فريسةً .

*

الاحتمالية والاحتمالية في فلسفة المجتمع الإنساني

١

طبيعة العلاقات الاجتماعية لا تحكمها نظريات فلسفية مُجرّدة، أو قوانين اقتصادية جامدة ، لأن العلاقات الاجتماعية تبتكر طبيعتها الخاصة ، وتؤسس قوانينها الذاتية ، اعتماداً على التغيرات في مشاعر الإنسان وأحاسيسه ، والتغيرات في مسار المجتمعات والحضارات . وثنائية (التغير الإنساني / التغير الاجتماعي) هي الفلسفة الكامنة في أنساق الحياة داخل البنى المعرفية وخارجها . والتغير _ كنظام فلسفي حياتي شامل _ ينشأ بصورة مستمرة ، ويتولّد باستمرار ، ضمن مسار دائري تختلط فيه البداية بالنهاية ، لذلك لا يُمكن للإنسان أن يتنبأ بموعد حدوث التغير ، ولا تستطيع الحضارة أن تتوقّع مدى تأثير التغير في الأنساق الحياتية .

٢

الحضارات السابقة كانت تملك زُعماء وعُلماء ومُفكرين وخُبراء في السياسة والاقتصاد والثقافة وعِلْم الاجتماع ، ومع هذا انهارت الحضارات السابقة ، وغابت شمسها ، ولم يستطع أحد حماية حضارته من السقوط والاضمحلال ، وهذا يدل بوضوح على أن الحضارات محكومة بقوانين حتمية وأطر زمانية ومكانية ، لا يمكن تجاوزها أو التلاعب بها . وإذا حان موعد سُقوط الحضارة ، فسوف تَسْقُط لا مَحَالَة ، حتى لو اجتمع الزعماء والعلماء والخُبراء لحمايتها . وإذا حان موعد وفاة الإنسان ، فسوف يموت قطعاً ، حتى لو اجتمع الأطباء الماهرون وأدويتهم الفعّالة وآلاتهم المتطورة .

٣

المشكلة الجذرية في أنساق التفكير الإنساني تتجلى في عدم القدرة على التمييز بين الحتمية والاحتمالية. فالحتمية هي سلطة القوانين الوجودية الحاكمة على المشاعر الإنسانية والمنظومة الاجتماعية ، وهي سلطة أساسية ودائمة ، وغير متأثرة بالزمان والمكان . والإنسان جاء إلى هذا العالم ، واكتشف وجود هذه السلطة ، ولم يخترعها . أي إنّ وجودها سابق على وجود الإنسان نفسه ، والإنسان تابع لها بإرادته ورغماً عنه . أمّا الاحتمالية فهي سلطة القوانين التي وضعها الإنسان بنفسه لتدبير أموره ، وتنظيم شؤون مجتمعه ، وهي سلطة فرعية مُتغيّرة ومختلفة تبعاً لاختلاف الزمان والمكان وطبيعة الناس ومصالحهم ، ووجود هذه السلطة خاضع للإنسان، وتحت

تصرّفه. وهذا التمييز بين سلطة القوانين الحاكمة ، وسلطة القوانين المحكومة ، في غاية الأهمية، لأنه يوضح الفرق بين الحتمية والاحتمالية ، كما أنه يُفسّر طبيعة التحولات الإنسانية والاجتماعية بشكل استباقي، ممّا يعني بالضرورة تحييد عنصر المفاجأة القاتل ، والسيطرة عليه ، ووضع خطط للتعامل معه. وكما أن العقل المدبّر الذي يُخطّط للمعركة يجب عليه أن يضع خطّتين : خُطة للانتصار ، وخطة للهزيمة ، لأنه لا يعرف المفاجآت في طبيعة سير المعركة ، كذلك المُفكّر الذي يدرس خصائص المجتمعات والحضارات ، يجب عليه أن يضع خطّتين : خُطة (أ) التي تُمثّل المسار العام للأحداث المرسومة على الورق، وخُطة (ب) وهي خطة الطوارئ التي تُمثّل الأحداث المفاجئة على أرض الواقع. وكما يُقال : الشيطان كامن في التفاصيل .

*

متى تكشف الحضارة سرَّ الإنسان ؟

١

معرفة روافد النهر لا تُغني عن معرفة منبعه ، وتحليل التغيرات الاجتماعية لا يُغني عن تحليل المنهج الفكري الذي يُمثِّل النواة المركزية لحركة الأفراد والجماعات . وفلسفة البناء الاجتماعي المتماسك تقوم على المعرفة وتحليل المعرفة معاً ، ولا يُقبل أحدهما بدون الآخر ، لأنَّ المعرفة سلاح خطير قد يقتل صاحبه . وتحليل المعرفة يعني إيجاد الطريقة المناسبة لاستخدام هذا السلاح . وامتلاك الإنسان للآلة لا يُعني شيئاً، وليس له أيَّة فائدة، بل إن امتلاكه للآلة قد يكون وبائلاً عليه، وسبباً في تعاسته وشقائه وهلاكه ، لذلك تقوم الشركة المُصنَّعة بإرفاق " كتالوج " مع الآلة، يوضح تركيبها وطريقة تشغيلها وكيفية صيانتها . والمشكلة أن كثيراً من الناس يفرحون بجمال الآلة وزواعة تصميمها ومنظرها الجذاب، ويُهملون الكتالوج، ويعتبرونه من الكماليات، وتحصيل حاصل ، ومُجرد كتاب أنيق للرَّينة الظاهرية لإظهار رُقيِّ الشركة المُصنَّعة. وهذا خطأ قاتل ومُتكرِّر ، وسببه يعود إلى عدم التفريق بين السَّيطرة والقيادة، فالشخص الذي يملك الآلة، ويُسيطر عليها، يستشعر القُوَّة والثَّوَدَ والسُّلطة، ويظن أن الموضوع تَمَّ وانتهى، وفُضيَّ الأمرُ وخُسمَ ، وكُلُّ شيء على ما يُرام. وهذا الإحساس الوهمي بدائي وساذج وناتج عن عمى السُّلطة ، لأن العبرة تكمن في تشغيل الآلة ، والاستفادة منها في توفير الوقت والجهد ، وليس في امتلاك الآلة ، وجعلها جزءاً من الديكور الجميل . ولا يخفى أن أهمية الكتاب تكمن في المعلومات التي بداخله ، وليس في وجوده على رف المكتبة المنزلية في صالون أنيق يتكوَّن من قطع الأثاث الفاخر. والرَّينة الظاهرية عَرَض زائل ، وقناع وهمي، والتَّعويلُ إنَّما يكون على الجمال الداخلي الجوهري الدائم . والمِكيَّاجُ يختفي مع غَسَل الوجْه، لكنَّ الوجْه يَبقى مع صاحبه إلى الموت ، تماماً كما يَبقى طابع البريد مُلتصقاً بالرَّسالة حتى الوصول إلى الهدف. وهذه المبادئ المركزية تُمثِّل الأساس الفكري للتفريق بين ماهيَّة العَرَض وماهيَّة الجَوْهر، وبين النظام الاستهلاكي والنظام الإنتاجي، وبين العقل الاتِّباعي والعقل الإبداعي .

٢

الأصل واحد لا يتكرَّر ، لكنَّ الفروع كثيرة ومتعدِّدة . وجذرُ الشجرة واحد ، لكن الأغصان كثيرة ، والأب واحد ، لكن الأبناء كثيرون . والأصل هو المُسيطر على الفروع ، وليس العكس .

وهذا يدفع باتجاه تكوين فلسفة اجتماعية تُحدّد طبيعة العلاقة بين الأصل والفرع، التي تقوم على المصلحة المشتركة والمنفعة المتبادلة. والأب هو السبب المادي لوجود الابن ومجيئه إلى هذا العالم . وفي نفس الوقت ، إن الابن هو امتداد أبيه واستمرار اسمه وخلود ذكره في هذا العالم . والأب منَح الابن شرعية وجوده ، والابن منَح الأب شرعية بقاء اسمه بعد الموت. وهذا المثال يلخّص العلاقة بين الأصل والفرع، ويمكن تعميمه على جميع العلاقات الاجتماعية المُتحرّكة أفقيًا (الهوية المُختارة) وعموديًا (الهوية الموروثة) . والتكامل بين الأصل والفرع قائم على المنفعة المتبادلة ، وهذا ليس عيبًا ، لأن كل إنسان يبحث عن مصلحة الشخصية ، وصناعة اسمه ، وتكوين عالمه ، وإسعاد نفسه، وهذا حقّه الطبيعي، ولكن يجب أن لا تتعارض مصلحة الشخصية مع مصلحة الجماعة، ويجب أن لا يبيّن سعادته على شقاء الآخرين. ومن أراد أن يكون شخصًا محترمًا وكريمًا في المجتمع، فليُنْفِق من ماله الخاص ، ولا يُنْفِق من أموال الناس . ومن أراد الوصول إلى ضفة النهر الأخرى ، فليَصْنَع جسرًا بمهارته الذاتية وموهبته الشخصية ، ولا يجعل أشلاء الضحايا وأحزان الضائعين جسرًا للعبور . والعاقِل لا يجعل موت الآخرين جسرًا إلى حياته ، ولا يبيّن مَجْدَه على جماجمهم .

٣

كما أن النهر لا يعود إلى المنبع ، كذلك عقارب الساعة لا تعود إلى الوراء . ومع هذا ، يستطيع الإنسان السيطرة على الزمن ، عن طريق تحويله إلى مكان للإبداع ، ومُساعدة الآخرين ، وإدخال السعادة إلى قلوبهم . وهذا الكلام يبدو رومانسيًا وحالمًا ومثاليًا ، ولا علاقة له بالواقع . وهذه المثالية لا تنفي حقيقة أن الحلم أساس الواقع ، وأن الخيال هو الخطوة الأولى لتغيير الظروف المادية المُعاشة . ومهما كانت الأمور صعبة ومُعقّدة ، إلا أنها تشتمل على حلول في داخلها ، لأن الحياة لا تتوقّف عند موت شخص ولا سقوط دولة ولا انهيار حضارة . ومهما كانت أعداد الغرقى كثيرة، إلا أن النهر يستمر في الجريان، ويشق طريقه بلا توقّف، ووصولًا إلى المَصَب. وإذا أردنا معرفة طبيعة نهر الحياة المُتدفّق ، ينبغي تفكيك الرُّموز المعرفية في لغة الخطاب الاجتماعي ، للوقوف على نقاط قوّة المجتمع ، ونقاط ضعفه. وهذا الأمر في غاية الصُّعوبة ، لأن لغة الخطاب الاجتماعي المسيطرة على تفاصيل التفكير الفردي والأداء الجماعي، لها مستويان: واضح وغامض . واللغة الواضحة يُمكن تفسيرها وتحليلها بسهولة ، لكن اللغة الغامضة التي تتجلّى في المشاعر الدفينة والأحاسيس المُختبئة ونظرات العيون والصمت الرهيب والعقد النفسية

العميقة ، يصعب تفسيرها وتحليلها . وهنا ، تبرز أهمية الحفريات الفكرية في ذاكرة المجتمع وتاريخه وأحلامه وُئيتته النفسية وتركيبه الثقافي ، كما تبرز أهمية إنشاء منهج تحليلي دقيق، يقوم على الحُفر في أعماق الوجود الإنساني، ولا يكتفي بملامسة السطح ، والمُجاملات، والأحكام العامة ، والانطباعات البسيطة ، والنقد السطحي. وكما أن الوصول إلى اللؤلؤ يستلزم الغوص في أعماق البحر، كذلك الوصول إلى حقيقة الإنسان ، يستلزم الغوص في أعماق كيانه . والإنسان الحقيقي ما زال مُختبئًا خلف الإنسان الظاهري . وسيظل الإنسان سرًا عميقًا حتَّى تنجح الحضارة في صناعة الأدوات الفلسفية التي تكشف ماهية هذا السر وتفاصيله ، وعندئذ ، سوف يسقط القناع ، وتظهر حقيقة الجوهر الإنساني . ولا بُد أن تظهر الشمس ، وتزول سحابة الصيف .

*

الضوء الاجتماعي والمصير المشترك

١

التعامل مع الحقائق الاجتماعية هو في الحقيقة تعاملٌ مع أساليب التفكير البشري ، ومصادر المشاعر الإنسانية ، لأنَّ الحقائق الاجتماعية ليست كُتلاً صَمَاءَ ، ولا كيانات معزولة ، ولا قوالب جامدة ، بل هي حقائق معرفية ذات جذور راسخة في بنية المجتمع ، تُمثِّل انعكاساً للحُلم الإنساني على الصعيدين : الفكري والشُعوري . وكلُّ عملية انعكاس في المنظومة الاجتماعية تدفع باتجاه البحث عن مصدر الضوء الاجتماعي الأساسي، لأنَّ وجود الضوء سابق على انعكاسه ، وماهيَّة الشيء سابقة على تأثيراته في عناصر البيئة المُحيطة .

٢

الضوء الاجتماعي هو طبيعة التأسيس الشُعوري على قاعدة الفكر الإنساني . وكلُّ ضوء يجب أن يكون واضحاً في ذاته ، وقادراً على توضيح الطريق للآخرين . ووفق هذه المُعادلة ، يتحدَّد منهجُ نِجاة الفرد المرتبط بالخلاص الجماعي، لأنَّ الجزء والكل في قارب واحد، وهذا يجعل مصيرهما مُشترَكاً. ولا يُمكن للقارب أن يصل إلى بر الأمان في ليل العواصف ، إلا إذا اتَّجَهَ نحو ضوء المنارة بأقصى سرعته . وكما أن ضوء المنارة هو أمل النجاة للقارب ، كذلك الشعور الإنساني النبيل المُشيد على الفكر الإبداعي ، هو أمل النجاة للفرد والجماعة .

٣

المصير المُشترَك ليس شعاراً عاطفياً للاستهلاك اليومي ، وإنَّما هو أساس وجودي متين في صميم العلاقات الاجتماعية ، لأنَّ المصير المُشترَك هو الإطار الذي يُوحِّد كافة الجهود البشرية ، ويفرض على الأنساق الاجتماعية المتحركة نحو المستقبل أن تتعاون من أجل تحقيق الهدف المنشود . وبما أنَّ أقصر طريق بين نُقْطَتَيْن هو الخط المستقيم، كذلك أقصر طريق بين الوسيلة والغاية هو المصير المُشترَك ، لأنَّ الضمانة الأكيدة لرصِّ الصُّفوف، وتوحيد الجهود ، وحشد الموارد ، وتوفير الوقت . وهذا يَمنع إضاعة الجهود وبعثرة الموارد في طُرقات جانبية مُتَشَعِّبة ، ويجعل جميع طاقات قُوى الشعب في طريق واحد ، تماماً كالنهر الكبير الذي يَشُقُّ مَجْراه الأساسي ، ويَحْفَرُ طريقَه الرئيسي ، بكامل قُوَّته وتركيزه ، دون إضاعة اندفاع مياهه الهادرة في روافد جانبية وأنهاير صغيرة هامشية .

رحلة البحث عن الحقائق الاجتماعية في ضوء المصير الإنساني المشترك ، تمثل وجوداً مكتمل الأركان ، وحياء قائمة بذاتها ، لأن البحث عن الحياة حياة ، والسعي نحو الضوء ضوء ، وما دام المجتمع يسير نحو ضوء النجاة وأمل الخلاص ، فهو مجتمع حي متحرك ، يمتلك تاريخه الحضاري ، وذاكرته الإبداعية ، وأحلامه الشخصية ، وقادر على الوصول إلى النتيجة المرجوة والغاية المنشودة . ومن واصل قرع باب المستقبل بقوة وإصرار ، بلا ملل ولا يأس ، سيفتح له في الوقت الذي لا يتوقعه ، كما يفتح باب المغارة التي تحتوي على الكنز ، ولكن الشجاعة صبر ساعة ، والتاريخ الإنساني _ بشكل عام _ مثل لعبة عض الأصابع ، من يصرخ أولاً يخسر اللعبة ، ويخرج من التاريخ ، ويسقط في الفراغ ، وهذا يدل على أهمية القوة والثبات في وجه الأزمات ، وضرورة التحلي بالقدرة على التحمل ، والعمل تحت الضغوطات الشديدة . والألم يصيب الناس جميعاً ، لكن القوي من يتحمل ويصبر ويحاول إزالته بهدوء وتركيز ، لأن الصراخ والارتباك والفوضى نقاط ضعف ، تُفاقم حجم المشكلة ، ولا تساهم في الحل . والمجتمع في الأزمات مثل السباح في البحر ، كلاهما إذا ارتبك غرق .

*

السلوك والوجود والنظام

١

يمتلك السلوك الإنساني قوةً ذاتيةً قادرةً على تحويل الكينونة إلى فكرة ، أي : تحويل الوجود الاجتماعي المادي والمعنوي إلى منهج فكري قابل للتطبيق في الأمكنة والأزمنة المتغيرة . وهذه الصيرورة هي المنظومة الفلسفية التي تُفسّر العلاقة المصيرية بين السلوك الإنساني والوجود الاجتماعي (الترابط بين الجزء والكل). وإذا حدث توافق وجداني بين الفرد ومُحيطه الاجتماعي ، زالَ التناقضُ في شخصية الفرد ، وزالت التناحرات في المُحيط الاجتماعي . وهذا التوافق لا يعني تكريس سياسة القطيع ، أو سحق وجود الفرد لصالح وجود الجماعة ، أو صهر الهُويّات المختلفة في بوتقة هُويّة واحدة. إن مفهوم التوافق الوجداني في السّياق الاجتماعي يقوم على مبدأ فكري ثابت ، وهو احتفاظ الفرد بصوته الخاص وأفكاره الذاتية وشخصيته الاعتبارية ، واحتفاظ المُحيط الاجتماعي بإطاره الخاص ومصلحته الوجودية وماهيته المركزية ، وإيجاد نُقطة مشتركة بين الطرفين في مُنتصف الطريق ، وتكوين علاقة تكاملية بين الفرد والمُحيط الاجتماعي، تُحقّق مصلحة الطرفين، وأحلامهما، وطموحاتهما. وهكذا ، يتّضح المسارُ الفكري نحو مُستقبل مُشترك ، دون الحاجة إلى سحق الهُويّات ، أو تذويب الفروقات الاجتماعية، أو إلغاء الصوت الذاتي. والتكاملُ علاقة بين خصائص مختلفة ، وأشياء مُتباينة ، لتكثير نقاط القوّة ، وتقليل نقاط الضعف ، والتكاملُ يظهر في حالة الاختلاف ، ولا يظهر في حالة التّشابه .

٢

المشكلة المنتشرة في النسق الاجتماعي تنجّلي في اختراع لوازم ذهنية ليست بلازمة على أرض الواقع . على سبيل المثال لا الحصر ، كثيرٌ من الناس يعتقدون أنّ بناء المجتمع وتقدّمه لا يتحقّقان إلا بوجود دولة الدّين الواحد ، والمذهب الواحد ، والحزب الواحد ، والفكر الواحد . وهذا وهمٌ كبير ، واعتقاد خاطئ . إنّ توحيد الجهود لا يستلزم توحيد الأفكار ، لأنّ الجهود سلوك بشري يضمن مصالح جميع الأطراف ، أمّا الأفكار فهي بُنى ذهنية تُشكّل منظومةً معرفية داخل الفرد . وأيضاً ، تماسك المجتمع لا يستلزم توحيد الأديان والمذاهب. تُوجد مجتمعات كثيرة متماسكة وقويّة ، مع أنّ أفرادها ينتمون إلى أديان مُتعدّدة ومذاهب مُختلفة . والأمرُ يُشبه وجود بحّارة على ظُهر سفينة ، كلٌّ بحّار لَدَيْهِ دينه ومذهبه وعقائده الخاصّة به ، ولكنّ هذا الأمر ليس له

أَيُّ دَوْرٍ فِي عُبُورِ الْبَحْرِ ، الَّذِي يَقُومُ عَلَى خِبْرَةِ الْبَحَّارِ وَمَهَارَتِهِ وَكِفَائَتِهِ وَالْأَخْذِ بِالْأَسْبَابِ . وَجَمِيعُ الْبَحَّارَةِ يَعْرِفُونَ هَذَا الْأَمْرَ ، لِذَلِكَ يُوجَّهُونَ طاقاتهم نحو هدف مُشْتَرَكٍ ، وَهُوَ الْوَصُولُ إِلَى بَرِّ الْأَمَانِ ، وَهَذَا يُحَقِّقُ مَصْلَحَةً لِلْجَمِيعِ ، وَيَجْلِبُ مَنْفَعَةً لِلْكَلِّ ، بَعِيدًا عَنِ الصَّرَاعِ الدِّينِيِّ وَالتَّنَاحِرِ الْمَذْهَبِيِّ وَالصَّدَامِ الْأَيْدِيُولُوجِيِّ .

٣

بِنَاءُ الْأَنْظُمَةِ السِّيَاسِيَةِ فِي الدُّوَلِ الْمَتَمَسِّكَةِ ظَاهِرِيًّا ، الْمُنْفَكَّةِ بَاطِنِيًّا ، قَائِمٌ عَلَى الْوَلَاءِ ، وَلَيْسَ الْكِفَاءَةُ . وَهَذَا الْوَلَاءُ الْمُتَجَدَّرُ يَعْتَمِدُ بِالْدرَجَةِ الْأُولَى عَلَى الْعَصَبِيَّةِ الدِّينِيَّةِ الْمَشْتَمِلَةِ عَلَى رَوَابِطِ الْمَذْهَبِ وَالْقَرَابَةِ وَالْحِزْبِ ، وَجَمِيعُ الدُّوَلِ يُوجَدُ فِيهَا حِزْبٌ حَاكِمٌ ، سَوَاءٌ بِمَعْنَاهِ اللَّغْوِيِّ أَمْ الْإِصْطِلَاحِيِّ ، وَسَوَاءٌ كَانَ ظَاهِرًا أَمْ مَخْفِيًّا . وَكُلُّ بُنْيَةٍ سِيَاسِيَةٍ تَسْتَعِيدُ أَصْحَابَ الْمَوَاهِبِ وَالْكَفَاءَاتِ ، بِحُجَّةِ التَّرَكِيزِ عَلَى الْوَلَاءِ وَالْإِنْتِمَاءِ ، هِيَ مَنْظُومَةٌ طَائِفِيَّةٌ مُنْغَلَقَةٌ وَمُنْكَمِشَةٌ ، تُشْكَلُ خَطَرًا عَلَى نَفْسِهَا ، وَهِيَ أَكْبَرُ تَهْدِيدٍ لَوْجُودِهَا ، لِأَنَّ النِّهْرَ لَا يَقْدِرُ عَلَى الْإِسْتِغْنَاءِ عَنِ رَوَافِدِهِ ، فَهِيَ الضَّمَانَةُ الْأَكِيدَةُ لِحَيَاتِهِ وَحَيَوِيَّتِهِ وَحَرَكَتِهِ ، وَبِدُونِ الرَوَافِدِ سَيَجْفُفُ النِّهْرُ مَعَ الزَّمَنِ . وَكُلُّ نِظَامٍ سِيَاسِيٍّ مُنْغَلَقٍ ، هُوَ بِالضَّرُورَةِ نِظَامٌ مَعزُولٌ عَنِ الْمَجْتَمَعِ ، وَمُنْفَصِلٌ عَنِ الْوَاقِعِ ، وَعَائِشٌ فِي عَالَمِهِ الْخَاصِّ ، وَهَذَا سَيُؤَدِّي إِلَى شَيْخُوخَةِ النِّظَامِ ، وَتَأْكُلُهُ مِنَ الدَّخْلِ ، وَسُقُوطُهُ عَاجِلًا أَوْ آجِلًا . وَكَمَا أَنَّ الْحِفَافَ عَلَى حَيَاةِ النِّهْرِ ، لَا يَكُونُ إِلَّا بِكَثْرَةِ رَوَافِدِهِ وَاسْتِيعَابِهَا ، كَذَلِكَ الْحِفَافُ عَلَى حَيَاةِ النِّظَامِ السِّيَاسِيِّ ، لَا يَكُونُ إِلَّا بِكَثْرَةِ الْمُبْدِعِينَ وَأَصْحَابِ الْكَفَاءَاتِ ، وَاحْتِضَانِهِمْ فِي بُنْيَةِ السُّلْطَةِ ، كَيْ يُمَارِسُوا دَوْرَهُمْ فِي الْبِنَاءِ الْحَقِيقِيِّ عَلَى أَرْضِ الْوَاقِعِ ، وَلَيْسَ كِتَابَةُ الشُّعَارَاتِ ، وَتَرْدِيدُ عِبَارَاتِ الْوَطَنِيَّةِ ، وَتَغْيِيرِ الْمَوَاقِفِ تَحْتَ ضَغْطِ الرَّرَاتِبِ الشُّهْرِيِّ .

*

العلاقة بين الإنسان العادي والفيلسوف

١

الأنظمة الاجتماعية المسيطرة على طبيعة السلوك المادي للإنسان ، لا تنفصل عن المشاعر والذكريات والقيم الروحية ، وهذا الارتباط الوثيق يستلزم تكوين علاقة منطقية شاملة تقوم على تفسير الثنائيات المتجذرة في بنية المجتمع ، مثل : الجَوهر والمَظهر . المَضمون والشكل . المفهوم والمنطوق . الرمز والإشارة . والإنسان في زحمة الحياة اليومية يتعامل مع هذه الثنائيات جُملةً وتفصيلاً ، باعتبارها قِيَمًا وجودية مُعاشة ، وليس باعتبارها تراكيب فكرية ضمن منهج فلسفي عقلائي يقوم على التعليل (السبب والنتيجة) . وهنا يتضح الفرق بين الإنسان الخاضع لأعراف المجتمع الاستهلاكي ، والفيلسوف الذي يبنى قوانين المنطق الاجتماعي . وهذا الفرق يُشبه الفرق بين الرجل الذي يشعر بالحب تجاه زوجته ، لكنه لا يستطيع كتابة قصيدة حب لها ، لأنه ليس شاعرًا ، وبين الشاعر الذي يشعر بالحب ، ويستطيع كتابة قصيدة حب ، لأنه يمتلك رؤية الشاعر ولغته وأدواته . وهذه المقارنة تثبت بوضوح أن جميع الناس _ بلا استثناء _ لديهم أحاسيس ومشاعر ، ويعيشون في تفاصيل الحياة بخلوها ومُرّها، ولكن ليس كل الناس لديهم القدرة على التعبير والتحليل المنطقي. والفيلسوف هو شاعرُ الواقع اللغوي، والشاعر هو فيلسوفُ الخيال اللغوي . ويدون اللغة ، سيقع الإنسان في الفراغ المُوحش .

٢

الإنسان العادي يعيش في المجتمع بشكل أفقي ، لكن الفيلسوف يعيش في الفكر الإنساني لإعادة بناء المجتمع أفقيًا وعموديًا. لذلك ، لا يهتم الإنسان العادي بطرح الأسئلة عن طبيعة العلاقات الاجتماعية ، ولا يبحث عن أسباب منطقية للظواهر الإنسانية ، لأنه مشغول بالحياة المادية الضاغطة ، ومُحاصر بإفرازات النظام الاستهلاكي ، وهذا يمنعه من الغوص في أعماق نفسه ، والتنقيب عن ماهية العلاقات الاجتماعية ، مما يجعله كائنًا أحادي النظرة ، يسير وفق مُعادلة حياتية بسيطة ، دون أن يلتفت إلى عناصر الطبيعة المُحيطة به من أجل تحليلها ، والوصول إلى أنويتها الأساسية . في حين أن الفيلسوف يطرح الأسئلة التي تُحاول اكتشاف أعماق الطبيعة الإنسانية ، وتحليل العلاقات الاجتماعية ، وتفكيك المُركّبات الفكرية وُصولًا إلى عناصرها الأساسية. أي إنَّ الفيلسوف يبحث عن أجوبة تعتمد على التفكير المنطقي المُتسلسل الذي يبدأ

من طبيعة الظاهرة الوجودية، وينتهي إلى ماهية الوجود . ورحلة الفيلسوف من الظاهرة إلى الماهية ، هي التي تجعله يتحرك أفقياً وعمودياً في المجتمع ، فهو يعيش كأى إنسان ضمن الأطر الاستهلاكية (الحركة الأفقية) ، لكنه يعتبر الاستهلاك وسيلة إلى حقيقة المعنى الإنساني وماهية البنى الاجتماعية ، ولا يعتبر الاستهلاك غاية قائمة بذاتها، وهذا يدفعه إلى الغوص في المعاني ، وتحليل عناصر الطبيعة المحيطة به (الحركة العمودية) .

٣

جميع القطارات تنطلق من نفس المحطة (نقطة الانطلاق واحدة) ، ولكن كل قطار له مسار خاص وهدف مختلف عن القطار الآخر (نقاط الوصول متعددة) . وهذه الفكرة تجسد حقيقة العلاقة بين الإنسان العادي والفيلسوف ، فهما يتطلقان من نفس النقطة (الظاهرة الاجتماعية) ، ولكنهما يصلان إلى غايتين مختلفتين تماماً ، لاختلاف المسار ، واختلاف البنية التحليلية للأحداث . الإنسان العادي يبدأ من الظاهرة الاجتماعية ، ويضيع في المتاهة الاستهلاكية ، حيث تسيطر قيمة التسلّع على وجود الإنسان ، أي إن الإنسان يصبح سجيناً للتسلّع، خاضعاً لقوانينها ، ويصبح الحلم الشخصي للإنسان سلعة ضمن قانون العرض والطلب . في حين أن الفيلسوف يبدأ من الظاهرة الاجتماعية ، ويطبّق آليات المنهج العلمي في البحث ، فيصل إلى حقيقة الأشياء ، وماهية العلاقات ، وخصائص الجوهر الإنساني، ممّا يجعله يفرّق بين الحلم الإنساني والسلعة الاستهلاكية . وهذا التفريق ضروري لتثبيت الحقيقة المركزية في روح المجتمع ، وهي أن الإنسان الحقيقي ليس شيئاً من الأشياء ، وليس تحصيل حاصل ، وإنما هو ضابط إيقاع الأشياء ، والعقل المفكر الذي يضع الجزء في منظومة الكل ، ولا يحطّم الكل بحثاً عن مصلحة الجزء .

*

اللاعب والملعوب به

كُلُّ إنسان يعيش حَيَاتَيْنِ معًا : حياة في داخل جِسْمه ، وحياة في داخل جِسْم المجتمع . وسعادةُ الإنسان مُتوقفة على العلاقة بين الحَيَاتَيْنِ ، فإن كانت هذه العلاقة متوازنة ، وقائمة على التصالح مع الذات ، والوئام مع أفراد المجتمع ، شَعَرَ الإنسان بالسلام الداخلي ، الذي ينعكس بصورة إيجابية على عناصر الطبيعة وتفاصيل العلاقات الاجتماعية . وإن كانت هذه العلاقة مُضطربة ، وقائمة على الصراع مع الذات ، والصدام مع أفراد المجتمع ، شَعَرَ الإنسان بالتمزُّق الداخلي ، الذي يتحوَّل مع مُرور الوقت إلى انهيار للحقائق والمشاعر ، ممَّا يجعل الإنسان لُعبة هامشية في مسرح للدُّمى . وبدلًا من أن يكون الإنسان هو صانع الأحداث ، واللاعب الأساسي في مركز الحضارة ، يُصبح ملعوبًا به ، وشيئًا من الأشياء ، ودُمية تُحرَّكها الأصابع الخفية من وراء الستار . وهذا المصير الكابوسي يجعل الإنسان فاقِدًا للثقة بنفسه ، وعاجزًا عن بناء ذاته ، والمُساهمة في نهضة مُجتمعه . وبالتالي ، لا يستطيع الإنسان قيادة الأحداث ، وتوجيه دُفَّة الوقائع ، لأنَّه ببساطة لا يَمْلِك عناصر القُوَّة التي تُفرض على الآخرين احترامه وتقديره والاستماع إليه . وكُلُّ إنسان لا يَقْدِر أن يكون مَتبوعًا ، سيكون تابعًا ، وإذا كان عاجزًا عن إنتاج الفِعل ، سَوْفَ يتلقَّى أفعال الآخرين ، ويُصبح رَدَّة فِعل . وهذا الأمر في مُنتهى الخطورة ، لأنَّه يُفقد الإنسان صَوْتَه الخاص ، فيصير رَجَع صدى ، ويتحوَّل الأصل إلى نُسخة مُرَوَّرة ، وتَوُول الهويَّة الإنسانية الإبداعية إلى هاوية سحيقة بلا تاريخ ولا جُغرافيا . والمشكلة المُنتشرة في الأنساق الاجتماعية هي أن يَعْتقد الإنسان أنَّه يُدافع عن وجوده الشخصي . وفي حقيقة الأمر ، هو يُدافع عن وجود الآخرين المُسيطر على هُويَّته ومشاعره ومصالحه. لذلك، يجب أن يسأل كُلُّ إنسان نفسه، بدون تحايل عليها : هل صَوْتي المُسيطر على كياني هو صَوْتي الخاص أم مُجرَّد صدى لأصوات الآخرين ؟ . وهل أنا اللاعب أم الملعوب به ؟ . وهل أنا حَجَر على رُقعة الشَّطرنج أم اليد التي تُحرِّك الحَجَرَ وترسُم خُطواته ؟ . وهل أَدافع عن مَصْلحتي الذاتية أم أَدافع عن مصالح الآخرين التي زرَعوها فيَّ ؟ . والعاقِل قد يَخدع الآخرين ، ولكنَّه لا يَخدع نفسه .

إنَّ الصِّراع على احتكار البناء الإنساني الحضاري عملية صعبة وخطرة ، لأنَّها لُعبة صِفرية ، لا مجال فيها للتعادل، ولا تقبُّل اللون الرمادي. والإنسان أمام خِيَارَيْنِ لا ثالث لهما: إمَّا أن يكون سيِّدًا مالِكًا لأمره وسيادته، وقادرًا على إطعام نفسه وحمايتها من الأخطار ، وإمَّا أن يكون خادِمًا

لغيره ، يمدُّ يده للآخرين ، لأنَّه لا يملك من أمره شيئاً ، ولا يستطيع توفير مُتطلباته اليومية ، وحاجاته الأساسية . وهذا المنظورُ الشخصي هو الأساس السياسي الحاكم على العلاقات بين الدُّول، والدُّولُ مُنخرطة في محرقة حقيقية وحروب مُستمرة ذات أشكال متعددة ، لإثبات الوجود، وفرض الهيمنة ، والوصول إلى أسواق جديدة ، والاستحواذ على مناطق نفوذ مُؤثِّرة ، وصناعة وُكلاء وأدوات ، لأنَّ الدُّولَ (اللاعبين الأساسيين والرؤوس الكبيرة) لا تُقاتِل بِنَفْسِها، وإنما تُقاتِل بأدواتها ، وتستخدم أذرعها ، وتبتز بأوراق الضغط ، ولا يُوجد لاعب يرمي الجوكر في أوَّل اللعبة. وأصعبُ الحُرُوب هي التي لا يُطلق فيها الرصاص ، لأنَّها تستهدف قتل الرُّوح، أمَّا الحروب التقليدية فتهدف إلى قتل الجسد . وقَتْلُ الرُّوح أسوأ بكثير من قتل الجسد .

*

فلسفة التنازلات في العلاقات الاجتماعية

١

إن تاريخ الفكر يُؤكّد باستمرار في الأنساق الاجتماعية الحيّة ، التي تمتلك ثنائية (النقد / النقض) ، نقد الممارسات الفكرية البعيدة عن قواعد المنهج العلمي ، ونقض السلوكيات المنحرفة عن المسار الحضاري ، وهذه العملية تُمثّل جوهر الحراك الاجتماعي . وكلّ جوهر فكري حقيقي لا يتكرّس كنظام اجتماعي متوازن وفَعّال ، إلا إذا وظّف ثنائية (النقد / النقض) في المجتمع الإنساني الواعي ، من أجل هدم القيم السلبية ، وبناء القيم الإيجابية . وبين الهدم المنطقي التدريجي ، والبناء العقلائي المُتسلسل ، تتّضح هوية المجتمع الفكرية ، ويتحدّد مساره الإنساني ، وتبرز قدرته على التوفيق بين التناقضات ، والجمع بين الأضداد ، وتكريس منهجية إمساك العصا من المنتصف ، لحفظ حقوق الفرد والجماعة . وفي كثير من الأحيان ، يتعدّر الوصول إلى حلول حاسمة وقاطعة ، بسبب تعارض الرغبات والمصالح والدوافع . وعندئذ ، لا بُد من اعتماد أنصاف الحلول ، وتقديم تنازلات مُتبادلة ، من أجل ضمان سير القطار الاجتماعي وعدم توقّفه . وينبغي أن تظل التنازلات بعيدة عن المبادئ ، لأن التنازل عن المبادئ انهيّار شامل ، أمّا التنازل عن بعض الأدوات والسياسات فيمكن القبول به ، إذا كان يُحقّق المصلحة للجماعة ، ويجلب النفع للفرد . وفي هذه الحالة ، ينبغي تكريس وحدة المصير الجامع بين الفرد والجماعة ، لأنّ المصير الواحد ، يجمّع الأطراف المختلفة ، كما أن التهديد المُشترك يجمع المُتضررين ، على اختلاف أفكارهم وتوجّهاتهم . والمصائب تجمّع المُصابين .

٢

إذا فُرض التنازل على الشجرة ، فينبغي التنازل عن بعض الأغصان والفروع ، وعدم التنازل عن الجذر بآية حال من الأحوال ، لأن الجذر هو الضمانة الحقيقية لبقاء الشجرة . وفي هذا السياق ، ينبغي التفريق بين التهديدات الجوهرية الوجودية ، والتهديدات العَرَضِيَّة الطارئة . فالأولى تَمَسُّ مصير المجتمع ووجوده الاعتباري وشرعية بقائه ، ولا مجال لأنصاف الحلول في التعامل معها ، وأيّة ضربة للعمود الفقري ستؤدّي إلى السَلَل ، وستكون ضربة قاصمة . أمّا الثانية ، فهي تهديدات عابرة ذات تأثير بسيط محدود ، يُمكن امتصاصه ، والتضحية ببعض المُكتسبات لمواجهة . وهذا يعني ضرورة التمييز بين الثوابت والمُتغيّرات .

إذا امتلَكَ المجتمعُ الإنساني إرادته وقراره وأدواته العقلانية ، واقتحمَ المناطقَ الرمادية ، مُسلِّحًا بالفكر والعلمَ والمعرفة ، استطاعَ صهرَ الأضداد والتناقضات في بَوتقةِ النقد البناء ، والحصول على نسيج اجتماعي متماسك ومتجانس ، وتحقيق مصالح جميع الأطراف بلا تهميش ولا اضطهاد ، والوصول إلى بر الأمان . والتفاصيلُ الحياتية لا تنقسم إلى الأبيض والأسود، لأنها تفاصيل مُتشابكة ومُتشعبة ، تَجْمَع بين المصالح المتعارضة ، والأهواء المُتصادمة ، والأفكار المختلفة . وما أراه صحيحًا ، قد يراه غَيَرِي خاطئًا ، وما أراه خاطئًا ، قد يراه غَيَرِي صحيحًا ، لأنَّ الحُكم على الشَّيء فَرَع عن تصوُّره ، والتصورات تنبع من المبادئ التي يعتنقها الفردُ على الصَّعيدين الروحي والمادي. واختلافُ المبادئ يعني اختلافُ التَّصورات، واختلافُ التَّصورات يعني اختلافُ الأحكام . والحلُّ الوحيد لهذه المُعضلة المنتشرة في كل المجتمعات الإنسانية ، هي تعميق ثقافة الحِوَار ، والنِّقاش ، ومُقارعة الحُجَّة بالحُجَّة ، لأن الفكر لا يُواجه إلا بالفكر ، كما أن البندقية لا تُواجه إلا بالبندقية . وأهميةُ الفكر تتجلَّى في بقاءه على مَرَّ العُصور والأزمان ، بَعْضُ النظر عن وجود صاحبه أو غيابه . فالفكرُ يظل حيًّا ، حتى لو مات صاحبه. وكم من مُفكِّر مات، وبقيت أفكاره. بَلْ إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْمُفَكِّرِينَ كان مَوْتُهُمْ أو قَتْلُهُمْ حياةً جديدةً لأفكارهم ، وكأنَّ دَمَهُمْ قد أضاءَ حَبْرَ كَلِمَاتِهِمْ ، ونَشَرَهَا في الآفاق . وهذا يدلُّ بوضوح على أن السلاح الوحيد للتعامل مع الفكر هو الفكر .

*

الإنسان والفكر والأخلاق

١

الأفكار الاجتماعية لا تستمد شرعية وجودها من خارجها ، ولا تتحقق خارج ذاتها ، وإنما تستمد شرعية وجودها من تركيبها الداخلي وشخصيتها الاعتبارية ، وتتحقق واقعاً ملموساً على الأرض ، اعتماداً على أحلام الناس وإفرازات البيئة المحلية . وهذا يعني عدم جدوى استيراد الحلول الخارجية ، ونسخ تجارب الآخرين وتقليدهم ، فكل مجتمع يُمثل منظومةً مُتفردة لها خصائص مُميّزة ، وصفات ذاتية . لذلك ، لا فائدة من ارتداء الأقنعة، وتقمُّص الشخصيات الغريبة عن السياق الداخلي للمجتمع، والمُتعارضة مع حركته الخارجية. وهذه الحقيقة تُفرض على الأفراد والجماعات أن يتعاونوا من أجل إيجاد منظومة فكرية تُناسبهم ، وتتوافق مع طبيعتهم، وتتلاءم مع خصائص بيئتهم . وكلُّ مجتمع نهضته كامنة في أعماقه ، وصلاحه مُتجذر في عناصره الداخلية. ومن العبث أن يبحث الفرد عن حقيقته في مرايا الآخرين، لأن الفرد شخصية اعتبارية قائمة بذاتها، وهو أصلٌ ، فلماذا يُريد أن يكون نُسخةً مُقلّدة ومُزوّرة ؟. ومن العبث أن يبحث المجتمع عن شرعيته في الأمم والشعوب الأخرى، لأن المجتمع كيان شرعي متماسك، وهو جذر، فلماذا يُريد أن يكون وَرَقَةً في مَهَبِّ الريح ؟ .

٢

لا يُمكن للمجتمع أن يجد هُويته وماهيته إلا إذا بنى تفاصيله الوجودية على قاعدة الالتزام القيمي ، أي : الالتزام بالقيم الإنسانية، والمبادئ الفكرية، والسلوكيات الأخلاقية . وهذا الترتيب ضروري للغاية ، وهو يُشكّل سياقاً منطقيّاً تراتبيّاً . فالإنسانية قبل الفكر والأخلاق ، لأن الإنسانية (التّوأة الأولى) هي وجود الشرعية ، وشرعية الوجود . وإذا تجذّرت الإنسانية كمنظومة اجتماعية صلبة ، استطاعت احتضان الفكر الإبداعي ، والمُساهمة في انطلاقته ، ونشره في التراكيب الاجتماعية الفردية والجماعية ، فالإنسانية هي الحاضنة الأساسية للفكر ، ووجودها سابق عليه . لذلك ، يُوجد إنسان بدون فكر ، ولكن لا يُوجد فكر بدون إنسان . وإذا اندمجت الإنسانية مع الفكر ضمن سياق الوُعي السليم ، انتشرت الأخلاق في المجتمع ، لأن الأخلاق نتيجة حتمية للفكر الصحيح ، والفكر هو أساس الأخلاق رُوحياً ومادياً ، ووُجوده سابق عليها . لذلك ، يُوجد فكر بدون أخلاق ، ولكن لا يُوجد أخلاق بدون فكر . وجميع البنى الأخلاقية هي بالضرورة أفكار

اجتماعية ، تَرمي إلى صناعة إنسان حقيقي، قادر على بناء ذاته ومجتمعه معًا، لأن الجزء لا ينفصل عن الكل، والعلاقة بينهما تكاملية وتجاذبية، أي إنَّهما يُوجدان معًا ، ويختفيان معًا . وإذا انهارَ الفردُ انهارَ المجتمعُ ، وإذا تَمَزَّقَ المجتمعُ تَمَزَّقَ الفردُ ، والصراعُ بين الفرد والمجتمع في غاية الخطورة، لأنَّهما جِسم واحد في سفينة واحدة . والجِسمُ السليم لا يُمكن أن تتقاتل أعضاؤه، ولا يُعقل أن تتصادم حِوَّاسُهُ. والصِّراعُ بين الرُّبَّان والبَحَّارة سيُؤدِّي إلى غرق السفينة حتمًا .

٣

إذا تَكَرَّسَ الالتزامُ القِيَمي _ جُمْلَةً وتفصيلاً _ في تفاصيل المجتمع ، صارَ التواصل بين الفرد والمجتمع سهلاً ، وازدادت النقاطُ المشتركة بينهما ، وتقلَّصت الاختلافات ، وهذا يدفع باتجاه تكوين منظومة فكرية قائمة على الرأي والرأي الآخر ، ضمن سياق المصلحة المشتركة ، والمنفعة العامة . ووَحْدَةُ الهدف لا تستلزم توحيد المسارات ، وإنما تستلزم توحيد الجهود للوصول إلى الهدف . ولا تُوجد مُشكلة في تعدُّد روافد النهر، ولكن المشكلة هي تلوثُ منبع النهر .

*

خطورة الموت في الحياة

١

الهدف من النظريات الاجتماعية هو تكوين شخصية اعتبارية للفرد في مرايا المجتمع المتحولة. وهذا يعني بناء إطار فكري مركزي للفرد باعتباره حامل مشروع النهضة، والعقل المُفكّر في منظومة التحولات الاجتماعية . وهذه التحولات خليط من النظام والفوضى، والعناصر الإرادية والعناصر الخارجة عن إرادة الإنسان، ولا يوجد مجتمع — مهما بلغت درجة تقدّمه وازدهاره — يخلو من عناصر الفوضى والعبث . والحلّ الوحيد للتعامل مع هذا التّحدي المصيري هو تحويل الفوضى والعبث من بُنية تدميرية إلى نسق فكري خاضع للمنظومة الاجتماعية العامة، تمهيداً لإزالته، وتطهير العقول منه . وعندما تصير الانحرافات عن مسار المجتمع مُجرّد أفكار ذهنية ، لا تطبيقات لها على أرض الواقع ، يسهّل مُناقشة أصحابها ومُحاورتهم بالأدلة والبراهين ، وإزالة شُبّهاتهم، وتنظيف عقولهم ، وتصحيح مسارهم ، وإعادة دمجهم في المجتمع باعتبارهم مرضى تَمَّت مُعالجتهم .

٢

المجتمعات الإنسانية تخشى من استخدام الأسلحة أو زراعة القنابل أو سقوط قتلى ، ولكن لا أحد يُفكّر بالسلاح الموجود داخل الإنسان ، أو القنبلة التي قد يَحْمِلها في عقله ، أو قتل أحلام البشر ، وتحويلهم إلى قتلى سائرين في الشوارع بلا حاضر ولا مُستقبل . إننا نحزن على الذين ماتوا وانتهت حياتهم ، ودُفِنوا تحت التراب. ولكن مَن سيحزن على الذين ماتوا في الحياة، وما زالت حياتهم مستمرة، ويمشون على الأرض؟. هؤلاء الأموات الذين يتحركون على أقدامهم في كل مكان وزمان ، ينبغي إعادتهم إلى الحياة ، وتحويلهم إلى عناصر فعّالة في بناء أنفسهم ومجتمعاتهم . وهنا تبرز خطورة الموت في الحياة ، كما تبرز خطورة أن يموت الإنسان قبل الموت. وكما أن الطبيعة ضد الفراغ ، كذلك الحياة ضد العدم. وينبغي على الإنسان أن يعيش حياته كاملةً، لأنها فرصته الوحيدة . ولا مكان للأموات فوق التراب . والمجتمع الواعي لا يُبنى إلا على القاعدة الشائبة (التّطهّر / التّطهير) ، التّطهّر من الأخطاء والخطايا ، وتطهير الأنساق الاجتماعية من السلبات . وامتلاك المجتمع للوعي هو الخطوة الأساسية نحو الانطلاق إلى الأمام . ولا يمكن للمجتمع أن يُحوّل الوُعي إلى نهضة شاملة ، إلا بتفعيل قاعدة " درهم وقاية خير من قنطار علاج " .

المشكلة الجذرية في بُنية المجتمعات الإنسانية هي أن الجميع ينتظرون الشخصَ كي يَمرض ثمَّ يُحاولون علاجه ، والصواب هو حماية الشخص من المرض ، وتعزيز مناعته ، وعدم انتظار المرض كي يصل إليه . والجميع ينتظرون المصيبة كي تقع على أرض الواقع ، ثمَّ يَبحثون عن وسائل إزالتها ، وكيفية التخلص منها . والصواب هو اتّخاذ خُطوات واقعية لا شعاعراتية ، لمنع حدوث المصائب والكوارث . والجميعُ ينتظرون وقوع الجريمة في المجتمع ، ثمَّ يَبحثون عن أسبابها ودوافعها ، ويُهدّدون باتّخاذ أشدّ العقوبات . والصواب هو بناء نظام أخلاقي في المجتمع، وتعزيز الوازع الإنساني في داخل الفرد ، كي يبتعد عن الجريمة من تلقاء نفسه ، فلا يُعقّل أن يُوضَعَ شرطي حارس على كل فرد من أفراد المجتمع . ومن غير المنطقي وضع مُعلّم لكل مواطن ، يُعلّمه الأخلاقَ وفضائل الأعمال. إذن، يجب أخذ المُبادَرة ، والسيطرة على الأحداث ، وعدم اللُّهث وراءها . والمجتمعُ السليم يَسبقُ الأحداث ، ولا يتركها تَسيقه . والفردُ الصالح هو فِعْل لا ردّ فِعْل . وإذا وُضعت العَربةُ أمام الحصان ، فلن يتحرّك الحصان ولا العربة .

الفردُ الذي يستخدم لغة السّلاح في مجتمعه ، ولا يَعرف لُغةَ الحوار مع أبناء جلدته ، هو عبارة عن آلة ميكانيكية عمياء ، ويَحمل في أعماقه سلاحًا خطيرًا (منطق القوة) . وإذا نجح المجتمع بكل أطرافه الفكرية في الوصول إلى هذا الشخص ، وتطهير أعماقه من هذا المنطق المنحرف ، بالأدلة المنطقية المُقنعة، فسوفَ يغدو مواطنًا صالحًا ومُصلِحًا ، لأن السلوك الخارجي انعكاس عن القناعات الداخلية . ولو وصل المجتمع إلى القنابل المزروعة في عقول بعض أبنائه ، وقام بتفكيكها بالبراهين العقلانية الهادئة ، لَمّا احتاج إلى بذل الوقت والجُهد والمال من أجل تفكيك القنابل على أرض الواقع .

*

دور الحب في بناء الأنظمة السياسية

١

التناقضات الصارخة في المجتمع الإنساني لا يمكن السيطرة عليها وتقليصها ، إلا بتكوين سياسات اجتماعية قائمة على الحب والعدل والمساواة ، واعتماد مبدأ الكفاءة والولاء للقيم والمبادئ ، وليس الولاء للأشخاص والكراسي. وهذا شعار جميل براق، لكن تطبيقه على أرض الواقع صعب ، وليس مستحيلاً . وضُوعُهُ تطبيقه نابعة من مراكز القوى في بنية الأنظمة المُوجَّهة للفرد والجماعة والمجتمع . ومراكز القوى هي أركان الدولة العميقة التي تتحكّم بمسار العلاقات المعنوية والمادية في المجتمع . وإذا أردنا تحليل مُكوّنات المجتمع ، ينبغي الانطلاق من حقيقتين راسختين ، لكنهما غير مُعلّنتين. الحقيقة الأولى: إن هناك دَوْلَتَيْن في المجتمع الإنساني الواحد ، الدّولة العميقة الباطنية (الجذر) والدّولة السّطحية الظاهرية (الأغصان) . والعلاقة بين هاتين الدّولتين قائمة على المصلحة المشتركة والمنفعة المتبادلة واحتكار اللعبة السياسية بكل مزاياها ، وهذا هو سبب تحوّل كثير من الأوطان إلى مشاريع تجارية استثمارية ، تعود بالنفع على الطبقة السياسية الحاكمة حصرياً ، دون أيّ فائدة للمواطن العادي . وكلّ نظام سياسي مُغلَق هو بالضرورة نظام استحواذي احتكاري ، يتعامل مع الشعب وفق ثنائية الرهائن والغنائم . ومهما كان الوطن غنياً بالثروات والإمكانات ، فلن يشعر المواطن العادي بأية فائدة ، لأن الشّرقة التي تُحيط بالوطن تمتص كلّ الخيرات ، ولا يبقى منها شيء للشعب الكادح . الحقيقة الثانية : إن السياسة في المجتمع الإنساني هي لعبة الأغنياء ، وهذا يعني تحوّل السياسة من وسيلة للحكم الرشيد إلى غاية قائمة على الاستعباد والهيمنة ، وتحوّل العلاقات الاجتماعية الخاضعة للبنى السياسية من ظاهرة أخلاقية نبيلة إلى نزعة مادية متوحشة ، وبالتالي يُصبح القادرون على الدّفع هم القادرين على الكلام ، وهذا أمر في غاية الخطورة ، لأنّه يستثني أصحاب المواهب والكفاءات.

٢

التّشطّي في المجتمع الواحد (وجود دَوْلَتَيْن تحتكران العمل السياسي القائم على المال) ، لا يستمد شرعيته من قوّته الذاتية ، وإنما يستمد شرعيته من تحالف السّلطة مع الثّروة ، أي : تحالف بنية النظام السياسي مع رأس المال ، من أجل تحويل الوطن إلى بقرة حلوب لأصحاب النّفوذ ، وتحويل الشعب إلى قطع أغنام يُساق إلى الذبح في الوقت المُناسب ، لذلك ليس غريباً

أن يقتل الطغاة شعوبهم ، ويدمروا أوطانهم . بل إنَّ هذا أمر مُتَوَقَّع في كُلِّ زمان ومكان ، ولا يدعو إلى العجب والدهشة . وكُلُّ طاغية يَعْلَم في قَرَارَةِ نَفْسِهِ أن وجوده غير شرعي ، وأنه لم يَجِئْ وَفَقَ انتخابات حُرَّة ونزيهة ، وإنما جاء بحُكم الأمر الواقع ، وباعتباره مَالِكًا للمال والسلاح ، ومدعومًا من القُوى الخارجية ، ومُتَحَالِفًا مع سُماسرة الوحدة الوطنية المستعدين لاقتسام الغنائم . لذلك فإنَّ كُلَّ طاغية ، يعتنق سياسة القرايين ، حيث تَتِمُّ التضحية بكل شيء ، من أجل بقاء الزعيم القائد الخالد الوحيد الأُوحد على الكرسي . ولكنَّ الكرسي لا يَدُوم لأحد ، وحتى لو دام الكرسي للطاغية ، فإن الطاغية لن يَدُوم له . وقد قيل : لو دامت لغيرك ما وصلت إليك .

٣

إنَّ الإنسان كائن عاطفي ، والنَّفْس الإنسانية مَجْبُولَةٌ على حُبِّ مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْهَا ، ولا يُمكن لأيِّ حاكم أن يَفُودَ الوطنَ والشعبَ إلى بَرِّ الأمان ، إلا إذا سيطَرَ على قُلُوبِ الشعب بالمحبة ، والأخلاق الفاضلة ، والتضحية من أجلهم . وهذه هي القُوَّة الناعمة التي تمتلك مَفْعُولَ السَّحَر . والحُبُّ وَحْدَهُ هو الذي يَمْتَلِك قَلْبَ الإنسان . والسلاح له سُلْطَةٌ على الجسد ، وليس له سُلْطَةٌ على القَلْب . وهذا هو الأساس الفلسفي للسياسة ، ولكنَّ الكثيرين يعتبرون هذا الكلام رومانسيًا ، ولا يَصْلُح إلا للأفلام العاطفية وقصص العُشَّاق . وهذا خطأ جسيم ، لأنَّ الحُبَّ وَحْدَهُ هو القادر على بناء الوطن ونهضة الإنسان . وقُدْرَةُ الحُبِّ على صناعة الحاضر والمستقبل تنبع من حقيقة مُفَادِها أن الحُبَّ يُزِيل الخوفَ ، وبالتالي يتحرَّر العقلُ، وينطلق إلى الإبداع ، لأنَّ العقل الخائف مشلول غير قادر على التفكير والإبداع ، والحُبَّ يَمْنَع الخيانة ، وبالتالي تتركَّز الثقة بين الرئيس والمرؤوس ، والثقة أساس النهضة والتقدُّم . والحُبَّ يُطَهِّر القلوبَ مِنَ الحقد والانتقام ، وبالتالي تختفي الصراعات بين أبناء الوطن الواحد، ويزول الصَّدَام بين الحاكمين والمحكومين . والحُبَّ يضمن الوَلاء الحقيقي، وهذا يعني تقديم النصيحة الصادقة ، والمَشُورَةُ المُخْلِصة . وكما قيل :

صَدِيقُكَ مَنْ صَدَّقَكَ لَا مَنْ صَدَّقَكَ .

*

الرموزُ في تاريخ المجتمع وطبيعة اللغة

١

تاريخ المجتمع ليس كومة تناقضات عبثية وصراعات غير منطقية ، وإنما هو كيان قائم بذاته ، مبني على الطموحات الإنسانية ، والمصالح المصرية ، والعلاقات الاجتماعية ، والبنى الفكرية ذات الطبيعة الرمزية . وهذا التشابك الحتمي بين القيم المعنوية والحقائق المادية ، يُضفي الشرعية على منظومة الأحلام الفردية ، ويُكرّس الأساسَ الفلسفي لتطبيقها على أرض الواقع . ولا يمكن إيجاد تفسير عقلائي دقيق لمسار التاريخ الاجتماعي فرديًا وجماعيًا إلا بتحليل التفاصيل الرمزية المختبئة وراء تفاصيل الأحداث ، فالحدثُ الاجتماعي الواقعي هو الجزء الظاهر من جبل الجليد ، وحقيقتهُ جبل الجليد مخفية تحت الماء . والحركةُ الظاهرية للإنسان على الأرض تُشبه الكلمات الواضحة في السُطور ، لكنَّ الجوهر الحقيقي كامن في المناطق البيضاء بين السُطور . وفي أحيان كثيرة ، يكون الكلامُ الباطني بين السُطور أشدَّ خطورةً وتأثيرًا من الكلام الظاهري في السُطور ، ويكون ما لم يُقلَّ أكثر أهميةً مما قيل .

٢

مُحتويات القلب تظهر في فلتات اللسان ، ولا تظهر في الكلام المعسول والشعارات المُنمقة . والمشاعرُ الصادقة تظهر في نظرات العيون ، ولا تظهر في حركات الشفاه . والشخصُ المُخيف هو الصامت لا المُتكلم . والخطورةُ الحقيقية لا تُوجد في الكلام الذي يُقال ، وإنما تُوجد في الكلام الذي لم يُقلَّ . وهذه الفكرة المركزية هي التي تدفع الكثيرين إلى البحث في التاريخ الذي لم يُكتب ، مُعتبرين أن التاريخ يكتبه المنتصرون وأصحاب السُلطة والمصالح . وهنا يبرز سؤالان في غاية الأهمية ، من سيكتب تاريخ المسحوقين والمنبوذين والمُهمَّشين والمهزومين ؟ ، وكيف نسمع كلامَ من لا يُقدِّر على الكلام ، ولا صوت له ؟ . إنَّ الحلَّ السَّخري لهذه المُعضلة الموجودة في كل المجتمعات الإنسانية ، هو تكريس المعيار الرمزي في تفاصيل الأحداث التاريخية ، أي : تحويل الكلام والأحداث إلى بُنى رمزية من أجل فحصها وتدقيقها ، والوقوف على الدوافع والنوايا والعلاقات الجوهرية الكامنة في النَّفس البشرية . وهذا يستلزم بالضرورة دراسة الشخصيات ومعرفة نقاط قُوَّتها ونقاط صَعْفها ، من أجل التمييز بين المواقف التي يكون فيها افتراض حُسن النية فعلًا ذكيًا ، والمواقف التي يكون فيها افتراض حُسن النية فعلًا غيبيًا . وإذا تَكَرَّست الرموزُ

كسلطة حاکمة على تفاصيل الأحداث التاريخية ، وصارت المُسلّمات خاضعة لأدوات الفحص والتدقيق وفق ضوابط المنهج العلمي ، اكتشف المجتمع صَوْتٌ مَن لا صَوْت له ، ووصل إلى أحلام الطبقات المسحوقة في قاع المجتمع . وهذه هي الخطوة الأولى لتطهير الأنساق الاجتماعية من شعور الضحايا ، فالمجتمع السليم لا يُبنى على علاقة الضحايا بالجلادين ، وإنما يُبنى على علاقة الإنسان بأخيه الإنسان (النَّد للنَّد) وفق الاحترام المُتبادل والمنفعة المُشتركة .

٣

العلاقات في المجتمع الإنساني هي رموز اجتماعية محمولة على اللغة (وسيلة الحوار والتخاطب) . ومن أجل كشف طبيعة هذه العلاقات التي تتصف بالتعقيد والتشابك والتشعب ، وإظهار جوهرها العميق ، والوصول إلى منيعها الأصلي ، ينبغي تكوين لغة رمزية كاشفة لأبعاد الكلمات ودلالاتها النفسية والاجتماعية . والكلمة لا ينبغي تأثيرها من ذاتها ، وإنما ينبع من دلالتها ، والسياق الذي توجد فيه . لذلك كان النظر إلى ما وراء الأحداث أهم من الأحداث ذاتها ، لأنَّ الأحداث تتغير باختلاف الزمان والمكان وطبيعة الناس ، لكن الفلسفة الجوهرية للأحداث لا تتغير ، لأنها قيمة مُطلقة لا نسبية ، والقيمة المُطلقة عابرة للتجنيس ، وغير محصورة في الأطر الزمانية (الزمانية _ المكانية) . ولا جديد تحت الشمس ، والتاريخ يُكرّر نفسه بشكل مُنتظم ودوري ، والوقائع التاريخية تُعاد بشكل مُتشابه ، والأحداث اليومية تتكرر إلى حدّ التطابق ، والتاريخ محصور بين المأساة والمهزلة ، ولا أحد يتعلّم من التاريخ ، لذلك محكوم على الناس أن يُكرّروه ، ويُعايشوه من نقطة الصفر ، وكأنَّ شيئاً لم يكن .

٤

الإنسان يستطيع أن يُغيّر قميصه متى أراد ، لكنّه لا يستطيع أن يُغيّر جلده حتى لو أراد . وهذه الفكرة البسيطة هي الأساس المنطقي الحاكم على جميع العلاقات الاجتماعية . وكلُّ علاقة اجتماعية هي منظومة رمزية قائمة على ثنائية (التوليد / التحويل) : توليد الأنساق الفكرية ، وتحويلها إلى واقع ملموس . وهذه الثنائية الديناميكية في المجتمع هي التي تمنح الإنسان القدرة الذهنية على التمييز بين الحدث وفلسفة الحدث . وهذا التمييز ضروري ، لأنّه ينتج عنه ثلاث قضايا في غاية الأهمية: أ _ التمييز بين النسبي والمطلق في التاريخ واللغة. ب _ التمييز بين التاريخ كإطار للضحايا والجلادين ، والتاريخ كإطار للإنجازات الحضارية . ج _ التمييز بين اللغة كمنظومة حوار تراكمية ، واللغة كمنظومة رمزية تفسيرية .

إنقاذ الفرد والمجتمع من الفراغ المُوحش

وظيفة الفلسفة في المجتمع هي تحويل قُدرات الفرد المحدودة إلى أفكار إبداعية صالحة للتطبيق في كل زمان ومكان ، وبناء طُموحات المجتمع على أساس عقلائي، بعيدًا عن الصُراخ، وضجيج الشُّعارات، والحماسة الجوفاء. والصوت العالي لا يُكوّن فردًا مُتصالحًا مع ذاته وبيئته ، ولا يبنّي مجتمعًا مُتماسكًا ، وإنّما يُؤسّس كيانات متناحرة تعشق رنين الكلمات المُخادعة ، ولا تعرف حقيقتها . وهذه الكيانات تقوم على أرض الواقع بفعل الإسناد الخارجي ، وليس بفعل المنطق الذاتي . والأمر غير المنطقية لا تتكرّس في المجتمع كواقع ملموس إلا بفعل سياسة الأمر الواقع المعتمدة على التهيب والتخويف والتلويح بالعصا، وهذا سبب انفصال اللسان عن القلب، أي إنّ الفرد يقول شيئًا ، ويتبنّاه، ويدافع عنه ، وهو لا يُؤمن به في قرارة نفسه . وسبب قيامه بهذه العملية هو شعوره بالرُّعب من المجتمع، وخوفه من العقوبة في حال تعبيره عن أفكاره بحُرّية . وهذا يعني أن الفرد ضحّى بالسلام الداخلي والتوازن الروحي والمنظومة الأخلاقية من أجل حماية حياته ، والحفاظ على مُكتسباته المعنوية والمادية. وكُلُّ كلمة لها ثمن، والفرد غير مُستعد لدفع هذا الثمن، وكُلُّ موقف له ضريبة، والمجتمع غير مُستعد لتحمل هذه الضريبة . وفي كُل المجتمعات الأبويّة المُغلقة ، تكون حُرّيّة التعبير جريمة لا تمرُّ دون عقاب .

عندما يُظهر الفردُ خلاف ما يُبطن ، فهذا يعني أن هناك شرًّا عميقًا بين الفرد والمجتمع ، كما يعني أن المجتمع بكل مؤسساته يضغط على الفرد لِسلْب صوته الخاص، ومنعه من التعبير عن أفكاره بحُرّية ، وهذه الخطوة الأولى لتدجين الفرد ، وإدخاله إلى الحظيرة ، وتحويل المجتمع إلى قطيع يُساق إلى حافة الهاوية . وسياسة حافة الهاوية التي تُكرّسها السُلطة الأبوية في المجتمع المُحاصر ، هي منهجية شديدة الخطورة ، لأنها تُحوّل الفرد من كيان إنساني جوهري قائم بذاته ، إلى شيء هامشي عَرَضِي في مَوْضِع العَرَض والطلّب ، وتُحوّل الأنساق الاجتماعية إلى سِلَع في أيدي أصحاب السُلطة القادرين على الدَّفْع ، ومن امتلك القدرة على الدَّفْع ، امتلك القدرة على الكلام . والجدير بالذكر أن سياسة حافة الهاوية تُقدّم صورةً خادعة عن المجتمع ، فيظهر مجتمع القطيع للناظر إليه من بعيد مُجتمعًا مُنظَّمًا متماسكًا ذا مسار واحد ، وهدف مصيري مُشترك . وفي حقيقة الأمر، إنّهُ مجتمع مُفكك من الداخل ، وأنساقه الاجتماعية تضمحل تدريجيًا ، وهذا الانتحار الاجتماعي التدريجي ، يُعزّز ثقافة التَّربُّص والانقضاض في المجتمع ، فالفرد يتربّص بأخيه

في الوطن والمصير ، لاعتقاده أن المكان لا يتسع إلا لفرد واحد ، وإذا لم تكن آكلاً فانت مأكول ، والمجتمع يصير فراغاً موحشاً، وصياداً ينتظر اللحظة المناسبة للانقضاض على الفريسة ، والضحية تتقمص جلادها ، وتلعب دُورَه ، ويشعر جميع الأفراد بأنهم مظلومون ، ولا أحد يعرف من الظالم، وتحوّل العلاقات الاجتماعية إلى منظومة نفعية استغلالية، حيث يأكل القوي الضعيف ، ويستغل الغني الفقير ، ويضطهد الكبير الصغير ، وتَصير الأحلام الإنسانية أزهاراً جميلةً لَكِنَّها سامةٌ ، وتعيش في بيئة هدامة، وتتوّل الظواهر الإنسانية إلى سياقات موحشة تدفع المشاعر والأحاسيس إلى التَّوحُّش، وتدفع الفلسفة السياسية إلى الغرق في شريعة الغاب ، ويصبح القادر على اضطهاد الآخرين هو المُتحدِّث باسمهم ، الذي يتخذ القرارات نيابةً عنهم ، ويُقرّر مصيرهم ، وهم آخر من يَعْلَم. وهذا الانهيارُ الشامل لا يحدث بين ليلة وضحاها، لأنّه تراكمات عبر الأزمنة ، وترحيل للمِلَفَّات والأزمات عبر المراحل ، ودفن للنار تحت الرماد ، لذلك كثيرٌ من الناس لا يشْعرون به ، أو قد يستهينون به ، لأنّ تفكيرهم محصور في الهدوء الذي يسبق العاصفة ، ذون الاستعداد للعاصفة ، وهم عاجزون عن استيعاب خُطورة وَضْع السُّم في العسل ، لأنّ تفكيرهم مُسلَّط على تذوّق العسل والاستمتاع بمذاقه، ورؤيتهم مُركّزة على القَشَّة التي قَصَمَتْ ظَهَرَ البعير ، أو القُطْرة التي أفاضت الكأس ، وهذا يَمْنَعهم من التفكير بالتراكمات الزمنية ، ومُسلّس الأخطاء التاريخية . وعجزهم عن تفسير ظواهر التاريخ ، جعلهم يُكرِّرون نَفْسَ الأخطاء ، لذلك صارَ الفرد يُلدَغ من نَفْس الجُحْر مرّات كثيرة ، وهذا يدلُّ على انطماس بصيرة الفرد بسبب ضغط المجتمع الأبوي عليه ، ومُحاصرته ، وَمَنْعَه من التفكير . لذلك ليس غريباً أن تُصبح إنسانيّة الفرد آلةً ميكانيكية تتلقّى الأوامر لتنفّذها ذون التفكير في ماهيتها وأبعادها ، وليس غريباً أن يقفز المجتمع الإنساني في الفراغ ، ويؤسّس للعدم . إنّ المُجتمع المُحاصر بالمشكلات والأزمات ، والمُحاصر للأفراد والجماعات ، والذي يدفن النار تحت الرماد ، ولا يُفكّر بإطفائها ، جعلَ الفرد مُقتنِعاً بعيشة الإجراءات الوقائية ، وعدم جدوى التخطيط للمستقبل . وهكذا ، صار الناسُ ينتظرون المرض ، ثمَّ يبحثون عن العلاج ، ويعتبرون الإجراءات الوقائية المانعة من حدوث المرض مضيعة للوقت والجهد .

*

الفرد والمجتمع في مواجهة التناقضات والصراعات

١

اكتشاف الأنظمة الاجتماعية المسيطرة على حياة الفرد ، يستلزم معرفة مسار الفرد في المجتمع ، وطبيعة التناقضات في منظومة الحقوق والواجبات التي تحكم العلاقة بين الفرد والمجتمع. والتناقضات تكشف ماهية المسار الفردي ، وحقيقة الجوهر المجتمعي ، واتجاه المشاعر الإنسانية، وهوية الأنظمة الاجتماعية ذات البنية السلطوية الحاكمة معنويًا وماديًا . والفلسفة الاجتماعية قائمة على دراسة الاختلافات والتناقضات والصراعات، وبضدّها تتبيّن الأشياء ، وتُعرف أهميتها . فمثلاً ، في الصيف تُعرف أهمية الشتاء ، وفي الشتاء تُعرف أهمية الصيف. وهذا المثال ينسحب على كل الثنائيات ، سواء كانت في داخل الإنسان أم خارجه . وبما أنّه لا يوجد مجتمع إنساني مثالي، ولا يوجد فرد كامل، فإن تيارات فلسفية جديدة ستنشأ وتتكاثر لدراسة حالات النقص والتعارض والاختلاف والتضاد ، وسوف تبرز أفكار معرفية تقوم على تكوين الأصول الاجتماعية ، وربطها بالفروع والتطبيقات على أرض الواقع . وبما أن المريض وحده هو الذي يحتاج إلى دواء ، فإنّ اختبارات كثيرة ستظهر من أجل الوصول إلى الدواء الفعّال . وما ينطبق على الفرد ينطبق على المجتمع ، فكلاهما كائن حي ، يمرضان ، ويبحثان عن الدواء من أجل الشفاء . والاعتراف بالمرض هو الخطوة الأولى للعلاج .

٢

كلّ فرد له حركتان في حياته : حركة في داخل ذاته ، وهي انتقال عبر الأفكار والمشاعر والصراعات النفسيّة ، وحركة في داخل مجتمعه ، وهي انتقال عبر الضغوطات الحياتية والقيم الاستهلاكية والحاجات البيولوجية . وإذا سيطر الفرد على نفسه ، سيطر على عناصر البيئة المحيطة به . وإذا نجح في صناعة الحلم في داخله ، نجح في صناعة مستقبله في الحياة . والطموحات الفردية لا يمكن أن تتحقّق واقعاً ملموساً إلا بإزالة كافة الحواجز بين الفرد والمجتمع، وفتح الحلم الفردي على مصراعيه أمام أمواج المجتمع ، كي تحدث عملية الاندماج والتمازج بين الأنا والآخر في المجتمع الواحد ، فالفرد جزء من المجتمع (الكلّ) ، والجزء ليس له وجود بدون الكلّ . وشرعية الغصن مرتبطة بوجوده في الشجرة ، أمّا إذا رمي الغصن على الرصيف ، فسوف تسحقه أقدام المارة ، ولن يدافع عنه أحد .

٣

لا مَفَرٍ من تعامل الفرد مع الصراعات النَّفْسِيَّةِ والتناقضات الاجتماعية ، كما أنَّه لا مَفَرٍ من تعامل الرُّبَّانِ مع البحر المُتلاطِمِ الأمواج . والسَّفِينَةُ هي التي يجب أن تتأقلم مع البحر ، وليس العكس ، لأنَّنا نَمْلِكُ سُلْطَةً على السَّفِينَةِ ، ولا نَمْلِكُ سُلْطَةً على البحر . وهذه الفكرة ينبغي أن يَسْتَوْعِبها الفردُ في حياته الاجتماعية ، كَي يُمَيِّزَ بين الظروف التي تَحْكُمنا (الظروف الحاكمة) ، والظروف التي نَحْكُمها (الظروف المحكومة) ، وكَي يُفَرِّقَ بين الأشياء التي نَكُونُ فيها مُسَيَّرِينَ ، والأشياء التي نَكُونُ فيها مُخَيَّرِينَ . وهذا الأمرُ ضروري لأنَّه يُريح الفردَ ذهنيًا وجسديًا ، ويُحرِّره من الضغوطات الفكرية والاجتماعية ، ويدفعه إلى الاستثمار في المُمكن ، وعدم إضاعة وَقْتِه في المُستحيل . ولا يُمكن للفرد أن يُنَاطِحَ المُجتمعَ ، ولا يَقْدِرَ أن يُصْلِحَ العَالَمَ ، لأنَّ العَقْلَ الجَمْعِيَّ أقوى من العَقْلَ الفَرْدِي . وهذه لَيْسَتْ دَعْوَةٌ إلى الكسل واليأس ، ولكنها دَعْوَةٌ إلى ضرورة معرفة الفرد لإمكاناته ، وعدم تَضْيِيع جُهدِه في معارك خيالية خاسرة . ومع هذا ، يَجِبُ على الفرد أن يَتَرَكَ بصمته الشخصية في سبيل علاج مُشكلات المُجتمع والعَالَمِ ، ذُوْن أن يُحْمِلَ نَفْسَه مسؤوليَّةَ إصلاحهما . والفردُ لَيْسَ وَصِيًّا على الناس ، ولا مسؤولًا عن أعمالهم ونتائجها ، وَلَكِنَّه مُطَالِبٌ بمُساعدة الناس ، وتَسْلِيْطِ الضَّوءِ على أخطائهم ، وتقديم حُلُولٍ ناجعة لإصلاحها ، ونشر الوَعْيِ في المُجتمع . ودورُ الفردِ مَحْصُورٌ في إضاءة الشَّمْعَةِ ، وليس إجبار الناس على المَشْيِ في الطريق . وكما أن تَحْوِيلَ مَجْرَى النهر لا يَكُونُ بالسَّابِحةِ ضِدَّ التَّيَّارِ ، وإنَّما يَكُونُ ببناء السُّدُودِ ، كذلك عملية نقل المُجتمع الإنساني من التخلف إلى التقدم ، لا تكون بتحدِّي المُجتمع ومُحارِبَتِه والوقوف ضِدَّه ، وإنما تكون ببناء الوَعْيِ ونشر ثقافة الإبداع . وكما أن الشاعر يستطيع العثور على مواطن الجَمال في الأشياء القبيحة ، وكتابة قصيدة جميلة عن شيء قبيح ، كذلك الفرد يستطيع العثور على المعاني الإنسانية داخل المُجتمع القاسي ، وإيجاد أنظمة فكرية منطقية داخل الفوضى المجتمعية . وبشكل عام ، إنَّ النظام الاجتماعي الحقيقي هو ترتيب لعناصر الفوضى وسيطرة عليها ، وَلَيْسَ حَذْفًا لها ، لأنَّها _ ببساطة _ لا يُمكن حذفها ولا إلغاؤها . ومن المُستحيل تكوين مُجتمع إنساني مُنظَّم بشكل كامل ، والنظام الاجتماعي الكامل غاية لا تُدْرَك . ومع هذا ، إنَّ المُجتمع الذي يَعْرِفُ أخطاءه وغيوبه وأمراضه ، هو مُجتمع حَيٍّ وَخَرٍّ وَحَيَوِيٍّ ، يسير في طريق العلاج . أمَّا المُجتمع الذي يُكَايِرُ ، ويُعَانِدُ الحقائق ، ويعتبر نَفْسَه خاليًا مِنَ المُشكلات والأزمات ، فهو مُجتمع مَيِّتٌ ، لا أمل في عَوْدَتِه إلى الحياة . والمُجتمعُ المَيِّتُ الذي لا يَعْرِفُ أنَّه مات ، لا يُمكن إقناعه بأهمية الحياة ، وضرورة العودة إليها .

رحلة الإنسان المصيرية بين الحلم والموت

١

تُمثِّل الأنساق الاجتماعية مرجعيةً رمزيةً للتجارب الشخصية التي يحياها الأفراد في مشاعرهم الداخلية وحياتهم الخارجية . والأفراد _ أثناء حركتهم في هذا الوجود _ يكتبون تاريخ المجتمع الكلي معرفيًا ورمزيًا . وهكذا تتحدّد المعرفة الاجتماعية كإطار جامع لأشكال الوعي الإنساني ، وتتحدّد الرمزية الثقافية كغلاف للسلوك الإنساني المُتحرّر من ضغط العناصر السلطوية . ووظيفة الوعي الإنساني أن ينقل المعرفة الاجتماعية من الإطار إلى قلب العلاقات الفكرية في المجتمع (الانتقال من البرواز إلى المركز) ، ووظيفة الفعل الاجتماعي الحي والحر أن ينقل الرمزية الثقافية من الغلاف إلى رُوح التفاعل الوجداني مع عناصر الطبيعة (الانتقال من القشرة إلى اللبّاب) . وهذان الانتقالان يُمثّلان المعنى الاجتماعي المُزدوج ، الذي يتحرّك ضمن مسارّين ، يتقاطعان في نقطة واحدة ، وهذه النقطة هي قلب المجتمع النابض الذي يَضْحُ الدّم في شرايين الحلم الإنساني لإبقائه على قيد الحياة .

٢

من السّهّل على الإنسان أن يُحب ، ولكن من الصعب أن يُدافع عن حُبّه ويضحيّ من أجله . ومن السّهّل على الإنسان أن يحلم ، ولكن من الصعب أن يُدافع عن حلمه ، ويحوّله إلى واقع ملموس . ومهمّة الشعور الإنساني الجمعي أن يُقاتِل الأوهام من أجل تكوين حلم إنساني يمتاز بالوعي والواقعية ، بعيدًا عن السّذاجة والمثالية ، وأن يُعبّد الطريق أمام هذا الحلم كي يصل إلى الهدف المنشود بلا عوائق . وما أكثر الأحلام التي تَمّ وأدها في هذا الوجود ، وما أكثر الذكريات المدفونة تحت تراب المقابر . وفي ظلّ هذه المُعطيات والتحدّيات ، ينبغي على الإنسان أن ينيّ حياته الإبداعية على قاعدة منطقية متماسكة بين الحلم والموت ، وأن يدرك أنّه في سباق مع الزمن من أجل تحقيق حلمه ، فإمّا أن يَنجح وإمّا أن يُخفق ، ولا تُوجد نتائج مضمونة في الحياة ، لأنّ الحياة نفْسها غير مضمونة .

٣

الحياة الإنسانية هي الفترة الزمنية المحصورة بين الحلم والموت . والمسار الوجودي الذي يختاره الإنسان له نقطة بداية (ولادة حلم الإنسان) ونقطة نهاية (موت جسد الإنسان) .

والمسافة الفاصلة بين هَاتَيْنِ الثَّقَتَيْنِ هي المعركة الوجودية التي يخوضها الإنسان يَوْمِيًّا بِكُلِّ تاريخه ومهاراته وحواسّه ، ولا تُوجد فُرصة أُخرى للتَّعْوِيز ، ولا إمكانية لرفع الراية البيضاء . والتخطيطُ للمعركة أصعب مِن أحداث المعركة ، وهذه الحقيقة تَفْرُضُ على الإنسان أن يَكُونَ العقلُ المُدَبِّرُ الذي يُخَطِّطُ بِدِقَّةٍ لمعركته في الحياة ، مِن أَجل السَّيْطَرَةِ على الأحداث ، ومنعها من السيطرة عليه . وهذا لا يَتَأَتَّى إِلَّا بِدراسة جميع الاحتمالات بلا استثناء ، والتعامل مع كُلِّ احتمال على حِدَةٍ باعتباره معركةً كاملة قائمة بذاتها ، وَمِن شَأْن هذه العملية تَحْيِيدُ عُنْصُرِ المُفَاجَأَةِ ، لأنَّ عُنْصُرَ المُفَاجَأَةِ قاتل . وَمَن امتلك الصَّلابةَ الذهنية وسُرعة البديهة (رَدُّ الفِعْلِ السريع) ، استطاعَ وأدَّ المُفَاجَأَاتِ في مَهْدِهَا . وَمَن كان مَهْزُوزًا ، وَمُنْهَارًا مِن الداخل ، وَيُقَادُ بِالْعَصَا وَالْجَزَرَةِ ، فَإِنَّ مُفَاجَأَاتِ الحياة ستسحقه ، وَلَن يَمْلِكَ فُرصة ثانية للوقوف على قَدَمَيْهِ ، لأنَّ الخطأ الأوَّل هو الخطأ الأخير . وَمَن رَمَى بِنَفْسِهِ إلى البحر وهو لا يُحَسِّنُ السَّباحَةَ ، فلا يُعْقِلُ أن يَلُومَ الآخَرِينَ لأنَّهُمْ لَمْ يُلْقُوا إِلَيْهِ طَوْقَ النَّجَاةِ . وَمَن أَلْقَى بِنَفْسِهِ تحت عجلات القطار ، فلا يَنْتَظِرُ أَيْةَ مُسَاعَدَةٍ مِنَ الرُّكَّابِ ، لأنَّ العاجز عن مُسَاعَدَةِ نَفْسِهِ ، لَن يُسَاعِدَهُ الآخَرُونَ .

*

الكُون والكائن والكيان والكيونة

المفاهيم الاجتماعية ليست منظومة واحدة ضمن كيان مركزي، وإنما هي تشكيلات متعددة وأنظمة متنوعة، وهذا يعني أن الفكر المعرفي الذي يُمثّل التّوأّة الأساسية في المفاهيم الاجتماعية ، لا يمكن حصره في إطار مُعيّن ، ولا يمكن مُحاصرته في زاوية ضيّقة، لأنّ طبيعة الفكر قائمة على التدفّق والانطلاق في الفضاءات الإنسانية الرَّحية . وهذه الفضاءات تُجسّد حُلَم الإنسان في التحرُّر من ذاته كي يَجِدَ ذاتَه . وما دام الإنسان مدفوناً في أعماقه الذاتية ، فلن يجد شخصيته الاعتبارية وأحلامه الشخصية . يجب على الإنسان أن يخرج من نفسه كي يرى نفسه بكامل أبعادها، دون انتقائية ولا اجتزاء . والنّظرة الشمولية التي تنفّذ إلى أعماق الإنسان ، لا تتحقّق إلا بالنظر إليه من كلّ زوايا الرّؤية ، وهذه هي الضّمانة الحقيقية لتكوين صورة صحيحة عن الإنسان المتحرّك في المجتمع ضمن المسارات المعرفية المركزية شديدة الاستقطاب: الكون والكائن والكيان والكيونة .

المجتمع الإنساني كائن حي، وحياته ذات طبيعة مُنشّطية ، لأن الانفجارات الشعورية في داخل الإنسان لا يمكن السيطرة عليها ، وكلّ العناصر التي تنطلق بدون سلطة معرفية تحكّمها وتنظّمها ، ستُكرّس التّشظّي في الذات الإنسانية والذات المجتمعية ، وهذا يعني بالضرورة تشظّي المُصطلحات الفكرية في الفلسفة التاريخية للعلاقات الاجتماعية . ولا يُوجد مُجتمع إنساني بدون تاريخ معرفي ، ولا يُوجد تاريخ معرفي يعيش في الفراغ المعنوي أو العدم المادي. إنّ التاريخ المعرفي للمجتمع الإنساني يعيش في الكون_بمعناه الرمزي الفلسفي _، وهذا الكون عبارة عن مجموعة الأحلام التي يتكوّن منها العالم الداخلي للإنسان ، ومنظومة المشاعر الموجودة في أعماقه ، وتجمّعات العلاقات المتكاثرة في واقعه المُعاش . وإذا تكرّس هذا الكون في الأطر الشخصية والتّكتلات الجماعية ، وجَدَ الإنسان ذاتَه ، واكتشف مساره ، وأمسك مصيره ، وهذا يعني انتقال الإنسان من الشّعار إلى التطبيق ، ومن المعنى المُجرّد إلى تجسيد المعنى حُلماً محسوساً . وعندئذ يُصبح الإنسان هو الكائن الحي والحر ، الموجود في رُوح المجتمع الناهض ، والسّاكن في قلب التغيّرات الاجتماعية المُستمرة .

إذا تجذّرت العلاقة بين الكون والكائن ، فإنّ الكائن سيُعيد تشكيل وجوده ، ولن ينتظر نيل الشّريعة الوجودية من عناصر بيئته ، لأنّ الكائن هو صانع الأحداث ، ومانع الشّريعة للأحلام في

بيئته ومُجتمعهُ ، والفِعْلُ الحقيقي يَمْتَلِكُ شرعيَّةً مُستقلة قائمة بذاتها ، أَمَّا رَدَّةُ الفِعْلِ ، فهي مُجرَّد انعكاس بدون شرعية ذاتية ، لأنَّها تستمد شرعيتها مِنْ مَصْدَرِهَا الأساسي ، وهو الفِعْلُ . وبما أنَّ الإنسان الذي يصنع الأحلام الاجتماعية في الظروف الصعبة هو الكائن الواقف أمام العواصف ، فهذا دليل على أنَّ الكائن هو الفِعْلُ والفاعل في آنٍ معاً . وكما قيل: الذين وُلِدُوا في العواصف لا يخافون هُبُوبِ الرياح .

وهذا الصُّمُودُ الإنساني في المجتمع القاسي، يقوم على الشائبة المصيرية (الكَوْنُ / الكائن) التي تدفع باتجاه إنشاء الكيان الإنساني ، وهو السُّلْطَةُ الاعتبارية الموجودة بحد ذاتها فِعْلاً ومُمارَسَةً وتطبيقاً . والكيانُ هو التَّجْمِيعُ لشظايا الأحلام الاجتماعية ، والتَّجْسِيدُ للسلوكيات الإنسانية الزَّمكانية (الزَّمانية _ المكانية)، أي إنَّ الكيان يَمْلِكُ شرعيَّةً اجتماعية تاريخية وجغرافية معاً ، وله سُلْطَةُ مركزية في الزمان والمكان معاً .

وهذه الشرعيَّة الاجتماعية المُتجسِّدة في الكيان هي الحاضنة للكينونة ، التي تشمل القِيَمَ الموضوعية والذاتية للواقع الذهني والوجود العملي . والكينونة هي رُوحُ الكيان الإنساني القادرة على اكتشاف الوجود أفقياً وعمودياً، والتعبير الحقيقي عن تفاصيل الأحلام في مُختلف نواحي الحياة . وبعبارة أخرى ، إنَّ الكينونة هي الحياة الحقيقية .

*

خطورة تحوّل الإنسان إلى مقبرة مُتنقلة

١

العواطف الإنسانية التي تتحكّم بالأنساق الاجتماعية ، تُمثّل نظامًا وجوديًا من الرموز والإشارات . وتحليل هذا النظام المُركّب يتطلّب عودة الإنسان إلى أعماقه ، والبحث عن الأشياء التي ماتت فيه . والإشكالية المركزية في المجتمعات هي عدم الانتباه إلى تحوُّلات الإنسان الوجدانية ، لأنّ النظام الاستهلاكي المُغلّق يطمح المشاعر الإنسانية ، ويُصنّف العواطف كمنظومة عبثية ، وتراكيب ساذجة ، ولحظات ضَعْف ، ويُكرّس التّزعة المادية المتوحشة في عالم مُوحش . وهذا الضّعف الهستيرى على وجود الإنسان ومشاعره ، يُحوّله إلى كيان مُفرّغ من المعنى، يخجل من التّعبير عن مشاعره ، ويجعله آلة ميكانيكية عمياء ، ومقبرة متنقلة لا شيء فيها غير طعم العدم ورائحة الموت ، الموت في الحياة .

٢

تحوّل الإنسان إلى مقبرة مُتنقلة ، يعني أن الكيان الإنساني صار وعاءً للأحلام المقتولة، والذكريات الميّتة ، والأفكار المذبوحة ، والأصوات الخرساء . وهذا الانهيار الشامل في داخل الإنسان ، ينقل معنى وجوده من الهويّة إلى الهاوية، ويصير الإنسان الخاضع للضّعف الاجتماعي اليومي شيئًا عابرًا في الزّمان والمكان ، وكائنًا حيًّا وهميًّا مُكوّنًا من عناصر ميّتة ، أي إنّ الإنسان يصير مجموعة أموات ، وكأنّ الأموات قد اجتمعوا في جسم واحد . وإذا فقد الإنسان شرعيّة وجوده، وصار شيئًا من الأشياء ، تحوّل إلى سلعة في سوق العرض والطّلب ، وتحوّلت مشاعره المتساقطة إلى ريشة في مهبّ الرّيح . وعندئذ ، ستنهار الفلسفة الاجتماعية بأكملها ، لأنّ مصدرها الإنسان . والفلسفة الحقيقية القادرة على تكريس فعل التّغيير نحو الأفضل ، إنّما تُؤخذ من ملامح الإنسان ، وليس من الشّعارات الرّنانة ، لأنّ ملامح الإنسان هي المرآة التي ينعكس فيها جوهره الداخلي . ومهما كان الإنسان قادرًا على ضبط مشاعره ، والسيطرة على مزاجه ، والتحكّم بملامحه ، فلنّ يستطيع إخفاء حقيقته الداخلية وجوهره العميق وماهيته الكامنة ، وسوف ينعكس ضوء القلب الداخلي في مرآة وجه الإنسان الخارجي .

٣

لا يُمكن للإنسان أن يتحرّك باتجاه المجتمع لبنائه وإعمارهِ معنويًّا وماديًّا ، إلا إذا نجح في بناء نفسه أولًا، وهذا يعني أنّ الخطوة الأولى في طريق الوعي الاجتماعي ، هي ارتداد الإنسان إلى

نَفْسِه ، ورجوعه إلى كِيانه، مِن أجل التَّنْقِيبِ عَنِ الشَّظَايا المتناثرة في أعماقه ، والأشياء المَيِّتَةِ في داخله . ورحلَةُ الإنسان بِاتِّجَاهِ ذاته العميقة لتنظيفها وتطهيرها ، وإعادة الأشياء المَيِّتَةِ إلى الحياة ، هي اللبنة الأساسية في بناء المجتمع . وَكُلَّمَا عَادَ الإنسانُ إلى ماهيَّة وجوده الكامنة في أعماقه ، اكتشفَ مَنبَعَ مشاعره ، ومَصْدَرَ أحلامه . ويُمكن القولُ إِنَّ العُودَةَ إلى الأنا أهم وسيلة لمعرفة الآخر _ بِكُلِّ مَعَانِيهِ _ . والوصول إلى قاع البئر ضروري لمعرفة طبيعة تكوينها ومدى قُدْرَتِها على استيعاب الماء .

٤

إذا نجح الإنسانُ في ترميم ذاته ، والانبعاث مِن جديد ، وتكوين جبهة متماسكة في داخله ، فإنَّه سيُدرِك حقيقةَ الجَوهَرِ الإنساني ، وماهيَّة البناء الاجتماعي ، وعندئذٍ يُصبح قادرًا على بناء مُجتمعه ، والأخذ بأيدي الناس إلى بَر الأمان ، ولا يُمكن للغريق أن يُنقذَ غريقًا ، ولا يُمكن وضع الورد في مزهرية مكسورة . وهاتان الحقيقتان ثُمَثَلان قاعدَتَيْن رَمَزِيَّتَيْن في منظومة الفعل الإنساني المُتَّجِهَةِ نَحْوَ المجتمع، لإخراجه مِن حَالَةِ العَجْزِ والسَّلَالِ ، وَمَنَحِهِ القُدْرَةَ على الوُقُوفِ على قَدَمَيْهِ .

٥

ينبغي أن يكون المُنقِذُ قويًا ومُتماسكًا وواقفًا على أرض صُلْبَةٍ كي يُنقِذَ الغريقَ ، ويَنْتِشِلَهُ من أعماق الهاوية السَّحيقة ، لأنَّ المُنقِذَ هُوَ المُخلِّصُ ، ولا يُمكن أن تتحقَّق لحظة الخَلاص (الانعتاق) إلا بِوجود طرف قوي يَمْتَلِكُ الإحساسَ الواعي بذاته القادرة على البذل والعطاء والإنقاذ، أمَّا الضعيف فهو عاجز عن إنقاذ نَفْسِهِ ، فكيف يُنقِذُ الآخرين ؟ . إِنَّ فاقِدَ الشَّيْءِ لا يُعطيه . وإذا كان الإنسانُ يُريدُ لعب دور المُخلِّصِ ، فيجب عَليْهِ تَخْلِيصُ نَفْسِهِ مِن حُطَامِهَا ، وإنقاذ مشاعره مِن رُكامِها، كي يصل إلى حالة السلام الروحي ، والتوازن الداخلي ، ويُصبح قويًا مُتماسكًا قادرًا على احتضان المعاني الإنسانية الرفيعة ، وتقديمها للآخرين لتخليصهم مِن الفراغ ، وإنقاذهم مِن العَدَمِ . أمَّا الإنسانُ المُنهَارُ فهو كالمزهرية المكسورة ، عبارة عن مجموعة شَظَايا مُتناثرة ، لا أحد يَعْبَأُ بها ، ولا أحد يُريدُ وضع الورد فيها .



التزامن والتعاقب في حياة الإنسان والمجتمع

١

العلاقة بين الحُلم الإنساني والفعل الاجتماعي لا يمكن اختزالها في أطوار تاريخية مُعيَّنة ، أو أُطر جُغرافية مُحدَّدة، لأن الحُلم الإنساني هو صورة الوُعي وجوهر الحقيقة ، والفعل الاجتماعي هو الوُعي بالحقيقة ، وتطبيقها على أرض الواقع ، وهذا يعني أن ثنائية (الحُلم الإنساني / الفعل الاجتماعي) عبارة عن علاقة وجودية لا يُمكن تجنيسها، ونظام حياتي مركزي عابر للزمان والمكان، ومُتدفِّق في ذاكرة المجتمع بلا فواصل، لأن ذاكرة المُجتمع هي ذاكرة جَمعية لا فردية ، تُعتبر الماضي والحاضر والمستقبل كُتلة واحدة ، تتحرَّك في المسار الحضاري بشكل تزامني مع الشُّعور الإنساني (الزمن والشُّعور يتحركان معًا في نفس اللحظة) ، وأيضًا، تتحرَّك هذه الكُتلة الواحدة في البنية المعرفية بشكل تعاقبي مع القُدرة العقلانية (الزمن والفكر يجيء أحدهما بعد الآخر ، ولا يتحركان معًا في نفس اللحظة) .

٢

الزمن والشُّعور مُرتبطان بعلاقة تزامنية ، يُوجدان معًا ، ويُغييان معًا، ولا يُمكن الفصل بينهما ، لأن الإنسان ليس آله ميكانيكيةً ، وليس حَجَرًا في البناء الزمني للمجتمع ، وليس رَقْمًا عابرًا في تاريخ الحضارة ، وهذه الحقائق الأساسية تجعل الإنسان في قلب الأحداث ، صانعًا لها ، ومُتفاعلًا بها ، ومُتفاعلاً معها . والزمن الاجتماعي يُولِّد الشُّعور بالحياة ، وهذا الشُّعور يصنع زمن التحولات الاجتماعية . وهذه العلاقة التبادلية تَنُمُّ في نفس اللحظة ، لاستحالة فصل الزمن عن الشُّعور . وكما أن الإنسان لا يستطيع التحرر من الجاذبية الأرضية مهما كان قويًا ، كذلك لا يستطيع شُّعوره التحرر من جاذبية الزمن ، لأن الإنسان ابن وقته ، ولا يملك إلا اللحظة الآنيَّة ، لأن الماضي ذهب ولن يعود ، والحاضر المُعاش يُصبح ماضيًا بشكل مُستمر ، والمُستقبل مجهول . وهذه الحقائق ثابتة في كُل المجتمعات الإنسانية بغض النظر عن درجة تقدُّمها أو تخلفها . والجدير بالذكر أن التقدُّم التكنولوجي لا يستلزم التقدُّم الشُّعوري ، والرُّقي المادي لا يستلزم الرُّقي الإنساني ، لأن القوانين التي تَحْكُم الآلة تختلف عن القوانين التي تَحْكُم الإنسان .

٣

الزمن والفكر مُرتبطان بعلاقة تعاقبية ، يُوجدان بشكل مُتتابع بسبب وجود فاصل بينهما ، وهذا الفاصل هو الفترة بين الفعل (الحدث) وورد الفعل (القرار) . إن الزمن يشتمل على وقائع

وأحداث ، وعندما يقع أمر ما على أرض الواقع، لا بُد من دراسته وتحليله من أجل اتخاذ القرار المناسب بشأنه ، وهذه العملية تستغرق وقتاً، وهذا يعني وجود فاصل بين الزمن والفكر . وبعبارة أخرى ، إن الفكر الإنساني يحتاج إلى زمن كي يختمر . والزمن الواقعي المحسوس يُؤلّد الفكر المنطقي الذهني غير المحسوس ، وهذا الفكر يصنع زمن التغيرات الاجتماعية ، ويدفع باتجاه اتخاذ القرار المناسب في الوقت المناسب .

٤

وصول الإنسان إلى محطة القطارات ليس له فائدة بحد ذاته. يجب على الإنسان أن يدرك هدفه (وُجهته)، ويعرف موعد انطلاق القطار ، ويصل إلى المحطة في الوقت المناسب . وهذه العناصر مُجتمعة تكشف أهمية الترابط بين الزمان والمكان والشعور ، وضرورة التطبيق العملي على الأرض . ولا يكفي أن يكون الإنسان على قيد الحياة ، يجب أن يكون صانعاً للأحداث ، ومُوجّهاً لها ، لتحقيق مصلحته الشخصية في إطار المصلحة العامة ، وسوى ذلك سيفوته القطار ، ويقف على رصيف المحطة حزيناً بعد فوات الأوان ، ونادماً حين لا ينفع الندم ، ويحرق صفيّر القطار أعصابه ، ويحطم أحلامه وذكرياته . والوعي الوجودي يُحتم على الإنسان أن يستبق القطار ، ولا يترك القطار يسبقه ، والفكر العقلاني يفرض على الإنسان أن يكون فعلاً لا ردّ فعل .



التاريخ المنسي في أحماق الإنسان

١

الإشكالية الفكرية التي يقع فيها الإنسان أثناء مساره الحياتي، تتجلى في بحثه عن تاريخ الأمم والشعوب ، ونسيان تاريخه الشخصي الذي يعيش في أعماقه الداخلية. وهذه العملية ناتجة عن عدم تقدير الإنسان لنفسه ، فهو يعتقد أنه مُجَرَّد عنصر هامشي في المجتمع الإنساني ، ورَقْم عابر في الحضارة الكونية ، وهذه القناعة الوهمية التي تجذرت في أفكار الإنسان ومشاعره ناتجة عن ضغط النظام الاستهلاكي المادي ، الذي جعل الإنسان مَحْصُورًا في دائرة الوعي السلبي ، ومُحَاصَرًا بالسلوكيات الاجتماعية التي تَكَرَّست كَمُسَلِّمات بفعل العادات والتقاليد ، وليس بفعل الحُجَّة والمنطق . وهذا أدَّى إلى دَوْران الإنسان حول نفسه ذُون أن يُفَكِّر في اكتشاف نفسه ، وإخضاع أفكاره لقواعد المنهج العلمي الذي يقوم على قُوَّة الأدلة وشرعية البراهين . والدَّوْران في هذه الحلقة المُفْرَغة يُفَرِّغ الإنسان من طاقته الروحية ، ويُفَقِّده الثَقَّة بالنفس ، ويُجَرِّده من امتداده المصيري في الوجود والمجتمع واللغة .

٢

إذا أرادَ الإنسان فَهْمَ العَالَم، ينبغي أن ينطلق مِن نفسه (نقطة البداية)، وذلك بالتَّنْقِيب في أعماقه الداخلية عن تاريخه المنسي المدفون تحت خُطام الذكريات ، وأنقاض المشاعر ، وأحلام الطفولة المَقْتولة في مهدها . والعودةُ إلى الذات هي الانطلاقة الحقيقية نحو العَالَم . وإذا اقتنع الإنسان أنه عَامِل في مَنجَم ذكرياته ، سَيَعُثِر على الكُنُوز التي لا تُقَدَّر بثمن ، لأنها تتعلَّق بحياته التي لن تتكرَّر ، وتاريخه المُشتمل على أفراحه وأحزانه ، وهذه الكُنُوز هي شرعية السَّلام الداخلي في كيان الإنسان ، ومشروعية المصالحة بين الأشواق الروحية والنزعات المادية . وكما أن الذهب يُسْتَخْرَج من التراب ، كذلك الحُلُم الإنساني يُسْتَخْرَج من الألم . وكما أن البحر هو مقبرة خُطام السُّفُن الغارقة ، كذلك الذاكرة هي مقبرة أحلام الإنسان الضائعة . وعلى الإنسان أن يَتَشَبَّه بالمطر الذي يُخَيِّ الأَرْضَ المَيِّتة ، وَيُقَوِّم بإحياء الأشياء التي ماتت فيه ، واكتشاف الأحلام التي ضاعت في أعماقه ، وتَرْمِيم الذكريات التي انكسرت في داخله .

٣

تاريخ الإنسان لا يقلُّ تعقيدًا عن تاريخ الحضارة . وهذه الحقيقة تفرض على الإنسان _ في رحلة بحثه عن تاريخه الشخصي _ أن يتحرَّك وفق مُستويات معرفية متعددة ، ويُسيطر على روافد

فكرية مُتنوّعة، وهذا يستلزم بالضرورة مُحاولة التّوفيق بين الأضداد الناشئة عن الأهواء والمصالح ، وصّهر التناقضات الفردية والجماعية في بَوتقة إنسانية مُتجانسة . وطريقُ الإنسان إلى نَفْسِه ليس مفروشًا بالورود ، بسبب التقلبات في مزاجه وأفكاره ومشاعره ، والتغيرات في بيئته ومُجتمعِه . وهذا التّحدّي الحاسم يدفع الإنسان إلى زُكوب المَوجة المُوصلة إلى الشاطئ ، بدلًا من الاصطدام بها والغرق . وبذلك تتحوّل المِحنة إلى مِحنة ، والنّعمة إلى نعمة . ورَبَّانُ السفينة يَعْلَمُ أن تَحْدِي البحر معركة خاسرة ، لذلك لا يصطدم به ، وإنما يَسْتَغِل قُوَّةَ البحر من أجل إيصال سفينته إلى بر الأمان .

٤

إذا استطاع الإنسان اكتشاف إنسانيته في الوجود والمجتمع واللغة ، فسَوْفَ يُسيطر على المشاعر الداخلية التي تتأجج في أعماقه، ويتحكّم بالعناصر الخارجية التي تُحيط به وتضغط عليه، لأن الوجود يُحدّد دَوْرَ الأفكار في حركة التاريخ داخل كيان الإنسان وداخل كيان الحضارة ، والمجتمع يُكرّس العلاقة العقلانية بين قوانين التاريخ والأشكال الثقافية ، واللغة تربط بين وسائل التواصل والدلالات الرّمزية . واكتشافُ القِيمِ المعنوية والمادية في هذه المفاهيم المتشابكة ، والإمساكُ بكل الخُيوط المعرفية وغَزْلُها على شكل منظومة اجتماعية واعية ، يُمثّل المِحَكَّ الحقيقي لعلاقة الإنسان مع إنسانيته .



التحدّي المصري أمام السلوك الاجتماعي

السُّلُوكُ الاجتماعي ليس مجموعة من الأحاسيس المضطربة، أو كومة من العواطف الساذجة ، أو منظومة من ردود الأفعال العشبية ، وإنما هو منهج نظري وعملي في آنٍ معاً ، يشتمل على تاريخ الأفكار الإنسانية ، والوعي الوجودي بهذا التاريخ . وكما أن الوعي لا ينفصل عن التاريخ ، كذلك الفكر لا ينفصل عن التطبيق . وهاتان القاعدتان تسييران جنباً إلى جنب في فلسفة الشعور الإنساني ، التي تستمد شرعيتها من قُوّة المنطق والاحتكام إلى العقل . وهذا يدفع باتجاه توليد تيار فكري نقدي ، يقوم على فحص المُسلّمات المُكرّسة اجتماعياً بفعل الأهواء والمصالح والعادات والتقاليد ، واختبار حقيقة الوعي الإنساني في عالم القسوة المتغيّر . وقسوة العالم هي الامتحان الحقيقي للإنسان ، وجوداً وفكراً وشعوراً . وبما أن كل امتحان يحتاج إلى إجابة ، ولا يُمكن التهرّب منها ، فإنّ الإنسان مُطالب بالإجابة عن السؤال المصري الذي يمسّ شرعية وجوده ، ومشروعية سلطته الاعتبارية على الأنساق الاجتماعية : هل يُحافظ الإنسان على إنسانيته في العالم القاسي والبيئة الخشنة أم يتحوّل إلى وحش كاسر للحِفاظ على وجوده وسلطته ؟ .

والتحدّي المصري أمام السلوك الاجتماعي ينطلق من حقيقة مفادها أن الإنسانية على المحك ، والإنسانية هي القلب النابض للسلوك الاجتماعي ، وهذا يعني أن الإنسان صار في مركز الخطر ، ولم يعد الخطر مُجرّد احتمال ، وإنما صار واقعاً ملموساً ومُعاشاً ، ولم يعد الإنسان واقعاً على الشاطئ يُراقب دَوّامات البحر ، وإنما صار في أعماق الدَوّامات ، وعليه أن يُنقذ نفسه بنفسه، ويُقاتل الطاقة السلبية بالطاقة الإيجابية ، لأنّ برّ الأمان بعيد، ولكن يأتي أحد لإنقاذ أحد، لأن كل إنسان مشغول بنفسه، ولا يُفكّر إلا بالنجاة الشخصية . وهذا أمرٌ مُتوقّع في بيئة عالمية مُعادية لإنسانية الإنسان ، كرّست الخلاصَ الفردي كحلّ وحيد للنجاة ، لذلك صار كل فرد يُحاول القفز من السفينة قبل غرقها، ولا يُفكّر بإنقاذ السفينة. والنجاة الجماعية ليست مُستحيلة، فلا داعي للخوف ، ولا وقت للبكاء والاستسلام ، والوقت الذي يقضيه الإنسان في البكاء على الماضي ، يكفي لبناء الحاضر وإنقاذ المستقبل . والوقت الذي يستهلكه الخوف من الموت ، يكفي لصناعة الحياة .

الفرق بين الرُّبَّانِ وفِئرانِ السفينة

١

فلسفةُ التفاعل الاجتماعي لا تعني بناء علاقات مصلحة عابرة بين الأفراد ، وإنما تعني تأسيسَ كيان إنساني في قلب المجتمع ، يُوازن بين الجوهر (الثابت) والعَرَض (المُتغيِّر) ، ويُميِّز بين المنفعة المادية القائمة على الاستهلاك الوحشي والاستحواذ غير الشرعي ، وبين المنفعة الوجودية القائمة على المصير المُشترك والخلّاص الجماعي . وهذا التمييز ضروري للغاية ، لأنّه يكشف حقيقة الأفراد وماهيّة الأشياء ، ويوضّح بُنية الولاء والانتماء في المجتمع ، ويفصل بين الأشخاص الذين يَريدون حَمْل الوطن على أكتافهم والتّهوُّس به ، وبين الأشخاص الذين يَعتَبرون الوطن شَقَّةً مفروشة أو سَفينة مُعرّضة للغرق ، وينبغي الاستعداد للهرب منها عند الشُّعور بالخطر .

٢

منظومة (الولاء / الانتماء) لا يُمكن تعريفها بِمَعزِل عن تعريف الوطن . وإذا اعتبرَ الفردُ الوطنَ هو مركزية الحُلُم الإنساني وشرعية الوجود الحضاري ، فإنّه سَيَبْذُل الغالي والتَّفيس من أجل رفعة الوطن وتقدُّمه وازدهاره ، أمّا إذا اعتبرَ الفردُ الوطنَ مُجرّد بقعة جُغرافية ومكان للإقامة ، وفُرصة لتجميع المكاسب والامتيازات والغنائم ، فإنّه سَيُضَحِّي بالوطن من أجل مصلحته الشخصية ، ويُلقِيه وراء ظَهْره كأيّ شيء مُهمَل . وزاوية الرُّؤية التي يُشاهد الفردُ منها الوطنَ ، هي التي تُحدّد المعنى الحقيقي للولاء والانتماء ، هل يُوالي شرعية الوطن ومشروعية حُلُمه في النهضة والتقدُّم ، أم يُوالي أَرصَدته البنكية ومصلحته الشخصية المُضادّة للمصلحة العامّة ؟. هل ينتمي إلى الوطن ماضيًا وحاضرًا ومُستقبلاً أم ينتمي إلى شَهَوّاته الطينية ونزواته العابرة وغرائزه المُتأججة ؟.

٣

الفرق بين الرُّبَّانِ وفِئرانِ السفينة هو الفرق بين التضحية والانتهازية، فالرُّبَّان هو العَقْل المُفكِّر، وقائد السفينة في بحر مُتلاطم الأمواج . يُضَحِّي بحياته وراحته ومصلحته الشخصية من أجل إيصال السفينة إلى بَر الأمان ، ويظل مُلتصقًا بها إذا تعرّضت لحادث ، مُحاولًا إنقاذ ما يُمكن إنقاذه ، ولا يترك دَقَّة القيادة ، ويهرب من المسؤولية والتَّحدي . إنّ الرُّبَّان كطابع البريد الذي يظل مُلتصقًا بالرسالة حتى وُصولها إلى مُستَلِمِها ، وكما أن طابع البريد لا ينفصل عن الرسالة ولا يتركها وحيدةً ، كذلك الرُّبَّان لا ينفصل عن السفينة ولا يَخُونها . أمّا فِئران السفينة فهي تُعتبر السفينة

مشروعًا استثماريًا لجني الأرباح المادية والمكاسب المؤقتة ، والانتماء يكون للمصالح الشخصية الضيقة ، والولاء يكون للغنائم المغرية ، لذلك تقوم فئران السفينة بتفسير الأحداث والوقائع لخدمة أغراضها وتبرير خيانتها، وهي مُستعدة للهرب والقفز من السفينة عندما تشعر بالخطر والتهديد، وتُدرك أنها لم تُعدّ قادرة على جني الأرباح . والجدير بالذكر أنَّ الرأسمال الحقيقي هو الوجود الوطني ، لأنَّه جوهر عابر للأزمنة والأمكنة والمصالح الشخصية ، أمّا وجود المكاسب المادية فهو عَرَضُ مُوقَّت زائل ، والعَرَضُ لا يَدُومُ زَمَانَيْنِ . وإذا كان انتماء الفرد إلى وطنه ، فإنَّه سَيَرِبحُ نَفْسَه ووَطَنَه معًا ، لأنَّ نَجَاةَ الكُلِّ هي _ بالضرورة _ نَجَاةُ للجزء . وإذا كان انتماءه لنفسه ، فإنَّه سَيَخسرُ نَفْسَه ووَطَنَه معًا ، لأنَّ الجزء لا يَقُومُ مَقَامَ الكُلِّ .

*

الفعل والمعنى والوعي

١

الحياة الاجتماعية المتذبذبة بين اليقين والشك ، هي نتاج طبيعي لعجز الإنسان عن إيجاد ذاته في زحمة الأحداث والمشاعر ، وإخفاقه في اكتشاف صوته الخاص في ضجيج الأصوات المشتتة والشعارات الرنانة ، ونتيجة متوقعة لانفصال الفعل الاجتماعي عن المعنى الحضاري ، وغياب الوعي الجمعي عن التفاصيل اليومية المعاشة . وهذه الإشكاليات الخطيرة ساهمت في حصار الإنسان ضمن دائرة اجتماعية مغلقة ، بحيث صار معزولاً عن التأثير بالأحداث ، وعاجزاً عن التأثير فيها . وهذا يعني أنه صار متفرجاً على الأحداث المصيرية التي تمس حياته وتهدد وجوده ، دون أية قدرة على المشاركة في صنع جوهر الأحداث وصياغة تفاصيلها . لقد قبل بلعب دور الضحية ، ولم يعد قراره في يده ، وارتدى قناع الصمت الذي يربحه ظاهرياً ، ويسعده مؤقتاً ، وهذه الراحة خادعة لأنها تشبه راحة الفريسة قبل اصطيادها ، وهذه السعادة وهمية لأنها تشبه سعادة الحالم قبل أن يستيقظ من نومه ، ويجد نفسه أمام كابوس الواقع .

٢

القدرة الإنسانية على صناعة الحلم الاجتماعي لا تقوم بذاتها . إنها تحتاج إلى عناصر إسناد للحلم والحالم معاً ، كالعقل الجمعي الذي يحتاج إلى عضلات لتنفيذ أفكاره الإبداعية وخططه الطموحة ، وإخراجها من الخيال غير المحسوس إلى حيز الواقع المحسوس ، أي : إخراجها من الفضاء الذهني غير المحدود إلى أرض الواقع المسيطر عليه ، والمضاد للهلامية والعيشية . وعملية الانطلاق يجب أن تكون محسوبة بدقة ، بعيداً عن القوضى والأفعال الارتجالية والحماسة المفرطة . والسيطرة على أرض الواقع لا تكون باستخدام القبضة الحديدية والأدوات القمعية والقوانين البوليسية ، وإنما تكون بالقوة الناعمة التي تتشكل من الأفكار الإبداعية والتطبيقات العملية ، بحيث يصبح الواقع جسماً متماسكاً يوازن بين الظواهر الاجتماعية والمشاعر الإنسانية ، وكياناً إبداعياً يشارك الجميع في تكوينه والحفاظ عليه ، بعيداً عن وصاية السياسة على الثقافة ، واستغلال القوي للضعيف . إنَّ الواقع القادر على احتضان الزمان والمكان والأحلام الواعية ، يشبه القصيدة الجمعية التي تشترك الجماهير في كتابتها مع الشاعر ، بحيث تصبح القصيدة تعبيراً عن شرعية الوجود الإنساني بأكمله ، وأملاً مشروعاً في تحرر الوعي من الوهم ، وتحرير الجماهير من ضغط الاستهلاكية المادية .

عندما يجد الإنسان نفسه الحقيقية ، ويرى وجهه في مرايا المجتمع بلا أقنعة ، سيجد صوته الخاص الذي يُعبر عن مشاعره الكامنة في أعماقه الداخلية بدون ضغط خارجي ، ويصبح صوت من لا صوت له . وهذا يعني أن الإنسان صار فاعلاً في المجتمع ، وقادراً على صناعة الفعل الاجتماعي الذي يحول القبح إلى جمال ، والفوضى إلى نظام ، والتشتت إلى وحدة ، والضيق إلى وجود . وهذه العناصر مُجمعة تجعل للفعل الاجتماعي معنى حضارياً ، ووعياً إبداعياً . وهكذا يتشكّل الجوهر الحقيقي للمجتمع الطامح إلى تغيير الواقع ، والانطلاق إلى المستقبل ، بدون غرق في الماضي ، ولا انكماش في الحاضر ، ولا خوف من المستقبل . وأساس هذا الجوهر عبارة عن مثلث متساوي الأضلاع (الفعل ، المعنى ، الوعي) . وبشكل عام ، إن المجتمع الحي يعتمد على الجوهر (القوة الدافعة) ، وهذا الجوهر يعتمد على قاعدة ثلاثية لا يمكن تقسيمها ولا تفكيكها : ١- الفعل الاجتماعي العقلاني الذي يُميز بين نقاط القوة ونقاط الضعف . ٢- المعنى الحضاري الذي يحرص على أن يكون الحلم إنسانياً ، وضرورة تطبيقه بالوسائل المشروعة ، بدون توحّش استهلاكي ، أو بناء السعادة الوهمية على تعاسة الآخرين . ٣- الوعي المُستند إلى الحياة الحقيقية لا المُتخيّلة ، والمُعتمد على التاريخ الذي حدّث على أرض الواقع ، وليس التاريخ المُتصوّر في الأذهان ، أو الذي تمنى حدوثه . وهذا الوعي مثل الطبيب الذي يُخبر المريض بمرضه ، كي يدفعه إلى مقاومته ، وليس الاستسلام له . ولا يُمكن للوعي أن يصبح فعّالاً في الأنساق الاجتماعية ، ومؤثراً في المشاعر الإنسانية ، إلا إذا حدّد العلاقات الوجودية المركزية التي لا تخضع للإطار الزمني والحيز المكاني ، وهي : العلاقة بين الإنسان ونفسه ، والعلاقة بين الإنسان وأخيه الإنسان ، والعلاقة بين الإنسان والطبيعة . وكلّ وعي لا يكون تجسّداً للحلم الإنساني كاملاً ، هو وعي وهمي مُخادع ، لا يُعوّل عليه ، والمبادئ لا تتجرأ ، ونصف العلم أخطر من الجهل .

*

الانتقال من الأوهام اللذيذة إلى الحياة الحقيقية

١

إخراج الأنساق الاجتماعية من المُسلّمات الافتراضية والأوهام المُتوارثة ، يتطلّب تحديد المفاهيم المركزية في المجتمع ، التي تتحكّم بطريقة تفكير الأفراد ، وتُسيطر على بُنية تكوين الجماعة ، لأن السلوك نتيجة حتمية للفكر ، والواقع المُعاش انعكاس لمُحتويات الذهن . والإشكالية السائدة في المجتمعات الغارقة في ضجيج الشعارات بلا تطبيق عملي ، تكمن في الاهتمام بالجمعة وإهمال الطّحن ، لأنّ الجمعة مجّانية ، لا تحتاج إلى تخطيط وجُهد ، أمّا الطّحنُ فعملية صعبة ، تحتاج إلى جُهد وتعب ومُثابرة . وبما أن الناس عُمومًا يميلون إلى الاستسهال والراحة وتجنّب صعود الجبال، فإنّهم يعيشون الأوهام اللذيذة التي تُريحهم وتُسرّعهم، ولو كانت الراحة مُؤقّتة والسعادة خادعة . وهذا يدل على قِصر النّظر ، والتّخندق في اللحظة الآنيّة ، والغرق في الحاضر ، دون التخطيط للمستقبل . ولا يُمكن اقتحام المستقبل بثقة إلا بالتّخطيط ورسم السياسات الشاملة لكل مناحي الحياة ، لأنّ المستقبل منطقة عميقة وخطرة ، والسّباحة في الأعماق تحتاج إلى مهارة وكفاءة وصبر وإصرار . وكما أن السابح في البحر أمام خيارين لا ثالث لهما : إمّا الوصول إلى بر الأمان ، وبداية حياة جديدة وسعيدة ، وإمّا الغرق في الماء ، والتّحوّل إلى جفّة منسية تكون طعامًا للأسماك ، كذلك الإنسان في المجتمع أمام خيارين لا ثالث لهما: إمّا صناعة الحاضر والانطلاق إلى المستقبل بقوة وعزيمة، وإمّا الغرق في الماضي ، والبكاء على الأطلال ، وإضاعة العُمُر في محاولة استعادة أشياء لا تُعود . وإذا أراد الإنسان أن يكون رفقًا صعبًا في مُعادلة الحضارة ، فعليه أن يُحوّل الذكريات الميّتة إلى ذاكرة للحياة ، والرموز الذهنية إلى وجود اجتماعي ، والعواطف الإنسانية إلى بناء حضاري ، والماضي السحيق إلى شرعية للمستقبل .

٢

إنّ الإنسان المسحوق في مجتمعات الاستهلاك المُتوحّش والمادية المُوحشة والأحلام المَؤوَّدة ، يتعاطى المُخدّرات الاجتماعية التي تُشعره بالنّشوة واللذة ، والتي غالبًا ما تكون على شكل شعارات رنّانة ، وخطب عصماء ، وألقاب فخمة ، واستعادة لأُمجاد الماضي لتغطية الحاضر البائس . وعندما يَفِيق الإنسان من هذه العَيوبة سيشعر بالألم الكبير، والوَحشة العميقة، والمأزق

الوجودي الصادم، ويُدرك أن الحُلم لم يكن إلا كابوسًا مُؤجِّلًا . لذلك ، يجب على الإنسان ألا يُجَرَّب المُجَرَّب ، ويسير في الطريق الذي يَعْلَم أنه مَسدود ، ويشرب السُّمَّ على سبيل التجربة ، لأنَّ العُمُر واحد لا يتكرَّر ، والعاقل لا يُغامِر بالأشياء التي يَكُون فيها الخطأ الأول هو الخطأ الأخير، ولا مجال للتَّعويض، ولا إمكانية لوجود فرصة ثانية. والمغامرة الاجتماعية لاقتحام المستقبل إنما تكون بالأدوات والوسائل، وليس بالقيم والمبادئ ، لأن المبدأ هو القلب النابض، وإذا غامر الإنسان بقلبه سيخسر حياته ويموت، دُونَ وجود فرصة للعودة إلى الحياة. وهكذا يَتَضَح الفرق بين المُغامرة التي تعتمد على الاحتمالات المُتنوِّعة والفُرص المُتعدِّدة ، وبين المُغامرة التي تعتمد على احتمال واحد لا يَقْبَل أنصافَ الحُلُول .

٣

مَنْ ارتاح في البداية سيتعب في النهاية ، وَمَنْ تَعَبَ في البداية سيراتح في النهاية . وهذه الحقيقة الوجودية تَدفع الإنسان إلى النضال في سبيل حُرِّيَّته الشخصية في اكتشاف الأحلام، وتحزُّر مُجتمعه مِنَ الكوابيس ، وتَجعل الإنسان يَتَنَعَّع بأن العيش اللذيذ والحياة الهائلة يَكْمُنَان في التعب أثناء صُعود الجبل مِنْ أجل الوصول إلى القِمَّة، ومُتعة الوصول إلى القِمَّة لا تُعادلها مُتعة ، وهذه المُتعة سوف تُنسي الإنسان التعب الذي بذله ، والمَشَاقُّ التي كابدها ، والصعوبات التي واجهها ، والليالي التي سَهَرَ فيها مَعَ الحُزن والألم وحيدًا .

٤

الحياة الحقيقية عبارة عن سباق مسافات طويلة ، والذكيُّ هو الذي يَعْرِف كيف يُوزَّع جُهْدُهُ وطاقته على المراحل بشكل مناسب، بلا زيادة ولا نُقصان، لأن الطريق طويل ، وسوف يتساقط الكثيرون خِلاله ، وَلَنْ يَصُمُدَ إلا النُّخبة، الذين نجحوا في المُوازنة بين الصلابة الذهنية والقوة العَضَلِيَّة ، واتَّخَذُوا القرارَ الصحيح في الوقت الصحيح ، أي إِنَّهُمْ جَمَعُوا بين الصَّواب والتَّوقيت، بعيدًا عن غُرور القُوَّة اللحظية ، والتَّفَوُّقِ الْآنِيِّ الْمُؤَقَّت ، والمَجْدِ الزَّائِل ، فالمجدُّ الحقيقي لا يَزُول ، والانتصار يتجلَّى في الوصول إلى خط النهاية ، وكم مِنْ جاهل انتصرَ في معركة ، وخسر الحرب بسبب غروره القاتل ، وانخداعه باللحظة الْآنِيَّة ، واحتفاله بالجزء ، وإهمال الكل . وَمَنْ يَضْحَك أخيرًا يَضْحَك كثيرًا ، والعبرة بالخواتيم .

*

حماية الإنسان من السقوط خارج التاريخ

١

التفاعل الرمزي بين الإنسان والتاريخ يعكس أهمية التواصل بين الذات والإطار الحاضن لها ، وبما أن الذات لا تنشأ في الفراغ ، ولا تنمو في العدم ، فمن الطبيعي أن تبحث الذات عن بيئة مناسبة للإبداع ، تكون كالتربة الخصبة بالنسبة للوردة. ولكن الإشكالية أن الإنسان يبهز بالوردة ، ويركز في قطفها ، وينسى الأشواك التي تحيط بها ، وهذه العملية الخطيرة تُشبه الانهيار بالتاريخ ، والتركيز في الحدث ، ونسيان الدوافع الخفية التي تقف خلف صناعة الحدث ، وتعمل على توجيهه بشكل مُغرَض ، اعتماداً على الأهواء الذاتية والمصالح الشخصية . وكما أنه لا توجد فائدة من عطر الوردة وجمالها ، إذا كانت سامةً وقاتلةً ، كذلك لا توجد فائدة من رومانسية التاريخ وزوعته ، إذا كان قائماً على حضارة القتل ، واستغلال القوي للضعيف .

٢

عندما يدرك الإنسان دوره المركزي في الأنساق التاريخية ، باعتباره فاعلاً لها ، ومُنفَعلاً بها ، سيدرك طبيعة العلة والمعلول في التاريخ واللغة ، فالعلة هي قوة الإنسان الفاعلة في تراكيب التاريخ وبني اللغة ، والمؤثرة في الظواهر الاجتماعية المتوازنة روحاً ومادّةً ، والمُعاشة معنًى ومبني . والمعلول هو الأثر الاجتماعي المترتب على العلة (قوة الإنسان الفاعلة) ، والنتائج عنها . وهذا الترابط المصيري بين السبب الإنساني والنتيجة الاجتماعية ، يعني أن الإنسان هو قائد حركة التاريخ ، والقادر على إيجاد علاقة شرعية بين التاريخ واللغة ، وإحداث توازن منطقي بينهما ، من أجل توظيف التاريخ لخدمة الأبعاد الرمزية اللغوية الحاملة لمشروع الحضارة الرحيمة ، وتوظيف اللغة لخدمة المفاهيم التاريخية الوجودية الحاملة لشرعية الظواهر الاجتماعية الإيجابية .

٣

تشكّل عملية السقوط خارج التاريخ أكبر خطر على مركزية الإنسان في نظام المجتمع ومنظومة الحضارة ، لأن هذه العملية تعني أن الإنسان دخل في الانتحار التدريجي لعدم وجود أرضية صلبة يقف عليها ، ومساحة إبداعية يتحرّك فيها ، والمجتمع دخل في الموت البطيء لعدم وجود شرعية لأحلام الحاضر ومشروعية لآمال المستقبل ، والحضارة دخلت في اليأس العنيف لعدم وجود ثقافة حرّة ومُتحرّرة من الخوف والوهم ، وابتكارات تكنولوجية صديقة للإنسان والبيئة

والمُنَاخ. وفقدان هذه المسارات الثلاثة (الإنسان والمجتمع والحضارة) للأمل والشَّعْف والروح ، يدفع البعض إلى استخدام الوسائل العنيفة للتعبير ، لشعوره بالعجز التام وخسارة الأحلام وغياب الصَّوء في نهاية النَّقْ. وإذا حُشِر الإنسان في الزاوية الضيقة ، وأيقنَ أَنَّهُ وصل إلى طريق مَسْدود ، وَأَنَّهُ لَمْ يَعُدْ هُنَاكَ مَا يَخْسِرُهُ ، فَسَوْفَ يَرْمِي إنسانيته وراء ظَهْرِهِ ، ويتحوَّل إلى وحش كاسر ضِد أخيه الإنسان ، ويحوَّل التاريخ من منظومة إنسانية راقية إلى منظومة عُقْد نَفْسِيَّة مُرْغَبَة ، قائمة على الصَّرَاع والصَّدَام، والشُّعُور بِالظُّلْم ، وثنائية الضحية والجَلَاد ، واستغلال القويِّ للضعيف ، وابتزاز مَنْ يَمْلِك لِمَنْ لَا يَمْلِك ، وَحُب الانتقام والأخذ بالثَّار . وعِنْدئذٍ ، سيعمل الإنسان جاهداً لتحطيم المُنْجَزَات الحضارية التَّراكمية ، لقناعته بعدم وُجُود مكان له في الحضارة ، وَأَنَّهُ خارج اللعبة السياسية العالمية ، وَأَنَّهُ مُجَرَّد مُتَفَرِّج على اللاعبين بمساره ومصيره . وهذه المشكلة الخطيرة تدعو إلى ضرورة حماية الإنسان مِن نَفْسِهِ ، وحماية المجتمع مِن الإنسان ، وحماية الحضارة مِن الإنسان والمجتمع معاً. وهذه الحماية الشاملة لا تتحقَّق إلا بجَعْلِ الإنسان مُشَارِكًا في بناء نَفْسِهِ، وتطوِير مُجْتَمَعِهِ المحلي وحضارته العالمية ، وجَعْلِ الجوهر الإنساني مَوْضُوعًا للتاريخ ، وبذلك يُصْبِح التاريخ خُلْمًا إبداعيًا مُعَاشًا باستمرار ، وبارقة أمل ، ونافذة على المُستقبل المُشرق ، وليس لَعْنَةً على الإنسان ، وتهديدًا لوجوده ، وتدميرًا لأحلامه .

*

علاقة الحاضر بالماضي في فلسفة التاريخ

١

القدرة على تفسير ظواهر التاريخ وأحداث الماضي ، تُعتبر من أهم خصائص العقل البشري . وهذه القدرة مُستمدة بالأساس من فهم الواقع واستيعاب أحداثه ، والعاجز عن فهم الحاضر ، هو _ بالضرورة _ عاجز عن فهم الماضي ، لأن الحاضر هو القاعدة الصلبة والركيزة الأساسية ونقطة الانطلاق نحو الماضي ، من أجل تفسيره ، والتغريب عن إيجابياته وكنوزه ، وصهر هذه الكُنوز في بوتقة الوعي المنطقي ، والانطلاق نحو المُستقبل بخطى ثابتة ومدروسة ، بعيداً عن حرق المراحل والقفز في الفراغ ، لأنَّ البنية التركيبية للزمن عبارة عن مراحل تراتبية دقيقة، تُشبه دَرَجَات السُّلَم ، وصعود السُّلَم إنما يكون دَرَجَة دَرَجَة لتحقيق الأمان والفاعلية ، والوصول إلى الهدف المنشود . والزمن مثل موج البحر ، لا يُمكن امتلاكه والسيطرة عليه ، ولكن يُمكن التعامل معه بذكاء ، والاستفادة من قُوَّته ، وتوظيفه لصالح تحقيق المنافع والمكاسب . وبما أن السباحة ضد التيار مُتعبة وشديدة الخطورة ، وقد تُؤدِّي إلى الانهيار والغرق ، فإنَّ الحَلَّ الوحيد هو الاستفادة من حركة التيار وركوب الموجة للوصول إلى بر الأمان . ويجب على الإنسان أن يبحث عن مصلحته ونجاته ، ويوظف جميع العناصر لتحقيق أحلامه وطموحاته وصناعة حاضره ومُستقبله ، بشرط أن يكون ذلك بوسائل مشروعة وأدوات نظيفة ضمن دائرة المشاعر الإنسانية النبيلة ، بعيداً عن استغلال الآخرين ، والصُّعود على ظُهُورهم .

٢

فهم الحاضر لفهم الماضي ، لا يعني أن نعيش الماضي في الحاضر ، أو نقل الحاضر إلى الماضي ، وإنما يعني امتلاك قواعد المنهج العلمي والتسلُّح بأحدث النظريات الفكرية ، والسَّفر إلى الماضي ، لتفكيك عناصره ، وتحليلها عُصراً عُصراً ، ومعرفة صفة العنصر الذاتية (النظرة الجزئية) ودوره الوظيفي في المنظومة التاريخية (النظرة الكُلِّية) ، ثُمَّ إعادة تركيب العناصر بشكل منطقي مُتسلسل ، لإيجاد العلاقة المصيرية بين الفكر الإنساني والأحداث التاريخية من جهة ، وبين الأحداث التاريخية والمُكوّنات الوجودية من جهة أخرى .

٣

رحلة الانطلاق من الحاضر إلى الماضي ، تستلزم امتلاك أهم النظريات في العلوم الإنسانية والاجتماعية ، وآخر ما توصَّل إليه العقل البشري من أدوات الفحص ومناهج التحليل والتفكيك

والتركيب . وهذه العملية تُشبه امتلاك أحدث وسائل التكنولوجيا للتنقيب عن الذهب في المناجم المدفونة تحت الأرض . ويمكن القول إن دراسة الماضي في ضوء الحاضر ، تعني تحليل التّوارة الأولى المُشملة على العناصر الفِطرية التلقائية ، اعتماداً على النظريات المُركبة المُشملة على ثنائية التحليل والتعليل ، التي تُغوص في عمق الحدث ، ولا تكتفي بمُلامسة السطح . وبذلك تنتقل دراسة التاريخ من الأحاسيس البسيطة التي تُصنف بالسّذاجة والبِدائية ، إلى الأفكار المُعقّدة التي تُصنف بالتشعُّب وكثرة التفاصيل ، وهذا أمرٌ منطقي ، لأن الوقائع التاريخية شديدة التعقيد ، والأحداث مُتشابكة ومُختلطة ، ولا يُمكن استخدام أداة بسيطة للتعامل مع حدث مُعقّد ، كما لا يُمكن استخدام إبرة لحفر جبل .

٤

علاقة الحاضر بالماضي في فلسفة التاريخ ، في غاية الصُّعوبة والتّعقيد ، لأنها علاقة مُراوغة ومُتقلّبة ومُتحرّكة ، ومن الصُّعب السيطرة على نقطة متحرّكة في كُل الاتجاهات . ومع هذا ، يُمكن فهم هذه العلاقة الشائكة استناداً إلى مثالين يُفسّران طبيعتها ووظيفتها . المثال الأول : الصورة والمرآة ، فنحن نرى صورة الماضي في مرآة الحاضر . وعندما نقف أمام المرآة ، فنحن _ في الحقيقة _ نتعامل مع انعكاس الصورة على سطح المرآة ، وهذا الأمر يُكرّس ضرورة التمييز بين الشائيات المعرفية : الفرع والأصل . التابع والمتبوع . الشكل والمحتوى . الأثر والمؤثر . رد الفعل والفعل . وإذا نجح العقل التحليلي في وضع هذه الشائيات في سياقها الزمني الصحيح ، استطاع التمييز بشكل دقيق بين التاريخ (الحدث) والتأريخ (مُعالِجة الحدث) . والمثال الثاني : الابن والأب ، فالابن عندما يُحلّل شخصية أبيه ، والأب عندما يُحلّل شخصية ابنه ، إنّما يُؤسّسان علاقة تاريخية مُتكاملة ، لأنّ كُل واحد منهما ينطلق من زمن مُختلف ، ويمتلك أدوات تحليلية مُستقلة ، ولديه قناعات ذاتية مُستقاة من واقع تجربته الشخصية ، فالابن ينطلق من الحاضر إلى الماضي كي يلتقي بأبيه ، والأب ينطلق من الماضي إلى الحاضر كي يلتقي بابنه ، ونقطة الالتقاء بين الطرفين هي التي تُحدّد ماهية القرار وطبيعة الحكم ، والحكم على الشّيء فرع عن تصوّره ، وهذا التّصوّر ليس عُفويّاً ولا وليد اللحظة ، وإنّما هو نتاج خبرات تراكمية على مر الزمن ، والزمن هو الحاضر الشرعي لأحداث الماضي ، والتجسيد الواقعي لإفراقات الحاضر . وكما أن الابن والأب يلتقيان في نقطة واحدة تعكس مصيرهما المُشترك ، كذلك الحاضر والماضي يلتقيان في بُرة مركزية تعكس علاقتهما المصيرية ، وتكون بؤابة العبور إلى المُستقبل .

الأدوات الفلسفية في اللغة

١

عملية العثور على الأدوات الفلسفية في اللغة تُمثّل تحدّيًا حقيقيًا للإنسان ، في رحلة بحثه عن معنى الوجود الإنساني ، وتأثيره في صناعة التفاعل الرمزي بين الشكل الاجتماعي والمحتوى الفلسفي . وكلُّ نظرية فكرية تحليلية لا بُد لها من أدوات ، لأنَّ النظرية ذات كُتلة معرفية ضخمة وشحنة عاطفية هائلة ، وهذا يمنعها من تحريك نفسها بنفسها ، لذلك تتحرّك بأدواتها الإبداعية التي تُمثّل قُوّتها العقلانية الضاربة ، وتُقاتل بأذرعها الفكرية التي تُمثّل أسلحتها المعرفية الفتّانة ، كما أن هذه الأدوات والأذرع تحمي بُنية النظرية من الانهيار تحت ضغط العناصر الاجتماعية ، وتمنع المنطق الفلسفي من التَشَطّي والتشتت بفعل إفرازات البنى الاستهلاكية .

٢

لا يُمكن للإنسان أن يجد مساره ومصيره خارج اللغة ، ولا يستطيع العثور على جدوى حياته وفلسفة وجوده خارج اللغة . وإذا لم يجد الإنسان الأدوات الفلسفية في اللغة ، فلن يجدها في أيِّ مكان آخر . فاللغة هي الأم ، وعملية ولادة الأفكار مُستحيلة بدون وجود أم . وكما أن السمك لا يعيش خارج الماء ، كذلك الفلسفة لا تعيش خارج اللغة . وفي ظل هذه المُعطيات ، ينبغي على الإنسان أن يُركّز اهتماماته في اللغة ، رُوحًا وجسدًا وسلوكًا وسلطةً ، ويغوص في اللغة بحثًا عن الأدوات الفلسفية اللازمة لتسريح الألفاظ والمعاني في الوجود الإنساني ، وتحليل الروابط الرمزية بين الشكل الاجتماعي المُسيطر على تصالح الإنسان مع ذاته ، وبين المحتوى الفلسفي المُسيطر على صراع الإنسان مع ذاته . وبين تصالح الإنسان مع ذاته والصراع معها ، يبرز هامش المناورة الذي يُتيح للعقل الواعي أن يُؤسّس مشروعه المعرفي القائم على حرية التعبير المُنضبط بالمصلحة الشخصية والمنفعة العامة، والقادر على التَحَرُّر الفكري، وتحرير السلوك الإنساني من الوهم والعبث .

٣

الوجود الإنساني ليس نسقًا بسيطًا أو مُعادلة خطية بمتغيّر واحد ، وإنما هو نظام مُركّب، ومنظومة مُتجانسة تشتمل على الأصول والفروع ، والمنابع والروافد ، والثوابت والمتغيرات ، والجواهر (حقائق الأشياء القائمة بنفسها) والأعراض (العناصر القائمة بغيرها) . وهذا يستلزم

أن يتسلَّح الإنسان بالأدوات الفلسفية النابعة من مركزية اللغة ورمزيتها ، والقادرة على اختراق الحواجز الذهنية ، واجتياز المراحل الزمنية ، من أجل الوصول إلى ماهية الوجود الإنساني ، وكشف تفاصيل الحياة الكامنة وراء الأفتعة والستائر . وبما أنَّ الحياة حقيقة جوهرية في غاية الخطورة ، وليست لعبة عبثية أو مسرحية هزلية ، فإنَّ تفاصيل الحياة تستحق أن تُدرَّس بشكل تحليلي وتجميعي ، بعيداً عن العاطفية والمزاجية . والتحليل والتجميع ينبغي أن يسيرا معاً ، لأن العلاقة بينهما تكاملية تجاذبية ، بلا تنافر ولا تعارض . فالتحليل يُقسِّم تفاصيل الحياة المُعقَّدة إلى أجزائها الصغيرة وأنويتها الأولية ، من أجل ضمان تعدُّد زوايا الرؤية ، وفهم الموضوع واستيعابه بشكل سليم ودقيق . والتجميع يحصُر شظايا الحياة المُشتتة في بؤرة مركزية واحدة، من أجل تكوين روابط منطقية بين أجزاء الحياة ومعناها الكلِّي ، الأمر الذي يُؤدِّي بالضرورة إلى تسليط الضوء الفلسفي على الوجود الإنساني ، وتوظيفِ الشعور الاجتماعي لتعزيز السلام في أعماق الإنسان ، وتحقيق المصالحة بينه وبين نفسه . وهذه هي الضمانة لحماية الإنسان من غربة الروح عن الجسد .

*

أهمية الخيال في التفاعل الاجتماعي

١

تحليل عناصر التفاعل الاجتماعي لا يعني تمزيق الروابط الإنسانية بين المكونات الاجتماعية ، وإنما يعني وضع الطبيعة الرمزية للفرد والمجتمع تحت مجهر الشعور الإنساني ، لأن الفرد يتحرك في المجتمع انطلاقاً من شعوره الداخلي الذي يُحتم عليه الانخراط في حركة التاريخ الجماعي ، وأن يكون جزءاً من الكل ، ولَبَنَةً في صرح المجتمع الحي ، الذي يُدرك أبعاد ذاته ، ويُدرك حدود مجاله الحيوي . وحياة المجتمع لا تتكسّر كواقع محسوس وحقيقة شرعية إلا إذا أدرك المجتمع كيانَه والكيانات المُحيطة به . وهذا الإدراك يُمثّل الخطوة الأولى لتفسير مكونات الذات ، وعلاقتها بالآخر، سواء كان الآخر داخلياً أم خارجياً. والعاجز عن إدراك ذاته، لن يستطيع تفسيرها، ومن لم يمتلك الوعي بالذات والآخر ، لن يستطيع تكوين روابط بينهما قائمة على الاحترام المُتبادل، وهذا يعني وجود احتمالية كبيرة للصدام بينهما .

٢

شرعية التفاعل الاجتماعي مُستمدة من مبدأ التجانس في العلاقة المصيرية بين معرفة الطبيعة الرمزية وفلسفة السُلطة الاجتماعية . والتجانسُ يعني وضع الخصائص الرمزية فردياً وجماعياً في القوالب الاجتماعية المناسبة، وهذه القوالب بِمَنَابَةِ الحدود بين الدُول . وكما أن الحدود السياسية تُوضّح الأراضي الجغرافية التي تُمارس فيها الدُولُ سيادتها ، كذلك القوالب الاجتماعية تُوضّح المساحات الإنسانية التي يُمارس فيها المجتمعُ سيادته. وينبغي التفريق في الفكر الاجتماعي بين السُلطة والسيادة ، فالسُلطة وسيلة عملية تختص بتنفيذ الأفكار على أرض الواقع ، وليس لها علاقة بالأفكار الذهنية والإرادة الداخلية ، أمّا السيادة فهي منظومة وجودية شاملة للإرادة والتنفيذ معاً . أي إنّ السيادة هي العقل ، والسُلطة هي العضلات .

٣

لا يُمكن فهم السُلطة الاجتماعية إلا بفهم ذراعها التنفيذي ، التي تتغلغل في تفاصيل المجتمع الإنساني ، لأنّ السُلطة فكرة ذهنية مُجرّدة ، لكن التطبيقات العملية المحسوسة هي التي تُكشف هويّة السُلطة وماهيتها . والعلاقة بين السُلطة وتطبيقاتها تُشبه العلاقة بين الغاية وآلياتها ، فالغاية لا تُكشف طبيعة الآليات، لكن الآليات تُكشف طبيعة الغاية، وذلك لأنّ الغاية خيال حالم، أمّا الآليات فهي الوسائل العملية لتحويل الخيال إلى حقيقة ، والخُلم إلى واقع .

عندما يغرق المجتمع الإنساني في ضجيج الشعارات ، يُصبح عارياً من المعنى المعرفي ، ومُفتقراً إلى الخيال الاجتماعي ، الذي يقوم على نقد الأحداث السياسية ، ومُساءلة النظريات الفكرية التي تتحكم بالسلوك الفردي والجماعي ، وطرح تصوّرات جديدة وبدائل إبداعية . وغياب الخيال يعني بالضرورة غياب الخُلم ، وإذا خسر الفرد خُلمه ، خسر إنسانيته وشرعية وجوده ومشروعية حياته ، وفقد القدرة على تغيير مُجتمعه نحو الأفضل ، ممّا يجعل الفرد والمجتمع يصلان إلى طريق مسدود بلا خُلم ولا واقع ، وينشأ النزاع بينهما ، ويتعمّق الصراع على الوهم . لذلك ، ينبغي إرشاد الفرد إلى أهمية الخيال ، واختراع الأحلام ، وضرورة تطبيقها عملياً وتنفيذها واقعياً . وهذه هي الضمانة الأكيدة لفتح آفاق المستقبل أمام الفرد ، وتعزيز ثقته بنفسه ومُجتمعه ، وحمايته من اليأس والفشل .



التوفيق والتلفيق والهوية الاجتماعية

١

الهوية الاجتماعية ليست تعبيراً عن الولاء والانتماء فحسب، بل هي أيضاً تعبير عن السلوك الحياتي اليومي، ودوره المركزي في تثبيت شرعية وجود الإنسان ، وتحقيق الجوهر التاريخي عن طريق توليد أنساق اجتماعية إبداعية ، وتكوين مناهج فكرية تحليلية ، وعدم الاكتفاء بالتلفيق بين الأضداد والعناصر المتعارضة ، ودفن النار تحت الرماد ، فالإنسان لن يستعيد جوهره الوجودي في بناء التاريخ إلا بالمشاركة في صناعة الأحداث ، وعدم التفرج عليها ، ولن يحصل المجتمع على شرعيته المركزية في مشروع النهضة الحضارية إلا بتشكيل سلطة اعتبارية قائمة على قوة المنطق لا منطق القوة، تجمع كل الأطياف والتيارات ، وتعتمد مبدأ التوفيق لا التلفيق .

٢

الفرق بين التوفيق والتلفيق في مفهوم الهوية الاجتماعية يتضح في طبيعة وظيفة كل منهما على أرض الواقع، فالتوفيق هو الجمع بين العناصر الاجتماعية المتفقة في الأصول ، والمختلفة في الفروع ، لأسباب تاريخية وضغوطات نفسية وأهداف مصلحية ، وإمكانية التوفيق في هذه الحالة واردة بقوة بسبب الجذور المشتركة ، والأسس المتقاربة ، وإمكانية إزالة الموانع العرضية ، لأن الجوهر واحد ومتفق عليه . أما التلفيق فهو محاولة الجمع بين عناصر اجتماعية متناقضة ، ومختلفة في الأصول والفروع ، ومتضادة بشكل جذري عميق ، وهذا يجعل إمكانية الجمع مستحيلة بسبب اختلاف المبدأ والظروف .

٣

الإشكالية في السياق الاجتماعي لا تكمن في الجهل بتعريف التوفيق والتلفيق، وإنما تكمن في العلم بهما، وتوظيف هذا العلم لأغراض غير علمية ، من أجل تحقيق مصالح شخصية ، والحصول على مكاسب نفعية ، تماماً كالذي يعرف الحق من أجل توظيفه لخدمة الباطل . وهذا الأمر في غاية الخطورة ، لأنه يُشكّل تهديداً وجودياً على الهوية الاجتماعية، فهو يعني تجميع عناصر الضعف ، وتشتيت عناصر القوة ، وهذا يُمرِّق النسيج الاجتماعي ، ويمنع التنمية بكل إفرازاتها وتراكيبها ، ويلغي إمكانية النهوض بالفرد والجماعة . وهذا الانهيار الشامل مُرتبط بشكل وثيق مع سياسة وضع المسؤول في المكان غير المناسب ، خضوعاً لاعتبارات الولاء ، وليس الكفاءة .

وهذا الأمر هو أساس البناء السياسي للأنظمة الاستبدادية في كل زمان ومكان ، فهي تسعى إلى تثبيت وجودها لأطول وقت ممكن ، دون أي اعتبار لحل مشكلات الشعوب أو بناء الأوطان ، وهذا يجعل الولاء الأعمى والتصفيق الدائم هما المعيارين الوحيدين لاختيار المسؤول . ومن أجل تبرير هذه العملية ، وإلباسها ثوباً شرعياً ، يتم التلاعب بالمصطلحات السياسية ، وتعميق الشعارات الرنانة ، وتغيير طريقة تفكير العقل الجمعي عن طريق بعض وسائل الإعلام التي ارتضت لنفسها أن تكون مأجورة ومضللة ، حيث تبت الأكاذيب على مدار الساعة ، كي تصبح حقائق واقعية ، ومن ثم يتم تصديقها ، وتقديمها كمسلمات لا تقبل النقاش . وكل صاحب صوت معارض لهذه الأوهام يتم تقديمه كخائن ومُنشَق ومَدعوم من جهات خارجية لتنفيذ أجندة هدامة . وهذه الخلقة المفرغة لا تكتمل إلا عبر التلاعب بشنائية (التوفيق / التالفيق) ، وتوظيفها كسياسة اجتماعية تُحدد مسار الوجود الإنساني ومصيره . ومع مرور الوقت ، وبفعل الضخ الإعلامي والضغط السلطوي ، تتحول هذه الشنائية إلى لعب بالبيضة والحجر ، لتجذير الشعارات كمنهج سياسي ونظام اجتماعي ذون فعل على الأرض ، ثم تتحول ثنائية (البيضة / الحجر) إلى ثنائية (العصا / الجُرّة) للتحكم بالمجتمع جُملةً وتفصيلاً ، وبسط السيطرة الكاملة عليه بالترغيب والترهيب ، وهكذا يصير المجتمع كائنًا مَسْحًا بلا وجود حقيقي، ويتراجع على كافة المستويات، لأنه فقد البوصلة، ولم يعد يُفرّق بين الهوية والهاوية .

*

الموضوع الاجتماعي والذات الإنسانية

١

العلاقة المصرية بين الموضوع الاجتماعي والذات الإنسانية هي الأساس العقلائي لتفسير أنماط السيطرة الفكرية في المجتمع . والموضوع الاجتماعي هو الحيز المعرفي الموجود في الواقع ، والخاضع للأحاسيس اليومية والتجارب العملية . والذات الإنسانية هي جوهر الإنسان ، وشخصيته الاعتبارية ، وهويته الوجودية . وفي ظل الحركة الاجتماعية المستمرة أفقيًا وعموديًا في التاريخ والجغرافيا ، يتكرس الموضوع كإطار خارجي ، يحتوي على إفراسات العقل الجمعي ، ويُحقق الاستقلالية عن الإرادة والوعي ، ويُحقق التوازن بينهما . وفي ظل الصراع المستمر الذي يعيشه الإنسان داخل نفسه وخارجها ، تتكرس الذات كنواة مركزية تُعبر عن الشعور والتفكير ، وتُترجم تعقيدات العالم الخارجي إلى أنساق اجتماعية يُدركها العقل ، من أجل تفسيرها والاستفادة منها .

٢

إذا أدرك العقل العلاقة بين الموضوع والذات في الحياة الاجتماعية جُملةً وتفصيلاً ، استطاع تفسير أنماط السيطرة الفكرية بكل تفاصيلها العلنية والسرية، لأنَّ الفكر لا يُوجد في العدم ، ولا ينتشر في الفراغ ، وهذا يعني أن الفكر موجود معنا ، ويعيش فينا، ويتدفق بيننا ، وعلى تماس مباشر مع حياتنا، تتفاعل معه ، ويتفاعل معنا ، أي إنَّ الفكر كائن حي له وجود حقيقي محسوس ، وليس أوهامًا ذهنية أو خيالات هلامية . وكلُّ شيء موجود في دائرة الإحساس إمَّا أن يكون جوهريًا (ثابتًا) أو عرضيًا (متغيرًا) ، والفكر الجوهري الثابت موجود في الذات ، والفكر العرضي المتغير موجود في الموضوع ، ولا توجد منطقة وسطى ، ولا حل وسط ، لأن طبيعة الفكر غير محايدة ، وترفض اللون الرمادي . ولا يوجد فكر _ سواء كان ثابتًا أو متغيرًا _ يحتوي على منطقة وسطى أو حل وسط ، فالمنطقة الوسطى توجد في المواقف الاجتماعية ، والحل الوسط يوجد في التطبيقات العملية . والحق واحد لا يتعدد ، لكن زوايا الرؤية هي التي تتعدد . وكما أنه لا توجد منطقة وسطى بين السلام والحرب، كذلك لا توجد منطقة وسطى بين الحق والباطل ، وكما أنه لا توجد دولة فيها رئيسان ، كذلك لا يوجد إنسان فيه قلبان ، وهذا يدلُّ على أنَّ الفكر أحادي شديد المركزية والاستقطاب ، لكن الأهواء الذاتية والمصالح الشخصية والضغوطات الاجتماعية

هي التي تجعل الفكر مُتَشَطِّيًا في الحياة المُعاشة ، ضمن عملية تَمييع المواقف ، واللعب على الحبال ، والدُّخول في المُساوَمات ، والخُضوع لسياسة الأمر الواقع ، والرُّضوخ أمام حقيقة أن القوي يفرض شروطه على الضعيف ، والاستسلام لثقافة المغلوب المُولَع بتقليد الغالب . وهذا يُفسِّر وجود التناقض بين الفكر والسلوك ، وبين النظرية والتطبيق. كما يُفسِّر قيام الكثيرين بخطوات عملية لا يؤمنون بها ، واتخاذهم مواقف واقعية غير مُقتنعين بها ، وترديد شعارات وهتافات لا يُصدِّقونها .

٣

لا يمكن تحليل عناصر السَّيطرة الفكرية في المجتمع ، إلا بالسيطرة على العلاقة بين الموضوع والذات ، لأنهما يُمثِّلان الحاضنة الشرعية للفكر، ولا يُواجه الفكر إلا الفكر، والسَّلاح الوحيد لمواجهة العقل هو العقل، خصوصًا أن السَّيطرة الفكرية تكون مُتماهية مع القُوَّة الناعمة، لأنها تعتمد على الجاذبية والإقناع ، وهذا يدلُّ على أهمية الثقافة باعتبارها الأساس الشرعي للقُوَّة الناعمة . ويمكن إيجاد علاقة منطقية بين هذه المصطلحات المُتعدِّدة وَفْق هذا الترتيب : إنَّ الموضوع الاجتماعي يكشف أبعاد الذات الإنسانية ، ويُشير إليها ، ويمنحها شرعية الوجود ومشروعية الإبداع ، وإذا وَجَدَت الذات الإنسانية كيانها ، وأدركت ماهية البيئة المُحيطة بها ، وعَرَفَت وظيفتها في الحياة ، واستوعبت دورها في الوجود ، سَعَتْ إلى امتلاك الثقافة اللازمة لكشف عناصر القُوَّة الناعمة المتغلغلة في تفاصيل المجتمع ، وهذا يُساهم في تحليل عناصر السيطرة الفكرية التي تَحْكُم العلاقات الاجتماعية والإنسانية ، وتتحكَّم بمسارها ومصيرها . وإذا عُرِفَ خط السَّير ، انكشف الهدف ، وصار الوصول إليه سهلاً . والأمل الوحيد للخروج من التَّنَفُّق هو رُؤية الضَّوء في آخره .



الاختراع والاكتشاف في حياة الإنسان الاجتماعية

١

الأسئلة المطروحة على الأنساق الاجتماعية لا تهدف إلى إيجاد تفسير عقلائي لحركة الأفراد من أجل تقييدها لصالح السلطات الأبوية ، وإنما تهدف إلى بلورة وعي اجتماعي يُحرّر العقل من ثقافة القطيع ، ويُحرّر طريقة التفكير من ضغوط المُسلّمات المصنوعة لتحقيق مصالح شخصية . وهذا يعني أن الغاية من عملية العقلنة هي تحرير العقل من سلطة العناصر الاجتماعية الضاغطة المُحيطة به ، وليس تدجين العقل وإخضاعه لإفراغات العقل الجمعي . ولأن يقدّر العقل على الانطلاق نحو الإبداع إلا بكسر القيود ، والتخلّص منها ، وليس تنظيفها وإزالة الصدأ عنها ، فالتحرُّر والحرية يُعنيان كسر القيود على العقل لا تلميعها . وإذا تحرّر العقل الفردي فإنّ العقل الجمعي سيتحرّر تلقائياً ، وإذا تحرّر العقل الجمعي ، فإنّ الأنساق الاجتماعية ستُصبح حاضنة شرعية للإبداع والإنتاج المعرفي .

٢

وجود الشيء على أرض الواقع لا يعني بالضرورة إمكانية الوصول إليه ، فالوصول إلى الهدف يختلف عن طبيعة الهدف ، وخصائص الوسيلة تختلف عن خصائص الغاية . والطريق إلى البيت لا فائدة منه إذا كان الفرد لا يملك مفتاح البيت . والضوء في نهاية النفق الاجتماعي موجود ، ولكنّ الأفراد والجماعات عاجزون عن رؤيته والوصول إليه لأن هناك حاجزاً بيّنه وبينه . لذلك ، ينبغي أن تتوجّه العلوم الإنسانية والمناهج الفكرية والظواهر المعرفية نحو إزالة الحواجز والعقبات من طريق الإنسان إلى غايته وحُلّمه ، وليس صناعة الطريق ، أو اختراع معنى جديد للإنسان ، فالطريق موجود ، والإنسان موجود ، لكنّ المشكلة في العقبات التي تقطع طريق الإنسان نحو إنسانيته ، وبالتالي تمنعه من التقدّم ، وتحوّل بينه وبينه تحقيق أحلامه . وهذا يعني أن فلسفة الفكر الاجتماعي هي عملية إزالة للعقبات ، وتنظيف للطريق ، ونقّص للغبار عن القلوب . إنها عملية إعادة اكتشاف الموجود ، وليست عملية اختراع شيء غير موجود . فلا معنى للبحث في الأوهام والخيالات ، ولا جدوى من محاولة اختراع إنسانية جديدة . كلّ شيء موجود في الواقع ، ولا جديد تحت الشمس ، والذهب موجود في التراب ، والمهمة الرئيسية ليست اختراع الذهب ، أو تغيير خصائصه وصفاته ، وإنّما التنقيب عنه ، واستخراجه ، وتحويله إلى أشكال يُمكن الاستفادة منها باستخدام التكنولوجيا الحديثة ، والأدوات المتطورة .

في حقيقة الأمر ، إنَّ الإنسان لا يُصنَع ، لأنَّه مُصنوع وموجود وجاهز للتَلَقِّي والتفاعل مع العناصر ، وإنَّما يُعاد اكتشافه ، بِصَقْل مواهبه ، ونَقْض الغُبار عن إمكانياته وأحلامه ، وإظهار نقاط قُوَّته ، وإزالة نقاط ضعفه . والإشكالية في بُنية العلوم الإنسانية وطبيعة الأنساق الاجتماعية هي عدم التفريق بين الاختراع والاكتشاف ، فالاختراع هو إيجاد علاقات اجتماعية غير موجودة على أرض الواقع ، أمَّا الاكتشاف فهو إظهار العلاقات الاجتماعية المدفونة في ضجيج الواقع اليومي ، واستخراج المواهب الإبداعية المُتفرِّدة من زحام الحياة العملية ، والوصول إلى الأشياء المَيتة في قلب الإنسان بُغية إحيائها ، وإبراز الأحلام المنسية في أعماقه السحيقة ، وإخراجها من الظلام إلى النُّور. لذلك ، يجب على الفكر الاجتماعي أن يبتعد عن إعادة اختراع العَجلة ، وأن يُركِّز في اكتشاف المَوجود ، وليس اختراع اللاموجود. والإبداع الحقيقي يتجلَّى في التَّنقيب عن الإنسان في أنقاض الحياة ورُكام الواقع ، وإخراج الشعور الإنساني من المَوت والاندثار إلى الحياة والانطلاق . والتغيُّر الفَعَّال إنما يكون في مجال السُّلوك الواعي ، وليس في مجال الشعارات الرُّنَّانة ، ولا شكَّ أنَّ تجديد السُّلوك أكثر أهمية وتأثيرًا من تجديد الخِطاب .

*

الحروب الأهلية داخل الإنسان

إدراك طبيعة العلاقات الاجتماعية يُحفّز عملية التفكير الإبداعي ، ويربطها بمعايير الحرية والتحرر التي تُحدّد سلوك الإنسان ، وتُنظّم وظيفته المركزية في المجتمع . وهذه الوظيفة المركزية ليست حركةً روتينية ، أو وسيلةً لكسب المعاش ، أو تحصيل حاصل ، وإنما هي انتقال حياتي عقلائي مُستمر من الوجود إلى الوجدان ، أي : من الذات المُجرّدة التي تشغل حيزًا في الزمان والمكان (الزمكان) ، إلى الوعي بالذات والشعور بها . وكلُّ إنسان يدرك أنّه لم يكن موجودًا في هذا العالم ، ثم صار موجودًا فيه ، ومالكًا لشخصيته المتميّزة وسلطته الاعتبارية وهويته المعرفية ، ولكن ليس كلُّ إنسان عارفًا بذاته ، ومدركًا لأبعاد شخصيته ، وعالمًا بتفاصيل سلطته ، وواعيًا بنقاط قوّته ونقاط ضعفه ، وهذا لا يعني أن الإنسان جاهل ، بل يعني أن معرفته محدودة ، ومستوى وعيه مُنخفض ، وأنّه لم يبذل جهدًا كافيًا لاكتشاف أعماق ذاته .

وكثيرٌ من الجوانب الاجتماعية والمجالات الشعورية لا تزال خافيةً على الإنسان نفسه ، مع أنّها تتمركز في أعماقه ، وتستقر في داخله . وهذا يُفسّر ظهور بعض العناصر الإنسانية في اللاوعي واللاشعور . وكما أنّ فلتات اللسان تُظهر خفايا القلب غالبًا ، بعيدًا عن المُجاملات والمُدهانات ، كذلك السلوكيات التي تحدث دون تخطيط واعٍ أو شعور مُنظّم ، تُظهر الصراع في جوف الإنسان ، وتكشف عن الحرب الأهلية التي تستعر في داخل كيانه ، وهذا يُشير إلى أنّ الأجزاء الخفية في الذات الإنسانية أكثر تأثيرًا وأشدّ خطورة من الأجزاء المكشوفة ، وأنّ الجزء المخفي من جبل الجليد هو الأساس والركيزة التي تحمّل الجزء الظاهري .

الوظيفة الأساسية للتفاعل الرمزي في العلاقات الاجتماعية ، هي دراسة الحرب الأهلية التي تحدث بين الإنسان ونفسه ، ومدى تأثيرها في طبيعة الذات والبيئة المُحيطة بها . وخطورة هذه الحرب أنها سرّية ، وشديدة الغموض ، وليس لها ضجيج مسموع ، لذلك لا أحد يهتم بها ، أو يعبأ بأسبابها ، أو يأنّبه لنتائجها ، لأن الناس ربّطوا الحرب بالضحايا والدماء ، واعتقدوا أنّ عدم وجود ضحايا يعني عدم وجود حرب ، وهذا المبدأ صحيحٌ في مجال الحروب العسكرية المادية التي تجري في ميادين القتال ، ولكنّه مبدأ خاطئ تمامًا في العلاقات الإنسانية والاجتماعية ، لأنها تحتوي على حروب روحية غامضة بلا أصوات خارجية ، لأنّ الضجيج يكون في أعماق الإنسان ، والصراخ الداخلي يُمزّق قلبه ، ويدبح الإنسان كلّ يوم بدون سقوط ضحايا ولا تناثر دماء ، لأنّه

هو الضَّحِيَّة الصَّامِتة ، والقُرْبان السَّري . وعدمُ وجود دَم لا يعني عدمُ وجود حرب ، لأن الإنسان الذي يخوض حربًا ضدَّ نفسه يَنزِفُ أحلامًا ومشاعر وذكريات، ولا يَنزِفُ دمًا، كما أن شظايا قلبه تتساقط في أعماقه، وترتطم بكلِّ جزء في كيانه ، ومعَ هذا لا يَشعرُ به أحد ، ولا تُمدُّ له يد العون، لأنَّ كلَّ إنسان مشغول بمصيره الشخصي، وغارق في نظام استهلاكي ميكانيكي مُغلَق، يقوم على قاعدة الخلاص الفردي ، والهرب من السفينة قبل غرقها. وعدمُ وجود مقبرة لا يعني عدم وجود أموات، لأنَّ كثيرًا من الأموات يَسِرون في الشوارع ، ويُمارسون حياتهم التي انتهت صلاحيتها بشكل روتيني وظيفي بلا حُلُم ولا أمل ، وهم لا يَعْرِفون أنهم ماتوا لأنهم أشباح مُتحرِّكة. وعدمُ وجود دُخان لا يعني عدم وجود نار، لأن نار الذكريات التي تُحرق الذاكرة لا ضوئ لها ولا دُخان .

*

الأنساق والمعنى والمجتمع الجديد

١

الغاية من تحليل الأنساق الاجتماعية هي تفسير مصادر المعرفة ، التي تكتشف تاريخ الوعي الإنساني ، وتُحيله إلى علاقات وجودية منطقية قائمة على منظومة التأسيس والتوليد ، تأسيس قواعد المنهج الاجتماعي ، وتوليد أنساق إبداعية تُوازن بين الشكل والمضمون . والأنساق الاجتماعية ليست كتلة جامدة ، أو وعاءاً فلسفياً لجميع الأحداث التاريخية، وإنما هي حيوات متكاثرة ومكتنفة في بؤرة إنسانية مركزية شديدة العمق . وهذه البؤرة كبر الماء ، إذا أردنا معرفة عمقها ، ينبغي أن نلقي حجراً فيها ، وننتظر ارتطامه بالماء ، والوقت الذي يستغرقه الحجر في الوصول إلى القاع ، يُظهر عمق البئر . ومركزية الحجر في بئر الماء ، تُشبه مركزية المعنى الاجتماعي في البؤرة الإنسانية .

٢

التشابك في الأنساق يؤدي إلى التعقيد في المعنى ، ومهمته الوعي الإنساني أن يُكتف المعنى اجتماعياً ، ويمنعه من التشطّي ، ويحوّله إلى كيان رمزي تفاعلي ومتماسك ، يحتضنه الناس ، ويشاركون في تفسير ماهيته ، وتأويل أبعاده ، وتطبيقه على أرض الواقع . وإذا انتقل المعنى من الغموض إلى الوضوح ، ومن سطور الكتب إلى صدور الناس ، ومن الهلامية إلى الواقعية ، انضحت الأنساق التي تتحكم بسلوك الناس ، وزال التعقيد في معنى حياتهم ، وبالتالي تُصبح الأنساق طريقاً للخلاص الاجتماعي ، ويصبح المعنى رحلة إلى قلب الحقيقة .

٣

بين الأنساق الاجتماعية والمعنى الاجتماعي ، يُولد مجتمع جديد لا يقف على الحياض ، ولا يتفرّج على الأحداث ، وإنما يخوض في مفاهيم إنتاج المعرفة ، ويشارك في صناعة الأحداث ، والتحكم بمسارها . والمجتمع الجديد لا يعني تغيير الأشخاص أو تبديل الشعارات ، والإنسان الجديد لا يعني تغيير الملابس ، أو تسريحة الشعر . إنّ " الجديد " لا يتحقق إلا بالتجديد ، وهذا يستلزم بالضرورة مُساءلة الأفكار الذهنية ، واختبار القرارات الواقعية ، وتحليل الأحداث الاجتماعية . وإذا اعتاد الفرد على طرح الأسئلة أمام المواقف الحياتية المختلفة (متى حدث هذا الموقف ؟ ، كيف حدث ؟ ، لماذا حدث ؟) ، وبحث عن إجابات منطقية مُتسلسلة زمنياً ومكانياً

وفكريًا ، فإنه سيجد نفسه مع مرور الوقت فيلسوفًا حقيقيًا دون أن يدرس الفلسفة . وإذا وصل إلى هذه المرحلة المتقدمة صار سهلًا عليه دراسة كافة الاحتمالات ، وفحص المسلمات ، وأخذ الدروس والعبر من التاريخ ، والاستفادة من تجارب الآخرين . وكلما سيطرت الأسئلة على عقل الفرد المتحرك في أنساق الفعل الاجتماعي أفقيًا وعموديًا ، صار شديدًا على نفسه ، متساهلاً مع الناس . وسبب الشدة على النفس ، لأن الفرد يعلم أخطائه وخطايه ونقاط ضعفه ، ويجب ألا يرضى عن نفسه ، لأن الرضا عن النفس يدفعها إلى الخمول والغرور ، والحياة الحقيقية هي سعي دائم نحو الكمال ، والفكر الإنساني في صيرورة مستمرة لا تهدأ ولا تتوقف . والتوقف لا يكون أثناء صعود الجبل ، بل يكون عند الوصول إلى القمة . وهذا التوقف مؤقت ، يشبه استراحة المحارب ، ثم تبدأ رحلة البحث عن قِمَم جديدة ، وهذا يعني أن الحياة تجارب دائمة ، ومغامرات متواصلة ، وأحلام مفتوحة على كل الاحتمالات . أما سبب التساهل مع الناس ، فيعود إلى كونهم مختلفين في القدرات والإمكانات ، ويخضعون لظروف مختلفة ، وضغوط متعددة ، فينبغي مساعدتهم ، والأخذ بأيديهم إلى بر الأمان . والعاقِل يتكبر على نفسه كي يقهرها ، ويتحكم برغباتها ، ويعيدها من الطريق المسدود ، بحثًا عن طريق مفتوح . وفي نفس الوقت يتواضع للآخرين ، كي يكسب ثقتهم ، ويُرشدتهم إلى الطريق المفتوح ، ويفتح لهم نوافذ الأمل بوجود غدٍ مشرق . وعلى الفرد أن يزرع الأفكار الإبداعية في كل حقول المعرفة ، ولا يسأل عن موعد الحصاد ، ولا هوية الحاصد . وليس شرطًا أن يكون الزارع هو الحاصد ، وليس شرطًا أن يكون واضع النظرية أفضل من يطبقها .

*

المعنى المعرفي والرمز الفكري

١

الفكر الإنساني ليس له معنى ولا فائدة في العلوم الاجتماعية ، إذا لم يُقدّم حلولاً منطقية قابلة للتطبيق العملي . والعلوم الاجتماعية تفقد قيمتها الوجودية وسلطتها الاعتبارية ، إذا لم تُقدّم مشروعاً لخلاص الفرد من الاغتراب النفسي ، وتحرّر المجتمع من القلق الوجودي . وهذا يستلزم أن يندمج الفكر الإنساني مع العلوم الاجتماعية، من أجل إنقاذ الإنسان من الوحش الساكن فيه، ونقل العلاقات الشعورية من التوحش إلى الإنسانية. وهذه هي الخطوة الأولى لنقل المعنى المعرفي من جسد اللغة إلى تجسيد اللغة على شكل رموز قادرة على حمل تاريخ المجتمع ، والحفاظ على هويته الحضارية . والرموز تمثل أركان فلسفة الطاقة الذهنية العابرة لحدود الزمان والمكان . وكل ظاهرة اجتماعية محصورة في لحظتها الزمنية الآنية وإطارها المكاني الضيق ، يمكن إيجاد تفسير عقلائي لها عن طريق فهم رمزيها المجردة من مركزية الأفراد ومصالحهم الشخصية . فالرمز هو النواة الفلسفية ، والمركز الذي يستقطب الأضداد ، ويُعيد صهرها في بوتقة الذاكرة الجمعية ، لتحويلها إلى نظام عقلائي مُتجانس . وهذا النظام قائم على التكامل ، حيث يُتمم العنصر الآخر ويتحدان معاً . لذلك يقبل هذا النظام الاختلاف (تلاحق الأفكار المتعددة) ، ويرفض الخلاف (تعارض المصالح) . وكما أننا لا نستطيع الوصول إلى النواة إلا بإزالة القشرة الخارجية ، كذلك لا نستطيع الوصول إلى الرمز إلا بإزالة الغلاف اللغوي . وهذا يعني أن الرمزية عملية تعرية مُستمرة للشعارات النفعية والأجندات المُغرِضة والأيديولوجيات الفئوية ، من أجل الوصول إلى الوجه الحقيقي للشيء خارج نفوذ الأقنعة وسلطة المرايا .

٢

الرمز الإنساني في مصادر المعرفة الاجتماعية ليس شخصاً ، ولكنه تشخيص ، وليس جسداً ، ولكنه تجسيد . إنه تشخيص للحالة الشعورية من أجل تفسيرها نفسياً واجتماعياً، وتجسيد لأشكال التفاعل الاجتماعي بين الوعي الأخلاقي واللغة النقية الخالية من الشعارات ، كالماء المُقطّر الخالي من الشوائب . وهذا يُسبب اتزاناً في عناصر المنظومة الثقافية العامة ، ويحدث توازناً في التجربة الإنسانية الشخصية . أي إن تفعيل ثنائية (التشخيص / التجسيد) في الفكر الاجتماعي يُؤدّي بالضرورة إلى تجدير ثنائية (الاتزان / التوازن) في المجتمع الإنساني ، وهذا يكشف مدى

الترابط بين المعنى والرموز التي تُعبّر عنه . وإذا تَكَرَّسَ المعنى كَطَوَّقِ نَجاةٍ للمجتمع ، فإنَّ الرموز
سَوْفَ تَتَّحِدُ لتصبح رموزًا واحدًا يُمثِّلُ بَرَّ الأمان وشاطئَ السلامة .

٣

أخطر إشكالية تُهدِّد طبيعة التسلسل المنطقي في الأنساق الاجتماعية ، هي مَوْتَ المعنى
المعرفي ، وغياب الرمز الفكري . والنَّوْاةُ المركزية في اللغة تتكوَّن من المعنى والرمز ، وإذا زَالَ
هذان المُكوَّنان ، زالت شرعيَّة اللغة ، واختفت مشروعيتها ، وفقدت جدواها ، وخسرت ماهيتها .
ويدون اللغة سيتحرَّك الإنسان في الفراغ ، ويتنقَّل بين الأوهام ضِمن متاهة لا مَخْرَجَ مِنْهَا ، ونَفَقَ
لا ضَوْءَ في آخره . وهذا يعني أن غياب اللغة هو غياب للإنسان . وحُدُودُ لُغَةِ الإنسانِ هي حُدُودُ
عَالَمِهِ . وبما أنَّ اللغة هي الجهة المانحة للضَّوء في نهاية النَّفَقِ ، فينبغي بناء الأنساق الاجتماعية
وَفَقْ مَنطِقِ اللغة ، والحرص على توليد المعنى ، وتأسيس الرمز . وهكذا يَحْمِي الإنسانُ نَفْسَهُ مِنْ
السقوط في الفراغ ، وَيَحْمِي أَفْكَارَهُ مِنَ الغرق في العَدَمِ . وفي نَفْسِ الوقت ، يُحافظ المجتمعُ
على معناه الروحي ، وكيانه المادي ، وقُوَّتِهِ الناعمة المُتمثِّلة في الثقافة الحقيقية ، التي تُعَلِّمُ
الإنسانَ التَّحْلِيْقَ في عوالم الإبداع ، ولا تُعَلِّمُهُ كَيْفِيَّةَ الدُّخُولِ إلى القفص .

*

الواقعية والمجتمع الكامل

١

الواقعية في تحليل العلوم الاجتماعية لا تعني نَسْخَ الأحداث اليومية المُعاشة ، ونقل الوقائع من حياة الأفراد المادية إلى عالم الأفكار الذهنية والنظريات المُجرّدة ، وإنما تعني تحويل السلوك الاجتماعي فرديًا وجماعيًا إلى منظومة معرفية رمزية تشتمل على الهوية الوجودية والقيم الأخلاقية والطبيعة الزمكانية (الزمانية _ المكانية) ، ثم تطبيق هذه المنظومة على أرض الواقع بشكل تدريجي ، ليس بسبب ضعف المنظومة ، ولكن بسبب عدم قدرة الناس على تحمّل التغييرات الفكرية المفاجئة والصدمات الاجتماعية العنيفة ، وهذا يدل على خطورة حرق المراحل ، والقفز من طور إلى طور بشكل عبثي وفوضوي . ولا يُوجد تغيير اجتماعي بأسلوب الصعق الكهربائي ، والتنقّل عبر المراحل غير الناضجة . يجب إنضاج كلّ مرحلة اجتماعية قبل الانتقال إلى مرحلة أخرى ، وهذا يستلزم أن يكون الفكر الاجتماعي (غذاء الواقع) ناضجًا ، حتى يستفيد جسم المجتمع منه ، تمامًا كالطعام (غذاء الجسد) ، يجب أن يكون ناضجًا حتى يستفيد جسم الإنسان منه .

٢

استعجال الإنسان في تحقيق أهدافه وقطف ثمار التنمية ، يُشكّل خطرًا حقيقيًا على أهدافه ، وتهديدًا مباشرًا للتنمية . والنهضة الاجتماعية تُشبه عملية الطبخ على نار هادئة ، تتطلب التحلّي بالصبر والانتظار ، والحفاظ على التوازن بين العناصر والمكوّنات . والتخطيط للأحداث أهم من سير الأحداث ، وهذا يعني أن الإنسان قادر على تجاوز نقاط ضعفه وضعف إمكانياته ، إذا امتلَكَ الإرادة الصّلبة ، والرؤية الثاقبة ، والقدرة على التخطيط ، والمعنويات المرتفعة ، وهذا يُفسّر سبب نهضة دُول فقيرة ، وانهيار دُول غنية ، كما يُفسّر نجاح بعض الأفراد الذين لا يملكون مواهب ، وذهاب بعض أصحاب المواهب إلى النسيان ، لأنّ العبرة ليست في امتلاك الموهبة ، وإنما في تسويق الموهبة، والخروج من الزحام ، وتكوين صوت شخصي مؤثّر بعيدًا عن ضجيج الأصوات . والمشكلة المنتشرة في المجتمعات أن الأفراد ينتظرون تكوين ثروات حتى يبدؤوا في إنشاء مشاريعهم الشخصية ، وهذا الانتظار هو سبب عزلة الفرد ، وعجزه عن تغيير واقعه المُعاش . يجب على الأفراد أن يصعدوا السلمَ درجَةً درجَةً ، وأن يقوموا بإنشاء المشاريع بما يتوفّر لديهم

من إمكانيات وموارد ، بلا تأخير ولا انتظار ، لأن قطار الحضارة لا يتأخر عن مواعده ، والغمر لا ينتظر أحدًا . وعذاب الانتظار أكثر صعوبة من عذاب الاقتحام ، وخير وسيلة للدفاع الهجوم .

٣

التدبير نصف المعيشة ، وإدارة الموارد أهم من الموارد . وهذه الحقيقة ينبغي توظيفها في فلسفة المجتمع التي يظهر تأثيرها في سلوك الفرد وطموحاته . وعلى الفرد أن يدرك أن النهضة ليست كثرة الإمكانيات ، وإنما طريقة توظيف الإمكانيات لخدمة الصالح العام ، وأن المجتمع الكامل ليس الخالي من الأخطاء والعيوب ، والمعصوم من الفشل ، والمُنزّه عن الهزيمة ، إن المجتمع الكامل هو الذي يعترف بأخطائه وغيوبه ، ويقوم بتصحيحها ، ويحاول سد الثغرات ، بعيدًا عن المكابرة والتحايل والتبرير ، ويجعل فشله مرحلة من مراحل النجاح ، وذلك بالتعلم من أخطاء التجارب لمنع تكرارها ، ويعتبر هزيمته حادثًا عَرَضِيًّا ، ولحظة زمنية للتحضير للنصر القادم والنهضة الشاملة. والسعي إلى الكمال كمال. ومهما كانت الإمكانيات شحيحة، والثروات ضئيلة، والتحديات جسيمة، فينبغي ألا تُشكّل عائقًا أمام مسيرة التنمية ، فالقوة الحقيقية هي الرصيد في قلوب الناس ، وليس الرصيد في البنك ، فهو مُجرّد رقم . والاستثمار الفعّال هو صناعة الإبداع المعرفي ، وتحويل الفرد من رقم هامشي إلى كيان إنساني وصانع للأمل المشرق، وهذا لا يتأتى إلا بتطوير أداء الفرد، ووضع الثقة فيه كي ينهض بالمجتمع ، ويقوده إلى آفاق تنمية جديدة . ومهما عانى الفرد من قلة الحيلة، وضيق ذات اليد، والانكسارات والخيبات، فعليه أن يتذكر السلحفاة ، فهي كائن ضعيف وبطيء ، ومع هذا لا تندب حظها ، ولا تلوم القدر ، ولا تُقارن نفسها مع الحيوانات السريعة ذات القوة والقدرة . إنّ السلحفاة تعرف إمكانياتها الضئيلة، وتتصرّف وفقها، وهي تسير في طريقها بلا كسل ولا ملل. ومواصلة السير وعدم الاستسلام للظروف ، من أهم الإنجازات وأكبر النجاحات . ومن أمسك طرف الخيط ، فقد نجح في نصف الامتحان ، ومن وضع رجله على الطريق الصحيح ، فقد اجتاز الصعّب ، وبقي السهل . ومن مشى في النفق المظلم ولم يتوقّف ، اقترب من رؤية الضوء في آخر النفق . ومن أدمن قرع باب المستقبل ، أوْشك أن يُفتح . وقد قيل : ليس الطريق لمن سبق ، إنما الطريق لمن صدّق .

*

التاريخ والجغرافيا في التفاعل الرمزي الاجتماعي

١

يعتمد التجانس في العلاقات الاجتماعية على التوازن بين الجوهر والعرض في حياة الأفراد ، وهذا التوازن يُحدّد الأولويات ، ويُرتّب القيم الإنسانية وَفَقَ أهميتها ، ويُميّز بين الأسس الفكرية الدائمة والعناصر الحياتية المؤقتة . وامتلاك القدرة على التمييز بين الدائم والمؤقت يُعتبر اللبنة الأولى في منهجية العلوم الاجتماعية ، التي تستمد شرعيتها وفلسفتها من قدرتها على تفسير دور الأفراد في حركة التاريخ ، وتحليل دور التاريخ في تشكيل وعي المجتمع . والفرق بين الدائم والمؤقت في البنى الاجتماعية ، يُشبه الفرق بين جذر الشجرة الراسخ وأوراقها المتساقطة في الخريف . وبما أن الحياة عبارة عن سباق مسافات طويلة ، فلا بُد من فحص العناصر وتمييزها وغربلتها من أجل معرفة القادرين على الوصول إلى خط النهاية ، والتعويل عليهم في بناء المنظومة الاجتماعية ، لأنهم وحدهم يُشكّلون الحقيقة الإنسانية القادرة على الاستمرار والديمومة ، ورؤية الأمور من كل الزوايا والجهات ، والتواصل مع الأفكار ، وتوصيل الأفكار إلى الشرائح الاجتماعية المختلفة .

٢

ثقافة الأفراد تُشكّل الظواهر الاجتماعية ، وتبني التصورات حول الذات والعالم ، لكن الثقافة ليست قراءة عدّة كُتب ، أو المشاركة في بعض المؤتمرات ، إن مفهوم الثقافة مرتبط بطبيعة الوجود الإنساني في كل تحولاته وتفصيله النظرية والعملية ، والثقافة فعل تراكمي وتفاعل رمزي مع العناصر الاجتماعية القادرة على توليد المعاني الإبداعية ، والأشكال الأخلاقية ذات المضمون العميق ، وتنظيم الأفعال الفردية بشكل عقلائي ، تمهيداً لتحويلها إلى منظومة كُلية حاملة لإفرازات العقل الجمعي، لأن الجزء لا يُقدّر على التغيير وحيداً، ولا بُد من وجود منظومة تستوعبه ولا تلغيه ، وتوظفه لصالح الخير العام ، ولا تستغله لتحقيق مصالح شخصية . وإذا احتضنت المنظومة الاجتماعية كُلَّ عنصر بلا تهميش ولا إلغاء ، ووضعت في مكانه الصحيح ، كي تتفجر طاقته الإبداعية، فإنّ هذه المنظومة سوف تكتمل وتتكامل ، وتُصبح كتلة فكرية متماسكة مالكة لأمرها وقرّارها، وقادرة على توظيف تاريخ الفرد لبناء جغرافيا المجتمع أفقياً وعمودياً ، وتوظيف جغرافيا الوجود الاجتماعي لإعادة تشكيل طبيعة العقل وخصائص الأفراد ، من أجل تنقية التاريخ من نقاط

الضعف والثغرات القاتلة والأماكن المظلمة . واستمرارُ عملية التنقية التاريخية يستلزم بالضرورة فَحْصَ المُسَلِّمات التي تجذّرت بفعل سُلطة الأمر الواقع ، وليس بفعل منطق العقل . وقواعدُ المنهج الاجتماعي القائمة على الأدلة والبراهين تستطيع إدخال التاريخ والجغرافيا في صيرورة وجودية حاسمة ، تُبيّن تعاقب الأحداث ، وسبب نُشُوئها ، والمسافة الفكرية الفاصلة بين زمن حدوث الفعل الاجتماعي ومكانه ، ممّا يُؤدّي إلى دمج التاريخ والجغرافيا معًا وتجسيدهما كحلقة وصل بين المعاني الوجودية والوعي الاجتماعي بها .

٣

قُوّة المنهج الاجتماعي لا تنبع من العلاقات الآليّة بين البشر ، الخالية من المشاعر والأحاسيس ، وإنما تنبع من التفاعل الرمزي المُتغلغل في العلاقات الاجتماعية ، لأن الرمز قادر على كشف حقيقة الأشياء غير الملموسة ، وتوضيح ماهية العناصر غير المحسوسة . وإذا كان الجسدُ الإنساني محصورًا في الزمان والمكان ، فإن الأشواق الروحية عابرة للزمان والمكان ، ولا يُمكن التعامل معها إلا بشكل رمزي ، ولا تُكشِف الرموزُ إلا الرموزُ . والتفاعل الرمزي الاجتماعي يصنع عالمًا مُوازياً للعالم الواقعي الذي نعيش فيه ، تمامًا كما يصنع الشاعرُ عالمه الخاص في قصيدته . وكما أن حرارة التعبير اللغوي قادرة على إزالة الفرق بين الشّعْر والنثر ، كذلك قُوّة التفاعل الرمزي قادرة على إزالة الفرق بين التاريخ والجغرافيا ، لصناعة مجتمع جديد يستطيع صَهْر الأضداد ، والتوفيق بين التناقضات ، والتخلُّص من العُقد التاريخية والجغرافية التي تُؤوّل إلى عُقد نفسية ، وتُشكّل حواجز بين قلوب الناس ، تمنعهم من الاجتماع والتعاون ، وُصولًا إلى المُجتمع المُتماسك المُتجانس، الذي يخلو من الحقد والثأر والانتقام .

*

التناقضات الاجتماعية والمراحل الزمنية

١

تُمثِّل التناقضات في العلاقات الاجتماعية تحديًا وجوديًا للشعور الإنساني ، والمصلحة العامة ، وتطوِّر الأفكار الإبداعية ، لأن التناقضات تمنع التواصل بين عناصر الواقع المُعاش ، وتحدُّ من قدرة الفعل الاجتماعي على صناعة الكينونة الإنسانية ، وتشكِّل خطرًا على ماهية التجانس وصيغة العيش المُشترك . وغيابُ التجانس يعني حدوث انشقاقات في المنظومة الاجتماعية الواحدة ، وغيابُ صيغة العيش المُشترك يعني تكريس النَّزعة الأنانية ، والبحث عن الخلاص الفردي ، والهروب من مواجهة التحديات ، والتَّصُلُّ من تحمُّل المسؤوليات ، وهذا يعني تحوُّل المجتمع إلى شقَّة مفروشة ، يسكنها الفردُ لبعض الوقت ، ثُمَّ يرحل عنها ، بدون شعور بالانتماء إلى المكان ، أو ولاء للذكريات . وإذا اختفت ثنائية (الانتماء / الولاء) ، اختفت الشرعية الاجتماعية التي تُسيطر على اتجاهات الفعل الإنساني ، وتتحكَّم بمسارات الأفكار المعرفية . ممَّا يعني بالضرورة انتقال مشاريع النهضة ومضامين التنمية من الحُلم إلى الكابوس ، ومن الأشواق الروحية إلى الأنماط الاستهلاكية . وهكذا ، تصير حياة الإنسان هروبًا مُستمرًا ، فهو يهرب من مُكوّنات نفسه إلى عناصر البيئة الخارجية بحثًا عن الأمن والأمان ، ويهرب من امتحان المُستقبل إلى مُسلّمات الماضي ، لأنَّه عاجز عن مُواكبة حركة الإبداع ، وغير قادر على مُناقسة الآخرين في اقتحام المُستقبل . وإذا اعتبرَ الإنسانُ نفسه خارجَ التاريخ الحضاري ، ولا مكان له في الحاضر والمُستقبل ، فسوفَ يرجع إلى أمجاد الماضي ، ويغرق فيها ، كي يرتاح من عذاب الضمير ، وكثرة التفكير ، ويثبتَ لنفسه أنَّ له جذورًا وتاريخًا ووجودًا اعتباريًا وكينونةً حضاريةً .

٢

تناقضات الحاضر المُتعب تُجبر الإنسانَ على الهروب إلى الماضي المُريح ، وضغطُ الأسئلة المصيرية يدفع الإنسانَ إلى البحث عن إجابات جاهزة ومُسلّمات افتراضية وقوالب فكرية مُعدَّة مُسبقًا ، والسبب في ذلك أن الكثيرين يُفضِّلون الوهم الناعم على الحقيقة الصادمة ، ويتعبدون عن الدواء الذي فيه شفاؤهم ، لأنَّه مُر المذاق ، ويتهربون من العملية الجراحية للمريض ، لأنها قد تشتمل على قطع عُضو فاسد يُؤثِّر على حياة الجسم كاملاً . وهنا تبرز أهمية النظر إلى العلاقات الاجتماعية من كل الزوايا والاتجاهات ، من أجل تكوين صورة فكرية كاملة وشاملة ، بدون انتقائية في المعاني ، ولا مزاجية في القرارات .

إذا أضاع المجتمع مفتاح باب المستقبل ، فسوف يبحث عنه في الماضي ، وهذه عملية شديدة الخطورة ، لأن كل باب له مفتاح خاص به ، ولا يوجد مفتاح يناسب كل الأبواب . والإشكالية في حياة الأفراد والجماعات هي عدم التمييز بين العودة إلى الماضي للاستفادة منه في فهم الحاضر والانطلاق إلى المستقبل، وبين العودة إلى الماضي للهروب من تحديات الحاضر ، خوفاً من المستقبل . والخوف من المستقبل يستلزم الابتعاد عنه ، والسقوط في الوهم ، والانكماش في الراوية الضيقة . وإذا غاب المستقبل عن الأذهان ، فإن الحاضر سيغيب تلقائياً ، لأن الإنسان يهرب إلى الماضي خائفاً ، ويعيش الماضي في الحاضر ، أي إن الحاضر يصبح ماضياً معاً ، دون وجود فرصة لاقتحام المستقبل. وبعبارة أكثر تفصيلاً ، إن الإنسان الخائف من الزمن ، يسقط خارج الزمن ، ويختبئ في الفراغ الموحش والعدم الشامل ، ويفقد الإحساس بالمرحلة الزمنية المختلفة ، لأن حياته تصبح ماضياً متواصلًا ، وهروباً مستمراً ، والهروب من الأشياء لا يستطيع فهم حقيقتها ، ولا يقدر على مواجهة الأزمات . وإذا أراد الإنسان الخروج من المتاهة الاجتماعية والمأزق الوجودي الحرج ، فيجب عليه أن يُقاتل أوهامه حتى النهاية ، مُسلحاً بتجارب الماضي ، ومُفعمًا بإنجازات الحاضر ، وواثقًا بأحلام المستقبل . والهروب ليس حلاً ، وأفضل طريقة للتخلص من الخوف هي اقتحامه ، وعلى المريض أن يشرب الدواء المر بأسرع وقت ممكن ، لأن فيه شفاءه ، وهو في سباق مع الزمن . وتوفير الوقت هو تقليل للثمن والتضحيات .

*

السيطرة على التحولات الاجتماعية

التحولات الاجتماعية ليست عملية ميكانيكية خالية من المشاعر الإنسانية ، وليست إجراءً روتينياً يشتمل على منظومة السبب والنتيجة بدون وعي تاريخي أو تمهيد واقعي . إن التحولات الاجتماعية تتحرك وفق تراتبية معرفية منطقية ، لا مكان فيها للصُدْف أو أنصاف الحلول . وإذا لم يستطع الإنسان إيجاد تفسير منطقي للأحداث ، فهذا لا يعني أن الأحداث عشية . وإذا لم يُقدّر المجتمع على تحليل الظواهر الرمزية المُسيطر على سلوك الفرد وتوجُّهات الجماعة ، فهذا لا يعني أن الصُدفة هي القانون الحاكم على أنساق المجتمع . إن الأسباب والمُسببات الكامنة في الوجدان الإنساني والوعي الاجتماعي . واتحاد الوجدان مع الوعي هو الذي يصنع الوجود الحقيقي للعناصر الفكرية في التاريخ والجغرافيا . وبما أن الوجود في حركة مُتواصلة ، والطبيعة في صيرورة مستمرة ، ولا مكان للفراغ والعدم في الواقع المُعاش ، فلا بُد من حدوث تحولات اجتماعية أفقية وعمودية . الأفقية تتمثل في الحراك الاجتماعي ضمن مستويات زمنية تتعلّق بالماضي والحاضر والمستقبل ، أمّا العمودية (الرأسية) فتتمثل في الحفر المتواصل في طبيعة لغة الخطاب الاجتماعي ، ومركزية الظواهر الثقافية ، والمعايير الرمزية القائمة على الخلاص الفردي والمصلحة العامة ، وحالات الوعي الجمعي ضمن أطر التفاعل مع الذات والآخر . وهذا يعني أن التحولات الاجتماعية ليست تحصيل حاصل ، أو أمراً مفروضاً منه ، ومتروكاً لحركة الزمن . إن هذه التحولات تُؤثّر في الزمن، كما يُؤثّر الزمن فيها ، وهذا التأثير المُتبادل يُثبت أنها تحولات عقلانية، يُمكن توقُّع مسارها قبل حدوثها على أرض الواقع . وكلُّ حراك اجتماعي في الوجود يُمكن توقُّع مساره ، ومعرفة نقطة بدايته وغايته ، فهو حراك عقلاني مُنظَّم محكوم بقوانين منطق اللغة ومنطق المجتمع معاً . ومنطق اللغة يُوفّر الشروط الفكرية لصناعة الفعل الاجتماعي ، لأنه لا يوجد فكر بدون لغة . ومنطق المجتمع يُحدّد الخصائص العقلانية للتوازن بين صراع الإنسان مع ذاته وصراعه مع محيطه ، وكلُّ صراع ذهني هو علاقة فكرية ، لأن الفكر هو صراع قناعات وعقول ، وصدّام بين الحُجج والبراهين . ولا يُوجد معنى بدون مُجتمع .

وإذا كانت التحولات الاجتماعية في طريق الإبداع والتطوير، فهي تحولات إيجابية ، تحت سيطرة العقل الجمعي ، ويُمكن التحكم بها لصالح الخير العام ، وتوجيه مسارها لإحداث نهضة حقيقية . أمّا إذا خرجت هذه التحولات عن الطريق الصحيح ، فإن المجتمع سيدفع ثمنًا غالياً ،

لأنه فقد السيطرة على أهم عناصره، وصار لاهثاً وراء الأحداث ، تَقُوده ولا يَفُودها ، وتتحكّم به ، ولا يتحكّم بها ، وهذا هو الانتحار التدريجي في المجتمع ، حيث يبدأ العدّ التنازلي لنهاية الحلم الاجتماعي في التقدّم والازدهار ، وهذا يعني بالضرورة بداية ظهور الكوابيس . وإذا سيطرت الكوابيس على بُنية النظام الاجتماعي ، فلن يشعر الإنسان بجدوى وجوده ، ولن يعرف المجتمع مساره ومصيره . وإذا دخل العقل الجمعي في متاهة التحولات الاجتماعية الخارجة عن السيطرة ، فإن المجتمع سيخرج من التاريخ ، وتُصبح العلاقات الإنسانية سلعةً في موضع الغرض والطلب . وعندئذ ، يتحوّل الإنسان من كائن حي مُفكّر إلى أداة وظيفية وشيء هامشي ، ويتحوّل المجتمع من كيان اعتباري له شرعية وجودية ورمزية حضارية ، إلى ساحة لتصفية الحسابات ، ورُقعة شطرنج يُحرّك عليها الأقوياء أحجارهم. وإذا وَصَعَ المجتمع مصيره في أيدي الآخرين، فلا بد أنهم سيلعبون به لتحقيق مصالحهم الشخصية. وما دام القطار على السّكة فهو تحت السيطرة، أمّا إذا خرج عن السّكة، فقد صار وحشاً قاتلاً خارج السيطرة .

*

دور القوة الناعمة في بناء المجتمع

تعبيرُ المجتمع عن هويته الوجودية وشخصيته المركزية وسلطته الاعتبارية وخصائصه الروحية والمادية ، يُمثّل تجسيداً واقعياً لشرعية وجود المجتمع باعتباره كياناً مُتجانساً، وكتلةً مُتماسكة، وتاريخاً مُتجدّداً في الزمان، وجغرافياً راسخةً في المكان . وإذا تَكَرَّست الشرعية الاجتماعية في أنساق الحياة اليومية ، تَكَرَّست مشروعية الأحلام الفردية والجماعية ، لأن الأحلام لا تقوم إلا على قاعدة اجتماعية صلبة ، وكلُّ بُنية اجتماعية بدون شرعية ومشروعية هي مُجرّد ورقة في مَهَبِّ الريح ، وليست شجرة ذات جذور ضاربة في الأعماق . وهذا يُفسّر سبب قُدرة بعض المجتمعات على الصمود في مواجهة الأزمات وعلاجها ، وانهيار مجتمعات أخرى أمام الأزمات ، وعدم القُدرة على التعامل معها .

وإذا سعى الإنسان إلى تحقيق أحلامه الجامعة بين المنفعة الخاصة والمصلحة العامة ، فإنَّ تحوُّلات جذرية ستطرأ على علاقة الإنسان بنفسه ، وعلاقته بمُجتمعهِ ، وهذه التحولات تتمثّل في تحوُّل شرعية الوجود الاجتماعي إلى مشروعية النهضة والتنمية ، وتحوُّل المشاعر الإنسانية الّهلامية إلى أفكار إبداعية منضبطة بقواعد المنهج العلمي .

ولا يُوجد مستقبل للمجتمع الإنساني إلا إذا ابتكر منظومته الفكرية المُشملة على القُوّة الناعمة (الروحية)، ووظّفها ضمن الإمكانيات المُتاحة لإحداث نهضة حقيقية لا شعاراتية . وفلسفة القُوّة الناعمة هي تحويل الأنساق الاجتماعية والتصورات الذهنية إلى ظواهر ثقافية وإشارات معرفية ومفاهيم رمزية وتفاعلات لغوية ، تستطيع السيطرة على الذكريات (الماضي) والتحكّم بالأوقات (الحاضر) والهيمنة على الأُمُنيّات (المُستقبل)، بدون استخدام العنف والإكراه . وهذا يعني أن القُوّة الناعمة هي السُلطة المعنوية المُتجسّدة في الثقافة والأخلاق والمبادئ . وإذا صارت القُوّة الناعمة ذات حُضور راسخ في المجتمع (الداخل) ، فإنها ستُصبح غُصن جَذب ومَحَل إعجاب ومَثَلاً يُحتذى لباقي المجتمعات (الخارج) . وهكذا يتحقّق مفهوم الاختراق بدون استخدام القُوّة العسكرية، وتتجذّر القنوات بدون اللجوء إلى القُوّة المادية . وهذا دليل واضح على أنَّ السيطرة على القلوب باستخدام الأفكار أعمق أثراً من السيطرة على الأجساد باستخدام الأسلحة . وهذا هو الفرق الجوهرى بين القُوّة الناعمة التي تخرق النَفْس البشرية بلا إكراه ، وبين القُوّة الخشنة التي تحتل الجسد البشري بالإكراه . والسُلطة الحقيقية هي القُدرة على احتلال

القلوب ، والسيطرة على الأرواح ، وتغيير القنوات الداخلية باستخدام الأدلة والبراهين ، وإنشاء منظومات اجتماعية جذابة تُؤدّي إلى الرضا عن النَّفس، والتَّطلُّع إلى مُستقبل مُشرق. وكُلُّ سُلطة حقيقية تُفُود بالضرورة إلى سياسة منطقية تُعتبر السيطرة تنقيباً مُتواصلاً في النَّفس البشرية للوصول إلى الطهارة القلبية ، وليس احتلالاً للجسد البشري وإذلالاً له ، من أجل بناء العروش على عِظام الضَّحايا . وكُلُّ مجتمع قائم على أحاسيس الضحايا ، ومشاعر المظلومين ، ستنشر فيه مفاهيم التَّأر والانتقام والتَّربُّص وانتظار اللحظة من أجل الانقضاض ، لأن الدَّم لا يَنام ، والماضي لا يَمُضي ، والغيب لا يَغيب . ومن أجل الخروج من هذا المأزق الوجودي والمُعضلة الاجتماعية ، ينبغي الاستثمار في قلوب الناس ، والسيطرة عليها بالحُجج المنطقية والأدلة العقلانية، بعيداً عن أساليب القهر والقسوة والإكراه والضغط النَّفسي. وهذا هو الطريق الوحيد للسيطرة على الناس، ودفعهم إلى تَبَنِّي القِيم الإنسانية ونشرها. والقلوب هي الحاضنة للأنظمة السياسية والمنظومات الاجتماعية ، والقادرة على الدفاع عنها . وما استقرَّ في القلوب ، ثَبَتَ على أرض الواقع ، وما رَفَضَتْه القلوب ، سَقَطَ على أرض الواقع .

*

تحويل التاريخ إلى ظاهرة ثقافية

١

جَوهَرُ السلوك الاجتماعي ليس أداةً وظيفيةً محصورة في التعليمات المُسبَّقة أو الأفعال الارتجالية، وإنما هو سلطة مركزية تتحكَّم بالظواهر الثقافية والمفاهيم السياسية والبناء الاقتصادي، وعمليةُ التحكُّم تُؤوِّل _ بفعل إفرازات العقل الجمعي _ إلى تفاعلات رمزية في عمق الشعور والوعي اللغوي، تُساهم في توظيف الأفكار الإبداعية لفهم أنساق الهيمنة في المجتمع، وتحويل تفاصيل الحياة اليومية إلى تجارب عقلانية، يُمكن تعميمها في كل زمان ومكان. والمُمارَسة الحياتية لا تتحوَّل إلى مُمارَسة عقلانية، إلا إذا تمَّ تشييد الواقع المُعاش على قاعدة (الشعور / اللغة)، فالشعورُ هو النسق الداخلي الذي يضمن لقاء الإنسان بإنسانيته، واللغة هي النسق الخارجي الذي يضمن تحويل الرموز الذهنية إلى أفعال واقعية. وبين الشعور واللغة تُؤلِّد عوالم روحية وتركيبات مادية، من شأنها حفظ توازن الإنسان، وصناعة السلام في أعماقه، وتحقيق المصالحة بين الإنسان وذاته، وبين الإنسان ومُجتمعِهِ.

٢

القيودُ التي تفرضها الضغوطُ الاجتماعية على أنساق الشعور الإنساني، يُمكن تفكيكها عبر تحويل المسارات التاريخية إلى ظواهر ثقافية، وذلك بأخذ الدروس والعبر من الماضي، وإحالتها إلى فلسفة إنسانية قائمة على الأسباب والنتائج، ومُندمجة في طبيعة البنى الاجتماعية، وقادرة على اقتحام بمستقبل بثقة وجُرأة. وإذا نجح المجتمع في تحويل الأحداث التاريخية المحصورة في الزمان والمُحاصرة بالمكان، إلى أفكار ومبادئ وقيم عابرة للحدود، وصالحة لكل زمان ومكان، فإنَّ أنظمة اجتماعية جديدة ستنشأ، تمتاز بالاستمرارية، وتمتلك قُوَّة الدفع الذاتية لتكريس مفهوم الصَّيرورة (انتقال الحالة التاريخية إلى ظاهرة ثقافية) في المجتمع، لأن الأفكار خالدة لا تموت، والثقافة باقية، لا يُمكن دفنها في اللحظة الآنيَّة، أو نسيانها في المواقف العابرة التي انتهت صلاحيتها. إن الثقافة قائمة على الرموز والإشارات والطموحات والتفاعلات العقلانية والإفرازات الواقعية، وهذا سرُّ قُوَّتها وارتباطها الوثيق بوجود الإنسان ظاهراً وباطناً. والإنسان لا يستطيع إيجاد صوته الخاص في ضجيج الحياة، ولا يُقدِّر على حُجَز مقعد في قطار التاريخ، إلا إذا استطاع تحويل التاريخ إلى ثقافة ووعي بالثقافة، وبذلك يُعيد ترتيب القوضى في الأنساق الحياتية، ويُسيطر على الشكل والمضمون في اختلاط الأزمنة وزحمة الأمكنة.

إحساس الإنسان بطبيعة ذاته وخصائص مجتمعه ، وإحساس المجتمع بدوره المركزي في عملية صناعة الفعل الاجتماعي ، يُجسّدان المعنى الحضاريّ بكلّ أبعاده . والمعنى لا يتكرّس كمفهوم وجودي في الذهن والواقع ، إلا إذا جَمَعَ الإنسانُ الجزءَ والكُلَّ ضمن صيغة منطقية ، ومنَعَ التناقضَ ، وأزالَ عوامل التّضاد ، واجتثَّ جذورَ الصراع. والمجتمعُ لا يُبنى على التناقضات، لأنّها تُحطّم جَوْهره، وتُزيل شرعية وجوده . ولا يُعقّل أن يكون الصراعُ بين التناقضات قُوّة دافعة للمجتمع ، وسبباً في نهضته ، لأن النار لا يُمكن أن تكون مصدراً للماء . كما أن التاريخ والثقافة لا يُحكمان بقوانين جاهزة ومعلّبة، وإنما يتكران قوانينهما الخاصة، ويشتّقان طريقهما أثناء السّير ، وكُلُّ رحلة وجودية تشتمل على طريق جديد ، يُعاد اكتشافه باستمرار ، وهذه الصّيرورة الحتمية ناتجة عن هيمنة الفكر على المادة ، وسيطرة الثقافة على التاريخ ، وأسبقية الصّور الذهنية على التطبيقات الواقعية. والنهرُ يبدو كياناً واحداً ذا مسارٍ واحد ، ولكنه _ في حقيقة الأمر _ كِيانات مُتنوّعة بسبب جريّان المياه باستمرار ، وتغيّر ماهيتها ، وكأنّ النهر يُغيّر جِلده باستمرار ، ويبدأ من نهايته ، ويُولد من نفسه ، ويصير كائناً جديداً ، كما أنّ النّهر يشتمل على روافد مُتعدّدة ، وهذا يعني وجود عدّة مسارات . وكما أن النهر لا يُمكن السيطرة عليه إلا ببناء السّدود ، كذلك التاريخ، لا يُمكن السيطرة عليه إلا ببناء الأفكار. وكما أن النهر المُندفّق يُمكن تحويله إلى بُحيرة تحت السيطرة باستخدام السدود ، كذلك التاريخ المُندفع يُمكن تحويله إلى ظاهرة ثقافية تحت السيطرة باستخدام الأفكار .

*

الثقافة والمثقف وتغيير المجتمع

١

الثقافة الحقيقية في المجتمع لا تقوم على مفاهيم مُجرّدة أو ماهيّات غامضة أو تعابير هُلامية، وإنما تقوم على حقائق واقعية وأفكار واضحة وسلوكيات مُستقيمة ، ومُهمة الأنساق الثقافية هي طرح الأسئلة بلا مُجاملة، وتكوين المشاعر الإنسانية القادرة على تغيير البنى الاجتماعية بلا تلاعب . والمجتمع لا ينهض إلا بتكريس الأسئلة المصيرية وتغيير المشاعر السلبية . وإذا استطاع الإنسان تغيير نظام حياته إلى الأفضل ، فإن أنظمة اجتماعية مُتقدّمة ومنظومات فكرية جديدة ستنشأ وتنتشر في تفاصيل المجتمع ، وتُعيد بناء الوُعي الكُلّي والعقل الجمعي على قاعدة تحمّل المسؤولية ومواجهة الأزمات ، وليس تبرير الأخطاء والالتفاف حولها ودفن النار تحت الرماد وترحيل المِلَفات إلى الأجيال القادمة .

٢

الإشكالية الصادمة في المجتمعات الخائفة من الحقيقة ، تتمثّل في تحوّل الثقافة إلى قناع خادع ، وأداة لتزيين الواقع ، ووسيلة تخديرية للناس ، وعملية ميكانيكية لرشّ السُكّر على الموت . والهدف من الثقافة ليس تجميل الموت ، وإنما تجميل الحياة ، ونقل الأنساق الاجتماعية الميّنة إلى قلب الحياة . ووظيفته المثقف ليست تزيين الماضي بالشعارات ، وإنما تزيين الحاضر بالإنجازات ، واستلهاهم أمجاد الماضي ، وصناعة أمجاد جديدة قادرة على دفع الناس إلى اقتحام المستقبل بثقة وإصرار . وشرعية الثقافة تنبع من قُدرتها على صناعة أزمنة جديدة ، وتشديد أُمكنة فريدة ، بعيداً عن استعادة الأزمنة الماضية ، واستعارة تجارب الآخرين ، لأنّ كُلّ إنسان ابنُ زمانه، وكل مجتمع له خصوصية مُتفرّدة وماهية ذاتية ، وهذا يعني عدم وجود فائدة من تقليد الآخرين ونسخ سلوكياتهم . وعلى المجتمع أخذ الحكمة والعبرة والمعنى الرمزي من إنجازات الأمم الأُخرى وتجاربها ، ثمّ صناعة ظروف مُناسبة لإمكانياته وقُدراته ، وإنشاء عوالم خاصّة قادرة على احتضان نقاط قُوّته ونقاط ضَعفه .

٣

الخِيط الماهر يهتم بنوع القماش ، لكن تركيزه على عملية تفصيل القماش ، بحيث يصير ثياباً أنيقة تتلاءم مع تفاصيل جِسْم الإنسان ، وكذلك المثقف الحقيقي يهتم بنوع الأفكار ، لكن تركيزه

على عملية تفصيل الأفكار ، بحيث تصير منظومة إبداعية تتلاءم مع تفاصيل كيان المجتمع . وكما أنه لا فائدة من الثياب النظيفة على جِسم مُلَوّث ، كذلك لا فائدة من الأفكار الرائعة في بيئة قاتلة للإبداع . وامتلاك البذرة القوية لا يعني مُجتمعاً قوياً ، ينبغي أن تتوفر تربة صالحة لاحتضان تلك البذرة . ومنظومة (البذرة / التربة) تُشبه منظومة (الثقافة / المجتمع) . والثقافة لا تُؤثّر في المجتمع إلا إذا قامت على الابتكار والتجديد ، بعيداً عن الاستعادة والاستعارة . وكلُّ تأثير إيجابي يُمثّل مشروع خلاصٍ للعقل الجمعي ، وعملية إنقاذ للعلاقات الاجتماعية ، وطوق نجاة للمشاعر الإنسانية . وقُوّة التأثير تابعة لمركزية النسق الثقافي في الإدراك الحسيّ، والتفاعل الرمزي، والسلوك الاجتماعي . وإذا امتلك النَّسق الثقافي أفضّه ومداه، تحرّز من سَطوة اللحظة الآنيّة ، وسيطرة الأهواء الذاتية ، وهيمنة المصالح الشخصية ، وتحوّل إلى ظاهرة ثقافية قائمة بذاتها ، ومالكة لقرارها ، ومُعترف بها معنوياً ومادياً . وكلُّ ظاهرة ثقافية مُتجذرة في شرعية المجتمع مساراً ومصيراً ، لديها القدرة الذاتية على التكاثر، وتوليد الأشكال الاجتماعية ، وتحميلها بالمضامين المعرفية المنطقية . واتحاد الشكل والمضمون يمنع التَّشطّي وبعثرة الجهود ، ويؤسّس نظاماً تكاملياً يُمكن المثقّف من بناء عالمه الإبداعي لفظاً ومعنى .

*

الأخلاق والأفكار والتفاعلات الاجتماعية الرمزية

مركزية الأخلاق في النظام الاجتماعي تُمثّل منظومة معرفية مُتكاملة ، تشتمل على المعاني القادرة على تكوين التّخيّلات، وتحويلها إلى سلوكيات يومية مُعاشة . والمعاني لا تتجذّر في المجتمع إلا بامتلاك مبدأ التّوليد ، والمحافظة على استمراريته ، أي : توليد الأفكار وتوليد السلوكيات . وهذه الحركة المستمرة تمنع المجتمع من السقوط في الفراغ ، والغرق في تأويل الظواهر الثقافية الخاضعة للشّعور الجمعي . وإذا تمّ توظيف الطاقة الفكرية الناتجة عن الحركة الاجتماعية المستمرة ، في تكوين رؤية جديدة للعالم قائمة على تبادل المنافع والخبرات ، بعيداً عن الاستغلال والاضطهاد والصراع، فإنّ قواعد تفسيرية جديدة ستنشأ في العلاقات الإنسانية ، وتكتشف التفاعلات الاجتماعية الرمزية التي تعتمد على اللغة باعتبارها حاضنة للأخلاق والمبادئ والقيم المُطلقة والنسبية .

وبما أن فلسفة الحياة اليومية مُستمدّة من التواصل اللغوي والوعي بالمشاعر ، فإنّ سلوكيات متعدّدة ومعايير مُتنوّعة وأفكاراً إبداعية ، ستُساهم في بناء ظواهر إنسانية إيجابية عابرة للحسابات الضيقة والمصالح الشخصية والمنافع الفئوية والسياسات المؤدّلة ، التي تدفع باتجاه الصّدّام مع الذات ، والصراع مع الآخر ، لتمزيق الروابط الاجتماعية ، وتحطيم مُستويات الشعور الإنساني ، وبناء كيانات السيطرة ومشاريع الهيمنة على أنقاض الأمم والشعوب .

وكُلّ حضارة مبنية على الخطأ هي مُجرّد وهم ، وكُلّ أيديولوجية تنال شرعيتها من شقاء الناس واضطهادهم وابتزازهم ، هي مُجرّد وسيلة تجارية لتحقيق أرباح مادية ، بلا فكر سليم ولا علم صحيح ولا عقل واع مُدرِك لطبيعة الانتقالات الاجتماعية بين الأزمنة والأمكنة . وبناء الحضارة الذاتية لا يكون بزرع العقبات في طريق الآخرين ، أو دفعهم إلى الوقوع في الحُفَر ، وإنّما يكون بتذليل العقبات في الطريق ، وتعبيده من أجل المشي عليه والوصول إلى الهدف . وكسر مجاديف الآخرين لا يزيد من سرعة قاربك . وكُلّ إنسان يأخذ مكانه تحت الشمس باجتهاده الشخصي ، ولا أحد يأخذ مكان أحد .

والأنساق العميقة في التفاعلات الاجتماعية الرمزية تُجسّد حقيقة الحياة الاجتماعية، على كافة المستويات: الفردية والجماعية ، المعنوية والمادية . ولا يُمكن إدراك هذه الأنساق والتحكّم بها وتوظيفها لصالح معركة الوعي ضدّ الوهم، إلا بإدراك المعاني الكامنة في الشعور الداخلي للإنسان،

والتي تنعكس على سلوكه وطبيعة حياته ، وتُمثِّل مَاهِيَّةَ وُجُوده وشرعية صُموده في ظلِّ نظام اجتماعي مُسيَّس يَضْغَط على الظواهر الثقافية ، ويُحاول امتطائها لتغيب العقول، وحقنها بالمُسلَّمات الجاهزة، وخصَّرها في القوالب المُعدَّة مُسَبِّقًا ، وإبعادها عن الأسئلة المصيرية التي لا تُجَامِل منظومة الفعل الاجتماعي (الجزئي والكلي) ، ولا تُهاْدِن سُلْطَةَ المعنى الرمزي (اللغوي والشُعوري) .

وكلُّ نظام فكري يخاف من طرح الأسئلة، يشتمل على بذرة انهياره في داخله ، وسوف يُدمِّر نَفْسَه بِنَفْسِهِ، وَيَسْقُط مع مرور الزمن ، بسبب عدم امتلاكه لعناصر المناعة الذاتية . وكما أن المبنى ينهار إذا تَمَّ تفريغه من الهواء ، كذلك العقل ينهار إذا تَمَّ تفريغه من الأفكار . والحلُّ الوحيد لحماية العقل هو تكوين منظومة نقدية ذاتية ، تعمل على اكتشاف الغيوب والثغرات في الإنسان ، من أجل التخلص منها . وهكذا ، يدخل الإنسان في حركة تصحيحية ذاتية ، يفرضها على كيانه بِمَحْضِ إرادته ، لتحقيق المنافع ، والتصالح مع نَفْسِهِ ، وتقليل نقاط ضعفه ، ولا ينتظر أحدًا كي يفرضها عليه. ونُقْطَةُ القُوَّة الرئيسة في حياة الإنسان هي معرفة أخطائه ، والاعتراف بها، والعمل لتصحيحها بلا تبرير ولا هُروب من تحمُّل المسؤولية . وإذا هَرَبَ الإنسان من الدَّواء المُر بسبب طَعْمِهِ، فقد حَكَمَ على نَفْسِهِ بالهلاك ، وحَفَرَ قَبْرَهُ بِيَدَيْهِ .

*

الضغط الحيائي والجوهر الاجتماعي

شعور الإنسان بكيانه يُجسّد معناه الوجودي ، ويُمثّل جوهر العلاقات الاجتماعية ، وهذا الجوهر يتّمسّ صقله تحت ضغط العناصر الحياتية ، ويكتسب شرعيته ووجوده المركزي في ظلّ الأزمات. وكما أن الشدائد تكشف عن معادن الرجال ، وتُسقط الأقنعة ، وتُظهر الوجوه الحقيقية ، كذلك الأزمات تكشف عن ماهية الجوهر الاجتماعي ، وتوضّح دوره في ديناميّة التاريخ (تحرك التاريخ في كلّ الاتجاهات ضمن سلطة الأمر الواقع للوصول إلى الأهداف الروحية والغايات المادية) .

والتحدّي المصيري أمام الجوهر الاجتماعي يتمثّل في حمايته من التَشطّي والاندثار ، لأن هذا الجوهر _ بما يمتلكه من شرعية إنسانية ومشروعية اجتماعية _ يتعرّض لضغط هائل بفعل تضارب المصالح في المجتمع، واختلاف التيارات الفكرية ، وتعدّد فلسفات التعبير عن الذات والآخر . وكلّ إنسان يعتبر نفسه سائرًا على الطريق الصحيح ، وكلّ جماعة تعتقد أنها تمتلك الحقّ المُطلق والحقيقة الشاملة. وإذا اعتقد الإنسان أنّه المالك الحصري للقيم المُطلقة ، فسوف يرى رأيه صوابًا لا يحتمل الخطأ ، وهذا سيدفعه إلى الصدام مع الآخرين واعتبارهم منحرفين ، والاصطدام بالمجتمع ، واعتباره بؤرة فساد .

وهذه النظرة الحادّة الأحادية تتعارض _ جُملةً وتفصيلاً _ مع منهجية الحوار الهادئ والنقاش المُتزن ، لأن الإنسان المُتفوّع على نفسه، والغارق في أفكاره الشخصية ، والخائف من أفكار الآخرين، يلجأ إلى العزلة واعتزال الناس ، وصناعة عالمه الخاص القائم على المثالية الوهمية والنقاء المُتخيّل والطّهارة المُتصوّرة ، والرفض لحياة الآخرين وأفكارهم وعوالمهم ، خوفًا من التلوّث والتأثر والانحراف. وهذا هو الأساس الفكري للتطرف قَوْلًا وفِعْلًا. فالعالم واسع ، وزوايا الرؤية مُتعدّدة، وقد يكون للحقيقة أكثر من وجه ، وقد يكون هناك أكثر من طريق يُوصِل إلى الحق ومعنى الأشياء وحقيقة العلاقات الإنسانية .

وإذا انكمش الإنسان على نفسه انهيارت إنسانيته ، وسقطت شرعيّة وجوده ، لأن الوجود الجزئي لا يتحقّق إلا بالوجود الكُلّي، والإنسان لا يستطيع صناعة شرعية خاصّة به بعيدًا عن طبيعته النُفسية ، ومُحيطه العائلي، وبيئته الاجتماعية، والعالم الذي ينتمي إليه . والإنسان ليس كيانًا مُستقلًا قائمًا بذاته بشكل كامل، لأنّه ابن مُجتمعه، ونتاج مؤثرات دينية وسياسية وثقافية واقتصادية.

والإنسان لا يكون حُرًّا إلا إذا أوجدَ نَفْسَه بِنَفْسِه ، وبما أن هذا الأمر مُحال، ولا يُمكن تطبيقه على أرض الواقع ، فهذا يعني عدم وجود حُرِّيَّة مُطلَقة ، وعدم وجود حرية بلا مسؤولية ، ولا يستطيع الإنسان فِعْلَ ما يَحُلُو له ، لأنه خاضع لمنظومة الحقوق والواجبات . والحُرِّيَّة المُطلَقة هي فَوْضَى مُطلَقة ، وانتهيار شامل على جميع الأصعدة .

ولن يتحرَّر الإنسان من أوهامه ومُسلَّماته الافتراضية إلا إذا بحث عن الحق مُجرِّداً من الهوى والمصلحة، وتعلَّق بالأفكار ، ولم يُقدَّس الأشخاص، لأن الفكرة القائمة على الدليل، والناعبة من قواعد المنهج العلمي، هي فكرة صحيحة ومُعتمَدة، لكنَّ صاحبها ليس مُقدَّساً ولا معصوماً. والحقُّ ثابتٌ لا يسقط، لكنَّ صاحب الحق قد يسقط. وهذا هو الفرق بين المبادئ وأصحابها . والخلطُ بينهما هو الذي يُسبِّب البلبلة في المجتمع ، ويَزِرُ الشُّبُهَات في القلوب ، وينشُر الشُّكوك في النفوس . وعلى الإنسان أن يأخذ الحكمة من أيِّ وعاءٍ خَرَجَتْ ، فالأشخاص زائلون ، لكنَّ الحكمة باقية .

والعلاقة بين الضغط الحياتي والجوهر الاجتماعي مثل العلاقة بين المطرقة والحديد . فالمطرقة قادرة على تشكيل الحديد ما دامَ ساخناً ، ولكنه إذا صارَ بارداً فَمِن الصعب أن تُؤثِّر فيه المطرقة . والجوهر الاجتماعي يجب أن يكون صُلْباً وثابتاً وغير قابل للتَّغيير تحت تأثير الضغط الحياتي ، لأن الجوهر الصُّلب هو المبادئ والقيَم ، وهذه ثابتة إلى الأبد ، ولا تتغيَّر باختلاف الزمان والمكان وطبيعة الناس ، لكنَّ المُتغيِّر هو الأفكار والوسائل والآليات . أمَّا إذا كان الجوهر مائِناً وليَّناً ومُتغيِّراً بفعل الضغط الحياتي ، وقابلاً لإعادة التشكيل تحت تأثير قسوة النظام الاستهلاكي المادي، فعندئذ سينهار المجتمع، ويفقد هُويته المُميِّزة ، وكيانه الوجودي، وسلطته الاعتبارية، ويخسر صَوْتَه الخاص، ويصبح صدى للمجتمعات الأخرى ، ونُسخة مُقلَّدة منها، بعيداً عن الوجود الأصيل ، وأصالة الوجود . ولا يُوجد إنسان قوي بقلب مريض ، ولا توجد شجرة باسقة بجذر ضعيف .

✱

لغة المجتمع الرمزية

تُمثِّل البنى الاجتماعية فلسفة التحولات الإنسانية على الصعيدين الفردي والجماعي . وكلُّ تحوُّل في شعور الإنسان سينعكس على طبيعة العلاقات المادية التي تربط بين المعنى والوعي في المجتمع ، لأن الشعور سابق على المادة ، وصناعة الإنسان هي الخطوة الأولى في طريق صناعة المجتمع . وفي ظل هذه التشابكات المعرفية ، تظهر أهمية اللغة باعتبارها منظومة وجودية رمزية تجمع بين المعنى والوعي ، وتعيد صياغة الإدراك الحسي والتصور الذهني وماهية الروابط الاجتماعية. وإعادة الصياغة تعني تكوين تاريخ اجتماعي يُؤلَّد باستمرار، ولا يتوقَّف عن الحركة ، فالتوقُّف قتلٌ للمواهب الإبداعية ، والجُمود تحطيمٌ للأنظمة الفكرية في المجتمع . والحركة المستمرة هي الضمانة الأساسية لعدم سقوط الظواهر الثقافية والأنظمة الفكرية في الفراغ والعدم . وكلُّ حركة في المنظومة الاجتماعية ، سواء كانت أفقية (تتعلق بالهويَّات المكتسبة إرادياً) أم عمودية (تتعلق بالهويَّات المتوارثة لإرادياً) ، تعني توليداً متواصلًا للطاقة الرمزية في المجتمع واللغة معاً . والمجتمع هو لغة واقعية ، واللغة هي مجتمع حالم . واللغة وحدها هي القادرة على حمل الرموز المنبعثة من شعور الإنسان بذاته ومُحيطة ، وبناء التفسيرات الحقيقية والتأويلات المجازية للأنا والآخر ، وصناعة التجارب الروحية والمادية في جسد الإنسان وجسد المجتمع ، وتكوين الظواهر المعرفية المتجانسة ، ودمجها مع العناصر الفكرية المتمركزة في جوهر البناء الاجتماعي .

وأهمية الطاقة الرمزية في اللغة تتجلى في قدرتها على قراءة ما بين السطور . والإشكالية المركزية في الوجود الاجتماعي هي أنَّ الإنسان يقضي حياته لاهثاً وراء الأشياء الاستهلاكية ، وينسى أن يعيش . ومع مرور الوقت ، يصبح الإنسان شيئاً من الأشياء ، وتُصبح مشاعره تكريساً لضياح ذاته الوجودية ، وغياب صوته الاجتماعي الفاعل ، وانكسار هويته المُميزة بين الثوابت والمتغيَّرات .

والحياة الرمزية للإنسان ليست الفترة الزمنية الممتدة من ولادته إلى وفاته ، وإنما هي الفترة الوجدانية الممتدة من حُلْمه إلى جوهره . والطبيعة الإشراقية للمعنى الإنساني وجدوى وجوده ، ليست التفاصيل التي يحياها الإنسان في داخل المجتمع ، وإنما هي التفاصيل التي يحياها في داخل نفسه . وكلُّما تعمَّق الإنسان في فهم نفسه ، وإدراك أبعادها الداخلية ، استطاع إعادة

تركيب نظام المشاعر الكامن في أعماقه ، وتوظيفه من أجل فهم أسرار ذاته المتوارية وراء الأقنعة والاستعارات والتشبيهات والتأويلات، أي إنَّ الإنسان مُطالَب بإيجاد صَوته الخاص خارج سُلطة الصدى ، والعُثور على وَجْهه الحقيقي خارج نُفوذ مَرايا المجتمع المُتعاكسة .

وهذه العملية المُهمَّة تُتيح للإنسان فُرصة الانتقال من أسرار ذاته إلى أسرار العلاقات الاجتماعية ، وتحليل طبيعتها غير المَرئية ، والانتقال من جسد اللغة إلى تجسيدها على أرض الواقع ، وُجودًا ونظامًا وخطابًا ومفهوميًا ومنطوقًا وإلهامًا وإشراقًا ولَفْظًا وَمَعْنَى . لذلك ، تَخْرُج اللغة _ في كثير من الأحيان _ من حَيِّز الوسيلة (وسيلة الحِطَاب والتواصل) إلى فضاء الغاية ، وتُصبح اللغة غايَةً مُكتملةً ، وهدفًا قائمًا بذاته ، وسُلطةً مُكتفية بكيانها، وزمانًا عابرًا للتناقضات الاجتماعية ، ومكانًا حاضنًا للأحلام الإنسانية .

والمُجتمع المالك لِصَوته ، والمُتحرِّر من الصدى ، والحاضن لرموز اللغة ، قادرٌ على تحويل الوسيلة إلى غاية ، وتَقْمُص الأشكال المعرفية المُختلفة ، لأن الرمز كالماء يأخذ شكل الإناء الذي يُوضَع فيه . وكُلِّما سافر الإنسان إلى اللغة وَجَدَ نَفْسَه فيها ، وَوَجَدَ كِيَانَه في كينونة المُجتمع ، ممَّا يُشير إلى أنَّ اللغة هي هُويَّة الإنسان الوجودية ، وشرعيته الوجدانية ، وسلاحه الرمزي .

والجديرُ بالذكر أنَّ منطق اللغة الرمزي لا يتحدَّد وَفْقَ الكلام الذي يَقُوله الإنسان ، وإنما يتحدَّد وَفْقَ الكلام الذي يَخاف أن يَقُوله الإنسان. وهذا يَكشف المسؤولية الجسيمة المُلقاة على عاتق اللغة ، حيث إنَّها مُطالَبة بتفكيك العُقَد النَّفسية في الإنسان ، وتحريره من الخوف ، لأن الخائف عاجز عن الإبداع ، وفكَّ شيفرة التحولات الاجتماعية ، وربَّطها بالرموز الحاملة لتاريخ الإنسان وأفكاره وذكرياته وعواطفه وأحلامه وطُموحاته ، من أجل التفريق بين الخيال والحقيقة . وإذا نجحت اللغة في تحمُّل هذه المسؤولية ، وأدَّت وظيفتها على أكمل وجه ، فإنَّها سَتَحْمِي الإنسان من نَفْسِه ، وتمنع عملية هُروبه من الواقع إلى الخيال ، لأن الخيال موجود لتغيير الواقع ، وليس الهُروب منه . والإنسان الحقيقي يَسْتِيقِظ كَي يَحْلُم ، ولا يعتبر النَّوْمَ طَريقًا إلى الخُلْم .

*

الغربة والافتراق والزمان والمكان

١

شُعور الإنسان بالغربة عن ذاته ، والافتراق في بيئته ، يؤدي إلى صناعة علاقات اجتماعية هشة ، وتكوين روابط وهمية بين الذات والموضوع ، وتكريس التناقض بين الكيان الإنساني والبيئة الاجتماعية . وهذه الفوضى العارمة من شأنها تشتيت الجهود الإبداعية ، وإضاعة الوقت في معارك جانبية . وبما أن الإنسان في سباق مع الزمن ، وواقع تحت ضغط العناصر الحياتية والأدوات الوظيفية والنماذج التفسيرية ، فلا بُد له من إيجاد صيغة اجتماعية قائمة على الموازنة بين الأضداد، والتوفيق بين التناقضات ، وترسيخ نقطة مركزية في منتصف الطريق، لأن الأحداث الاجتماعية لا تسير وفق أهواء الإنسان ، ومكونات الحياة لا تتحدد حسب رغباته . وفي أحيان كثيرة ، يجد الإنسان نفسه في قلب الأزمات والكوارث ، وتُفرض عليه الصراعات من كل الجهات ، ويتعرض لمفاجآت خطيرة تهدد شرعية وجوده ومشروعية أحلامه، ويضطر إلى التعامل مع أشخاص يُغضهم ولا يُطيقهم، وعليه أن يحافظ على توازنه الروحي واتزانه المادي في هذه الدوامة المتكررة . والدكاء الاجتماعي يتجلى في قدرة الإنسان على التعامل مع الضغوطات دون تغيير مبادئه ، والتأقلم مع الظروف الجديدة دون تغيير جلده . وهذا الأمر في غاية الصعوبة، فلا صفة جاهزة له، ولا تعليمات مسبقة لتنفيذه، وكل إنسان عليه أن يقتلع شوكة بيديه ، ويخترع طوق النجاة ، ويكتشف وسائل الحماية ، ولا ينتظر أحداً لمساعدته ، فلا أحد سيأتي لمساعدة أحد ، لأن كل شخص مشغول بمصيره ، والحاجة أم الاختراع .

٢

غربة الإنسان الحقيقية غير محصورة في نطاق الزمان وحيز المكان ، ولكنها غربة الجسد عن الروح ، والتعارض بين العاطفة والعقل، والصراع بين القلب والذكريات، والصدام بين الأشواق الروحية والنزعات المادية. وهذا التشتت في داخل الكيان الإنساني يصنع زمناً للوهم ، ويؤسس مكاناً للسراب . وهكذا تصبح هوية الإنسان هابطة ، ويفقد إحساسه بالزمان والمكان ، لأنهما صارا في عالمه الشخصي خيالاً بلا حقيقة ، وعرضاً بلا جوهر . وغياب الزمان يعني أن الإنسان صار بلا امتداد تاريخي ، وغياب المكان يعني أن الإنسان صار بلا حاضنة جغرافية . وهذا الغياب المزدوج يصنع وعياً زائفاً ، وسلطة معرفية مكسورة ، ويكرس الانقسام بين الإحساس بالذات

وصناعة الذات ، أي إنَّ الوعي يَنفصل عن الإرادة ، وبالتالي يُصبح الإنسان عاجزًا عن تحويل الفراغ إلى منظومة فكرية بَنَاءً ، وخائفًا من تحويل العَدَم إلى نسق حضاري مُتكامِل . ولا يُمكن للإنسان أن يتفوّق على ذاته، ويُعيد بناء صُورتها في الظواهر الثقافية، إلا بالسيطرة على الفراغ والعدم ، والانتصار عليهما ، وتحويلهما إلى فكر وحضارة .

٣

الإشكالية في طبيعة التفاعلات الاجتماعية الرمزية هي عدم التفريق بين الإنسانية الحقيقية التي هي شرط لوجود الإنسان في مركز العلاقات الاجتماعية وأساس الظواهر الثقافية ، وبين الإنسانية المُصطنعة التي يتم توظيفها لتحقيق مصالح شخصية وتلميع الصُورة وتحسين السُّمعة . وإذا استمرَّ الإنسان في ارتداء الأقنعة ، فقد يخسر وَجْهه الحقيقي ، وينسى شخصيته الأصلية ، ولا يُقدِّر على استعادتهما ، وهذا يعني ضياع الإنسان في ضجيج المُدُن القاسي ، وعدم قُدْرته على المُقاومة بسبب خسارة صوته الخاص . وبالتالي ، لم يَعدْ يَمْلِك رسالة ورؤية في إفرازات الحياة وتفاصيل المجتمع . وإذا تَكَرَّسَ هذا الاغترابُ شعوريًا وواقعيًا ، قَضَى على العلاقات الاجتماعية . وإذا خَبَأَ الإنسان مِفْتَاحَ بَيْته في كومة مَفَاتِيح ، فقد يُضَيِّع مِفْتَاحَ بَيْته إلى الأبد ، ويُصبح كالذي يَبْحَث عن إبرة في كومة قَش . وكذلك إذا خَبَأَ شخصيته في شخصيات مُتعدّدة ، ودَفَنَ وَجْهه في أقنعة مُتنوّعة، فقد يُضَيِّع نَفْسَه إلى الأبد . ولا تُوجد دائمًا فُرصة ثانية للتَّعويض . ففي أحيان كثيرة، تُكوِّن الفُرصة الأولى هي الأخيرة . ولا يكفي أن يكون الإنسان ذكيًا من ناحية اجتماعية ، لأنَّ العبرة تتجلَّى في طريقة استخدام هذا الذكاء ، وتوظيفه لتحقيق المنفعة الفردية والمصلحة العامّة معًا ، والعاجز عن منفعة نَفْسِه ، لن يَستطيع تحقيق مصلحة غَيْرِه ، لأنَّ فاقِد الشَّيْء لا يُعْطِيه .

*

سيادة الإنسان على الأشياء والعناصر

١

المشاعر الإنسانية لا تنفصل عن الأسس الفكرية للعلاقات الاجتماعية ، لأن الإنسان والمجتمع كيانان مُندمجان ومُتكاملان ، وهذا يعني أنهما يتمتّعان بخصائص مُترابطة لا يُمكن الفصل بينهما . وهذا التفاعل بين الإنسان والمجتمع يُحدّد طبيعة السلوك الفردي والجماعي ، ويُثبّت استحالة التفريق بين المشاعر والأفكار ، لأن المشاعر أفكار وجدانية ، والأفكار مشاعر عقلانية ، والوجدان لا يُصبح ماهيةً واقعيةً وحقيقةً اجتماعية وظاهرةً ثقافية ، إلا بإخضاعه لقواعد التفسير العقلاني ومركزية البنى الرمزية في اللغة . والعقل لا يُصبح نظاماً وجودياً قادراً على منح الخلاص لعناصر المجتمع ، إلا بإخضاعه للمضمون الإنساني والمُحتوى الشعوري . وإذا انفصل الشعور الإنساني عن العقل الواعي ، فإنّ الإنسان سيُصبح آله ميكانيكيةً مُتوحّشة وعمياء . وكلُّ مبدأ عقلاني لا يقوم على قاعدة شعورية أخلاقية سيؤول إلى توحّش واستغلال ، وهذا يُؤدّي إلى القضاء على المُنجزات الحضارية ، وتدمير جوهر المجتمع ، وتحطيم شرعية وجوده ، وإلغاء تاريخه ، والتشكيك في حاضره ومُستقبله . وكلُّ شعور أخلاقي لا يقوم على منطق عقلاني ، سيؤول إلى تصوّر ذهني هلامي ومفهوم وهمي ، وهذا يُؤدّي إلى العجز عن تغيير الواقع ، وعدم القدرة على تطبيق النظريات الاجتماعية في المجتمع ، والتشكيك في جدوى العلم ، وعدم الاقتناع بأهميته في منظومة التغيّر والتغيير ، لأنّ العلم إذا ابتعد عن حياة الإنسان والمجتمع ، صار جبراً على ورق ، ونظريات في سطور الكتب المُهملة ، فإنّ الناس سيفقدون الثقة به .

٢

المشاعر والأفكار والعلاقات ، هي الأركان الثلاثة التي تقوم عليها بنية الفعل الاجتماعي . وبما أنه لا يوجد فعل بدون فاعل ، فلا بُد أن يضطلع الإنسان بمسؤولية الربط المنطقي بين هذه المُكوّنات ، وتوظيفها في المسار الفردي والمصير الجماعي ، من أجل نقل المعنى الذاتي إلى المعنى الموضوعي ، أي : نقل جوهر المجتمع وشخصيته وهويته إلى العالم الخارجي المُدرّك بالمشاعر الإنسانية ، والخاضع للتجارب الإبداعية ، والمُرتبط بالإرادة الفاعلة ، والمُقترن بالوعي المعنوي والسلوك المادي . وهذا يعني تحويل القيم الاجتماعية المُشتملة إلى نُظم ثقافية مركزية ، تستطيع تجميع الزمان والمكان في بؤرة إنسانية ، من أجل تحقيق مصلحة الإنسان ومنفعة

المجتمع. ولا يكفي أن يتحرك الإنسان في الزمان والمكان، لأن الحركة المُجرّدة أداء ميكانيكي، بل يجب عليه أن يشعر بالزمان والمكان ، ويكوّن وعيًا منطقيًا بهما . وإذا نجح الإنسان في تكوين منظومة زَمكانية (زمانية _ مكانية) خاضعة للشُعور والوَعْي معًا ، فإنه يستطيع صناعة قانون اجتماعي قادر على التحكّم بعملية التفاعل بين الذات والشَّيء ، وبذلك يحمي الإنسان نفسه من التَّحوّل إلى شيء استهلاكي مَحْصور في ثنائية العَرَض والطلَب . وينبغي على الإنسان أن يتذكّر دائمًا أنّه المُسيطر على الأشياء ، والقادر على إيجاد روابط وجودية منطقية بينها ، وتكوين ظواهر فكرية تجمع بين خصائصها ، وليس شيئًا من الأشياء ، أو هامشًا يبحث عن متن .

٣

سيادة الإنسان على الأشياء والعناصر ، لا تعني أن الإنسان حاكم مُستبد ، أو أنّه يملك سُلطة مُطلَقة لفعل ما يشاء ، وإنما تعني أنّ الإنسان هو المؤهل لوضع القوانين التي تحفظ الاتّزان بين الأشياء ، وتُحافظ على التوازن بين العناصر ، من أجل دَرءِ المَفساد وتحقيق المصالح . وهذا لا يتحقّق إلا بإنشاء سُلطة معرفية لتجذير المعاني الشعورية في الشّكل والمضمون والوظيفة . والشّكل هو الصورة الاجتماعية الخارجية . والمضمون هو المحتوى الفكري والأخلاقي الذي يكوّن البنية العميقة (الباطن المتوّاري خلف الإطار الظاهري) . والوظيفة هي الدّور المُخصّص للعنصر في جِسم المُجتمع باعتباره كائنًا حيًا ، مُتفاعلاً مع اللغة والبيئة والطبيعة ، ومُتفاعلاً بها . وإذا صارت السُلطة المعرفية الجامعة بين هذه المُكوّنات واقعًا ملموسًا ، فإنّ الإنسان سيَتّجه إلى المجتمع لإنقاذه وتطويره ، والمجتمع سيَتّجه إلى الإنسان لإشعاره بأهميته المركزية وقيّمته الوجودية .

*

السُّلطة المعرفية والعلاقات الاجتماعية

١

المُجتمع الحقيقي لا يُؤسَّس سُلطة معرفية من أجل تَغْيِيب العقول ، والتلاعبِ بالمشاعر ، واحتكارِ الوُعي ، وإنما يُؤسَّسها بهدف تحرير التفكير من التقليد الأعمى ، وصناعة طبيعة لغوية رمزية قادرة على حمل الأشواق الروحية والنزعات المادية . وكلُّ سُلطة معرفية فاعلة في ذاتها ، وفَعَّالة للعناصر المُحيطة بها ، لا بُد أن تتجذَّر في اللغة دلالةً منطقية ، ثم تترسَّخ في السلوك تجربةً عقلانية ، ثم تتكرَّس في الواقع مُمارَسةً اجتماعية . وهذه الأطوار الثلاثة تُعيد تعريف المجتمع اعتمادًا على التوازن بين الدور الوظيفي (التطبيق العملي) والغاية المنشودة (الحلم الجمعي) . وتُأصيلُ السُّلطة المعرفية في أعماق الواقع المُعاش ، يكشف الثغرات في النظام الشعوري للإنسان ، ويُحدِّد الفجوات في علاقة المعرفة بالزمان والمكان . وهذا يُوضِّح أهمية السُّلطة المعرفية باعتبارها ظاهرة ثقافية ونظامًا اجتماعيًا قادرًا على كشف العيوب بُغية تصحيحها . وكلُّ فكر إنساني يَمْتَلِك حركةً تصحيحية ذاتية نابعة من كيانه ، وَغير مفروضة عليه من العناصر الخارجية ، يُمثِّل فكرًا إبداعيًا مُتحرِّرًا من الأوهام والضغوطات والمُسلِّمات الافتراضية ، والمنظومة الفكرية الحُرَّة قادرة على تحرير العلاقات الاجتماعية بين البشر ، والعلاقات المادية بين عناصر البيئة ومكوّنات الطبيعة . وحرية الكيان (البنية القائمة بذاتها والموجودة في مجالها الحيوي) شرطٌ لتحرير الكينونة (الوجود المُشتمل على الشعور والتفكير والعمل) . ووَحْدَها الذات الحُرَّة قادرة على تحرير غيرها .

٢

العلاقة بين السُّلطة المعرفية والعلاقات الاجتماعية تُحدِّد طبيعة الظواهر الثقافية ، وتُكوِّن الدلالات اللغوية الخاصة بسياقات المجتمع ، وتبني أُسُسَ تأويل السلوك الإنساني ، ممَّا يدفع باتجاه تطوير الفكر المعرفي ، وربط البنية العميقة في الفعل الاجتماعي بالبنية السطحية ، وهذا يَمْنَع الصِّدام بين الذات والموضوع ، ويُلبغي احتماليةً ظُهور التناقض والتعارض بين الشعور وامتداده في حَيِّ الزمان والمكان ، ويَحْفَظ جوهر المعنى الوجودي من التَشَطِّي بسبب ضَغْط الأطراف على المركز . والإشكالية الخطيرة التي تُواجه مسار العلاقات بين الإنسان ومعاني الأشياء هي مُحاولَة سيطرة الهامش على المَتن ، وهذا يستلزم اختراع صِرَاع بين اللفظ اللغوي والمعنى

الاجتماعي ، ممّا يُفقد اللغة طاقتها الرمزية ، ويُحوّل العلاقات بين البشر إلى تراكمات فوضوية في مجتمع الشظايا . لذلك ، يجب إبعاد مفاهيم الصّراع والصّدام والفوضى عن الإنسان والمجتمع ، لأن هذه المفاهيم تمنع عملية البناء الاجتماعي على قاعدة إنسانية صلبة ، وكلّ بناء لا يتأسّس على قاعدة صلبة ، سينهار عاجلاً أم آجلاً .

٣

قُوّة التفاعل الاجتماعي تنبع من الأفكار المنضبطة بالوعي، التي تصنع من البنى الشعورية الإنسانية منظومة أخلاقية عصيّة على التمزّق والتشظّي . وصياغة مفاهيم أخلاقية متماسكة ضمن الإطار الاجتماعي العقلاني ، تمثّل الضمانة الأكيدة لمنع تحوّل السّلطة المعرفية إلى ماهيّة احتكارية ، تُجرّد الإنسان من إنسانيته ، من أجل السيطرة عليه ، والتحكّم بمساره ، والهيمنة على مصيره . ولأن يتقدّم المجتمع الإنساني إلا إذا تحوّلت المعرفة الاجتماعية إلى لغة رمزية تقتل الوحش داخل الإنسان بُغية إحياء النّزعة الاستهلاكية على أنقاضه .

*

المنظور العقلاني في الثقافة والمجتمع واللغة

١

المنظور العقلاني في الحياة الاجتماعية لا يعني تجريّد الإنسان من القيم الروحية ، وقتل مشاعره وأحاسيسه، وتفريغ ذاكرته من الذكريات ، وإحداث صراع بين الألفاظ والمعاني في لغة التخاطب اليومية ، وإنما يعني تأسيس الكينونة الإنسانية على قواعد المنهج العلمي ، من أجل إيجاد تفسير منطقي للسلوكيات الإنسانية والوقائع التاريخية ، والربط بينهما ضمن إطار معرفي يحفظ التوازن بين الظواهر الثقافية والأنشطة الاجتماعية ، وهذا يدل على أنَّ المسار الإنساني في فلسفة التاريخ ليس مقصوداً لذاته ، وإنما هو طريق يُوصل إلى الهدف النهائي والغاية المصيرية. والغاية من وجود الإنسان في التاريخ هو تكوين الثقافة وبناء المجتمع . وإذا استوعب الإنسان طبيعة موقعه في الأحداث التاريخية ، باعتباره فاعلاً لها ، ومُتفاعلاً بها ، ومُتفاعلاً معها ، فإنه سيُفهم دوره المركزي في بُنية المجتمع تاريخياً وثقافياً، ويقوم بأدائه على أكمل وجه ، بلا عُقد نفسية ، ولا شعور بالظلم، ولا غرق في متاهة الغالب والمغلوب ، ولا إدمان لعب دور الضحية ، ممّا يُؤدّي إلى المُصالحة بين الإنسان ونفسه (السلام الداخلي) ، والمُصالحة بين الإنسان ومُجتمعه (التوازن الخارجي) . وعندما تتكرّس الغاية الشريفة القائمة على الوسيلة النزيهة في المجتمع معنًى ومُبني ، فإنَّ الغاية ستُصبح فلسفة اجتماعية قائمة بذاتها ، أي إنَّ لكل سلوك إنساني في الإطار الاجتماعي هدفاً وغايةً ، وهذه الغاية هي سبب التقلّبات الإنسانية والتغيّرات الاجتماعية . وأركان فلسفة الغاية هي الوعي والرمز والمعرفة والضرورة الحتمية .

٢

الثقافة لا تُبنى إلا على الفكر المعرفي والرمز اللغوي. والمجتمع لا يُبنى إلا على المصلحة العامة والإبداع الفردي . وهذه المكونات الوجودية لا بُد من صهرها في منظومة عقلانية قائمة على المنطق والأخلاق، من أجل التعبير عن جماليات الحياة الواعية، وصناعة التجارب الإبداعية ، ونقلها من الحيز الفردي إلى الفضاء الجماعي . وبما أن التاريخ شرط لفهم الثقافة ، والثقافة شرط لفهم الإنسان ، فلا بُد للإنسان أن ينطلق من ذاته الداخلية، ويبدأ من أحلامه الشخصية ، كي يتمكن من تحليل التاريخ باعتباره جوهرًا اجتماعيًا لا يقبل الانقسام ، وتحليل الثقافة باعتبارها بُنية نفسية لا تقبل التشتّي . والقيام بهذه المهمة المُزدوجة يتطلب إيجاد نظام فلسفي للتعامل مع

الطبيعة الرمزية اللغوية ذات الارتباط الوثيق بالتفاعل الاجتماعي بين الأنا والأنا ، والأنا والآخر . وهذا يعني أن الإنسان يخوض معركة إثبات ذاته وتكريس كيانه وتحقيق وجوده ، في أعماقه السحيقة وفضاءات المجتمع الرحبة ، في آنٍ معاً . ومن أجل حفظ التوازن في هذه المعركة المعرفية على جبهتين ، ينبغي التعامل مع الطاقة الرمزية في اللغة باعتبارها أمّ المعارك المعرفية ، لأن الثقافة الإبداعية جزء من طبيعة اللغة وخصائصها ، وتكوين السلوك الإنساني يكون من خلال الاندماج باللغة والبيئة . واللغة لا تتعامل مع العلاقات الاجتماعية كظاهرة ذهنية هلامية ، وإنما تتعامل معها كتجربة معنوية ومادية ومُعاشة على أرض الواقع ، ذات تماس مباشر مع معنى الوجود الإنساني الذي يُفسّر الأفكار والأفعال .

٣

عناصرُ المسار الزمني المهيمن على طبيعة التجارب الواقعية ، وماهيّة الظواهر الثقافية ، هي : الشعور ، الفكرة ، القرار ، الفعل . وهذه التراتبية محكومة بطبيعة اللغة ، لأن اللغة قادرة على دمج الذات والشيء ، وخلط التاريخ بالجغرافيا ، وتوحيد الزمان والمكان . لذلك لا يمكن تفسير العلاقات الاجتماعية بدون اللغة . واللغة في إطار الفلسفة الاجتماعية ليست الحروف والكلمات فحسب ، بل أيضاً القيم الوجودية المحمولة على رمزية الحروف والكلمات ، وما لا نقوله الكلمات أشد خطورة ممّا نقوله ، وهذا يستلزم تحليل التجارب الواقعية ومغزاها الثقافي ، اعتماداً على صيرورة التحولات في منظومة الأفعال وزدود الأفعال . وهذه المنظومة تستمد شرعية وجودها ومشروعية نشاطها ، من الوعي الذي ينتقل من الطاقة الإنسانية في المجتمع إلى الطاقة الرمزية في اللغة .

*

الثقافة والتاريخ والبناء الاجتماعي

١

معنى الظواهر الثقافية في الأنساق الاجتماعية مرتبط بالجوانب الذهنية للفعل الفردي ، وتطوّر الفكر للجماعة الإنسانية. والظواهر الثقافية لا تُصبح منظومةً فكريةً مُكتملةً بنفسها وقائمةً بذاتها، إلا إذا تركزت فردياً وجماعياً ، وتجدّرت في بُنية العقل الواعي القادر على صياغة المفاهيم المعرفية ، وتنظيم الأنشطة الإبداعية ، وتكوين التجارب الحياتية ، وإنشاء التصوّرات المُستقبلية . وهذه المُركّبات الوجودية هي الضمانة الأكيدة لصناعة إطار مُجتمعي أساسي يشتمل على إدراك الأحداث التاريخية ظاهرياً وباطنيّاً ، واشتقاق قانون تفسيري لها في ضوء المبادئ السببية ، والحقائق المنطقية ، ومناهج التحليل الوظيفي .

٢

الظواهر الثقافية ليست تأملاتٍ لصنع التاريخ وفهم مغزاه الفكري فحسب ، بل أيضاً تكوينات عقلانية تُشيد معالم العلاقة بين السبب الثقافي والأثر التاريخي ، بحيث يكون التاريخ نتيجةً حتميةً للثقافة ، وتكون الثقافة قاعدة الانطلاق للتاريخ. وهذه التكاملية تعكس أهمية الحقائق المنطقية في الربط بين الثقافة والتاريخ، وتحليلهما ضمن مجالات البناء الاجتماعي ، الذي يُحدّد الطبيعة الذاتية للعناصر ، والوظيفة الوجودية لها . وهذا يُثبت أن الثقافة والتاريخ كيانات يُقومان على ثلاث ركائز : السببية والمنطقية والوظيفية . وهذه الركائز مُجتمعَةٌ تمنح الشرعية للبناء الاجتماعي المُتكوّن من الثقافة والتاريخ ، وتُعطي مشروعيةً البقاء في عالم مُتغيّر ، وهذا يعني امتداد البناء الاجتماعي في مشاعر الإنسان ، وتحولاته المعنوية والمادية في الزمان والمكان ، وامتداد تفاصيل الحياة المُعاشة في إفرازات العقل الجمعي وطبيعة اللغة الرمزية .

٣

السببية هي التوازن الوجداني بين الثقافة والتاريخ ، وتدلّ على العلاقات الضرورية بين الأفكار والأفعال ، والإرادة والتطبيق ، والإدراك الحسيّ والأنشطة الفكرية . وكلّ ظاهرة في المجتمع لها سبب وتأثير ، وخاضعة للظروف الكليّة والشروط الواقعية . وعندما تخضع الظروف والشروط للحكم العقلاني المُجرّد من الهوى الذاتي والمصلحة الشخصية ، تُولد الخبرة الحياتية القادرة على تكوين منظومة (السبب / النتيجة) في الماضي والحاضر والمستقبل ، وملاحظة المسار

الزمني المُشتمل على المشاعر الإنسانية والخصائص الاجتماعية والمضامين اللغوية . وإذا أدرك الإنسان حركة المفاهيم الرمزية داخل المجتمع وداخل اللغة ، فإنه سيُدرك أن الثقافة سابقة على التاريخ ، ووجود الصانع هو أساس وجود المصنوع . ومن المُستحيل صناعة تاريخ مُشرق بدون ثقافة . والحدث التاريخي والظاهرة الثقافية محكومان بشائية (السبب / النتيجة) ، وعندما يندمج السبب والنتيجة في الوجود التاريخي الثقافي ، يتم تحديد التسلسل المنطقي للظواهر في المجتمع ، والترتيب العقلائي للأولويات في الحياة ، وبالتالي يتضح أن كل ظاهرة مَخْفِيَّة عِلَّة (سبب) لظاهرة مكشوفة في الوجود المعنوي والحركة المادية، وأن الجذور تُحدّد طبيعة الأغصان، وليس العكس .

٤

المنطقية هي طريقة استنتاج المغزى من الثقافة والتاريخ ، وتُشير إلى مركزية القوانين المعرفية التي تُسيطر على الوسائل والغايات ، وحركة الأفعال وزدود الأفعال ، وتُفسّرهما كما حدثت على أرض الواقع (المجال الحيوي) ، وليس كما حدثت في الأذهان (الحياة المُتَخَيَّلَة) ، وهذا التفسير ضروري للتمييز بين التاريخ الحقيقي والتاريخ الخيالي، والتفريق بين الثقافة كحقيقة واقعية، والثقافة كتنصُّور مجازي ، ممَّا يُؤدِّي إلى بناء التجارب الإنسانية على منهج علمي دقيق ، لا مجال فيه للاحتمال والصُدفة وأنصاف الحلول . وكلّما اتَّضحت الحدود الفاصلة بين الحقيقة والمجاز ، زالت الأوهام التي تَرْتَدِي قِنَاع الثقافة ، واختفت المُسلّمات الافتراضية من رُوح التاريخ وجسده ، وهذا يدفع باتجاه توليد ثقافة جديدة ومُتجدّدة في التاريخ ، أي إنَّ الثقافة والتاريخ يدخلان في صيرورة الحياة بكل تفاصيلها البسيطة والمُعقّدة . وبعبارة أخرى، إنَّ الثقافة والتاريخ يُؤلّدان من جديد ، وتستمر ولادتهما تزامنيًا وتعاقبيًا ، ويعيشان في كيان الإنسان وكيان المجتمع معًا . وكلُّ حياة جديدة تتطلّب إيجاد تفسير اجتماعي جديد للعناصر الجُزئية والتراكيب الكلّية .

٥

الوظيفية هي منهج تحديد الغاية من الثقافة والتاريخ ، وتُعكس الارتباط الاجتماعي الواعي بين المسار والمصير، وتُحدّد طبيعة الطريق الحياتي والهدف المعرفي ، وتَحْمِي السُّلُوك الإنساني من الغرق في متاهة التناقضات الاجتماعية والأضداد الشعورية ، وتَحْفَظ الاستقرار في تفاصيل الجِسْم الاجتماعي ، وتُحافظ على استمرار العلاقة بين الإنسان والمجتمع ، ضمن إطار المنفعة المتبادلة والمصلحة المُشتركة ، وليس الاستغلال القَهْري والإقصاء المُبرَمَج . وإذا نجح الإنسان في إيجاد

علاقة مُتوازنة بين الثقافة والتاريخ على أساس التجاذب لا التنافر ، والتكامل لا التّضاد ، فإنّه سينجح في تشييد البناء الاجتماعي على مبدأ التواصل بين الإرادة الحرّة والوعي المتحرّر من السّلبيات . والجدير بالدّكر أن الثقافة والتاريخ لا يعيشان إلا ضمن بناء اجتماعي مُتماسك ، وبدونه ستصبح الثقافة كلامًا مُستهلكًا بلا دلالة ، ويؤول التاريخ إلى تراكمات فوضوية بلا معنى .

*

الوَعْيُ المعرفي والقوة الذاتية

١

حقائق الوجود الاجتماعي تُمثّل نظامًا إنسانيًا قادرًا على تأويل الأنساق الثقافية وتجميع الإفرازات المعرفية، وتركيزها في بؤرة الأفكار التي تتفاعل مع تفاصيل الحياة اليومية . وإذا انتقلت الظواهر النظرية ذات الطبيعة الفلسفية من التجريد إلى الواقع ، فإنّ معايير جديدة ستنشأ في المجتمع ، وتُعيد صياغته وفُق أساس عقلائي أخلاقي ، يُوازن بين الشعور المعنوي باعتباره ماهية وجودية للتماسك الاجتماعي ، وبين المصلحة المادية باعتبارها قُوَّة دافعة لأحلام الفرد وطاقات الجماعة . وعملية التوازن بين الشعور المعنوي والمصلحة المادية هي الضمانة لحفظ المجتمع كجِسْم حي وفَعَّال، يملك القُدرة على مُمارسة أنشطته الحيوية، وتحقيق الاستقرار الذاتي في المشاعر الإنسانية والأفعال الإبداعية والتطبيقات الواقعية ، بدُون الحاجة إلى إسناد خارجي ، أو البحث عن شرعية خارج حدود المجتمع ، لأن المجتمع الحَيّ والفَعَّال هو مانح الشرعية لِنَفْسِهِ ، وواضع القوانين لنظام حياته ، ولا يَنْتظر الشرعية من أحد ، ولا يأخذ القوانين من غيره. وهذه هي فلسفة الوجود الاجتماعي النابعة من طبيعة كيانها ، والعارفة بحدوده ، والمُدركة لأبعاده .

٢

الوجود الحقيقِيّ يقوم على رُكْنَيْن: الوَعْيُ المعرفي الذي يُكوّن ضوابط التغيّر الاجتماعي في ضوء التطورات الثقافية ، والقُوَّة الذاتية التي تُجسّد الشرعية والمشروعية، شرعية الحُلم الإنساني ومشروعية تطبيقه على أرض الواقع. والوَعْيُ والقُوَّة مُتلازمان ومُندمجان، يُوجدان معًا، ويُغييان معًا. وإذا حدث انفصال بينهما ، فهذا دليل على عَجْز المجتمع الإنساني عن توليد أنساق معرفية إبداعية ، وتحويل الكلام إلى فِعْل ، وتأسيس مبادئ منطقية تحكم السلوك الفردي ، وتتحكّم بقوانين الجماعة . لذلك ليس غريبًا أن يكون الوَعْي هو قُوَّة الفرد ، والقُوَّة هي وَعْي الجماعة ، وهذا الترابط المركزي هو أساس التلاحم الإنساني، والالتحام بين مُكوّنات النسيج الاجتماعي. ولا يُمكن تشييد البناء الاجتماعي على قاعدة الحرية والتحرر ، حرية التفكير والتحرر من الخوف، إلا بتجسيد الوَعْي في خصائص المجتمع الإنساني ، لحمايته من التفكك والصراع مع العناصر الداخلية والصدام مع العناصر الخارجية. وبما أن الاستقرار شرط للإبداع، والإبداع طريق النهضة ، كان لِزامًا إنتاج أنساق ثقافية وظواهر اجتماعية ، تُدرك قيمة الوَعْي وأهميته ، وتوفّر له حاضنة

شعبيةً ، كي يصير أسلوب حياة وثقافة مُجتمع . وعندما يحتضن الشعبُ فكرةً ما ، فإنه سيدافع عنها ، ويحميها من الاندثار ، ويمنحها شرعيةً الوجود في قلب التفاعلات الاجتماعية . وبذلك تُصبح للفكرة سلطة قائمة بذاتها ، وتأثير في المصالح الشخصية والمنافع العامة . وعندما تمتلك الفكرة سلطةً ذاتية ، تستغني عن سياسة الأمر الواقع ، وسلطة المعرفة المستمدة من الإسناد الخارجي. والفكرة الحقيقية هي التي تستطيع الصمود في الزمان والمكان وحيدةً، بدون عوامل خارجية ، ولا مُسلمات افتراضية ، ولا حماسة المدافعين عنها . وكلُّ ضوء لا ينبع من ذاته ، فمصيروه الانطفاء عاجلاً أم آجلاً ، ومن انتظر طَوْقَ النَّجاة من الآخرين فقد حَكَمَ على نفسه بالغرق ، ومن كانت شرعيته وجوده مُستمدة من وجود الآخرين ، فسيجد نفسه في نهاية المطاف وحيداً بلا وجود ولا شرعية .

٣

العلاقات الاجتماعية ليست كُتلاً وجودية صماء ، أو قوالب حجرية جاهزة مُسبقاً ، وإنما هي تيارات واعية ومنطقية، تُدرك طبيعة ذاتها ، وتندفق باستمرار في صيرورة التاريخ ، الذي ينتقل من الإدراك الشعوري إلى الفعل المادي . ووظيفته العلاقة في إطار التواصل الاجتماعي هي تأسيس منطقها الخاص ، وتشبيد طريقة التفاعل المُتَّزن والمُتوازن مع الإنسان والبيئة واللغة . وهذا يُسهِّل عملية تكوين نُظُم فكرية قادر على التكيُّف مع الظروف الصعبة التي تضغط على الحُلم الإنساني ، وتُهدِّد وجوده ، وتُشكِّك في شرعيته ومعناه وجدواه . وإذا استطاعت النُّظُم الفكرية استثمار منظومة الوعي والقُوَّة بكل تفاصيلها الزمنية وانعكاساتها المكانية ، من أجل صناعة حالة اجتماعية عامة وشاملة تُؤمن بأن الوعي هو قُوَّة الحُلم الإنساني ، والقُوَّة هي الوعي بالحُلم الإنساني ، فإن الأحلام ستدخل في دائرة الحقائق الاجتماعية ، والمشاعر ستدخل في حيز الأفعال التطبيقية .

*

العلاقات الاجتماعية والتحديات الوجودية

١

البحث عن المصادر الثقافية للعلاقات الاجتماعية ينبغي أن ينطلق من طبيعة الرموز في اللغة ، التي تحمل الألفاظ والمعاني والمشاعر . وعندما تنتقل حركة العناصر الفكرية الفاعلة في المجتمع من المشاعر إلى التصورات ، فإن تاريخ الفكر الإنساني سيزداد وضوحاً ، ويسهل تحليله ظاهرياً وباطنيًا . وإذا انكشف التاريخ الحاكم على الفكر الإنساني ، فإن الثقافة الحاكمة على العلاقات الاجتماعية ستتكشف . ولحظة الانكشاف هي الحد الفاصل بين المعنى الحقيقي والوعي المُزَيَّف . واللغة _ باعتبارها حاملة للرموز المعرفية ومحمولة على الظواهر الإنسانية _ تستطيع الوصول إلى أنوية المجتمع الداخلية ، وكشف العلاقات الهشة بين الأفراد حيالاً وواقعاً ، وتحديد التَشَوُّهات التي تُصيب العلاقات الاجتماعية معنوياً ومادياً .

٢

كُلُّ هَشاشة في العلاقات الفردية ستؤدي إلى فصل العلاقة عن المصلحة ، وهذا أمرٌ في غاية الخطورة ، لأن الأفراد يُطَوِّرون علاقاتهم لتحقيق مصالحهم ، ويُشَيِّدون البنى الاجتماعية لدفع الضرر عن أنفسهم ، وجلب المنافع لها . والطاقة المُحرَّكة للمجتمع هي المصالح المُشتركة والمنافع المُتبادلة . وإذا صارت العلاقات الاجتماعية خالية من الفائدة، وعارية عن المعنى، وفارغة من المضمون، فإن الإنسان سينكمش على ذاته، ويغرق في صوته الداخلي، ويصنع عالمه الخاص، ويتعد عن المشاركة في الخلاص الجماعي مُكتفياً بإنجازاته الشخصية ، ويعتبر نفسه نُقْطة مرجعية قائمة بذاتها ومحصورة في وجودها . وهذا يعني أن الإنسان ينسحب من الحياة كي يصنع حياته الذاتية ، ويرجع إلى تجاربه وخبراته كي يُفسِّر التاريخ ، ويرتد إلى أعماقه كي يجد معنى لهويته وكيونته . وبذلك يصبح الجزء هو الكل ، ويصبح الكل مجموعة من الشظايا المُبعثرة والعلاقات العبثية غير المُتنجسة ، وهذا الانهيار في المفاهيم يقود إلى انهيار المجتمع . وغياب التنجس والمصلحة عن العلاقات الاجتماعية يدفع الإنسان إلى العزلة ، ويدخل مُكوّنات المجتمع في دوامة من الصراعات الوهمية والصدامات المُتخيَّلة . وهكذا يصير الإنسان كياناً بلا معنى وجودي، ويصير المجتمع تكتلاً بلا شرعية إنسانية .

كُلُّ تَشَوُّهٍ فِي الْعِلَاقَاتِ الْجَمَاعِيَةِ سِيُؤَدِّي إِلَى فَصْلِ الْمَسَارِ عَنِ الْمَصِيرِ ، وَتَعْمِيقِ الْفَجْوَةِ بَيْنَ السَّبَبِ وَالنَتِيجَةِ ، وَهَذَا يَعْنِي خَسَارَةَ الْمَجْتَمَعِ لِهَوِيَّتِهِ الْمُتَفَرِّدَةِ ، وَعَجْزَهُ عَنِ تَفْسِيرِ كَيْنُونَةِ الْحَيَاةِ ، وَتَوْضِيحِ الْقِيَمَةِ الْمَرْكَزِيَّةِ لِلْوَعْيِ. وَتَفَكُّكُ الرَابِطَةِ الْمُنْطَقِيَّةِ بَيْنَ السَّبَبِ وَالنَتِيجَةِ يَسْتَلْزِمُ عَدَمَ الْقُدْرَةِ عَلَى تَفْسِيرِ الْفِعْلِ الْجَمَاعِيِّ، لِأَنَّ الْفِعْلَ الْجَمَاعِيَّ أَدَاةَ وَظِيفِيَّةَ لِتَحْقِيقِ غَايَةٍ مُعَيَّنَةٍ ، وَهَذِهِ الْغَايَةُ هِيَ أَسَاسُ التَّغْيِيرَاتِ الْجَمَاعِيَّةِ ، وَالْقُوَّةُ الدَّافِعَةُ لِلسُّلُوكِ الْإِنْسَانِيِّ . وَالْفِعْلُ الْجَمَاعِيُّ تَابِعٌ لْغَايَتِهِ، وَالتَّابِعُ لَا يَكُونُ مَتَبَوِّعًا . وَالْأَصْلُ فِي الْمَجْتَمَعِ أَنَّهُ وَحْدَةٌ لَا تَتَجَزَّأُ ، وَمَنْظُومَةٌ لَا تَتَشَطَّى ، تَتَمَتَّعُ بِالْحَيَوِيَّةِ وَالِاسْتِمْرَارِيَّةِ وَالْقُدْرَةِ عَلَى التَّاقْلَمِ مَعَ الْمُتَغَيِّرَاتِ ، وَالتَّكْيُفِ مَعَ التَّحْدِيَّاتِ . وَإِذَا حَدَثَ تَشَوُّهُ فِي الْعِلَاقَاتِ الْجَمَاعِيَّةِ ، دُونَ وُجُودِ آلِيَّاتٍ لِعِلَاجِهِ وَتَرْمِيمِهِ ، فَإِنَّ الْمَجْتَمَعِ لَنْ يَسْتَطِيعَ التَّفْرِيقَ بَيْنَ الْفَاعِلِيَّةِ (مَا يُوجَدُ الشَّيْءُ بِسَبَبِهِ) ، وَالْغَايَةِ (مَا يُوجَدُ الشَّيْءُ لِأَجْلِهِ) . أَيَّ إِنَّ الْمَجْتَمَعِ لَنْ يُفَرِّقَ بَيْنَ الْمَنْعِ (نقطة البداية) وَالْمَصَبِّ (نقطة النهاية). وبالتالي، سَوْفَ تُوَلَّدُ الْعِلَاقَاتُ الْجَمَاعِيَّةُ، وَتَتَحَرَّكُ فِي الْمَجْتَمَعِ بِشَكْلِ عَشْوَانِي ، وَلَا يُمَكِّنُ السَّيْطَرَةَ عَلَيْهَا ، وَلَا تَحْلِيلَ طَبِيعَتِهَا وَتَفَكِّكِ مُكَوِّنَاتِهَا .

كُلُّ غُنْصَرٍ جَمَاعِيٍّ خَارِجِ السَّيْطَرَةِ سَيَتَحَوَّلُ إِلَى وَحْشٍ . وَإِذَا أَرَدْنَا مَنَعَ الْعُنْصُرَ الْجَمَاعِيَّ مِنَ التَّحَوُّلِ إِلَى وَحْشٍ، فَيَجِبُ عِلَاجُ كُلِّ تَشَوُّهٍ فِي الْعِلَاقَاتِ الْجَمَاعِيَّةِ بِأَسْرَعِ وَقْتٍ مُمَكِّنٍ، وَعَدَمِ الْاسْتِهَانَةِ بِهِ مَهْمَا كَانَ صَغِيرًا وَضَمِيرًا ، وَهَذِهِ هِيَ الطَّرِيقَةُ الْوَحِيدَةُ لِمَعْرِفَةِ زَمَانٍ وَمَكَانٍ وَلَادَةِ الْعِلَاقَاتِ الْجَمَاعِيَّةِ، وَتَتَبَّعُ مَسَارَهَا ، وَمَعْرِفَةُ النُّقْطَةِ الَّتِي سَتَنْتَهِي إِلَيْهَا ، وَالْغَايَةُ الَّتِي سَتَصِلُ إِلَيْهَا. وَبِالتَّالِي ، يَسْهَلُ إِيجَادُ تَفْسِيرٍ عَقْلَانِيٍّ لِلْعِلَاقَاتِ الْجَمَاعِيَّةِ ، وَكَشْفُ جَوْهَرِهَا مِنْ أَجْلِ تَوْظِيفِهَا لِتَحْرِيرِ النَّاسِ مِنْ أَوْهَامِهِمْ ، وَلَيْسَ السَّيْطَرَةُ عَلَى أَحْلَامِهِمْ .

مركزية السؤال في حياة الإنسان

١

أهمية الثقافة لا تنبع من قدرتها على توليد أنساق فكرية في الإطار الاجتماعي فحسب ، بل أيضاً تنبع من قدرتها على فتح التاريخ الإنساني أمام الأسئلة ، مما يؤدي إلى كسر العزلة المفروضة على العقل ، وتحريره من ضغط المسلمات التي تكونت بفعل التراكمات الزمنية ، وليس التراكمات العلمية. والزمن سلطة نسبية عرضية ، والمعرفة المستمدة من مرور الزمن تعتمد على الآليات المتوارثة الضاغطة ، في حين أن العلم سلطة مطلقة جوهرية ، والمعرفة المستمدة من قيمة العلم تعتمد على المناهج الإبداعية الفاحصة . والتمييز بين هاتين السلطتين ضروري من أجل تكوين نظام اجتماعي يمتاز بالفاعلية والدافعية ، ويعتمد على ماهية المعرفة التي تم إثباتها وترسيخها وفق قواعد المنهج العلمي ، وليس سياسة الأمر الواقع . والمجتمع لا يستطيع إنشاء سلطة معرفية قابلة للحياة ، وقادرة على الانتشار في إفرازات البيئة وتأثيرات اللغة ، إلا إذا فرق بين المنهج والآلية ، فالمنهج فلسفة القواعد المنطقية الموصلة إلى حقيقة الأشياء وطبيعة العلاقات، والآلية أداة فحص الأشياء ووسيلة الكشف عن العلاقات. والعلاقة بين الفلسفة (الثابت) والأداة (المتغير) هي التي تحدد الرابطة بين المركز والأطراف في العلاقات الاجتماعية التي تنعكس على اللغة ، التي تنعكس على الوعي ، الذي ينعكس على المعنى . وهذه الانعكاسات المتوالية تمثل سلسلة معرفية تقوي هيمنة الإنسان على العناصر الوجودية التي يعيش بها ، وتُعزز سيادته على القيم العقلانية التي يعيش فيها ، وتدعم سلطته على المدركات الحسية التي يعيش معها .

٢

الحياة الإنسانية مجموعة من التجارب الاجتماعية المتشعبة والمبعثرة بفعل كثرة الأسئلة ، وقلة الوقت وعدم كفايته لإيجاد أجوبة حاسمة عن جميع الأسئلة . وبما أن عمر الإنسان محدود ، والأسئلة غير محدودة ، فلا بد له أن يستغل عامل الوقت ، ويدرك أنه في سياق مع الزمن ، من أجل تكوين منظومة (المنهج / الآلية) التي تناسب حياته الشخصية ، وتتلاءم مع قدراته الذاتية التي تقوم على الموازنة بين نقاط قوته ونقاط ضعفه . والحياة الإنسانية شديدة التعقيد، ولا تتحرك وفق مسار خطي بسيط، ومع هذا يمكن إرجاعها إلى نواتها الأولية، كما يمكن إرجاع الغابة إلى

البذرة ، وإرجاع الطُّرُق الفرعية إلى الطريق الرئيسي . وطريق الإنسان في حياته يتكوّن من نقاط مرجعية ومعالم ثابتة ، لا تتغيّر باختلاف الزمان والمكان، وهي : السؤال واللغة والوعي والمعنى .

٣

الغاية من تحديد معالم الطريق الرئيسي في حياة الإنسان هي حصر الدراسة والتحليل في بؤرة مركزية واحدة ، وعدم إضاعة الوقت في العوامل الجانبية والروافد المتفرعة ، وحماية الوجود الإنساني من استنزاف القوى وإضاعة الجهود في معارك فكرية هامشية. وإذا سيطر الإنسان على الفلسفة سيطر على الأدوات ضمناً، وإذا تحكّم بالمناهج تحكّم بالآليات تلقائياً . ونقطة البداية هي السؤال ، لأنه مصدر المعرفة . وأصل السؤال نشاط ذهني قائم على التأملات، يحتاج إلى وسيط للتعبير عن نفسه، والخروج إلى حيّز الوجود . واللغة وحدها هي القدرة على التعبير عن السؤال وكشف محتويات الذهن . ويتبع التفريق _ في بنية العلاقات الاجتماعية _ بين اللغة وإفرازاتها . فاللغة ذات اعتبارية ، وسلطة مطلقة، وكيونة وجودية قائمة بذاتها . واللغة تسجيل للواقع، وانقلاب على الواقع ، وصناعة لواقع جديد . وهذا يعني أنّ اللغة تشمل على عناصر التغيير الاجتماعي ، لذلك كلّ نشاط لغوي هو بالضرورة حرّك اجتماعي . أمّا إفرازات اللغة فهي أدوات الاتصال بين الناس ، ووسائل التخاطب والتفاهم بينهم . واللغة هي منبع الوعي ، وهي الوجود الحرّ والحَي الذي يستطيع التمييز بين الوعي الحقيقي والوعي المُزَيّف. وإذا امتلك الإنسان الوعي وصل إلى المعنى. وقوّة المعنى تتجلّى في اكتشاف حقيقة الحياة الإنسانية، وتحديد العناصر الفكرية المكوّنة لها ، وتوضيح العلاقات التي تربطها بذاتها ومُحيطها. والجدير بالذكر أنّ الحقيقة لا تُصنّع ، وإنّما تُكتشف ، لأنّ وجودها سابق على وجود الإنسان .

*

جسد المجتمع وروح الإنسان

١

قواعد المنهج الاجتماعي ليست آليات ميكانيكية محصورة في الأطر النظرية ، وبعيدة عن الواقع المُعاش، وإنما هي تيارات معرفية واعية ، تشتمل على منطق التاريخ ، وفلسفة التغيير ، وضرورة التطبيق . وهذا يدفع باتجاه تحقيق التوازن الداخلي في العلاقات الاجتماعية ، وتحقيق الاتزان بين الأفكار الذهنية وعناصر البيئة ، ووصولاً إلى حالة الثبات في جسد المجتمع . والثبات لا يعني جمود الأفكار ، وتَحَجُّر المنظومة العقلية ، بل يعني الوقوف على أرض صلبة من أجل الانطلاق إلى الأمام . وإذا كان المجتمع هو الكيان الحاضن لأحلام الإنسان العابرة للزمان والمكان ، فإن الثبات هو كينونة التحوّل الدائم ، وضرورة التغيير الاجتماعي ، حيث يتمّ الانتقال من الوعي المُجرّد إلى الوعي بالتغيير ، الذي يقوم _ بالأساس _ على الوعي بالتاريخ ، لأنّ التاريخ شرط المعرفة ، ولا يمكن تغيير عناصر المكان إلا بمعرفة عناصر الزمان .

٢

عملية توليد المعرفة في العلاقات الاجتماعية لا تنفصل عن التجارب الروحية للأفراد ، وخبراتهم المادية . واستحالة الفصل بين التجربة والخبرة تُؤدّي إلى تحرير الوعي الإنساني من سلطة التفاعلات الرمزية في المجتمع واللغة ، وتكوين نظام ثقافي إبداعي لا يمكن حصره في القوالب الجاهزة والأنماط المُعدّة سلفاً ، لأن القولية والتنميط من أشكال الهيمنة الاجتماعية ، وإفرازات السلطة الثقافية . ومن أجل إيجاد نسق مركزي في تحولات الحياة الإنسانية اجتماعياً وثقافياً ، ينبغي التحرُّر من العناصر الضاغطة على قيم الإبداع ، والانعقاد من المُكوّنات التي تُحاصر الإنسان شعورياً ولغوياً وبيئياً . وهذا الأمر من شأنه إعادة تعريف الأفكار ضمن سياق الحقائق المعرفية والحالات الشعورية ، وإعادة تكوين البنية الوظيفية للإنسان ، باعتباره العنصر الأساسي في الطبيعة ، الذي يمتلك سيادة على عناصرها . والهدف من امتلاك الإنسان للسيادة على العناصر هو تفسير الظواهر الفكرية ، وتحليل البنى الاجتماعية ، وتحديد الاتجاهات المستقبلية . وبذلك تتكوّن حلقة الوصل بين المعنى الوجودي والرمز اللغوي ، وتُتضح العلاقة المصيرية بين الدال (جسد المجتمع) والمدلول (روح الإنسان) ، واللغة هي المنظومة المسيطرة على الدال والمدلول ، والجهة التي تمنح الجسد كيانه وكونيته ، وتُعطي الروح شرعيتها

وامتدادها . وجسد المجتمع هو الشكل العام ، والمظهر الخارجي . والشكل يدلُّ على المعنى ، والمظهر يدلُّ على الجوهر . والإنسان هو معنى الحياة ، وروح الإنسان هي جوهر الوجود . وهذا يُثبت أن فلسفة المنهج الاجتماعي تُمثِّل رحلة اللغة من جسد المجتمع إلى روح الإنسان .

٣

لا يمكن تفسير العالم خارج إطار الأفكار، والإنسان لا يملك وجودًا حقيقيًا خارج اللغة . وفي ضوء هاتين القاعدتين، ينبغي تفسير مصادر السلوك الإنساني، والتمييز بين الفعل ورد الفعل، من أجل صناعة تيارات فكرية متكاملة وقادرة على التكيّف مع التحديات المفروضة على هويّة المجتمع ، وتستطيع الحفاظ على تماسك هذه الهويّة، في ظل الصّراع بين الإنسان وذاته بسبب ضَغَط الأنظمة الاستهلاكية ، والصّدّام بين اللفظ والمعنى بسبب ضغط الرموز المُستترة في اللغة . والهويّة المُتماسكة في عالم مُمزّق تُصبح عالمًا جديدًا ومُجتمعًا كاملاً .

*

التجانس الاجتماعي والتكامل الإنساني

١

يُمثّل التجانسُ في العلاقات الاجتماعية نظامًا ثقافيًا مركزيًا، وقيمةً أخلاقيةً مُرتبطة بطبيعة السلوك الإنساني. والتجانسُ لا يعني التطابق التام ، أو التقليد الأعمى ، أو اعتماد سياسة القطيع. وإنما يعني التوافق في المبادئ الأساسية ، والاتفاق على الأفكار العامة ، والوصول إلى نقطة مشتركة في مُتصف الطريق ، واعتماد الخُلول الوسط ، التي تضمن تحقيق مصالح الجميع بلا إقصاء ولا تمييز . لذلك كان التجانسُ بناءً عقائديًا قبل أن يكون بناءً اجتماعيًا ، ومنظومةً فكريةً تُساهم في صناعة العقل الجمعي من أجل تحقيق التكامل لا التماثل .

٢

الإشكاليةُ في فلسفة البناء الاجتماعي هي أن البعض يعتقد ضرورة تحويل الناس إلى نُسخ مُتشابهة لتحقيق التوافق ، ويؤمن بحتمية صهر جميع الهُويّات والثقافات في بوتقة واحدة لتحقيق التجانس ، ويتمسكُ بأهمية إزالة الاختلافات في الآراء ووجهات النظر لتحقيق الوحدة . وهذه الأفكارُ تُمثّل خطرًا حقيقيًا على طبيعة النسيج الاجتماعي ، لأنَّ كُلَّ إنسان يمتلك بصمته الحياتية الخاصة ، ويُمثّل نظامًا وجوديًا قائمًا بذاته ، ويشكّل منظومةً فكريةً مُستقلة ، ويُجسّد هُويّةً عقليةً مُختلفة . وكُلُّ إنسانٍ نُسخةٌ أصلية ، ولا يُمكن تحويله إلى نُسخة مُقلّدة ، والأصل لا يكون فرعًا . وهنا تكمنُ قُوّة الإنسان باعتباره الجنس المُفكر الأرقى والنوع الحياتي الأسمى . ومن هذه القُوّة يستمد الإنسانُ شرعيةً وجوده في عالم التحولات الاجتماعية ، وفضاء التغيرات الثقافية . والقُوّة المُنضبطة بالأحكام العقلانية هي مصدرُ الشرعية الأخلاقية ، والشرعية الأخلاقية هي ماهيّة الوجود الإنساني الحقيقي . وكُلُّ إنسان يمتلك هُويته الشخصية وثقافته الخاصة ، ويكوّن آراءه وأفكاره وفق قناعاته ومصلحته . ولا أحد يترك مصلحته لتحقيق مصالح الآخرين ، ولا أحد يتخلّى عن وجهه لارتداء أفتة الآخرين . والتاريخُ يتّسع لجميع الناس بكُل اختلافاتهم ، ولكن المُهم أن لا يتحوّل الاختلاف إلى خلاف. وهذا يستلزم إيجاد منظومة إنسانية يحدّث فيها التفاعل الاجتماعي، الذي يُحوّل الاختلافات بين الناس إلى مصدر قُوّة روحية ونهضة عقلية وثراء فكري ، لأن الاختلافات هي تعدّد للقيم والثقافات والعادات والتقاليد وزوايا الرؤية ، ممّا يؤدي إلى الوصول إلى حقيقة المعاني وجوهر الأشياء . ولا يُمكن الوصول إلى مغزى الحياة إلا من خلال رؤيتها من

كُلُّ الزوايا والاتجاهات. وكُلُّ رؤية أحادية نُقْطة ضعف ، وكُلُّ ثقافة قائمة على الإقصاء والتهميش هي كتلة من الشظايا الوهمية ، وكُلُّ وجهة نظر تُمثِّل رأياً شخصياً نسبياً ، ولا يُمكن اعتباره حقيقة مُطلَقة. والأشخاص الذين يَزْعُمون امتلاك سُلطة الحقيقة المُطلَقة مُصابون بخوف عميق، ويُعانون من انهيار داخلي ، ولا يَتَقَنُّون بذواتهم وثقافتهم، لذلك يُحاولون الهروب إلى الأمام لحماية أنفسهم وتحريرها من الخوف والانهيار ، ولا يُدركون أنَّ حماية النَّفس إنما تكون بفحص الآراء وتدقيق الأفكار ، وليس بإضفاء العصمة والقداسة عليها. ولا يعرفون أن التحرر من الخوف إنما يكون باقتحامه ، وإزالة آثار الانهيار إنما تكون بإعادة البناء على أساس صُلب . والهروب مِن النَّفس البشرية يعني موت الإنسان ونهاية التاريخ .

٣

التكاملُ الإنساني (المعنوي والمادي) الذي يقوم على مبدأ التجانس في العلاقات الاجتماعية ، يستطيع كشف الصراعات الشخصية التي يُعاني منها الأفراد حين يُحاولون الانتماء إلى أفكار مُتنافرة وبيئات مُضطربة ، كما يستطيع التمييز بين سُقوط المُجتمعات في التاريخ ، وسُقوط المُجتمعات من التاريخ . وإذا أدرك الإنسان طبيعة دَوْر التاريخ في بناء الوقائع النَّفسية ، وتشكيل السلوك الاجتماعي ، وتكوين الظواهر الثقافية ، فإنه يستطيع توظيف التاريخ لتحليل التراكيب الداخلية في المجتمعات ، وإزالة الصراعات الشخصية ، وتخفيف ضغط العناصر الفكرية على المسار الاجتماعي فردياً وجماعياً ، الأمر الذي يَقُود إلى تحرير الفرد والمجتمع من العزلة الوجدانية ، والانكماش الأخلاقي ، والانكسار الحضاري . وهذا يعني حماية التاريخ من الانقسامات الاجتماعية ، وحماية المجتمع من ظواهر التغير التاريخي الذي لا يمكن إيقافه .

*

الكينونة اللغوية والكيان الإنساني

١

البحث عن منظومة لغوية رمزية تستطيع تفسير تاريخ الفعل الاجتماعي ، وعلاقاته المتشابكة في البيئة المعاشة ، وانعكاساته الثقافية على شخصية الإنسان وبنية المجتمع ، يتطلب استنباط تراكيب فلسفية من الواقع المادي ، ويستلزم إيجاد رموز معرفية على تماس مباشر مع الحياة العملية . والواقع المادي هو منبع فلسفة الأفكار ، والحياة العملية هي مصدر التفسيرات للظواهر الاجتماعية الحاكمة على السلوك الإنساني ، الذي يمثل منظومة عقلانية تشتمل على الموضوع (الإنسان) والحامل (الواقع) والمحمول (الذهن) . ومهما كان العقل الجمعي متميزاً ومُتَفَرِّداً، سيظل أداةً وظيفيةً للنهوض بالواقع ، لأن العقل الجمعي ليس برّ الأمان ، وإنما هو وسيلة للوصول إلى برّ الأمان . وهذا يعني أن العقل والواقع كيانان مستقلان تربطهما مصلحة متبادلة ومصير مشترك، والعلاقة بينهما يتم تحديدها وفق طبيعة التفاعل بين الإنسان واللغة من جهة ، والإنسان والمجتمع من جهة أخرى . وهذا التفاعل المُزْدَوَجُ يمثل الخطوة الأولى لتحويل الإنسان إلى كينونة لغوية ، وتحويل المجتمع إلى كيان إنساني .

٢

مسار الظواهر الاجتماعية _ مهما بدا مُتَشَعِّباً ومُتَفَرِّعاً _ لا يمكن أن يخرج عن منظومة (الكينونة اللغوية/ الكيان الإنساني) . واللغة تمنح المجتمع الشرعية الزمانية ، والإنسان يمنح المجتمع المشروعية المكانية ، وهذا يعني أن المجتمع لغة رمزية تجسدت في الكيان الإنساني روحاً وشكلاً . وهذا التجسّد يَفُودُ إلى تجسيد القيم الأخلاقية والمعايير الحضارية في وجود المجتمع ووظيفة الإنسان ، ممّا يُعطي للتحليل العقلاني مساحةً واسعةً لتكريس المشاعر وربطها بالظروف البيئية، وتفعيل المبادئ ودمجها مع المصلحة العامة والمنفعة الفردية. وبدون التحليل العقلاني ستنهار الأطر الاجتماعية الحاضنة للتفاعل الإنساني، أي إنّ المشاعر ستسقط في الفراغ، وتنهار المبادئ في العدم ، وسيجد الإنسان نفسه خارج دائرة الفعل الاجتماعي ، ويدور المجتمع في حلقة مُفَرَّغة ، بحثاً عن كبش فداء وبشر يُتَقَنون لعب أدوار الضحايا . وإذا شعر الإنسان بأنّه ضحية ، فهذا يدلّ على أنّه يعيش في مجتمع يحتكم إلى سياسة الأمر الواقع ، ولا يحتكم إلى سياسة العقل القائمة على تحرّر الذات وتحرير الموضوع. ولا يمكن أن يحصل الإنسان على

شرعية وجوده في عالم المشاعر والمبادئ ، إلا إذا امتلك الوَعْيُ بالتحويلات الاجتماعية في داخله وخارجه ، واستطاع تكوين تفسيرات منطقية للعناصر الوجودية القابلة للمعرفة . وكلُّ معرفة خاضعة للأحكام العقلية تُمثل تجربة اجتماعيةً بشكل أو بآخر ، لأن المعرفة لا تتحرّك في الفراغ، ولا تُحمَل على الوهم ، وإنما تُحمَل على السلوك الإنساني الواعي ، الذي يتحرّك في المجتمع أفقياً (تغيير الموقع) وعمودياً (تغيير الموقف). وتتبدّل المواقفُ بتبدّل المواقِع، وهذا يُشير إلى أنَّ الوظيفة الاجتماعية للإنسان في السِّياق الزمني والحَيِّز المكاني ، هي التي تُحدّد مشاعره وأحكامه ومواقفه ، وتُكوّن علاقةً منطقيةً ديناميكية بين المشاعر والمصالح .

٣

كلُّ وسيلة معرفية هي أداة وظيفية اجتماعية ، يتم استخدامها للبحث عن معنى للأشياء ، وإيجاد جَوهَر للعناصر ، وتكوين ماهية للأفكار ، وتوفير غطاء شرعي لسلطة الطبيعة الإنسانية على العلاقات الاجتماعية ، لذلك كان المجتمعُ تاريخاً يُولد باستمرار في الأشياء والعناصر والأفكار والعلاقات، وهذه هي الجُغرافيا المعنوية المُرتبطة بالتفاعلات الاجتماعية الرمزية ، التي تخضع لمركزية اللغة في نظام التوافق الشعوري ، ومنظومة التَّكْيُف الحياتي . والشعورُ مُرتبط بالنظام (مجموعة العناصر الذهنية والمُكوّنات الوجودية التي يفصل بينها علاقات نَفْسِيَّة ودوافع شخصية). والحياةُ مُرتبطة بالمنظومة (بُنية ذاتية مُتكاملة ومُترابطة وقائمة على تفسير العمليات العقلية وتوليد الأحداث الواقعية) . وهذا يعني أن الشعور بيئة مُغلّقة غير مَفْتُوحَة ، لأنه خاضع للحالة المزاجية وردّة الفعل والمُؤثّرات الخارجية ، في حين أن الحياة بيئة مَفْتُوحَة غير مُغلّقة ، لأنها مُتعلّقة بكثرة الأسئلة الوجودية ، وتعدّد التجارب الإنسانية ، وتنوّع العمليات الاجتماعية . ويمكن القول إنَّ الشعور حياةً مُغلّقة ، والحياة شعور مَفْتُوح .

*

معالم طريق الإنسان في الحياة

١

تحويل الأفكار الثقافية إلى ظواهر اجتماعية يتطلب إزالة الحدود بين الشعور والوعي ، وفتحهما على تاريخ الوجود الإنساني بكل تفاصيله . والغاية من هذه العملية تكوين أساس منطقي للمجتمع ، باعتباره نظاماً للمعاني الرمزية في سلوكيات الفرد واتجاهات الجماعة ، ومنظومة للتجارب الوجدانية والتغيرات المادية . ولا يمكن للمجتمع أن يجد هويته الشخصية ومعناه الوجودي وماهيته التاريخية إلا إذا انفتح على نفسه ، وفكَّ العزلة عن أنساقه الداخلية ، وكسَّر الحواجز بين دلالات الوعي وتطبيقاته . والإشكالية المركزية في بُنية العلاقات الاجتماعية ليست شعور الفرد بالغرابة ، وإنما اغتراب المجتمع عن ذاته ، بسبب غرقه في متاهة النظام الاستهلاكي المغلق ، وهذا يُشعر الفرد بأنه مُنفصل عن الفاعلية الشعورية والتفاعل الاجتماعي ، وأنه يَدور في حلقة مُفرغة ، وعاجز عن إيجاد مكان له في سياق عملية الاتصال بين أجزاء المجتمع . وإذا وَجَد الفرد نفسه خارج عملية الاتصال الاجتماعي ، فقد القُدرة على التواصل مع العناصر الثقافية والمُكوّنات اللغوية . وهكذا تتكرّس القطيعة المعرفية بين التَصوُّرات الذهنية المُجرّدة والتطبيقات الاجتماعية المحسوسة .

٢

القطيعة المعرفية ليست حركةً ميكانيكيةً في الزمان والمكان ، وإنما هي عَجْزُ الفرد عن إسقاط المعنى الإنساني على طبيعة العلاقات الاجتماعية ، وعَجْزُ المجتمع عن تأويل الفعل الاجتماعي بما يضمن تحقيق مصلحة الجزء والكُل . والغاية من الفعل الاجتماعي هي حماية الفرد من نفسه ، وحماية الإبداع الفردي من ضغط العقل الجمعي . وهذه الحماية المُزدوجة من شأنها إنتاج خطاب عقلائي يحفظ التوازن بين الشعور والوعي ، ويؤلّد علاقات اجتماعية جوهرية تملك القُدرة على التفسير والتغيير ، ويصنع عوالم معرفية تُحوّل المفاهيم الفكرية إلى طاقة رمزية، وهذا يضمن تطوُّر العلاقات الاجتماعية في السياق المعرفي شكلاً وموضوعاً، وبالتالي ، يكتسب تاريخ الوجود الإنساني شرعيةً فكريةً ، ودلالةً منطقيةً ، وفلسفةً منهجيةً . وهذه الأسلحة المعنوية تُفود إلى الوعي بالذات لإعادة صناعة الذات .

إذا تَكَرَّسَ الشعورُ كُتُبِيَّةً لغويةً رمزيةً ، وتَجَذَّرَ الوَعْيُ كصياغةٍ معرفيةٍ تعبيريةٍ ، فإنَّ كُلَّ فكرةٍ ثقافيةٍ سَتَتَوَلَّى إلى ظاهرةٍ اجتماعيةٍ ، لأنَّ الشعورَ والوَعْيَ يُكوِّنَانِ خصائصَ المنهجِ الاجتماعيِّ ، المحكومَ بالآليَّاتِ الفكريةِ ، والحاكِمَ على الأدواتِ الوظيفيةِ ، وهذا المنهجُ قادرٌ على تأسيسِ العناصرِ الثقافيةِ على قاعدةِ الدَّلالةِ المنطقيةِ، وتوليدِ التراكيبِ الاجتماعيةِ من أجلِ تغييرِ الواقعِ . وهذه القدرةُ الذاتيةُ للمنهجِ تعملُ على تحويلِ الفكرةِ الثقافيةِ إلى ظاهرةٍ اجتماعيةٍ تدريجيًّا . وبشكلٍ عامٍ ، لا يُمكنُ تحويلُ الفكرةِ إلى ظاهرةٍ إلا في ظلِّ وجودِ منهجٍ عقلائيٍّ يُؤلِّدُ الأنساقَ التاريخيةَ لتوظيفها في المجتمعِ من أجلِ نقله من الآليَّةِ الميكانيكيةِ إلى الشعورِ الإنسانيِّ، ومن الغيبوبةِ إلى الوَعْيِ ، ومن التلقائيةِ إلى القَصْدِيَّةِ ، ومن الحاضرِ إلى المُستقبلِ .

رحلةُ البحثِ عن معنى لكيانِ الإنسانِ وجوهرِ الوجودِ ، لها محطاتُ فلسفيةٌ لا يُمكنُ الالتفافُ حولها أو القفزُ فوقها ، وهي : الشعورُ ، والوَعْيُ ، والمنهجُ ، والفكرةُ الثقافيةُ ، والظاهرةُ الاجتماعيةُ . ومحطاتُ رحلةِ البحثِ عن معنى هي معالمُ طريقِ الإنسانِ نحو ذاته وذاتِ المجتمعِ . وتحركُ الإنسانِ في المجتمعِ هو _ في حقيقةِ الأمرِ _ تحركُ الإنسانِ باتجاه ذاته لاكتشافها من جديدٍ ، وإعادةِ تركيبها على قواعدِ المنهجِ العِلْمِيِّ المُستمدَّةِ من ذاتِ المجتمعِ القائمةِ على الوَعْيِ الروحيِّ والوَعْيِ الماديِّ . وحركةُ الإنسانِ في داخلِ المجتمعِ هي مسارٌ وجوديٌّ في داخلِ الإنسانِ ، لأنَّ الإنسانَ لا يستطيعُ التحركَ في طبيعةِ العلاقاتِ الاجتماعيةِ بِمَعزَلٍ عن شعورهِ الشخصيِّ ووَعْيِهِ الذاتيِّ . والمنهجُ هو البناءُ العقلائيُّ الذي يجعلُ مسارَ الإنسانِ في داخله وداخلِ المجتمعِ مُتَّصِلًا بلا فَجَوَاتٍ ولا عَقَبَاتٍ . والفكرةُ والظاهرةُ هُما الإطارُ العامُ لخريطةِ طريقِ الإنسانِ إلى اكتشافِ ماهيَّتهِ ، وتحليلِ طبيعةِ المجتمعِ .



المعنى الإنساني وسلطة المعرفة

١

البُنية الاجتماعية هي التجسيد الحقيقي لأحلام الإنسان ضمن منظومة إنتاج الوُعي ، وتوظيفه في السِّياقات الثقافية ودلالاتِ الهوية التاريخية . وهذا التجسيد ليس فلسفةً للوجود الاجتماعي في الوُعي الإنساني فَحَسْب، بل هو أيضًا صيغة عقلانية ترمي إلى إعادة بناء التاريخ المُتَشَطِّي في أعماق الإنسان وتفاصيل المُجتمع ، من أجل تحقيق التكامل بين الخصائص الجوهرية لحركة التاريخ والمعاني الحيَّة لرمزية اللغة . وهذا التكامل من شأنه كشف المفاهيم الفلسفية المركزية التي تُسيطر على أعمال الإنسان ، وتتحكَّم بسلوكه ، وترسم مسارَ حركته في غُربته الوجودية واغترابه عن ذاته . وإذا نجح الإنسان في إيجاد علاقة منطقية بين طاقة التاريخ المُحرَّكة للأحداث الواقعية وطاقة اللغة المُحرَّكة للمشاعر الدفينة ، فإنه سَيَنجُو من الاغتراب الذاتي ، ولن يَشعر بالصراع بين الوُعي المعرفي وانتحارِ المعنى . ومُشكلة الإنسان في الأنساق الحياتية تتَّضح في طبيعة تركيب العَالَم الذي يعيش فيه ، فهو يعيش في عَالَم يَنتحَر فيه المعنى ، وتَوُول فيه قيمة الكيان الإنساني إلى شعور بالغربة وانفصالٍ عن الذات ، وتصير شروطُ الكينونة الإنسانية معاييرَ استهلاكية فاقدة للروح والغاية . وينبغي استنباط حلول عملية لهذه المُشكلة من المعرفة النقدية والخبرة الحياتية والتجربة الاجتماعية ، للحفاظ على تماسك المجتمع الإنساني في وجه التحديات الوجودية والأزمات الوجدانية .

٢

سببُ التَوَثُّر في الحياة الاجتماعية هو عدم التمييز بين الأشياء والعلاقات بين الأشياء . فالأشياء كيانات اعتبارية ، أمَّا العلاقات فهي سُلطات منطقية. وفي أحيان كثيرة، تُصبح العلاقات بين الأشياء أكثر أهمية من الأشياء ذاتها. وهنا تَظهر أهمية التحليل الخاضع لقواعد المنهج الاجتماعي، ويبرز دور التأمُّل الخاضع للعقل الجمعي . والتحليل الواعي والتأمُّل العميق يستطيعان بناء كيانات اجتماعية مُرتبطة بطبيعة أحلام الإنسان ، ويَقْدِرَان على صناعة سُلطة معرفية حاکمة على الوُعي في سياقه الثقافي ودلالته التاريخية . ومن أجل تحديد الآليات الفكرية المُتَحَكِّمة بجوهر التغيير الاجتماعي ، ينبغي تحرير الإنسان من المشاعر التي تُؤَلد في داخله ، وتُثَقِّنه بأن مصيره ليس في يده ، وأن مساره مفروض عليه من جهات معرفية خارجية . وعملية التحرير هي

القيمة الاجتماعية القادرة على كسر العزلة الثقافية حول الإنسان ، وإقامة رابطة مصيرية بين ذاته وأعماقها ، لأن انفصال الذات (الفُصن) عن عُمق الذات (الجذر) يُؤدِّي إلى تكريس اللامعنى وتجذير اللاجدوى، أي إنَّ الإنسان يشعر بأنَّ حياته بلا هدف ، وأنَّ التغير الاجتماعي بلا جدوى. وهذا هو مَوْت الإنسان في الحياة . إنَّه الانتحار الإنساني التدريجي في أنظمة الحَيَاة الخالية من الجوهر العميق والوظيفة الفعّالة .

٣

العلاقات الاجتماعية هي صُور لغوية رمزية يُنتجها العقلُ الجمعي ، لتسهيل رحلة الإنسان من اللامعنى إلى المعنى ، ومن الفراغ إلى الدلالة ، ومن العدم إلى الوجود . وأعماقُ الإنسان هي الحاضنة الوجودية للصِّراع بين التاريخ المُتخيَّل والتاريخ الحقيقي ، والصِّدام بين الثقافة المُؤدِّلجة كأداة لتغييب العقل الجمعي ، والثقافة التحريرية كروية للعالم وطوق نجاة لانتشال المجتمع من الغيبوبة . وهذا يعني أنَّ الإنسان يَخوض حربًا معرفية في أعماقه لإيجاد نَفْسِه في زُكام المعاني وتراكمات المشاعر ، ويُعيد بناءَ وجوده على أنقاضه ، ويصعد من خطامه كائنًا حيًّا وكيانًا خُرًّا . وإعادة اكتشاف الإنسان لذاته ومُجتمعهِ وعالمهِ، هي الوسيلة المثلى والسياسة الناجعة لإيجاد المعنى ، ومن وَجَدَ المَعنى الإنسانيَّ امتلك سُلطة المعرفة. والمَعنى هو السُّلطة ، وسُلطة المَعنى هي الحياة .

*

التفسير الاجتماعي والتأويل اللغوي

١

تفسير الظواهر الاجتماعية يرتبط بتأويل الرموز المعرفية في اللغة. وكلُّ مُجتمع إنساني لا يعيش داخل اللغة، سيجد نفسه بلا هوية ولا بضمّة ، وهذا يعني أنّ إيقاع الحياة اليومية سيعيش في الفراغ (خارج الزمان) ، وتاريخ التحولات الشعورية سيعيش في العدم (خارج المكان) . لذلك ، يجب على الإنسان إعادة اكتشاف اللغة ، ليس من أجل إكمال نفسه أو توسيع أفقه فحسب ، بل أيضًا من أجل تكوين منظومة وجودية قادرة على تكوين الدلالات اللغوية في الأنساق الاجتماعية ، وتفجير الطاقة الرمزية في اللغة ، كي تصبح اللغة قادرة على توليد الأزمنة والأمكنة باستمرار ، وتأسيس قواعد منهجية لتفسير الظواهر الاجتماعية ضمن صيرورة ثقافية ، تستطيع تحويل الشكل إلى مضمون ، وإحالة المضمون إلى مستويات الوعي الفردي والجماعي . وعملية ارتباط المضمون بالوعي تُجسّد فلسفة اللغة رمزيًا واجتماعيًا ، لأن هذه العملية هي التي تُشكّل نظام المعرفة الإنسانية الذي يتكوّن من المعنى والوعي بالمعنى . وهذه الشائبة الفكرية تُمثّل مركز الظواهر الاجتماعية ، الذي يُحوّل الطاقة الرمزية في اللغة إلى كتلة إنسانية في المجتمع .

٢

الأمّ هي التي تُربّي ، وليست التي تُنجب . وكذلك اللغة هي التي تُوظّف الأسس المعرفية في سياق الفعل الاجتماعي والشرط الإنساني ، وليست التي تُنجب الألفاظ الخالية من الشعور ، والمعاني العاجزة عن الامتداد والديمومة . وسبب عجز الإنسان عن معرفة نفسه ، يرجع إلى عدم قدرته على معرفة اللغة ، فهو يعتبرها مجموعة من الألفاظ، ووسيلة للتخاطب لقضاء الحاجات اليومية . وهذه هي قشرة اللغة الخارجية ، ولكن اللغة شديدة العمق ، والساحب إذا استهان بالبحر سيغرق . ورحلة الإنسان إلى معرفة اللغة روحًا وجسدًا ، لا تتأتّى إلا بالاستعداد للغوص في الأعماق ، وعدم الاكتفاء بملامسة السطح . وعلاقة الإنسان مع اللغة هي عملية تنقيب مستمرة ، وكلّ انقطاع يُمثّل فجوة في مسار التفسير الاجتماعي ، وفجوة في مجال التأويل اللغوي .

٣

تفسير الظواهر الاجتماعية يعتمد على إيجاد الأفكار القادرة على حمل التفاصيل اليومية المعاشة ، وإيصالها إلى حرارة التجربة الإنسانية ، من أجل بناء أنساق معرفية قادرة على التعامل

مع اللفظ اللغوي حقيقةً أو مجازًا ، وتوظيفه في المعنى الاجتماعي العام ، والتحرر من ضغط العناصر الزمانية (وذلك بنقل الماضي إلى الحاضر ، والانطلاق إلى المستقبل ، وبذلك يكون الماضي شرعيةً وجوديةً ، وقُوَّةً دافعةً إلى الأمام ، ولا يكون مشروعًا للهروب وعيبًا ثقيلًا) ، والتحرر من ضغط العناصر المكانية (وذلك باستعادة الحُضور وانتزاعه من الغياب ، ونقل ماهية العدم إلى هوية الوجود ، والانطلاق من نفي المعنى الحضاري إلى إثباته . وبذلك تكون الحياة شهادة ميلاد للوجود المتجدد ، وليست هاويةً مُربطةً بالمأزق الوجودي) . والظواهر الاجتماعية حين تتكرس في اللغة ، فهذا دليل على تفسير الواقع والوقائع وإيجاد رواية منطقية للأحداث ، وليس فرصة للهروب من تحدّيات الحياة اليومية . وكما أنَّ اللفظ اللغوي يكشف عن المُراد الاجتماعي ، كذلك التاريخ الإنساني يكشف عن مركزية اللغة في الوجود، ودورها المحوري في التفريق بين الحياة الحقيقية والحياة الوهمية (الموت في الحياة) .

٤

تأويل الرموز المعرفية في اللغة يعتمد على التراكيب الفكرية الإنسانية ، والمعاني المُستمدّة من باطن الأشياء ، وحقيقة المُراد . والعلاقة بين التأويل كأداة معرفية واللغة كنظام وجودي ، تقوم على استنباط الوعي المُستتر والفكر الكامن والثقافة الحَقِيقَة . ويستند التأويل اللغوي إلى السياق الاجتماعي وأسلوب حياة الإنسان (طريقة تفكيره وتعامله مع العناصر المُحيطة به ، وزوايا الرؤية إلى الأشياء جُمْلَةً وتفصيلاً) . لذلك ، ارتبط المجتمع بالتفسير ، وهو كشف المعنى الواضح القائم على الاتّباع، والمُستفاد من العبارة (السَّق الظاهري) ، وارتبطت اللغة بالتأويل ، وهو كشف المعنى الغامض القائم على الإبداع ، والمُستفاد من الإشارة (السَّق الباطني) . وإذا أدرك الإنسان الفروقات العميقة بين التفسير والتأويل في الخيال والواقع والمشاعر والأفكار ، فإنّه سيعرف تفاصيل الظواهر الاجتماعية ، ويستوعب رمزية اللغة .



الاستعارة والاستعادة في البناء الاجتماعي

١

وظيفة الطاقة الرمزية في اللغة هي تجذير الفكر الاجتماعي في الشعور الإنساني ، وتكريس الشعور الإنساني في الظواهر الثقافية ، مما يدفع باتجاه توليد أنظمة فكرية نقدية ، تستطيع ضبط حركة التاريخ اللغوي في التحولات الاجتماعية ، واستعادة العناصر المعرفية التي غابت في طوايا التاريخ . وهذا يعني أن مفهوم النقد في الأنظمة الفكرية يقوم على الرابطة بين التاريخ اللغوي والتاريخ الإنساني ، ويستمد القوة منهما ، من أجل إنشاء إطار عقلائي يستوعب التغيير في تفاصيل بناء المجتمع ، والتغيير في جزئيات تفسير المعرفة . والإشكالية في هذا السياق تكمن في عجز الأنساق الاجتماعية عن التمييز بين النقد والنقض بشكل عملي تطبيقي . والقدرة على التعريف اللغوي لا تستلزم بالضرورة القدرة على التأطير الواقعي ، لأن الذاتي يختلف عن الموضوعي ، والنظري يختلف عن العملي ، ووضع النظرية يختلف عن تطبيقها .

٢

النقد الاجتماعي يعتمد على تحليل الأنساق المعرفية في المجتمع ، وإرجاعها إلى عناصرها الأولية ، وأنويتها البدائية، لإيجاد المسارات المتوازية والمتقاطعة في طبيعة البناء الاجتماعي، ثم إعادة تجميع العناصر ، وتركيب الأنوية . وهذه العملية قائمة على التخطيط القصدي لا العفوية التلقائية ، والهدف منها تكوين علاقة فلسفية تناسقية بين التقويم (معرفة نقاط القوة وتعزيزها ومعرفة نقاط الضعف وعلاجها) والتقييم (تحديد مستويات الفكر الاجتماعي وإمكانية تحقيق أهدافه) . والنقض الاجتماعي يعتمد على هدم الأسس الفكرية في المجتمع، وإزالة القواعد المعرفية التي قام عليها البناء الاجتماعي. والنقض الاجتماعي ينقسم إلى قسمين: نقض سلبي (الهدم من أجل الهدم والتدمير العبي ونشر الفوضى) ونقض إيجابي (الهدم من أجل إعادة البناء على أسس سليمة وقواعد متينة) . والنقض السلبي يُشبه عملية هدم بيت قديم مُتهالك ، وترك الأرض جرداء بلا حياة ولا استثمار . أمّا النقض الإيجابي فيُشبه عملية هدم بيت قديم مُتهالك، وإقامة ناطحة سحاب مكانه ، لتحقيق مكاسب اجتماعية وفوائد اقتصادية .

٣

النقض الاجتماعي الإيجابي (الهدم من أجل البناء) يُعتبر عملية خطيرة ، لأنه بحاجة إلى سيطرة كاملة على عناصر المكان ، وربطها بالزمن الجديد الذي يُولد في اللغة والشعور والثقافة ،

وهذا لا يتأتى إلا بتكوين تصوّر منطقي للأفق الخيالي والحياة الواقعية، يعتمد على الاستعارة والاستعادة ، وهذان المفهومان يُمثّلان مركزاً معرفياً مُزدوجاً ، وكائناً اجتماعياً ثنائي الخلية ، كما أنهما يسيران جنباً إلى جنب في الأنظمة الفكرية وحركة التاريخ ، ويوجدان معاً ، ويغيبان معاً . والعلاقة بينهما تكاملية قائمة على التجاذب لا التنافر ، ومعتمدة على التزامن لا التعاقب .

٤

الاستعارة الاجتماعية هي البحث عن التوازن الشعوري الإنساني في الرموز اللغوية المتغيرة والتحولات الثقافية المستمرة . وهذه العملية تُشبه السيطرة على مركز قيادة السفينة في بحر هائج مُتلاطم الأمواج ، لأن مبدأ الاستعارة يتعامل مع الإشارات الذهنية والاحتمالات الواقعية والتّهيوّات النفسية ، كما أنّ العلاقات الاجتماعية نسبية لا مُطلقة ، ولا تملك البقين الكامل ، والثقة التامة ، ولا تستطيع إنتاج مُسلّمات قطعية . فالمجتمع مُتغير باستمرار ، ومُتحوّل بشكل دائم ، ولا يمكن الحصول على الثبات من التغير ، لأن فاقده الشيء لا يُعطيه . وكذلك الرّمن يدور ويتقلّب ويتقلب على أهله ، ولا يمكن الحصول على عناصر الاستقرار الاجتماعي من زمن غير مُستقر ولا ثابت . وهذا يتطلّب كشف الغموض العميق في الصّور الاجتماعية الظاهرية ، والتنقيب المُستمر عن التراكيب الكامنة في أشكال البناء الاجتماعي معنوياً ومادياً ، والتفتيش الدائم عن الدلالات المُستترة في تجارب الشعور الإنساني فردياً وجماعياً . وهكذا ، تتولّد المعاني بشكل مُتواصل ، وتنشق مفاهيم إبداعية جديدة ، ويتكرّس حضور الإنسان في عالمه الداخلي ومُحيطه الخارجي ، لأنّ المعنى هو الحضور ، واللامعنى هو الغياب . لذلك ، كانت معركة الإنسان مع نفسه من أجل الانتقال من اللامعنى إلى المعنى ، ومن الغياب إلى الحضور .

٥

الاستعادة الاجتماعية هي إيقاظُ صورة الإنسان في مرايا التاريخ القديمة ، وإعادة التاريخ إلى الشّعور ، وبذلك يتم توليد الماضي بشكل متواصل بلا انقطاع ، للحصول على الطاقة الرمزية في اللغة ، التي تُعيد للإنسان جَوْهره الغائب في تشظّي الوقائع التاريخية ، وفوضى الأحداث اليومية . وإذا استعاد الإنسان صُورته من نسيان التاريخ ، واسترجع جَوْهره من تاريخ النسيان ، فإنّه سيحتمي كيانهُ الوجودي من التّفكك ، ويحتمي كينونة التاريخ من التشظّي والفوضى . وإذا كان التاريخ هو الكتابة على جسد المعنى الوجودي ، فإنّ الإنسان هو تجسيد معنى التاريخ في إطاره الوجودي واللغوي معاً . والاستعارة والاستعادة في البناء الاجتماعي هما محاولتان لنقل الإنسان من الكيان

الوظيفي إلى الكائن الاعتباري ، ونقل المجتمع من مركزية الوهم إلى حقيقة العالم ، ومنع المعنى الوجودي من مُغَادَرَةِ التاريخ ، والسُّقُوطِ في الفراغ . وبذلك ، يظل الإنسان _ فاعلاً ومُنْفَعاً _ في قلب التاريخ الذي يُولَدُ باستمرار .

*

المبادئ الأخلاقية في التاريخ والمجتمع

١

التفاعل الإنساني مع عناصر التاريخ وتراكيب البنى الاجتماعية ليس له قانون ثابت ، لأن شرعية التفاعل الإنساني مُستمدّة من قُدْرته على توليد قوانين جديدة ، وكسر القوالب الجاهزة ، والخروج من الأطر المفروضة على أنظمة المجتمع التي تُعْتَبَر المُحرِّك الحقيقي لتاريخ الفرد والجماعة . والتوليد المُستمر للقوانين المعرفية يهدف إلى تكوين أنساق مجتمعية وظيفية تستطيع الربط بين حركة التاريخ والحَرَكَ الاجتماعي في الظواهر الثقافية ، باعتبار أن الثقافة هي النسق الحاكم على انعكاسات الشعور في الواقع المادي ، والسياق المُتحكَّم بفلسفة العلاقات الاجتماعية ، التي تعتمد على المبادئ الأخلاقية ، وتستند إلى المعايير الإبداعية .

٢

أهمية المبادئ الأخلاقية تنبع من قُدْرتها على تفكيك عناصر التاريخ ، وإعادة تركيبها ، من أجل تكوين منطق إنساني واقعي يُنظّم التجارب الواعية التي يتفاعل معها الإنسان في رحلة بحثه عن المعنى . وكما أن الحقيقة التاريخية لا تنفصل عن الماهية الأخلاقية ، كذلك المنطق الإنساني لا ينفصل عن التجربة الواعية . واستحالة الفصل بين هذه المُكوّنات المعرفية تُشير إلى أن وجود الفرد في التاريخ يُمثّل مساراً مُتّصلاً بلا فواصل زمنية ، وأنّ سلطة التاريخ تُشكّل وحدة وجودية لا تنجز ، ولا تنفصل عن سلوك الإنسان ذهنياً ونفسياً . وكلّ المسارات التاريخية تلتقي في بؤرة إنسانية واحدة، تُجسّد الوَعْي كنقطة مرجعية في السلوكيات الاجتماعية المنفتحة على إرادة التغيير، ونقل شخص الفرد إلى الشخصية ، أي : نقل الفرد من الوصف الخارجي والعرض الظاهري إلى الجوهر المُميّز الذي يُثبِت قيمته بواسطة الفعل لا الشكل . وبالتالي ، تُصبح قيمة الفرد ما يُقننه ، وما يُضيفه إلى الحضارة الإنسانية، وتتحدّد كينونته الفرد وفق ما يمنحه، وليس ما يملكه. وهذه العملية الوجودية ذات الطبيعة الفردية (إثبات وجود الفرد في صيرورة التحولات الاجتماعية) ، لا تنفصل عن عملية نقل المجتمع من الخبرة الذاتية إلى التعبير عن الذات بشكل فعّال ، لأنّ المجتمع إذا لم يكشف هويته الذاتية ، ويبرز سلطته الاعتبارية، ويتحدّث باسم نفسه، فإنّ الآخرين سيتحدّثون باسمه ، ويُحدّدون هويته ، ويُحدّدونه من سلطته. ومن عَجَز عن إيجاد مكان له في فضاء التحولات الاجتماعية، فإنّ الآخرين سيفرضون عليه شروطهم ، ويُحدّدون مكانه ومكانته

وفق مصالحهم . ومن لم يقدر على صناعة رؤيته الشخصية ، فسوف تتم مُحاصرته في زوايا الرؤية التي يُعدّلها الآخرون لإثبات وجودهم ، ونفي كل الكيانات الخارجة عن نطاق وجودهم .

٣

المبادئ الأخلاقية تملك سَطَوَةً وجوديةً على عناصر التاريخ ، وتمتلك سُلْطَةً تحليليةً في جسد التاريخ . وهي أيضًا تملك تأثيرًا ثقافيًا على أشكال التفاعل الاجتماعي اليومي ، وتمتلك سيادةً فكريةً في تراكيب البنى الاجتماعية . والسيّاق الاجتماعي قد يتكرّس على أرض الواقع بدون نسق أخلاقي ، ولكنه سيظل سياقًا عابرًا بلا وجود حقيقي ، لأنه يفتقر إلى الشرعية والمصدقية ، وليس كُلُّ موجود يملك شرعيةً الوجود . والبنى الاجتماعية لا تكتسب أهميتها وشرعيتها من وجودها في الإفرازات اللغوية ، واستقرارها في الأحداث اليومية ، وتمركزها في الطبيعة الوظيفية للكيان الفردي كنظام إنساني ، والنظام الجماعي ككيان اعتباري ، فحسب ، بل أيضًا تكتسب أهميتها وشرعيتها من قُدْرَتِها على إنتاج خطاب أخلاقي يُؤثّر في فلسفة العلاقات الاجتماعية ، ويتأثّر بالشعور الفردي والطموح الجماعي ، وإنتاج منظومة معرفية قادرة على التأمّل في اللغة والشُعُور والتاريخ والمجتمع ، تُوازِن بين تأسيس الدلالات الجوهرية المعنوية في الحياة المادية ، وبين توليد الأبعاد الفكرية المركزية في المنظور الذهني .

*

الخيال واللغة وأنساق المجتمع

١

التحويلات الرمزية في اللغة تمنح العلاقات الاجتماعية القدرة على إعادة صياغة إفرازات العقل الجمعي . وإعادة الصياغة تعني توليد نظام معرفي يُوظف عناصر الفعل الاجتماعي في سياق التحويلات الشعورية للفرد والجماعة ، ويُوازن بين التفاعلية الذاتية (صورة الذات في مرآة الذات) والهوية المجتمعية (شرعية المجتمع في عملية توحيد الذات والموضوع) . وتَصَوَّرُ الفرد عن نفسه يُحدّد طبيعة التعامل مع مجتمعه ، أي إنّ الفرد ينتقل من شعوره الوجداني الشخصي إلى شخصية المجتمع الذي ينتمي إليه ، وهذا الانتقال ضروري لتكريس الخلاص الجماعي في السلوك الإنساني ، وتجذير المشاعر الفردية الجزئية لإنقاذ الكلّ المجتمعي . وإذا نجح العقل الجمعي في تطهير المجتمع من ثنائية (الاستغلال / الابتزاز) ، استغلال الفرد للمجتمع كرافعة للأحلام الشخصية ، ووسيلة لتحقيق الخلاص الفردي ، والهروب من المسؤوليات والتحديات ، وابتزاز المجتمع للفرد من أجل تحويله إلى آلة بلا روح ، ومُجَرَّد رَقْم منسي في أرشيف التغيرات الاجتماعية ، فعندئذ ستحوّل أطر البناء الاجتماعي إلى تيارات ثقافية ديناميكية ، تقوم على الحركة الفكرية والنشاط العقلاني والحيوية الواقعية من أجل تحقيق التكامل والانسجام بين الفرد والمجتمع ، وهذا يحمي الفرد من التحوّل إلى كبش فداء ، ويحمي المجتمع من التحوّل إلى خشبة مذبح . والعلاقات الاجتماعية لا تقوم على حساب أعداد الضحايا ، وتحويل الضحايا إلى أرقام ، وتأسيس ظواهر حياتية قائمة على المتاجرة بالتضحيات ، وإنما تقوم على بناء المفاهيم الأخلاقية وتطبيقها على أرض الواقع ، وبناء المعنى الوجودي المُتماسك ، والمُتَّصِل بتوحيد الزمان والمكان ، وعدم الفصل بين التاريخ والجغرافيا . والوجود الإنساني ينبعث في الماضي والحاضر والمستقبل بشكل تزامني ، لأن القوة الذهنية لا توجد فيها فواصل زمنية ولا حدود مكانية ، وهذا هو سر أهمية الخيال ، لذلك كان الخيال أهم من المعرفة ، وهو أساس الفكر الإنساني ، والطريق إلى الإبداع . والطريق أهم من الغاية ، لأن الغاية معروفة ، لكن كيفية الوصول إليها غير معروفة . ووظيفته البنى الاجتماعية ليست البحث عن الغاية ، وإنما البحث عن الطريق إليها . ومن وجد الطريق الصحيح سيصل إلى غايته مهما كان بطيئاً . ويقدر ما يؤثر الفرد في الزمان والمكان ، يتأثر بهما نصاً وزوْجاً . والتأثر النصّي ينبع من إشارات اللغة ورموزها والآليات المعرفية التي ينتهجها

الخطاب الاجتماعي ، والتأثر الروحي ينبع من الدلالات المعنوية التي تتمركز في أعماق الأفكار العابرة للتجنيس بسبب تحررها من القوالب الجاهزة والأنماط المُعدّة مُسبقًا .

٢

يَنبغي النظر إلى العلاقات الاجتماعية من داخلها لا خارجها ، لأنّ الدّاخل يشتمل على الجوهر الإنساني والبراءة الأصلية والفِطْرة النَّقيّة ، أمّا الخارج فهو خليط من الأضداد ، ومزيج من الأهواء الذاتية والمصالح الشخصية ، وكومة من التناقضات المُشتملة على الحق والباطل ، والصواب الخطأ ، بسبب التأثير بإفرازات البيئة المُحيطة ، وضغوطات الواقع المُعاش ، ومُشكلات الحياة اليومية . وهذا التلوث الاجتماعي لا يمكن تنقيته إلا بتفعيل مركزة الخيال ورمزية اللغة ، وإيجاد مكان لهما في جذور الهوية الثقافية للمجتمع بعيدًا عن إفرازات النظام الاستهلاكي ، لأن الثقافة وحدها هي القادرة على احتضان الخيال واللغة ، وتوظيفهما في مُستويات التفاعل الإنساني ، والقيَم المعيارية المُنعكسة عن طريقة تفكير الأفراد ، وطبيعة مُكوّنات الظواهر الاجتماعية ، التي تربط بين شعور الفرد بأهميته وتجربته الوجودية في أنساق المجتمع . ومركزة القِيم تستمد سلطتها الاعتبارية من اتصال الأفراد بالأشياء ، وتفاعلهم معها ، لذلك كانت الأحكام في المجتمع نابعة من تأثير الأفراد في الأشياء وتأثرهم بها . وكما أنّ الخبرة الحياتية لا تنفصل عن تجارب الفرد المعنوية والمادية ، كذلك القِيم الإنسانية لا تنفصل عن المنظور اللغوي ، والتصوّر الفكري ، والمدلول العاطفي .

٣

التأثيرات المعرفية المُتبادلة في أنساق المجتمع تُؤوّل إلى أشكال إبداعية ومفاهيم تعبيرية ، تُزرع الخيال في الفعل الاجتماعي ككائن عضوي ، وتزرع اللغة في السلوك الإنساني ككيان وجودي ، ممّا يُؤدّي إلى إنتاج مناهج عقلانية تستطيع رؤية الحقائق الاجتماعية من كُُل الزوايا ، وتكوين تفسيرات منطقية للصراعات الذاتية والأحداث الواقعية، والوصول إلى مصادر المعرفة القادرة على تفكيك معاني الأشياء وإعادة تركيبها ضمن نظام القِيم الثقافية . وبما أنّ الثقافة نية مُبيّنة ووَعْي معرفي وفعل قصدي لا تلقائي ، فإنّ القِيم الثقافية القادرة على إنقاذ المجتمع من مأزقه الوجودي، ستكون نابعة من الإرادة الواعية، والإدراك الحسّي (الملموس) ، والدافعية المعنوية (غير الملموسة) . وبالتالي ، ينتقل المعنى الإنساني من الغيبوبة الاجتماعية إلى الفاعلية الحياتية .

الزمن المفتوح وفلسفة الوعي بالتاريخ

١

فلسفة السلوك الإنساني هي التعبير الوجودي عن حركة الفعل الاجتماعي الظاهري ، والتفسير المركزي للوعي الذهني المُستتر . وبما أن حركة الإنسان في تاريخه الشخصي وتاريخ المجتمع ، لا تتم بِمَعزِل عن العلاقات الاجتماعية الخارجية والخصائص النَّفْسِيَّة الداخلية، فإنَّ هُويَّة إنسانية جديدة ستنشأ بشكل مُستمر ، وتتولَّد مِن ذاتها لاكتشاف ذاتها. وهذه الهُويَّة تَجْمع بين تاريخ الإنسان وإنسانية التاريخ ، من أجل فتح التاريخ الاجتماعي على أسئلة الوجود وتحديات الواقع ، وأيضاً ، تَجْمع بين الماهيَّة الاجتماعية والطبيعة النَّفْسِيَّة ، مِن أجل توحيد الزمان والمكان، وبذلك يتجسَّد الإنسان في التاريخ رُوحاً وَمَعْنَى ، ويتجسَّد التاريخ في الإنسان نظاماً ومعرفةً . وهذه التبادلية تعني أن كُل صِفة إنسانية لها امتداد تاريخي عميق ، وليست وليدة اللحظة الآنيَّة، وأن كُل عامل تاريخي له جُذور اجتماعية راسخة ، وليس مقطوعاً عن الوُعي الإنساني بالزمن المفتوح (حركة الماضي والحاضر والمستقبل معاً بلا فواصل في مكان يتشكَّل باستمرار ويُعاد صناعته مَعْنَى وَمَبْنَى) .

٢

الزمن المفتوح يهدف إلى مَنع تحوُّل التاريخ إلى فَخ ، ومَنع تحوُّل العلاقات الاجتماعية إلى مَصِيْدَة . والتاريخ لَيس وقائع حدثت في الماضي وانتهت ، وذهبت إلى طوايا النسيان. إن التاريخ وُجد ليبقى ، وهو في حالة صَبْرورة مُستمرة ، وانتشار مُتواصل في كُل الجهات ، وتكوُّن دائم على الصعيدين : الخَطِّي البسيط ، والدائري المُركَّب . ومنطقُ التاريخ كامن وشديد التَّشعُّب والتعقيد ، ويَصعُب السيطرة عليه . والتاريخ يتحرَّك وَفَق مسارات مُتوازية ومُتقاطعة ، وكذلك يتحرَّك على شكل دوائر مُتشابكة. والتاريخ لَيس شيئاً يأتي مِن الخَلْف، وإنما هو شيء نجده أمامنا . ومُشكلة الإنسان الواقع تحت ضغط التفاصيل اليومية أنَّه يَبْحَث عن التاريخ وراء ظَهره لاستدعائه ، في حين أن التاريخ _ فِكْراً وعاطفةً _ موجود أمام أعْيُن الإنسان ، ولا داعي لاستدعائه ، لأنَّه حاضر بِكُل تجلياته ، والاستدعاء لا يكون إلا للغائب، والتاريخ لا يَغيب ، ولا يستطيع الإنسان تَغْيِيْبَه حتى لو أرادَ ذلك . وفلسفة حُضور التاريخ لا تعني الحديث عن الماضي ، أو ذِكر إنجازات الآباء والأجداد ، أو دراسة الأمم الخالية والشعوب السابقة. هذه أشكال للتاريخ، وفلامسة للسَّطح

الزمني العَرَضِيّ ، وجوهر التاريخ مُتمركز في أعماق الشُّعور وإدراكِ الذاكرة ، ومُتجذّر في الوُعي المُسيطر على السلوك الإنساني المكشوف (الفِعل وزد الفِعل) ، وراسخ في اللاوُعي المُهيمن على التفاعل الإنساني المَكبوت (الأحلام والذكريات) .

٣

كَيَونة التاريخ تتشكّل في كيان الإنسان اجتماعيًا وقيميًا . والإشكالية في فلسفة الوعي بالتاريخ هي أن الحضارة الإنسانية تبحث عن التاريخ في جسد الزمن ، ولا تبحث عن التاريخ في جسد الإنسان ، لأنها تعتبر الزمن هو الحاضن للأحداث والوقائع ، في حين أن الإنسان مُجرّد كيان واقع تحت تأثير عناصر البيئة المُحيطة وإفرازات الواقع المُعاش . وهذه نظرة قاصرة ، لأن الإنسان صانع للقرار ، وفاعل للتاريخ ، وغنصر مؤثّر ومُتأثّر بالتغيّرات الزمنية ، والتحوّلات التاريخية، والانقلابات الفكرية، وليس صفحةً بيضاء يكتب التاريخ عليها مساره، أو مُمثّلًا على مسرح التاريخ . إنّ الإنسان تاريخ يتحرّك ضمن التاريخ ، وليس رَقَمًا من الأرقام ، أو حدّثًا عابرًا في سِجَلات الحياة العامّة ، أو وثيقة هامشيّة في أرشيف الحياة الخاصّة . وكما أن الجينات الوراثية تُوجد في كيان الإنسان ، ولا تُوجد في كُتب الطّب والبيولوجيا (عِلْم الأحياء) ، كذلك الصفات التاريخية تُوجد في كيان الإنسان ، ولا تُوجد في كُتب التاريخ والجغرافيا .

٤

التاريخ حياةٌ مُوازية تُعاش لحظةً بلحظة ، وتكمن سلطته المعرفية في قدرته على تجسيد الأفكار الإنسانية ، والتجسّد فيها لغةً رمزيّة تبني العلاقات الاجتماعية على الصيغ العقلانية ، وقوّة توليديّة للمعاني في سياق إعادة تعريف الشُّعور وإعادة إنتاج الوُعي ، وبُعدًا وجوديًا يستطيع صناعة الدلالات الإبداعية في هوامش المجتمع المنسيّة. وهذا الحراك على جميع الأصعدة يُؤدّي إلى اكتشاف بُوصلة الزمن في خريطة المكان ، وبناء خريطة المكان في تشكّلات المعرفة، وتفسير طبيعة الأنظمة الفكرية التي تصهر الأشكال والمضامين في بوتقة الوجود، وكلّما اقترب الإنسان من ماهيّة الوجود ، امتلك القُدرة والجُرأة على تفسيره ، لفظًا ومعنى ، تركيبًا وتخييلًا ، شكلاً ونوعًا ، تنظيمًا وتوظيفًا ، تكوينًا وتأطيرًا ، شرعيةً ومشروعيةً .

*

المعنى الاجتماعي بين التوليد والتجريد

١

العوامل المحددة لطبيعة السلوك الإنساني في المجتمع ترتبط بشكل وثيق بالدوافع النفسانية للأفراد ، ومصالحهم الشخصية ، وهذه العوامل لا توجد في ماهية العلاقات الاجتماعية بشكل تجريدي هلامي ، وإنما توجد بشكل منطقي انسيابي ، لأنَّ المعنى الاجتماعي _ جزئياً وتفصيلاً _ يعتمد على التوليد لا التجريد ، أي إنه يعتمد على اشتقاق الأفكار من الواقع المُعاش ، وتكريسها في الحقائق الاجتماعية والتجارب الإنسانية من خلال طرح الأسئلة المصيرية ، والبحث عن إجابات عقلانية ، ودلالات فكرية ، وآليات عملية ، من أجل الانطلاق من الذات الإنسانية إلى الطبيعة المادية للأحداث اليومية، ومن العرض الهامشي في البيئة إلى الجوهر اللغوي في الوجود . لذلك ، تُمثّل عملية التوليد منبع الدلالات الاجتماعية المركزية في الحياة ، أمّا التجريد فهو عملية فصل الأفكار عن الأشياء ، والخروج من الواقع إلى الذهن ، والانتقال من الصوت إلى الصدى ، والتحوّل من التفاصيل الجزئية إلى الأشكال الصورية ، وهذه العملية ذات الخطوات المتسلسلة شديدة الخطورة ، لأنها تُحوّل العلاقات الاجتماعية إلى أشياء ذهنية بلا امتداد واقعي ولا تطبيق عملي ، كما أنها تُحوّل الروابط بين الأشياء إلى كيانات مُستقلة عن الشعور الإنساني والظواهر الثقافية والتجارب الحياتية . والعلاقات الاجتماعية إذا تحوّلت إلى أشياء، فإن الإنسان سيتحوّل إلى شيء ، ويخسر طبيعته ، ويفقد ماهيته .

٢

فصل الأفكار عن الأشياء يُؤدّي إلى تحويل الإنسان إلى أداة وظيفية مَحْصُورَة في حيز مُغْلَق ، لتنفيذ مُهمّات اجتماعية مفروضة عليه . وهذا يعني أن الإنسان صار شيئاً كالأشياء ، يتلقّى التعليمات ويُطبّقها بشكل آليّ وفاعلية ميكانيكية ، بلا فضاء إبداعي ، ولا جغرافيا معرفية ، وهكذا ينشأ تاريخ جديد للإنسان الذي يُعاني من الغربة في ذاته والاعتراب في مُجتمعهِ ، وهذا التاريخ قائم على التَشْطِيات في الهوية الوجودية ، والتَمَرُّقات في بُنية الوعي الاجتماعي، ممّا يجعل الأحلام الإنسانية تستقر حول الأشياء، دون القدرة على اقتحام حقيقتها، وهكذا يَعْجز الإنسان عن تجاوز ذاته ، والانطلاق إلى آفاق فكرية جديدة ، لأنّه مَحْصُور في زاوية صَيِّقة ، ومُخَاصَر بإفرازات عالم الأشياء. وبالتالي ، يدور في حلقة مُفرّغة ، كالشخص الذي يدور حول بيته ، لأنّه

أضاع مفتاحه ، ولم يعد قادراً على الدُّخول إليه ، أو كالشخص الذي يرى الكنز أمامه ، ولا يستطيع الوصول إليه ، لأنَّ بينهما حاجزاً مادياً أو عائقاً معنوياً .

٣

صِفَاتُ الإنسانِ ماهِيَّاتٌ قائمة بذاتها، تنتمي إلى عَالَمِ الأفكار، والمفاهيم الأخلاقية، والخصائص الروحية، والحقائق المادية ، وهذه الصفات عناصر مركزية في كينونة وجودية مُتغيِّرة باستمرار ، بسبب تغيُّر المُسَلِّمات الافتراضية في النسق الاجتماعي روحياً ومادياً . والجدير بالذكر أنَّ الدِّفاع عن المُسَلِّمات الافتراضية ذات الطبيعة الاجتماعية ليس دفاعاً عن جوهر المجتمع وحقيقته ، والطريق إلى الحقيقة ليس هُوَ الحقيقة . وهذا التمييز ضروري في عَالَمِ استهلاكي يُسيطر على العلاقات الاجتماعية ، وينتزع جوهرها ، ويُعيد إنتاجها كي تصبح سِلْعاً في موقع التبادل ومركز المُقايضة ، وظلالاً للأنشطة المادية الخالية من القِيَم الروحية ، والرمزية اللغوية . وهكذا ، يُصبح التواصل بين الناس تواصلاً بين الأشياء ، ويصير الشُّعُور نظاماً آلياً ، وتؤول العلاقات إلى صُورٍ للاغتراب، فيفقد المجتمع حياته الوجودية وحيويته المعرفية، وتُصبح الظواهر الثقافية كياناتٍ جامدة ، لا تستطيع صناعة الأحلام في الحاضر ، ولا تَقْدِر على زراعة الآمال في المُستقبل . وإذا عَجَزَ الإنسانُ عن رؤية ذاته في حياته، انكسرت إنسانيته ، وتهشمت هُويته ، وهذا هو المَوْت البطيء في ظلِّ عَالَمٍ سريع التغيُّر .

*

رحلة المجتمع من الثقافة إلى التاريخ

١

التحليل الاجتماعي للظواهر الثقافية يُساهم في بناء منطق جديد للتاريخ الخاص (ذكريات الإنسان وأحلامه الساكنة في أعماقه السحيقة) والتاريخ العام (أحوال المجتمع في الأزمنة المختلفة) . وكلُّ تاريخ يُمثِّل بُنيةً اجتماعية مُتماسكة ، ووحدةً معرفية مُتجانسة ، وشخصيةً وجودية مُترابطة العناصر ، وهذه المُكوّنات هي أُسُس الهَيْكل الفكري للمجتمع، التي تدفع باتجاه توليد مفاهيم رمزية قادرة على صياغة التحولات الجذرية في الشعور الإنساني والسلوك الاجتماعي، وإنشاء هُويّة عقلانية جامعة تستطيع وضع أُطرٍ معيارية تُنظّم عملية انتقال المعنى الوجودي من شخصية الإنسان إلى شخصية المجتمع ، أي : انتقال الدلالة المعرفية من الجزء إلى الكل ، ومن الخاص إلى العام، من أجل صناعة منظومة أخلاقية تشتمل على فلسفة العلاقات الاجتماعية ، التي ترسم معالم المسار الإنساني للوصول إلى حقيقة المعنى ، وهذه المعالم الأساسية هي: البنية الاجتماعية ، الظاهرة الثقافية ، الهُويّة التاريخية .

٢

كلُّ تاريخ لا يَخْرُج من رَحِم الثقافة سيكون أداةً وظيفية مُنقطعة عن سِيّاقات المعنى الوجودي، لأنَّ الثقافة هي الغِربال الذي يُنقى منطق التاريخ من سُلطة المعرفة المُغرِضة التي تُعيد صياغة الأحداث التاريخية لاعتبارات ذاتية ومصالح شخصية . ومُهمّة الثقافة هي الحفاظ على مَجْرى التاريخ كي يتدفّق بشكل طبيعي وسلس ، دون ضُغوطات فكرية ، أو تدخّلات خارجية . إن التاريخ الطبيعي هو الوقائع الحياتية التي حَدَثَتْ على أرض الواقع، أمّا التاريخ الصنّاعي فهو الوقائع الذهنية التي يتم إسقاطها على أرض الواقع باستخدام آليّات التفسير الوهمية ، حيث يتم حَقْن أحداث الزمان وتغيّرات المكان بإفرازات المِخيال (تراكُم الصُّور الذهنية والرموز اللغوية في تأويل الذاكرة وتفسير الذكريات)، وبالتالي ، يتحوّل التاريخ إلى خِطَاب للسيطرة ، ويصير الواقع أداةً للهيمنة ، ويُصبح الفكر قُوّةً عمليةً سلبيةً .

٣

أدلجة الفكر تُحوّله إلى أداة وظيفية مركزية لتحقيق مصالح شخصية، وتأويل الماضي بصورة انتقائية مُغرِضة تُحوّله إلى حاضر وهمي ، فيشعر الإنسان أنّه مُحاصر من كُل الجهات ، فهو يعيش

في عالم الأفكار ، ويعجز عن تطبيقها ، ويعيش في الحاضر مُنتمياً إلى الماضي ، ويعجز عن اقتحام المُستقبل . والعائش في الحاضر برُوح الماضي كالشخص الذي يعيش مع زوجته ، لكنّه يشنق إلى امرأة أُخرى . وهذا الانفصام الفكريّ يمثّل شرخاً في أعماق الذاكرة الإنسانية والسلوك الاجتماعي . والفكرُ إذا تحوّل إلى شرخ ، فإنّ التفاعلات الرمزية في اللغة والمجتمع ، ستعجز عن تفسير مصادر المعرفة ، ولن تتمكّن من تتبّع آثار التحولات الاجتماعية على جسد التاريخ ، لأنّ التاريخ سينتقل من مسرح الأحداث إلى متاهة المعنى ، وينتقل الإنسان من كيان الذات إلى مصيدة الذكريات . وإذا غاب التاريخ في انكسار الإنسان ، وضاع الإنسان في مأزق التاريخ ، فإنّ التحليل الاجتماعي للظواهر الثقافية سيصير شكلاً للفراغ ، وعالمًا مُشوَّشًا ، وصورةً سطحيةً تعتمد على الملامح الخارجية لأنها لا تستطيع الوصول إلى الأعماق . وإذا تركّزت زاوية الرؤية على سطح البحر ، فسيظن الشخص أن البحر مُجرّد أمواج مُتحركة بلا كائنات حيّة ، ولكنه إذا غاص في البحر ، فسيرى الكائنات الحيّة ، ويدرك أنّ البحر وجودٌ شامل ، وحيّة كاملة . وهذا المثال يعني ضرورة الغوص في تركيب المجتمع وأنساق الثقافة وقيمة التاريخ ، لإثبات أن الوجود الإنساني ليس كتلةً من القوانين الفيزيائية والحركات الميكانيكية ، وإنما هو يقينٌ متمكّن في قلب الإنسان ، وشعورٌ راسخ يتوهج في نفسه ، ومادّة نابضة بالحياة ، وقوّة توليدية للمعاني ، ومنظومة فكرية مُتماهية مع الوعي بالذات والآخر ، والوعي بعناصر الطبيعة في صيرورتها الاجتماعية والتاريخية .

*

التحديات الزمنية أمام وجود الإنسان

١

الوَعْي غير مَحْصُور في القِيَم الوجودية والعلاقات الاجتماعية ، لأنَّ الوَعْي مفهوم شامل لجميع مَنَاحي الحياة، وهو الطريق الرئيسي الذي يسير فيه الإنسان من أجل معرفة ذاته في مُجتمعه في ظل التغيرات المعرفية، ومعرفة مُجتمعه الواقع تحت الضغوطات الحياتية . وهذه المعرفة المزدوجة تُمثِّل منهجًا فكريًا يكشف الروابط السَّبَبية بين السلوك الظاهري للإنسان ، والدوافع الحقيقية الباطنية . وكُلُّ منهج فكري يستمد شرعيته من قُدْرته على تكوين منظومة الأسباب والمُسَبِّبات بشكل منطقي مُتَسَلِّس ، وترتيب الأولويات الخاضعة لثنائية العِلَّة (القاعدة الاجتماعية) والمعلول (البناء العقلائي) ، وتفسير الطابع اللغوي الرمزي للعلاقات الاجتماعية ، ونقل الأفكار من هُلامِيَّة المعنى إلى الشُّعور بالمعنى ، لإيجاد معنى جديد للأشياء ، يُحوِّل التداخيلات المعرفية إلى تصوُّرات مُتجانسة ، ويعتبر الحُلْم الإنساني سُلوكًا اجتماعيًا للخلاص الجماعي ، وليس وسيلةً للهرب من المأزق الاجتماعي .

٢

المعنى الجديد للأشياء هو إعادة اكتشاف خصائص الأشياء في سياقها الوجودي ووظيفتها الاجتماعية ، وليس تجريد الأشياء من دلالتها المنطقية ، وتفريغ الأشكال من محتواها الرمزي . وإذا كانت الغريزة هي الجزء الأساسي في السلوك الوراثي ، فإنَّ المعنى هو الجزء الأساسي في الوجود الاجتماعي . لذلك ينبغي التعامل مع المعنى كغريزة وجودية ذات طبيعة رمزية ، تستطيع توليد الظواهر الثقافية الحاملة لآليات السُّلطة المعرفية ، والحاضنة لحقائق المُجتمع المُتجسِّدة في ماهية الذات ومفهوم الآخر . وبذلك يُصبح المعنى طريقًا وطريقةً ، طريقًا إلى التفاعل الرمزي الاجتماعي، وطريقةً لفهم طبيعته ، وإدراك أبعاده ، وتوظيف خصائصه معنويًا وماديًا .

٣

الطبيعة الرمزية في اللغة والمجتمع تكشف الرغبات المَكبُوتة ، والأحلام المؤودة ، والتجارب المُجَهَّضة، وهذا الكشف يهدف إلى صياغة العلاقات الاجتماعية، وتنظيم إفرازات الواقع المُعاش، وإسقاط المعنى على الرمز ، ومنع المعنى من الدَّوْنان في خِطَابِ الهَيْمَةِ الثقافية ، وآلياتِ السَّيطرة التي تُنتجها الكيانات الأبويَّة . وبعبارة أخرى ، إنَّ مهمة اللغة والمُجتمع هي تَحْمِيل المعنى على

الرمز، وحماية المعنى والرمز من السقوط ، لأن الرمز (الحامل) هو الرافعة للمعنى (المحمول) ، وإذا سقطت هذه الرافعة سينهار المعنى والرمز معاً . وبما أن لكل إنسان تفسيراً خاصاً للعالم الذي يعيش فيه ، وتحليلاً ذاتياً لعناصر البيئة المحيطة به ، فلا بُدَّ أن يُصبح الواقع كِتَابًا مَفْتُوحًا على جميع الاحتمالات والقراءات والتأويلات ، ضمن عملية اجتماعية ديناميكية تتفاعل مع الذات سلوكاً وحاضراً ، وتتفاعل مع الذكريات وعياً وتاريخاً . والإنسان لا يملك إلا اللحظة الآنية التي يعيش فيها ، وهذه اللحظة الآنية (الحاضر) في صيرورة زمنية ومنظومة تاريخية تراكمية ، لأنَّ الإنسان يعيش في الحاضر محصوراً ضمن حدود اجتماعية جاهزة ، ومُحَاصَرًا بتأثيرات العقل الجمعي والنمط الاستهلاكي . وكلُّما تَقَدَّمَ الإنسان إلى المُستقبل صَارَ الحاضر ماضياً . وهذه العملية تضع الإنسان أمام تَحَدِّيات خطيرة. التَّحَدِّي الأول هو فقدان الإنسان للسيطرة على الحاضر المُعاش ، لأنَّ أجزاءه تنتقل إلى الماضي باستمرار . واللحظة التي يعيشها الإنسان مثل عود الثَّقَاب ، اشتعال لِمَرَّة واحدة فقط ، ثُمَّ الانطفاء الأبدي . وهذا يعني أنَّ الإنسان في سياق مع الزمن ، وعليه أن يستثمر كُلَّ لحظة ، ويستغل الضَّوء من أجل الذهاب إلى أبعد مدى مُمكن ، لأنَّ الانطفاء قادمٌ لا مُحَالَة ، والصَّيرورة الزمنية _ في واقع الأمر _ هي عملية انتقال كينونة التاريخ من الضَّوء إلى الانطفاء . التَّحَدِّي الثاني هو عدم امتلاك الإنسان للتفاصيل في رحلته إلى المُستقبل المجهول، وبالتالي سيتعرَّض لكثير من التَّحَوُّلات الصادمة ، والمُفاجآت غير المُحسوبة. وغُنصر المُفاجأة شديد التعقيد والخطورة ، ويصعب التعامل معه في ظل الضغوطات من كُل الاتجاهات ، وعلى الإنسان أن يَمْتَلِك حُسْنَ التخطيط وسُرعة البديهة ، ويتعامل مع الأمر الواقع بهدوء لمنع انهيار المعنى الاجتماعي ، لأن الارتباك هو غرق الإنسان في الأوهام ، وانهيار معنى حياته . والتَّحَدِّي الثالث هو تَحَرُّك الإنسان تحت الضغط ضمن دائرة حياتية مُغلقة ، وعليه أن يُوسِّع هذه الدائرة قَدْرَ المُستطاع ، كي يَتَنَزَّع مساحةً للحركة والمُناوَرَة ، ويَمْتَلِك قراره الشخصي ، فهو في معركة فكرية للانتصار على نَفْسِهِ ، والحُصُولِ على وُجُوده ، ليس كغنيمة ، وإنما كَرُؤية للخلاص .

*

الإنسان الضائع في مَقَاهِ الحضارة

١

وظيفةُ الظواهر الثقافية في الوجود الإنساني هي إقامةُ العلاقات الاجتماعية على القواعد الأخلاقية ، وتوظيفُ عناصر ذاكرة المجتمع من أجل تأسيس التوازن بين الذات الفردية والذات الجماعية، ممَّا يدفع باتجاه استثمار الخبرات الحياتية في تحليل الشعور الإنساني، وإنتاج فلسفة عملية تُساهم في تحقيق الذات ، وصناعةِ آليات معرفية ديناميكية تتعامل مع الواقع كمفهوم إبداعي ، وتتعامل مع الحقيقة كإطار مرجعي ، وهذا يُساهم في تفسير السلوك الإنساني ظاهريًا وباطنيًا ، والانتقال من كيان الشخص إلى تكوين الشخصية ، باعتبارها القُوَّة الضاربة والدافعة لتشديد وعي الإنسان بذاته في عالم يتشظى ، ويفقد كينونته الأخلاقية تدريجيًا تحت ضغط الأنماط الاستهلاكية المُتوحَّشة . وغرقُ العالم في أعماق اللامعنى المُوحَّشة ناتجٌ عن انطماسِ الفِطْرَةِ الأولى وانكسارِ البراءة الأصلية ، فصارَ التاريخُ مشروعًا تجاريًا ، وصارت الجغرافيا شريعةً استغلاليةً ، وراحَ الإنسانُ يبحث عن نفسه خارج نفسه ، وأخذت الحضارةُ تُبني شرعيتها على أنقاض الحضارات الأخرى، بسبب القناعة المغلوطة بأن إثبات الحاضر لا يكون إلا بنفي الماضي. وهذه الأوهام في بنية التفكير تحوَّلت إلى قُوَّة مُحركة لفلسفة نهاية التاريخ، والإنسان لا يستطيع أن يحكم على التاريخ بالانتهاء، لأن التاريخ بدأ قبل الإنسان، ولأن الإنسان موجودًا عندما ينتهي التاريخ. والإنسانُ صيف على التاريخ، وليس العكس . والصَّيْفُ لا يتحكَّم بصاحب البيت .

٢

مسارُ العلاقات الاجتماعية الأخلاقية يتكوَّن من الوجود (القاعدة الجوهرية الحاملة لشرعية الذات الإنسانية وسلطة المعرفة) ، والشُّعُورِ (التَّصَوُّر الداخلي الذي يستخدم المعنى الرمزي لصياغة تفاصيل الحياة اليومية)، والسلوكِ (الوعاء الحاضن للفاعلية المعنوية والدافعية المادية والشُّروط الحياتية والوظيفة الغائية) . ومُهمَّةُ الأنساق الفكرية في المجتمع هي منع التَّشَطُّي في هذا المسار، والحفاظُ على وحدة عناصره المُتجانسة، وبناء تجارب معرفية واعية تُحلِّل التأثيرات التي تتركها الظواهر الثقافية على دوافع الأفراد الداخلية ، وضمانُ التراتبية في القيم الخيالية والمعايير الواقعية ، من أجل تحقيق المنفعة الخاصة والمصلحة العامة . وهذه المُهمَّة الوجودية تُنتج خطَّابها التفسيري الخاص بها ، والقادر على كشف منطق التاريخ الحقيقي لا المُتخَيَّل ، وبيان

دور العناصر الفاعلة والمؤثرة في مجرى أحداثه . وإذا تَكَرَّسَ التاريخُ في علامات الماضي وإشارات الحاضر ورموز المستقبل ، فإن الثقافة ستملك القدرة على تحديد إفرازات ذاكرة المجتمع في وجود الإنسان ، وحيوية المعنى الإبداعي ، ومركزية الدلالة المعرفية ، ممَّا يَقُود إلى تفكيكِ بَصْمَةِ المعنى الاجتماعي على جسد اللغة ، وتحليلِ مُكوِّنات الخريطة اللغوية في بُنية العلاقات الاجتماعية . وهذا يعني وصول المجتمع إلى حالة التوازن بين مركزية المعنى الاجتماعي ورمزية المعنى اللغوي . وكُلُّ حالة تَوَازُن هي بالضرورة مرحلة من مراحل السلام الداخلي ، والتصالح مع الذات .

٣

الإشكالية التي يُعاني منها الإنسانُ الضائع في مَتَاهَةِ الحضارة ، هي عدم تفريقه بين الدَّالِّ (صورة الوجود التي تدل عليه) والمَدلول (التَّصَوُّر الذهني للوجود المَعْنِي) ، فالإنسان _ أثناء لُهاثِهِ اليومي في الحياة _ يَنسى أن يَعِيش ، فَتُصْبِحَ حياته ضِدَّ معنى الحياة ، وتَصير ذِكرِياته انقِلابًا على ذاكرته . وبسبب تركيز الإنسان على توفير مُتطلباته اليوميَّة، وحرصه على تلبية حاجاته الحيائيَّة ، نَسِيَ ماهيَّة الزمان ، ومركزية المكان ، وفلسفة الحياة ، ولم يَعدْ يَشعر بمُكوِّنات ذاته ، وعناصر الطبيعة المُحيطة به. والمفروض أن الإنسان يُسافر مِن بيئته الظاهرية إلى ذاته الباطنية لاكتشاف أبعادها ومعرفة أسرارها ، لأن الوجود الحقيقي هو سَفَرٌ باتجاه الذات ، وغَوْصٌ في أعماقِ الوُعي ، وتنقيب في داخل الشُّعور . أمَّا الهُروبُ من الذات إلى العناصر الخارجية المُحيطة بها ، فهو وُجودٌ زائف يُنتج الاغترابَ (الانفصال عن الذات والآخرين) ، وحياةً وهمية تُنتج الاستلابَ (كَبَتْ أحلام الفرد وَخَنَقَ طُموحات المُجتمع) .

*

اللغة بين النظام الرمزي والمنظومة الاجتماعية

١

بُنية الفعل الاجتماعي تستند إلى تحقيق الذات ، وتعتمد على توفير السيادة ، مما يؤدي إلى إفساح المجال لتعبير الإنسان عن كيانه ، وتفعيل أحلامه ، وإشباع رغباته ، وامتلاك السيادة على الفعل الاجتماعي في المنظومة الثقافية ، والتحكُّم بالفاعلية الأخلاقية في حركة التاريخ . وإذا خضع الفعل الاجتماعي للفعل الثقافي ، فإنَّ مُجتمَعًا جديدًا سيظهر ، مالكا حُرِّيته ، ومُتحرِّرًا من تأثير المصالح الشخصية التي يتم تقديمها كمصالح عامّة للسيطرة على العقل الجمعي ، وخداعه ، وأدلجته ، وتوجيهه نحو تكريس مُسلّمات فكرية افتراضية ، لا حقيقة لها على أرض الواقع ، وتجدير لوازم اجتماعية ليست بلزمة ، من أجل الهيمنة على الخطاب الاستغلالي ، وصبغه بهالة الإنسانية ، والهيمنة على مسار الشُّكوك ، وصبغه بهالة اليقين . وهذه الأوهام المُتكاثرة لا يُمكن كشفها إلا بنقل اللغة من النظام الرمزي إلى المنظومة الاجتماعية ، لأنَّ اللغة هي الكون العقلاني الذي يملك الآليات المعرفية ، والأدوات الإبداعية الكاشفة عن قواعد المنهج العلمي في بُنية الفعل الاجتماعي . والانتقال اللغوي من النظام إلى المنظومة يعني تحويل قوانين اللغة وقواعدها إلى أفكار لتغيير المجتمع ، ومبادئ لتوليد التاريخ بشكل مُستمر ، فتتجمّع العناصر الاجتماعية المُشكّنة وتعمل في إطار واحد ، يمتاز بالتجانس الفكري والترابط المنطقي . والانتقال اللغوي من التفاعل الرمزي إلى التفاعل الاجتماعي يعني تحويل العوالم الذهنية المُجرّدة إلى سلوكيات فردية ، ومفاهيم واعية لإعادة إنتاج الكينونة الإنسانية المُبدعة ، فتتجمّع الأفكار الفردية المُبعثرة ، وتنقل من العالم الداخلي (داخل الإنسان كشخص وحيد) إلى العالم الخارجي (داخل المُجتمع كشخصية اعتبارية) ، من أجل صناعة المعنى ، وتوظيفه لتحليل السياقات الاجتماعية الخاصّة والعامة .

٢

مركزية اللغة في البناء الاجتماعي ، الداخلي والخارجي ، مرتبطة بشكل وثيق بحاجة الإنسان إلى الانتماء ، فالإنسان ليس كُتلة مُعلّقة في الفراغ ، وإنما كينونة كامنة في أعماق الوجود ، ومُنعكسة على سطحه ، وهذا يعني أن الإنسان يتحرّك وفق مُستويين ، باطني (جوهري) وظاهري (عَرَضِي) ، وهذه الحركة تُولّد القُوّة الدافعة لأفكاره ومشاعره، وتَجعله يَرغب في اكتشاف

نفسه، وإيجاد معناه، والاقتراب من حقيقته قَدَرُ المُستطاع. وفلسفَةُ الأحداثِ اليَوْمِيَّةِ تُمثِّلُ فُرْصَةً للإنسان للابتعاد عن أوهامه ، والاقتراب من معنى الحياة، والوصول إلى وجهه العاري من الأُقنعة . والحياةُ سَفَرٌ مُتواصل من الداخل (التأمُّل الذاتي) إلى الخارج (التطبيق الواقعي)، ممَّا يُؤدِّي إلى توحيد الأبعاد الإنسانية المرتبطة بالسلوك (الفعل الفطري) والتجربة الثقافية (الفعل القسدي)، وسيطرة الثقافة على السلوك تُنتج الفعل الاجتماعي ، الذي يُمثِّل حركةً إراديةً لتحقيق هدف مُحدَّد وغاية مُعيَّنة. وبما أنَّ الدوات الإنسانية كيانات واعية ، والظواهر الثقافية مُنتجات اجتماعية ، فإنَّ اللغة (سلاح الإنسان الفَعَال) سَوْفَ تتكرَّس كمُجتمع مُتكامل ومُتجانس ، وقادر على احتضان الأحلام الفردية والآمال الجماعية .

٣

انتقال اللغة عبر العوالم الفكرية والظواهر الثقافية والتجارب المعرفية، يحتاج إلى وسيط بين العمق الرمزي والسطح الاجتماعي ، لأنَّ البنى الاجتماعية الظاهرية انعكاس للنشاط الذهني الباطني ، ولا يُمكن فهم الإنسان والمُجتمع إلا بفهم العلاقة بينهما ، لأنَّ طبيعة هذه العلاقة تُكشف عن الأفكار المُتعلِّقة بالفعل الاجتماعي ، والمعايير المُرتبطة بالظاهرة الثقافية ، والحقائق المُتفاعلة مع مضمون التفاعل الرمزي ، باعتباره منهجًا مركزيًا ، وآليَّةً للفهم والتحليل ، وأداةً للتواصل مع الذات ، وتوصيل المعنى إلى الآخر . وهكذا ، تتشكَّل إفرازاتُ اللغة في إطار التواصل الاجتماعي . وبما أنَّ الإنسان يتعامل مع المواضيع اعتمادًا على تجاربه الذاتية ومعانيه الشخصية ومعانيه الأخلاقية ، فإنَّ ماهيَّة المواضيع ستكون نسبية لا مُطلَّقة ، والمعنى الكامن وراء السلوكيات الفردية سيكون مُتغيِّرًا لا ثابتًا . وكلُّ إنسان يَمْتَلِك حياةً فكرية خاصةً به ، ويُحاول إثبات وجوده وَفْق منظوره الفكري وزاوية رؤيته للأحداث. واختلافُ الأحكام من إنسان إلى آخر يجعل المصادر الثقافية للفعل الاجتماعي مُختلفة ، وإذا اختلفت أحكامُ الفاعل ، اختلفت صفاتُ الفعل .



تفسير التاريخ والمعنى الوجودي للحياة

١

تفسير التاريخ يُشكّل تاريخًا جديدًا للمعنى الوجودي، وحياةً مُوازية لحياة الإنسان . وبما أن عملية التفسير تشتمل على الأسئلة المصيرية والأجوبة المنطقية ، فإن التاريخ سيؤول إلى تواريخ مُتعددة ومُتكاثرة . إذ إنّ كُلَّ تفسير للتاريخ ولادةٌ جديدة له، وكل ولادة ظاهرة معرفية تمتاز بالاستمرارية في سلطة الأفكار، وتتمتع بالديمومة في الظواهر الثقافية . وهذا يعني أن التاريخ يُولد باستمرار كنشاط ذهني خارج الزمان والمكان . وهذا الانبعاث التاريخي الدائم يَمْتَلِكُ القُدرة على التواصل مع عوالم الإنسان الداخلية بلا انقطاع ، ويستطيع تجميع قواعد المنهج الاجتماعي المتناثرة في البيئات المُحيطة بالإنسان بلا توقّف ، ممّا يدلُّ على أن التاريخ يكتسب شرعيته من داخله ، وليس من علاقته مع المراحل الزمنية . ومع أنّ التاريخ يتماهى مع بُنية الزمان المركزية ، وطبيعة المكان الرمزية ، إلا أن يَمْتَلِكُ وجودًا خاصًا به عابرًا للتجنيس ، ومُتجاوزًا للصراع الوهمي بين الماضي والحاضر . ومن أجل حماية التاريخ من التَشَطّي الوجودي والتَشُعّب الفكري ، وإحكام السيطرة على ولادات التاريخ المتواصلة، ينبغي ربط تفسير التاريخ بالتحليل النفسي للأفراد والجماعات، للكشف عن منطق التاريخ، والوعّي العميق الذي يُحرّك الأحداث ، ويُحدّد معالم الهوية التاريخية قَلْبًا وَقَالِبًا ، وهذا من شأنه تحليل الخطاب المعرفي القائم على أنسنة التاريخ (إضفاء الصفات الإنسانية على التاريخ) ، ووصولًا إلى تجسيد تاريخ الإنسان ذهنيًا وواقعيًا . وهذه العلاقة الفلسفية التبادلية بين التاريخ والإنسان تُشير إلى أنّهما كائنان حيّان، يتحرّكان بشكل مُتوازٍ مع مصادر المعرفة ومرجعيات الثقافة ، ويلتقيان في مجالات التفكير العقلاني ، ومنظومة الأخلاق، والتجارب الاجتماعية، وأشكال الوُعّي ، وانعكاسات المعنى على مسار الحركة الفكرية في المجتمع .

٢

مركزُ التاريخ في السلوك الإنساني يستمد أهميته من بصيرة اللغة ، وغريزة المعنى ، فاللغة قادرةٌ على تحرير الوُعّي من اغتراب الإنسان في ذاته ، وغُربته عن ذاته . والمعنى قادرٌ على إنشاء منظومة أخلاقية مُفتحة على دور البنى الاجتماعية في صناعة الحياة . وإذا استطاع التاريخ تحليل علاقة الإنسان مع ذاته ، وتحويل اللغة والمعنى إلى إطار مرجعي للإنسان في مُجتمعِهِ ، فإن الفراغ

الموجود في تاريخ الإنسان الروحي والجسدي، سَوْفَ يتمُّ سَدُّه باستخدام نظام الإدراك العقلي للحقيقة ومُكوّناتها وسياقاتها ، فتتحرّر كينونة الإنسان من المأزق الوجودي ، وتنتقل من فلسفة الفراغ إلى فلسفة الوُعي . وبالتالي ، تكتمل صورة المجتمع المنقوصة بسبب ضغط النظام الاستهلاكي على الثقافة والقيم والمعايير ، وتحرّر ماهيّة المجتمع من الصدمة الحضارية، وتنتقل من الغياب إلى الحضور (استعادة الوجود من العدم وتحقيق التوازن في ظل انهيار المشاعر). وكأن التاريخ يخطف الحقيقة الاجتماعية في الوجود، لإضفاء المعنى على الأشياء، ومنح الشرعية للعناصر ، وتخليص الإنسان من العزلة . وبما أن العزلة لا تُدرك إلا بنقيضها ، فلا بُد من مُحاصرة العزلة بالتواصل مع الإنسان، وتوصيل قيمة الأنسنة إلى عناصر البيئة المُحيطة بالإنسان. ولا بُد من ملء الفراغ بالأحلام المشروعة، لأن بداية حُلُم الإنسان هي البداية الحقيقية للتاريخ والمجتمع، والتاريخ لا ينتهي إلا إذا انكسر حُلُم الإنسان ، والمُجتمع لا يتفكك إلا إذا فَقَدَ الإنسان معناه الوجودي ، ولم يعرف جدوى حياته .

٣

تحرير الإنسان من المأزق الوجودي، وتحرير المجتمع من الصدمة الحضارية ، يُمثّلان نظامًا معرفيًا واحدًا، بلا فواصل زمنية ، ولا عُقد نفسية ، ولا حواجز واقعية ، وهذا النظام يُجسّد ثنائية الخلاص والتخليص ، خلاص الأنساق الحياتية من الغربة الروحية والكبت الجسدي ، وتخليص الزمان والمكان من التراكمات التاريخية التي تمّت أدلجتها لتحويل التاريخ إلى سيف مُصلّت على ذكريات الإنسان وذاكرة المجتمع . وفي كثير من الأحيان ، يهرب الإنسان من تاريخه بحثًا عن تاريخ جديد ، أي إنّه يهرب من إفرازات الضغط النفسي إلى الإحساس بالراحة الوهمية . وهذه عملية شديدة الخطورة ، لأنها رحلة من الهوية إلى الهاوية ، ومن الوجه إلى القناع . وعندئذ سيحدث اختلاط بين المعاني المحسوسة والمعاني المُجرّدة ، ويؤول وعي الصراع إلى صراع الوُعي ، ممّا يدفع الإنسان إلى البحث في داخله عن عدوّه ، فيفقد القدرة على تحديد عدوّه الخارجي. وإذا انهار الإنسان من الداخل ، وبدأ يشك في نفسه ، فإنّ العناصر المُحيطة به سوف تتساقط تباغًا . وهذا يُؤثّر سلبًا على المجتمع بأكمله، لأنّ الإنسان عندما يخسر خريطة حياته ، فإنّ المُجتمع سيفقد بُوصلة وجوده .



مخاض المجتمع الفلسفية

١

تحليل الأفكار لا يَتِمُّ بِمَعْرِزٍ عن حاجة الفرد إلى الانتماء ، وحرصه على تأكيد الذات ، فالانتماء يمنح الأفكار شرعيتها الوجودية ، ومدّاهما الأخلاقي ، ومجالها الحيوي . وتأكيد الذات يمنح الأفكار القدرة على التعبير عن ذاتها ، وتحقيق التوازن بين الخيال والواقع ، وإنشاء منظومة من التطبيقات الإبداعية على الأرض . وهذا يعني أن الأفكار مُجتمع مركزي شديد الاستقطاب ، يقوم على سياسة المحاور العقلانية التي تتوازى مع الظواهر الثقافية، وتتقاطع مع التجارب الاجتماعية . وبما أن الأفكار مُجتمع متكامل قائم بذاته ، فلا بُدَّ أن يُنتج علاقات اجتماعية خاصة به . وإذا كانت الأفكار نِتاج التفكير المُتكرّر والتأمل العميق ، فإنَّ العلاقات الاجتماعية نِتاج عملية التوليد المُستمر للأفكار ، التي تُؤسِّس سُلطة المعرفة في بُنية المُجتمع الإنساني . وهذه السُلطة _ بما تملكه من آليات وأدوات _ قادرة على تحويل الإفرازات الذهنية إلى سلوكيات عملية ، ونقل الوعي الإنساني من المبنى (الشكل) إلى المعنى (الجوهر) ، وعندئذ يصبح الخيال الهلامي واقعاً محسوساً ، وهذا يُساهم في بلورة شخصية الفرد الذاتية ، وتكوين سُلطة المجتمع الاعتبارية . وكلُّ مُجتمع يَعْرِف مَسَارَه ويُدرك مَصِيرَه ، يستمد قُوَّته الشرعية من سُلطَتَيْن في آنٍ معاً : الوجود والمعرفة . وهاتان السُلطانان تُحرران رُوحَ الوعي من جسد المنظومة الاستهلاكية المادية ، من أجل ضمان الانتقال السلس للأفكار من الذهن المُجرّد إلى الوجود المُحقّق . وانتقال الأفكار يُمثّل _ في واقع الأمر _ رحلة المجتمع من جسد اللامعنى في الفراغ إلى تجسيد المعنى في الوجود .

٢

كلُّ علاقةٍ فِكْرَةٍ ، وكلُّ فِكْرَةٍ سُلطةٌ . والمعرفة هي النّواة المركزية بين هاتين القاعدتين . وهذا يعني أنَّ الكينونة الكامنة في جوهر المُجتمع عبارة عن رحلة وجودية مُستمرة لها خط سير يحتوي على معالم واضحة ، لكنّها تُبدّل مواضعها ، وهذه المعالم تُمثّل عناصر المُجتمع الفلسفية ، وهي : العلاقة والفكرة والسُلطة والمعرفة . وحرف (الواو) يُفيد العطفَ ، ولا يُفيد الترتيب أو التعقيب . وبالتالي ، فهذه العناصر الأربعة تُبدّل مواضعها ، وتُغيّر أماكنها ، وليس بالضرورة أن يأتي كلُّ عُنصر بعد الآخر . وسبب عدم الثبات يعود إلى أنَّ قيمة المعرفة نسبية ، وليست مُطلقةً . وكلُّ أمرٍ نسبي

هو مُتغيّر ومُختلف باختلاف الزمان والمكان وطبيعة الناس . وهذه العناصر الأربعة يتّم صَهرها في بَوتقة المُجتمع ، فتُصبح جُزءًا مِن كَيانه ، لا تَنفصل عن مَعناه وحقيقة وجوده ، ولا يُمكن استرجاعها ، ولكن يُمكن ملاحظة آثارها وتَتبّع تأثيرها .

٣

الخيال هو بداية الإبداع ، لكن الواقع سابق على الخيال ، لأنّ الفرد يأخذ الخِبرات مِن عناصر البيئة المُحيطة به ، ويكتسب التجارب من المُكوّنات الحياتيّة التي يَستطيع إدراكها . والإنسان إذا لم يُدرك شيئًا بِحواسّه ، فلا يُمكن أن يتخيّله . وكما أن الخيال هو بداية الإبداع ، فإن الواقع هو بداية الخيال ، لأنّ وظيفة الخيال تغيير الواقع ، وليست وظيفة الواقع تغيير الخيال ، وهذا يُثبت أن الخيال مهما كان مُتحرّرًا مِن ضُغوطات الأحداث اليوميّة ، فهو تابع للواقع بشكل أو بآخر . والخيال هو الوسيلة المعرفية ، والواقع هو الغاية الوجودية . وكما أن المِلح إذا ذاب في الماء ، يُصبح جُزءًا مِن ماهيّة الماء ، كذلك الخيال إذا ذاب في المجتمع ، يُصبح جُزءًا مِن حقيقة المجتمع الواقعية ، ولا يُمكن الفصل بين الخيال والواقع ، وإذا أفلتَ الشيء من سيطرة الفرد ، لا يُمكن استرجاعه ، أو إعادته إلى حالته الأولى .

٤

قُوّة الخيال تتجلّى في تحويل الكينونة الكامنة في جوهر المُجتمع إلى كيان إنساني مُتجدّد ، يشتمل على أحلام الماضي، وأبعاده الرمزية الحاملة للأفكار، وتَجلّياته في تطبيقات الحاضر المُعاش . وبعبارة أخرى ، إنّ مُهمة الخيال هي استعادة الحُلُم من الماضي، ومنع الفرد مِن أن يعيش الحاضر في الماضي ، لكي لا تُصبح الحياة التي لا تتكرّر عبارة عن ماضٍ يتكرّر . وإذا تجدّرت الأفكار في حياة الفرد ، فإنّه سيَتأمّل في ذاته ، للخروج مِن ذاته المُحصّرة بِحدود الزمان والمكان ، من أجل اقتحام المُستقبل بثقة وجُراة. والتأمّل في الذات ضروريّ للغاية ، لأنّه الوسيلة لتحويل الألم الاجتماعي إلى لَذّة فكرية، وهذا يمنع حدوث اصطدام بين أحلام الفرد وطُموحات الجماعة ، فيجد الفرد ذاتَه ، ويصل إلى حالة الإشباع، وتجد الجماعة طَريقَها ، وتصل إلى حالة الاكتفاء . والاتّزان الاجتماعي يقوم على تقدير الإشباع الفردي ، وتحقيق الاكتفاء الجَماعي ، وتطبيق القيم الأخلاقية في الشعور والسلوك ، اللذين يُساهمان في تكوين شخصية الفرد ، ظاهريًا وباطنيًا . ويُمكن تعريف الاتّزان الاجتماعي بأنّه إنشاء علاقات اجتماعية تقوم على التوفيق بين الأفكار المؤثّرة في الحياة الفردية والجماعية ، وهي الأفكار السلوكية والأفكار النَفسيّة .

تاريخ المعنى في داخل الإنسان

١

الطاقة الرمزية في اللغة تُحدّد أشكال المعرفة في المجتمع، وتُؤسّس منظومة المعايير الأخلاقية في السلوك الإنساني، وتُبنى أركان سلطة الوحدة الاجتماعية، باعتبارها منبع الشعور الجماعي بالولاء للحقيقة، والانتماء إلى المعنى. وإذا كان الرمز هو قلب اللغة النابض، فإنّ الهوية هي شخصية المجتمع الحيّة. وإذا اندمج الرمز اللغوي مع الهوية الاجتماعية، فإنّ ظواهر ثقافية ستولد، وتنمو في فلسفة الوعي، وتطوّر أدواتها وأساليبها من أجل الوصول إلى مصادر المعرفة، وسمات الذات الإنسانية. وهذا من شأنه إيجاد تفسيرات جديدة للحياة الاجتماعية، وعلاقتها مع وظيفة اللغة في تاريخ الوجود فكراً وممارسةً، وارتباطها بمركزية الإنسان في وجود التاريخ منهجاً وسلوكاً. ولا يمكن تكوين بنية تفسيرية للعناصر التاريخية والمركبات الوجودية، إلا بتحديد الأساس الفلسفي لعملية تأويل العلاقات الاجتماعية، وتتبع مسار الوعي في تاريخ المعنى الإنساني، وهذا الأمر ضروري، لأنه يرسم الحدود الفاصلة بين وجود الإنسان وأفكاره. وبما أنّ كلّ وجود يُنتج وعياً خاصاً به، فلا بُد أن يدخل تاريخ الإنسان في صيرورة مستمرة (الانتقال الدائم من الهوية إلى السلوك، ومن الكينونة إلى الكيان، ومن الخيال إلى الواقع، ومن المنهج إلى الحركة، ومن الدليل إلى المدلول).

٢

الإشكالية في الحياة الاجتماعية تتجلى في عودة الفرد الذي لا يشعر بوجوده في الحاضر _ إلى الماضي بحثاً عن هويته. وهذه العملية _ في الحقيقة _ تمثل هروباً من الهوية، لأنّ الهوية كينونة وجودية اعتبارية قائمة على الوعي بالذات والعناصر المحيطة بها، وطبيعتها الهوية ذاتية غير محصورة في العصور الزمنية والأطر المكانية. وكلّ فرد ينبغي أن يبنى نفسه في حاضره المحسوس، وإذا عجز عن إيجاد حاضره فلن يجد ماضيه. وإذا لم يعرف الفرد نفسه فلا فائدة من التّعني بأجداد آباءه. والهوية ليست هروباً عبر الأزمنة الماضية، أو فراراً إلى الأمكنة البعيدة، وليست شيئاً ضائعاً في تراكمات التاريخ كي نبحت عنه، أو حُلماً تائهاً في أنقاض المشاعر الإنسانية كي نحاول استعادته، أو جُنةً مجهولة تنتظر التنفّس الاصطناعي. إنّ الهوية كيان قائم بذاته لا يسجن في الزمان والمكان، وبناءً وجودي مستمر لا يحصر في الأهواء الذاتية والمصالح الشخصية.

لا ينبغي للإنسان أن يبحث عن نفسه خارج نفسه ، لأن وجود الإنسان هو شرعيته غير المستمدة من العناصر الخارجية . ولا ينبغي أن تبحث الظواهر الثقافية عن التاريخ خارج التاريخ ، لتأسيس منظومة فكرية منقطعة عن صراعات الماضي ، ومنفصلة عن تحديات الحاضر. إن الإنسان هو التاريخ، ومهمته الظواهر الثقافية هي البحث عن تاريخ المعنى في داخل الإنسان (الإنسان منظوراً إليه من الداخل) . وإذا كانت هوية الإنسان هي البصمة الوجودية المميزة له ، فإن هوية التاريخ هي التراكم المعرفي ضمن مركزية اللغة العابرة للتجنيس . وبالتالي ، يصبح الوجود الإنساني صياغة مستمرة لسُلطة المعرفة في التاريخ ، الذي تكشف عنه الطاقة الرمزية في اللغة ، التي تعمل على منع الوعي التاريخي من التَشَطِّي، وحماية الذات الإنسانية من الانقسام . وإذا أردنا تحليل الوجود الإنساني المُحاصر بضغوطات الواقع المُعاش ، يجب عدم دراسة التاريخ كجسد ثقافي مُتماسك، وإنما دراسة تصدُّعات التاريخ وانكسارات المعنى ، من أجل تحديد نقاط الاتصال والانفصال في مسار التاريخ كسلطة معرفية ، ومسار وعي الإنسان بالتاريخ كمنهج أخلاقي . والشُّروخ في جسد التاريخ هي التي تكشف حقيقته ، كما يكشف المرض حقيقة الإنسان، ويظهر مستوى جهاز المناعة. وفي حقيقة الأمر، نحن لا نتعامل مع التاريخ كوحدة واحدة وبنية مُتماسكة وكثلة مُتراصة، وإنما نتعامل مع تأثيرات التاريخ على المجتمع ، وانعكاسات الماضي على الحاضر ، وهذه العملية تُشبه الوقوف أمام المرأة ، ووجودها ليس مقصوداً لذاته، لأن وظيفة المرأة هي عكس الصورة ، وليس إنشاء صورة جديدة . وفي كثير من الأحيان ، يصبح التاريخ مثل البركان ، نهتم بالحمم المنبعثة منه ، ولا نفكر في التزلزل إلى قُوَّته أو تحليل تضاريسه . وقد يصبح التاريخ مثل الزلزال، نهتم بالاهتزازات وتشقُّقات الأرض ، ولا نفكر في التركيب الجيولوجي للصخور .

*

الأثر الاجتماعي والمؤثر الإنساني

١

الربط بين الوُعي الإنساني والمعنى الجوهرى للفعل الاجتماعى ، لا يتمُّ وفُق إجراءات ميكانيكية أو مُصادَفَات عَيْبِيَّة ، وإنَّما هو حَرَكَ ذَهْنِي مَقْصُود ، له امتداد واقعي هادف. وهذا الامتداد يكشف ماهيَّة الوسيلة وطبيعة الغاية ، والبنية الرمزية اللغوية التي تقوم بمُهمة ترسيم الحدود الفاصلة بين الفعل الاجتماعى (السلوك الإنسانى الإرادى الذى يَمْلِك مسارًا واضحًا وهدفًا مُحدَّدًا) وبين الفاعل الاجتماعى (الشخص الذى يَمْلِك وَعْيًا ذاتيًا ويقوم بدُور واقعي في بيئته المُحيطة) . والتمييزُ بين الفعل والفاعل في البنى الاجتماعية يَبْدُو سهلًا وبسيطًا للوهلة الأولى، ولكنه شديد التعقيد ، لأنَّ البنى الاجتماعية عبارة عن تراكمات تاريخية ، ومفاهيم مُختلطة من الماضى والحاضر ، وأزمنة مُتَشَعِّبة ، وأمكنة مُنْفَتِحَة ، وحيَوات مُمْتَرِجَة ، ومُتواليات وجودية من الفعل ورد الفعل . وكُلُّ عُنصر اجتماعى في هذه الصَّيغ المُتَكَثِّرة عبارة عن بناء قائم بذاته ، ويمْلِك صَوْتًا خاصًا به . وفي ظلِّ اختلاط الأصوات في الحياة المادية السريعة ، يُصبح من الصعب التمييز بين الفعل ورد الفعل من جهة ، والفعل والفاعل من جهة أخرى . وفي كثير من الأحيان ، يتمُّ حَصْر الوُعي الاجتماعى في دائرة الأثر بدُون ظُهور للمؤثِّر . والأمرُ يُشَبِّه السَّير في غابة كثيفة الأشجار ، فنحن نرى الأشجارَ ماثلةً أمامنا ، ولها وجود مادي محسوس ، ولكننا لا نَعْرِفُ هُويَّة الأشخاص الذين قاموا بزراعتها ، ولا نَعْلَمُ شيئًا عن زمن زراعتها . أي إننا نتحرَّك في الغابة مُحَاصِرِينَ بالأشجار ، ومَحْصُورِينَ ضِمْنَ ظُرُوف آتِيَّة بلا أدنى معرفة بهُويَّة الزارع ، ودُون امتلاك أيَّة فِكْرة عن زمن الزراعة . وكذلك المجتمع الإنسانى، فهو شبكةٌ من العلامات المُتنوعة التي تدلُّ على العلاقات الاجتماعية المُتشابكة ، ونسيجٌ من الآثار المتعددة التي تُشير إلى المشاعر الوجودية المُتضاربة . وهذا يعنى أنَّ الإنسان يعيش في الواقع خاضعًا للإفرازات الاجتماعية والنَفْسِيَّة ، دُون معرفة طبيعة السُّلطة المعرفية المُتراكمة تاريخيًا التي تُنتج هذه الإفرازات. وبعبارة أخرى ، إنَّ حياة الإنسان تحت الضغوط الاستهلاكية تتكرَّس في حُضور الأثر الاجتماعى في ظلِّ غياب المؤثِّر الإنسانى، وهذا سبب غربة الإنسان الروحية واغترابه الوجدانى. وإذا كانت الأنظمة المالية تعتمد على غطاء الذهب ، حيث يتم استعمال الذهب كقاعدة لتحديد قيمة العُملة ، للحفاظ على قُوَّة الاقتصاد ، ومنع التضخم ، فيجب على الأنظمة الاجتماعية أن تعتمد على غطاء المشاعر الإنسانية ، حيث يتم توظيفها كقاعدة للحفاظ على وجود الإنسان

معنويًا وماديًا ، ومنع التوحش . وكلُّ علاقة اجتماعية لا تقوم بقتل الوحش في داخل الإنسان ، تُعْتَبَر وصمة عار على جبين الإنسانية ، ومغولُ هدم في تاريخ الحضارة .

٢

إذا كان غيابُ الزمن واختفاءُ الهوية هما منبعُ الحرّية في الغابة ، فإنّ العكس هو الصحيح في المجتمع ، أي إنّ حضور الزمن وظهور الهوية هما منبعُ الحرّية في المجتمع ، وفلسفةُ التحرُّر من الإفرازات الاجتماعية التي تُمارس الوصاية على العقل ، والإفرازات النَّفْسِيَّة التي تُحاصر الظواهر الثقافية ، وتمنعها من الانطلاق ، وتأسيس قيمٍ إبداعية في تفاصيل الأحداث اليومية . والزمنُ والهوية يملكان تأثيرًا مُتبادلاً ، فالزمنُ يُعيد بناء الدلالات المعرفية في الهوية ، ويحررها من القالب الاستهلاكي، ويُعيدّها إلى البراءة والفطرة، ممّا يُكرّس مبدأً اليقين في الهوية ، ويُطهرها من الشك . والهوية تُعيد بناء المعاني اللغوية في الزمن ، وتحرّره من الصدام المُتخيّل بين الأصالة والمعاصرة ، وتُنقّيه من التناقض المصلحي بين التراث والتأويل .

٣

فلسفةُ التعامل مع ثنائية (حضور الأثر / غياب المؤثر) في البنى الاجتماعية تستمد معناها وشرعيتها من اختلاف العلاقات الاجتماعية، وليس تشابهها، لأنّ الاختلاف يكشف زوايا الرؤية ، ويوضّح طبيعة الأفكار المُتعارضة ، وهذا يعني بروز منهج المُقارَنة والترجيح ، والمُقارَنة لا تنشأ إلا في ظل الاختلاف ، والترجيح لا يظهر إلا عند التعارض. وهذا يُكرّس أهمية اكتشاف الآخر ، والتواصل معه ، والاطّلاع على أفكاره . وكلُّ مُبدع يملك أفكارًا نابعة من رؤيته ومستوى تفكيره ، ولكن أفكاره مُحاولات للوصول إلى الحقيقة ، وليست حقائق مُطلقة وثابتة . والسير في طريق الحقيقة لا يستلزم الوصول إليها . وكم من مُريد للخير لا يُصيبه ! . والأفكارُ المُختلفة هي طريق التكامل لا التصادم ، والنقدُ الحقيقي أكثر أهمية من المدح الزائف ، والأشخاص الذين يُقدّمون نقدًا قائمًا على قواعد المنهج العلمي _ حتى لو كانوا يكرهوننا ويحقدون علينا _ ، إنّما يكشفون عُيوبنا ، ونقاطَ ضَعْفنا ، ومواضع الخلل في حياتنا ، وبذلك يُقدّمون لنا _ من حيث لا يشعرون _ خدمةً جليلاً وفرصةً ذهبيةً ومُساعَدةً مجانيّةً ، لردم الثغرات ، وإزالة العقبات ، والتخلّص من مواطن النقص ، وعلاج نقاط الضعف ، وتعزيز مصادر القوّة . والدكاء هو الوصول إلى أبعد نقطة ممكنة بأقل تكلفة، والعاقِلُ يستفيد من أعدائه كما يستفيد من أصدقائه، ويحوّل النّعمة إلى نعمة ، والمِحْنة إلى منحة ، والجاهلُ يفعل العكس تمامًا .

خطورة انفصال الوعي عن الإرادة

١

البحث عن مصادر السُّلطة المعرفية في هيكليّة العلاقات الاجتماعية، يعتمد على تراكيب الظواهر الثقافية، ويستند إلى أبعاد الرموز اللغوية . والسُّلطة المعرفية _ باعتبارها قوة المعنى الشرعية التي تُوجّه الوعيَ الإنساني نحوَ السُّلوك الاجتماعي _ تُمثّل الأساسَ الفلسفي للرابطة الوجودية بين إرادة الإنسان وقُدْرته على تنفيذ إرادته على أرض الواقع . وإذا كانَ الوعيُ نابعاً من التأمل في الذات الإنسانية والطبيعة اللغوية والبيئة الاجتماعية ، فإنَّ الإرادة نابعة من التأمل في مفهوم السَّيادة وماهيّة الانتماء وحرّيّة التفكير . والإرادة لا تقوم إلا على الوعي ، لأنَّ الوعي هو التعبير الباطني المنطقي عن قُدرة الإنسان على الإحساس بأعماقه الروحية وتصوّراته الفكرية الداخلية ، وإدراكِ مُكوّنات المُحيط الخارجي . وإذا وصل الإنسانُ إلى مرحلة الإحساس بذاته وإدراك عوالمها المنظورة وغير المنظورة ، فإنَّه سيمتلك الوعيَ الحقيقي لا الزائف ، ممّا يجعله قادراً على تفسير العلاقة المصيرية بين كينونته المركزية وشخصية المجتمع الاعتبارية ، فيصبح فاعلاً أخلاقياً في الأحداث اليومية ، ومُنفعلاً بالأحلام والذكريات ، ومُتفاعلاً مع مدلولات رمزية اللغة التي تُصدر أحكامَ القيمة على الأشياء والعناصر . وبالتالي ، يَمتلك إرادته كاملةً ، وتُصبح أفكاره ذات سيادة على الأزمنة التي تعيش فيه ، والأمكنة التي يعيش فيها . وهذه السَّيادة لا تعني حُبَّ السَّيطرة والاستحواذ والاستغلال ، وإنّما تعني قُدرة الوعي الإنساني على تحديد معالم الطريق العقلاني في الحياة : الإرادة والمُريد والمُراد . وبعبارة أخرى: التصميم على أداء الفعل ، والفاعل ، والهدف المنشود .

٢

الوعي بالتغيير هو قاعدة الارتكاز لإرادة التغيير . وانفصال الوعي عن الإرادة يُمثّل انتكاسة خطيرة في حياة الإنسان والمجتمع ، لأنَّ هذا الانفصال يُفَرِّغ العلاقات الاجتماعية من جدواها ، ويحوّل الحُلم إلى كَوْن بلا كائن ، وهكذا يفقد الإنسانُ شعوره بالمسؤولية تجاه نفسه والآخرين ، ويصير رجلاً آلياً ذا مشاعر ميكانيكية مفروضة عليه من قبل نمط التفكير السائد في المجتمع . والإنسانُ المُدرك لذاته والأشياء المُحيطة به ، يخوض حُرّاً مع نفسه للمُحافظة على الارتباط بين الوعي والإرادة ، وعدم تحويل الأوهام الاستهلاكية إلى حدود فاصلة بينهما . وهذا من شأنه

تحقيق انفتاح معنى الوجود الإنساني على ديمومة التاريخ ، وحيوية الفكر الإبداعي في تجلياته التراثية والعصرية . وكلُّ وَغْيٍ بالذات هو انفتاح على المجتمع ، وبدُون الذات يُصبح المجتمع بلا بُوصلة ولا خريطة . ولا يُمكن بناء حُلْم التغيير في زمان بلا أبعاد ، ولا يُمكن رسم حدود السُّلطة المعرفية في مكان بلا جهات .

٣

الصراعُ من أجل البقاء يدفع الإنسانَ إلى الخوف ، والخَوْفُ يُجبره على صناعة وَغْيٍ زائفٍ ، لحماية وجوده في بيئة تفتقر إلى العدالة الاجتماعية ، وتحقيق مصالحه الشخصية في نظام استهلاكي قاسٍ ، والوصول إلى أهدافه غير المُعلنة ضمن منظومة العلاقات الاجتماعية القائمة على الولاء لا الكفاءة . والخَوْفُ يجعل الوَغْيَ الإنساني بالأشياء والعناصر وَغْيًا ناقصًا ونسيبًا ، فيفقد الإنسانُ القدرةَ على التعبير عن نفسه ، ويُحاول إخفاء مشاعره الحقيقية لكيلا يدفع الضريبة الاجتماعية، فينفصل معنى الوَغْي عن وظيفة اللغة، ويجد الإنسانُ نفسه مُحاصرًا من كل الجهات، فيندفع نحو اختراع الوَهْم وصَبْغِه بهالة الحقيقة ، ليُقنع نفسه أنَّ له مكانًا في المجتمع ، وأنَّ وجوده ليس كعدمه ، ويبدأ باستعادة الذكريات المنسية وتأطيرها في سياق أحلام المستقبل ، ليُقنع نفسه أنَّ حياته عبارة عن سُلطة اعتبارية لها شرعية في الزمان والمكان، ولها امتداد في الماضي والحاضر والمستقبل . والهدفُ من هذه التفاصيل تكوين منظومة الانتماء ، لأنَّ الإنسان كالشجرة ، لا يستطيع العيشَ بدُون جذور ، وإذا لم تُوجد جذور فسَوْفَ يُحاول اختراعها بأيِّ ثمن ، ليتحرَّر من الاغتراب الروحي ، والاستلاب الجسدي .

*

الحقيقة والمعاني المعرفية في المجتمع

١

شُعورُ الإنسان بالحقيقة في البنى الاجتماعية يُمثّل الخطوة الأولى في طريق تحرير المعاني المعرفية من العلاقات المصلحية في المجتمع، التي تُؤسّس فلسفتها على أساس تفريغ الإنسان من إنسانيته ، وتحويله إلى كيانٍ هَش يدور في فَلَك المنفعة الماديّة الفجّة ، وشيء هامشي ضمن ثنائية العُرض والطلّب . والعلاقات المصلحية تُؤدّي إلى توليد تفسيرات جديدة للعناصر الوجودية في المحيط الإنساني، فيُصبح من الصعب التعبير عنها في إطار فلسفة اللغة، لأن التفسيرات الجديدة التي لا تقوم على قاعدة فكرية متينة ، تجعل الأشياء عاجزة عن حَمْل المعاني ، وتدفع العناصر إلى الغرق في فوضى المصطلحات. وإذا انفصل الدال (المظهر) عن المدلول (الجوهر) ، برزت ظواهر اجتماعية تحمّل بذرة انهيارها في داخلها ، لأنّ الحياة قائمة على التوازن بين السطح الظاهري والغُمق الباطني ، وكلُّ خَلَل في هذا التوازن سيؤدّي إلى الانهيار . ولا يمكن لفروع الشجرة أن تنطلق في السماء (كُل ما علَاك سماء) ، إلا إذا كانت جذورها راسخة في أعماق الأرض .

٢

إذا تکرّست الحقيقة في فكر الإنسان وحياة المجتمع ، وصَلّا إلى تفاصيل القواعد الثقافية العميقة التي تحمل المعاني المعرفية ، وهذا يعني إعادة النظر في العلاقات بين الأضداد والروابط بين التناقضات . ففي كثير من الأحيان تحمّل الأشياء زُموراً تدلّ على أشياء أخرى ، ويُشير الضدُّ إلى ضِدّه ، ويُحيل النقيض إلى نقيضه . فمثلاً ، قد يصل الكاتب إلى العالمية عن طريق الإغراق في المحليّة ، وقد يصل السياسي إلى السُلطة عن طريق أحزاب المعارضة ، وقد يصل الطبيب إلى الدواء عن طريق تشخيص الداء . وهذه الانتقالات عبر الأضداد والتناقضات تُنتج وعياً اجتماعياً قادراً على الربط بين الأشياء المتنافرة ، وتبتكر فلسفةً عابرةً للظواهر السطحية، وُصولاً إلى الصوت الداخلي في أعماق الإنسان ، وجذور الأحداث اليومية والوقائع التاريخية . وهذا يُشير إلى أنّ الأفكار الحقيقية هي التي تتجّه إلى الغُمق ، ولا تكفي بملامسة السطح ، وأنّ معنى الإنسان كامن في داخله السحيق ، وأن اللغة المعرفية الفعّالة تتمركز خلف اللغة ، وما بين السطور أهم من السطور .

يُمَثِّلُ المُجْتَمَعُ الْإِنْسَانِي منظومةً مِنَ الكلمات والدَّلالات والأفكار والعقائد . وهذا يُؤَلِّدُ تَحَدِّيَّاتٍ اجتماعية جسيمة أمام الظواهر الثقافية ، لأنَّ كُلَّ منظومة معرفية تُنتج أنظمة تفسيرية مُرتبطة بها ، ممَّا يُؤدِّي ازدياد الإنتاج المعرفي، وتكاثر التفسيرات الظاهرية والباطنية. ولا يُمكن السيطرة على عملية التكاثر العقلية المُتكوِّنة مِنَ المعرفة وتفسيرها ، إلا إذا قامَ الفكرُ الإبداعي بإنتاج معايير أخلاقية تُعيد معنى الحياة إلى وجود الإنسان ، وتتعامل مع المُجتمع كَنَصِّ حَيَاتِي عابر لمركزية الزمان في الوُعي ، ومركزية المكان في الشُّعور . وبالتالي ، فإنَّ فلسفة اللغة الرمزية ستعتبر المُجتمع نَصًّا مَفْتُوحًا على الوجود ، وتتعامل مع رُوح النِّصِّ ، وليس جسد النِّصِّ . وبعبارة أُخرى، إِنَّ الرموز الحاملة لطاقة اللغة وقُدْرَتها التعبيرية ستكشف رُوح المُجتمع (الشُّعور المَكبوت، والذكريات المنسية، والتاريخ المُهمَّش ، والأحلام المَقْموعة ، والأسئلة المَدْفونة)، وَلَنْ تَغْرُقَ في جسد المُجتمع (الضجيج اليومي، والنظام الاستهلاكي ، والعلاقات المصلحية ، وإشباع الغرائز ، والشعارات الرنانة) . وهكذا ، يُعاد النظر في علاقة اللغة بالمُجتمع ، ويؤلِّد تاريخ جديد لعلاقة المُجتمع بالفكر. وكُلَّمَا غاصت اللغة _ برموزها الفلسفية وأبعادها الوجودية وانفجاراتها الشعورية _ في الأحداث اليومية ، اكتشفت العناصر الغامضة في الإنسان ، وأعادت الأشياء التي ماتت فيه إلى الحياة . وتفسيرُ الوضوح الاجتماعي هو الطريق إلى اكتشاف الغُموض الإنساني ، وهذا يُعيدنا إلى موضوع الصِّدِّ الذي يُشير إلى ضِدِّه ، والنقيض الذي يُحيل إلى نقيضه . وهذا الموضوع لا يُمكن الهروب مِنْه، لأنَّه مُتَجَدِّدٌ في تفاصيل الحياة الشخصية ، وراسخ في تشعُّبات الحياة العملية، لكنَّ الكشف عن طبيعته ومدى تأثيره يحتاج إلى آليَّات معرفية تبحث في تاريخ القِيَم والمعايير ، وأدوات منهجية تَحْفِر في جُغرافيا الوُعي والشُّعور. والتاريخُ الفكريُّ لَيْسَ تَجْميعًا للأشياء القديمة ، وإنَّما طَرَحَ الأسئلة الجديدة على الأشياء القديمة ، وانتزاع الذكريات من الحكايات . والجُغرافيا المعنويَّة لَيْسَتْ تَجْميعًا للأبعاد المكانية، وإنَّما تَحْوِيلُ اللغة إلى فضاء قادر على تحرير الذاكرة مِنَ النِّسيان، واستعادة الوجود من قبضة الزمن .

*

دور الظواهر الثقافية في المجتمع

١

أهمية الظواهر الثقافية تتجلى في قدرتها على ربط العناصر اللغوية بالطبيعة الرمزية للعلاقات الاجتماعية ، وهذا يعني أن مهمة الثقافة هي دمج اللغة والمجتمع في كيان فلسفي واحد ، وتحويل تفاصيل الحياة اليومية إلى أفكار إبداعية ، ونقل المعنى من الأنظمة الاستهلاكية القاسية إلى المعايير الأخلاقية السامية . وبالتالي ، تصبح اللغة مجتمعا فكريا في المضمون المعرفي ، ويصبح المجتمع لغة واقعية في السياق الحياتي ، وهذا الحراك الإنساني أيقيا وعموديا يساهم في تكوين أشكال تعبيرية قادرة على كشف اتجاهات السلوك الاجتماعي تحت ضغط الواقع . وكشف هذه الاتجاهات هو أساس عملية التحكم بمسارات الوعي ، باعتباره صفة مميزة للوجود الإنساني ، وبداية مرحلة التغيير الاجتماعي . وإذا استطاع الإنسان تحديد نقطتي البداية والنهاية في المجتمع ، بوصفه طريقا إلى تحقيق الأحلام الفردية والطموحات الجماعية ، فإنه سيحمي الثقافة من التحول إلى أداة سياسية وظيفية بأيدي المتنفذين لصناعة وعي زائف ، من أجل السيطرة على الناس ، والتلاعب بمشاعرهم ، وتوجيه علاقاتهم ، والاستحواذ على مصائرهم . والإشكالية الحقيقية في النسق الاجتماعي الثقافي هي وجود جهات مغرضة تسعى جاهدة إلى إعادة تشكيل الثقافة ، بحيث تصبح نظاما مغلقا ، ومسيطرًا عليه ، للهيمنة على التفاعلات الاجتماعية والتأثيرات الفكرية . وهذا يتنافى مع طبيعة الثقافة ودورها المركزي في المجتمع ، فهي تمثل نظاما مفتوحا على جميع الاحتمالات المعرفية ، والاجتهادات اللغوية ، والتحليلات العقلانية ، والحالات العاطفية ، وتاريخا متفاعلا مع الإفرازات المنطقية للكيانات الاجتماعية التي تمنع تحول الحلم الإنساني إلى كيان وظيفي هش ، وهوية مشتبكة مع صعوبات الحياة المعيشية ، وتناقضات المشاعر الوجدانية ، وتعقيدات التراتبية الاجتماعية ، وتركيبات الأنظمة اللغوية . ويجب المحافظة على الثقافة كنظام مفتوح ، لأن هذا المبدأ الوجودي هو الضمانة الأكيدة لتحليل بنية العلاقات الاجتماعية ، التي تتخذ أشكالا هرمية (طبقية) في حياة الفرد والجماعة ، وتتجسد في الوعي الإنساني سلطة جوهرية ، وحقيقة رمزية ، وتجربة معنوية .

٢

العلاقات الاجتماعية هي أفعال قصدية، أي إن كل علاقة اجتماعية تدفع الذهن باتجاه موضوع ثقافي معين، وإذا أدرك الذهن حقيقة هذا الموضوع ، فإنه _ أي الذهن _ سينتج فعلا نفسيا قائما

على الشعور والتخيّل والذكريات ، ويتم إسقاط هذا الفعل على أرض الواقع . ولا بُد من إخراج الفعل من الذهن إلى الواقع ، لضمان حيوية الذهن ، والمحافظة على الحراك الاجتماعي في الحياة اليومية . وهذه العملية تُشبه خروج الجنين من بطن أمه ليرى نور الحياة الخارجية . وكما أنّ الجنين قد يقتل أمه إذا لم يُغادر جسدّها ، كذلك الفعل قد يقتل الذهن إذا لم ينتقل منه إلى التطبيقات العملية في الواقع . والفرق بين الحالتين هو أنّ العلاقات الاجتماعية تملك وعياً تاريخياً يعتمد على التوليد المستمر للأفعال القصديّة . والأفكار في حالة ولادة مُستمرة ، وجسد اللغة في حالة تجسيد دائمة للوعي والسلوك . والاستمرارية الفكرية والديمومة اللغوية تُكوّنان الأساس الفلسفي لصيرورة التاريخ وعدم ثباته . وكما أن الأفكار لا تنتهي ، واللغة لا تتجفّ ، كذلك التاريخ، فهو يتحرّك في مسارات لا نهائية ، وينتقل عبر ينابيع معرفية لا تجفّ .

٣

كلّ ظاهرة ثقافية تُمثّل علاقة اجتماعية تربط الأفكار بالمواضيع ، وتؤسّس فلسفة خاصة لتفسير علاقة الأفكار بالواقع الاجتماعي ، وتأويل معنى الأفكار أثناء صناعتها لمستويات الوعي الذي يُساهم في تكوين إرادة إنسانية حرة في ذاتها، ومن أجل ذاتها، ومُتحررة من الدلالات الجاهزة ، والمواضيع المُعلّبة ، والوجود الوهمي. ممّا يدلّ على أنّ هناك فلسفة كامنة خلف كلّ ظاهرة ثقافية. ووظيفة النشاط اللغوي أن يُميّز بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي في هذه الفلسفة الكامنة، من أجل إظهارها، وتحليل علاقتها بالثقافة ككل لا يتجزأ، وهذه الكليّة تحمي الظواهر الثقافية من القوضى ، وتمنع الأنساق الإبداعية في المجتمع من الدوّنان في مشكلات الإنسان اليومية ، وصراعاته الحيائية . ووظيفة الظواهر الثقافية هي منع موت الإنسان في الحياة ، وليس رش السُّكر على الموت ، وتشبيهُ البناء الاجتماعي على أساس عقلائي ، وليس البكاء على الأطلال، وإعادة كينونة وجود الإنسان إلى الفطرة النقيّة ، وليس إجباره على العيش بدافع الغريزة .

*

الفكر والعاطفة في التاريخ والمجتمع

١

الرابطة الوجودية بين الفكر والعاطفة تُمثل منظومة معرفية في تاريخ المعنى الإنساني بكل تحولاته الذهنية وتجلياته الواقعية ، وماهية كامنّة في فلسفة العلاقات الاجتماعية بكل أنماطها الحياتية وتفاعلاتها الثقافية . والفكر والعاطفة لا ينفصلان في السلوك الواعي في المجتمع ، لكنهما يتجسّدان وفق أشكال لغوية رمزية ، ويظهر تأثيرهما في تفاصيل الحياة اليومية ، وظهور الأثر لا يستلزم بالضرورة ظهور المؤثر . وهذا يعني أنّ الفكر والعاطفة يتخذان صوراً أخلاقية متعدّدة ، وتصوّرات قائمة على الإشباع الروحي ، من أجل تحقيق التوازن في داخل الإنسان ، ليملك القدرة على التكيف مع البيئة الخارجية، وتحقيق السلام بين الإنسان ونفسه ، ليملك الشجاعة على عقد مصالحة دائمة مع نفسه ومجتمعه . وإذا لم يتحقّق السلام الداخلي في كينونة الإنسان الوجودية وكيانه المعنوي ، فسوف يظل ثائراً ضدّ نفسه ، وناقماً على مجتمعه . وتحقيق التوازن في داخل الإنسان يعني الوصول إلى حالة الاتزان بين الأشواق الروحية والأنظمة الاستهلاكية، وهذا من شأنه إعادة الرّخم العقلائي إلى النشاط الاجتماعي. وكلّ عنصر فكري يملك تأثيراً مباشراً على حياة الإنسان الداخلية والخارجية، هو عاطفة مغلّفة بقوانين التفاعل الاجتماعي روحياً ومادياً ، ممّا يدلّ على أنّ العاطفة هي الأساس الوجداني للفكر ، والباعثة له ، والمحرّضة عليه . ودور تاريخ الفكر في الأنساق الحياتية أن يكشف عن طبيعة العاطفة ضمن قواعد المنهج العلمي ، ومدى تأثير العاطفة في خصائص السلوك الإنساني ، وكيفية انبثاق منطق اللغة الرمزي من حركة الإنسان في المجتمع على الصّعيدين الفكري والعاطفي .

٢

العاطفة في البنى الفكرية الاجتماعية ليست تكتّلاً من المشاعر السّاذجة ، أو حالة ذهنية تفتقر إلى الخبرة الواقعية . إنّ العاطفة بوصلة نفسية لاستعادة الذكريات المنسية في أعماق الإنسان ، وخريطة وجودية لإعادة ترتيب شظايا التاريخ التي تتساقط في داخل الإنسان ، ورؤية مصيرية لتكوين إيقاع جديد للأحداث اليومية التي تسحق الأحلام الفردية ، وتهشم الطموحات الجماعية . وبالتالي ، تُصبح العاطفة عالماً متكاملاً ، يحتضن الفكر القادر على إلقاء الحجر في الماء الراكد، وصناعة واقع ديناميكي (حياة يومية مليئة بالنشاط والحيوية)، والكشف عن الدافع

الكامن خَلْفَ كُلِّ سُلُوكٍ ، لِأَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَتَحَرَّكُ فِي طُرُقَاتِ الْحَيَاةِ وَمَسَارَاتِ الْمَعْرِفَةِ ، إِلَّا إِذَا كَانَ هُنَاكَ شَيْءٌ يُحَرِّكُهُ لِلْفِعْلِ ، وَيُدْفَعُهُ نَحْوَ أَدَاءِ وَظِيفَةٍ مُعَيَّنَةٍ تُحَقِّقُ لَهُ الْإِشْبَاعَ ، وَتَجْلِبُ لَهُ الْاحْتِرَامَ وَالتَّقْدِيرَ ، وَتُسَاعِدُهُ عَلَى إِيجَادِ نَفْسِهِ فِي الرَّحَامِ ، وَتَكْوِينِ صَوْنِهِ الْخَاصِ فِي الضَّجِيجِ . وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْفِعْلَ الْاجْتِمَاعِي لَيْسَ مَوْضُوعًا تَلَقَّائِيًّا ، وَإِنَّمَا هُوَ نِظَامٌ مَرْكَزِيٌّ وَظِيفِيٌّ يَقُومُ عَلَى الْخِبْرَةِ وَالتَّحْلِيلِ وَالِاسْتِنْتِاجِ ، وَالْعَاطِفَةُ لَيْسَتْ انْفِعَالًا عَفْوِيًّا، وَإِنَّمَا هِيَ سُلْطَةٌ نَفْسِيَّةٌ قَادِرَةٌ عَلَى تَوْلِيدِ السُّلُوكِ فِي الْوَاقِعِ ، وَتَجْمِيعِ شَطَائِبِ الْوَعْيِ فِي رَمْزِيَّةِ اللُّغَةِ . وَمُهِمَّةُ رَمْزِيَّةِ اللُّغَةِ فِي الْإِطَارِ الْفِكْرِيِّ وَالسِّيَاقِ الْعَاطِفِيِّ ، هِيَ دَمْجُ النِّظَامِ الْمَرْكَزِيِّ الَّذِي يُجَسِّدُ الْفِعْلَ الْاجْتِمَاعِي مَعَ السُّلْطَةِ النَّفْسِيَّةِ الَّتِي تُمَثِّلُ الْعَاطِفَةَ ، مِنْ أَجْلِ إِزَالَةِ الْعُمُوزِ فِي الْعِلَاقَاتِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ .

٣

الْفِكْرُ وَالْعَاطِفَةُ يُشْكِّلَانِ الْبُنْيَةَ الْعَمِيقَةَ فِي شَخْصِيَّةِ الْإِنْسَانِ الْمُتَصَالِحِ مَعَ نَفْسِهِ وَمُجْتَمَعِهِ، وَيُكَوِّنَانِ الْمَنْظُورَ اللِّغَوِيَّ الْحَاكِمَ عَلَى السُّلُوكِ . وَهَذَا مِنْ شَأْنِهِ مَنَعَ السُّلُوكَ مِنَ التَّحَوُّلِ إِلَى دَافِعٍ مِيكَانِيكِيٍّ آلِيٍّ ، وَحِمَايَةِ الْإِدْرَاكِ الْعَقْلِيِّ مِنَ التَّوَثُّرِ النَّفْسِيِّ ، وَإِعَادَةِ الْإِعْتِبَارِ لِرَمْزِيَّةِ اللُّغَةِ فِي عَمَلِيَّةِ تَوْلِيدِ الْعِلَاقَاتِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ ، وَهَذِهِ الرَّمْزِيَّةُ قَادِرَةٌ عَلَى إِيجَادِ حُلُولٍ مَنْطِقِيَّةٍ لِلْإِشْكَالِيَّةِ الْوُجُودِيَّةِ فِي الْحَضَارَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ ، وَالَّتِي تُمَثِّلُ فِي تَحَوُّلِ الْعَالَمِ إِلَى قَرْيَةٍ صَغِيرَةٍ مُتَكَامِلَةٍ وَمُتَرَابِطَةٍ ، فِي حِينٍ أَصْبَحَتْ الْعِلَاقَاتُ الْاجْتِمَاعِيَّةُ جُزْأً مُتَبَاعِدَةً ، وَصَارَتْ حَيَاةُ الْأَفْرَادِ غَارِقَةً فِي الْفَرْدِيَّةِ وَالْإِنْعِزَالِ وَالْإِغْتِرَابِ . وَكُلَّمَا تَرَابَطَ الْعَالَمُ أَكْثَرَ ، صَارَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ انْطَوَائِيًّا وَانْزَوَاءً ، وَكَأَنَّ انْفِتَاحَ الْعَالَمِ عَلَى بَعْضِهِ بَعْضًا يَعْنِي انْغِلَاقَ الْإِنْسَانِ عَلَى نَفْسِهِ . وَهَذِهِ الْإِشْكَالِيَّةُ الْوُجُودِيَّةُ هِيَ سَبَبُ انْكَسَارِ الْمَنْظُومَةِ الْحَضَارِيَّةِ ، وَانْتِشَارِ التَّفَكُّكِ الْاجْتِمَاعِيِّ . وَالتَّنَاقُضُ الصَّارِخُ بَيْنَ الْكُلِّ (الْعَالَمِ / الْكَوْنِ) وَالْجُزْءِ (الْإِنْسَانِ / الْكَيْنُونَةِ) ، يَنْبَغِي أَنْ يُدْرَسَ فِي إِطَارِ قُدْرَةِ رَمْزِيَّةِ اللُّغَةِ عَلَى تَفْسِيرِ الْمَرَاكِلِ التَّارِيخِيَّةِ ، وَإِدْرَاكِ التَّطَوُّرَاتِ الْحَاسِمَةِ فِي الْفِكْرِ وَالْعَاطِفَةِ اللَّذِينَ يُوَاكِبَانِ التَّارِيخَ فِي كُلِّ مَرَاكِلِهِ ، وَالْمُجْتَمَعَ فِي كُلِّ تَحَوُّلَاتِهِ .

*

ضرورة إعادة تفسير التاريخ

١

وظيفة العلاقات الاجتماعية هي استعادة الجوهر الإنساني من تقلبات الحياة وانقلابات المشاعر ، وتحويله إلى واقع مُتفاعل مع مركزية اللغة في المجتمع ، ومركزية المجتمع في تاريخ المعنى ، مما يُنتج ظواهر ثقافية حاملة للأفكار الإبداعية والرموز المعرفية والأسئلة المصرية ، فننتقل فلسفة السلوك الحياتي من الأنماط المتوارثة والقوالب الجاهزة إلى البنى العميقة في الأحداث اليومية والوقائع التاريخية ، وهذا من شأنه تحقيق التوازن بين الواقع والأفكار ، وتوحيد القواعد التفسيرية للحقائق الاجتماعية والخصائص النفسية والآليات المرتبطة بالرموز اللغوية . وعملية التوحيد لا تعني إلغاء الطرق الفرعية في فلسفة البناء الإنساني ، اجتماعيًا ونفسيًا ولغويًا ، وإنما تعني منع الطرق الفرعية من طمس الطريق الرئيسي ، واستبداله ، والخلول مكانه . وكلُّ طريق _ سواء كان رئيسيًا أم فرعيًا _ يُمثّل أهمية بالغة في المنظور الاجتماعي على الصعيدين الواقعي والنظري ، لأنَّ تعدُّد الطرق الفكرية يُعطي زخمًا للجهود الإنسانية الرامية إلى بناء نظريات ثقافية تُعيد تفسير حركة التاريخ ، لتحويلها إلى طاقة عقلانية تربط بين السبب والنتيجة ، وطبيعة لغوية تربط بين الممتن (مركز المعنى التاريخي) والهامش (العنصر المُغيّب في التاريخ) . وإذا قامت اللغة بتحليل العلاقة بين الممتن والهامش في مسارات التاريخ ، فإنَّ الإنسان سيصل إلى الحقيقة التاريخية ، ويُعيد تكوين الزمان والمكان ذهنيًا . وهذا يُساهم في إنشاء منهج اجتماعي متكامل يُحلّل التاريخ باعتباره نظرية ثقافية عابرة للأجناس والتجنيس ، ومُتحررة من المصالح الشخصية التي تتلاعب بحركة التاريخ . وإذا كان التاريخ يكتبه المنتصرون _ كما هو شائع _ ، فيجب التنقيب عن مشاعر المهزومين ، وذاكرات المسحوقين ، وحيوات الذين ماتوا صامتين لأنهم لا يملكون أدوات لنشر الحقائق ، وإظهار وجهة نظرهم ، وإبراز هوياتهم ، وكشف وجوههم وأحلامهم وتاريخهم الخاص بهم ، مما يدفع باتجاه توليد تاريخ جديد ينبع من صوت من لا صوت له ، ومع أنَّ هذا التاريخ الهامشي يُمثّل طريقًا فرعيًا ، إلا أنَّه يُسلط الضوء على الطريق الرئيسي ، ويُحدّد معالمه المستترة ، وأبعاده المنظورة وغير المنظورة ، ويُطرح الأسئلة على نُقْطَتَي البداية والنهاية ، بحثًا عن أجوبة معرفية حاسمة . ومهما كان الجزء صغيرًا وهامشيًا ، فهو قادر على إعادة تعريف الكل ، وربطه بعملية تفسير حركة التاريخ ، التي تُمثّل منظومة إنسانية مرتبطة بالبنى العميقة

في الأحداث المتوالدة ، والأزمنة المتعددة ، والأمكنة المتكاثرة . ولا يكون التاريخ حقيقياً وفاعلاً في الوعي الإنساني إلا إذا كان تاريخاً متحرراً من سلطة الإقصاء المعنوي والنفي المادي . وهذا يشير إلى أهمية السياق التاريخي لتفسير علاقة الإنسان بأحلامه وطموحات مجتمعه، بعيداً عن ضغط الأيديولوجيات السياسية، التي تُنتج تاريخاً مُتخَيَّلاً ، وتفرضه على العلاقات الاجتماعية كروية واقعية مُرتبطة بالزمان الاصطناعي والمكان الافتراضي ، وتُقدّم هذا التاريخ الوهمي كمشروع وجودي وبناء حضاري ، يملك الحقيقة المطلقة ، ويستطيع تخليص الإنسان من أزماته الروحية والمادية، وتحقيق الخلاص له في مُحيطه الاجتماعي خارج نطاق شعور الاغتراب وحالة الاستلاب.

٢

كُلُّ نسق حياتي يتكوّن من تاريخين : تاريخ المَشْن (المركز) ، وتاريخ الهوامش (الأطراف) . وهذان التاريخان خاضعان للتّعديل والتّغيير ، ويتعرّضان لعملية حذف بعض العناصر والمكوّنات ، بسبب المصالح الشخصية والمنافع الفئوية . وكما أنّ اللغة تشتمل على كلام مخفي بين السّطور ، كذلك التاريخ يشتمل على مسارات مخفية بين المسارات الظاهرة . وعملية الإخفاء في التاريخ مقصودة ، ومُخطّط لها مُسَبِّقاً ، وتُمثّل منهجية قائمة بذاتها ، من أجل إظهار الصّوت الواحد ، واعتماد الرؤية الرافضة للتّعدّد . وهذه الأحادية يتم تكريسها كفعّل اجتماعي قائم على سياسة الأمر الواقع ومنطقي القوّى الفاعلة على الأرض . وكُلّ العناصر المخفية في التاريخ هي نتيجة حتمية لسياسة العناصر الفاعلة في التاريخ . ومُهمّة الجوّهر الإنساني أن يبحث عن الجوّهر التاريخي في الأنساق الظاهرية والباطنية ، باعتبار أن الإنسان هو ابنُ التاريخ وصانعه ، وجَوْهَرُهُما واحد ، والأعراض مُتعدّدة . ومع هذا ، ينبغي على الإنسان أن يبتعد عن الذاتية وزاوية الرؤية الأحادية في عملية تحليل الوقائع التاريخية ، لأنّ التاريخ الحقيقي هو الكينونة الوجودية التي تَبعث في أدوات التحليل الاجتماعي الخاضعة للمنهج العلمي ، بعيداً عن ضغط الأهواء وسياسة المصالح وسلطة المُنتصرين . وكما أنّه يجب منع تحوّل السياسة إلى لعبة الأغنياء ، كذلك يجب منع تحوّل التاريخ إلى لعبة الأقوياء .

٣

إذا تحوّلَت العلاقات الاجتماعية إلى أيديولوجيا أو أسطورة ، فإنّ تاريخ الإنسان سيُصبح جُثّة هامدة تعيش على التّنفّس الاصطناعي ، وسوف يَشأ عن ذلك نظريات ثقافية مُشوّهة عاجزة عن تعليل الأحداث ، وتفسير الوقائع ، وتأويل ماهيّة الزمان ، وتفكيك طبيعة المكان . وبالتالي ، سيَتِمُّ

نقل الماضي إلى الحاضر ، وإعطاء الحاضر بُعدًا حضاريًا مُتَخَيَّلًا ، وهكذا يُصبح التاريخ ضدَّ التاريخ ، وتَصطدم المراحلُ الزمنية في الوُعي الزائف والتاريخ الذهني الذي ليس له وجود على أرض الواقع . وهذه المتاهة تُمثِّل فَجْوَةً معرفيةً في الطريق نَحْوَ المستقبل . وإذا عَجَزَ التاريخُ عن صناعة تعبيرات ثقافية مُرتبطة بالبنى العميقة في المجتمع ، فإنَّ هُوية الإنسان ستتكسر ، كما أنَّه سيفقد القدرةَ على إدراك أبعادِ نَفْسِهِ وحدودِ مُحيطه الاجتماعي . وبالتالي، يُصبح الإنسانُ خَطَرًا على التاريخ، ويُصبح التاريخُ خَطَرًا على المُجتمع، وهذا هو سبب الهُروب من الذات، وعدم البحث عنها. لذلك، تجب إعادةُ تفسير التاريخ إنسانيًا لإنشاء وُعي وجودي بالصراع بين الإنسان ونَفْسِهِ، وتحليل آثار هذا الصراع الداخلي على مسار الأحداث الخارجية . وإذا كان التاريخُ سِجَلًا للحروب والأبطال ، فيجب أن تكون فلسفةُ التاريخ تحليلًا للحروب في داخل الإنسان ، وهذه هي الطريقة لمعرفة كيفية تفكير الإنسان ، وكشف الدوافع الحقيقية لأفعاله. وفي كثير من الأحيان، يَكُون الهُروبُ من مُواجهة الذات هو السبب لمُواجهة الآخرين .



حماية مسار التاريخ من القطيعة المعرفية

١

شُعورُ الإنسان بالضغوطات الاجتماعية يُمثّل واقعًا جديدًا ، يقوم على الربط بين العمقِ المعرفي للإنسان والبنية الجذرية للمجتمع . وكلُّ واقع جديد هو بالضرورة منظومة فكرية تشتمل على قواعد تفسير المعرفة الإنسانية ومصادر الفعل الاجتماعي ، وإطار تنظيمي يشتمل على أبعاد السلوك الإنساني وعناصر النشاط الحياتي . وهذه المكونات الوجودية تُشكّل ملامح هوية الإنسان داخل المحيط البيئي ، وتُجسّد منطق اللغة الرمزي في الظواهر الثقافية المتعلقة بأنماط الوعي ، والمفاهيم الوظيفية للجوهر (المعنى الشمولي) والهيكلي (الفكر الإبداعي) والنسق (حقيقة البناء الاجتماعي). ومن أجل منع الاصطدام بين عناصر المجتمع ومكوناته، ينبغي تأسيس علاقات اجتماعية ذات طبيعة إنسانية ، تأخذ بعين الاعتبار حاجة الإنسان إلى الانتماء وتبادل المشاعر مع الآخرين ، والارتباط بهم فكريًا . وهذا من شأنه كشف تفاصيل الأجزاء المتفاعلة في الأنساق الاجتماعية الظاهرية والباطنية ، التي تُعبّر شبكة من الأنظمة العقلانية والروابط العاطفية والمعايير الأخلاقية . وإذا حافظت هذه الشبكة على تجانسها وتوازنها ، فإن المجتمع سيحافظ على التماسك والديمومة وصيرورة التاريخ . والتحديات الصادمة في هذا السياق ، تتجلى في كون العلاقات الاجتماعية في غاية التعقيد ، والأدوات التحليلية للأفكار والمعاني شديدة التشابك ، والإنسان في سباق مع الزمن ، من أجل ابتكار آليات الوصول إلى فلسفة المعنى الاجتماعي ، وتكوين تطبيقات واقعية لتغيير الواقع ، وإنشاء تصوّرات منطقية في عالم يتعد عن قوة المنطق، ويقترّب من منطق القوة. وهذه التحديات عبارة عن امتحان صعب لقدرة الإنسان، وإظهار لمستوى إمكانياته المعنوية والمادية . وليس أمام الإنسان إلا النجاح في هذا الامتحان من أجل المحافظة على وحدة النسيج الاجتماعي ، وحمايته من التآكل والاضمحلال ، وتطهيره من الشروط القاسية المفروضة عليه ، والنتيجة عن سياسة الأمر الواقع . وإذا كان كلُّ واقع جديد هو منظومة فكرية ، فإن كلَّ أمر واقع هو أداة ضغط ، وأسلوب هيمنة ، ووسيلة سيطرة . وسياسة الأمر الواقع لا يمكن مواجهتها إلا بصناعة منهج اجتماعي قادر على صناعة سلطة معرفية تنتشل الإنسان من المأزق الوجودي ، وتحمي المجتمع من عنصر المفاجأة الناتج عن التحولات الديناميكية في بنية الفعل الاجتماعي ، على الصعيدين الفردي والجماعي .

العلاقات الاجتماعية تحفر في الوعي الإنساني تاريخها الخاص ، وهذا يستلزم إعادة تقييم طبيعة المسار الحياتي ، هل هو مسار ناتج عن التراكم المعرفي عبر الأزمنة أم هو مسار يُولّد باستمرار ويُعيد بناء اللحظة الآتية بشكل متواصل ؟ . وهذا السؤال في غاية الأهمية ، لأنّ المسار الحياتي إذا كان ناتجاً عن التراكم ، فهذا يعني أنّه يُولّد على شكل دفعات مُتتالية ، ووفق مراحل مُتعاقبة ، وبالتالي فإنّ تاريخ العلاقات الاجتماعية لا مكان فيه للقفزات والعناصر الدخيلة . أي إنّ ولادة المسار الحياتي بالتقسيم تُؤدّي إلى الحتمية التاريخية ، وتدلل على أنّ التاريخ يُعيد نفسه ، ويتحرّك ضمن دائرة مُغلقة . وإذا كان المسار الحياتي ناتجاً عن القطيعة المعرفية وتكوين طبقات مُنفصلة عن مبدأ التّراثب ، فهذا يعني أنّه يُولّد بشكل مُفاجئ ، وكلّ ولادة تُمثّل انقطاعاً عن الولادة التي تسبقها، وبالتالي فإنّ تاريخ العلاقات الاجتماعية مليء بالصّدّات والطّفرات (التغيرات المفاجئة في نمط بناء طبقات المجتمع باعتباره كائناً حياً) . أي إنّ ولادة المسار الحياتي الفوريّة تُؤدّي إلى الاحتمالية التاريخية ، وتدلل على أنّ التاريخ لا يُعيد نفسه ، وأنّه يتجدّد باستمرار كميّاه النهر ، ويتحرّك بشكل خطي .

بُنية المجتمع المعرفية هي مزيج من الأزمنة المُتَشَطِّية بفعل انكماش الأحلام الفرديّة ، وخليط من الأمكنة المكسورة بفعل تراجع الطموحات الجماعيّة . ومُهمة العلاقات الاجتماعية أن تُعيد بناء ذاكرة المُجتمع الزمنيّة وذكريّاته المكانية على أساس الوعي الإنساني بالذات ، والشعور بالعناصر المُحيطة بالذات ، وتبادل الأفكار مع الآخرين بشكل يُحافظ على مسار التاريخ العام للمُجتمع بلا ثَغَرَات لُغوية ، ولا فَجَوَات ثقافية ، ولا انقطاعات معرفية . والمسار المُتَّصِل هو الضّمانة الأكيدة لتدفّق الفكر الاجتماعي الإبداعي من المبنى (الإطار المرجعي لِسلطة المجتمع) إلى المعنى (ماهيّة البنى الثقافية) . وكلّ علاقة اجتماعية لا تُوصِل إلى بناء ثقافي ، فهي علاقة هُلاميّة قائمة على عناصر لُغوية مهروزة ، وقواعد حياتيّة مُضطربة . وكلّ بناء ثقافي لا يحمل رسالة المجتمع الوجودية ، فهو بناء آيل للسُّقوط ، لأنّه لم يتأسّس على الوعي والشعور . وإذا تمّ استبعاد الوعي والشعور من شرعية الثقافة ومشروعها ومشروعيتها ، فإنّ السلوك الإنساني سيُصبح حركةً ميكانيكيّةً مُجرّدة من روابط الماضي ، وأحلام الحاضر ، وطموحات المستقبل .

مصادر المعرفة في العلاقات الاجتماعية

١

الوصول إلى مصادر المعرفة في العلاقات الاجتماعية يُمثّل امتحاناً لقدرة الإنسان وتحدّياً للمُجتمع ، لأنّ مصادر المعرفة لا تُوجد على شكل كتل جاهزة ، وقوالب جامدة ، ونظريات مُعدّة مُسبقاً ، وإنما تُوجد على شكل قيم فكرية مُتكاثرة ، ومعايير أخلاقية مُتشعبة ، ومبادئ وجودية يُعاد تشكيلها باستمرار . وهذه السُّيولة المعرفية تُنتج سياقات لغوية مُتميّزة ، وقادرة على التغلغل في تفاصيل هوية الإنسان وحياة المُجتمع ، والتّجسّد في حالة الوُعي الاجتماعي الديناميكي (الوُعي القائم بذاته الذي يتمتّع بالحيوية والانطلاق والحركة في جميع الاتجاهات المرتبطة بالقوى الفاعلة في المجتمع) . ودور السُّيولة المعرفية لا يتوقّف عند إنتاج سياقات لغوية ، بل يتعدّى ذلك إلى تحويل إفراسات العقل الإبداعية إلى مُنتجات اجتماعية مُتماهية مع التراكم المعرفي ، تُغيّر أدواتها وآليّاتها لإحداث تغيير إيجابي في المجتمع ، ومنعه من السُّكون والركود وتكرار نفسه . وهذه الحركة المُستمرة والفاعليّة الدائمة تُتيحان للإنسان أن يُسافر إلى ذاته ، وتمنحان المُجتمع فرصة للانتقال من الوُعي الذهني إلى التغيير الواقعي عبر اللغة ذات الدلالات الرمزية والعلامات الماديّة . وتفجّر الطاقة الرمزية في اللغة ضروري لإمداد الإنسان والمجتمع بالوقود الثقافي اللازم للحركة باتجاه اكتشاف مصادر المعرفة ، وتجميع أجزائها ، وتتبّع آثارها في الوُعي والشعور واللغة . وهذه المُكوّنات الثلاثة هي أركان الرّحلة الوجودية التي تُهدف إلى الغوص في داخل الأنساق الحيّاتيّة ، والتنقيب عن المعنى في أعماق الفكر .

٢

الفكر الذي يُنتج المعرفة ويُعبّر عنها ، هو حركة عقلانية غير مَحصورة في الأطر الزمنيّة والحدود المكانية ، ممّا يجعل الوُعي بأهمية المعرفة وقُدّرتها على صناعة الفعل الاجتماعي ، يزداد كمّاً ونوعاً ، ويشق طريقه في الظواهر الثقافية الخاضعة للتغيير المستمر . وبالتالي ، تُصبح المعرفة كياناً مُستقلاً ، وخريطة لمعالم جَوهَر العلاقات الاجتماعية . وكُلُّ منهج عقلائي يُؤدّي إلى مصادر المعرفة ، هو _ بالضرورة _ منظومة تاريخية قائمة على الارتباط العضوي بين الأفكار والظواهر في المجتمع . وبما أنّ التاريخ بُنية إنسانية مفتوحة على كُل الاحتمالات ، وكُتلة معرفية موجودة في كُل زمان ومكان ، فينبغي تحرير ماهيّة التاريخ من أسْرِ الماضي ، وفتح الماضي على الحاضر ، كي

يُصبح التاريخُ وجودًا مُعاشًا ، وواقعًا مُتصلاً ، نُؤلّد فيه ، ويُؤلّد فينا ، ونعيش معه ، ويعيش معنَا ، وليس شيئًا مضى وانقضى ، أو ثَقَلًا نَحمله على ظُهورنا ، ويَمنعنا مِن اقتحام المُستقبل . ووظيفةُ مصادر المعرفة _ في هذا السِّياق _ تتجلّى في صناعةِ أدوات نقدية تشبّك مع رمزية اللغة كمنظومة مركزية في الوُعي التاريخي مَبْنَى وَمَعْنَى ، مِن أجل إخراج الفِكر من الماضي المسلوب ، وإدخاله إلى رُوح الواقع المُتحرّر مِن قُيود المصالح الشخصية ، وتتجلّى أيضًا في تكوينِ تقنيّات حداثيّة تُفكّك عناصرَ الوُعي واللاوُعي في التجارب الاجتماعية شكلاً ومُحتوى ، مِن أجل إخراج الإنسان مِن مآزقه الوجودي ، وإدخاله إلى قلب المعنى الحضاري . وهكذا ، تُصبح مصادرُ المعرفة تقويماً للأبعاد الروحية ، وتقيماً للأوضاع المادية .

٣

التفاعلُ بين النظام الواقعي للمجتمع والنظام الخيالي للإنسان ، يُجسّد قيمة المعرفة التي تُؤثّر على طبيعة السلوك اليومي وزاوية الرؤية للأحداث . والأحداثُ المُعاشة تصير أنظمة معرفية قائمة بذاتها ووُصفها ، تعتمد على مبدأ الخَلاص (إنقاذ الإنسان لِنَفْسِهِ) ، والتحرُّر مِن ضغط الواقع المادي عن طريق التخلُّص مِن الأشياء المكسورة في داخل الإنسان ، والتطهُّر مِن الأحلام الضائعة في أعماقه، والتعبير عن احتياجاته المعنوية والمادية. وهكذا تنتقل الشخصية الإنسانية مِن المَكبوت (المَسكوت عنه) إلى الفاعلية الوجودية (التعبير عن الذات والعناصر المُحيطة بها) ، وينتقل تأويلُ السلوك اليومي مِن المَكُنون (المَدفون) إلى الظاهرة الاجتماعية (القاعدة الأخلاقية التي تُؤوّل إلى منهج لغوي لتوظيف طاقة اللغة في طاقة المجتمع) . وكُلُّ طاقة في النظام الاجتماعي يُمكن أن تتغيّر ، وتتخذ أشكالاً جديدة ، وتتقمّص أقبعةً مُتنوّعة ، وتختبئ وراء هُويّات مُتعدّدة ، ولكنَّ الطاقة لا تختفي، وفلسفة النظام الاجتماعي لا تتلاشى، وهذا يعني أنَّ الطاقة المنقولة مِن أيّ جزء في النظام الاجتماعي، لا بُد أن تظهر مُجدّداً في جزءٍ آخر ، وبالتالي ، فالطاقة الاجتماعية محفوظة لا تُزول ، ولكنها تتغيّر ، وتنتقل مِن جزءٍ إلى آخر ، كالشمس تغرب في مكان، وتشرق في مكان آخر، ولكنها موجودة ، لا تختفي ولا تتلاشى .

*

السلوك الاجتماعي والبناء الثقافي

١

السلوك الاجتماعي يُوضَّح طبيعة الصِّراع في النَّفس الإنسانية ، وماهيَّة الأحلام التي تختبئ في أعماق الشُّعور الفردي والجماعي ، وكيَّونة الأشياء التي تَظهر في البُنى الثقافية ، وحقيقة العناصر المؤثرة في حركة التاريخ. وكما أنَّ وُجود المُجتمع يسبق ماهيَّة العلاقات الاجتماعية ، فكذلك كيان الإنسان يسبق منظومة الوعي بالذات والآخر . وهذه الأسبقية لا تعني مُحاصرة الأفكار في الإطار الزمني ، وإنَّما تعني أنَّ الإنسان والمجتمع في البيئة الخيالية والواقعية مُرتبطان بالنظام التراتبي الواعي (القاعدة الاجتماعية ، الأساس الإنساني ، البناء الثقافي ، السقف الكوني) . وهذا النظام لا يُمثِّل حُدودًا للمعرفة ، بل يُمثِّل تنظيمًا للنشاط المعرفي ، واتِّجاءً عقلاً لفتح الطموحات قبل تطبيقها في الواقع. والطموحات خاضعة لمحدودية عُمر الإنسان، وهو لا يملك وقتاً لاختبار كافَّة الاحتمالات ، وتحقيق كُلِّ الأحلام . وهُنا تبرز أهمية ترتيب الأولويات ، والتفريق بين المُهم والأهم . وأيضاً ، إنَّ الواقع مُحاصر بقوانين التفاعل الاجتماعي الخاضعة لُبنية اللغة ، ومسار الزمن ، وتضاريس المكان. ولا يُمكن صناعة واقع جديد إلا بَعْد صناعة إنسان جديد . وهذا الإنسان الجديد يجب عليه أن يُعيد اكتشاف حياته في اللغة ، كي يجعل أحلامه الشخصية زمناً مُتواصلاً بلا انقطاع ، ويحوِّل ذكرياته القديمة إلى مكان لاحتضان الأحلام ، يُولد باستمرار بلا توقُّف. وكما أنَّ اللغة قيامة الأحلام، فكذلك الأحلام قيامة الواقع .

٢

الفعل الثقافي هو الابن الشرعي للفعل الاجتماعي ، وإذا اقترنَ هذان الفعلان في عملية بناء الإنسان ، فإنَّ اللغة ستصير مُجتمعاً رمزياً مُتجانساً ، وقادراً على إنتاج الدلالات الفكرية العميقة ، وتكوين القيم الأخلاقية المُطلقة ، وإنشاء الروابط الوجودية بين العناصر ، ممَّا يضمن تحقيق التواصل بين أدوات التحليل النَّفسي التي تنبع من ذات الإنسان ، وبين مناهج التفسير الحياتي التي تنبع من ذات المُجتمع . وهذا يدفع أنساق البناء الثقافي إلى إنشاء آليات لتحديد معالم سلطة المعرفة ، وربطها مع العلاقات الاجتماعية وتحوُّلاتها التاريخية في بيئة إنسانية تزداد تعقيداً على الصعيد المعنوي ، وتزداد تشابكاً على الصعيد المادي . وكلُّ مُحاولَة لتغيير طبيعة البناء الثقافي لتتناسب مع خصوصية المحيط الاجتماعي ، ينبغي أن تنطلق من المعايير الفكرية الحاضرة

لوظيفة المجتمع في ترتيب أنماط التاريخ ، ووظيفة التاريخ في تكوين هوية المجتمع . وكلُّ بناء ثقافي يتكوّن من عناصر مُتَنافِرة ، ومَوادٍ غَير مُتجانسة ، فمصيره الانهيار الحتمي . وعندئذ سيفقد المجتمع القدرة على التَّحكُّم بالأدوات والمناهج والآليات ، وهذا يعني خُروج الفِكر الإبداعي من جسد التاريخ ، والسُّقوط في الوَهْم الذي يتم تقديمه كتاريخ جديد للأنساق الاجتماعية، بسبب انهيار الأنوية الثقافية في كينونة الإنسان وهوية المجتمع .

٣

السلوك الاجتماعي والبناء الثقافي يَسْتَمِدَّان الشَّرعيةَ والمشروعيةَ من بُنية الوعي الإنساني القادر على صناعة الشعور ، وتوليد فعل التغيير على أرض الواقع . والوعي يمنع أطوار التاريخ من الانقسام ، والشعور يمنع مراحل توليد العلاقات الاجتماعية من الانكماش ، والفعل يمنع الدَّور الوظيفي لرمزية اللغة من الانغلاق . وهذا النظام الثلاثي الأقطاب (الوعي ، الشعور ، الفعل) ، يستطيع تحديد الإطار المرجعي لكل التَّغَيُّراتِ التَّنَفُّسيةِ في الإنسان، والتَّحوُّلاتِ التاريخية في المجتمع، ممَّا يُؤدِّي إلى تحقيق الانفتاح العقلائي على المعنى الإنساني، وتوجيه قوانين التفاعل الاجتماعي نحو إشباع رَغَبَاتِ الفرد وحاجاته في مُحيط استهلاكي قاسٍ ، قد لا يعترف بوجود الفرد أصلاً . وبعضُ الأنساق الاجتماعية تعتبر الفرد مُجرَّد تابع للجماعة بدون رأي ذاتي ، ولا سلطة اعتبارية ، ولا شخصية مُستقلة . وهذا الأمرُ شديد الخطورة ، لأنَّه قائم على فلسفة الانصهار القسري ، وإلغاء الهويات الفرعية . وقُوَّةُ الكلِّ لا تكون بإلغاء الجزء ، وإنما بإنشاء منظومة تحتوي على جميع الأجزاء بدون تهميش ولا إقصاء ، وتحويل الهويات الجزئية إلى روافد قوية داعمة للهوية الكلية المُعَبَّرة عن التكامل الاجتماعي لا التناحر الناتج عن محاولة الإلغاء والإلغاء المُضاد . وكلُّ صوت فردي يجب أن يحتفظ بوجوده وماهيته وخصوصيته في نطاق المصلحة العامة . والفردُ _ مهما كان صغيراً _ يُمثِّل قُوَّةً للجماعة ، ولا يُمكن أن يتكيّف مع البيئة الخارجية إلا إذا حقَّق التوازن في داخله .

*

بُنية المجتمع الإنساني والنظام الاجتماعي

١

بُنية المجتمع الإنساني عبارة عن شبكة من أنظمة التاريخ المعرفية ، وأنساق المعنى المنظمة ، وظواهر الوجود الثقافية ، وتقاطعات اللغة الرمزية . وهذه الشبكة تمثل الأساس العقلائي للمنهج الفكري الذي يمنح الشرعية للبناء الاجتماعي ، ويكوّن المفاهيم المركزية الحياتية التي تُنظّم النشاط الاجتماعي ، وتُفوّده نحو تحقيق الحاجات الإنسانية ، وتلبية الرغبات الفردية، وتفعيل الأحلام الجماعية. وبما أن أفراد الجماعة مُرتبطون بعلاقات أخلاقية ، ومُلتزمون بمبادئ التاريخ المُشترك ، ومُخروطون في عمليات نفعية مُتبادلة ، فلا بُد أن تظهر قواعد جديدة للوعي الاجتماعي ، تكون بمثابة أنوية لسلطة التفاعل بين الذات والشيء من جهة ، والحقيقة والفعل من جهة أخرى . وسلطة التفاعل ذات طبيعة تراكمية ، لا تُؤلّد دفعةً واحدةً ، وإنما تُؤلّد وفق مراحل قُصديّة غير تلقائية ، حيث تبدأ هذه السُلطة بالتشكّل كمفهوم ، ثمّ تُصبح سلوكًا مُعاشًا وعادةً يوميةً ، ثمّ تتحوّل إلى قيم وجودية ومعايير إنسانية ، ثمّ تُصير كيانًا فلسفيًا يعترف به الأفراد ، ويلتفنون حوله ، لأنّه يُحقّق المنفعة الشخصية ، والمصلحة العامة . وكلّ كيان فلسفي إذا صار ضرورةً للمجتمع أفرادًا ومؤسسات ، فإنّه سيتطوّر إلى بناء اجتماعي . وإذا اكتمل هذا البناء ، فإنّ المنظومة الإبداعية الحياتية ستصبح كاملةً ، وقابلةً للتطبيق على أرض الواقع . وهذه المنظومة هي التي تُؤلّد خصائص الفعل الاجتماعي ، وتُحدّد وظيفة الإنسان الاجتماعية داخل النسق الحضاري الشامل ، وتُعطي الرّخم للنشاط الاجتماعي كي يتحرّر من الضغوطات الماديّة ، وتُجمّع العناصر الفكرية المُبعثرة في تفاصيل الحياة الاستهلاكية ، وتؤسّس الوعي الإنساني على قاعدة اجتماعية صلبة . وهذا الحراك يتشكّل في الذهن قبل الواقع ، ويتجسّد في التصورات قبل الموجودات .

٢

النظام الاجتماعي هو تنظيم لإفرازات الوعي التاريخي ، وتكثيف لمناهج تحليل الشعور ، وتوحيد لأجزاء الذات الإنسانية المُتشظية في الاغتراب الوجداني ، وتفسير لمصادر المعرفة التي تُمثّل وُحْدَاتٍ وظيفية ومُركّبات حضارية . لذلك يستطيع النظام الاجتماعي أن يُكيّف نفسه مع المراحل الزمنية المُختلفة ، ويتأقلم مع الحاجات الإنسانية المُتغيّرة . لكنّ الإشكالية تكمن في إيجاد حاضنة للنظام الاجتماعي ، تضمن له التُمؤ بشكل طبيعي ، حتى يتمكن من توليد السلوك

الاجتماعي الواعي غير الارتجالي . والحاضنة هي كينونة معنوية لها أهداف واضحة ، ووجودها يعني منع التعارض بين بُنية المجتمع الإنساني والوظيفة الوجودية التي يُؤدّيها النظام الاجتماعي . والتوفيق بين البنية والوظيفة يحول دُون تحوّل الذوات الإنسانية إلى أصنام ، وتحوّل النظام الاجتماعي إلى طُقوس ، وتحوّل الأفكار المُبتكرة إلى أجنّة مَيّنة . لذلك ، يجب المحافظة على حركة العناصر الإبداعية في المجتمع ، ومنع توقّفها ، حتى تصير تيارًا معرفيًا مُستمرًا ، ومشروعًا تنمويًا دائمًا ، ونموذجًا حضاريًا رائدًا . وغذوبة الماء تتجلّى في جريانه وعدم ثباته ، وكلُّ ماء راكد سيصبح آسنًا ينتظر الحَجَر الذي يُحرّكه .

٣

السُّلوك الاجتماعي لا يُمكن أن يُصبح نظامًا معرفيًا مُستمرًا ودائمًا ، ومُعترفًا به ، ومُوافقًا عليه ، إلا إذا تمّت إزالة كافة العَقَبَات أمام التغيّرات الإيجابية في المُجتمع ، وتحويل انعكاسات حركة التاريخ على الفرد والجماعة إلى ظواهر واعية وتنظيمات مقصودة، من أجل تحقيق الأهداف الخاصّة ، وتنفيذ الطموحات العامّة ، ودُمجِ إفرازات النشاط الاجتماعي في بيئة الإبداع ، وتدعيم منظومة الحقوق والواجبات، وتنظيم مراحل التغيّر الاجتماعي بما يتلاءم مع طبيعة الظواهر الثقافية، ووفقًا للمسار الحياتي العام ، ممّا يُؤدّي إلى تكامل شخصية الفرد في ظلّ المآزق الوجودي ، واكتمال ماهيّة المجتمع في ظلّ التحديات المصيرية . وهذه الشائبة العابرة للتّجنيس الأيديولوجي وخُدود الزمان والمكان (تكامل الشخصية / اكتمال الماهيّة) تمنع ذكريات الفرد من التمرّد على ذاكرة المجتمع ، وتحمي ذاكرة المجتمع من الدُّوبان في الأفعال الارتجالية والحالات المزاجية ، والاضمحلال في الوُعي المُزيّف الذي يُنتج تاريخًا خياليًا لا وجود له على أرض الواقع .

*

البُنى الثقافية والتجارب الإنسانية

١

التحولات الثقافية في المجتمع ترتبط بالبنية الوظيفية للإنسان في الحراك التاريخي وحركة المشاعر الواعية لا الساذجة . وهذا الارتباط يتكرس في صيرورة الوجود باعتباره انتقالاً دائماً من كينونة المجتمع إلى كيان الإنسان . وبما أن الوجود انتقال دائم ، فإن الحقائق الاجتماعية الناتجة عن هذا الوجود ستكون ظواهر إنسانية ذات حركة مستمرة في القيم المعرفية والمعايير الأخلاقية . لكن الإشكالية تكمن في القيود الاجتماعية التي تُحاصر وجود الفرد والجماعة ، وتمنع تحوّل الحقائق إلى قوانين تُساهم في بناء الوعي الحاضن للظواهر الإنسانية . ولا بُد من إيجاد أدوات تحليلية وتكوين آليات فكرية لتحويل الظواهر الإنسانية إلى بُنى ثقافية على تماس مباشر مع السلوك اليومي والأحداث الحياتية . وإيجاد الأدوات وتكوين الآليات يُمثّلان تمهيداً لإنشاء علاقة تبادلية بين الوعي الثقافي والمعنى الاجتماعي . وهذا التمهيد ليس مقصوداً لذاته ، وغير مُنفصل عن مسار المجتمع ، ولكنه طريقة عقلانية لاكتشاف طريق الفرد في المجتمع ، وطريق المجتمع في التاريخ . وكل تمهيد سيؤول إلى فلسفة قادرة على تأويل الوعي والمعنى ضمن أطر الفعل الاجتماعي . ويمكن القول باختصار ، إن الفلسفة طريقة لاكتشاف الطريق ، ولا طريق إلا الطريقة .

٢

البنى الثقافية تُجسّد التجارب الإنسانية ، وتمثّل أحلام الفرد باعتباره فاعلاً اجتماعياً يسعى إلى إيجاد معنى منطقي لحياته ، وتحويلها من شيء هامشي عابر إلى حقيقة اجتماعية فعّالة . وكل تجربة إنسانية هي نظام حضاري ، ومعيّار أخلاقي ، ورحلة خلاص من أجل تخلص الفرد من صراعاته النفسيّة ، ومآزقه الوجودي ، وقلقه الحياتي ، وخوفه من المستقبل . ولا يمكن للفرد أن يُحوّل أحلامه الشخصية إلى عوامل إبداع جماعية إلا إذا تحرّر من القلق والخوف . وإذا كانت البنى الثقافية تقوم على النتاج الفكري المُتراكم ، الذي يتمتع بالخصوصية ، ويتميّز بالبصمة التاريخية المُتفرّدة ، فإن الوعي التاريخي بالثقافة يقوم على الأنماط الاجتماعية القابلة للتأويل، والأشكال السياسية القابلة للتطبيق، ممّا يُؤدّي إلى صناعة منظومة من السمات الثقافية المتنوّعة التي تُعيد إنتاج الواقع ، وتؤسّس سلطتها المركزية في طبيعة الفعل الاجتماعي ، من أجل تكوين منهج عقلائي قادر على استكشاف ظواهر المجتمع المُسترة ، وتحليل الأنساق المعرفية الباطنية،

ورَبَطَها بالسياقات الوجودية المنبثقة عن سُلطة التاريخ وكنونة المعنى . وإذا كانت الثقافة تُعتبر التاريخَ دليلاً حيويًا ، فيجب على الحقول المعرفية أن تدفع التاريخَ إلى إفراز الدلالات المعنوية والمفاهيم المادية ، كي يُصبح التاريخُ ظاهرةً ثقافيةً مُستمرة ، ونشاطاً فكرياً مُتواصلًا، لمنع حدوث تعارض بين الحقائق الاجتماعية والأشياء الحياتية ، والحيلولة دُون حدوث صدام بين الثقافة والسلوك . والتوافق بين الحقائق والأشياء من جهة ، والثقافة والسلوك من جهة أخرى، يكشف طبيعة الشروط المعرفية المفروضة على أنساق الواقع المُعاش ، للسيطرة على ماهيته ، والهيمنة على جَوهره ، وتوجيهه نحو صناعة تصوُّرات وهمية عن الحياة تكون بمثابة مُسلّمات صالحة للتوظيف لتحقيق مصالح شخصية . ولا يُمكن الكشف عن عناصر السيطرة وعوامل الهيمنة إلا بتكوين أدوات نقدية قادرة على تفكيك الظواهر الاجتماعية وتركيبها وتطبيقها .

٣

المُجتمعُ الحَيُّ هو الكيان المعرفي القادر على تحويل الشعور الإنساني إلى تجربة حياتية، ثمَّ ظاهرة ثقافية، ثمَّ حقيقة اجتماعية . ومفهومُ الحقيقة الاجتماعية يستمد شرعيته من رمزية اللغة ، ويكتسب أبعاده من سُلطة العقل العَصِيّ على التدجين، ممَّا يدل على أن اللغة والعقل يُكوَّنان تاريخًا ثقافيًا لليقين الاجتماعي. وهذا لا يعني أن المجتمع يصل إلى وضعية نهائية وحالة حاسمة ، وإنما يعني أن المجتمع يَمْتَلِك الجُرأة على طرح الأسئلة الحساسة، والبحث عن إجابات منطقية، بدون تهرُّب من المآزق الوجودي، ولا تنصُّل من المسؤولية الأخلاقية. ويجب على الفرد في طريقه إلى اليقين الاجتماعي أن يُغامر ويُجَرَّب المُستحيل كي يُعود إلى ذاته ، ويُلبِّي نداء أعماقه، ويصل إلى المُمكن . وكلُّ طريقٍ إلى اليقين جُزءٌ من اليقين ، والخطوة جُزءٌ لا يتجزأ من طبيعة الطريق .

*

التحولات الاجتماعية والنظم الثقافية في ضوء التاريخ

١

نظام التحولات الاجتماعية يعكس طبيعة المعايير الإنسانية التي تتماهى مع مفهوم الشخصية الفردية والسلطة الجماعية . والشخصية والسلطة لا توجدان في أنساق المجتمع بشكل منفصل عن مصادر المعرفة ، ومكونات التاريخ ، ورموز اللغة، ومجالات الوعي، وتطورات الأفكار. وهذا يعني أن العوامل الاجتماعية بصيغتها الجزئية والكليّة سوف تتأثر بالنظم الثقافية الأولية والمركبة ، وتؤثر فيها . وهذه التبادلية تكشف كيفية التفاعل الاجتماعي الثقافي ، ودوره في صناعة أدوات فلسفية تساهم في مساعدة الفرد والجماعة على التكيف مع الأحداث المتسارعة ، وتوقع الأمور قبل حدوثها ، وعدم اللهاث وراءها . وبالتالي ، تحييد عنصر المفاجأة ، وتحويل المسار الحيثي إلى علاقة بين الهوية الشخصية والهوية الاجتماعية . وهذا الترابط من شأنه بناء تصوّر فكري للشخصية الفردية كماهية مركزية للنظام الثقافي ، وتكوين وعي وجودي للسلطة الجماعية كأساس منطقي للسلوك الإنساني . وإذا كان النظام الثقافي منبعاً للأفكار والمشاعر ، فإن السلوك الإنساني تجسيد لتكيف الثقافة مع الواقع ، لتحليل أبعاده ، وكشف مفاهيمه ، من أجل محاولة تغييره ، وصناعة واقع جديد .

٢

التفاعل بين الذات والشيء من جهة ، والشكل والمضمون من جهة أخرى ، يُعتبر نتيجةً لانتقال الأفكار المتواصل من بنية المجتمع التفسيرية إلى منظور الثقافة الديناميكي . وهذا الانتقال يمثّل منهجاً فكرياً متكاملًا لاشتماله على عناصر العمل الإبداعي (الفعل الاجتماعي المُتفرد) : التوليد، والتنسيق، والتحرك ، والتحرير . توليد المعاني العميقة النابعة من الأسئلة الحاسمة والأجوبة المُقنعة، وتنسيق التجارب الواقعية المنعكسة عن المشاعر الذاتية، وتحريك عناصر الفكر الواعي من الحتمية إلى الاحتمالية، وتحرير الدوافع الإنسانية الكامنة من النظرة الأحادية لاستيعاب زوايا الرؤية المتعددة . والفعل الاجتماعي يظل محتفظاً بفضاءاته الإبداعية وسياقاته المعرفية ، ما دام مفتوحاً على كافة الاحتمالات ، ومُنفتحاً على جميع الاجتهادات . وهذا يدلُّ على أن الفعل الاجتماعي قائم على القيم النسبية لا المطلقة ، أمّا إذا تمّ حَقْنُه باليقين والمُسلّمات ، فعندئذ ستحدث عملية تصنيف للدوات ، لأنّ الفعل الاجتماعي إذا أُحيطَ بهالة القداسة والعصمة ، وتمّ

اعتباره وصيًا على المجتمع ، ومالكًا لليقين التام والحقيقة الكاملة والقيمة المطلقة ، فهذا يستلزم بالضرورة تصنيف الفاعل ، واتخاذهِ وثناً أيديولوجياً . وفي مجتمع الأصنام البشرية ، يصير الفعل هو الفاعل ، والفاعل فوق مستوى النقد . وهذا يتعارض مع الأساس الفلسفي للتحويلات الاجتماعية والنظم الثقافية .

٣

لا يمكن للمجتمع أن يصل إلى جوهر المعنى إلا إذا اعتبر الثقافة تاريخاً للأحلام الفردية والجماعية ، يقوم بذاته ، ويكتمل بنفسه ، ويتجسد في حركة التأويل المستمرة ، ويتمثل في المنظومة الإنسانية المتفاعلة مع الزمان والمكان والسكان ، ويتجذر في فاعلية وجدانية متماسكة ، استناداً إلى أن الوعي الاجتماعي بالثقافة جزء لا يتجزأ من الجذور العميقة للتاريخ . وبذلك تكون الثقافة تاريخاً مستقلاً ، وتاريخاً للتاريخ (تاريخاً حاليًا موازياً للتاريخ الواقعي) . وتاريخ الثقافة وثقافة التاريخ وجهان لعملة واحدة ، لا يمكن فصلهما لأنهما وحدة واحدة ، ولا يمكن تفكيكهما لأنهما كلٌّ شامل . كما أنهما ينتجان آليات تواصلية لفحص الخطاب السائد في المجتمع ، وتجنب السقوط في فخ مظاهر الخطاب وتطبيقاته ، لأن الإطار النظري هو أساس الفعل الواقعي ، وتحليل بنية الفعل الاجتماعي دون معرفة البنية النفسانية للفاعل ، سيؤدي إلى نتائج مشوشة ، وأحكام متناقضة ، وخبرات وهمية ، وأنماط عاجزة عن إحداث توازن بين التفاعل الإنساني في المجتمع ، والتفاعل المعرفي في رمزية اللغة الحاملة لتاريخ المجتمع . وبما أن اللغة حارسة هوية المجتمع ، والمجتمع امتداد طبيعي لأحداث التاريخ ، والتاريخ ذاكرة كُلية للنشاط الإنساني ، فلا بد من إيجاد علاقة لغوية رمزية تعمل على تحليل التحويلات الاجتماعية وتفسير النظم الثقافية في ضوء التاريخ ، بشكل منهجي يجمع بين العقلانية والسلوك والشعور .

*

فلسفة الوعي والتاريخ الفكري

١

البُنية الفلسفية للعلاقات الاجتماعية تُمثّل منظومةً إنسانيةً للخلاص الوجودي ، وخطّة معرفيّة للإنقاذ الشامل . وهذا يدلُّ على الترابط بين الفكر الإنساني وكيّونة المُجتمع الحاضنة لسلوك الأفراد المنطقي ، وتاريخ الجماعة الواعي . والترابط بين الفكر والكيّونة انعكاسٌ طبيعي للسياق الحياتي الذي تنشأ فيه الرموز اللغوية والأسئلة المصيرية ، ونتيجة حتمية للتأثيرات الشعورية على النظم الثقافية في حياة الأفراد ، الذين يُشكّلون رؤيتهم المعرفية للذات والموضوع اعتمادًا على زاوية الرؤية للعالم بكلّ تحولاته وتناقضاته ومصالحه المتضاربة . وزاوية الرؤية لا تُحدّد تصوّر الذهني للأحداث والاتجاه المعرفي للوقائع فحسب ، بل أيضًا تُحدّد طبيعة المحيط الاجتماعي ، والانقسام الحاصل في أنويته الداخلية ، والتشظّي الموجود في الحياة اليومية ، وكيفية توليد أنساق العقلانية الناقدة، من أجل تأويل الظواهر اللغوية، وتحليل النظم الثقافية ، وتفسير مصادر المعرفة ، وفحص آليات التفكير، باعتبار أنّ النظام الفكري لا يُمكن الحكم عليه خارج السياق الاجتماعي. والهدف من هذا الحراك الاجتماعي هو تحويل الأفكار إلى أفعال ، والأفعال إلى معرفة ، والمعرفة إلى سلطة ، والسلطة إلى مشروع لتحرير الوعي من الخوف، وليس تسليط الخوف على الوعي للهيمنة عليه . وهذا من شأنه كشف عمليات إنتاج المعنى في اللغة ، وإظهار الأدوات الإبداعية في المجتمع ، وإزالة الأقنعة عن الكلمات .

٢

فلسفة الوعي هي بناء أخلاقي، يُفرز معايير الرمزية المنعكسة عن ذاته، ويُنتج مناهجه التاريخية الخاصة به. وهذا البناء الأخلاقي هو أساس المجتمع الإنساني الذي يُعتبر كينونةً متغيرةً، وليس كيانًا ثابتًا. وكلُّ عملية تُغيّر في السياق الاجتماعي هي عملية تغيير في النسق الثقافي. وإذا كان التاريخ شرطًا لوجود المجتمع ، فإنّ الثقافة هي الهوية الحاضنة لأحلام المجتمع ، والكاشفة للمنظور التاريخي القادر على تفسير المفاهيم المركزية التي تربط بين اللغة والمجتمع من جهة، والمجتمع والثقافة من جهة أخرى ، ممّا يُؤدّي إلى كشف طبيعة حركة البنية الفلسفية للعلاقات الاجتماعية . وهذه البنية ليست كتلة جامدة ، بل هي منظومة ديناميكية تمتاز بالتكيف مع النظم الثقافية ، والتأقلم مع التاريخ الفكري في السياق الحضاري العام . والتاريخ الفكري لا يتطوّر

بِمَعزِلٍ عن السِّياق الحضاري الذي أنتجه في الدَّلالات اللغوية، ووظَّفه في مسار الأحداث اليومية. والتلازمُ بين الفكر والحضارة يَفْرَضُ على الفرد أن يُحلِّل العلاقات الاجتماعية باعتبارها ظواهر ثقافية مُضادَّة للزَّعة الاستهلاكية ، وأنماطاً حياتية عابرة للتَّجَنُّيس والتَّحْيُز . وهذا يعني أنَّ العلاقات الاجتماعية ليست تصوُّرات ذهنية مُجرَّدة ، أو أزمنة هامشية محصورة في جسد المكان. وسَوْفَ يُنتِج المجتمع زَمَنَهُ الذي يُوازي التاريخ، لتحقيق حالة التعادل مع حجم التحديات المصيرية والأزمات الوجودية . وثنائِيَّةُ (الزمن الجزئي الخاص / التاريخ الكُلِّي العام) سَتَكُون حاضنةً لإفرازات العقل الجَمْعِي في نطاق تحرير المجتمع مِنَ المُسلِّمات الجاهزة ، وإنقاذ الفرد مِنَ المشاعر الاصطناعية .

٣

التاريخُ الفِكْري ليس نصًّا لغويًّا مَحْصُورًا في سِياق الزمن ، ومُخَاصَرًا بِحُدُود المكان ، وإنما هو حَفَرٌ مُتواصل في جسد المعنى، وتنقيب دائم في ماهيَّة المجتمع، وبَحْثٌ مُستمر في جَوهَر الإنسانية . وهذا النشاط الكُونِي يتعلَّق بفلسفة الوَعْي التي تُولِّد مُستويات الإدراك ، وتُعِيد ترميمَ الواقع المُعاش في كينونة المُجتمع ، مِنْ أَجل نَقْل الزَّمَن مِنَ التَّشْطِّي (انقسام السُّلطة المعرفية) إلى التَّجَلِّي (انكشاف الحقيقة الاجتماعية). وكما أن العقل الجَمْعِي لا ينفصل عن جسد المعنى، كذلك الحقيقة الاجتماعية لا تنفصل عن السُّلطة المعرفية. وهذا الالتحام يَمْنَع التجارب الإنسانية مِنَ الولادة خارج رَجْم التاريخ الفِكْري ، وَيَمْنَح الفردَ فُرْصَةً اكتشاف ذاته استنادًا إلى أَفكاره لا غرائزه ، واعتمادًا على الحُلْم الذي صَنَعَهُ ، وَلَيْسَ الذي وَرَثَهُ ، وارتكازًا إلى الإبداع لا التقليد . ولا يَخْفَى أَنَّ مَنْ بَنَى بَيْتًا لَيْسَ كَمَنْ اشْتَرَاه .

*

الزمان والمكان والتعبير عن الوعي

١

المعايير الإنسانية في العلاقات الاجتماعية تحتاج إلى أدوات تحليل قادرة على ربط السلوكيات اليومية بحيوية النظم اللغوية، كما تحتاج إلى آليات واقعية قادرة على فكيف الظواهر الثقافية باعتبارها أشكالاً للتفاعلات الرمزية، ومضامين معرفية لإشباع رغبات الفرد في التواصل مع ذاته ومُحيطه، والتعامل مع الآخرين باعتبارهم بؤرة لدائرة المعنى المعرفي، التي تتداخل مع شخصية الفرد وسلطة المجتمع. وهذا التداخل ليس حركة ميكانيكية كعقارب الساعة التي تشير إلى الزمان، وإنما هو حركة قصديّة واعية في ماهية الكيان التاريخي، لإعادة تفسير الزمان، ليس كشيء مضى وانقضى، وإنما كنقطة ارتكاز جوهرية في المكان الذي يُعاد بناؤه باستمرار، ويتم استحضاره من ذاكرة اللغة، لحراسته من الغياب، وحمايته من أنماط التفكير الاستهلاكي، وقولب الوعي المُزيّف. وإذا كان الزمان وجوداً للمعنى (المدلول) في المبنى (الهيكلي الوظيفي الحاضن للمدلول)، فإن المكان تجسيد لتصورات الفرد عن كينونته، ومفاهيمه حول الحياة، في ظل حركة الزمان المندمجة مع التغيرات الطارئة على الفكر الإنساني، وتحولات الشعور، والمنظور الأخلاقي، ومصادر المعرفة.

٢

الزمان والمكان ينتقلان من البنى الاجتماعية العميقة في وعي الفرد وشعوره، إلى المسارات الوجودية التي تُفرزها حركة التاريخ، من أجل تحرير المصير الإنساني من العزلة الاجتماعية التي تدلّ على غياب التواصل مع المجتمع. وفي حقيقة الأمر، إن الزمان لا يختفي، وإنما يتجسّد في منهج تحليل العلاقات الاجتماعية، والمكان لا يغيب، وإنما يتجسّد في أسلوب تفسير مصادر المعرفة. وهذا يحمي الفرد من الشعور بالاستقلال عن البيئة المحيطة، والغرق في أفكاره الشخصية وعوالمه الذاتية. وتفاعل الفرد مع عناصر العالم الواقعي، يُمثّل الأساس الفلسفي للعلاقة بين الظواهر الثقافية والنظم اللغوية، ممّا يدفع باتجاه تكوين شرعية وجودية للتفاعلات الاجتماعية المنعكسة عن حركة التاريخ التي تقوم على تفسير إشارات الثقافة، وتأويل رموز اللغة، وتحليل العوامل الجزئية والكليّة التي تُؤثّر في بناء أشكال الوعي على قواعد السلوك الأخلاقي. وحركة التاريخ – بما تملكه من قدرة على الانبعاث والتجديد – قادرة على إيجاد التعابير التي

تُوضَّح أطوارَ النمو الفكري في الأداء الاجتماعي الفَعَال ، وتَخْلِيص الأفعال الإبداعية من القلق الوجودي والتَوَثُّر المعرفي والضغط الحياتي ، وُصُولاً إلى حالة الصفاء المعنوي والنقاء المادي . والصفاء المعنوي شَرَطٌ لبناء أنظمة الخيال في الذات والموضوع، والنقاء المادي شَرَطٌ لتغيير الواقع _ شكلاً ومضموناً _ نحو الأفضل. وإذا انعكس النشاط العقلائي (بُنية الاستدلال المنطقي) على حركة التاريخ _ صورةً ومحتوى _، فإنَّ الشرعية الوجودية ستؤول إلى مشروعية لغوية ، والخيال سيؤول إلى تطبيقات عملية ، والواقع سيؤول إلى ذاكرة لأحلام الفرد ، وبُوصلةٍ لمساره في المجتمع ، وخريطةٍ للتفاعلات الفكرية التي تتجاوز الأنماط الجاهزة والقوالب المُتَحَجِّرة . وطبيعتهُ الفِكر قائمة على التجاوز ، لأنها مُستمدة من ماهية استشراف المُستقبل ، ومُعتمدة على استعادة الذكريات من الذاكرة .

٣

حقيقة الفَعْل الاجتماعي هي انعكاس طبيعي لِجَوْهر الحُرِّيَّة ، الذي يُجسِّد تصوُّرات الإنسان عن ذاته ، ويتجسِّد في فلسفة النماذج المعرفية ، من أجل تكوين حالة من الوَعْي الإنساني ، الذي يَنسجم مع التحولات الجذرية في التجارب الرُّوحية والظواهر الثقافية ، ويُوَجِّه المفاهيم المركزية في الوجود نحو آثار الزمان والمكان على جسد التاريخ ، الذي يَنقسم إلى تاريخ يُؤلَّد في أعماق الإنسان (التاريخ الداخلي) ، وتاريخ يُحيط بحركة الفرد في المُجتمع (التاريخ الخارجي) . وهذا الانقسام يُفرض على الأنساق المعرفية أن تُحلَّل التاريخ كسلطة قائمة بذاتها ، ولا تنفصل عن ذات الإنسان . واستحالة الفصل بين ذات التاريخ وذات الإنسان ، ستكشف كيفية قيام الأيديولوجيات النَّفعية المُغرِضة بتوظيف التاريخ كسلاح ضد حُرِّيَّة الإنسان في النَّقد والتَّقْص . ولا يكفي أن يكون الإنسان واعياً كي يَمْتَلِك حُرِّيَّته ، ويُعْمِل عَقْلَه في تشريح الأنساق الحياتية الظاهرية والباطنية ، لأنَّ التعبير عن الوَعْي لا يَصنع وَعياً حقيقياً بالضرورة ، ووصف الشيء يختلف عن حقيقة الشيء . يجب أن يندمج التعبير عن الوَعْي مع تحرُّر العقل من سُلطة اللامعنى ، كي يُؤلَّد وَعْي حقيقي يَمْتَلِك أدواته وآلياته، وعندئذ يُصبح التعبير عن الوَعْي جُزءاً من حقيقته الذاتية ، وليس مُجرَّد قِشرة خارجية أو غِلاف جَمِيل بَرَّاق .

*

المنظور الاجتماعي الثقافي وسلطة المعرفة

١

طبيعة العلاقات بين الأشياء، وماهيّة الروابط بين العناصر ، تُوضّحان المعايير الأخلاقية لمضامين الوعي الإنساني ، وتُعبّر عن الجوانب الفلسفية للظواهر الثقافية، وتُحدّدان النُظُم الرمزية للتجارب الذاتية للأفراد ، ضمن مسار المجتمع وحركة التاريخ ، وهذه الأنشطة الحيوية مُجمعة تدفع باتجاه تأسيس عملية التفاعل الاجتماعي على قاعدة فكرية صلبة ، تُؤلّد الحقائق الاجتماعية القادرة على حَمْل المعاني الوجودية ، وإيصالها إلى مُستويات الواقع المادي . وبما أن المعاني الوجودية مُختلفة ، وخاضعة لأدوات تفكيك مُتنوّعة ، ومُحتاجة إلى آليات تأويل مُتعدّدة، صارت الحقائق الاجتماعية الحاملة للمعاني الوجودية ذات طبيعة رمزية ، تُحلّل عناصر الوعي الذي يُكوّن الظروف المُحيطة بالفرد والجماعة ، وتُفسّر تراكيب السلوك الذي يتأثر بالعوامل النُفسية والأحداث الحياتية . ومنظومة (عناصر الوعي / تراكيب السلوك) تُشكّل المنظور الاجتماعي الثقافي في مساره الأفقي (وَصَف طبيعة الاتصال بين الأفراد ، والتواصل بين مُكوّنات المجتمع) ، ومساره العمودي (وَصَف العمليات العقلية في الوقائع التاريخية ، وتقويم العلاقات الاجتماعية ، وتقويمها من خلال فاعلية الظواهر الثقافية) . والصلة الوثيقة بين المنظومة والمنظور في بُنية المجتمع تُساعد الفرد على التأقلم مع المُحتوى المعرفي ، والتّكيف مع الرُّوح العقلانية ، والتّميّز عن المُسلّمات الافتراضية ، ممّا يُؤدّي إلى تجاوز هَشاشة الواقع الاجتماعي ، وإعادة بنائه وفق المفاهيم الفكرية الإبداعية ، وهذا يكشف الدّور الحاسم للفعل الاجتماعي في التنمية المعرفية والنهضة الثقافية .

٢

سلطة المعرفة في السّياق الاجتماعي ذات تأثير مركزي في المَشاعر الإنسانية . والمجتمع الحقيقي يستمد حيّاته وحيويته وشرعيته من مشاعر أفرادهِ ، ويُحوّلها إلى قُوّة فكرية لمُواجهة المُشكلات المجتمعية ، وتحرير الأنساق الرمزية للحياة من الوعي الوهمي وإنكار الواقع . وإذا كانت سلطة المعرفة لا تتشكّل إلا ضمن شبكة مُعقّدة من العلاقات الاجتماعية ، فإنّ كينونة الثقافة لا تتشكّل إلا ضمن بناء الشخصية الفردية في الأداء الوظيفي للنظام الاجتماعي العام . وإذا استطاع هذا النظام تحقيق الوحدة بين مُكوّناته ، والوصول إلى حالة من الانسجام والتكامل

بين كيناناته ، فإنَّ الأنساق الرمزية للحياة سوف تستقر في جسد اللغة ، وتعمل على تجسيد التاريخ كنسق اجتماعي مستمر ومتطور ، وهذا يساهم في تكوين أنظمة التفاهم والاتصال بين الفرد وذاته ، والفرد وبيئته ، والفرد والجماعة التي ينتمي إليها بحكم الهوية الوجودية والصفة التاريخية والحقيقة الجغرافية . وانتماء الفرد إلى مجتمعه يُسهّل عملية توزيع الأدوار الاجتماعية ، وترسيخ البنى الوظيفية في شبكة الروابط الفردية والعلاقات الجماعية . وهذا يُعزّز قدرة المعرفة على بناء الوعي _ الكلي والجزئي _ على نظام اللغة والثقافة ، وهذان العاملان يُكوّنان صيغ التفاعل في حركة التاريخ كبنية قائمة بذاتها ، ومستقلة عن أوهام الأنظمة السلطوية ، التي تعمل على تهميش رمزية اللغة الحاملة لأحلام الفرد ، وتمييع الثقافة الحاملة لشرعية الوجود .

٣

المعرفة تقوم على سلطتها الذاتية وذاكرتها الخاصة . وبما أن السلطة محكومة بالذاكرة ، والذاكرة يتم استدعاؤها لتأسيس شرعية السلطة، فإنَّ تاريخاً جديداً سينشأ لإقامة علاقة توازن بين السلطة والذاكرة ، وتوليد قوة فكرية شديدة الاستقطاب ، تُكرّس الضوابط الاجتماعية كمحاولة للسيطرة على جوهر الأشياء والعناصر ، وإعادة تعريفها للتكيف مع الأحداث اليومية والتغيرات النفسية . وكما أنَّ شرعية سلطة المعرفة تعتمد على الأداء الواقعي ، كذلك الأداء الواقعي يعتمد على ذاكرة الفرد ضمن تاريخ الجماعة . وكلُّ ذاكرة خارج التاريخ هي ريشة في مهب الريح ، وكلُّ تاريخ خارج الذاكرة هو فخ مُستتر .

*

الروابط الاجتماعية والمعنى الوجودي للأشياء

١

إنَّ ما يُحدِّد طبيعة الروابط الاجتماعية ليس الأفعال الارتجالية والمشاعر الساذجة ، وإنَّما الصيغة العقلانية بين منطقي اللغة الرمزي والمنظور المعرفي السلوكي. وهذا المنظور ليس تصوُّراً ذهنياً أو فكرةً مُجرَّدة ، وإنَّما هو رؤية وجودية للأحداث اليومية والوقائع التاريخية، نابعة من فلسفة الماوراء الاجتماعي، أي: رؤية الدوافع الخفية التي تختبئ وراء الأحداث ، وقراءة ما بين السطور ، وتحليل العلاقة النفسية بين الذات والموضوع ، وعدم الغرق في اللحظة الآنية ، لأنَّ الهدف من الروابط الاجتماعية هو حفظ مصادر المعرفة الإنسانية للوصول إلى برِّ الأمان ، وليس تشتيت الجهود في محاولات اختراع تاريخ وهمي يُوازي التاريخ الحقيقي ، من أجل إعادة تصميم الذاكرة الجمعية ، والمفاهيم الذاتية ، والمعايير الفكرية ، لإحداث توافق صوري بين الدليل اللغوي والدلالة الاجتماعية. يجب أن تكون العلاقة بين اللغة والمجتمع انعكاساً لتاريخ المعنى الوجودي في تحوُّله الطبيعي لا الاصطناعي. والتحوُّل الطبيعي يعني انتقال الممارسة العملية إلى النظرية الفكرية إلى الرمزية اللغوية ، وبالعكس ، وهذا الانتقال ينتج عن عملية طرح الأسئلة المصيرية على الذات والمجتمع ، والبحث عن أجوبة منطقية . وبما أنَّ الفكر موجود في جميع الروابط الاجتماعية ، فلا بُدَّ أن تتحوَّل الروابط الاجتماعية إلى بيئة خصبة لتوليد الأسئلة والأجوبة معاً ، ممَّا يُقدِّم زخماً كبيراً للتفاعلات المعرفية بين الفرد واللغة من جهة ، واللغة والمجتمع من جهة أخرى .

٢

الإشكالية الفلسفية في بناء المجتمعات الإنسانية تتمثل في البحث عن الأشياء ، والحرص على وجودها ، وعدم البحث عن المعنى الوجودي للأشياء. وهذا أمرٌ شديد الخطورة، لأنَّه يُعرِّي الدال (الشكل) من المدلول (الجوهر) ، ويفصل جسد التاريخ عن صورته الذهنية ، ويُفَرِّغ الفرد من حسِّه النقدي ، ويُجرِّده من قدرته على الهدم والبناء في عالم النظريات الاجتماعية والظواهر الثقافية. والغاية من النشاط الاجتماعي هي الوصول إلى المعرفة التي يستطيع الرمز اللغوي بواسطتها أن يُفسِّر العلاقة النظامية بين السلوك الإنساني والعوامل المؤدِّية إليه . وأهمية الرمز اللغوي تتجلى في قدرته على تحليل السلوك الإنساني باعتباره هويَّة لها كَيْفِيَّة مُتغيِّرة ، ومِعياراً قائماً

على السَّبَبِيَّة . والسَّبَبِيَّة تُحدِّد نقطة بداية السلوك الإنساني ، والكَيْفِيَّة تُحدِّد نقطة نهايته ، وبذلك يتَّضح المسار السلوكي كاملاً بلا فجوات ولا مفاجآت، وهذا يُساهم في تكوين جوهر المجتمع ، ورسم صورته المستقبلية ، وتجسيد الظواهر الثقافية كتجارب حياتية واقعية . وكلُّما انتقلت تراكيب البنية الاجتماعية من المُجرَّد إلى الملموس ، انتقلت الظواهر الثقافية من الممارسة إلى التأثير ، وهذا سيؤلِّد أفكاراً إبداعية ، ورؤيةً جديدةً لعلاقة الفرد بضغوطات مجتمعه وإفرازات بيئته. وهذه الرؤية الجديدة تحمي الفرد من الاغتراب النَّفْسِيّ، الذي يصنع وعياً زائفاً وشعوراً وهمياً . وإذا انفصل الفرد عن ذاته أو مجتمعه ، فإنَّ هويته الشخصية سوف تتشظى بين العوامل النَّفْسِيَّة المرتبطة بالأحلام الفردية ، والعوامل الاجتماعية المرتبطة بالشرعية التاريخية . وهذا التشظى يعني انتقال مفهوم الهوية من الماهية الوجودية إلى الكينونة السلطوية ، وبالتالي يغرق الفرد في صراعين: صراع في ذاته ، وصراع على ذاته . لذلك كان التشظى في هوية الفرد هو الخطر الحقيقي على وعيه، وأفكاره ، وحرّيته . وإذا انكمشت مساحة الحرّية ، فإنَّ المعايير الأخلاقية ستنتهر ، ويصبح المجتمع مصدراً للأفعال الآليّة المصلحية الخاضعة لسلطة الأمر الواقع .

٣

الحرّية لا تعني أن يفعل كلُّ فرد ما يحلو له ، وإنما تعني حرّية اختيار المسار الحياتي ، وحرّية الفعل الاجتماعي ، والتزام الفاعل بتحمُّل مسؤولية الفعل . وارتباط المسؤولية الشخصية بالحرّية الفردية يُعدُّ الركيزة الأساسية في طبيعة الروابط الاجتماعية ، التي تُوظف تقنيات التفكير لاكتشاف المعنى الكامن في مصادر المعرفة ، وأشكال الوعي بأهمية التغيير . وكما أن الظواهر الثقافية تُعتبر مناهج عقلانية لتحليل كيفية تأثير اللغة على الأفكار ، كذلك التجارب الوجودية تُعتبر أشكالاً واعية لتحليل كيفية تأثير الأفكار على المجتمع . وبالتالي ، يُعيد الفرد اكتشاف ذاته وحلمه ومقصّره ضمن اللغة والأفكار والمجتمع ، ويُعيد المجتمع اكتشاف كيانه من خلال الهوية الشعورية الفردية والماهية الوجودية الجماعية .



الدافعية والفاعلية والتفاعلات الاجتماعية

١

الجذور الفلسفية للظواهر الثقافية تُحدّد طبيعة المجتمع، وهذه الطبيعة ليست شكلاً ثابتاً، وإنما هي كينونة متحوّلة في الدلالات الرمزية للوعي والشعور، وماهيّة كامنة في التغيّرات الطارئة على مصادر المعرفة، التي تكشف خصائص التجارب الإنسانية، روحياً ومادياً. وإذا كان المعنى الحقيقي للتجارب الإنسانية ينبع من المتعة والمُعانة معاً، فإنّ الوعي الحقيقي بشخصية الفرد وسلطة المجتمع ينبع من الدافعية والفاعلية معاً، حيث إنّ الدافعية تحضّ الأفراد على القيام بأنشطة سلوكية واقعية مُوجّهة، والفاعلية تُوضّح القدرة على إنجاز الأشياء الصحيحة تحت الضغط، والوصول إلى أبعد نقطة بأقل تكلفة. وإذا استطاع الفرد إدراك المعنى في أنساق الفكر الباطنية، وتفعيل الوعي في المعايير الأخلاقية والبني الاجتماعية، فإنّه سينجح في تفسير الأحداث اليومية، وتحليل الوقائع التاريخية، وتحويل الإدراك - نظاماً ومنظومة - إلى نشاط عقلائي يُوازن بين الدافعية والفاعلية.

٢

كُلُّ نشاط عقلائي في طبيعة المجتمع يهدف إلى منع انفصال المعنى عن الوعي، والحيلولة دون انقطاع الصلة بين الشعور والإدراك. وبما أنّ المعنى في السياق الاجتماعي الواعي مُتشعّب، والشعور في البنية الوظيفية الإدراكية مُعقّد، فإنّ فلسفات تاريخية - فردية وجماعية - سيّعاد إنتاجها وتأويلها، من أجل التأثير على مسار السلوك الاجتماعي، وتحويل مُكوّنات هويّة المجتمع إلى قوّة مُحرّكة للنشاط الإنساني الحيوي. وهذا من شأنه إدماج جوهر الفعل بطريقة تفكير الفاعل، ممّا يُؤدّي إلى تكوين مناهج تحليل عقلائي تجمع بين الفعل الاجتماعي ومصدره الوجودي. والفصل بين الفعل والفاعل سيؤدّي إلى انهيار منظومة الأسباب والمُسبّبات، والفصل بين الفكر والأخلاق سيؤدّي إلى صناعة تصوّرات خاطئة عن الفرد والمجتمع، وهيمنة المصالح الشخصية على المصير المشترك للإنسانية. وبالتالي، تُصبح أحكام الفرد خاضعة لصورته المُتخيّلة عن المجتمع بعيداً عن جوهره الذاتي، وحقيقته العملية، وحرّيته في كينونته، وسيادته على كيانه. وفي ظلّ اختلال التوازن بين القوى الفكرية التي تُنتج الفعل الاجتماعي وتحرّكه، وتحوّل القيم المطلقة إلى قيم نسبية خاضعة للمُقايضة الفلسفية (تبادل المواقف والأفكار اعتماداً

على الأهواء والمصالح، بدون معايير أخلاقية ولا مبادئ إنسانية سامية) ، فإنّ مصادر المعرفة ستؤول إلى خبرة ذاتية عاجزة عن التفاعل مع إفرازات الواقع المعاش ، ويصبح السلوك مجرد تعبير عن تجربة شخصية تفتقر إلى حركة المعنى ودينامية الشعور .

٣

كلُّ سلوك لا يكون فعّالاً، سيصير عبئاً على الأنساق الاجتماعية التي تولّد عناصر التاريخ الخاص بالظواهر الثقافية، وهذا يؤدّي إلى غياب التجانس في التفاعلات الاجتماعية ، والعجز عن التكيف مع التغيرات النفسانية والتقلّبات التاريخية . وكما أن الشعور يشتمل على تجربة ذاتية واعية، كذلك التاريخ يشتمل على آليات فكرية وأدوات تفكيك للروابط بين الفكر واللغة من جهة، والفكر والمعنى من جهة أخرى . والفكر واللغة والمعنى تُشكّل أنظمة معرفية منفصلة ، ومختلفة جوهرياً ، ولكنها متفاعلة. وهذا التفاعل يعمل على مزج مكونات الظواهر الثقافية لتشكيل الفضاء الرمزي في اللغة باعتباره مصدر الشرعية للعلاقات الاجتماعية ، وتشكيل أبعاد المنفعة العامة باعتبارها أساس المشروع للهوية المشتركة بين الفرد والجماعة .

٤

استجابة التفاعلات الاجتماعية لتأثيرات الماهية الوظيفية للتاريخ ، تُعتبر تفسيراً معرفياً للشعور الإنساني ، ضمن الإطار اللغوي والواقع المادي . وهذه الاستجابة تُوضّح العلاقة السببية بين المعرفة والشعور ، أي إنّ إفرازات البناء المعرفي تولّد الأنساق الشعورية ، وتتسبّب في كشف الفكر المضمر فيها . ولا يمكن تفسير عملية تجسّد التاريخ في رمزية اللغة ، وتجسيد رمزية اللغة في التفاعلات الاجتماعية ، إلا من خلال العلاقة السببية بين المعرفة والشعور ، فلا يوجد تاريخ بلا معرفة ، ولا توجد لغة بلا شعور . والمسار المعرفي للتاريخ لا ينبع من ردود الفعل الشعورية ، وإنما ينبع من التجربة الشعورية الواعية . والأطر الشعورية في اللغة لا تتكوّن من أحكام نهائية أو تقييمات حاسمة، لأنّ اللغة جسد حاضن لكافة الاحتمالات ، وكيان مفتوح على جميع التأويلات، وهذا يمنع الشعور من امتلاك الحقيقة المطلقة . وفي نفس الوقت ، يمنح الشعور فرصة للانطلاق نحو النشاط المعرفي القادر على تفسير أنماط الظواهر الثقافية في النظم الاجتماعية المتشابكة .

*

السلوك الاجتماعي وثقافة الحياة اليومية

١

العلاقة المتبادلة بين السلوك الاجتماعي وثقافة الحياة اليومية ، تحتاج إلى تفسير معرفي مُتجدد ، وتحليل نقدي مُستمر ، من أجل تطوير الوعي الإنساني بالنظام الاجتماعي ، وتحويل التصورات الذهنية إلى سياسات إبداعية فاعلة في مجالات النشاط الواقعي ، الذي يتأثر بالتحولات اللغوية والثقافية ، النوعية والكمية . وهذا التأثير ليس ردّة فعل ، وإنما هو منهج فكري يؤلّد فلسفة تأويلية للوجود الإنساني ضمن وعي الفرد وشعوره تجاه المجتمع . والوعي والشعور يصنعان تاريخاً جديداً للتفسير المعرفي لأنساق المجتمع ، ويكوّنان صياغة علمية للتحليل النقدي للعالم الذي يتحوّل إلى شبكة متكاملة ومتراصة ، في حين تُصبح حياة الأفراد أكثر فردية وانعزالاً . وإذا كانت البنية الاجتماعية مُحسّنة ، فإنّها ستُنتج فرداً مُتوحّشاً ، لأنّ الفراغ الروحي يُؤدّي إلى اشتعال الرغبات وتأجج الغرائز . وبما أنّ المجتمعات تختلف من حيث طبيعة الظواهر الثقافية التي تنتشر فيها ، فإنّ ماهية السُلطة المعرفية ستختلف تبعاً لإفرازات الظواهر الثقافية وانعكاسات المعايير الأخلاقية . وكما أنّ الإنسان يصنع الثقافة ، كذلك الثقافة تصنعه . وكما أنّ الإنسان يتحكّم باللغة ، كذلك اللغة تتحكّم به . والإشكالية لا تكمن في التأثير المتبادل بين الذات والموضوع ، والسلوك والثقافة ، والثقافة واللغة ، وإنما تكمن في التحدّيات المصيرية أمام قدرة الإنسان على صهر الثقافات المتعدّدة ، واستيعاب الأنساق المركزية في الوجود الحر (العالم الخيالي) والوجود المُقيّد (العالم الواقعي) . هل يستطيع الإنسان أن يُطوّر أدوات فكرية لتحويل التناقض إلى تجانس باستخدام رمزية اللغة المتأصّلة في الظواهر الثقافية ؟ . هل يستطيع الإنسان أن يُكوّن آليات معرفية لتحويل التلّيف إلى توفيق باستخدام دلالات الثقافة العميقة المُتجذّرة في القيم والأفكار؟ . إنّ هذين السؤالين يُحدّدان طريقة تفاعل الأفراد مع بعضهم البعض ، ويوضّحان كيفية تعامل الأفراد مع النظام الاجتماعي المُسيطر على السلوك الإنساني والأحداث اليومية . وبما أنّ الأسئلة الوجودية لا تنتهي ، ولا يُمكن حصرها ، فلا بُد من إيجاد منهج فكري قادر على تحليل مُكوّنات البنية الوظيفية للثقافة ، وبيان دورها في تحديد نقاط القوّة ونقاط الضعف في مصادر المعرفة الفردية (الجزئية) والجماعية (الكلية) ، وتنظيم الطاقة الرمزية في التفاعلات الاجتماعية ، من أجل التعرّف على جوهرها ، وأسس تكوينها ، وكيفية تأثيرها ، وأسباب تغييرها في المراحل الزمنية المُختلفة .

النظام الاجتماعي كُلٌّ لا يتجزأ ، والمَاهِيَةُ الثقافية هي جَوْهر إنساني حقيقي ، وليست عَرَضًا زائلاً وتابعا للمصالح الشخصية والمنافع الفنية، وهذا يعني أن المعايير الأخلاقية مُطلَقة لا نِسْبِيَّة. والإنسان لا يَخترع منظومة أخلاقية لتتلاءم مع مسار حياته ، وإنما يَرسم مسارَ حياته وَفُق المنظومة الأخلاقية . وكما أنَّ ثقافة الأحداث اليومية تلعب دَوْرًا جوهريًا في تنمية وَعي الإنسان بذاته ، وَوَعِيَه بموضوعات حياته ، كذلك المنظومة الأخلاقية ، ممَّا يعني أَنَّ الهيكل الأخلاقي للمجتمع هو المُحرِّك الأساسي للفكر الإبداعي ، والمُؤَثِّر الحقيقي على العملية الإنتاجية التي ترتفع بمستوى الإنسان ، ولا تَسْتهلك إنسانيته ، والمُسيطرُ على حركة الوَعْي من البيئة الخارجية إلى البيئة الداخلية للنظام الاجتماعي. وإذا صارت إنسانية الإنسان إطارًا معرفيًا ، ونسيجًا لُغويًا، وتنظيمًا للقواعد السلوكية التي تتحكم بطريقة بناء التفاعلات الاجتماعية ، فإنَّ هُويَّة المجتمع سَوْفَ تنكسر كتاريخ قائم بذاته ، وسياسة عقلانية تتحمل مسؤولية السُّلطة ، وتتجذر في أشكال التأثير الاجتماعي النابع من إتاحة الفرصة للأفراد كي يُعبِّروا عن دَوَاتهم وَفُق خبراتهم الخاصَّة ، يَدُون قلق داخلي ، ولا ضَغْط خارجي .

وظيفة الوَعْي الإنساني أن يُلاحق آثارَ السُّلوك الاجتماعي في ثقافة الحياة اليومية ، وهذه الآثارُ تُمثِّل تجارب مَوْضوعية في غاية الأهمية، لأنَّها تعبيرٌ عن الحرية المُنضَبطة بالمسؤولية التي تمنع الفكرَ الاجتماعي من التَّحوُّل إلى أداة قَمْع، وتعبيرٌ عن المفاهيم الأخلاقية التي تحمي الفرد والجماعة من التهميش والإقصاء ، وتحوُّل دُون تمزيق نظام العلاقات الاجتماعية في الشعور الباطني والإدراك الظاهري . وإذا كان الوَعْي لا يَقُوم إلا على السُّلوك والثقافة معًا، فإنَّ هُويَّة المجتمع لا تَقُوم إلا على العقلانية والعدالة معًا. وهذا يُؤدِّي إلى تحقيق التجانس في بُنية الفعل الاجتماعي، وتفعيل التفكير الناقد في كينونة المسار التاريخي الحقيقي للفرد والجماعة .



اللغة في سياق الفعل الاجتماعي

١

فلسفة الوُعي الاجتماعي تُمثّل شكلاً جوهرياً للحياة اليومية يُشير إلى حقيقة الوجود الإنساني في المجتمع واللغة ، ومعيّاراً أخلاقياً يدلّ على مركزية السلوك المعرفي في التاريخ والحضارة . وإذا كان الوُعي الاجتماعي تعبيراً عن المعاني في حالة إدراك العقل لها ، فإنّ الوجود الإنساني تعبيرٌ عن اتّصال المعرفة الذاتية بالمُحيط الخارجي ، وإدراكٌ منطقي للعلاقة التي تربط بين كيان الإنسان وكيّونة المجتمع . وإذا تكرّس الوعي الاجتماعي في السلوك المعرفي فعلاً وفاعليّةً ونظاماً ومنظومةً ، فإنّ أفكار الإنسان ستُصير تجسّيداً للمشاعر الكامنة في أعماق ذاته ، وتوليداً لعناصر العمل الإبداعي في الواقع المُعاش . وثنائيه (التجسيد / التوليد) تُمثّل تجربة ثقافية قائمة بذاتها، ومُكتملة الأركان. وكلّ تجربة ثقافية هي رحلة معرفية من ماهيّة الإنسان إلى سلطة المجتمع. وهذه الرحلة لا تتمّ إلا بترسيخ الوُعي في مركزية اللغة ، وتوظيفها في التفاعلات الاجتماعية . والهدف من الثقافة _ أولاً وأخيراً _ هو انتشارال إنسان من مأزقه الوجودي ، تمهيداً لتحرير المُجتمع من الوهم والخوف .

٢

مُهمّة اللغة في سياق الفعل الاجتماعي هي تكوين منهج عقلائي ، يُحوّل أفكار الإنسان إلى نسق وجودي قادر على التواصل مع الطبيعة والبيئة ، ويجعل المفاهيم الذهنية عن الحياة طريقاً لتفسير الحقائق الاجتماعية في مُحيطها الداخلي الذي وُلدت فيه، ومُحيطها الخارجي الذي تتكاثر فيه. وإذا كان الوُعي الاجتماعي ينبع من كَيْفِيّة اتّصال الإنسان مع عَالَمِهِ ، واحتكاكه به ، فإنّ الأفكار تُنبع من إفرازاتِ الاتّصال بين الإنسان وعَالَمِهِ ، وتأثيراتِ احتكاك الإنسان بعَالَمِهِ . وهذا الحراك يُحدّد أبعاد الدلالة العامّة للمعرفة، ويُساهم في إدراك العلاقة بين الأفكار كمَاهِيّات واعية ، والأفعال كمعايير منطقية ، ممّا يجعل الإنسان قادراً على إصدار أحكام قيمة على الأشياء والسلوكيات، استناداً إلى الأنظمة الأخلاقية والظواهر الثقافية . وهذا يدفع باتجاه تخليص الإنسان من المشاعر المكبوتة، وتحرير المُجتمع من زُدود الفعل التلقائية. وهذان الأمران هما الضمانة لنقل مصادر المعرفة إلى الأحداث اليومية، وتحويل اللغة إلى ذاكرة جمعيّة تسترجع الماضي لجعله وعياً بالحاضر ، وليس عبئاً عليه .

الإشكالية في العلاقة بين الوعي الاجتماعي والوجود الإنساني تكمن في ارتباط الوعي باللمحة التاريخية ، التي تتغير باستمرار ، وهذا التغير يجعل حدود الوجود الإنساني هلامية ، ولا تملك هوية حقيقية ذات تطبيقات عملية . والوجود الإنساني خاضع للشرط التاريخي ، ولا يمكن للعنصر المتغير أن ينتج عنصراً ثابتاً، أي إن التاريخ المتغير لا يستطيع صناعة وجود إنساني ثابت. ومن أجل حل هذه المشكلة ، يجب على الإنسان أن يؤسس وجوده في اللغة ، لأنها الحاضنة للتاريخ والوجود معاً ، وبدونها يسقط الإنسان في الأوهام ، وتصبح الإنسانية سلعة في قوانين العرض والطلب والاحتكار. وإذا عجز الوجود الإنساني عن استثمار الأشواق الروحية، فإنه سيصير بضاعة خاضعة للقوانين المادية. لذلك، لا بُد أن يكون بناء اللغة وبناء الوعي ملتصقين ومتلازمين .

رمزية اللغة هي الطريق إلى الإرادة الإنسانية الحرة ، والطريقة لتحليل التفاعلات الاجتماعية الرمزية . والإنسان مقيّد في حياته المعقدة ، ولا يمكن أن يُحرّر نفسه إلا برمزية اللغة ، لأنها فضاءات عابرة للحدود والتجنيس. كما أنّ رمزية اللغة تستطيع تفكيك الدور المركزي للوعي والشعور ، وبالتالي يتم التمييز بين حرية الإنسان والمسؤولية المترتبة على هذه الحرية ، وتتنحى طبيعة النشاط اللغوي في توجيه الفعل الاجتماعي ، الأمر الذي يكشف زوايا الرؤية المختلفة للأحداث اليومية والوقائع التاريخية . أي إن اللغة وسّعت مدارك الإنسان ، فأتسعت مساحات التاريخ أمامه ، ولم يعد يعتمد على النظرة الأحادية ، وهذا منهج الوعي الحقيقي .

*

العلاقات الإنسانية وقوانين البناء الاجتماعي

١

وظيفة القيم الأخلاقية والمعايير الثقافية هي إيجاد المعنى في العلاقات الإنسانية ، وتحويل المعنى إلى بنية معرفية لتوليد الحقائق الاجتماعية، والنظر إليها كأشياء مُتَحَرِّرة من قيود الوهم. وخطورة الوهم تتجلى في قدرته على صناعة الأتعة التي تتقمص ملامح الوجه ، وإنتاج النظريات التي ترتدي قواعد المنهج العلمي كالآزياء البراقة . وهذا العلم الزائف أخطر من الجهل ، لأنَّ الجهل يُشعر الإنسان بالنقص ، فيسعى إلى طلب الكمال، أمَّا العلم الزائف فيخدع الإنسان ، ويُشعره بأنَّه كامل قد حقَّق الاكتفاء الذاتي معرفيًا ، فلا داعي إلى التعلُّم ، وهذا هو الفخ القاتل في التاريخ والحضارة. ومن أجل تجنُّب السقوط فيه، ينبغي اعتبار الإنسانية _ بمفهومها الواسع _ هي رحلة البحث عن المعنى ، مع ضرورة البحث عن ترابطات بين الظواهر الثقافية من أجل الكشف عن طبيعة حركة التاريخ ، ومعالِم طريق الحضارة ، وقوانين البناء الاجتماعي . وكلُّ كشف عن الأنساق الفكرية للحياة يُمثِّل اكتشافاً لخصائص النظام الوجودي في اللغة والمجتمع ، التي تُؤثِّر على طريقة تفكير الفرد ، وكيفية تكوين مفاهيم الجماعة وأحلامها ، التي تخضع للسلوكيات المُتناقضة ، والأحداث اليومية المُعقَّدة .

٢

البحث عن المعنى الذاتي والجوهر الموضوعي في قوانين البناء الاجتماعي ، يُمثِّل اتِّجَاهًا للمشاعر الوجدانية والدوافع التَّفْسيَّة والقدرات الفردية والطموحات الجماعية، وهذه المكونات يتم تجديدها في الظواهر الثقافية عن طريق اللغة ، التي تُوفِّر الغطاء الشرعي للأعراف والتقاليد ، وتُضفي على استجابة الأفراد العاطفية الطابعَ الفكري والأخلاقي ، وهذا يُساهم في تحرير حقيقة الوجود الإنساني من الأنماط المادية الاستهلاكية ، وعملية التحرير ستؤدي إلى تحرُّر السمات الشخصية للأفراد ، حيث تتجسَّد فيهم الثقافة الإبداعية ، ليصبحوا عناصر فاعلة في التاريخ ، وكيانات مُتفاعلة مع الحضارة ، ولهم تأثير حقيقي على تفاصيل الحياة الاجتماعية ، ممَّا يدفع الظواهر الثقافية نحو توحيد أنساق الفعل الاجتماعي ، وإبراز الخصائص المشتركة للمجتمع باعتباره لغةً وجودية، واللغة باعتبارها مُجتمعًا معرفيًا . وهذه الخصائص المشتركة تُؤوِّل إلى رموز فكرية تجديدية للهويَّة، وتراكيب تفسيرية للقوة الدافعة للأحداث اليومية ، وأزمة ذهنية مُتكاثرة تُعبِّر عن الواقع المحسوس ، فيُعَاد اكتشاف رُوح المجتمع ، وطاقته الإشعاع في داخله .

الخلاص الاجتماعي لا يتحقق إلا بتخليص الظواهر الثقافية من النمطية ، وتطهير الأفكار من المسلّمات الجاهزة ، ممّا يضمن ولادة المجتمع من جديد ، وإعادة تشكيله معنوياً ومادياً ، ليُكون حُرّاً كرمزية اللغة ، ومُتحرّراً من مصيدة اللحظة الآنيّة التي تحصر فلسفة التاريخ في زُدود الأفعال. ينبغي أن يكون الفعل الاجتماعي والفعل التاريخي مُتلازمين، كي يندمجا معاً ، ويُقدّما رؤية إيجابية للواقع، انطلاقاً من ماهيّة المعايير الأخلاقية، وطريقة تفسيرها ثقافياً . والفعل الاجتماعي التاريخي يُبنى على التجارب الوجدانية ، التي تُؤدّي إلى صناعة تطبيقات ماديّة على أرض الواقع . وإذا تحقّق التكامل بين آليات الفعل وأدوات التجربة ، فإنّ شخصية الفرد ستحوّل إلى فاعليّة (أداء الأعمال الصحيحة في الوقت الصحيح لتحقيق الأهداف المطلوبة) وفَعَالِيّة (العلاقة بين الأهداف المُحقّقة وتأثيرها في المجتمع) . وعندئذ ، يُصبح الفرد فاعلاً اجتماعياً قادراً على تحديد الطريق الاجتماعي ، واكتشاف الطريقة الفكرية .

العلاقات الإنسانية لا تكتفي بوضع قوانين البناء الاجتماعي ، وإنّما تُعيد صياغتها باستمرار ، لأن هذه القوانين خاضعة لحركة التاريخ أفقيّاً وعموديّاً، وصيرورة المجتمع في الزمان والمكان . وهذا التغيّر يُولّد مفاهيم جديدة للوجود الإنساني في المجتمع والطبيعة ، ويُنتج أنساقاً معرفية تُوضّح الطريقة التي يُعبّر بها الأفراد عمّا في داخلهم . وطريقة التعبير تُحدّد كيفية التعامل مع الحقائق الاجتماعية، وتفتح آفاقاً جديدة لتفسير المعنى الإنساني ضمن منظور التأثير ونسّق التأثير. وتعدّد التفسيرات للمعنى الإنساني يعني تعدّد التأويلات للفعل الاجتماعي ، لأن المعنى هو شرعية الفعل ومشروعيته . وإذا كانت اللغة تُقدّم الرموز للتعبير عن مكنونات النّفس الإنسانية ، فإنّ المعنى يُقدّم النماذج للتعبير عن قواعد السلوك الاجتماعي التي تُفرزها الظواهر الثقافية. والإطار العقلاني المُركّب من اللغة والمعنى يصنع نظاماً يسمح للأفراد بالتواصل مع بعضهم، وتبادل الخبرات، وتعزيز الارتباط المصيري بالجماعة ضمن العلاقات الإنسانية وقوانين البناء الاجتماعي، وهذا التماسك الوجودي يُحصّن المجتمع بالثقافة ، ويُحيط الثقافة بالتفاعل الاجتماعي . وعندئذ يستطيع المجتمع تجاوز الانقسام بين الذاتي (الحُكم على أساس الدُّوق) والموضوعي (الحُكم على أساس العقل) ، وتُصبح ذاكرة المجتمع حاضنة للتاريخ والإبداع ، وليست طاردة لهما ، وتُصير الخصائص الثقافية كالغرائز الإنسانية ، وليست عناصر دخيلة على كيان الإنسان وكيونته .

الظاهرة الثقافية والجوهر اللغوي

١

العناصرُ الأساسية للواقع لا تتحوّل إلى حقائق اجتماعية بشكل تلقائي ، لأنّ بُنية المجتمع لَيْسَتْ آليَّةً ميكانيكيَّة ، وإنّما هي شبكة ديناميكيَّة، تقوم على القَصْدِيَّة (النِّية المُبَيَّنَة) ، والشُّعُورِ المبني على التجارب المعرفية ، والتفكير الإبداعي ، والفعل الاجتماعي الواعي ، الذي يتحرّك في هُويَّة الزمان ، وينشّط في ماهيَّة المكان. وهذا من شأنه تحقيق التكامل بين بناء الفعل (صورة السلوك الإنساني المُشتمل على المسار والمصير)، وبناء الحقيقة (الهيكل الشعوري المُستقل عن كينونة الإنسان والمُوجّه لسلوكه) . والعلاقة التكاملية بين الفعل والحقيقة في المجتمع تُحقّق الانسجام بين الظاهرة الثقافية باعتبارها جِسْمًا قائمًا بذاته ، والجوهر اللغوي باعتباره جسدًا للوعي الحر وتجسيدًا للإرادة المُتحرّرة . والتكامل والانسجام هُما مَصْدَرًا الشرعية والمشروعية للأحداث اليومية والوقائع التاريخية، لأنّهما يُولّدان تفكيرًا منطقيًا مُتسلسلًا في الأنساق الاجتماعية ، ويُؤسّسان منظومةً إصلاحيَّة تقوم على ترتيب البنى الوظيفية في هُويَّة النظام المعرفي ، وتُرتّب إيقاعات الزمن في حياة الإنسان ، من أجل إحداث تغيير حقيقي في الواقع الذي يُكوّن شعور الإنسان ووعيه وإرادته ، وتحليل العوامل الوجودية التي يتكوّن منها البناء الاجتماعي .

٢

إذا كانت الرابطة الوجودية بين الظاهرة الثقافية والجوهر اللغوي قادرةً على تفسير وظائف الإنسان في المجتمع ، وتوضيح دور المجتمع في بناء الإنسان ، فإنّ الظاهرة الثقافية ستَصير كُتْلَةً من الحقائق الاجتماعية ، تُعبّر عن المبادئ الأخلاقية التي تتركز عليها القيم الحياتية للفرد والجماعة ، ضمن البنى الوظيفية التي تهدف إلى احتضان الأشواق الروحية وإشباع الحاجات الماديَّة للأفراد المُنتميين إلى المجتمع ، فكّرًا ظاهريًا ، وسياقًا كامنًا ، ومُمارسَةً بَنَاءً . وسوف يصير الجوهر اللغوي معيارًا (مقياسًا لإصدار الأحكام على السلوك الفردي وتقييم النتائج المُترتبة عليه) ، ضمن النظام القيمي الذي يُحدّد حقوق الفرد وواجباته ، واتّصاله مع عالمه الداخلي ، وتواصله مع عالمه الخارجي . وبعبارة أخرى ، إنّ النظام القيمي يُنتج منظومة الحقوق والواجبات ، ويكرّسها في المجتمع ، من أجل منّح الفرد القدرة على التفاعل مع ذاته ، والتواصل مع الآخرين .

شرعية النظام الاجتماعي مُستمدة من قُدرته على إنتاج منظومة فكرية وإدارتها . وإذا استطاعت البنية الوظيفية لرمزية اللغة أن تُحلّل ماهيّة الفعل الذي يقوم به الإنسان ويتحمّل مسؤوليته ، فإنّ البناء الاجتماعي كإطار حاضن للأنساق الثقافية سيؤول إلى بناء فكري حاضن للأبعاد النفسيّة والسلوكية ، وعندئذ ستنتج تصوّرات وجودية جديدة تُساهم في فهم المجتمع تاريخياً وجغرافياً ، وتطرح الأسئلة الجذرية حول غاية الفعل ضمن إفرافات النظام الاجتماعي وسيّاقات المنظومة الفكرية ، وتعمل على أنسنة الفرد ، حيث تنتقل الشخصية من الفردية إلى الإنسانية ، وتأسس السُلطة الاعتبارية للمجتمع على مبدأ التوازن بين نتائج الفعل الآنيّ وغاياته البعيدة .

عملية انتقال النسق الاجتماعي إلى النسق الفكري تحتاج إلى وسط لغوي ووسيط ثقافي . وهذه العملية لا يمكن فهمها إلا باستيعاب تأثيرات الثقافة الجمعيّة على الشخصية الفرديّة، والثقافة تقترون وظيفياً مع الشخصية، وتكوّنان نظاماً معرفياً مرتبطاً باللغة، وكُتلة من الإشارات والرموز وأدوات المعرفة للتفاهم والتواصل والتعبير ، فينتقل المعنى الإنساني من الطبيعة التجريدية للأشياء إلى الواقع التوليدي للقيم ، وهذا يُساهم في تتبّع الطريق الفلسفي للتحوّلات الاجتماعية، وفهم معالمه الأساسية ، ومنعطقاته الخرجة ، وأبعاده الواقعية والخيالية، فيتم التمييز بين الوسائل والغايات . وهذا الأمر في غاية الأهمية ، لأنّ زحام الحياة الماديّة وضجيج الأحداث المُتسارعة يُحاصِران الإنسان من كلّ الجهات ، ويمنعانه من النظر من زوايا مُتعدّدة ، فيفقد القدرة على التأمل والتخيّل ، ويدور في حلقة مُفرغة . والحلّ الوحيد للخروج من مصيدة اللحظة الآنيّة هو التمييز بين الوسائل والغايات ، لأن هذا يعني أنّه اكتشف طريقه ، وعرف نُقْطَتَي البداية والنهاية ، وبالتالي يستطيع رؤية الأحداث وما وراء الأحداث . وهذه الرؤية الثاقبة هي الأساس الفكري للحقائق الاجتماعية في كلّ انعكاساتها وتحوّلاتها .

التفاعل اللغوي والهوية الإنسانية

١

التفاعل اللغوي في الظواهر الثقافية ليس شكلاً من أشكال التنظيم الاجتماعي فَحَسْب ، بل هو أيضاً تعبيرٌ رمزي عن الهوية الإنسانية في تجلياتها التَّفْسِيَّةِ المُعكَّسة على الواقع ، التي تُؤَسِّس منهجاً معرفياً لاستيعاب الفعل الاجتماعي ، وتأويله في سياقات الوُعي الذي تولّده الأحداث اليومية بين التنظير (وضع النظريات اعتماداً على الربط المنطقي بين الخيالات والمُشاهدات) والتكوين (صناعة الواقع الخارجي معرفياً ومادياً) . وتأويل الفعل الاجتماعي لا يعني حصره ضمن منظومة الأسباب والمسببات ، ومُحاصرته في خانة رُدود الأفعال المُؤقتة ، وإنما يعني فَتْحَه على جميع الاحتمالات ، التي تشتمل على الصُّور الذهنية للأشياء ، والتراكيب المنطقية للعناصر، والمفاهيم المُجرّدة للكيانات ، والأفكار العملية للموجودات . وكُلُّ احتمال فكري يُمثّل تاريخاً جديداً للواقع الذي يُعاش في الصُّور الذهنية المرئية ، والتطبيقات المادية الفعلية . وهذا يُشير إلى أن الواقع يُعاش مرّتين ، معنوياً ومادياً ، ممّا يُؤدّي إلى بناء تصوّرات مركزية عن الوجود ، وتمثيلها عقلياً لتفسير طبيعتها ، وتحديد أبعادها ، وبيان مُحتوياتها ، في إطار الأفكار الاجتماعية والرموز اللغوية والظواهر الثقافية .

٢

للهوية الإنسانية وجودان ، وجودٌ لغوي ثقافي يعمل كوسيط بين كيان الإنسان وكيّنونه ، من جهة ، وبين الإنسان والآخرين من جهة أخرى ، وجودٌ اجتماعي يربط بين الشعور الداخلي للإنسان والعالم الخارجي . وهذان الوجودان مُتلازمان ضمن سُلطة الحقيقة المعرفية (جزئياً وكُلّياً) وماهيّة البناء الأخلاقي (فردياً وجماعياً). وبما أن كُلَّ وجود يتأثر بموجوداته ويؤثر فيها ، فلا بُد أن تتأثر اللغة بنسقتها الثقافي وتؤثر فيه ، ولا بُد أن يتأثر التنظيم الاجتماعي بحريّة الأفكار ويؤثر فيها . وهذا الحراك يُفجّر الطاقة الإبداعية في فلسفة العقل ، ويكوّن فضاءً معرفياً يُساهم في تجميع النتائج الإيجابية على المُستويين الداخلي والخارجي (داخل الإنسان وخارجه)، ممّا يَفُود إلى تفعيل آليات التواصل بين الإنسان وذاسته، والإنسان ومُجتمعهِ، فيتكرّس التنظيم الاجتماعي لُغويّاً وفكريّاً على القواعد العقلانية والأخلاقية ، وهذا من شأنه تعميق العلاقات الاجتماعية في الأحداث اليومية ، وتوسيع دلالات القيم الإنسانية في الموروث الثقافي، وإنتاج أدوات البحث والتنقيب في الحقول المعرفية كافة .

التفاعل اللغوي في صيغته الثقافية _ الاجتماعية ، لا يكتمل إلا باكتمال الوعي بكيفية تشكّل
 الروابط بين التمثيلات العقلية (الصُّور الذهنية) والمُحتوى القَصْدِيّ للأفعال الاجتماعية . وهذا
 الاكتمال ضروري لتفسير العوامل التي تُحدّد معالم الهوية الإنسانية، وتكشف طبيعة الأنساق
 المعرفية التي تقوم عليها المعايير الأخلاقية، وتوضّح معنى التاريخ الإنساني ، وتأثيره في الشخصية
 الفردية وعلاقاتها مع ماهيّة الوعي بالعالم الخارجي ، ممّا يجعل الفرد في إطاره الإنساني مُتفاعلاً
 مع العناصر الوجودية في المجتمع، وساعياً للحصول على تفسير منطقي للبنى الوظيفية والسلوكيات
 الحياتية . وكما أن اللغة لا تُفسّر إلا ضمن سياقها المعرفي في منظومة الاتّصال والتواصل ، كذلك
 حياة الفرد ، لا تُفسّر إلا ضمن بُنيته الوظيفية في المجتمع والعالم .

*

العلاقات الاجتماعية والجوهر الإنساني والنظام المعرفي

١

أهمية العلاقات الاجتماعية لا تنحصر في كشف أبعاد الجوهر الإنساني ، بل تتعدى ذلك إلى إعادة بناء مصادر المعرفة على أسس أخلاقية ، بعيداً عن القوالب الفكرية والأنماط الاستهلاكية ، وهذا يُخلّص السلوك اليومي من حالة الغموض ، ويُنقّي النشاط الحياتي من الوعي الزائف . وإذا كانت العلاقات الاجتماعية هي حلقة الوصل بين الوقائع التاريخية والأنساق الفكرية ، فإنّ الجوهر الإنساني هو حلقة الوصل بين الخبرة الوجودية والتجربة الشعورية . وهذا التشابك المعرفي يوضح طبيعة أدوار الأفراد في حركة التاريخ ، وكيفية أداء الظواهر الثقافية لوظيفتها الحيوية في بناء سياسات الرأي العام، الذي يقوم على الاقتناع الذاتي ، وليس الضغط الخارجي . وإذا ترسّخت البنى الوظيفية للظواهر الثقافية في الأحداث اليومية ، فإنّ دور الفرد في المجتمع سوف يتسع حتى يشمل تغيّرات الوعي ، وتفاعلات اللغة ، وتقاطعات الوعي مع اللغة ضمن المعايير العقلانية وأطر الشعور . وهذا من شأنه صناعة قوة توليدية للفعل الاجتماعي ، تُنتج أنساقاً إبداعية لا تعيش مُنعزلة ، بل مُتفاعلة مع الذات والبيئة والطبيعة . وكلّ نسق إبداعي يُمثّل رؤية لغوية قائمة بذاتها ، وعملية اجتماعية مُكتملة العناصر. وتجب حماية النسق الإبداعي من التحوّل إلى شكل بلا مضمون، أو صورة بلا عمق ، وذلك بتكريس مصدر المعرفة كنسق اجتماعي مُندمج مع النسق الإبداعي ، ودافع له في اتجاه تعزيز التواصل بين مركزية التاريخ ورمزية اللغة من ناحية ، وبين الواقع المادي والتحليل الذهني من ناحية أخرى .

٢

تشكيل العلاقات الاجتماعية لا يتمّ بمَعزول عن سياق التجارب اليومية ، وماهيّة المعنى الوجودي ، ومسار الوعي التاريخي . وكلّ علاقة اجتماعية تُمثّل نظاماً معرفياً يُساهم في تكوين آليات لتفسير الشخصية الإنسانية، وتأويل انعكاسات الفعل الاجتماعي ، وربط الظواهر الثقافية بالقوى التي تولّدها ، بحيث تُصبح الثقافة سياسةً اجتماعية ، ويُصبح المجتمع تياراً ثقافياً مُتدفّقاً ، لا يخضع لإفراغات التاريخ ، وإنما يُساهم في صناعة صيرورة التاريخ ، وبذلك يصبح المجتمع زمناً جديداً للمعنى الوجودي والوعي التاريخي . والمجتمع الحقيقي لا ينتظر المؤجّة الفكرية كي يركبها، وإنما يصنع موجته الفكرية التي تنتشل الشخصية الإنسانية من الغرق في الاستهلاكية

المادية الفعّلة . والفكر الاجتماعي الحقيقي لا يسير مع التيار ، وإنما يكون هو التيار ، الذي يستقطب الأفكار الإبداعية ، ويوظفها معنويًا وماديًا من أجل إقامة الكيان الإنساني على قواعد البناء الاجتماعي .

٣

الجوهر الإنساني هو المحلّ الأساسي في مسار الأحداث اليومية ، ووفق هذه الأحداث يتم تأسيس تاريخ شخصي للكيونة الإنسانية ، يتصف بالانتران روحًا ومادّةً ، والتوازن نوعًا وكَمًّا . والجوهر الإنساني هو الحامل للسياقات الثقافية بكل عناصرها الواقعية والذهنية ، والحاضن للمعاني الاجتماعية والتاريخية . وهذا يعطي زخمًا فلسفيًا للفعل الاجتماعي ، ويؤسس شرعية التفسير المعرفي للذات الإنسانية ومحيطها الفكري على مشروعية الظواهر الثقافية ، ودورها المحوري في تشييد الحقيقة الاجتماعية كبناء أخلاقي وإطار لغوي ونظام معرفي .

*

التجارب العقلانية والفلسفة الاجتماعية النقدية

١

الأحداث اليومية تُمثّل تجارب عقلانية على الصعيدين المادي والشعوري ، وهذه التجارب ليست تفاعلات اجتماعية ميكانيكية بين كينونة الإنسان وهويّة الزمان وماهيّة المكان فحسب ، وإنما هي مناهج معرفية عميقة تقوم على القصد والرصد، أي إنّها تقوم على فلسفة الفعل الاجتماعي الواعي المتعمّد ، الذي يستقطب تفاصيل البيئة المحيطة ، ويوظفها ضمن سياقات الأسئلة الوجودية الحاسمة للحصول على المضمون الحقيقي للعلاقات الاجتماعية، والوصول إلى أبعد نقطة مُمكنة في أعماق الشعور الإنساني . وهذه الحركة الدووية عبارة عن صورة جوهرية للمعنى والتعبير عنه ، تتأسس على الظواهر الثقافية المنطقية ، وتؤسس لتنمية إنسانية الأفراد في المجتمع ، فتنقل شخصية الكائن من الفردية إلى الإنسانية ، وتنقل السلطة الاعتبارية لكيان المجتمع من الاتّباع إلى الإبداع ، وعندئذ تتشكّل فلسفة اجتماعية نقدية لاكتشاف الأخطاء وتصحيحها ، وليس تبريرها وتكريسها . وهذه الفلسفة لا يُمكن أن تنتقل من الفرضيات إلى المسلّمات إلا بتكوين منظور أخلاقي يُعيد فحص علاقة الشخصية الفردية بالسلطة الجماعية ، وتحليل أنساق الوعي الاجتماعي ضمن نظام السبب والنتيجة (العلة والمعلول). وهذا يضمن بحث الحيوية في المجتمع باعتباره جسداً للمعنى ، وتجسيدا للحقيقة، وتحريك العناصر الإبداعية في صيرورة التاريخ الفردي والجماعي . والتاريخ إذا تكرّس في الطاقة الرمزية اللغوية ذليلاً فكرياً ودلالةً وجوديةً ، فإنّ إفرازات التاريخ المعنوية والمادية ستحوّل إلى جغرافيا معرفية وجدانية تتكرّس في كينونة الإنسان ، فيبحث الإنسان عن هويته في ماهيته ، ويفتّش عن حياته في ذاته ، ويُنقّب عن تاريخه العقلاني في جغرافيا الأسئلة الوجودية والأجوبة الحاسمة . وإذا صار الإنسان تاريخاً لواقعه ، وجغرافيا لخياله ، فإنّه لن يضيّع وقته في محاولة الحصول على شرعية خارجية ، لأنّ الإنسان هو شرعية نفسه ، ومشروعية أحلامه ، ويجب عليه أن يجد وجوده في أعماقه ، ومن لم يجد حياته في داخله ، فلن يجدها خارجه .

٢

حياة الإنسان هي المنظومة المعرفية التي توازن بين التجارب العقلانية والفلسفة الاجتماعية النقدية ، وكلّ منظومة معرفية هي — بالضرورة — نظام وجودي يشتمل على قوانين مُتحكّمة في

تحوُّل الشعور إلى وَعِي ، والإرادة إلى فِعْل ، والفرضية إلى نظرية . ووظيفَةُ النظام الوجودي لا تَغْنِي ضَبْطُ العناصرِ المُتَغَيِّرَةِ في الأحداث اليومية والوقائع التاريخية فَحَسْب ، بَلْ أَيْضًا تعني ضَبْطُ المعايير الإبداعية في الظواهر الثقافية ، وتجذيرَ فِكْرَةِ بَعْثِ الأحلام المَيِّتَةِ في كَيْنُونَةِ الإنسان ، وإعادةِها إلى الحياة الواقعية . وإذا كان الإنسان _ في المُجتمعاتِ الاستهلاكيةِ المُحاصرةِ بالوَهْمِ والمُحاصرةِ للمَعْنَى _ مقبرةً للأحلام والذكريات ، فإنَّ الإنسان في المنظومة المعرفية والنظام الوجودي تاريخًا مُتَوَاصِلًا مع الأحلام ، وأُفُقًا مَفْتُوحًا على الذكريات . والإنسانية الحقيقية هي حركة الأحلام في تَقَاطُعِ المُجتمع مع إفرَازات التاريخ (الحركة العمودية) ، وتدْفُقُ الذكريات في انعكاس الشعور الواعي على السُّلوك الحياتي (الحركة الأفقية) . والإنسان إذا تَوَقَّفَ عَنِ الحُلُمِ ماتَ في الحياة ، وإذا انفصلَ عن الذكريات ماتت حياته فيه .

٣

تكريس قيمة النَّقْدِ في الفلسفة الاجتماعية يستلزم تفعيلَ الوَعْيِ كسُلْطَة حاكمَة على مسار الإرادة الحُرَّة التي تتبع من الذات ، ولا تَتَّبِع من العناصر المفروضة على الذات من خارجها . والقناعة الذاتية هي أساسُ النَّقْدِ البَنَاء ، وقاعدةُ اكتسابِ المعرفة ، والحقيقة الوجودية التي تُوضِّح كيفية تأثير عناصر البيئة على تفسير الأفكار المنطقية، وتحليل السِّياقات الواقعية، وربط الأسباب بالنتائج . والنقْدُ لَيْسَ سُلْطَةً إقصائيةً ، ولا مَنظومةً لِلهَيْمَنَةِ على طريقة تفكير الإنسان وترهيبه ، وإنما هو منهج عقلائي يُجسِّد الوَعْيَ في إطاره الشعوري والعملي، مِن أَجْلِ إيجاد حُلُول واقعية للمشكلات ، التي يُفَرِّزها احتكاكُ الإنسان بالمُجتمع ، واحتكاكُ المُجتمع بالأشكال المعرفية السائدة فيه . وتجسيدُ الوَعْيِ شعوريًا وعمليًا يُولِّد صِيغًا جديدةً للتفاعلات الاجتماعية ، وأشكالًا مُتعدِّدة للبنى اللغوية ، وأنساقًا مُتنوِّعة للظواهر الثقافية ، وهذا يعني ولادةَ إنسان جديد فِكْرًا ومُمارَسَةً في تفاصيل البناء الاجتماعي ، وتكوُّنَ مُجتمع جديد قَلْبًا وَقَالِبًا في البنى الوظيفية للأفكار الإبداعية .

*

النشاط الفكري في بُنية العلاقات الاجتماعية

١

النشاط الفكري في بُنية العلاقات الاجتماعية يُمثّل وعيًا عابرًا للأنماط ، ويُشكّل تيارًا فكريًا في منظومة المعايير الأخلاقية والتفاعلات اللغوية . وإذا كان النشاط الفكري نتاجًا للتفاعل اللغوي مع عناصر البيئة وتراكيب الطبيعة ، فإنّ العلاقات الاجتماعية نتاج لأبعاد التجربة الإنسانية في المجتمع . والتجربة الإنسانية لا تنفصل عن القوى الاجتماعية الفاعلة ، التي تصير تأثيراتها الحياتية وتصوّراتها الحيوية قانونًا وجوديًا يضبط دَوْر الفرد في الأحداث اليومية ، ويُسيطر على دَوْر المجتمع في الوقائع التاريخية . وهذه المُهمّة المُزدوّجة للقانون الاجتماعي الوجودي تُساعد في تكوين التسلسل الهرمي للعلاقات الاجتماعية ، وتُساهم في تجذير الظواهر الثقافية داخل سُلطة الفعل الاجتماعي . وإذا كانت العلاقات الاجتماعية لا تقوم إلا على أساس الفعل الواعي على صعيد تاريخ الأفكار الإبداعية ، فإنّ الظواهر الثقافية لا تقوم إلا على أساس التحليل العقلاني على صعيد تاريخ الأحداث اليومية. وينتج عن الأفكار الإبداعية نظامٌ من المعاني والرموز يحمي الفرد من المَلَل (الروتين) الوظيفي، لأنّ المعاني مُتجدّدة، والرموز مُتكاثرة ، وهذا يضمن توليدًا مُستمرًا للحُلُول غير التقليدية للمشكلات المُعاشة ذهنيًا وواقعيًا . وينتج عن الأحداث اليومية نسقٌ من السلوكيات والمشاعر يحمي المجتمع من الوُعي الزائف، لأنّ السلوكيات كاشفة لماهيّة الجَوهَر الإنساني، والمشاعر مُعكّسة عن طبيعة الاحتكاك بالحياة، وهذا يُكرّس الحقيقة كقيمة معيارية في البُنى الوظيفية للفرد والجماعة، فيصير الوُعي حقيقيًا، وتصير الأحلام واقعيةً .

٢

العلاقات الاجتماعية تُمثّل هياكل معرفية قائمة بذاتها ، تستمد شرعيتها من تفاعل اللغة مع الواقع ، واندماج الواقع مع الثقافة . والواقع ليس مُجرّد بيئة حاضنة للكيان الإنساني ، بل هو أيضًا مجال حضاري يُوازن بين مركزية الماضي في الشُّعور ، وسيادة الحاضر على الوُعي . والثقافة ليست مُجرّد مُؤسّسة مُعنيّة بنشر المعرفة ، بل هي أيضًا مشروع نهضوي يُوازن بين العاطفة المنطقية في الحياة ، والعقل المُتلقي في التاريخ . وكلُّ ظاهرة ثقافية هي نتيجة حتمية للمعرفة العقلانية والإدراك الواعي ، الذي ينشق من الفكر الجمعي الذي يتجاوز مرحلة الفهم العادي للعلاقات الاجتماعية إلى مُستوى الفهم التأويلي لمُرَكّبات اللغة وعناصر المجتمع . والفكر

الجمعي يقوم بدور فعّال في تكوين شخصية الفرد، بحيث يُصبح قادرًا على تَلَقّي المعرفة وتأويلها، وتحليل أنساقها ، وتوظيفها في إنتاج العلوم والفنون والآداب ، وإعادة بناء تفاصيل الواقع على أساس عقلاني ، من أجل تفعيل عملية الاكتشاف في الظواهر الثقافية ، وتكريس مبادئ الإبداع في اللغة والمجتمع ، بعيدًا عن التقليد والاستنساخ . وإذا تَكَرَّسَ الإبداع كنظام حياتي ومنظومة حيوية ، فإنَّ المُجتمع سيتجاوز مأزقَ التوفيق والتلفيق في المعايير الأخلاقية والتفاعلات اللغوية والظواهر الثقافية .

٣

الأساسُ المعرفي في العلاقات الاجتماعية يُجذّر رمزيّة اللغة في الظواهر الثقافية، من أجل كشف تناقضات المجتمع الإنساني ، وتحليل الرابطة الوجودية بين النشاط الفكري والظروف التي نشأ فيها . ومن شأن هذه العملية أن تُبعد الجُمُودَ عن عملية الإبداع ، وتُوجد الأصلَ العقلاني الباطني للصور الاجتماعية الظاهرية، ضمن حركة تفاعل الفرد مع انعكاسات البيئة على شخصيته ، وانفعاله بإفرازات البيئة التي تُعيد تشكيل مصادر المعرفة الحسية والعقلية . وثنائيتُ (التفاعل / الانفعال) في الحياة ، وعيًا وسلوكًا وبنيةً ، تمنع هدمَ قواعد المنهج الاجتماعي، وتَحْمِي الدلالات اللغوية للفكر الجمعي من عملية التقويض بِحُجّة البحث عن أسلوب حياتي جديد . وهُدْمُ دلالات اللغة هو تحطيم للفرد والمجتمع معًا ، وبناء الحقيقة الاجتماعية إنّما يكون على أساس متين وقاعدة صلبة ، وليس على حُطام مُتناثر ، وشظايا فكرية ولغوية . لذلك ، لا بُدَّ من تحويل المجتمع إلى مؤسسة ثقافية مُتاحة للجميع ، ومفتوحة على جميع الاجتهادات القائمة على الأدلة المنطقية والحُجج العقلانية . والفكرُ موجود في كُلِّ مكان ، وليس امتيازًا نُخبويًا . والمنهج الاجتماعي ، فهمًا وتفسيرًا وتطبيقًا ، يُولد من ذاته ضمن صيرورة التاريخ ، وليس احتكارًا طبقيًا . والفلسفةُ أسلوبُ حياةٍ ، وليس سُلطةً كهنوتيةً . ومع هذا يجب التفريق بين الشعور بالشيء وتوظيفه عمليًا ، وبين التعبير عن الشيء وتحليله منطقيًا .



تَحَوُّلُ الأنماط الثقافية فِي المجتمع

١

الأنماط الثقافية فِي المجتمع تَحْكُم على سلوك الإنسان إيجاباً أو سلباً ، وتَحْكُمُ بأنساق الشعور فِي داخل الإنسان ، وتُنظِّم العناصر الاجتماعية فِي سياقات فكرية مُتكاملة ومعايير أخلاقية مُتماسكة ، ممَّا يُؤلِّد تياراتٍ وجودية تُعيد بناءَ مصادر المعرفة فردياً وجماعياً ، ويُنتج تفاعلاتٍ لغوية تُعيد بناءَ جَوهَر المعنى رُوحياً ومادياً ، فتنشأ علاقات إنسانية مصيرية ذات تماس مُباشر مع مسار الثقافة فِي المضامين النفسية والأحداث اليومية. والتكامل الثقافي لا يتكرَّس فِي المجتمع إلا فِي ظلِّ روابط وجدانية مُتبادلة بين الفرد والجماعة ، تصنع واقعاً جديداً قادراً على احتضان الفكر والسلوك ، وتحقيق أحلام الفرد الكامنة فِي أعماقه ، التي تَظهر آثارها فِي خصائص المجتمع وهُويته المُمَيَّزة . وإذا كانت خصائص المجتمع تُعبِّر عن المضامين النفسية ، فإنَّ هُوية المجتمع تُعبِّر عن الأحداث اليومية ، وهذا يُؤسِّس وعياً حقيقياً بأهمية تتبَّع أحلام الفرد فِي كيان المجتمع ، ويُجذِّر إدراكاً معرفياً لطموحات المجتمع فِي كينونة الفرد .

٢

إذا صارت الأنماط الثقافية ماهيات اجتماعية ومعايير سلوكية ، فإنَّ هذه الأنماط ستصير ظواهر واقعية ، يعيش الإنسان فِيها حُلماً قابلاً للتحقيق ، ويعيش معها تاريخاً قابلاً للتطبيق . وثنائية (الحُلْم / التاريخ) تمنح الفعل الاجتماعي القُدرة على بناء الشعور والإدراك ، وتكوين الوعي بهما ، مِن أجل تحليل الاتجاه العام للعلاقات الاجتماعية ، والبنى الوظيفية للمجتمع ، والأدوار المركزية للفرد فِي واقعه المُعاش ومُحيطه المعرفي ، ممَّا يُؤدِّي إلى تحليل شخصية الفرد وسلطة المجتمع ، فِي ضَوْء الحقائق الاجتماعية التي تُقوِّم على البناء العقلائي والوظيفة الحياتية ، وضرورة تفسيرهما كمَّا ونوعاً ضِمن منهج التحليل النفسي الاجتماعي ، لأنَّ الفرد لا يستطيع التَحَرُّر مِن نَفْسِهِ ، ولا يَقْدِر على الإفلات مِن تأثير مُحيطه .

٣

عملية تَحَوُّل الأنماط الثقافية إلى ظواهر ثقافية تُمثِّل فعلاً اجتماعياً مُركَّباً، يُؤوِّل إلى نسق وجودي مُترابط ضِمن صيرورة التاريخ ، الذي يصير وَحدةً معرفية مُتكاملة ، مِن شأنها تفعيل الحَرَكَ الاجتماعي الإيجابي ، وضبط التغيُّرات السريعة فِي المصالح الشخصية الجزئية والمنافع

الجماعية العامة ، ومنع التعارض بينهما ، للحفاظ على الترابط بين الفرد والمجتمع . وعندما يُؤول الفعل الاجتماعي إلى نسق وجودي ، فلا بُد أن يظهر التأويل كنظام لغوي لفهم هوية الفرد وشخصيته اللتين تُشكّلهما العلاقات الاجتماعية . وهذا التأويل _ في حقيقته _ تفاعلٌ لغوي بين اللغة والفرد والمجتمع. والتفاعل اللغوي لا يصير تفاعلاً اجتماعياً إلا باندماج الطاقة الرمزية اللغوية مع أحلام الفرد، وامتزاج أحلام الفرد بطموحات المجتمع . وهكذا تنشأ فلسفة إنسانية مُتماسكة وجودياً ومعرفياً ، وقائمة على أساس الوعي بالذات والآخر معاً . وشرعية هذه الفلسفة الإنسانية مُستمدّة من وظيفة الفرد في تكوين سلطة المجتمع، ودور المجتمع في تشكيل شخصية الفرد . وهذه الشرعية تشتمل على القيم المعرفية للحوار العقلاني ، والمعايير الأخلاقية للحرية الشخصية، والجدور التاريخية للوعي الاجتماعي ، والعناصر الوجودية للمنفعة العامة. وهذه المكونات هي التي تُشكّل مادّة النسيج الاجتماعي الفردي والجماعي، وتوظّفها في تفاصيل الحياة لاستعادة القيم الإبداعية المنسية في المجتمع . وكلّ مجتمع يشتمل على عناصر نهضته في داخله، ولكن ينبغي التنقيب عنها ، وبُعْثها من جديد ، للاستفادة من إمكانياتها وأبعادها وطاقاتها الخلاقة . كما أن كل فرد يشتمل على بُنية رمزية غامضة في وعيه وشعوره ، ولكن ينبغي استخراجها وتوضيح دلالاتها في المفاهيم اللغوية التي تتقاطع مع هوية المجتمع وتاريخ أفرادهِ . وهذا الأمر ضروري لتحقيق التوازن بين الحرية الشخصية للفرد والصالح العام . وبعبارة أخرى ، تحويل الأنماط الثقافية إلى علاقات اجتماعية بين الحقوق والواجبات .

*

التفاعل الرمزي وتصور الفرد عن ذاته ومحيطه

١

التفاعل الرمزي بين التنظيم العقلائي للعلاقات الاجتماعية والترتيب المعرفي للظواهر الثقافية ، يُمثّل نسقاً وجودياً في أعماق البيئة الحياتية للفرد والجماعة ، وهذا النسق الوجودي يستمد شرعيته وقدرته على الاستمرارية من تصور الفرد عن إنسانيته، وذاته الفاعلة في مكونات المحيط الاجتماعي ، وذاته المتفاعلة مع عناصر الطبيعة . وكلّ تصوّر سيُنتج حكماً بالسلب أو الإيجاب ، وكلّ حكم سيؤلّد تصوّراً عميقاً ومتجانساً مع تفاصيل الحياة اليومية ، التي تُمثّل شبكةً مُعقّدة من العلاقات بين مركزية الوجود ومصادر المعرفة ، والتفاعلات بين كينونة اللغة والأفكار الإبداعية ، والروابط بين المعايير الأخلاقية والأفعال الاجتماعية . وتصور الفرد عن كيانه والكيانات المحيطة به هو الأساس المنهجي للوعي الذهني والسلوك الوظيفي ، والطريق الفكري إلى ماهية المعاني الظاهرية والباطنية التي يُسقطها الفعل الاجتماعي على طبيعة الوعي والسلوك في المجتمع الإنساني . وإذا كانت مهمة الفكر هي إزالة التناقض بين النسق الثقافي المضمر والسياق الاجتماعي المكشوف ، فإنّ مهمة البنية الثقافية الاجتماعية هي تحليل العوامل المؤثرة في تكوين الذات وصياغة الموضوع ، وربط الدلالات العقلانية النابعة من رمزية اللغة بالعلاقات الاجتماعية كمّاً ونوعاً ، من أجل الفصل بين العمق النفسي للفرد والعمق الاجتماعي للظاهرة الثقافية ، وهذا الفصل ضروري لإنشاء نظام ثقافي متكامل ، وحاضن للتفاعل الرمزي المستمر في علاقة الفرد باللغة ، والمتغير في علاقة الوعي بالسلوك .

٢

إذا كان الحكم على الشيء فرعاً عن تصوّره ، فإنّ التواصل الاجتماعي فرعٌ عن طبيعة إدراك المعنى اللغوي رمزياً وثقافياً . وإذا كان الحكم يدور مع علته وجوداً وعدماً ، فإنّ الوعي يدور مع قدرة الفرد نقياً وإثباتاً . وهذا التشابك المعرفي يُساعد على صياغة منهج اجتماعي على تماس مباشر بالأحداث اليومية ، يُساهم في تحليل الدور الوظيفي للفرد في تشكيل الفعل الاجتماعي ، وتحليل مساره ، وتفسير نتائجه . ويجب التفريق بين المحيط الاجتماعي المادي الذي يعيش فيه الفرد ، ويتفاعل معه ، وبين المحيط الاجتماعي الذهني الذي يعتمد على تأويل الفرد ونظرته إلى نفسه وتصوره عن الحياة . والواقع يختلف عن عملية تأويله ، والأحداث اليومية

تختلف عن مراحل تفسيرها . وإذا استطاع التفاعل الرمزي في المجتمع إقامة حد فاصل بين الشيء وتفسيره ، وبعبارة أخرى، الفصل بين الطريق والطريقة ، فإن الظواهر الثقافية في البنية الاجتماعية سوف تتحرر من الافتراضات التقليدية . وعندئذ ، تصبح الأفعال الاجتماعية نظريات وجودية ديناميكية قادرة على تحويل أنساق المعاني إلى مضامين معرفية في الإطار النفسي للفرد ، والبناء الحضاري للمجتمع .

٣

العلاقات الاجتماعية هي صور ظاهرية تتحرك في صيرورة التاريخ الجزئي (الأحداث اليومية) والتاريخ الكلي (الوقائع الوجودية) . وينبغي البحث عن جذور هذه الصور ، وأسسها المعرفية ، من أجل كشف أبعاد ماهية التفاعل الرمزي في فلسفة الفعل الاجتماعي ، التي توازن بين العامل الوجداني الذي يعبر عن شخصية الفرد وهويته وكيونته ، وبين العامل اللغوي الذي يعبر عن وسائل التفاهم وأدوات المعرفة وخصوصية البناء الاجتماعي . وعملية التوازن بين العامل الوجداني والعامل اللغوي لا يمكن أن تنكسر كنسق فردي وسياق جماعي ، إلا إذا اعتمد السلوك على الوعي ، واعتمد الوعي على الخبرة ، التي تتعلق بتصور الفرد عن ذاته ومحيطه ، والتبادل الثقافي بين الأفراد . وبذلك ، يجد الفرد إنسانيته ، ويصبح ذاتاً فاعلة تملك الجرأة على مساءلة معايير المجتمع وأنساق الثقافة وأنماط الظروف المعيشية .

*

الطاقة الرمزية في اللغة وتغيير المجتمع

١

الطاقة الرمزية في اللغة تكشف الجوانب المتعددة للظواهر الثقافية في مُحيطها الفكري وبيئتها الاجتماعية، وكشف هذه الجوانب ليس مقصوداً لذاته ، ولا يُشكّل غاية قائمة بنفسها ، وإنما هو وسيلة لنقل الأفكار من المعايير الأخلاقية إلى البنى الوظيفية للسلوك الإنساني في إطار الأحداث اليومية والوقائع التاريخية . وعملية نقل الأفكار لا تحدث في الفراغ ، وإنما تحدث في المجال الحيوي للعلاقات الاجتماعية ، الذي يستطيع تشييد كيانات معرفية ذات قيمة وجودية، وصناعة تصوّرات عملية عن ماهية الفعل الاجتماعي، الذي يعتمد على حقيقة الأحداث في الواقع ، وطبيعة الأشياء في الذهن ، وكيفية الربط بينهما ضمن مصادر المعرفة التي يحصل عليها الفرد من خبراته الحياتية ، وضمن التجارب المعاشة التي يكتسبها الفرد من روح الحياة وجسد التاريخ . وإذا تمّ تحويل مصادر المعرفة والتجارب المعاشة إلى منظومة سلوكية قائمة على الأفكار الإبداعية، فإن شخصية الفرد وسلطة المجتمع سوف تتشكّلان وفق هذه المنظومة السلوكية . والعلاقات الاجتماعية ما هي إلا نظام شعوري ومنظومة سلوكية ، يتحكّمان في طريقة تفكير الفرد ، ويحدّدان الفرق الوجودي بين الخبرة المستقاة من انعكاس الوعي على الواقع ، والخبرة المستقاة من دور الواقع في صياغة الوعي . وإظهار الفرق الوجودي بين هاتين الخبرتين ضروري من أجل توظيف الظواهر الثقافية في بنية المجتمع العقلانية ، وإبراز الجانب الرمزي للثقافة في إطارها اللغوي ومُحيطها الاجتماعي .

٢

الطاقة الرمزية في اللغة تُوضّح طبيعة الاختلاف بين الأفكار السلوكية والأفكار التفسيرية، وهذا يُساعد الفرد على التحكّم في مدى تأثير الظواهر الثقافية في حياته ، ممّا يُؤدّي إلى ترسيخ الثقافة في حقائق البناء الاجتماعي، باعتبار أنّ الثقافة هي الحقيقة المركزية الواقعية في المجتمع . وليست الثقافة بيئة من الكيانات الافتراضية ، وإنما هي بيئة من عناصر الوعي الوجودي بتفاصيل الحياة، وهذا العناصر مُتحدّة في الغاية، ومختلفة في المسار. وغاية الثقافة هي إعادة بناء المجتمع على أسس عقلانية صحيحة وقواعد منطقية سليمة ، وذلك بفحص المسلّمات الفكرية التي يتبنّاها الأفراد ، وتمحيص المفاهيم المعرفية التي يستمد منها المجتمع شرعيته الوجودية

ومشروعياته الأخلاقية . والثقافة ليست كتلة من الطُّقوس المُقدَّسة أو التقاليد الشعائرية الجماعية ، وإنما هي تجربة فكرية مُستمرة في رُوح الحياة ، وتتوالد في جسد التاريخ ، وتخضع للمساءلة والنقد والنقض . وهذا النشاط الاجتماعي في التعامل مع الثقافة ، هو الذي يجعل الثقافة قادرة على تحليل فلسفة صيرورة التاريخ ، وحماية أنساق الوجود لغويًا واجتماعيًا من الموت في الحياة .

٣

الطاقة الرمزية في اللغة تُعبّر عن الإبداع الثقافي ، وتُعيد بناء تاريخ السلوك الإنساني على قاعدة الثَّورة المعرفية ذات الأبعاد الاجتماعية . والسلوك الإنساني تَراكمٌ تدريجي للمهارات الحياتية ، والوعي بها ، وإدراك أبعادها . ويجب أن يُحيط الوعي والإدراك بالافرازات اللغوية المُتجانسة كي يستطيع تحديد مسار السلوك الإنساني ، من أجل صياغة حدائث ثقافية قادرة على احتضان التغيّرات النَّفسية في كيان الفرد ، واستيعاب التقلّبات الوجودية في كينونة المجتمع . وهكذا ، تُساهم الثقافة في تحرُّر الفرد ، ممّا يجعله يقوم بمهمته في تحرير الأنساق الاجتماعية من القيود المنهجية التي تصنعها سياسة الأمر الواقع . وكلُّ عملية تحرُّر فردية هي بالضرورة عملية تحرير جماعية ، وكلُّ ثقافة هي حلقة من حلقات التاريخ ، الذي لا يُمكن تحليل مساره إلا باستحضار قُوّة اللغة رمزيًا ومعرفيًا وواقعيًا في المجتمع ، والمجتمع — أولًا وأخيرًا — هو فضاء من الرموز ، التي تلدُّ نَفْسها بِنَفْسِها ، وتتكاثر باستمرار ، وتصنع فلسفتها الخاصة من أجل تكوين تصوّراتها للذات والآخر والعالم . وإذا كانت الثقافة جسدًا للمجتمع ، فإن اللغة رُوح هذا الجسد ، في كلّ تحولاته وانبعاثاته . وإذا أراد الفرد تحقيق معنى الخلود ، فيجب عليه أن يزرع أحلامه في داخل اللغة ، لأنّها الحاملة للدلالات الاجتماعية ، والعبارة للأجناس الفكرية المُتداخلة ، والمُسيطرّة على صراع الرغبات والدوافع ، والمُتجاوزة للزمان والمكان .

*

التحليل الفلسفي للروابط الإنسانية في المجتمع

١

التحليل الفلسفي للروابط الإنسانية في المجتمع يُمثل اختباراً وجودياً للعلاقات الاجتماعية ، وتفكيكاً لعناصر الموضوعات الفكرية التي تُسيطر على ماهية الوعي الإنساني ، وتشريحاً لجزيئات العقل الجمعي الذي يُسيطر على المفاهيم السائدة في حياة الفرد ومسار الجماعة . وإذا كان التحليل الفلسفي صفةً مُميّزةً للمجتمعات الحية والخرة ، فإنّ الوعي الإنساني صفةً مُميّزةً للوجود الفردي والجماعي ضمن الظواهر اللغوية والأنماط الثقافية . وثنائياً (التحليل الفلسفي / الوعي الإنساني) ليست كتلةً معنويةً جامدةً أو نسقاً نظرياً بعيداً عن التطبيقات الواقعية ، إنّ هذه الثنائية تيار فكري قائم على تحقيق التوازن الاجتماعي بين المعايير الأخلاقية ومصادر المعرفة ، وتحقيق المُوازنة الثقافية بين الظواهر اللغوية والظواهر النفسانية . وهذا يُؤدّي إلى كشف دور البنية اللغوية في تكوين الجانب النفسي للفرد ، وكشف دور البناء النفسي في تشكيل دلالات اللغة وطاقتها الرمزية . ويقوم التحليل الفلسفي على فحص الماهيات الاجتماعية التي تتحكم بالسلوك ، وتؤوّل الأحداث اليومية ، ممّا يقود إلى تجزئة المفاهيم اللغوية والبنى الوظيفية ، ووصولاً إلى أنويتها الداخلية وعناصرها الأولية ، بهدف تكوين فهم دقيق لحرية الإرادة ، وإيجاد تفسير عقلائي للمسؤولية الأخلاقية . والغاية من التحليل الفلسفي هي الوصول إلى كينونة الوعي الإنساني ، وتحقيقه واقعاً ملموساً ، وتفعيله معنوياً في صيرورة التاريخ ، وحثمة انبثاق المعنى الوجودي من الظواهر الثقافية ، من أجل تكوين رؤية حاضنة لأحلام الفرد وطموحات الجماعة ، وقادرة على تكوين تقنيات إبداعية للنهوض بالمجتمع ، وحمايته من الأوهام اللذيذة التي تصير مُسلّماً افتراضية بحكم سياسة الأمر الواقع ، وحمايته أيضاً من العلاقات الاجتماعية الاصطناعية التي تقوم على المصلحة الآنية والمنفعة الزائلة ، بعيداً عن الوعي بالماضي والشعور بالحاضر وإدراك المستقبل .

٢

الخطر الحقيقي الذي يُهدّد الجَوْهرَ المعرفي للمجتمع ، هو قيام الأدوات الاستهلاكية بفصل الإرادة الخرة عن السلوك الإنساني . وهذا الفصل يعني تحويل الأحداث اليومية إلى أفعال اجتماعية عبثية بلا قَصْد ولا تخطيط ، واعتبار الكيان الإنساني مُجرّد انعكاس للواقع الميكانيكي

الآلي ، الذي يتمّ تفريغه من الوُعي والشُّعور والإدراك . لذلك ، يجب بناء العلاقات الاجتماعية على قاعدة المُزَاوَجَة بين الإرادة الحُرّة والسلوك الإنساني ، وجعل عملية دَمْجِهما حتميةً تاريخيةً ضمن تَشَكُّلاتِ هُويّة الفرد ، وامتداداتِ مصير الجماعة . ولا شكَّ أنَّ الهُويّة الفردية والمصير الجماعي رُكنان أساسيان في بناء الحقائق الاجتماعية على أرض الواقع ، وهذا يستلزم توليد شروط لاستقلال رمزية اللغة عن التعبيرات اللفظية، لأن الرَّمز اللغوي حاملٌ للوُعي الحقيقي ، وكاشفٌ عن الشعور الداخلي ، في حين أن التعبير اللفظي يُشير في أحيان كثيرة إلى وُعي زائف وشُّعور اصطناعي ، لأن الفرد يُطوّر بُنيته اللغوية بما يضمن مصلحته الشخصية ، لذلك تُصبح اللغة وسيلةً للمُجَامَلَة واستثمار الوُهم لصناعة واقع افتراضي. والمفروض أنَّ اللغة وسيلة لكشف المعنى الحقيقي في الأشياء ، وتوصيله إلى الآخرين. وابتعادُ اللغة عن وظيفتها الحيوية ، والتَّخَلِّي عن دورها الوجودي المِخْوَري في عَالَم الأسباب والمُسَبِّبات ، يُؤدِّيَان إلى فصل الوقائع التاريخية عن السِّياقات الثقافية ، لذلك يَعِزُّ الفردُ الغارق في النظام الاستهلاكي عن إيجاد البُنية الثقافية التي تختبئ وراء الحدث التاريخي ، لذلك يُضَيِّع الفردُ وَقْتَه في مُلاحقة الروافد ، لأنَّه غير قادر على الوصول إلى المنبع .

٣

لن يُصبح التحليلُ الفلسفي للروابط الإنسانية في المجتمع خلاصاً للفرد من المآزق الحياتي ، وتخليصاً للجماعة من التهديد الوجودي ، إلا بدمج الإرادة الحُرّة مع السلوك الإنساني ، ودمج الوقائع التاريخية مع السِّياقات الثقافية ، وهاتان العمليتان ينبغي أن تَسِيرَا جُنْباً إلى جُنْب ، وتَحْدُثَا معاً من خلال نظام اجتماعي تَزَامُنِي لا تَعَاقُبِي ، لأنَّ الطائر يطير بِجَنَاحَيْهِ في نَفْس اللحظة ، ولا يطير بالجنح الأول ثُمَّ الثاني . وَكُلُّ تحليلٍ فلسفي للروابط الإنسانية هو بالضرورة تَشْيِيدٌ لِهُويّة الفرد ، وبناءً لشرعية المجتمع ، وتكوينٌ لمصادر المعرفة التي تشتمل على التَّصَوُّرات الوجودية والقضايا اللغوية والظواهر الثقافية ، وكيفية تفكيكها وإعادة تركيبها . والتفكيكُ والتركيبُ نَشَاطَان عَقْلِيَّان يَكْشِفَان عن النَّوَاة الجوهرية المُكوِّنة لشرعية المجتمع، ويُبرِّزان تأثير اللغة في صياغة الفكر والثقافة ، ويُظهِران دَوْرَ الزمان والمكان في تحديد دَلَالَة الألفاظ على المعاني ، ودَلَالَة المعاني على التجارب الوجدانية العميقة والمُعْطِيَات المادية الواقعية .

*

المجتمع والثقافة والصُّويرة الإبداعية

١

التركيبة الاجتماعية في الظواهر الثقافية تُمثّل أنظمةً جوهريّةً إنسانيةً ، تستطيع تفسير الطبيعة الرمزية لمصادر المعرفة ، وتقدّر على تحليل الإدراك والوعي ، وربطهما بالتجارب الحياتية التي تقوم على التأمل في ماهيّة الأشياء، وطبيعة النفس البشرية، من أجل اكتشاف المعاني المجهولة في الأشياء ، والتنقيب عن الأحلام المدفونة في الذات. وإذا كان الفرد يكتسب خبرته الوجودية من الواقع المُتشكّل شعوريًا وماديًا ، ويُعبّر عن فلسفته الشخصية من خلال تاريخه المُتشكّل زمنيًا ومكانيًا، فإنّ المجتمع يكتسب شرعيته الحضارية من قدرته على صياغة المعرفة ، وبناء مسار منطقي يصل بين الذات والموضوع من جهة ، وبين مُكوّنات الوعي ومُعطيات الشعور من جهة أخرى ، وهذا يمنح المجتمع القدرة على التعبير عن السلوك الإنساني ، واشتقاق القوانين التي تتحكّم بطبيعته اعتمادًا على الظواهر الثقافية والتجارب الوجدانية والدلالات اللغوية . وفي هذا السياق ، يجب التفريق بين قواعد المنهج الاجتماعي التي تُوضّح الروابط القائمة بين الظواهر الثقافية وأسبابها، وبين قواعد السلوك الإنساني التي تُبين طريقة التفكير في الظواهر الثقافية ، وضرورة التأمل في أسبابها الباطنية . وهذا التفريق من شأنه تسهيل عملية توظيف الأنساق الثقافية في البناء الاجتماعي ، وتحديد أبعاد المكانة الأخلاقية المركزية للفرد في الفلسفة الحياتية ، ليس باعتبارها محاولة لمعرفة العالم وتفسير المجتمع فَحَسْب ، بل أيضًا باعتبارها آليّة لتفكيك انعكاسات المعرفة من أجل فهمها ، وأداة لإعادة صُهر العناصر الإبداعية المنسية في نسيج المجتمع من أجل النهوض به .

٢

الرابطة المصرية بين البنية الاجتماعية والبنية الثقافية لا يمكن أن تظل مُتماسكة وفَعَالَةً إلا إذا نَجَحَ الفرد في رَدْم الفجوة المعرفية بين الواقع والوعي . ولا يكفي أن يكون هناك وعي بالواقع ، لأنّ العبرة تتجلّى بوجود وعي بأهمية تغيير الواقع . وإذا كان الفرد لا يستطيع تغيير الوقائع التاريخية والأحداث اليومية، فإنّه يستطيع الاستفادة منها في صناعة نظام عقلائي يُوازن بين مسار الفرد في الحياة ، ومصير المجتمع في التاريخ . وأهمية النظام العقلائي في المجتمع والتاريخ تتضح في عملية بناء الإرادة الحرة على قاعدة المسؤولية الأخلاقية . وغياب الإرادة يعني انهيار

كينونة الفرد ، وغياب الحرية يعني انهيار كيان المجتمع ، وغياب الأخلاق يعني انهيار ماهية الحضارة . وهذه الانهيارات تمنع الفرد من اكتساب المعرفة ، وتمنع المجتمع من حرية التعبير ، وتمنع الحضارة من تجديد ذاتها . وبذلك تفقد اللغة قدرتها على صناعة بنية تواصلية فعالة ، فتموت الأفكار في مهدها ، ولا تنتشر المعرفة داخل النسيج الاجتماعي . ومن أجل حماية شرعية الوجود الإنساني من هذه الانهيارات ، لا بد من تطوير المعرفة بحيث تحقق المصلحة الشخصية والمنفعة العامة . وعندئذ ، سيُدافع الفرد والمجتمع عن المعرفة باعتبارها نظاماً وجودياً شرعياً ، وليس ترفاً فكرياً زائداً عن الحاجة . والنظام الوجودي لا يكون شرعياً إلا إذا قام على الحياة والحرية معاً .

٣

إذا صارت الثقافة مجتمعاً معرفياً ودلالة وجودية ، وصار المجتمع نظاماً ثقافياً ودليلاً إبداعياً ، فإن الأحداث اليومية ستفقد الفرد إلى صناعة المعرفة ، وتوظيفها معنوياً ومادياً للتغلب على الحواجز الزمنية والقيود المكانية ، وهذا يعني وجود خيارات حياتية متنوعة أمام الفرد ، فلا ينحصر في الزاوية الضيقة ، ووجود طرق فكرية متعددة أمام المجتمع ، فلا يُحاصر في الطريق المسدود . والفرد الحر هو الوجود الحي الذي نجح في الاعتناق من أسر اللحظة الآنية، والإفلات من العقد النفسانية المسيطرة على الفعل الاجتماعي. والمجتمع الحر هو التاريخ الحي الذي نجح في الاعتناق من سيطرة الوعي الزائف ، والإفلات من المسلمات الافتراضية المهيمنة على الفاعلية التنظيمية . وإذا تركزت الحياة كأساس للحرية ، وتكرست الحرية كنأسيس للحياة ، فإن الوعي الاجتماعي سيصبح وسيلة لنقل الأفكار وتبادلها ، وتنظيم المعرفة وتوظيفها . وهذا التوظيف يتطلب إعادة تكوين المفاهيم المستخدمة في سياقات الهوية الإبداعية ، التي تنتقل من الدلالة إلى المدلول ، ومن المعرفة إلى الابتكار .

*

فلسفة جديدة للبنية الزمنية المعرفية

١

قواعد المنهج الاجتماعي لا تقوم على تجميع العلاقات الإنسانية وترتيب المعايير الأخلاقية فحسب ، بل أيضاً تقوم على فلسفة الوعي الذي يكتشف مصادر المعرفة المرتبطة بالظروف المحيطة بالأفراد ، وهذا يؤدي إلى توقع سلوكياتهم ، وربطها بالظواهر الثقافية والعوامل الفكرية المؤثرة في صناعة الأحداث اليومية . وكما أن الأحداث اليومية تتشكل من خلال اندماج الوعي مع المعرفة ، فإن الوجود الإنساني يتشكل من خلال اندماج الفعل الاجتماعي مع طريقة تفسيره زمنياً وتأويله مكانياً . وبالتالي ، يتكون منظور اجتماعي ثقافي قادر على حماية مسار الفرد من الانحراف ، وحماية هوية المجتمع من التمزق ، وهذا يدفع باتجاه توليد أنساق حياتية قائمة على منظومة وجودية ثلاثية الأبعاد (رمزية اللغة وصيرورة التاريخ ومعطيات الشعور) ، تعمل على إبراز الدور الحاسم للأنظمة المعرفية في التنمية الاجتماعية ، وإظهار السياقات اللغوية التي تصف النشاط الإنساني في المحيط الاجتماعي والبيئة اليومية . وهذا من شأنه تحويل الفرد من كائن إلى كينونة متفاعلة مع البنية الوظيفية للتاريخ في المجتمع ، وتحويل التاريخ من كيان إلى سلطة مُندمجة مع الفاعلية الأخلاقية للمجتمع في الحضارة . وهذا التحويل المُزدوج يُنتج سياقاً فكرياً في البنية الاجتماعية ، يستطيع السيطرة على الشعور الواعي والإرادة الحرة ، من أجل الوصول إلى حقيقة المعنى الوجودي وتحوّلته ، وكشف قدرته على التحكم بتأثيرات الأحداث اليومية على البناء النفسي للفرد والجماعة ، وانعكاسات السلوك الإنساني على التفكير المُتحرّر من الضغوطات المعيشية والمُسلّمات الافتراضية والأحكام المُسبّقة .

٢

لن يصبح الفرد فاعلاً حرّاً في المجتمع إلا إذا تمّ بناء مصادر المعرفة على المفاهيم الاجتماعية الإبداعية ، والمعايير الأخلاقية غير القابلة للنقد والنقض ، وهذا يفرض على الفرد أن يُميّز بين الماهيات المطلقة الثابتة والسيّقات النسبية المتحوّلة . وعندما يستطيع الفرد إنتاج سياقات اجتماعية من الماهيات الوجودية ، فإن الفعل الاجتماعي سيمتاز بالفاعلية والتفاعل مع إفرازات البيئة المعرفية . والبيئة المعرفية ليست مكاناً محدوداً ، وإنما هي عملية توليدية مستمرة تبني المجتمع من جديد ، وتعيد تشكيل الفرد معنوياً ومادياً ، وتجهّزه لاقتحام الحياة الاجتماعية ،

والمُساهمة في تشكيل الوُعي الجمعي بمركزية المجتمع وسلطته الاعتبارية وتكامل شخصيات الأفراد ضمن البنى الوظيفية ، باعتبار أنَّ إنسانية الفرد لا تتحقّق إلا إذا قامَ بِدور وظيفي في الفكر الحي والوجود الحر داخل أنساق التاريخ . وهذا الدّور الوظيفي يجعل الفرد قادراً على الفصل بين البُعد الاجتماعي (تقسيمات الظواهر الاجتماعية بما تحويه من إيجابيات وسلبات) والبُعد النّفسي (وُعي الفرد وشُعوره ورغباته واتّجاهاته) ، وأيضاً يجعل الفرد قادراً على اكتساب شخصيته الإنسانية المُتفردة ، وصناعة سلوكه اليومي الذي يشتمل على حُرّية الإرادة وتحمّل المسؤولية الاجتماعية ، وهذا يقدّم إلى ابتكار أنظمة معرفية لتحليل المسارات المُتعددة للأحداث ، ظاهرياً وباطنيّاً .

٣

لا يستطيع الفرد الوصول إلى حقيقة شخصيته وأعماق كينونته إلا إذا تعامل مع المجتمع كإطار وجودي ضابط للسلوك ومُنْتَج للوُعي خلال تطوّر الوقائع التاريخية على الصّعديّن الإنساني والسياسي ، وتحوّل الأحداث اليومية على الصّعديّن الداخلي والخارجي، وتغيّر مصادر المعرفة على الصّعديّن الثقافي والاجتماعي. وهذا الحراك الشامل يؤلّد فلسفة جديدةً للبنية الزمنية المعرفية ، ويؤدّي إلى صناعة الفرد المُبدع في المجتمع الحر الذي يملك قراره ومساره ومصيره . ولا يُمكن رسم ملاح شخصية الفرد بمَعزِل عن الأنماط الثقافية المُتغيّرة والتقلّبات الاجتماعية المُستمرة ، لذلك ينبغي تطوير وُعي الفرد بذاته ومُحيطه لمُواجهة تحدّيات الحاضر والمستقبل ، وذلك بتحويل الأنساق الفكرية الموجودة في الماضي إلى قوّة دفع للمسار العملي في الواقع المُعاش. والفرد لَن يجد هُويّته التاريخية إلا إذا انتقل من طوّر الكائن الحي إلى مَرحلة الكائن الاجتماعي، وهذا لا يتأتّى إلا بربط السلوك الإنساني بالظواهر الثقافية ، التي تُقدّر على توليد القيم الإيجابية ، وفَتَح الزمان والمكان على بعضهما البعض، وتحقيق التجانس بين الآليات الاجتماعية التي تدفع شخصية الفرد للتّكيف مع ظروف البيئة المُحيطة ، وبين الأدوات الفكرية التي تدفع هُويّة المجتمع إلى الانفتاح على التجارب الإبداعية .

*

الكينونة الإنسانية وسلطة المجتمع والرموز اللغوية

١

المعنى الحقيقي للكينونة الإنسانية يتجلى في الرموز اللغوية التي تنعكس على الأنساق الاجتماعية ، ويتحدّد في الإشارات الفكرية التي تمتد في الوعي والإدراك وظواهر التاريخ . وإذا كانت ظواهر التاريخ معايير قصديّة قائمة على سياسة الفعل الاجتماعي ، فإنّ الكينونة الإنسانية منظومة معرفيّة قائمة على إفرازات الهوية الوجودية . والمعايير القصديّة والمنظومة المعرفية تُشكّلان معاً طبيعة سلطة المجتمع وتحولاتها في الأنظمة الثقافية ، والعلاقات الاجتماعية ، والمصالح الشخصية ، والمنافع العامّة . وكما أنّ سلطة المجتمع ترتبط باللغة معنىً ومبنىً ، كذلك سلطة اللغة ترتبط بالمجتمع نظاماً ومنظومةً . ووفق هذه العلاقة التبادلية تتحدّد التأثيرات الاجتماعية في اللغة ، وتشكّل التفاعلات اللغوية في المجتمع . والكينونة الإنسانية لا تُؤلّد في الفراغ ، ولا تتكوّن من عناصر اجتماعية مُتنافرة ، وإنّما تُؤلّد في البنية المعرفية العابرة لحدود الزمان والمكان ، وتتكوّن من مجموعة الروابط العقلانية بين الكيانات الاجتماعية المُتجانسة في الأنظمة الثقافية ، والفاعلة في الأحداث اليومية ، والمُتفاعلة مع النسيج المُعقّد من الأدوات المعرفية وآليات تأويلها وتوظيفها . وهذا النسيج المُعقّد يتغيّر بشكل دائم اعتماداً على العوامل الاجتماعية التي تستنبط القوانين الوجودية التي تحكّم علاقة الفرد بالجماعة ، وعلاقة الجماعة بالطبيعة ، وتحكّم بالروابط المنطقية التي تُعزّز حيوية الأنساق الوجودية ، وتُطوّر الإحساس بالمصير المُشترك ، الذي يدفع الأفراد إلى تشكيل شخصية المجتمع ، وتكوين هويته ، وبناء كيانه ، وترسيخ سلطته . وهذه السلطة غير مُستمدة من سياسة الأمر الواقع ، والنتائج المُعدّة سلفاً ، وإنّما مُستمدة من العقل الجمعي باعتباره مشروعاً للخلاص ، ونتاجة عن الثقافة الشاملة باعتبارها مشروعيةً لتجذير التجانس في البنى الوظيفية الاجتماعية ، ومنع التعارض بين هوية المجتمع المعرفية وماهية الفرد الأخلاقية .

٢

المسارّ الواصل بين الكينونة الإنسانية وسلطة المجتمع له امتدادات في ظواهر التاريخ ، التي يُعاد تشكيلها باستمرار ، ويتم توظيفها في الأنساق الفكرية التي تكشف مراحل التطوّر الثقافي ، ومصادر المعرفة ، والتسلسل الهرمي الاجتماعي . والتاريخ ليس كتلة جامدة ، أو مُعطى نهائيّاً ،

بَلْ هو تراث فكري ونَفْسِي يتولّد من الأسئلة المصرية ، ويتكاثر في الثقافات الإنسانية ، ويتماها مع آليات التأويل المختلفة . وكلُّ عنصر اجتماعي له تاريخه الخاص ، وكلُّ بُنية معرفية زمكانية (زمنية _ مكانية) لها تاريخها الخاص ، وهذا يعني أنّ التاريخ عبارة عن توارخ مُتعدّدة ، والزمان والمكان عبارة عن أحلام فردية مُتَشَطِّية ، وطُموحات جماعية مُبعثرة . والنظام العقلاني في بُنية التاريخ المركزية يقوم على ثلاثة أركان : إلغاء القوضى الفكرية ، واستئصال المصالح الشخصية الضيقة ، واجتثاث الاضطرابات النَّفْسِيَّة . فالقوضى الفكرية تجعل التاريخ فلسفة جَبْرِيَّة لا رابط بين عناصرها ، والمصالح الشخصية الضيقة تجعل التاريخ كيانات عيشية لا أسباب لقيامها ، والاضطرابات النَّفْسِيَّة تجعل التاريخ متاهة من المرايا المتعاكسة التي تُظهر صُورَ الأفراد والجماعات بعيداً عن الأصل . ولا يخفى أنّ صورة الإنسان في المرأة لَيْسَتْ هي حقيقة الإنسان .

٣

الرموز اللغوية هي القوة الدافعة للتطوّر الثقافي الذي يُؤثّر في أساليب الحياة ، والمحتوى المعلوماتي ، وتنوّع الهويّات الوجودية، وأنماط الحياة الواقعية. ومع هذا، فالرموز اللغوية لا تقوم بذاتها، ولا تستقل بحقيقتها، وإنّما تقوم بالفعل الاجتماعي ، وتستمد حقيقتها منه ، وهذا يُساهم في تحرير الواقع المُعاش من حسابات الهيمنة والمصلحة. وبالتالي، تنبثق سياسة جديدة تتعلّق باللغة في تجلّياتها الاجتماعية ، وتأثيراتها الواقعية ، وانعكاساتها التاريخية . ودلالة السياسة اللغوية _ منطوقاً ومفهوماً _ تكمن في العلاقة بين الفعل الاجتماعي المحكوم والإنسان الحاكم على ماهية هذا الفعل . وكما أنّه لا توجد سياسة لغوية بلا دلالة ، كذلك لا توجد سلطة اجتماعية بلا فعل . وثبوت الفكر العقلاني في المجتمع يعني ثبوت لوازمه ، وإذا ثبت الشيء ثبتت لوازمه . والدليل لا ينفصل عن الدلالة ، والطريق لا يفترق عن الطريقة . وهذا يعني أنّ اللغة مُتداخلة مع طبيعة الفعل الاجتماعي الواعي، ومُندمجة مع السلوك الإنساني القصدي ، وأنّ اللغة هي التجسيد الشرعي للكينونة الإنسانية في ظواهر التاريخ والأنظمة الثقافية .

*

الثقافة في تجلياتها الزمنية والمكانية

١

التجانس في الظواهر الثقافية يُمثل معياراً وجودياً في المجتمع، ويُعتبر أساساً فلسفياً للسلوك الاجتماعي، ويُعدُّ قيمةً أخلاقيةً في البناء الحضاري. وهذا التجانس لا يهدف إلى صهر العناصر الثقافية في بوتقة واحدة وقالب جاهز، ولا يرمي إلى تحقيق التماثل بين الثقافة والمجتمع، وفرض التطابق بين المجتمع والحضارة، وإنما يهدف إلى التوفيق بين العناصر المكونة للكيان الثقافي، والتوافق في الأفكار الإبداعية المؤسسة للمجتمع، من أجل ضمان عدم حدوث تعارض بين المعنى الاجتماعي والوعي به، وعدم حدوث تصادم بين المنظومة الأخلاقية والفكر المعبر عنها. وفلسفة التجانس لا تقوم على إلغاء الرأي الآخر، وإنما تقوم على فحصه بشكل عقلائي، لمعرفة خصائصه الباطنية وصفاته الظاهرية، وكيفية توظيفه في السياقات الإنسانية فردياً وجماعياً، وبذلك ينتقل المجتمع من الإلغاء إلى التكوين، وينتقل الوعي من الإقصاء إلى التأسيس. وهكذا تتكون فلسفة اجتماعية نقدية تمنع الثقافة من التحول إلى أداة سياسية لصناعة وعي زائف، ويتأسس منظور أخلاقي إنساني يمنع الوعي من التحول إلى آلية أيديولوجية لإنتاج معرفة وهمية. وهذا يدل على أن توظيف العناصر المعرفية في البنى الاجتماعية لا يقل أهمية عن ماهية المعرفة.

٢

الظواهر الثقافية حاکمة على الغريزة الإنسانية في تحولاتها الاجتماعية، ومحكومة بطريقة التفكير في تشكيلاتها التاريخية. وهذا يعني أن الثقافة — باعتبارها جسداً للمجتمع وتجسيدا للتاريخ — قادرة على بناء نظريات معرفية تساهم في التطور الحضاري، وتشييد معايير أخلاقية مُفتحة على التجارب الفردية والجماعية، ومُعبّرة عن الكيان الإنساني والكيانات المُحيطة به، التي يُعاد تشكيلها باستمرار ضمن الظروف النفسانية، والبيئة الاجتماعية، والطبيعة المادية للأشياء والأفكار. والكيان الإنساني دائم التحول والتغير، ليس لأنه خاضع للصيرورة التاريخية فحسب، بل أيضاً لأنه خاضع للانتقال المعرفي من حالة انعدام الرؤية التي تُنتج الشك إلى حالة تعدد زوايا الرؤية التي تُؤسس لليقين. وكلما ازداد الإنسان معرفةً كمّاً ونوعاً، تعددت الخيارات الوجودية أمامه، وانفتحت الطرق المسدودة أمام مستواه الإدراكي، وانتقل من البراءة إلى الخبرة، ومن الفطرة إلى الوعي بها. وهكذا يصل الإنسان إلى أبعد نقطة ممكنة في أحلامه القابلة للتطبيق على

أرض الواقع، ويتصل بالجذور العميقة في ذاته ومحيطه ، وتُصبح هُويته منظومةً مصيريةً مُتماسكةً ، وليس مُجرّد شكل للتعبير الاجتماعي. وهُويّة الإنسان الحقيقية تنبع من قدرته على التحرّر من الأنساق الاجتماعية المفروضة عليه بفعل سياسة الأمر الواقع، وقدرته على تحرير الفعل الاجتماعي من المصلحة الشخصية الضيقة، والسلوك المكتسب من مصادر الوعي الزائف والمعرفة الوهمية . وبشكل عام ، إذا تحرّر الإنسان من ذاته الضاغطة عليه ، وحرّر أفكاره من الظروف التي تُحاصره ، فإنه سيَعْرِف حقيقة ذاته المُتشظية في وقائع التاريخ والأحداث اليومية ، ويُدرِك حَجَم الطاقة الهائلة التي تكمن في أفكاره الإبداعية ، وأحلامه المنسية ، وذكرياته المدفونة في أعماقه .

٣

الظواهر الثقافية لا تنفصل عن المعايير الأخلاقية ، والعلاقة الوثيقة بينهما تستمد شرعيتها وديمومتها من كَوْن الثقافة في تجلّياتها الزمنية (الماضي والحاضر والمستقبل) والمكانية (الظروف والبيئة والطبيعة) مشروعًا للتكّيف والتأقلم ، تكّيف الوجود الإنساني مع التأثيرات الاجتماعية على الطاقة الرمزية في اللغة ، وتأقلم الوعي الإنساني مع طريقة التعبير عن الأحلام الفردية والطموحات الجماعية. وهذا يُشير إلى أنّ أنماط السلوك تتقمّص أساليب التواصل اللغوي ، وأنّ التواصل اللغوي يُؤدّي دوره في انتشار الحياة الإنسانية من النسيان ، وإعادتها إلى جَوهَر الهوية الوجودية ، التي تقوم على تسلسل الأفكار الإبداعية ، وقواعد المنهج الاجتماعي ، وتوحيد الزمن والمكان ، لفتح الحاضر على الماضي ، وإطلاقهما لاحتحام المستقبل . وإذا كان تحليل الأحداث اليومية واقعيًا ورمزيًا من أهم ما يُميّز الإنسان الذي يفتح حدود وجوده على مصادر المعرفة ، ولا يتغلق في الأحكام المُسبّقة ، فإنّ تحليل الثقافة في تجلّياتها الزمنية والمكانية من أهم ما يُميّز المجتمعات الحيّة والحرّة والمُتحرّرة من عُقدة النقص والشّعور بالدونية ، والتي لا تبحث عن هُوية استهلاكية تطفو على سطح الحياة، لأنّ لها ماضيًا ضاربًا جذوره في أعماق التاريخ. ومن امتلاك التاريخ امتلاك فلسفة الزمن والمكان، وصار قادرًا على صناعة الحاضر وعيًا ومُمارسَةً ، وتشكيل المستقبل حُلْمًا وواقعًا .

*

تَحَوُّلُ التَّجَارِبِ الاجتماعيةِ إِلَى ظواهر ثقافية

١

عملية تَحَوُّلِ التجارب الاجتماعية إلى ظواهر ثقافية لا تتم بشكل تلقائي ، ولا تحدث بصورة ميكانيكية ، وإنما تتم وفق تخطيط اجتماعي عميق يشمل على الحقائق الإنسانية ، التي تُساهم في تقييم تأثير مصادر المعرفة على الخطاب اللغوي المتبادل بين الفرد والجماعة ، وتأثير سياسات الوعي بمعايير الأحكام الثابتة والمتغيرة ضمن منظومة التفاعل الاجتماعي ، التي تدفع الفرد إلى التواصل مع تفاصيل الظروف المحيطة ، والاتصال بمكونات الزمان ، وعناصر المكان ، وطبيعة الشخصيات ، وماهية الأحداث . وثنائية (التواصل / الاتصال) قادرة على تفسير استجابة الفرد للمؤثرات الداخلية والخارجية ، وإشعاره بالأمان الروحي ، وتحريره من الاغتراب في الماضي والحاضر ، وتخليصه من الخوف من المستقبل ، وهذا يُعزز قيمة الولاء الفردي لوجود الجماعة ، ويكرس الانتماء الجماعي إلى النظام الإبداعي الذي يُمثل تسلسلاً عقلياً من الرموز اللغوية ، والأشكال القانونية ، والإجراءات الإصلاحية ، والقواعد المهنية ، والسلوكيات البيئية ، والروابط النفسية ، والعلاقات الفكرية . مما يجعل المسؤولية الاجتماعية منظومةً مُفتوحةً على الكيانات الحية ، ومفتوحةً على الظواهر الثقافية الحرة ، وهذا يعني أن كل فكرة ينبغي أن تُوظف لمصلحة المجتمع ككل ، وكل كيان يجب أن يلتزم بالمعايير الأخلاقية المحكومة بالمعنى الوجودي المنطقي ، والحاكمة على أنساق التوازن بين الفرد ومحيطه ، وكل ظاهرة ثقافية لا بد أن تُبنى على التنظيم الذاتي ، وليس الخضوع لأدوات معرفية خارجية ، أو آليات فكرية دخيلة ، لأن قوة الثقافة في نسقها الزمني وسياقها الحضاري نابعة من طاقتها الداخلية ، وليست مُستمددة من عوامل مُستوردة .

٢

التجارب الاجتماعية تُمثل ذاكرةً للسلطة الثقافية داخل المجتمع ، وهذه السلطة تحمي الأنساق المعرفية من الصراع الاجتماعي ، وتحرس البنية النفسية من الصدام اللغوي بين الخطاب وتأويله . وإذا كانت اللغة كائناً اجتماعياً مرتبطاً بأنماط التفاعل الحضاري ، فإن المجتمع كيانٌ لغوي مرتبط بالتأثيرات التبادلية بين الأفراد . وهذه التأثيرات تُحدد صيغ الترابط الاجتماعي في العلاقات الإنسانية ، من أجل اكتشاف الآليات الفكرية الحقيقية التي تُسيطر على كينونة الفرد

الإنسانية ، ومساره العقلائي في تكوين القواعد المنطقية التي ترمي إلى تحليل المظاهر المادية ، وتفسير الصُّور الذهنية المنعكسة على الواقع ، ومُحاولة فهم البنى الوظيفية والقوى الكامنة في أعماق المجتمع . وكما أنَّ العلاقات الاجتماعية هي منهجٌ للحياة العابرة للروتين الوظيفي ، وليست وعاءً للتناقضات في المجتمع ، كذلك الظواهر الثقافية هي كيفيةٌ للتفكير العابر للنمط الاستهلاكي ، وليست تجميعاً للأفكار المتضاربة . لذلك ، تجب معرفته الفرق بين فهم الأشياء وطبيعة الأشياء ، فالفهم ممارسةٌ منطقية إنسانية في حيز الوعي والإدراك ، قائمة بذات الفرد، في حين أنَّ طبيعة الأشياء ماهيةٌ مادية مُستقلة في حيز الزمان والمكان ، وخارجة عن نطاق سيطرة الفرد .

٣

تحليلُ أنساق المجتمع يختلف عن كيان المجتمع جسداً وروحاً، وحقائق اللغة لا تظهر في وسائل التفاهم، وإنما تظهر في الإشارات القادرة على تفجير الطاقة الرمزية في اللغة ، وبُعْثِ الدهشة في الألفاظ والمعاني ، كي تصبح قادرةً على وصف الظواهر الثقافية ، وكيفية حدوثها ، وبيان العوامل المؤثرة في سلوك الفرد وأفكاره. ومن يعتقد أن الظواهر الثقافية سطحية ، ونابعة من تفكير ضحل ، وخاضعة لنسق عاطفي ساذج ، وتم تكريسها بسبب إجراءات ميكانيكية ضمن سياسة الأمر الواقع ، فهو — في حقيقة الأمر — لم يفهم الثقافة باعتبارها حركةً وجوديةً تستطيع تأويل الأفكار ، وحراكاً اجتماعياً يستطيع بناء المشاعر ، ولم يدرك قوة الرموز اللغوية في التأثير على مستويات الذاكرة وعمليات التفكير . ومن استهان بالبحر ستبتلعه الأمواج ، وتسلب حياته ، ومن استهان بالثقافة ستبتلعه اللغة ، وتطمس وجوده .



فلسفة المعرفة في المجتمع والثقافة واللغة

١

العناصرُ المعرفية في المجتمع تُمثّل قُوّة توليديّة للمفاهيم الاجتماعية التي تُبني أركانَ السُّلطة اللغوية في السِّياقات الثقافية . وبما أنّه لا تُوجد مفاهيم بلا دَلالات ، فلا بُدّ أن تنشأ حركة فكرية في ظواهر التأويل اللغوية، وبما أنّه لا تُوجد سِياقات بلا استعارات ، فلا بُدّ أن يتكوّن حَرَكَ ثقافي في أنماط التفسير الاجتماعية. وهذه التفاعلات في أنساق المجتمع الظاهرية والباطنية تُؤدّي إلى تحليل مُكوّنات السُّلطة اللغوية ، وكيفية توظيفها في الخصائص المُميّزة للكيان المادي للإنسان وكيونته الرُّوحية ، من أجل تكريس التناسق بين وجود المُجتمع وأفكاره ، وتحقيق التجانس بين أبعاد اللغة والوعي بها ، وتفعيل تأثيرات المعنى الأخلاقي في النشاط الإنساني الفردي والحياة الاجتماعية العامّة . وهذا يدفع باتجاه تكوين صورة منطقية للفعل الاجتماعي في التُّراث الثقافي ، وتشكيل تصوّر عقلائي عن ماهيّة التُّراث الثقافي في مصادر المعرفة . وإذا كانت الأفكار الإبداعية تُولّد بشكل مُتزامن مع انعكاسات هُويّة المُجتمع على الفرد، فإنّ السُّلطة اللغوية تُولّد بشكل مُتعاقب في المُستويات الشعورية الواعية ، أي إنّ السُّلطة اللغوية تُظهر نَفْسها وَفُق مراحل زمنية مُتتابعة تتعلّق بالتحديات الاجتماعية المُختلفة ، وهذا يُحقّق التوازن بين المُجتمع كبناء حضاري تراكمي ، واللغة كُنية معرفية تاريخية . وعملية توحيد البناء الحضاري مع البنية المعرفية في السِّياق الاجتماعي اللغوي ، تُمثّل خُطوة أُولى في طريق دمج الوعي الإنساني مع القواعد التفسيرية للمعنى السطحي في العلاقات الاجتماعية ، والمعنى العميق في البنية الوظيفية لرموز اللغة ، التي تُصير جذورًا ثقافية في أعماق المُجتمع ، التي لا يُمكن الوصول إلى حقيقتها إلا بتحليل الأنساق الفكرية المُهيمنة على القُوّة الإدراكية للفرد ، والمُتحكّمة بمسار الفعل الاجتماعي التابع للعقل الجُمعي الذي يتشكّل من المصلحة والمعرفة والسُّلطة .

٢

تحوّلات المعرفة في المُجتمع والثقافة لا تتجذّر بفعل العلاقات الاجتماعية التابعة للهويّة المُشتركة بين الأفراد ، والخاصة لِنُظم المعاني الشعورية ، وإنّما تتجذّر بفعل تأثير السُّلطة اللغوية في التُّراث الثقافي ، وقُدرة رُموز اللغة على صناعة تاريخ الأحلام الفردية ، وابتكار جُغرافيا الطُموحات الجماعية . والعلاقات الاجتماعية مُؤقّتة وزائلة ، ومُحكّومة بظروف البيئة والمراحل

الزمنية وتبادل المصالح المادية والمنافع المعنوية ، في حين أنَّ الأحلام والطُّموحات مُتمركزة في كينونة الفرد وكيان المُجتمع، لذلك كان الخيالُ أهمَّ من المعرفة ، والمُجتمع الحقيقي هو الذي يعيش داخل الإنسان ، فهو يحملُه معه أينما ذهب ، ويتفاعل معه شعورًا وسلوكًا ووعيًا ، ويتعايش معه ذُون ضُغوطات ولا إملاءات . أمَّا المُجتمع الذي يعيش فيه الإنسانُ ، فهو تكتُّل من العلاقات الزائلة والروابط الوقتية ، وخاضع للتقلُّبات السياسية والتحولات الثقافية والضغوطات الاقتصادية ، ومُحكوم بمنظومة الحقوق والواجبات، ويملك سُلطة تاريخية على الأفراد والجماعات، ووُجوده مفروض عليهم. والإنسانُ لا يستطيع اختراع المُجتمع الذي يعيش فيه ، ولكنه يستطيع اختراع الحُلُم الذي يعيش معه وبه وفيه. وفلسفَةُ الحُلُم لا تُوجد في النَّوم ، وإنَّما تُوجد في اليَقظة .

٣

الجوهرُ الفلسفي للمعرفة ليس ما يَكُون ، وإنَّما ما يُمثِّلُه من قِيَمٍ نَفْسِيَّةٍ ومعايير أخلاقية ، وما يُثيره من عواطف وذكريات ، وما يُفَعِّلُه من أنشطة إبداعية ، وما يُحْيِيه من أحلام مدفونة ، وما يبعثه من آمال مُجَهَّضة . وهذا يعني أنَّ المُجتمع لَن يَجِدَ ذاته ويتحرَّرَ من ضُغوطاته إلا إذا استطاعَ نقلَ الجوهر الفلسفي للمعرفة من الماهية إلى الوظيفية ، ومن الهلالية إلى الفاعلية ، ومن مُلامسة سطح الوجود إلى الحفر في أعماق الوجود والوعي به . وتاريخُ المعرفة ليس ما مَضَى وكان ، وإنَّما ما تَتفاعل معه في حياتنا الفكرية والعملية . والتاريخُ الحقيقي لا يسقط في الفراغ ، ولا ينتهي إلى العدم ، وإنَّما يلدُ نَفْسَه بِنَفْسِه بشكل مُستمر ومُتواصل ، ويتكاثر حتى يُؤسِّس جُغرافيا إبداعيةً جديدةً للمُجتمع ، قادرة على احتضان أحلام الفرد وطُّموحات الجماعة ، ممَّا يُحرِّر أشكالَ الفعل الاجتماعي من هيمنة التأويل اللغوي المُسيَّس ، ويُحرِّر التفسير الفلسفي للبناء الاجتماعي من منطق القُوَّة . وهذا التحريرُ المُزدوجُ في غاية الأهمية ، لأنَّه يجعل مصيرَ الإنسان مُرتبطًا بِسُلطة الثقافة باعتبارها مشروعًا وجوديًا للخلاص ، وليست وسيلةً لاحتكار الحق ، والاستحواذ على الحقيقة .

*

سُلْطَةُ الْمُجْتَمَعِ وَفِلْسَفَتُهَا الْحَيَاتِيَّةُ

١

سُلْطَةُ الْمُجْتَمَعِ نِظَامٌ مِنَ التَّحَوُّلاتِ الْمَعْرِفِيَّةِ الَّتِي تَعْمَلُ عَلَى تَحْلِيلِ طَبِيعَةِ الْوَعْيِ ، وَمَنْظُومَةٌ مِنَ التَّغْيِيرَاتِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ الَّتِي تَعْمَلُ عَلَى تَوْسِيعِ حُدُودِ الْإِدْرَاكِ . وَانْدِمَاجُ الْوَعْيِ مَعَ الْإِدْرَاكِ يَجْعَلَانِ الْعَقْلَ الْجَمْعِي قَادِرًا عَلَى تَكْرِيسِ الْأَنْمَاطِ السُّلُوكِيَّةِ فِي الْمَنْظُورِ الرَّمْزِيِّ لِلْفِعْلِ الْاجْتِمَاعِيِّ ، وَتَجْدِيرِ الْمَعَايِيرِ الْأَخْلَاقِيَّةِ فِي التَّجَارِبِ الْحَيَاتِيَّةِ لِلْفَرْدِ وَالْجَمَاعَةِ . وَكُلَّمَا أَزْدَادَتْ فَاعِلِيَّةُ سُلْطَةِ الْمُجْتَمَعِ عَلَى أَرْضِ الْوَقْعِ ، تَعَدَّدَتْ الظَّوَاهِرُ الثَّقَافِيَّةُ الَّتِي تُعِيدُ تَأْوِيلَ التَّفَاعُلَاتِ اللَّغَوِيَّةِ فِي أَشْكَالِ الشَّرْعِيَّةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ حَضَارِيًّا وَتَارِيخِيًّا ، وَتُعِيدُ تَفْسِيرَ الْأَفْكَارِ الْإِبْدَاعِيَّةِ فِي ثَقَافَةِ الْحَيَاةِ الْيَوْمِيَّةِ مَعْنَوِيًّا وَمَادِيًّا . وَسُلْطَةُ الْمُجْتَمَعِ لَيْسَتْ تَجْمِيعًا لَأَنْسَاقِ الْعِلَاقَاتِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ ، وَإِنَّمَا هِيَ تَكْشِيفُ لَطَرَائِقِ التَّحْلِيلِ النَّقْدِيِّ الَّتِي يَهْدَفُ إِلَى تَأْصِيلِ الْمَفَاهِيمِ الْفِكْرِيَّةِ ، الَّتِي تُسَاهِمُ فِي التَّطَوُّرِ الْاجْتِمَاعِيِّ ، بِاعْتِبَارِهِ بِنَاءً عَقْلَانِيًّا ، وَبُنْيَةً وَجُودِيَّةً . وَمَاهِيَّةُ سُلْطَةِ الْمُجْتَمَعِ لَا تَتَحَقَّقُ إِلَّا بِالتَّفَاعُلِ مَعَ طَبَقَاتِ اللُّغَةِ ظَاهِرِيًّا وَبَاطِنِيًّا ، وَتَفْعِيلِ الْقَوَانِينِ الْحَاكِمَةِ عَلَى الرَّابِطَةِ بَيْنَ الْهَيَاكِلِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ وَالْبُنَى الْوُظُفِيَّةِ نَوْعِيًّا وَكَمِّيًّا . وَهَذَا مِنْ شَأْنِهِ تَوْسِيعُ نِطَاقِ حُضُورِ الْمَعْنَى الْإِنْسَانِي فِي الثَّوْرَةِ اللَّغَوِيَّةِ الَّتِي تَتَدَاخَلُ مَعَ النَّوَاةِ الْعَمِيقَةِ لِلثَّقَافَةِ ، وَتَتِمَاهَى مَعَ فِلْسَفَةِ الْمَعْرِفَةِ الرَّامِيَّةِ إِلَى تَحْلِيلِ الْمُجْتَمَعِ ، لَيْسَ بِوَصْفِهِ نَمَطًا لِلْعَيْشِ ، بَلْ بِوَصْفِهِ أُسْلُوبًا لِلْإِبْدَاعِ ، وَتَحْلِيلِ الْفِكْرِ ، لَيْسَ بِوَصْفِهِ طَرِيقًا مَفْرُوضًا عَلَى وُجُودِ الْفَرْدِ وَشُعُورِهِ ، بَلْ بِوَصْفِهِ طَرِيقَةً لِتَفْسِيرِ مَعْنَى الْوُجُودِ ، وَتَأْوِيلِ إِفْرَازَاتِهِ ضِمْنَ الْقِيَمِ الرُّوحِيَّةِ وَالْمَعَايِيرِ الْأَخْلَاقِيَّةِ وَالْأُطُرِ الْمَادِيَّةِ .

٢

الفِلْسَفَةُ الَّتِي تُؤَلِّدُهَا سُلْطَةُ الْمُجْتَمَعِ لَيْسَتْ غُنْصَرًا دَخِيلًا عَلَى حَيَاةِ الْفَرْدِ ، أَوْ شَيْئًا غَرِيبًا عَنْ نِظَامِ حَيَاتِهِ ، وَإِنَّمَا هِيَ رَكِيزَةٌ أَسَاسِيَّةٌ فِي كَيْنُونَةِ الْفَرْدِ الْإِنْسَانِيَّةِ . وَالفِلْسَفَةُ لَا تُوجَدُ خَارِجَ الْإِنْسَانِ ، وَإِنَّمَا تُوجَدُ فِي دَاخِلِهِ . وَالْحَيَاةُ الْحَقِيقِيَّةُ لِلْفَرْدِ لَا يَتِمُّ الْبَحْثُ عَنْ مُكَوِّنَاتِهَا فِي عُنَاوَرِ الْبِيئَةِ الْمُحِيطَةِ ، لِأَنَّ هَذِهِ الْمُكَوِّنَاتِ مُسْتَقَرَّةٌ فِي أَعْمَاقِ الْفَرْدِ ، وَعَلَيْهِ أَنْ يَجِدَ وَسِيلَةً لَانْتِشَالِهَا ، وَدَمْجِهَا فِي عَالَمِ الْأَفْكَارِ الْإِبْدَاعِيَّةِ ، بِاعْتِبَارِهَا التَّجَلِّيَ الْأَبْرَزَ لِلطَّاقَةِ الرَّمْزِيَّةِ فِي اللُّغَةِ وَالْفِعْلِ الْاجْتِمَاعِيِّ . وَالْمُجْتَمَعُ لَا يَسْتَطِيعُ الدُّخُولَ فِي الْحَدَاثَةِ وَاقْتِحَامِ الْمُسْتَقْبَلِ إِلَّا إِذَا تَمَكَّنَ مِنْ تَحْوِيلِ اللُّغَةِ إِلَى نَسَقٍ مِنَ الْأَفْعَالِ الَّتِي تَمْنَحُ الْوُجُودَ مَعْنَاهُ ، وَتَحْوِيلِ الْفِعْلِ إِلَى سِيَاقٍ مِنَ الْمَعَانِي الَّتِي

تَمْنَحُ الحَيَاةَ جَدْوَاهَا ، مِمَّا يُؤَدِّي إِلَى إِنْتَاكِ نظريات فلسفية قادرة على تفكيك البنى الوظيفية في المجتمع وإعادة تركيبها جُزْئِيًّا أَوْ كُلِّيًّا ، مِنْ أَجْلِ تَعْزِيزِ نِقَاطِ القُوَّةِ فِي العِلاَقَاتِ الاجتماعية ، وَعِلاَاجِ نِقَاطِ الضَعْفِ فِي النِّظَامِ الاجتماعي الذي يَصْطَلِعُ بِمَسْئُولِيَةِ تَحْقِيقِ التَّوَاظُنِ بَيْنَ وَاجِبَاتِ الأَفْرَادِ وَمَصَالِحِهِمُ الشَّخْصِيَّةِ .

٣

مَفْهُومُ السُّلْطَةِ يَكْتَسِبُ هُويَتَهُ المُمَيَّزَةَ مِنْ طَبِيعَةِ الوقائع التاريخية والأحداث اليومية ، وَمَفْهُومُ المُجْتَمَعِ يَكْتَسِبُ شَرْعِيَّتَهُ التاريخية مِنَ القَلْقِ الوجودي والوَعْيِ المصيري ، اللَّذَيْنِ يُمَثِّلَانِ القُوَّةَ الدَّافِعَةَ لِلنِّظَامِ المعرفي المركزي بِصِيغَتِهِ الفردية وَصِفَتِهِ الجماعية . وَسُلْطَةُ المُجْتَمَعِ تُنْتِجُ فلسفتها الحياتية مِنْ أَجْلِ مَنَعِ القَوَضَى فِي العِلاَقَاتِ الاجتماعية ، لَضَمَانِ المَصْلَحَةِ الشَّخْصِيَّةِ ، وَمَنَعِ الاضطراب فِي مَصَادِرِ تَوَلِيدِ الفِعْلِ الاجتماعي ، لَضَمَانِ المَصْلَحَةِ العَامَّةِ . وَالْفَلَسَفَةُ الحَيَاتِيَّةُ لَا تَمْتَازُ بِقُوَّةِ الحُضُورِ فِي وَعْيِ الفرد فَحَسْبَ ، بَلْ أَيْضًا تَقُومُ بِأَنْسَنَتِهِ ، أَي: جَعْلِهِ إنْسَانِيًّا . وَهَذَا الأَمْرُ فِي غَايَةِ الأَهْمِيَّةِ ، لِأَنَّهُ يُسَاعِدُ الفردَ عَلَى بِنَاءِ عِلاَقَاتِهِ وَمَصَالِحِهِ عَلَى قَاعِدَةِ المعْنَى الحَيَاتِي العَمِيقِ ، الَّتِي تَتَكَوَّنُ مِنَ القُوَّةِ وَالسُّلْطَةِ والقُدْرَةِ عَلَى اتِّخَاذِ القَرَارِ الصَّحِيحِ فِي الوَقْتِ الصَّحِيحِ ، وَالتَّأَثِيرِ فِي مَسَارِ الأحداث. وَبِمَا أَنَّ مَاهِيَّةَ السُّلْطَةِ تَبْدَأُ فِي العَقْلِ الفردي ، وَتَتَحَوَّلُ إِلَى مَعَايِيرِ حَاكِمَةٍ عَلَى البُنَى الوظيفية فِي المُجْتَمَعِ ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَمْتَلِكَ العَقْلُ الفردي الإِمْكَانِيَّةَ الذَّاتِيَّةَ لِتَحْرِيرِ الوَعْيِ مِنْ تَقْلِبَاتِ الوَاقِعِ ، وَأَنْ يَمْتَلِكَ المُجْتَمَعُ قَرَارَهُ الشَّخْصِيَّ لِلتَّخَرُّرِ مِنَ العَقْدِ النَّفْسِيَّةِ الَّتِي تَقِفُ خَلْفَ السُّلُوكِ الإنْسَانِي .

*

الْوَعْيُ بِاللُّغَةِ وَإِدْرَاكُ الرَّمُوزِ الثَّقَافِيَّةِ

١

كيفية تشكيل البنى الوظيفية في المجتمع لا يمكن تفسيرها بِمَعَزِلٍ عن الأنظمة الثقافية ، والأنماط المعيشية، والتيارات الفكرية ، وشبكة العلاقات الإنسانية . وعملية التفسير مُرتبطة بالبناء اللغوي كإطارٍ رمزي وهيكلي اجتماعي ، وهذا يعني أنها عملية إبداعية ، تبتكر مَسَارَهَا ، وتُؤَسِّس مصيرها ، وتُولد مِن ذاتها ، وليست انعكاسًا آليًا عن الظروف المادية التي تُحاصر الهوية الإنسانية للفرد ضمن صيرورة التاريخ، الذي ينتقل — باستمرار وبشكل دائم — من النسق الاجتماعي إلى الدور الوظيفي . وإذا كان النسق الاجتماعي ينبع من الظرف المادي ، والشروط التاريخي ، فإن الدور الوظيفي ينبع من الضغط المصلحي ، والفاعلية الأخلاقية . وهذا النشاط في مصادر المعرفة وقواعد المنهج الاجتماعي ، يُحوّل الرابطة التفاعلية بين المجتمع كدليل والإنسانية كذلالة ، إلى علاقة أخلاقية تُساهم في إعادة تشكيل الظروف الحياتية كأنوية معرفية إبداعية في مجالات الوَعْيِ باللغة ، وحُقول إدراك الرموز الثقافية . وكما أن مَسَار التاريخ يتحكم بالمعايير الوجودية التي تُنتج الفعل الاجتماعي ، فإن طبيعة البيئة تتحكم بالموضوعات الفكرية التي تُكوّن الشخصية الفردية والسلطة الاعتبارية .

٢

مَجَالَاتُ الوَعْيِ باللغة تتكوّن مِن ثلاث طَبَقَات : الرمزية والمعرفية والمادية . الطبقة الرمزية تُحدّد العلاقة بين الفرد كفاعل إنساني واللغة كنظام من الوقائع التاريخية والأحداث اليومية والخيالات الذهنية التي تصنع سياسات تأويل التاريخ وتوظيفه في الأنماط القيميّة والأشكال التعبيرية. والطبقة المعرفية تُحدّد العلاقة بين تطوّر الثقافة تاريخيًا وجغرافيًا ، وتطوّر مناهج التحليل اللغوي كجزء من البناء العقلائي المُجتمعي . والطبقة المادية تُحدّد العلاقة بين إفرازات الحياة المُعاشة والرؤية الفلسفية النقدية لهذه الإفرازات، سواء كانت موروثة ثقافية تنطلق من الماضي إلى الحاضر عبر اللغة كوسيط ، أم ممارسات قصديّة آنيّة مُتفاعلة مع القضايا الساخنة .

٣

حُقول إدراك الرموز الثقافية تتكوّن مِن ثلاث طَبَقَات : النُفُسيّة والسلوكية والوظيفية . الطبقة النفسية تُحدّد العلاقة بين الشّعور كصناعة نقدية ثقافية، والتراث الحامل للفعل الاجتماعي الذي

يتفاعل الفرد معه، وينفعل به. والطبقة السلوكية تُحدّد العلاقة بين تاريخ اللغة كإطار جامع لشخصية الفرد وإنسانيته، والمعايير الأخلاقية التي تتحرّك في بُنية التعبير الفكري كطريقة فلسفية لفهم الأحداث اليومية، وتحليل الخصائص الإنسانية المُعقّدة في الحياة. والطبقة الوظيفية تُحدّد العلاقة بين المجتمع ككائن حي، والثقافة كجغرافيا حرّة ومُتحرّرة من الوهم، تنبعث باستمرار في الحراك المُجتمعي.

٤

المُجتمع هو الجسد المعرفي الذي يُوازن بين العناصر الوجودية التي تعمل على تحليل الوُعي الإنساني، اعتماداً على بُنية الفعل الاجتماعي، ومُمارسة فعل النقد الثقافي. وتتركز قوّة المُجتمع الرمزية في كونها نظاماً من الإشارات اللغوية الحاملة للتاريخ معنًى ومبنيً، وهذا الأمر يُؤدّي إلى تأسيس مناهج تفكير خاصة بمسار المجتمع ومصيره، تُحقّق مصلحة الجماعة، وتُحافظ على أحلام الفرد، كي يتم تبادل العلاقات الاجتماعية بين الوُعي والسلوك من جهة، واللغة والثقافة من جهة أخرى. وتبادل العلاقات الاجتماعية يستلزم تطويرها، وهذا التطوير لا يتأتّى إلا عندما يُصبح الوُعي باللغة والثقافة حاضناً للماضي، ودافعاً للحاضر، وكاشفاً للمستقبل. وإذا كانت اللغة تقوم على مبدأ التوازن بين نقد الأفكار وتفكيك النظام البنائي للثقافة، فإنّ الوُعي يقوم على مبدأ التوفيق بين الأنظمة المعرفية الحاكمة للمُجتمع، والمُسيطرة على الخطاب الفكري الكاسر للأنماط والقوالب، يوصّفه وسيلة للخلاص والبناء، وليس طريقاً للفوضى والهدم.



العلاقات الاجتماعية على الصعيدين اللغوي والوجودي

١

أهمية العلاقات الاجتماعية لا تتجلى في قدرتها على توليد أنساق حياتية للفرد والجماعة فحسب ، بل أيضاً تتجلى في قدرتها على تكوين سلطة معرفية توازن بين الأبعاد الروحية والنزعات المادية ، وتوائم بين أعماق اللغة وقواعد التاريخ الاجتماعي . وكما أن العالم سريع التغير ، ويغير الحراك الاجتماعي ، وحركة المشاعر ، واتجاه الأحداث اليومية ، وطبيعة الوقائع التاريخية ، فكذلك النظام الثقافي في المجتمع ، فهو سريع التغير ، ويغير صيرورة التاريخ ، وماهية الظروف المعاشة ، ومسار المنظومة الأخلاقية ، ومضمون الذات الإنسانية . وكما أن الإنسان بناء اجتماعي ، فكذلك اللغة بناء اجتماعي . ولكن الفرق هو أن الإنسان يبحث عن الحقيقة في البنى الوظيفية في المجتمع ، في حين أن اللغة تُنتج الحقيقة باعتبارها بنية تاريخية ، وجوهرًا اجتماعيًا ، وصورة للإنسان في مرآة التاريخ الوجودية . إن الإنسان يذهب إلى الحقيقة لأنها بنية مُستقلة عنه ، أما اللغة فهي أساس الحقيقة ، وهما مُتحدتان شكلاً ومضموناً ، لذلك فإن اللغة لا تذهب إلى الحقيقة ، وإنما تولدها في سياق الالتزام الأخلاقي ، لمنع التبرير الفلسفي لعجز الإنسان عن مواجهة المُسلّمات الافتراضية ، التي تفرضها السلطة الاجتماعية لمُحاصرة أحلام الإنسان ، ومُصادرة حُرّية أفكاره ، وتطويق حركة الوعي التي تهدف إلى صناعة بنية فكرية تنطلق من الزمن ، كي تتجاوزه ، ولا تغرق فيه .

٢

قيام اللغة بتوليد الحقيقة في سياق الالتزام الأخلاقي يُؤدّي إلى إيجاد منهج اجتماعي يربط الأفكار ببعضها البعض ، وهذا ضروري لكسر الحدود الفاصلة بين السلطة والمعرفة . وارتباط الأفكار يعني أن هناك نظامًا اجتماعيًا منطقيًا مُسيطرًا عليها ، لا مجال فيه للعبث أو الفوضى أو التلقائية . والصدفة قد تُنتج فكرةً عابرةً ، ولكنها لا تُنتج نظامًا من الأفكار المنطقية والمتسلسلة . والخطأ قد يُوصل الإنسان إلى الوظيفة ، ولكنه لا يُؤدّي الوظيفة نِابةً عن الإنسان ، ممّا يدلُّ بوضوح على أن المجتمع بوصفه تاريخًا للأفكار ، ونظامًا لتحرير الإنسان ، يتحرّك بشكل عقلائي ، ويفتح المساحات لدمج السلطة بالمعرفة ، لإنتاج سلطة المعرفة التي ترمي إلى إقامة القطيعة مع الوهم لتكوين صورة الحاضر وجوهره . وكلُّ معرفة هي كتلة مُتجاورة لِنفسها ، وفاعليّة مُتقدّمة في

الوَعْي والإدراك، لذلك كانت المعرفة هي ما بعد المعرفة، والتاريخ هو ما بعد التاريخ ، والإنسان هو ما بعد الإنسان. واللحظة الآتية التي يعيشها الإنسان ستصبح بعد انقضائها ماضياً خارجاً عن سيطرته، لذلك فإن الحياة الحقيقية هي مُطَارَدَة الحُلُم الذي يأتي من المُستقبل ، وليس الهُروب إلى الأمام . والوجودُ نهرٌ دائمُ الجَرَيَان، تجب ملاحقته باستمرار، وتحديد نُقْطَتِي المُنْبَع والمَصَب، من أجل تحديد فلسفة الوجود ومعناه الغائي، ورسم معالم الأفعال الاجتماعية الناتجة عن مساره في النَّفْس الإنسانية ، والواقع المادي .

٣

الوجودُ ليس نصّاً فلسفياً خاضعاً لأدوات النقد ، وآليات التشخيص ، وتقنيات التأويل ، وإنما هو بحثٌ دائم عن المعنى ، وكيفية التعامل مع الأسئلة المصيرية ، وفتيشٌ مُستمر عن الطاقة الرمزية اللغوية ، وكيفية توظيفها في الوَعْي الذي يُمثّل حاضنة للتفاعلات الاجتماعية ، التي تَبْنِي مصادر المعرفة التي تكتشف مسار تكوين الزمن ، وتُبرز طريقة ارتباطه بفلسفة الأفكار ، وقواعد المنهج الاجتماعي ، من أجل تفكيك الحاضر كجغرافيا غارقة في الأحلام الماضية ، وإعادة بنائه كنشاط عقلائي مُستقل عن القوالب الجاهزة التي تَكَرَّست بسبب الاعتيادية ، وغياب التساؤل الفلسفي، وعدم التنقيب في جسد التاريخ . وهكذا ، يصير غِيَابُ التساؤل الفلسفي تأسيساً لِحُضُور الأجوبة المُعدّة سلفاً ، التي تفتقر إلى الخبرة الوجدانية ، والتجربة العملية . وشيئاً فشيئاً ، يكتشف المجتمع الإنساني حُضُورَه في الغياب ، ويسقط في العدم ، بلا بارقة أمل ، ولا ضوء في نهاية النفق . ومن أجل إنقاذ المجتمع الإنساني من هذا المصير المُظلم ، وحمايته من الانكماش على ذاته ، وتدمير نَفْسِهِ بِنَفْسِهِ ، ينبغي أن يكون الحُضُورُ وَعْيًا نابغاً من شخصية الفرد وكيان المُجتمع والعناصر المُحيطة بهما . وهذا من شأنه فَتْحُ تاريخ المُجتمع على الأسئلة المُتجددة والتجارب الحيوية ، وتكوين فلسفة جديدة في تأويل الأفعال الاجتماعية ، وصياغة تاريخ جديد للمُجتمع ، بحيث يُصبح جسداً للحضارة ، وتُصبح الحضارة رُوحاً للعلاقات الاجتماعية على الصعيدين اللغوي والوجودي .

*

تأثير السُّلطة المعرفية على الفرد والمجتمع

١

التحليل المنطقي للظواهر الثقافية مُرتبط بطبيعة السلوك الاجتماعي، وبُنية السُّلطة المعرفية . وإذا كان السُّلوك يكشف الفعل الإرادي للفرد ، فإنَّ السُّلطة تكشف الجانب الفكري للجماعة . وهذا الكشف المُزدوج يُؤسِّس مجالًا اجتماعيًا حيويًا ، يشتمل على البنى الوظيفية المسيطرة على الأحداث اليومية، ويؤدِّي إلى إيجاد روابط منطقية بين الوعي كُنسقي حاكم، والواقع كُنسقي محكوم. وإذا كانت مُعطيات الواقع المادي تدفع الأفراد إلى الخُضوع للعقل الجمعي ، يوصِّفه القُوَّة المنظمة للأعراف والعادات والتقاليد ، فإنَّ إفراسات الوعي تدفع الظواهر الثقافية إلى الالتزام بقوانين السُّلطة المعرفية ، يوصِّفها القُوَّة المنظمة للمعايير الأخلاقية والعوامل العاطفية . وعندما تقترب ماهية القُوَّة بمنظومة الحقوق والواجبات ، تتكرَّس هويَّة المجتمع كمسؤولية مُشتركة وغاية وجودية . والسُّلطة والمسؤولية مُتلازمتان ومُتكاملتان ، وتوجدان معًا ، وتغيَّبان معًا. والمُجتمع في صيرورة تاريخية مُستمرة ودائمة، من أجل توليد أنماط معرفية مُستندة إلى شرعية الكيان الإنساني ، ومُعتمدة على قواعد البناء الاجتماعي ، وهذا يدفع باتجاه توثيق العلاقة بين السُّلطة والمسؤولية كهمَّ وجودي غير قابل للانفصال عن الواقع . وكما أنَّ الفرد لن يجد نفسه إلا بالتخلُّص من العُقد النفسية المتجذرة في داخله ، كذلك المُجتمع لن يجد نفسه إلا بالتحرُّر من العُقد التاريخية الساكنة في أعماقه .

٢

مفهوم السَّيادة في بُنية السُّلطة المعرفية لا يمنع الفرد من ممارسة الفعل الاجتماعي بشكل حر، ولكنه يمنع الفرد من تحويل مصالحه الشخصية المُتضاربة إلى منظومة نفعية استغلالية تصير تاريخًا للمُجتمع . والتاريخ الحقيقي للمُجتمع ليس الوقائع والأحداث ، وإنما هو النظام العقلائي الذي يُسيطر على المُجتمع في رحلة البحث عن المعنى . وهذا من شأنه إلغاء التَّصورات الذهنية المُستهلكة ، واستخراج تفاصيل جديدة لحياة المُجتمع أفرادًا وجماعات ، بين الزمن الذي يبعث من أعماق الوعي ، والزمن الذي يُحاصر حُلَم المُجتمع في التحرُّر من الوهم وتغيير الواقع . وهذان الزمَّتان يُحوِّلان تاريخ المُجتمع من جسد للمكان إلى تجسيد للمعرفة. والرابطة بين الزمن والمكان لا معنى لها بدون المعرفة. ووجود الفرد في الواقع المُعاش لا يعني أنَّه يملك معرفة عنه ،

لأنَّ المعرفة تأتي من التحليل المنطقي للظواهر الثقافية ، ولا تأتي من انحصار الفرد في الزمن والمكان . وأيضاً ، إدراك الفرد لوجوده المعنوي والمادي لا يعني أنه يعرف تفاصيل التاريخ الكامن في أعماقه ، لأنَّ وجود الفرد لا معنى له بدون الوعي . والوعي والمعرفة لا يصيران نظاماً إنسانياً يعيش الفرد به وفيه ، إلا بامتلاك أدوات التحليل المنطقي ، وآليات التأويل اللغوي . وكما أنَّ الفرد لن يستفيد من منجم الذهب إلا إذا امتلك خريطة الموقع وأدوات التنقيب ، كذلك لن يستفيد من حياته إلا إذا امتلك الوعي والمعرفة واللغة . وأصعب شيء في حياة الفرد أن يرى كنزاً أمامه ، ولا يستطيع الوصول إليه . وأصعب شيء في حياة المجتمع أن يجد نظاماً لغوياً مُسيطرًا على العلاقات الاجتماعية ، ولا يستطيع فك شيفرته .

٣

تحديد مصادر المعرفة يتطلب تحديد الثغرات الموجودة في تاريخ المجتمع ، لأن الثغرات تكشف مواضع الانفصال والتشظى في علاقة الفرد بنفسه ، وعلاقته مع الآخرين ، وهذا يؤدي إلى تحليل طبيعة مركزية الذات الإنسانية في الظروف البيئية ، ودور هذه الظروف في إنتاج نظام عقلائي قادر على نقد المعرفة، وذلك بتوضيح كيفية نشأتها ، وشروط استعمالها، وطرق توظيفها. والمجتمع ليس انعكاساً تلقائياً لمراحل الانقطاع في العقل التاريخي ، ولكنه سلطة معرفية تتشكل باستمرار ، ومنظومة أخلاقية يتم إنتاجها لإيجاد العمق الفكري للفرد ، والمحافظة على توازنه النفسي في ظل مأساة الحضارة وأزمة الوجود . ولن يستطيع الفرد الوصول إلى جوهر البناء الاجتماعي ، إلا إذا حوّل البنى اللغوية القائمة على تأويل المعنى وتجاوز التاريخ ، إلى خصائص نفسية قادرة على التمثيل المادي للأفكار. واللغة هي فلسفة السلطة المعرفية، وكلما عاد الفرد إلى اللغة وُلد من جديد. والفلسفة أسلوب حياة لإدراك حقيقة الأشياء ، ومنظومة تجميعية للأسئلة الدائمة ، وليست بحثاً عن النظريات والخيالات والمسلّمات .

*

اللغة والفعل الاجتماعي والنظام الأخلاقي

١

لَيْسَ الهدفُ مِنَ الفعلِ الاجتماعي تحويلَ أحلامِ الفردِ إلى زُموز لغوية هُلامية ، أو معايير ثقافية سطحية ، أو نظريات فلسفية مُجرّدة ، بل تحويل السلوك اليومي إلى وعي مُتجدّد باستمرار ، وتفسير تاريخ المُجتمع باعتباره جُغرافيا حاضنة للمدّارك العقلية ومصادر المعرفة ، وتوسيع زوايا الرؤية من أجل تكوين أفكار إبداعية نقدية قادرة على جعل سياسة البناء الاجتماعي آليّة لتحليل المفاهيم الفكرية في ضوء الروابط المجتمعية ، وهذا من شأنه تحرير الفرد من المُسلّمات المُتصوِّرة والتأويلات المُتخيَّلة ، وجعله قادرًا على تطوير علاقاته ومصالحه بعيدًا عن الاستثمار في الصّدّام بين العقل الفردي والعقل الجمعي ، وبعيدًا عن الخوف من ضياع الهوية وانكسار الماهية . وهويّة الفرد الحقيقية لَيْسَتْ جينات وراثية ، وإنّما فلسفته في الحياة على الصعيدين العلمي والعملّي . والفرد الواعي لا يهزّب إلى أعماق الماضي لإيجاد هويته في الحاضر ، لأنّ الهزّوب هاوية لا هويّة ، وإنّما يُكوّن الوعي بالماضي لصناعة الحاضر ، وتحويله إلى زمنٍ مُفتّح يجعل الفعل الاجتماعي منظورًا أخلاقيًا، وتحويل الزمن إلى مكانٍ مُفتوح للبنى الوظيفية وتركيبها، والأبنية اللغوية وتفسيرها، يجعل الواقع المُعاش سببًا للتفاعل بين الأفراد من خلال اللغة باعتبارها وسيلةً للتصالح مع الذات والآخرين ، ولَيْسَتْ أداةً هُجوميّةً لتعطيم المُنجزات الفردية والجماعية ، أو لعبةً تأويليةً لفصل النظرية عن التطبيق في مسار المُجتمع ومصيره .

٢

اللغة والفعل الاجتماعي يُمثّلان نشاطًا تواصليًا ، ويُفرزان حَرَكَاتًا ثقافيًا . ودور اللغة هو حماية الفعل الاجتماعي من القوالب الجاهزة ، ودور الفعل الاجتماعي هو حماية اللغة من التحوّل إلى أداة استهلاكية لإنتاج الوعي الزائف . وكلُّ وعي زائف سيتم توظيفه لخداع الرأي العام، والتلاعب بشعور الأفراد، وركوب الموجه بما يضمن تغيير أولويات المجتمع، واحتكار مساره ، وتهديد مصيره . وفلسفة اللغة قائمة على التفاهم لا الخداع، وفلسفة الفعل الاجتماعي قائمة على الحقيقة لا الرّيف، وهذا يعني أنّ اللغة كينونة وجودية مُتداخلة مع الشعور والوعي والإدراك ، وقادرة على التفاعل مع الواقع ، سواء كان سابقًا في الذهن والخيال ، أو محصورًا في إطار الزمن والمكان ، كما يعني أنّ الفعل الاجتماعي كيان جوهري مُرتبط بالألم واللذة والأخلاق ، وقادر على منع

الْوَهْم من تحطيم شخصية الفرد الإنسانية ، وَمَنْعِ الْعِلْمِ من تدمير عناصر الطبيعة لتحقيق مصالح شخصية . والعِلْمُ بلا منظومة أخلاقية سَيَصِيرُ وحشًا هائجًا ، يتعامل مع التقنية كأداة استغلال ، وليست مشروعًا للخلاص . ولا بُدَّ أن تَصِيرَ اللغة تجسيدًا للحُلُمِ الإنساني ، وفضاءً للفعل الاجتماعي ، من أجل بناء علاقة مُتَزَنَةٍ ومُتَوَازِنَةٍ بين المعرفة والمصلحة ، بحيث لا يُصْبِحَ الفرد مسمارًا في نَعَشِ المُجْتَمَعِ ، ولا يُصْبِحَ المُجْتَمَعُ كابوسًا يُطَارِدُ الفردَ. ولن يتحرَّرَ المجتمع من ثنائية (الصياد/الفريسة) إلا إذا تَحَرَّرَتِ شخصية الفرد الإنسانية من سُلْطَةِ الْوَهْمِ .

٣

الفرد يُطَوِّرُ علاقاته الاجتماعية لتحقيق مَصْلَحَتِهِ ، ويُطَوِّرُ مَصْلَحَتَهُ لبناء شرعية وجوده على قاعدة إنسانية رُبَاعِيَةِ الأبعاد : المُتَعَةِ ، والقُوَّةُ ، والمعرفة ، والمسؤولية . وهذا التطويرُ مُرتَبِطُ بفلسفة الواقع المُعَاشِ ، التي تُوجَدُ في رمزية اللغة القادرة على إنشاء نظام أخلاقي حاضن للجميع، لا يَسْتَبْعِدُ الأنساقَ الاجتماعية المُسَيَّسَةَ، وإنَّما يُؤَنِّسُهَا، أي: يجعلها إنسانية خاليةً من قِيمِ التَّوَحُّشِ والاستغلال ، ولا يَسْتَشْنِي الظواهرَ الثقافية الفُوضوية، وإنَّما يُعَقِّلُهَا، أي: يجعلها عقلانية خاليةً من قِيمِ العُتْثِ والعدمية . وهذا النظامُ الأخلاقي لا بُدَّ أن يتجسَّدَ في البنية الحضارية الفاصلة بين النَّسَقِ المادي لإفرازات الفعل الاجتماعي ، والنَّسَقِ الرمزي لأحلام الفاعل الاجتماعي. وهذا التَّجَسُّدُ سَيُؤَدِّي إلى تجسيد الحقائق التاريخية في الخِبرات الحياتية ، فيُصْبِحُ الصراعُ داخلَ المُجْتَمَعِ سِياقًا ثقافيًا خاليًا من الغُفِّ ، وقائِمًا على الوَعْيِ بالتاريخ المُشْتَرَكِ ، ومُتَوَافِقًا مع تحوُّلات الهوية المعرفية زمنيًا ومكانيًا. وبما أنَّ فلسفة المُجْتَمَعِ لا تَمْتَلِكُ الحقيقةَ المُطلَقَةَ، فلا بُدَّ من ظهور تفسيرات متعددة لطبيعة الصراع داخل المُجْتَمَعِ . ولا يَنْبَغِي الغرق في هذه التفسيرات ، وإنَّما تجاوزها بتأسيس نظام عقلائي نَقْدِي يَمْنَعُ تحويلَ شخصية الفرد الإنسانية إلى سِلْعَةٍ ، أو ورقة للمساوَمَةِ ضمن شروط الرِّبح والخسارة . وإذا صارت حياة الفرد نظامًا للمُقَايَصَةِ، فلا بُدَّ أن يُصْبِحَ ورقةً محروقةً . وعندئذٍ ، تَمْتَرُ الهوية المعرفية ، وتشظى العلاقات الاجتماعية ، ويتفكَّك المُجْتَمَعُ من الداخل . لذلك ، يجب تحرير الوَعْيِ الاجتماعي من المصالح الشخصية الضيقة ، والمحافظة على وجود الفرد كَنَسَقِ أخلاقي حُرٍّ ، وليس أداة خاضعة للهيمنة والابتزاز . وهذه هي الضَّمانة الأكيدة لإعادة المجتمع إلى إنسانيته ضمن السِّيَاق الحضاري ، الذي يَزْرَعُ القِيَمَ الجمالية والأبعادَ الأخلاقية في الفرد ، كي يكتشف عناصر الطبيعة ، ويتفاعل معها لغويًا ومعرفيًا ، ولا يُحوَّلَ الطبيعة إلى عُقْلٍ مادي مُهيمن على حياة الفرد ، ولا يجعل التقنية

سَيِّفًا مُضَلَّتًا عَلَى رِقْبَةِ الْمُجْتَمَعِ . وَالْهَدَفُ الْأَسَاسِي مِنَ الْمَعْرِفَةِ هُوَ تَحْقِيقُ التَّوَاصُلِ بَيْنَ أَفْرَادِ الْمُجْتَمَعِ ، وَنَشْرُ فِكْرَةِ الْحِوَارِ وَالتَّسَامُحِ وَالتَّقْدِيرِ ، وَتَعْمِيقُ رُوحِ الْإِنْتِمَاءِ لِلْحَقِّ ، وَالْوَلَاءِ لِلْحَقِيقَةِ . وَإِذَا صَارَتِ الْمَعْرِفَةُ أُسْلُوبًا لِلتَّحَكُّمِ بِالْفَرْدِ ، وَالسَّيْطَرَةِ عَلَى الْمُجْتَمَعِ ، وَاسْتِنْزَافِ الطَّبِيعَةِ ، فَسَوْفَ تَسْقُطُ الْحَضَارَةُ الْإِنْسَانِيَّةُ فِي الْعَدَمِ ، وَتَصِيرُ فِكْرًا مُتَوَحِّشًا ، وَفَرَاغًا مُوَحِّشًا .

*

العلاقات الاجتماعية بين النظام الحيائي والمنظومة الحضارية

١

العلاقات الاجتماعية التي تقوم على تحليل مصادر المعرفة ، وتفسير التفاعلات الرمزية في السلوك واللغة، تحمي الروابط الإنسانية من الهشاشة ، وتبعد الأفراد والجماعات عن القلق الوجودي . وفي ظل النظام الاستهلاكي المادي المُوغل في غزلة الأفراد الروحية ، والمتداخل مع انكماش المجتمع على ذاته وتاريخه ، صارت القضية المركزية ليست كيفية الدخول في العلاقات الاجتماعية والروابط الإنسانية ، وإنما كيفية الخروج منها بأقل الخسائر ، وذلك لأن الشعور صار نسقاً نفعياً مؤقتاً ، والوعي صار محاولة للسيطرة على الطرف الآخر والهيمنة على مساره الحيائي . لذلك ، يهرب كثير من الناس إلى الماضي باعتباره الزمن الجميل ، ويعرقون في التراث باعتباره شرعية الفردوس المفقود. والتاريخ لا يُبنى على فكرة الهروب، لأن الهروب ضعف، وإنما يُبنى على مواجهة التحديات الراهنة ، واقتحام الخوف من المستقبل . وإذا كان الحاضر في ذهن الفرد مجرد منفي ، فإن الفرد لن يجد تاريخاً لأمكنة الجسد ، ولا جغرافياً لأزمة الروح . ولا بُد من تكوين آلية فلسفية قائمة على قواعد المنهج الاجتماعي من أجل دراسة الأفكار وتمحيصها ، فهذه هي الضمانة الأكيدة لإنقاذ الفرد والمجتمع من المأزق الوجودي . وعندما يعيش الفرد في عالم الأفكار بهدف اختيار الأصلاح منها لظروف الواقع المعاش ، فإن النظام الحيائي سيعدو خريطة طريق للخلاص . وعندما يعيش المجتمع في ثقافة الحلول الإبداعية للمشكلات ، فإن المنظومة الحضارية ستعدو خطة عملية للنهضة .

٢

إذا اعتبر الفرد حياته تحصيل حاصل ، ونظر إلى إفرازات حياته كمسلمات غير قابلة للنقاش، فإنه سيدخل في صدام مع مكونات المجتمع ، وصراع مع عناصر الطبيعة ، لأنه يعتقد أنه مالك للحقيقة المطلقة ، ووصياً على المجتمع ، وسيّداً على الطبيعة. ويجب على الفرد أن يدرك أنه محكوم بأعراف المجتمع وقوانين الطبيعة ، وليس حاكماً مطلقاً عليهما . وهذا يستلزم إعادة تشكيل مصادر المعرفة ومعايير السلوك وكيانات اللغة ، من أجل تحقيق الاتزان في البنى الوظيفية في المجتمع ، وإزالة الحواجز الفكرية بين الرائي والرؤية ، وإلغاء التناقضات الجوهرية بين الطريق والطريقة . وهذا أمرٌ ضروري وأساسي لإصدار أحكام صحيحة على العلاقات الاجتماعية، وربطها

مع الوُعي الفردي والعقل الجَمعي. والعلاقات الاجتماعية لَيْسَتْ شيئًا يَعُثِرُ عليه الفردُ في حياته ، وإنما يَصْنَعُه ، ويُصْنِفي عليه الخصائصَ الوجودية والهويةَ المعرفية . لكنَّ الإشكالية هي تحوُّل الظاهرة الثقافية إلى حقيقة اجتماعية اعتمادًا على مبدأ هيمنة المجتمع على الأفراد ، وتأثيرات سلطته الاعتبارية ، بعيدًا عن طرح الفرضيات واختبارها بأسلوب عقلاني. وكلُّ مُجتمع يَعِجَزُ عن إيجاد الحلول لمُشكلاته، سوف يتهرَّب من الأسئلة الحاسمة ، لأنها بحاجة إلى إجابات منطقية . والمنطقُ يُسبِّب إحراجًا بالغًا للذين يَعِيشُونَ حياتهم بشكل عبثي وفوضوي ، والتاريخُ يُشكِّل كابوسًا للذين لا يملكونه . وفي كثير من الأحيان ، تَكُونُ الحقيقةُ مُرَّةً ومؤلِمةً وصادمةً، ويَكُونُ الوُهمُ لذيذًا ومُنْعِشًا ومُريحًا، وهذا هو الفخ القاتل الذي وَقَعَتْ فيه الحضارةُ الإنسانية .

٣

عندما يُصبح الأفراد آلاتٍ ميكانيكية في هُويَّة التاريخ المركزية في الزمان والمكان ، فإنَّ الوُعيَ لَنْ يَقْدِرَ على تفسير الشُّعور الذي يُساهم في تفعيل سُلطة المعايير الأخلاقية ، والشعور لَنْ يَقْدِرَ على إنشاء روابط إنسانية تُساهم في تكريس سيادة المعنى اللغوي . وإذا اختفت الأخلاقُ واللغةُ فإنَّ النظامَ الحياتي سَيَغْرُق في الأوهام . وعندما تُصبح الظواهرُ الثقافية أدواتٍ نفعية في ماهية الواقع الاجتماعية في الظاهر والباطن ، فإنَّ المعرفة لَنْ تَقْدِرَ على تحليل البنية التي تَعْمَلُ على تجذير شرعية الرموز اللغوية ، والبنية لَنْ تَقْدِرَ على توليد أفكار إبداعية تَعْمَلُ على تكوين هيكليَّة الأسئلة الوجودية. وإذا اختفت الرمزية والأسئلةُ فإنَّ المنظومة الحضارية سَتَسْقُطُ في الفراغ. لذلك ، لا بُدَّ من صياغة العلاقات الاجتماعية روحياً ومادياً بشكل مُستمر في البنى الوظيفية المُتَحَكِّمة بمسار المجتمع ، وكشف العناصر المنبوذة والأفكار الهامشية في تفاصيل الجسد الاجتماعي ، لتحديد التيارات الفكرية التي تمَّ تأسيسها للسيطرة على تشابكات النظام الحياتي والمنظومة الحضارية في أعراف المجتمع وقوانين الطبيعة. ولا شكَّ أنَّ الهوامش تدلُّ على المتن ، والأطراف تدلُّ على المركز ، وبُضدِّها تتبيَّن الأشياء .

*

التحوّلات التاريخية في البنى الاجتماعية

١

التحوّلات التاريخية في البنى الاجتماعية لا تنفصل عن التغيّرات في السلوك الإنساني ، الذي يتداخل مع الأحداث اليومية ، والظواهر الثقافية . وهذا التداخل يُؤسّس رؤيةً فلسفيةً تكشف مصادر المعرفة داخل طبيعة اللغة التي تنعكس على علاقة الفرد بالجماعة ، وتكشف أبعاد السُلطة الحياتية في تاريخ المجتمع ، باعتباره وعيًا يتجسّد في سياسة البناء الحضاري . وإذا كانت السياسات تُؤلّد من رَحم السُلطة ، فإنّ العلاقات تُؤلّد من رَحم اللغة . والوجود الإنساني هو القادر على دمج السُلطة باللغة ، وإنتاج الأفكار التي تعمل على توليد السياسات والعلاقات بشكل مستمر ، وتحديد المسار الفاصل بين جوهر الذات وماهيّة الصّفات ، أي : بين الكيان الإنساني وحالاته المختلفة في الوُعي والشُعور والإدراك ، وهذا يعني أنّ الكيان الإنساني ليس شيئًا ثابتًا لا يتغيّر ولا يتبدّل ، وإنّما هو كيانات مُتعدّدة تشتمل على هويّات اجتماعية مُتنوّعة . وكلُّ فكرة تُنتج هويّتها الوجودية الخاصّة بها ، وكلُّ حالة تُصنع إطارها المعرفي المُتعلّق بها . وينبغي أن يكون الحُكم على الفرد والمجتمع قائمًا على اللحظة الزمنية الآنيّة ، والشرط التاريخي الحالي . فلا يُحكم على الماضي بمقاييس الحاضر ، ولا يُحكم على الحاضر بمعايير المُستقبل . والفرد ابنُ وقته وبيئته (الطبيعة الزمنية والمكانية) ، والمُجتمع نتاجُ تاريخه (الطبيعة الوجودية والشرعية) .

٢

لا يُمكن تحليل السياسات المُتحرّكة بمصير المُجتمع إلا بفصل الفكر الإنساني عن التّزعة المثالية الخيالية ، ولا يُمكن تفكيك العلاقات المُسيطرّة على مصلحة الفرد إلا بفصل حاجات الجسد عن حاجات الروح . وهذه الثنائية (تحليل السياسات / تفكيك العلاقات) هي القاعدة الأساسية التي يقوم عليها المنهج الاجتماعي في النّقْد والنّقض ، ومن شأنها أن تستحضر الصّيرورة التاريخية في الخطّاب والمُمارسة ، وتؤكد على الرابطة الوثيقة بين العقل الجمعي والعناصر المكتوبة فيه . ووظيفته الظواهر الثقافية هي رصد آثار الكُبت المعنوي في فلسفة المجتمع ، باعتبارها طريقًا للخلاص الواقعي ، وطريقةً للتأويل اللغوي ، وتحرير هذه الآثار من سُلطة العلاقات الاجتماعية ، كي يُعبّر الفرد عن أفكاره ومشاعره بكلّ حرّية وتلقائية . وبالتالي، يظهر الوُعي الحقيقي بلا تراكيب زائفة ، ويبرز الإدراك العقلائي بلا عناصر مكتوبة ، وتُتضح

مصادر المعرفة بلا مكوّنات مسكوت عنها . والوعي له سلطته ، والمعرفة لها تاريخها ، ومن لا وعي له ، لا تاريخ له .

٣

لن يستطيع الفرد تحليل طبيعة المجتمع ، إلا إذا استوعب كيفية دخول الظواهر الثقافية إلى الأحداث اليومية ، وأدرك آلية تحرير الفكر الإنساني من ضغوط المصلحة الشخصية، بوصفها أداة للسيطرة على السياق الحياتي، والسيادة على النسق التاريخي ، يتم توظيفها اجتماعيًا ضمن إفرازات سلطة المعرفة . وهذه الإفرازات ليست أرشيفًا لأحلام الفرد، أو واقعًا ماديًا مُنغلقًا على ذاته، وإنما هي نظام أخلاقي مُتجسّد في الوعي الفردي، والعقل الجمعي ، يعمل على تأكيد الوجود الحي والحر ، وإعادة إنتاج البنية التاريخية التي تُحيط بالأنساق الفكرية . وكما أن الحياة والحرية لا تنفصلان في وجود الفرد ، كذلك الزمن والمكان لا ينفصلان في البناء الاجتماعي . وهذا يُؤدّي إلى فهم دور الفرد في تفسير التاريخ ، ودور التاريخ في تشكيل أبعاد سلطة المعرفة . وأينما وُجدت المعرفة وُجدَ التاريخ .

٤

الإشكالية في بنية المجتمع الفكرية تتمثل في الانشغال بتعريف سلطة المعرفة ، مع أن المطلوب هو تحديد الآليات التي تقوم عليها هذه السلطة ، وتعيين عناصرها ، وكشف أدواتها . لذلك ، ينبغي الانتقال من الماهية إلى الوظيفة ، ومن إطار النفس الإنسانية إلى فضاء الوعي بالذات والآخر ، ومن الولاء للعلاقات الاجتماعية إلى الولاء للبناء الاجتماعي . وإذا كان منطق القوة يُوجد حيث تُوجد المصالح الشخصية ، فإن قوة المنطق تُوجد حيث يُوجد المصير الجماعي في التاريخ الثقافي الأخلاقي المُشترك ، بوصفه طريقًا إلى حقيقة البناء الاجتماعي، وجوهرًا للتأويل اللغوي الذي يجمع زوايا الرؤية في المجتمع، ويوظفها بشكل إنساني لفهم الذات، والانطلاق منها لفهم العناصر المُحيطة بها . وإذا كان الفرد لا يستطيع فهم حاضره إلا إذا فهم ذاته ، فإن المجتمع لا يستطيع فهم تاريخه إلا إذا فهم سلطة المعرفة ، التي تُساهم في التوفيق بين التصوّرات الذهنية عن الزمن والمكان ، وبين الحاجات الأساسية للروح والجسد .

*

نظام التاريخ في الوجود والثقافة

١

التاريخ ليس مجموعة من الشظايا المتناثرة في العلاقات الاجتماعية ، وإنما هو نظامٌ وجودي يشتمل على مركزية الزمن في الذات والآخر ، وممارسة واعية تحتوي على فلسفة النشاط الإنساني ، ومجالٌ ثقافي مفتوح على الروابط بين تأثيرات السلطة وإنتاجات المعرفة وإفرازات اللغة . والنظام الوجودي ليس انعكاسًا للتاريخ الذي يحتاج إلى تحليل ، أو ردّة فعل لمصادر المعرفة التي تحتاج إلى اكتشاف . إنّ النظام الوجودي هو الفعل الاجتماعي المستمر الذي يدفع اللغة إلى تحرير الواقع من هيمنة الأحلام الضائعة ، التي لم تستطع التوفيق بين الوعي والمصلحة في ظل المنظومة الحضارية القائمة على توليد التاريخ وإنتاج المعرفة . ووظيفته الحضارة ليست ممارسة الهيمنة المنهجية على الأحداث اليومية ، وإنما مُساءلة الأنساق الفكرية التي أنتجت هذه الأحداث ، وجعلتها كيانًا مُتَشَطِّيًا في الطبيعة الزمنية والبيئة المكانية ، وأكسبتها صفة الديمومة والاستمرارية . وإذا كان مفهوم التاريخ يُقودنا إلى ماهية النظام ، فإنّ ماهية النظام تُقودنا إلى آليات صناعة الواقع ، وانعكاساته على فلسفة المنهج الاجتماعي المُرتبط بالحاضر ، باعتباره فضاءً إبداعياً لا فكرة تأنه في الخيال .

٢

الوعي بالتاريخ يُمثّل تاريخاً جديداً ، ومرجعياً لسلطة المعرفة . وتحليل التاريخ المُرتبط بالوعي والمعرفة سيُصبح ـ بشكل من الأشكال ـ نظاماً لإزالة الهيمنة على الأنساق الفكرية ، وكلّ نظام سينتج أدواته الخاصة به ، التي تعمل على ردّم الفجوة بين الأفكار كممارسة واعية ، والبنى المجتمعية كشرعية عقلانية . وهذه الأدوات تستطيع ـ اعتماداً على المعرفة واللغة ـ إعادة الخيال الذهني إلى العالم الواقعي ، بحيث يصير العقل الجمعي طريقاً إلى اكتشاف المجتمع بكُلّ تحولاته ، وليس طريقة للهروب من الأزمات الروحية والتحديات المادية . وطبيعته العقل الجمعي مُتجاوزة للتاريخ ، لأنها طبيعة مُتحرّرة غير محصورة في دوائر زمنية مُغلقة ، وغير خاضعة لقوالب فكرية جاهزة . وتجاوز التاريخ لا يعني السقوط في الفراغ ، بل يعني الانطلاق نحو فضاءات معرفية جديدة ، ومحاولة الوصول إلى أرض بكر لم تلوثها الأنماط الاستهلاكية المادية ، والتكنولوجيا المُتوحّشة المُضادة للقيم الأخلاقية .

التاريخ لَيْسَ ماضياً نُحاول استعادته، أو حُلماً نَسعى إلى الذهاب إليه. إنَّ التاريخ يتشكّل في أعماق الفرد، وتظهر آثاره على شخصيته الإنسانية . والإشكالية الفلسفية في البنية الوجودية للفرد، أنّه يبحث عن شرعية لحياته في الخارج، مع أنّها كامنة في داخله ، ويُحلّل تاريخ العناصر المُحيطة به ، ولا يدرك تاريخ نفسه التي بين جنبيه . وكلُّ تاريخٍ سواءً كان فردياً أو جماعياً سيُكوّن نظامه الفكري الخاص به ، وهذا يُؤدّي إلى فهم التاريخ ، باعتباره ولادةً فكرية مُستمرة ، وليس مُعطى ثابتاً ونهائياً وحاسماً ، وأيضاً ، باعتباره زمناً وجودياً مفتوحاً على الظواهر الثقافية والتجارب الحياتية والسلوك الإنساني. وإذا كان الوَعْيُ فاصلاً بين الخيال والواقع ، فإنَّ التاريخ فاصل بين الإبداع والاتباع . وهذا لا يعني إقامة قطعة مع الماضي بِحُجّة بناء الحاضر كجسدٍ مُكتمل بنفسه ، وكهدفٍ قائم بذاته، لأنَّ الزمن في الإطار النَّفسي (كيان الفرد) والإطار التاريخي (كيان العالم) يستمدّ معناه وجدواه من المعرفة واللغة . والمعرفة واللغة من أهم أسس شخصية الفرد الإنسانية ، ولا يُمكن للفرد أن يُقيم قطعة مع نفسه ، أو يخلع وجهه ، أو يُبدّل جلده .

إذا أصبح التاريخ زمناً مُتجمّداً ، أو فكرةً مُحنّطة ، فهذا يعني أنّ الفرد والمجتمع فَقَدَا القُدرة على معرفة حُدود البناء الاجتماعي ، وعَجَزَا عَنْ تَتَبُع آثار العقل الجمعي في البنى الوظيفية المُسيطرَة على الأحداث اليومية والسلوك الإنساني ، وهذا يُؤدّي إلى فَصْل الحقيقة الاجتماعية عن الرمزية اللغوية ، وتحوّل الواقع إلى عبءٍ ثَقِيل على كاهل الفرد ، وبالتالي ، يفقد المجتمعُ معاييرَه الأخلاقية ، ويُصبح غير قادر على تحقيق شروط وجود المعنى في المراحل التاريخية والظواهر الثقافية ، وهذا يجعل اللامعنى هو الهوية الوجودية المُتجسّدة في الفعل الاجتماعي العاجز عن التغيير . وحُضُور اللامعنى هو غيابُ التجانس في العلاقات الاجتماعية ، واختفاء القُدرة على تفسير الأنساق اللغوية الكامنة في تفاصيل المجتمع ، ممّا يدفع الفرد إلى الشعور بالاعترا ب ، والعجز عن حَمْل ثَراث الجماعة التي ينتمي إليها ، وعدم القُدرة على تحقيق أحلامها، ونقل هُويتها من الحاضر إلى المُستقبل . لذلك ، ينبغي على الفرد أن يتَّخذ من اللغة سلاحاً لحماية المعنى من الانكسار ، وحِراسة التاريخ من الانهيار .

*

الأنساق الثقافية ومعالج التراث الفكري

١

تحليل الأنساق الثقافية الحاكمة على العلاقات الاجتماعية ينبغي أن ينطلق من صيرورة التاريخ النابع من التراث الفكري ، بوصفه حلقة الوصل بين المعنى الجوهرى للوجود ، وشخصية الفرد بكل تحولاتها الذهنية وانعكاساتها الواقعية . والتراث الفكري ليس تراكماً آلياً لمصادر المعرفة الخاضعة لتقلبات الزمن ، واتجاهات السلطة ، والقناعات المنبثقة من العقل الجمعي ، وإنما هو تجميع واع وقصدي لقوانين التفكير العقلاني ، يوازن بين التاريخ ككائن حي ، والثقافة ككيان حضاري . والتراث الفكري ليس نظاماً اجتماعياً يؤسس لسيطرة التاريخ على العقل ، أو هيمنة الثقافة على التاريخ ، وإنما هو نظام معرفي عابر للثقافات في حركة التاريخ ، والتشظيات في الهوية الثقافية ، وهكذا يصبح المجتمع الإنساني فضاءً من التفكير ، يرمي إلى تحرير الفرد من الخوف ، وجعله مالكاً لمساره وقراراته ، ومُبشراً بولادة فلسفة جديدة ، تُعيد الفرد إلى الواقع ، ولا تجعله يهرب من الواقع. وكل فلسفة جديدة تُؤدّي بالضرورة إلى صناعة زمن جديد، لا يستغل شرعية الثقافة لتدجينها، ولا يؤسس بالتاريخ لإلغاء التاريخ ، وإنما ينقل الوعي إلى الماضي ، ويجعل الماضي وعياً قائماً بذاته ، وطريقاً إلى شرعية الحاضر والمستقبل . وكما أن شرعية المراحل التاريخية لا تنفصل عن ماضي الوعي والوعي بالماضي ، كذلك شرعية التراث الفكري لا تنفصل عن نقد الثقافة وثقافة النقد .

٢

الترابط بين المراحل التاريخية والتراث الفكري يُؤدّي إلى تجاوز الأوهام الكامنة في المسلّمات التاريخية المفروضة بفعل سلطة الأمر الواقع . ومفهوم التجاوز قائم على نفي الوعي الزائف وإثبات حرية التفكير . والوعي يظل شيئاً هلامياً ما لم يتحقق على أرض الواقع . وهذا يعني أن الوعي يحتاج إلى كينونة مادية وحاضرة شعبية ، كي يكمل النقص في العلاقات الاجتماعية ، ويُعيد حضور المعنى إلى الغياب المسيطر على الأنساق الثقافية ، من أجل تحرير الفرد من حالة الاغتراب (الشعور الذي يجعل الفرد غريباً عن ذاته ومُحيطه) ، وتخليص المجتمع من حالة الاستلاب (عجز المجتمع عن إيجاد هويته وذاته ، وضياعه في واقع غريب عنه) . وهذه الثنائية (تحرير الفرد / تخليص المجتمع) هي نتاج طبيعي ومُتَوَقَّع لعدم اكتمال الظواهر الثقافية، إذ إنها

ظواهر مفتوحة على جميع الاحتمالات ، وسَعِي الفرد إلى إكمال هذه الظواهر دليل على نَقْصِها ، لكنَّ الوَعْي بالتَقْص دليل على الكمال، كما أنَّ الوَعْي بالجهل دليل على العلم. والوَعْي بالمرَض هو الخطوة الأولى للعلاج .

٣

المجتمعُ شرعية لا تكتمل إلا بالتاريخ ، والتاريخُ مشروع لا يكتمل إلا بالوَعْي . والوَعْي يُؤلِّد في لحظته ، فهو ابنُ المُعطياتِ الإبداعية الجديدة ، وليس نتيجة حتمية للقيم المتوارثة . ومهمته الوَعْي هي تأسيسُ الزمنِ الجديد ، وتفعيلُ العقلِ النقدي ، وتصحيحُ مسارِ الفعل الاجتماعي ، من أجل تحقيقِ الترابط بين الأحداث اليومية وآليات تأويلها اللغوي، وتجاوزِ أشكال الضَّغطِ المتمركزة حول هُويَّة المجتمع ، والمتداخلة مع شخصية الفرد . وهذا من شأنه إيجاد منظومة معرفية قادرة على ربطِ النَّسق الاجتماعي بالنظام الأخلاقي ، ونقلِ اللغة من دور الوسيط إلى فضاء الإبداع ، ومن حيزِ الفعل إلى حُرِّيَّة الفاعل ، ومن أداة التواصل إلى آليَّة التأويل ، ومن التَّنظير إلى التغيير .

٤

لا معنى للعلاقات الاجتماعية خارج الأنساق الثقافية، ولا شرعية للأنساق الثقافية خارج المعايير الأخلاقية. وهذا يعني أنَّ المجتمع والثقافة والأخلاق كياناتٌ واحدٌ قائم بذاته، له سلطته الاعتبارية ، وهذه السلطة لا تنفصل عن الشروط التاريخية ، لأنَّ التاريخ يُطَوِّق الأفراد معنوياً ومادياً ، ولا يُمكن تطويقه . والتاريخُ كابوس يُطارِد من لا تاريخ له ، ويُحاصره من كُلِّ الجهات . والتاريخُ مجموعُ الأحداثِ اليومية لا الأحلامِ المنسيَّة ، وهذا يعني ضرورة تحويل المجتمع من تَجَمُّع للأفراد باعتبارهم أرقامًا ، إلى منظومة حاضنة للأفراد باعتبارهم فاعلين اجتماعيين ، وصُنَّاعًا للواقع والتاريخ . ولا يُمكن إحداث تغيير إيجابي في المجتمع ، إلا إذا تحوَّل الفرد من رَقْم إلى اسم ، ومن طَرَف إلى مركز ، ومن هاوية إلى هُويَّة ، ومن دلالة إلى دليل ، ومن رَدَّة فعل إلى فعل .

*

البناء الاجتماعي والبحث عن الحقيقة

١

تَنبُع أهمية الظواهر الثقافية في المجتمع من قُدرتها على توليد فلسفة أخلاقية تعمل على نقد السلوكيات الناتجة عن صناعة المُسلّمات الافتراضية ، وتجاوز الوُعي الزائف القائم على ابتكار اليقين المُصلحي ، الذي يَنبُج بِفعل سياسة الأمر الواقع بعيدًا عن قواعد المنهج العلمي . والإشكالية في البناء الاجتماعي تتجلى في اعتبار تراكُم الأفكار الزمَني معيارًا للحقيقة ، واعتبار تكاثر الأحداث التاريخي حُجَّة قائمة بذاتها . في حين أنَّ المعرفة القائمة على الأدلة المنطقية هي معيار الحقيقة، وليس الزَمن. وحُضور الأخلاق في العلاقات الاجتماعية هي الحُجَّة القائمة بذاتها ، وليس التاريخ . والزمن في تحولاته التاريخية وانعكاساته الجغرافية لا يمنح شرعية الوجود للإنسان، بل إنَّ الإنسان يمنح شرعية الوجود لِنَفْسِهِ إذا امتلَكَ عناصر الإبداع الفكري ، وساهم في إنقاذ مُجتمعه من الضغوطات النفسية والأزمات الحياتية . وإذا لم يكن الإنسان مُنقذًا للمعنى الوجودي من الأنظمة الاستهلاكية ، فهو سلعة استهلاكية فاقدة للإنسانية ، وعاجزة عن الحُضور الفعّال في الواقع المادي المُحسوس ، وغير قادرة على إيجاد رابطة عقلانية بين الذات والعالم . وإذا لم يكن الإنسان حارسًا للمُجتمع والطبيعة ، فهو عبء ثقيل على العلاقات الاجتماعية وعناصر الطبيعة . وهذا يُؤدّي إلى التَشطّي في الهوية الوجودية ، والتَمزّق في المَرَجية المعرفية .

٢

مَعنى العلاقات الاجتماعية لا يُولد في الفراغ ، ولا يتكوّن في العَدَم ، وإنما يُولد في النظام الرمزي اللغوي، ويتكوّن في المنظومة الأخلاقية المؤسسة على الوُعي الحقيقي ، والمؤسسة لأنساق المعرفة ، باعتبارها عناصر فاعلة في المُجتمع ، وليست عناصر خاضعة للفعل . والمعرفة إذا امتلكت الفاعلية في هوية المُجتمع ، فإنَّ الأفكار ستنتفع على فهم جديد للطبيعة واللغة ، وينشأ تاريخ جديد للإنسان بوصفه تجسيدًا للحُلُم والحضارة، وليس جسدًا خاضعًا لضياع الحُلُم وتمزّق الحضارة . وبالتالي ، يستعيد معنى الوجود حيويته في مُواجهة عملية الهروب إلى الماضي ، وتستعيد فلسفة التاريخ مركزيتها في الظواهر الثقافية ، بوصفها مشاريع للخلاص ، وتحرير الأحلام من قبضة التاريخ ، وتحويلها إلى رموز لغوية ، والعمل على تأويلها بما يضمن تحقيق المصلحة الفردية والجماعية ، ضمن زمن جديد يفتح الذاكرة الإنسانية على آفاق جديدة .

البحث عن الحقيقة لن يُصبح نشاطاً فلسفياً واقعياً ، إلا إذا امتلكت الذاكرة الإنسانية أدوات المنهج الاجتماعي وآليات التأويل اللغوي . والوعي بالحقيقة لا يكمن فيها ، وإنما في الطريق إليها ، لأن الوعي وسيلة لا غاية، كما أن الطريق إلى البيت ليس هو البيت. والوعي يكشف جوهر الذات، وماهية التاريخ، ولا يخترعهما. والوعي ينقل النظام الرمزي اللغوي من بنية السلطة إلى فضاء المعنى، لكن الوعي لا يخترع المعنى ، لأن معاني الأشياء سابقة على الوعي بها . وعلى الرغم من أن الحقيقة تمتلك هويتها الذاتية وسلطانها التاريخية ومرجعيتها الأخلاقية، إلا أنها تظل مُفتقرة إلى اللغة، لأن اللغة هي الجهة التي تمنح الشرعية للحقيقة، ولا تستطيع الحقيقة أن تتكسّر كنسق معرفي ونظام حياتي وظاهرة ثقافية إلا ضمن فضاء اللغة . ولا يخفى أن لغة الحقيقة تختلف عن حقيقة اللغة ، وأيضاً ، هناك فرق واضح بين تاريخ اللغة واللغة .

الظواهر الثقافية هي قواعد البناء الاجتماعي ، وهذه القواعد ليست مُتعلية على الواقع ، وإنما هي صناعة لواقع جديد على تماس مباشر مع فلسفة الذات والموضوع (المنظومة الفكرية المكوّنة من الإنسان وعلاقاته الاجتماعية ، والمكوّنة لمستويات الوعي التي تعمل على تشخيص الحاضر ، وليس الهروب إلى الماضي) . والبناء الاجتماعي المتناسك لا يعني تكوين رؤية واحدة وموحدة لعناصر المجتمع ، وإنما يعني فتح فضاء الفكر الإنساني على كل الاحتمالات والاجتهادات ، وتوظيفها من أجل رؤية مشكلات المجتمع من كل الزوايا، وإيجاد حلول عملية لها في ضوء التنوع والتعدد ، وليس الفوضى والتناحر . والحلول إذا تعددت تركزت . وهذا يحمي المجتمع من الانغلاق على ذاته ، والتقفؤ على تاريخه . والجدير بالذكر أن العلاقات الاجتماعية هي صناعة وابتكار ، بقدر ما هي تفكير وتأويل ، وهذا يعني أن الفكر لا ينفصل عن امتداده في الذهن والواقع ، وأن المنهج الاجتماعي لا ينفصل عن المرجعية الفكرية . والتغيير الإيجابي لا يتكسّر — نظاماً ومنظومةً — إلا إذا تحرّر الفكر من قيود الأحكام المسبقة ، وتمّ فهم عناصر المجتمع كما هي على الأرض ، وليس كما يُراد لها أن تكون في الذهن. ومهمة الحقيقة تتجلى في نقل المعنى اللغوي من الفعل الإنساني إلى البناء الاجتماعي، ومهمة البناء الاجتماعي تتجلى في نقل الظواهر الثقافية من تأصيل روح الإبداع إلى تأسيس تغيير الواقع .

إنسانية الفرد والفعل الاجتماعي

١

مركزية الوعي في الروابط الاجتماعية مُرتبطة بالتحوُّلات التاريخية التي تُساهم في تطوير الأنساق الثقافية، وتوظيفها في إفرازات الفعل الاجتماعي القائم على العقلانية ، التي تُمثِّل الأساسَ لشرعية وجود الفرد في المجتمع ، وتُشكِّل القاعدة التي تقوم عليها العلاقة المتبادلة بين الهوية المعرفية والماهية الأخلاقية . وإذا تمَّ تحليلُ هذه العلاقة في ضوء المعنى الذي يُسقطه الفرد على كينونته ، فإنَّ الفعل الاجتماعي سيكشف معالمَ نقطة الالتقاء بين السلوك الإنساني والرمزية اللغوية ، ممَّا يُساهم في تفسير خصائص المجتمع المُتحرِّرة من النماذج الجاهزة لسلطة التاريخ ، والحالات الشعورية البعيدة عن الواقع . والواقع ليس مفهوماً مُجرِّداً ، أو انعكاساً ميكانيكياً للفعل الاجتماعي، وإنما هو كيان يُزيل العوائق بين الوسائل والغايات ، ويحوِّل الوعي إلى أداة فاعلة لتحليل الوقائع التاريخية والأحداث اليومية ، ويكرِّس آليات التأويل اللغوي لنقل المعنى من الفعل إلى الفاعلية ، ويُحدِّد الخطوط الفاصلة بين المصلحة العامة والمنفعة الشخصية .

٢

المُشكلة الفلسفية في القيم الحياتية تتجلى في ابتعاد الفرد عن الفطرة ، وابتعاد المجتمع عن البراءة ، وابتعاد اللغة عن البكارة ، وهذه المُشكلة الفلسفية تُصير حاجزاً نفسياً بين الفرد وإنسانيته ، وتمنعه من العودة إلى طبيعته وتلقائيته ، لذلك يسقط في فخ الاغتراب ، ويقع ضحيةً للمُسلّمات الافتراضية العاجزة عن توليد تيارات فكرية إبداعية . وبما أنَّ الفرد هو حامل اللغة ، ومُفجِّر طاقتها الرمزية ، والقوَّة الدافعة للمجتمع ، فإنَّ عبء الخلاص وثقل المسؤولية يقعان على كاهله ، وهو في سباق مع الزمن ، للتحرُّر من غربة الروح ومنفى الجسد ، واختراع زمن جديد يقوم على المواءمة بين عناصر الخيال وقيم الواقع ، التي تفرض سيادتها على إنسانية الفرد ، باعتبارها نسقاً معنوياً ، وجَوْهراً أخلاقياً ، وتصوّراً وجودياً ، واتِّجَاهاً مادياً . وإنسانية الفرد ليست تجميعاً للأضداد والتناقضات ، وإنما هي فضاء معرفي قادر على إعادة صياغة المفاهيم الحاكمة على مسار المجتمع ، والمفاهيم لا تُقوم بذاتها ، وإنما هي بحاجة إلى كيان المجتمع كي تقوم به وفيه ، وتنعكس عليه ، تماماً كما يحتاج الفرد إلى المرأة كي يرى صورته فيها ، وتنعكس ملامحه عليها . وأيضاً ، إنَّ المفاهيم لا تظهر حقيقتها في طريق الفرد أثناء ممارسته للفعل الاجتماعي،

وإنما تظهر في طريقة توظيف المفاهيم داخل الأنساق الثقافية ، وكيفية استخدام المفاهيم لحماية الحاضر من الهروب إلى الماضي .

٣

ممارسة الفرد للفعل الاجتماعي تعني ممارسة السلطة على الأنساق الثقافية ، لأنَّ النسق الثقافي هو الابن الشرعي للبناء الاجتماعي . ولا يوجد فعل بدون فاعل ، ولا يوجد فاعل بدون سلطة . وهذا التشابك المعرفي بين المجتمع والثقافة يَبْنِي تصوُّرات جديدة للوجود بأكمله، وبالتالي تَبْنِي تفسيرات جديدة للتحوُّلات التاريخية، لذلك سيظلُّ التاريخ نظامًا مفتوحًا على التأويلات اللغوية والتفسيرات الثقافية ، ولا يمكن أن يُصبح التاريخ جزءًا من الماضي ، أو دائرة مُغلقة على ذاتها ، أو جسدًا مُحَنَظًا في النسيان . إنَّ التاريخ يُولَد باستمرار ، ويُنتج سلطة الخطاب المعرفي الخاصة به في كُلِّ زمان ومكان . وهذه الولادة المُستمرة تُكشِف علاقات القوة في المجتمع وعناصر الطاقة في اللغة . وعملية الاندماج بين قُوَّة المجتمع وطاقة اللغة تُكوِّن فلسفة التاريخ ، التي تعني ممارسة التاريخ لا استعادته .

٤

معرفة الفرد لذاته بذاته هي الخطوة الأولى لتحليل الفعل الاجتماعي في سياق التحوُّلات التاريخية ، لأنَّ الفرد هو الفاعل المُختار الذي ينطلق من ذاته نَحْو الفعل ، وهذه القَصْدِيَّة (النية المُبَيَّنة القائمة على الوَعْي والمندمجة بالشُّعور والساعية إلى الممارسة) هي القاسم المُشترك بين الفاعل والفعل والتاريخ . وتَحَرُّرُ الفاعل من القَوْضِي يصنع التَّكامل في الفعل الاجتماعي مَعْنَى وَمَبْنَى ، وتَحَرُّرُ الفعل الاجتماعي من العبث يصنع التجانس في التاريخ شكلاً وموضوعاً . وهذا التَحَرُّرُ المُزدَوِّجُ قادرٌ على التمييز بين الصراع في التاريخ والصراع على التاريخ، والتفريق بين الأفكار الموجودة في الفعل الاجتماعي ، وفلسفة الفاعل عندما مارسَ الفعل الاجتماعي في المجتمع والتاريخ . وإذا انتقلت المعايير الأخلاقية من كينونة المجتمع الحي إلى حياة التاريخ باعتباره كائناً حياً في الوعي والواقع، فإنَّ إنسانية الفرد ستتحَرَّر من النظام الاستهلاكي الضاغط على الأحداث اليومية والتأويلات اللغوية، فيَزُول الحاجزُ النَّفْسِيُّ بين التاريخ والتأويل . وإذا تَكَرَّست التجاربُ الحياتيةُ كآثار إبداعية في التاريخ ، فإنَّ إنسانية الفرد ستَصير علامةً مُضيئةً في الثقافة ، بوصفها التاريخ الرمزي الذي يَسْتَطِيع مَنَع الحضارة المادية من تحطيم الإنسانية وتدمير الطبيعة وتهميش اللغة .

الظواهر الثقافية وسلطة المجتمع في التاريخ واللغة

١

التَّسَقُّ التاريخي في البنية الاجتماعية ليس تأريخًا لشعور الفرد بالحقيقة ، أو تسجيلًا لتفاصيل حركته في الزمان والمكان ، وإنما هو منهج حياتي يشتمل على الأدوات المعرفية ، وآليات تحليل سلطة المجتمع على الأحداث اليومية ، وطُرُق تفكيك الوقائع التاريخية، بحيث تُستعاد العناصر الفكرية المنسية ، وتُسترجع الأحلام الإنسانية المُهمَّشة ، وتُبَعَث الأصوات المَكبوتة داخل الفرد وداخل المجتمع . وإذا كان إنتاج المعرفة هو الخطوة الأولى لتحرير الفعل الاجتماعي من الأدلجة المصلحية المُغرِصة، فإن صياغة الوعي هي الخطوة الأولى لتحرير الذاكرة الإنسانية من الوهم المؤسَّس على سياسة الأمر الواقع. والذاكرة الإنسانية عندما تُصبح طريقًا للحرية ، وطريقة للتحرُّر، فإن المجتمع سيملك القدرة على قراءة التاريخ من الداخل ، وانتشال الأحلام الإنسانية من أعماق التاريخ السحيقة . وهذه العملية ضرورية لتجديد الخطاب اللغوي في تحليله للوقائع التاريخية ، وتجديد الخطاب التاريخي في تحليله للرمزية اللغوية . والتاريخ واللغة يُشكِّلان القاعدة الحاملة للتراث الثقافي باعتباره وعيًا مُتجددًا في كافة الحقول المعرفية ، وسلطة تأويلية في صيرورة المعنى وحركة الفرد في الحضارة بوصفه صانعًا للفعل الاجتماعي ، ومُنْتِجًا لفلسفة العلاقات الاجتماعية في التَشَطُّيات الفردية والجماعية داخل مُكوِّنات المجتمع الإنساني .

٢

وظيفة الظواهر الثقافية هي البحث عن تأثير سلطة المجتمع في التاريخ واللغة ، ومُلاحقة آثار الوعي الإنساني في الأشياء والأفكار . وإذا كان التاريخ يملك كيانًا ذاتيًا مُنْعَكِسًا عن مُفردات اللغة ومعانيها ، فإن اللغة تملك هويَّة شخصية نابعة من قوانين التاريخ المعرفية. وهذا يعني استحالة فصل التاريخ عن اللغة ، ويدلُّ على أنَّ التاريخ يتحرَّك في فضاء اللغة أفقيًا وعموديًا ، ويُشير إلى أنَّ اللغة تكتسب دلالاتها المجازية والواقعية من فلسفة التاريخ التي تتجلى في الزمان والمكان. وكلُّ محاولة لفصل بين التاريخ واللغة ستَبْوء بالفشل ، لأنها _ في واقع الأمر _ تعني محاولة إقامة قطيعة بين السلطة والمعرفة . وهذا النظام التراتبي الذي يتكوَّن من التاريخ واللغة من جهة ، والسلطة والمعرفة من جهة أخرى ، لا يُمكن فصل مُكوِّناته ، لأنَّه نظام واحد ، وقائم على توحيد عناصر المجتمع الروحية والمادية . ووجود ثنائية التاريخ واللغة يَحْمِي شخصية الفرد

الإنسانية من التَّفَجُّرِ مِنَ الدَّاخل ، ووجودُ ثنائيةِ السُّلْطةِ والمعرفةِ يَحْمِي حُلْمَ الجماعةِ المصريِ من التَّمَرُّقِ ، والتَّحَوُّلِ إلى شظايا خاضعة للصراع بين الذات والموضوع . إِنَّ التاريخ واللغة يُحافظان على كِيان الفرد ، والسُّلْطةِ والمعرفة تُحافظان على كينونة الجماعة . وكيان الفرد وكونه الجماعة يُساهمان في رسم معالم الوجود الإنساني .

٣

لا يُمكن الفصل بين كِيان الفرد الحامل لمصير المُجتمع ، والظواهر الثقافية الحاملة للأفكار الجوهرية والهوية الإبداعية . وإعادةُ الإنسانية الغائبة إلى الحُضور في أنساق البنية الاجتماعية ، لا تتم إلا باعتماد أسبقية الفكر على الواقع كمنظومة وجودية تمنح الفرد دوراً فاعلاً في معنى التاريخ وتاريخ المعنى ، ممّا يُؤدِّي إلى صناعة الحدث اليومي الذي يتفاعل مع الزمان كحقل معرفي ، ويتفاعل مع المكان كإرادة للحقيقة . وهذا يُعزِّز الوعي بالذات والجوهر والهوية . وعندما يعود الفرد إلى الأفكار الكامنة في أعماقه ، يُدرك الحاجة إلى تطوير أنظمة لغوية قادرة على تحليل كَيْفِيَّةِ تَكُونِ المفاهيم ، وتأويلها ضمن مراكز الفعل الاجتماعي وهوامشه ، وتوظيف المراكز والهوامش للوصول إلى الحقيقة . والهدف من الحقيقة هو تحديد السِّياقات الاجتماعية التي تَحَوَّل فيها الوعي بالتاريخ إلى سُلْطة قائمة بذاتها ، وهذا من شأنه فَضُّ الاشتباك الفكري بين الصراع في التاريخ ، والصراع على التاريخ . وبعبارة أُخرى ، فَصْلُ البنية الوظيفية في التاريخ عن المصلحة الشخصية في التاريخ . وهذه العملية تُبنى على رمزية اللغة ، بوصفها الفلسفة الحياتية المُعاشة التي تربط النظرية بالممارسة .

*

وظيفة الفلسفة في الروابط الإنسانية والحرّك الاجتماعي

١

الروابط الإنسانية لا تتشكّل اعتمادًا على بُنية الهيمنة الاجتماعية ، ومنهجية القهر الحياتي ، ومنطق القوة التاريخية ، وأسلوب القمع الروحي ، ونمط الكبت الجسدي . وإنما تتشكّل اعتمادًا على الوعي المُستمد من تفاصيل الحياة اليومية ، التي تُبنى جسماً ثقافياً مُستمرّاً لا يتنكّر لأحلام الفرد ، وتؤسّس جغرافيا معرفية مُتجددة لا تتعارض مع طُموحات الجماعة ، ممّا يُؤدّي إلى تكريس النّزعات الإنسانية في كيان الحضارة ، وتخليصها من قيم التّوَحُّش . وهذا من شأنه ترسيخ علاقة مُتوازنة بين الحرية الفردية وسلطة المجتمع ، وتشبيهُ البناء الاجتماعي على التجارب الروحية والخبرات المادية ، ممّا يكشف نِقَاطَ الاتصال والانفصال في أنساق الفكر ومراحل التاريخ . والمنظومة الثنائية المُتكوّنة من النسق الفكري والمرحلة التاريخية ، تُمثّل إطاراً زمنياً يُحدّد مظاهر القوة في المعرفة ، ويُعيد تشكيل المعرفة بحيث تُصبح تراكُماً واعياً للشّعور والأحلام والذكريات ، وليس تجميعاً ميكانيكياً لِرُكّام النظريات والفرضيات . وهذا التّراكم الواعي يُنتج تاريخه الخاص الذي يتقدّم إلى الأمام ، وذلك بإعادة ترتيب الأحداث اليومية وفق منطق اللغة التحليلي ، من أجل تفسير الماضي والحاضر باعتبارهما وجهًا واحدًا للمستقبل الذي لا يقبل الأفتعة .

٢

إذا أرادَ الفردُ إيجادَ مكان له في المُستقبل ، فلا بدُّ أن يُوحّد عناصرَ الزمان في ذهنه وجسده ، بحيث يصير الحرّك الاجتماعي تزاوُجاً بين الماضي والحاضر ، فهما مُتكاملان معنًى ومبنى . وإذا شَعَرَ الفردُ بأنَّ الماضي والحاضر نقيضان لا يجتمعان ، أو ضِدَّان لا يلتقيان ، فقد سَقَطَ في الفخ القاتل ضمن مَتَاهة الحضارة الاستهلاكية . وهذا السُّقُوطُ بِمَنَابَةِ حَاجِزِ نَفْسِي بين الأحداث اليومية وطُرُق تفسيرها ، وبالتالي يَعْجز الفردُ عن ابتكار نظام فلسفي للأشياء والعناصر . والفلسفة القائمة على الشّعور المنطقي والإدراك المادي ، لا تَحْرِصُ على الجديد باعتباره مُوضة فكرية وبَلاغة خَطّائية ، وإنما تَحْرِصُ على إعادة تفسير الأشياء البسيطة ، وإعادة تأويل الأمور العادية . وأكبرُ تهديد للفلسفة هو التّعوُّد على الأشياء ، لأنّه يَمْنَعُ رؤية الأشياء على حقيقتها ، ويسلُب قيمَتَها وجَمَالَهَا . ولا يُمكن للمُجتمع أن يُؤسّس منظومته الحضارية إلا باستنباط فلسفة غير عادية من الأشياء العادية . والأشياء البسيطة تحتوي على أفكار إبداعية مُذهلة ، كما أن التُّراب يحتوي على

الذهب . وبشكل عام، إنّ الفلسفة الحقيقية هي منظومة الدوافع الخفية التي تكمن وراء الأشياء، وتختبئ خلف العناصر .

٣

وظيفة الفلسفة في الروابط الإنسانية والحراك الاجتماعي هي دمج الأشكال التاريخية مع سياقاتها المعرفية، وتفسير الآليات اللغوية المسيطرة على الأنظمة الداخلية للمجتمع ، وتشخيص السياسات الفردية والجماعية ضمن الثقافة الاستهلاكية ، وتثبيت شخصية الفرد الإنسانية في الأحداث اليومية كفاعل أساسي ، وليس ردّة فعل هامشية ، ممّا يساهم في اكتشاف المعنى الوجودي لإفرازات اللغة في الحياة ، وتحليل انعكاسات التاريخ في كينونة الزمان وجسد المكان ، وفحص تأثيرات الحضارة في الظواهر الثقافية والأنساق الفكرية والمعايير الأخلاقية، وإظهار الأبعاد الروحية والجمالية للوجود الإنساني . وكلّ هذه القضايا مُجتمعة ستدفع باتجاه تحقيق تغييرات جوهرية في العلاقات الاجتماعية ، وتحقيق التوازن بين رمزية اللغة وفاعليّة المجتمع ، من أجل إنتاج أفكار قادرة على التغيير الواقعي . وكلّما تكرّست الأسئلة المصيرية داخل اللغة ، تجذّرت الدوافع الإبداعية داخل المجتمع ، وهذا يعني أن التحوّلات الفكرية ستؤول إلى أحداث واقعية ، وهذه العملية مُترامنة مع تفجير الطاقة الرمزية في اللغة ، وتوليد مصادر المعرفة الكامنة في شخصية الفرد الإنسانية . وانبعاث اللغة هو تحرُّر الذات، وتحرير المعنى. وانبعاث المعرفة هو فتح الفضاءات، وفتح العقول. وإذا كانت اللغة هي القوة الرافعة للوجود الإنساني ، فإنّ المعرفة هي السلطة التي تفرض الوعي الحقيقي لا الزائف ، في الحضارة الإنسانية والتاريخ الحضاري . وقوّة اللغة وسلطة المعرفة تُشكّلان معاً مركزية الفعل الاجتماعي ، وتحميان العلاقات الاجتماعية من التحوّل إلى أنظمة ميكانيكية وسلع استهلاكية خاضعة لقانون العرض والطلب .

*

الخصائص الفلسفية للبناء الاجتماعي

١

العلاقات الاجتماعية تُمثّل فلسفةً حياتيةً قائمة بذاتها ، تعتمد على أسلوب التحليل اللغوي ، وإيقاع الحياة اليومية. واندماج الأسلوب مع الإيقاع يُولّد تصوّرًا وجوديًا مُشترَكًا للمجتمع ، ممّا يدفع شخصية الفرد الإنسانية إلى إعادة تجميع شظاياها وتشكيل شتاتها. وكُلّ حركةٍ تصحيحية لمسار الفرد في الحياة تُقابِلها ثورة تأويلية في اللغة ، وهذا يُنتج منطقًا جديدًا للمعنى الإنساني في التاريخ والحضارة . والمعنى الإنساني ليس طريقًا واحدًا ، وإنما هو طُرُقَاتٌ مُتَشَعِّبَةٌ في سُلطة المصادر المعرفية، ومساراتٍ مُتَشَطِّبَةٍ في طبيعة الخُلم الاجتماعي المُتداخِل مع الرؤية الفلسفية للأشياء الكامنة في أعماق الفرد، والمُتماهي مع الأحداث الحياتية الناتجة عن طريقة تفسير الفرد للتاريخ ، وانعكاس التاريخ على الأنساق الثقافية الحاكمة على سلوك الفرد ، والمحكومة بالمرجعية الأخلاقية للفعل الاجتماعي . وإذا كانت الثقافة لا تنفصل عن الأخلاق ، فإنّ آليّات التأويل اللغوي لا تنفصل عن ممارسة المجتمع لسلطته على الفرد وعناصر البيئة المعيشية . وفي اللغة لا يوجد مركز يُمكن السَّيطرة عليه ، لأنّ المراكز والأطراف تنصهر معًا في بَوتَقَةِ التجربة اللغوية وحرارة التعبير عن الذات وصراعاتها . وفي المجتمع لا يوجد معيار يُمكن من خلاله تفسير الوقائع التاريخية والأحداث اليومية ، لأنّ المعايير والقيَم ذات طبيعة نسبية ، ومُختَلِطَةٌ بالمصالح العامّة والمنافع الخاصّة، والفرد يُطوّر مصلحته باتجاه العنصر الأقوى في المجتمع، كما أنّ المجتمع يُطوّر مصلحته باتجاه الظواهر الثقافية الأشد تأثيرًا في أنظمة الفكر التاريخية والحضارية .

٢

البناء الاجتماعي هو جُغرافيا الوجود وتاريخ الخُلم ، وهو الكُنْثَلَةُ الفلسفية الحاضنة للتراث . وإذا أردنا فهم هذا التراث، وإدراك نقاط الاتصال والانفصال في مساره ومَاهِيَّتِهِ، فلا بُدَّ من فهم الدور التاريخي للظواهر الثقافية، ومعرفة حُدود مصادر المعرفة ، وتحديد الشُّروط الصُّرورية لاستخدام الأفكار الإبداعية ، ودمج الزمان الذي تُولّد فيه أحلام الفرد مع المكان الذي يحتضن شرعية المجتمع وطموحاته. وهذه القضايا مُجتمعَةٌ تُشكّل قاعدةً صُلْبَةً لربط الأحداث اليومية مع الفلسفة الحياتية الناتجة عنها ، وربط الوقائع التاريخية مع آليّات التأويل اللغوي . وإذا كانت الحياة تمنح شرعيةً لميلاد الفرد في الزمان والمكان ، فإنّ اللغة تمنح شرعيةً للمرجعية الفكرية

للفرد في الوُعي والإدراك . وهاتان الشَّرْعِيَّتَانِ تُحَرِّرانِ الفردَ من ضَغْطِ الأنساق الاستهلاكية ، فَيَمْتَلِكُ القُدْرَةَ على تجاوز ذاته ، وإعادة صناعتها ضمن السِّياق المعرفي للمُجتمع ، الأمر الذي يجعل الفردَ كائنًا حُرًّا ، وَلَبِنَةً في البناء الاجتماعي ، وليس مِعْوَلَ هَدْمٍ . وَحُرِّيَّةُ الفردِ تَعْنِي حُرِّيَّةَ المُجتمعِ ، لأنَّ الجزءَ حامل للخصائص الوجودية للكلِّ . وَالْحُرِّيَّةُ _ فردِيًّا ومُجتمعيًّا _ لا تتحقَّقُ على أرض الواقع ، إلا بالعودة إلى اللغة من أجل إيجاد التاريخ ، والعودة إلى التاريخ من أجل إيجاد الوُجود .

٣

وَعُيُ الفرد بذاته وموضوعات حياته يتجَلَّى في إدراكه لماهية العلاقات الاجتماعية وطبيعة البناء الاجتماعي، وإدراكه لكيفية توظيف الرابطة بين السُّلطة والمعرفة في الظواهر الثقافية التي تُمثِّل امتدادًا مُباشرًا لِحَدُوى التأويل اللغوي ، يوصِّفه فلسفة واقعية وأسلوبًا للعيش ، وليس بحثًا نظريًا عن علاقة اللغة بالفرد والمُجتمع . وهكذا يُصبح الواقعُ جَوْهرًا حيًّا في داخل الفرد ، وليس بيئةً خارجيةً ضاغطةً عليه . وهذا يجعل الفردَ لا يعود إلى التاريخ ، وإنما يعيش التاريخَ في الحاضر دون أن يغرق فيهما . وفي النظام الفلسفي للظواهر الثقافية لا يُوجد زمان يَبْحَثُ عنه الفردُ، لأن فلسفة الثقافة قائمة على ابتكار أزمنة جديدة ضمن صيرورة التاريخ وقيم الإبداع ، ممَّا يُساهم في تكوين هَيْكل مفاهيمي للذات والآخر والبيئة والطبيعة ، ودفع سُلطة المعرفة باتِّجاه إنتاج معايير أخلاقية تُضبطُ الفِعلَ الاجتماعي ، وتُحوِّله إلى أداة لتنقية حياة الفرد من الوُعي الزائف ، وتطهير المُجتمع من تَضارُبِ المصالح وصِراعات مراكز القُوى ، وتحقيق الاتِّزان بين الهُويَّات ، والتوازن بين الطُّموحات ، من أجل التَّهَوُّسِ بالمُجتمع . وإذا حدث تصادم بين مُكوِّنات المُجتمع فَلَن يَقْدِرَ على الانطلاق في فضاء الإبداع . ولا شكَّ أنَّه إذا حَدَثَ تعارض بين عمل الجَنَاحَيْنِ ، فَلَن يَقْدِرَ الطائرُ على الطَّيَرانِ ، وبالتالي يَكُونُ قد دَفَنَ نَفْسَهُ في الحياة بلا أمل في الحياة .



العوامل الحضارية ومركزية الفعل الاجتماعي

١

شرعية العلاقات الاجتماعية مُستمدة من قدرة المجتمع على تطهير الأنساق الثقافية من الوُعي الزائف، وصناعة عوامل حضارية تُساهم في التنقيب عن مصادر المعرفة في جسد اللغة الحي، والتفتيش عن التجسيدات الرمزية لهوية الفعل الاجتماعي، وسلطة التاريخ الحضاري، وكيان المعنى الوجودي. والمهمة الأساسية للأنساق الثقافية تتجلى في كشف الرابطة المتبادلة بين المعايير الأخلاقية والسلوكيات الإنسانية، وهذا من شأنه إعادة تفسير الفعل الاجتماعي فرديًا وجماعيًا. وعملية التفسير مُرتبطة بدوافع الفرد الكامنة في الأحداث اليومية، ومُتعلقة بطُموحات الجماعة النابعة من أمجاد الماضي. وإذا كان التاريخ فعلًا اجتماعيًا متواصلًا في إفرازات العقل الجمعي، فإن الواقع المُعاش هو السياق الحاضن لفلسفة اللغة التي تجعل الفعل الاجتماعي مشروعًا مُستمرًا من أجل الخلاص. وكلُّ فعل لا ينفصل عن مصلحة الفاعل، والفعل والمصلحة مُتلازمان، وهما يدوران مع الوُعي وجودًا وعدمًا، وإثباتًا ونفيًا. وإذا كانت المصلحة تجعل الفعل طريقًا لاكتشاف العناصر الإبداعية في الأشياء العادية، فإن الفعل يجعل المصلحة طريقة لتوليد الأنماط الحياتية من مصادر المعرفة. وهذه المصلحة لَيْسَتْ فكرة مُجردة، وإنما هي محاولة لإضفاء المعنى الوجودي على هوية البناء الاجتماعي باعتباره السَّجَلِي البارز للوقائع التاريخية، وإضفاء الشرعية الأخلاقية على سلطة التأويل اللغوي باعتبارها الانعكاس الواضح للشعور القصدي

٢

مركزية الفعل الاجتماعي في الوُعي الحقيقي والشعور القصدي، تُمثل نقطة التوازن بين النظام اللغوي الذي يتكوّن من أدوات التفكير وآليات التأويل، وبين النظام المعرفي الذي يتكوّن من وسائل التفكير وغايات التنمية. وهذان النظامان قائمان على كينونة التاريخ الذي يُعاد تشكيله باستمرار، ليس بوصفه ماضيًا مَضَى، بل بوصفه عملية تَطوير للأنساق الثقافية، وتحرير لرمزية اللغة من قبضة المُسلّمات الافتراضية، وتخليص لشخصية الفرد الإنسانية من الأزمة الروحية والضغط المادي، وتنقية للخيال الإبداعي من تسليع العلاقات الاجتماعية. والتاريخ الحقيقي هو الذي ينبعث في فلسفة الفرد الحياتية، وليس الذي يُحاصرها ويُفرغها من معناها وجدواها. والوُعي الحقيقي هو الذي يُطهر الأشياء والأفكار من التَّوَحُّش الكامن في الأنظمة الاستهلاكية الصاعقة على السلطة الاعتبارية للفرد والجماعة. وإعادة فَحص مُكوّنات التاريخ وتراكيب الوُعي، وفصل

الحقائق عن الأوهام ، وتمييز الوقائع عن الأحلام ، تُعتبر صناعةً جديدةً للتاريخ في إطار الوعي الحقيقي لا الزائف ، مما يمنع سياسة الأمر الواقع من تقديم الأحلام الإنسانية كبضاعة خاضعة لقانون العرض والطلب ، ويمنع وهم الخلاص الفردي من تقديم العلاقات الاجتماعية كسلع خاضعة لأدوات السيطرة وآليات الهيمنة .

٣

الفعل الاجتماعي هو السياق الحضاري الناتج عن اجتماع العامل النفسي والعامل اللغوي في شخصية الفرد وسلطة الجماعة . وشخصية الفرد لا تتجذر في الأنساق الثقافية إلا بتحقيق الوعي بالذات وعناصر البيئة المحيطة ، وسلطة الجماعة لا تتكرس في السلوكيات الإنسانية إلا بدمج هوية الفرد مع كينونة المجتمع . وكل هذه المركبات ينبغي صهرها في بوتقة معرفية واحدة لتشكيل تاريخ جديد يكون عنصر إبداع عابراً للمراحل والحدود والتجنيس ، وليس استجابة مجردة للزمان والمكان . والتاريخ والمجتمع يمتازان بالحركة أفقياً وعمودياً ، لكن الفرق بينهما هو أن حركة التاريخ تتعلق باستخدام الماضي كأداة لصناعة الوعي بالحاضر ، في حين أن حركة المجتمع تتعلق باستخدام اللغة كأداة لتشكيل شخصية الفرد . وهاتان الحركتان تعملان على دمج النفعية والعقلانية في الواقع المعاش ، مما يساهم في حماية العلاقات الاجتماعية والأنساق الثقافية من التناقض وتضارب المصالح ، وحماية الطبيعة الوظيفية للفرد والجماعة من الاغتراب ذهنياً ولغوياً . وكل مرحلة زمنية لها روحها الخاصة بها نظرياً وتطبيقياً ، وكل طبيعة مكانية لها إيقاعها الخاص بها روحياً ومادياً .

٤

العوامل الحضارية التي تشكل التاريخ والمجتمع ، وتؤسس مركزية الفعل الاجتماعي فيهما ، لا يمكن فهمها إلا في سياق تصور الفرد والجماعة للوجود ، ولا يمكن توظيفها إلا ضمن التسلسل المنطقي للأحداث اليومية ، الذي يُربل الوهم الفكري والسحر اللغوي ، فلا يعود هناك وهم ينتج مُسلّمات افتراضية ويُتاجر بها ، ولا يعود هناك سحر لينقلب على الساحر . وخُطورة الوهم الفكري والسحر اللغوي تكمن في جعل المجتمع عاجزاً عن التفكير خارج الصندوق ، ومنقياً في اللغة ، ومسجوناً في التاريخ ، ومنفصلاً عن العالم ، مما يؤدي إلى تآكل المجتمع سطحياً ، وانهياره داخلياً ، وانتحاره تدريجياً . وانكسار المجتمع يعني عجز الفرد عن التخيل والإبداع والنهضة ، وهذه الأركان الثلاثة تُشكل قاعدة بناء التاريخ والحضارة .

فلسفة التاريخ وهويّة الزمن

١

الظواهر الثقافية في المجتمع الإنساني لَيْسَتْ آثَارًا عابرةً في جسد الحضارة ، أو علاماتٍ سطحية في فلسفة التاريخ. إنّها ظواهر مركزية تُعيد صِناعة الأفكار ، وتوظيفها في مصادر المعرفة، ممّا يُؤدّي إلى تحويل الفعل الاجتماعي إلى ميدان فكري ذهنيّ وماديّ، يَسْتَطِيع إنتاج لغة مُشتركة بين التاريخ والحضارة ضمن منظومة الحقوق والواجبات ، بعيدًا عن منطق القوّة الذي يفرض على أنساق الحياة فكرة أنّ المُنتصر هو الذي يكتب التاريخ ويصنع الحضارة ، وبالتالي يبتكر آليات الهيمنة على العقل الجمعي ، ويخترع أدوات السيطرة على المعنى اللغوي ، ويكرّس وصايته على النظام الأخلاقي . إنّ التاريخ لَيْسَ مشروعًا تجاريًا خاضعًا لسياسة العرض والطلب، والحضارة لَيْسَتْ سُلالةً عائليّةً خاضعةً لرابطة الدّم والولاء للقبيلة. وهاتان الحقيقتان تفتحان العلاقات الاجتماعية على كافّة الاحتمالات ، وكلُّ احتمال يُمثّل تغييرًا جذريًا في طريقة تفكير الفرد ، وثورةً منهجيةً في بنية التأويل اللغوي. لذلك لا يُمكن احتكار التاريخ والحضارة وتدجينهما مَهْمَا كان المُنتصر قويًا وذكيًا .

٢

العلاقة بين رمزية اللغة وماهيّة الفرد وكيّونه الواقع ، لَيْسَتْ انعكاسًا ميكانيكيًا للحقيقة الاجتماعية ، وإنّما هي حقيقة جديدة تُساهم في إنتاج الظواهر الثقافية ، ورسم خريطة الطريق في الذهن والواقع معًا ، واكتشاف البراءة الأصليّة والخبرة العمليّة في المجتمع، من أجل توظيفهما لتحقيق حُرّيّة الفرد واستقلاله ، وليس تسليعه وإخضاعه وتفريغه من مُحتواه الشعوري والفكري . والهويّة الإنسانية المُتَجَسِّدة في وعي الفرد وشخصيته تُمثّل شبكةً من التجارب الحياتيّة والمعارف الوجوديّة ، وهذا يُساهم في تدعيم قدرة العقل الجمعي على مُمارَسة السُلطة الفكرية بشكل يَضْمَن التواصل مع مراحل التاريخ بلا انقطاع ، وهذا يَسْتلزم تطهير التاريخ من الزوايا المُظلمة والمناطق الغامضة . ولا يُمكن بناء الحقيقة الاجتماعية إلا بوضع التاريخ كاملاً تحت ضوء الفهم الصحيح والتشخيص الدقيق . وإذا تَمَّ اعتبارُ التاريخ جمعيّةً سرّيّةً ، أو كتابًا مُغلَقًا أمام قواعد المنهج العلمي في البحث والتحليل ، أو صِراعًا بين المُدنّس والمُقدّس ، أو صِدامًا بين الفِطْرة والغريزة ، أو حربًا بين الأقلّيّات لِتَقْصُص الأكثرية ، فسوفَ تنهار رمزيّة التاريخ في سياق الحضارة، وتسقط مكانته في شخصية الفرد الإنسانية .

التاريخ منهجية فكرية لا سلطة قمعية ، وهذا يعني أن التاريخ محاولة لفهم الوجود من خلال العقل واللغة والزمن . والإشكالية الفلسفية التي تهدد بنية التفكير المنطقي في حياة الفرد والمجتمع ، تكمن في النظر إلى التاريخ باعتباره كومة من الوقائع المنقطعة عن سياقها المعرفي ، وأرشيفاً من الأحداث المنفصلة عن الشعور الإنساني . وهذه النظرة القاصرة مرجعها إلى التعامل مع الزمن باعتباره حركة ميكانيكية خاضعة لقوانين الفيزياء. إن الزمن كائن حي يتكاثر في شرعية الفرد لغوياً وإنسانياً . وهويّة الزمن المعرفية قائمة على ثلاثة أركان : التوليد والتأسيس والتوظيف . توليد المعنى اللغوي بوصفه عملية تخليص للفرد من مأرقه الوجودي ، واللغة هي روح الوجود التي تحتضن التفاعلات الرمزية في العلاقات الاجتماعية ، وتأسيس الوعي بالذات والطبيعة بوصفه خلاصاً من تضارب المصالح بين الفرد والمجتمع ، والوعي هو محور التوازن بين الإبداع والعمل ، وتوظيف الفعل الاجتماعي بوصفه دلالة على الحياة ، ودليلاً إلى فلسفتها ، والفعل هو مركز الثقل لنظام الحضارة الإنسانية الذي يقوم على التعاون لا الاستغلال . وهكذا، سوف تندمج هويّة الزمن المعرفية (التوليد والتأسيس والتوظيف) مع منهجية التاريخ الفكرية (اللغة والوعي والفعل) .

*

المنهج النقدي في الروابط الإنسانية

١

الروابط الإنسانية في المجتمع تشتمل على منهج نقدي في داخلها ، وهذا المنهج يُمثل تراكمات فكرية قادرة على تنظيم نفسها ، واختيار مسارها المستقل عن صراع الفرد مع ذاته . والنقد ليس تبريراً لهذا الصراع، وإنما محاولة للسيطرة عليه اجتماعياً ، وتفسيره منطقياً، وتوظيفه واقعياً، من أجل اكتشاف غيوب الفرد وتغرات شخصيته ، وإعادة بناء الفرد كقاعدة للبناء الاجتماعي ، تحتضن المراحل الزمنية في ثقافة الوعي ، بوصفها مشروعاً غير مكتمل ، وإنما يسعى إلى الاكتمال ، وذلك بالاندماج مع حركة التاريخ العقلانية ، وإنسانية الفعل الاجتماعي . وكلُّ منهج نقدي يمتلك القدرة الذاتية على تحديد الأجنحة المتصارعة في الظواهر الثقافية والأنساق الحياتية ، لأنَّ المجتمع ليس نهراً جارياً وفق خط مستقيم مرسوم مسبقاً ، وإنما هو روافد متشابكة ومختلطة ، تبتكر مساراتها الخاصة بها ، ولا توجد خطة جاهزة للسيطرة على هذه الروافد التي تُغيّر طبيعتها باستمرار ضمن صيرورة التاريخ والهوية المعرفية والفعل الاجتماعي . وإذا كان التاريخ يُغيّر جلده باستمرار تبعاً لاختلاف سياسات التأويل والتوظيف ، وتعدّد زوايا الرؤية للأحداث ، فإنَّ الفرد يُغيّر حلمه باستمرار تبعاً لاختلاف مستويات الوعي والإدراك ، وتعدّد أبعاد حقول المعرفة . وهذا يدلُّ على استحالة أن يظل المجتمع ثابتاً في ظلّ التغيّر المسيطر على التاريخ والفرد . بل إنَّ الثبات الفكري في عالم متغيّر يُشكّل خطراً على ماهية الحقيقة الاجتماعية ، ويجب على الفرد أن يُغيّر أفكاره إذا تعارضت مع الأدلة . والأفكار ليست مقصودة لذاتها ، ولا تقوم بنفسها، وإنما هي وسائل لتحقيق الوعي المعرفي، وتوليد التاريخ الجديد الذي يُعبّر عن المعايير الأخلاقية التي تُجسّد المبادئ الحيّة والحرة ، صورةً ومعنى ، ظاهراً وباطناً . والمبادئ ثابتة ، والأفكار متغيرة .

٢

الأنساق الفكرية تُحدّد تفاصيل الواقع المعاش ، باعتبارها شروطاً مسبقة لدمج المنهج النقدي في الروابط الإنسانية مع سلطة العلاقات الاجتماعية . والمرجعيات الثقافية تُحدّد أبعاد كينونة التاريخ ، باعتبارها اكتشافاً لحقيقة البناء الاجتماعي الداخلية . والتاريخ الذي يحتضن الفعل

الاجتماعي كمشروع فلسفي ، يُمثّل تجلّيًا للزمن في العقل الجمعي، الذي يدفع الفرد نحو اكتشاف نفسه وجوديًا ، وابتكارها معرفيًا ، وتكوينها أخلاقيًا ، وإعادة إنتاج مستويات الوعي والإدراك ، من أجل تحرير الفلسفة الحيائية من التمرکز حول الذات ، وصناعة المفاهيم الإبداعية لتكون قوّة دافعة للتاريخ الذي يُعاد تشكيله في البناء الاجتماعي والبنية الثقافية ، وتأسيس علاقة منطقية بين اللغة والوجود، تدمج براءة الفطرة مع فلسفة الخبرة، وتدمج الماضي مع الحاضر ضمن سياق التّزامن والتّعاقب ، ليصير المستقبل تاريخًا حيًا في شخصية الفرد بلا فواصل ذهنية ولا قطيعة معرفية ، وعابرًا للزمن والمكان ، وحاضنًا للجغرافيا الخيالية والواقعية . والتاريخ الحقيقي ليس زمنًا غارقًا في ضباب الماضي ، أو هروبًا إلى الوراء ، أو ركّامًا من الأحداث والوقائع. وإنما هو رحلة وجودية في الذات والعناصر المحيطة بها ، بحثًا عن معنى للأشياء والأفكار ، من أجل تخليص المجتمعات البدائية من التّوحّش ، وقتل الوحش في أعماق الإنسان. والتاريخ الحقيقي لا يبحث عن إسناد خارجي لتبيل الشرعية والمشروعية، لأنّه هو المُخلّص والخلاص.

٣

كلّ نسق تاريخي يُمثّل نظامًا لغويًا يهدف إلى تنظيم إفرزات الفعل الاجتماعي ، وتجميع تأثيرات المنهج النقدي في الروابط الإنسانية ، وترتيب مصادر المعرفة في تراكيب البيئة وعناصر الطبيعة . وقوّة النظام اللغوي تتجلّى في تحويل الشعور الإنساني الهلامي إلى اتّصال مادي مع مُكوّنات المجتمع، وتواصل معنوي معها. وإذا كانت مركزية اللغة في الوجود تُمثّل إعادة تشكيل للمنهج النقدي القائم على فحوص المُسلّمات الافتراضية ، وتنقية العقل الجمعي من سياسة الأمر الواقع ، فإنّ مركزية الوعي في الإنسان تُمثّل إعادة تكوين للروابط الإنسانية القائمة على تحليل انعكاسات البنية الثقافية على النسق التاريخي ، وتعريّة البناء الاجتماعي من ضغوط النظام الاستهلاكي. وهذه الثنائية (التنقية / التعرية) تُجسّد فلسفة العقل الجمعي في البناء الاجتماعي ، وتكشف الدّور المركزي للتاريخ في الحضارة، بوصفها النّواة الأساسية في المنهج النقدي إنسانيًا، والهويّة الوجودية في الروابط الإنسانية ثقافيًا. وكما أنّ النّقْد لا ينفصل عن الثقافة، كذلك الثقافة لا تنفصل عن الإنسان. وهذا الترابط من شأنه أن يُفجّر الطاقة الرمزية في اللغة ، لأنّها الحامل للمنهج النقدي والبنية الثقافية والوجود الإنساني . والحامل لا يوجد بمعزل عن المَحْمُول ، وإذا كانت اللغة هي الحامل ، فإنّ الحضارة هي المَحْمُول، وإذا ساهمت اللغة والحضارة في تكوين سيادة المعايير الأخلاقية على إفرزات الفعل الاجتماعي وانعكاساته ، وإضفاء المعنى الوجودي

المنطقي على الأشياء والأفكار والعناصر ، فإن فلسفة التاريخ ستتحول إلى أداة لكشف آليات البناء الاجتماعي في الحضارة ، فيصبح التاريخ جسداً للحياة وتجسيدا للحرية ، وليس أرشيفاً للضحايا الذين يتقمصون جلادهم ، وتصبح الحضارة هوية إبداعية لا هوية أيديولوجية ، ويصبح الوجود كتاباً مفتوحاً لا فخاً قاتلاً .

*

التنوع الثقافي في بُنية العلاقات الاجتماعية

١

التنوع الثقافي في بُنية العلاقات الاجتماعية يُعتبر امتدادًا للوعي بالدور المركزي للإنسان في المجتمع والتاريخ ، وهذا الوعي يُمثل الشرعية الوجودية للفعل الاجتماعي الذي يُحدد خصائص سلطة المعرفة ، وملامح هوية التاريخ ، وشروط التأويل اللغوي ، ومعايير البناء الأخلاقي . والفعل الاجتماعي ليس نظرية مُجردة ، أو تيارًا فلسفيًا معزولًا عن الأحداث اليومية والوقائع التاريخية ، وإنما هو نظام متكامل قادر على بعث الحيوية في التنوع الثقافي ، وتحويل ماهية الواقع المعاش إلى هوية فكرية مُتجذرة ، ونقل فلسفة التراث من الحيز الذهني الزمني إلى الممارسة السلوكية الحية ، وتكريس كينونة الحضارة كتراث مُشترك للإنسانية ، بوصفها معنى روحياً للحياة ، وقيمة مادية للوجود ، وليس بوصفها نظامًا لتجذير سيادة الغالب على المغلوب ، أو سياسة لتأطير العلاقة بين السالب والمسلوب. وهذا من شأنه إعادة إنتاج المعرفة كمنظومة مُتفاعلة مع البيئة والطبيعة، لإعادة تشكيل التاريخ وعيًا حضاريًا ، وممارسةً حياتيةً ، وإدراكًا لغويًا ، ورؤيةً كونيةً ، ودُمج الماهية الواقعية مع الهوية الفكرية في صيرورة التاريخ ، الذي يُعاد تفكيكه وتركيبه باستمرار، من أجل تحقيق التواصل بين العلاقات الاجتماعية وسلطة المعرفة من جهة ، وبين كينونة الحضارة وفلسفة التاريخ من جهة أخرى .

٢

الأسس العملية لممارسة الوعي في المجتمع والتاريخ والحضارة ، ترتبط بالتنوع الثقافي في سياق الإنسانية القادر على تجسيد أبعاد اللغة في العلاقات الاجتماعية ، وتخليص المجتمع من تناقضاته العميقة التي تمنع التواصل بين هوية الإبداع وماهية السلوك ، وتفعيل المشاركة الفردية والجماعية في صياغة الأنساق المعرفية التي لا تتقوقع في المصلحة الشخصية الضيقة، ولا تتمركز حول الذات، لأن المعرفة عابرة للحدود والتجنيس، وهي مشروع كوني لخلاص الإنسان من مأزقه الوجودي ، ولينست نزوة عابرة في حياة الإنسان المحصورة في عالمه الخاص الداخلي ، وهذا من شأنه حماية بنية الواقع الاجتماعي من الانهيار ، وتطهير روح المجتمع من التشطّي والفوضى ، وإنقاذ أحلام الإنسان من النظام الاستهلاكي المحصور بين اللذة والألم .

مُهِمَّةُ التَّنَوُّعِ الثقافي في المجتمع الإنساني تَتَضَح في إخضاع الفعل الاجتماعي للأفكار الإبداعية ، ضمن المنظومة العقلانية القادرة على تجاوز مبدأ التمرکز حول الذات ، والغرق في اللحظة الآتية . والفكرُ يسبقُ الفعلَ ، ويُسيطر عليه ، ويُوجِّهه نحوَ تخليص العقل الجمعي من الانغلاق بِحُجَّةِ الخوف على الهوية . والإشكالية في هذا السياق هي أنَّ العقلَ الجمعي في المجتمعات الضائعة على الخريطة ، والناتئة بلا بؤصلة ، يَحْتَبِئ في ذاته ، وَيَنكَمِش في الماهية للحفاظ على الهوية ، وهذا يُؤدِّي إلى تمزيقِ سُلطة المعرفة ، وتشتيتِ زوايا الرؤية للتاريخ ، وتفتيتِ عناصر الذاكرة الوجودية التي تَنظُر إلى طبيعة المجتمع كزمن مُتَّصَل بلا فواصل معنوية ولا قطعية مادية . وإذا عَجَزَ المُجتمعُ عن بُلُوْرةِ علاقات اجتماعية حُرَّة وعقلانية ، فإنَّ الإنسان سَيَفقد ثِقَتَهُ بِنَفْسِهِ ، وَيَسْقَط في الاغتراب الرُّوحِي ، وَيَنسحب من الواقع القاسي ، لاعتقاده بعدم وجود مكان له ، أو أنَّ غَيْرَهُ اسْتَوَلَى على المكان اللائق به ، أو أنَّ المكان لا يَتَّسع لذكرياته وأحلامه وطُمُوحاته . وغيابُ المكانِ يُؤدِّي إلى الهروبِ مِنَ الزمن ، والخوفِ مِنَ التاريخ . لذلك يَتَّخذ البعضُ موقفًا سلبياً من تاريخه الخاص والعام ، ويعتبره نهراً من دَمٍ يَجْري خَلْفَهُ ، أو كَوَمٍ رَمادٍ يَكاد يقع على رأسه ، أو كابوساً لا يَعْرِف متى سَيَفْيق مِنْهُ . وإذا قضى الإنسانُ حياته هارباً من نَفْسِهِ ، فَلَنْ يُؤَسَّس سُلطة معرفة لغياب الزمن والمكان ، وَلَنْ يَصنع أفكاراً إبداعية لغياب الماهية والهوية .

بُنية العلاقات الاجتماعية تقوم على القواعد الأخلاقية ، وهذه القواعدُ مُرتبطة بِقُدرة اللغة على تكوين الآليات الفكرية التي تستطيع تحليل انعكاسات التَّنَوُّع الثقافي على مسار الإنسان ومصيره . وكما أنَّ الإنسان ابن بيئته ، فهو أيضاً ابن ثقافته . والثقافة المُتَجَذِّرة في أعماق الإنسان لَيْسَتْ تعليمات تلقينية أو مُحاضرات في الوَعظ والإرشاد ، وإنَّما هي نظام من الرُّمُوز المُعَقَّدة له خصائصه المُتَفَرِّدة ، ودلالاته النابعة من الذكريات ، وسيطرة الإنسان عليها ، والوَعْي بها . وحياة الإنسان الحقيقية هي قُدْرته على تحويل اللاوَعْي والأحلام المكبوتة والذكريات الغامضة إلى واقع يُمكن التَّحَكُّمُ به ، والاستفادة مِنْهُ كقُوَّة توليدية للفعل الاجتماعي ، بِوَصْفِهِ مَجْموع الأفكار العميقة لا الأحداث السطحية . والمُجتمعُ الحقيقي عبارة عن أحلام إنسانية لا وقائع تاريخية . وإذا أدرك الإنسان أبعادَ ذاتِهِ ، واستعادَ أحلامه لتحقيقها ، وَلَيْسَ للبكاء على أطلالها ، فَإِنَّهُ سَيُصبح كياناً واعياً يَخْتار مساره ، ويُقرِّر مصيره ، وَيستوعب تحولات المعرفة في تاريخ الأفكار وفلسفة التَّنَوُّع

الثقافي . والكيان الواعي قادر على إنتاج كينونة حضارية تُوازن بين الوعي والممارسة ضمن شبكة العلاقات الاجتماعية ، وتحليل الأفكار الإبداعية في لحظة عودتها إلى أنويتها الداخلية وجذورها الأساسية . واكتشاف الداخل هو الخطوة الأولى للانطلاق إلى الخارج ، وتحديد طبيعة الجذور المعرفية هو الخطوة الأولى للانطلاق إلى معنى الوجود .

*

فلسفة الظواهر الثقافية والهوية الوجودية للإنسان

١

فلسفة الظواهر الثقافية تُمثّل مشروعاً اجتماعياً لتحرير الفكر من أوهام الواقع ، وتخليص الواقع من أدلجة الفكر . وإذا كان الفكر يُؤسّس أنساقه الحياتية لإعادة ترتيب فوضى الواقع ، فإنّ الواقع يُؤسّس مرجعياته الفكرية لتوليد التصوّر التقدي في فلسفة التراث وتراث الفلسفة . وتمركز الفلسفة في الظواهر الثقافية والسيّاقات التراثية ، يُحدّد أبعاد صورة المجتمع عن ذاته ، ويكشف كيفية توظيف التاريخ في عملية الاندماج الاجتماعي ، وإنشاء الروابط الوجودية بين الفرد والمجتمع ، وترسيخ الوعي في مصادر المعرفة ، بوصفها جزءاً أساسياً من البناء الاجتماعي ، وليست نظريات هلامية عاجزة عن بناء التواصل بين الفعل الاجتماعي والفعل اللغوي . وكلّ فعل سواء كان اجتماعياً أم لغوياً يُعتبر تحوُّلاً جذرياً في العلاقة التي تربط الفكر والواقع ، وهذا التحوُّل يُعزّز تصوّر الفرد لفلسفة الظواهر الثقافية ، باعتبارها الحاضنة الشرعية للأفعال الاجتماعية ، التي تعمل على توحيد الاتجاهات في البنية الوظيفية للمجتمع ، وإزالة التناقضات الجوهرية في منهج التأويل الرمزي الذي يُحدّد معالم الصراع على اللغة ، ويوضّح ملامح الصدام في اللغة ، ويبيّن دور الفرد والمجتمع في التعامل مع اللغة ، ليس بوصفها أداة للاتصال والتوصيل والتواصل فحسب ، بل أيضاً بوصفها آلية معرفية وجودية لإعادة فهم الفرد لأعماق النفس الإنسانية ، وفهم المجتمع لأبعاد العقل الجمعي .

٢

تستمد الظواهر الثقافية معناها وشرعيتها من الأحداث اليومية ذهنياً وواقعياً ، ومن الوقائع التاريخية معنوياً ومادياً ، لكنّ فلسفة الظواهر الثقافية تنبع من الطاقة الرمزية في اللغة ، التي تستطيع توليد الفعل الاجتماعي ، وتأسيسه على قاعدة الوعي الحقيقي لا الزائف ، من أجل تحويل المجتمع إلى كيان إنساني مفتوح أمام الأفكار الإبداعية ، وماهية أخلاقية مُفتحة على مُكوّنات الثقافة ، ممّا يضمن تحقيق التواصل العقلاني بين العلاقات الاجتماعية ضمن سياق المعرفة الفردية والجماعية ، وعياً تاريخياً ، وممارسةً ذهنيةً ، وتجريداً فلسفياً ، وتطبيقاً عملياً ، والتزاماً أخلاقياً . وهذا الأفق المعرفي الخالي من الأنظمة الاستهلاكية الصاغطة على وجود الإنسان وهويته المجتمع ، هو الحامل لإنسانية الثقافة ، ورمزية اللغة ، ونسبية الزمن . وهذه المنظومة الثلاثية ترمي

إلى نقل مصادر المعرفة من الموضوع (المعنى في تاريخ الإنسان) إلى الذات (معنى الإنسان شخصياً) . وهذا من شأنه نقل مناهج التحليل الاجتماعي من تفسير المآزق الوجودي للإنسان إلى تغييره ، ومن وصف الأنساق الحياتية إلى تشكيلها . مما يدفع فلسفة الظواهر الثقافية باتجاه إعادة بناء المفاهيم المركزية في التصور التقدي المرتبط بالتفاعل الرمزي بين هوية المجتمع وماهيته . وبما أن الأفكار الإبداعية لا توجد بمعزل عن النقد والتفرض ، كان لزماً تكوين نظام اجتماعي خاص بالوعي الإنساني يعمل على تفكيك تاريخ الإنسان وتركيبه بشكل مستمر ، من أجل كشف نقاط القوة والضعف في المسارات الحياتية المتذبذبة بين القطيعة المعرفية والتواصل العقلائي ، والتعامل مع هذه المسارات كرموز لغوية تشير إلى مستوى الوعي في الوقائع التاريخية ، وكأفعال اجتماعية تشير إلى التسلسل المنطقي للأحداث اليومية . والمشكلة الأساسية في تاريخ الإنسان تكمن في عدم قدرة الإنسان على تكوين صورة واضحة عن ذاته خارج أنساق المجتمع وإفرازاته الفكرية ، كما أن هوية الإنسان ظلت سجيئة الفعل الاجتماعي المنعكس عن سلطة المجتمع، والمتماهي مع العلاقات الاجتماعية المفروضة وفق سياسة الأمر الواقع . والإنسان لا يختار نفسه ، ولا جنسه ، ولا نسبه ، ولا مجتمعه . ولا يملك الإنسان إلا أن يطور رمزية اللغة من أجل التأقلم مع العناصر المادية المفروضة على حياته ، والتفاعل مع التراكيب المعنوية المتغيرة في أفكاره ومشاعره . واللغة عابرة للحدود الزمنية والحواجر المكانيّة ، وهذا يعني أن تطوير رمزية اللغة هو استعادة لأحلام الماضي وطموحات الحاضر من أجل بناء المستقبل كجوهر للوجود ، وحقيقة للبناء الاجتماعي ، وليس كمرحلة زمنية عابرة ، أو خطة هروب من صراعات الماضي وأزمات الحاضر .

٣

وجود الإنسان مؤقت في الزمان والمكان ، لكن هوية الإنسان دائمة في رمزية اللغة ومصادر المعرفة . والثقافة لا توجد بلا لغة ، والمعرفة لا توجد بلا تاريخ . وهاتان الحقيقتان تفرضان على الإنسان أن يعيش كينونته حتى أقصى مداها ، وأن يعيد تشكيل الثقافة اللغوية والمعرفة التاريخية في سياق الأفكار الإبداعية ، لنقل شخصيته وسلطته من مفهوم الكائن الزائل جسدياً إلى مفهوم الكيان الباقي فكرياً . وهذه المهمة الشاقة تتطلب غوص الإنسان في أعماقه السحيقة لاكتشاف حياته الحقيقية (السرية) ، وتحليل التاريخ من الداخل (التنقيب في العمق لا الضرب على السطح) ، وتفسير الثقافة اعتماداً على نقطة التوازن (نقطة الارتكاز) بين بنية اللغة وبنية

المُجتمع . والإنسانُ لا يُمكن إخراجُه من جِلْدِه ، والتاريخُ لا يُمكن إخراجُه من جَسَدِه ، والثقافةُ لا يُمكن إخراجُها من كَيانِها ، وهذه المُسلّماتُ مُجْتَمَعَةٌ تدفع الإنسانَ (الذات الفاعلة داخل الوَعْي والمُجتمع والتاريخ) إلى اكتشاف هُويّته الوجودية في واقعه المُعاش ، وليس استيرادها ، أو نَسْخها ، أو تقليدها ، أو التَّنكُّر لها ، أو ارتداء الأَقنعة خَجَلًا مِنْها ، أو هُرُوبًا مِنْ حقيقتها .

*

البناء الاجتماعي وفلسفة التاريخ

١

المضامين الفكرية في البناء الاجتماعي تُمثل إطارًا مرجعيًا لفهم المعنى الكامن في الظواهر الثقافية الذي يُؤثر على السلوكيات اليومية ، ومصدرًا معرفيًا لفهم تأثير اللغة الرمزي في عملية التفاعل بين الأفراد ، التي تُؤدّي إلى تحليل المفاهيم الجوهرية في العلاقات الاجتماعية ، وإعادتها إلى أنويتها التاريخية الداخلية ، وجذورها الفلسفية العميقة . وفلسفة التاريخ هي القوة الدافعة للمجتمع ، والرافعة الأخلاقية للفعل الاجتماعي المُستند إلى الوعي العميق والإدراك النابع من تعدّد زوايا الرؤية للأحداث والوقائع ، والحاضنة الحضارية للواقع المادي المُنبثق عن الرُوح المعنوية المُتحرّرة من الأحكام المُسبقّة والعقَد التاريخية . وفلسفة التاريخ لَيْسَتْ كينونة هلاميّة ، وإنّما هي صيرورة معنوية ومادية في حالة ولادة مُستمرة ، وهذا يُساهم في تكوين أنساق وجودية _ فردية وجماعية _ لتحليل مُعطيات الواقع اجتماعيًا ، وتفسير إفرازات الخيال رمزيًا ، وتأويل العقل الجمعي لغويًا . والعقل الجمعي يفهم العلاقات الاجتماعية استنادًا إلى المعنى الذي تحمله . وهذا المعنى صادر عن الشرعية التي تُمثّلها البنى الوظيفية في المُجتمع ، التي تُحدّد كيفية تفسير فلسفة التاريخ ، وربطها مع الطبيعة النَّفسيّة للفرد ، والماهية الوجودية للجماعة . وكما أنّ فهم الفرد والجماعة لا يتم إلا من خلال الرابطة المصيرية بينهما ، كذلك فهم السلوك والثقافة ، لا يتم إلا من خلال المسار الحياتي الذي يوحدهما شكلاً وموضوعاً .

٢

مُكوّنات البناء الاجتماعي ناتجة عن الوعي التاريخي بدور الفرد في تثبيت كينونته الإنسانية في مركز السُلطة المعرفية ، التي تُقدّر على دمج تاريخ المُجتمع وتاريخ الأفكار ضمن سياق إنتاج الخطأ العقلائي ، الذي يُحدّد الآليات اللغوية لِتتبع آثار المعرفة في الفعل الاجتماعي والمسؤولية الأخلاقية . وإذا كان جوهر الفعل الاجتماعي تعبيرًا مُستمرًا عن روابط الهيمنة ، فإنّ جوهر المسؤولية الأخلاقية تتجاوز دائم لضغط الغرائز وقسوة الأنساق الاستهلاكية . وهذا التجاوز الدائم يُولّد تصوّراتٍ إبداعية تُعيد بناء مصادر المعرفة في المُجتمع ، لحماية الفرد من الاغتراب في اللامعنى . وإذا كانت المعرفة هي رحلة البحث عن المعنى ، فإنّ وعي الفرد هو بُوصلة لإيجاد الهوية . والمحكّ الحقيقي هو تحديد الاتجاه الصحيح . والاتّجاه أهم من الطريق ، والخطوة أهم من الخريطة .

المعنى والهوية يمنحان الفرد القدرة على التأمل في الأشياء التي اعتاد عليها ، وإعادة اكتشافها ، كما يمنحانه القدرة على التمييز بين عظمة الحضارة وبريقها الزائف . ويجب على الفرد أن يتجاوز نفسه باستمرار كي يؤسس سلطته الفكرية وفق مبادئ توظيف التقنية واستخدامها ، وليس الانبهار بها والخضوع لها . ويجب على المجتمع أن يمارس دوره المركزي في غزلة التاريخ وتمحيصه ، وليس عبادته وتقديسه . والفرد ابن لحظته الزمنية ، وسيد أحلامه ، وصانع حياته ، وليس خادماً لتراكيب البيئة ، وعناصر الطبيعة ، ووسائل التقنية . وتحقيق الحلم الإنساني إنما يكون بالانعتاق من وعي الآلة الوهمي ، وبريق الحضارة الزائف . ومركزيه التاريخ كمشروع للخلاص تتجلى في اعتبار العلم وسيلة لإنقاذ الفرد من مأزقه الوجودي ، وليس أداة للسيطرة عليه ، واستعباده ، والتحكّم بمساره ومصيره .

الفعل الاجتماعي الحقيقي (الذي يمتاز بالفاعلية والتفاعل مع كيان المجتمع وكيونة الفرد) ، هو الفعل الذي يجمع بين المعنى والهوية كمنظومة وجودية من جهة ، وبين المعرفة والمصلحة كطبيعة إنسانية من جهة أخرى . وجوهر الفعل الاجتماعي يستمد شرعيته الحياتية من توظيف الإرادة الإنسانية لبناء شخصية الفرد ، وتخليصها من نقيضها الكامن فيها . ولا فائدة من بحث الفرد عن أحلامه وطموحاته ، إذا كان يحمل بذرة انهياره في داخله ، لأن هذا سيؤدي إلى غياب التوازن بين ذات الفرد كبناء إنساني ، وذات المجتمع كبنية حضارية ، فينهار الفرد والمجتمع معاً ، ويعجزان عن الاتحاد في فلسفة التاريخ . وكل تاريخ لا غاية له إلا ذاته عبارة عن زمن وهمي ، ومكان عابر ، ووعي زائف ، فالغاية من التاريخ هي منح روح الإبداع للفرد ، وليس تحويله إلى آلة ميكانيكية تستهلك نفسها بنفسها . وكل تاريخ يحمله الفرد على ظهره كعبء ثقيل ، إنما هو وهم يتقمص شخصية الماضي وسلطته وهويته ، لأن التاريخ مشروع كوني لإنقاذ الفرد ، وليس القضاء عليه ، وطاقته رمزية لتحرير المجتمع من أحلامه الموهودة ، وليس تكريس العقد النفسية والأحقاد القديمة .



الجوهر الأساسي للأنساق الثقافية

١

الأنساق الثقافية الواعية في تفاصيل البناء الاجتماعي تُمثل أساليب حياتية لفهم العلاقة المركزية بين الكائن والكينونة (الرابطة المصيرية بين الإنسان والوجود) ، وهذا الفهم ضروري لتوليد المعنى في التاريخ بوصفه هيكلًا معرفيًا قائمًا بذاته ، وتفجير الطاقة الرمزية في اللغة بوصفها تأويلًا مستمرًا للوعي والإدراك . وإذا أدرك الإنسان معنى العناصر في واقع اللغة ولغة الواقع ، فإنه سيصبح قادرًا على فك الارتباط بين مصدر المعرفة الوجودي والتراكيب الفكرية التي تقع خارجه ، مما يمنح بنية اللغة القدرة على تحرير الزمان من الوعي الزائف ، وتخليص المكان من اليقين الوهمي ، فيصبح الفعل الاجتماعي نسقًا ثقافيًا يمتاز بالفاعل مع الذات والموضوع ، والفاعلية في المجال الحيوي للإنسان في المجتمع ، والمجتمع في التاريخ ، والتاريخ في العالم . والفعل الاجتماعي مُفترن برمزية اللغة التي تحتاج - كي تصبح فعلًا وفاعلية وتفاعلاً - إلى ابتكار أنساق ثقافية متميزة ، واختراع ظواهر إنسانية إبداعية ، وتأسيس مصطلحات فلسفية جديدة . وهذه المنظومة الاجتماعية الشاملة (الابتكار / الاختراع / التأسيس) تُحدد الفروق بين بُنى مصادر المعرفة من جهة ، ونماذج رمزية اللغة من جهة أخرى . وإذا كانت اللغة فضاءً تنكّس فيه الروابط بين المعاني ، فإن المجتمع نظام من القيم الأخلاقية والمصلحية في آنٍ معاً . والنزعة الروحية والمنفعة المادية وجهان لعملة واحدة ، لا تعارض بينهما ولا تضاد . وهما يدوران في فلك الخطأ اللغوي الرمزي المسيطر على العلاقات الاجتماعية، حين تتجلى في مسار الوجود الحر ، وحين تنعكس على مصير الثقافة الحية .

٢

الوعي هو مركز العلاقات الاجتماعية، ولكن المركز محصور في نطاق معرفي مُحدد، لذلك يجب اكتشاف الروح الإبداعية الكامنة في الأطراف، والهوامش، والأحلام الضائعة ، والعناصر المنبوذة ، والذكريات المهمّشة، والأفكار المستبعدة ، والدوافع المكبوتة، والتاريخ المنسي . وإذا كان الوعي هو نقطة التوازن بين التاريخ النفعي (الذي تمّت أدلجته) والتاريخ الخلاصي (الذي تمّ إقصاؤه)، فإن اللاوعي هو النسق الإنساني الذي يكشف التناقض الذاتي في الوعي والتاريخ معاً، فلا يوجد وعي كامل، ولا يوجد تاريخ نقي . وفي ظلّ هاتين الحقيقتين ، ينبغي أن يرسم

الإنسان طريقه بين الطاقة الرمزية في اللغة ، ودلالة المعنى في البناء الاجتماعي ، كي يستطيع التفريق بين سلطة اللغة وسلطة المجتمع، اللتين تحاولان انتشاراً شخصية الفرد الإنسانية من الغياب والنسيان، وإعادة صياغة تاريخ الأفكار ليصبح جغرافيا جديدة للحلم الإنساني في المجتمع والوجود .

٣

الجوهر الأساسي للنساق الثقافية وعياً وممارسةً ، ليس سلطة خارجية مفروضة على اللغة وبلاغة ألفاظها ومنطق معانيها ، وإنما هو نظام عقلائي يوازن بين الوعي واللاوعي ، ويفحص مسار العلاقات الاجتماعية في الذهن والشعور، ويوضح كيفية انعكاسها على البنية المادية للمجتمع وجذوره الفكرية العميقة ، التي تساهم في صناعة واقع متجاوز لتشيطي الروح الإنسانية في الزمان والمكان ، وسيطرة المسلّمات المخادعة (المؤسسة على سياسة الأمر الواقع) على مصير المجتمع في الوجود المملوء بالحدود . وكلّ مسلمة اجتماعية تفرز سلطتها الخاصة بها من أجل التحكم بهوية المعرفة في النواة الداخلية للثقافة كيئناً وكيونةً ، وتحديد ملامح هوية الرمز اللغوي شكلاً ومضموناً ، وتعيين عناصر ماهية التراث الفكري ، وربطها بأدوات الهيمنة وآليات التأويل ، وأساليب التوظيف . وكلّ سلطة معرفية تؤسس فلسفتها الحياتية التي تحوّل القيم والمعايير إلى منهج اجتماعي، يُتيح للإنسان أن يبني تصوّراً لبيئته الواقعية ومحيطه الثقافي ناتجاً عن وعيه بهما ، وإدراكه لهما . كما أنّ رمزية اللغة يُعاد بناؤها لتكون مادّة خصبة للنساق الثقافية، والظواهر الاجتماعية ، والتجارب الشعورية، والخبرات الفردية والجماعية ، ممّا يساهم في فهم حقيقة البناء الاجتماعي عبر رؤيته من جميع الزوايا المعنوية والمادية . وإذا كانت اللغة هي البناء المنطقي للثقافة ، فإنّ الثقافة هي البنية العقلانية للمجتمع . وضمن منظومة البناء المنطقي والبنية العقلانية، يتحدّد طبيعة الدور المركزي للفعل الاجتماعي في تأثيرات اللغة على الثقافة ، وتتحدّد خصائص الوظيفة الحيوية للثقافة في المضامين الفكرية للسلوكيات الإنسانية ، والأحداث اليومية ، والوقائع التاريخية ، ليس بوصفها تراثاً ماضياً وانقضى ، بل بوصفها كتلة معرفية يُعاد إنتاجها باستمرار .

*

المجتمع واللغة والتاريخ من منظور فلسفي

١

طبيعة المجتمع مُدمجة مع فلسفة اللغة ، باعتبارها منظومة عقلانية تتحقق في داخل السلوك والوعي به ، وكيثونة منطقية تنكّس في الفعل الاجتماعي ، الذي يتعامل مع التاريخ ككائن حي ، ينبعث في أنساق الحياة المُعاصرة ، وينمو في العقل الجمعي ، ويُفَعِّل دَوْرَ القواعد الأخلاقية في الأحداث اليومية ، ويُؤكِّد على علاقة الوعي بالآليات المعرفية التي تُحلِّل مضمون الأنظمة المادية الاستهلاكية المسيطرة على الإنسان والطبيعة معاً ، من أجل تكوين ظواهر ثقافية تنبع من تفاصيل الواقع الإنساني المُعاش ، ولا تتمركز حَوْلَ عقل الآلة الميكانيكية كبديل لعقل الإنسان المُبدع. وهذا من شأنه تكوين نظام فلسفي جديد لرؤية العالم الكامن في داخل الإنسان ، ورؤية العالم الخارجي المُحيط بالإنسان ، والضاغط عليه ، والمؤثِّر في شعوره ووعيه وإدراكه . وهاتان الرؤيتان تُساهمان في استخراج الأحلام المنسية من أعماق المجتمع . وحركة الوعي (الحقيقي لا الزائف) في الزمان والمكان يُعاد تشكيلها وفق كَيْفِيَّة رؤية العالم (الداخلي والخارجي) ، وهذه الكيفية تتأثر بطريقة مُمارسة الإنسان لسلطته على تراكيب البناء الاجتماعي ، وتقاطعات التاريخ ، والقيمة الوجودية للظواهر الثقافية في البيئة ، وشروط الثورة الصناعية في الطبيعة . وهذه السُّلطة مُرتبطة بالبعد الأخلاقي في التجارب الحياتية ، بوصفها طريقاً إلى بناء المنطق في العلاقات الاجتماعية ، ومُرتبطة كذلك بالبعد التعبيري في اللغة ، بوصفها وسيلة للتفاهم والحوار ، وقاعدة معرفية لعقلانية المجتمع . والسُّلطة على الأشياء تُمثِّل فلسفة خاصة لفهم ماهية الأشياء . وإذا نجح المجتمع في إزالة التناقضات بين سلطة الإنسان وماهية العلاقات الاجتماعية ، فإنه سينجح في إعادة توظيف دور المعرفة في السلوك الفردي والممارسة اللغوية. وهذه المعرفة ليست تجميعاً للمعلومات ، ولا أرشيفاً للوثائق ، وإنما هي عملية توليد مُستمرة لفلسفة التاريخ العابر للمراحل الزمنية والتجنيس المكاني. وفلسفة التاريخ ليست ماضياً مضى وانقضى ، أو شيئاً يتم الرجوع إليه ، أو هُوةً سحيقة يتم الهروب إليها والاختباء فيها . إنَّ فلسفة التاريخ نسق فكري يُولد في شعور الإنسان وإدراكه ، ويُسيطر على طريقة رؤيته للأشياء ، وأسلوب تعامله مع العناصر. وكلُّ نسق فكري هو بالضرورة فاعلية اجتماعية في بُنية شخصية الفرد الإنسانية ، وتفاعلاً إنسانياً مع سلطة المجتمع الاعتبارية ، وهويته الحضارية المُتمركزة حول الوعي بالذات والمُحيط ، وكيثونته الوجودية القادرة على صناعة

حُقول معرفية جديدة، تُساهم في إعادة بناء الواقع على أُسس عقلانية إبداعية، من أجل إيجاد كيان للإنسان في التاريخ ، وتكوين معنى للتاريخ في قواعد المنهج الاجتماعي .

٢

مركزية اللغة في المجتمع تُعيد تشكيل الهويات الإنسانية (الفرعية والرئيسية) في السياق الثقافي ، وتكشف الخلفية الفلسفية الكامنة وراء العلاقات الاجتماعية ، وتفصل بين حرية الإرادة والواقع المُقيد . وهذا الفصل ضروري من أجل تحديد جوهر الشخصية العامة المتمثلة في مصير المجتمع ، وتحديد ماهية الشخصية الخاصة المتمثلة في مسار الإنسان . وإذا كان مصير المجتمع ومسار الإنسان يرتبطان بالعوامل النفسية والمعايير الأخلاقية ، فإن قيمة التاريخ ورمزية اللغة ترتبطان بالظواهر الثقافية والتجارب الحياتية . وهذا الارتباط الوثيق بين كل هذه المكونات الوجودية يدمج الخبرة العملية بالفطرة الذاتية ، ويشيد البناء الروحي على البناء الاجتماعي ، مما يؤدي إلى إعادة تموضع الذات الإنسانية المُبدعة في تاريخ الأفكار الحية والحرّة ، وطبيعة الزمان والمكان، بوصفهما عملية تحرير مُزدوجة للإنسان من صورة الضحية وبنية المأساة. وهكذا ، يجد الإنسان نفسه صانعاً للتاريخ ، وفاعلاً في أنساقه ، وليس مفعولاً به ، أو سلعة مصنوعة ضمن قانون العرض والطلب .

٣

العقلانية في المجتمع واللغة والتاريخ لا تعني تقديس العقل ، أو جعل الإنسان حاكماً على عناصر البيئة والطبيعة ، ولا يحكمه شيء ، وإنما تعني إنشاء نظام فلسفي يُحرّر المجتمع من الأوهام المُكرّسة بفعل سياسة الأمر الواقع ، ويُحرّر اللغة من الوعي الزائف الناتج عن التناقض بين الأحلام الفردية والطُمُوحات الجماعية ، ويُحرّر التاريخ من الحضارة الاستهلاكية التي تُمثل قفصاً حديدياً يمنع رؤية مصادر المعرفة من كل الزوايا . وكل نظام فلسفي لا يُصبح سريعاً ذا جدوى إلا إذا قام على ثنائية التحرّر والتحرير ، أي إنّه يُحرّر نفسه بنفسه من الصدام بين الوسيلة والغاية ، تمهيداً لتحرير العناصر التي يحتوي عليها ، والأشياء التي تحيط به . وكما أنّه لا يوجد نظام فلسفي خارج الظواهر الثقافية ، كذلك لا يوجد جوهر إنساني خارج المجتمع واللغة والتاريخ .

*

المنهج الاجتماعي وتاريخ الأفكار الكامنة

١

الأفكار الكامنة في العلاقات الاجتماعية تُؤلّد معناها الوجودي وشرعيتها الحيائية اعتمادًا على سلطة مصادِر المعرفة، واستنادًا إلى هويّة المعايير الأخلاقية. وهذه الأفكار لا يمكن تطبيقها على أرض الواقع لتُصبح تاريخًا حيًا للفرد ووجودًا خِرًا للجماعة، إلا في ظلّ صناعة مُستمرة لمفاهيم الوُعي الحضاري الذي يُوازن بين منظومة (الخبرة / المصلحة) ومنظومة (الفطرة / البراءة). وكلّ مُوازنة في تاريخ الأفكار تُؤدّي إلى توازن في البنية الوظيفية لفلسفة المجتمع كآلية للتأقلم مع الواقع، وإعادة تكوين أنساقه بما يضمن تحقيق المنفعة الفردية والجماعية. وإذا كان المجتمع يقوم على التسلسل الهرمي لمصادر المعرفة والمعايير الأخلاقية، فإنّ الأفكار تقوم على التراتب الثقافي للتجارب الحياتية والوُعي الحضاري، وهذا من شأنه ضمان استمرارية البناء الاجتماعي، ومُواصلة تتبّع آثاره المعرفية في المعنى اللغوي، والسلوك اليومي، والحقيقة الوجودية، والإدراك الذهني، والممارسة الوجدانية. والبناء الاجتماعي ليس موقفًا فلسفيًا معزولًا عن الحياة، وبعيدًا عن مُشكلات الواقع، ولكنه تكوينٌ لحياة جديدة، وإنتاجٌ مُستمر للعناصر الفكرية القادرة على اكتشاف الطبيعة الإنسانية والعقل الجمعي، وتفسيرٍ دائمٍ للنسيج الاجتماعي لتحريره من الخوف تُجاه المُستقبل، وتحويلٍ للتجربة الفردية الذاتية إلى منهجٍ لقواعد التحليل اللغوي للتاريخ والحضارة معًا.

٢

صدّام الفرد مع ذاته، وصراعه مع الحياة، ينبغي أن يتمّ توظيفهما من أجل إنشاء فلسفة حياتية للتكيف مع مُكوّنات البيئة المُعاشة معرفيًا واجتماعيًا. وهذا التكيف يُشكّل نسقًا عقليًا حاضنًا للظواهر الثقافية، التي تُجمّع العوامل التقديرية ذات التأثير الرئيسي على بُنية الفعل الاجتماعي، وكيفية صياغته ذهنيًا وواقعيًا، لتحديد دوافع الفرد في الأحداث اليومية والوقائع التاريخية، وتحليل دور العقل الجمعي في نشأة التجارب الإنسانية، على الصعيدين المعنوي والمادي، ونقل الفكر الإبداعي في المجتمع من المفهوم التاريخي المَحصور في الماضي إلى الماهية الوجودية القادرة على اقتحام المُستقبل. وهذه الماهية الوجودية لا تعني احتلال موقع في الزمان والمكان، وإنما تعني بناء وجود إنساني مُتكامل فكريًا وأخلاقيًا، وقادر على التأثير

الإيجابي في مسار الوعي الحضاري ، ومسيرة الفاعلية التاريخية ، ومصير المجتمع الإنساني . ولا يكفي أن يكون الفرد موجوداً على خريطة المجتمع ، بل ينبغي أيضاً أن يكون مؤثراً في تاريخ أفكار المجتمع ، ومالِكاً للبوصله في تفاصيل البناء الاجتماعي . ولا يكفي أن يكون العقل الجمعي في ثقافة المجتمع يمتاز بالنشاط والحيوية ، بل ينبغي أيضاً أن يمتاز بالقدرة على التأقلم، وتحديد أهدافه ، والتحرُّر من التأثيرات الشعورية ، والانعكاسات الوجدانية، والضغوطات الذهنية . والخطر الحقيقي على العقل الجمعي لا يأتي من خارجه ، وإنما يأتي من داخله ، لذلك يجب أن يُطهَّر العقل الجمعي نفسه باستمرار ، ويندمج مع عوالم صيرورة التاريخ ، ويتَّحد مع شروط الفعل الاجتماعي، كي يوفِّق بين حقيقة المجتمع ومعنى الإنسانية ضمن السياق العقلاني الذي يُحقِّق المنفعة للجميع .

٣

لا يوجد مفهوم فلسفي يُقدِّر على الحركة خارج المنهج الاجتماعي ، ولا يوجد وعي حضاري يستطيع الانتقال خارج التفاعلات الرمزية في اللغة والمجتمع . وهاتان الحقيقتان تُعیدان تأسيس الفعل الاجتماعي ليصبح ظاهرة ثقافية فعَّالة ، تدمج التلقائية والبديهية مع التجربة والخبرة ، من أجل تكريس الإرادة الإنسانية كحالة خلاص للفرد والجماعة ، تقوم على اعتبار الواقع انعكاساً للنشاط المعرفي ، واعتبار اللغة عالماً مُشترَكاً من السلوك الهادف والمعياري النقدي ، وإعادة تأويل الثقافة والتاريخ من خلال الطاقة الرمزية في اللغة ، وليس من خلال المصلحة الشخصية أو المنفعة المادية الضيقة . والثقافة صناعة إنسانية لا يمكن تحليلها إلا ضمن سياقها التاريخي الصحيح، ودور الطاقة الرمزية في اللغة يتجلى في حماية الثقافة من التحول إلى كيان مُستَلَب، وحماية التاريخ من التحول إلى كائن مُعْتَرَب .

*

مركزية الوعي الوجودي في البناء الاجتماعي

١

فلسفة البناء الاجتماعي تعتمد على استخراج الإشارات من الوعي الوجودي ، واستنباط الرموز من المستويات التعبيرية في النظام اللغوي كجسد معرفي ، وتجسيد للبنى الوظيفية في المجتمع ، التي تُعيد كتابة تاريخ العلاقات الاجتماعية من منظور إنساني ومصلحي في آنٍ معاً . وإذا كان الوعي الوجودي لا ينفصل عن اللغة ، فإن السلوك الإنساني لا ينفصل عن المصلحة . وهذا يعني أن كل نشاط عقلي هو ممارسة لغوية تُساهم في تكوين الفعل الاجتماعي، والدفع به في اتجاه تحقيق مصلحة الفرد والجماعة ضمن النسيج الحياتي، بكل تفاصيله النابعة من مكونات اللغة ، وتأثيراته الحاسمة على الظواهر الثقافية والمعايير الأخلاقية . والنسيج الحياتي لا يوجد بمعزل عن التجسيد العملي للفكر اللغوي في أنساق التاريخ ، الذي يُعاد تأويله باستمرار ، ليصير التاريخ تواريخاً متكاثره ، تحتاج إلى الوعي والإدراك للسيطرة عليها ، ومنعها من التشطّي خارج المعنى الإنساني للحضارة القائمة على الفطرة والخبرة . وإذا تشطّي التاريخ فإن المعنى يفقد وجوده ، وتحتفي المعايير الحاكمة على الخلم الإنساني ، والمحكومة بالأحداث اليومية . وليس للخلم الإنساني وجوداً إلا داخل فلسفة البناء الاجتماعي، وليس للأحداث اليومية شرعية إلا داخل طبيعة الظواهر الثقافية .

٢

الوعي الوجودي لا يحتل اللغة من أجل تدجينها وتوظيفها في بنية العلاقات الاجتماعية ، وإنما يُحرّر اللغة من أجل إدماجها في الثقافة باعتبارها نظاماً جوهرياً مُستقلاً ، وليست شيئاً تابعاً للأنظمة الاستهلاكية . وتحرير اللغة هو تحرير لمصادر المعرفة من ضغوط اللحظة الآنية ، مما يُسهّل عملية نقل الفكر المحصور بالتأويلات إلى الذات الفاعلة المُنتظقة ، ونقل الوعي الوجودي إلى التجربة العملية ، ونقل الصورة الذهنية للحياة المُعاشة إلى العقلانية الواقعية التي تُخلّص المجتمع من الهيمنة التكنولوجية ، وتمنع سيطرة الآلة على الفرد . وإذا عاد الفرد إلى شخصيته الإنسانية ، وعاد المجتمع إلى مركزية وجوده في فلسفة اللغة ، فإن التاريخ سيصير فعلاً اجتماعياً إبداعياً في الحضارة بوصفها منظومةً ديناميكيةً مُرتبطةً مع الإطار الأخلاقي ، الذي يشتمل على التوازنات الثقافية العميقة والسطحية . وهذه التوازنات ضرورية لضبط انعكاسات العلاقة بين هوية

الفرد وسلطة المجتمع تصوّرًا وتحققًا، وتكوين منطق للتاريخ روحياً ومادياً، وتأصيل الأنساق الثقافية في العلوم الإنسانية، وتشديد البناء الاجتماعي على قاعدة الوعي الوجودي الخالي من القطيعة مع الزمان والمكان، وإعادة إنتاج قيمة الفرد الإنسانية، من أجل تحقيق التكامل بين الفاعل الواعي الذي يدرك ذاته ومحيطه، وبين الفاعلية اللغوية التي تولّد التفاعلات الرمزية في تيارات الشعور داخل الفعل الاجتماعي وخارجه .

٣

مركزية الوعي الوجودي في البناء الاجتماعي تولّد نقدًا مستمرًا لسياقات سلطة المعرفة، وتكشف الأبعاد المزيّة وغير المزيّة لدلالات هوية اللغة، ممّا يساهم في تأسيس حركة تفسيرية للمسارات التاريخية، وتحريرها من هيمنة الأحكام المسبقة على المجتمع، وسيطرة الأفكار التقليدية على الفرد، وتسلط التصوّرات المستهلكة على الوجود. وإذا نجح الفرد في تشخيص إشكاليات البناء الاجتماعي، باعتباره قوّة توليدية للمفاهيم المعرفية ذات الامتداد الأفقي في النظام اللغوي القابل للتطبيق على أرض الواقع، وذات الامتداد العمودي في أنساق الحضارة القابلة للتحوّل إلى روح عقلانيّة فردية، ونزعة منطقية جماعية، فإنّ الوعي الوجودي سيكتشف مواطن الخلل في هياكل المجتمع، ومواطن الانقطاع في مسارات التاريخ، وعندئذ يصبح الفرد تاريخًا داخل التاريخ، وليس ذاتًا متعالية على التاريخ، وسلطة حاكمه عليه، ومُتلاعبة به. وهذا يُؤدّي إلى تكوين فهم أفضل للعالم، وإنشاء آليات فكرية لتحليل علاقة الفرد بالبيئة، وعلاقة المجتمع بالطبيعة، وعلاقة الوجود باللغة .

*

فلسفة التاريخ في التفاعلات الرمزية للعلاقات الاجتماعية

١

توظيف فلسفة التاريخ في التفاعلات الرمزية للعلاقات الاجتماعية يُعتبر محاولةً لتفسير مصادر المعرفة ، وتتبع آثارها في الأساس الأخلاقي للمجتمع ، والقواعد الوجودية للغة ، والجذور العميقة للثقافة . وإذا كان الوجود يسبق الماهية ، فإن التاريخ يسبق الحضارة ، وهذا يعني ضرورة توليد آليات معرفية لتفكيك تفاصيل وجود التاريخ في ماهية الحضارة ، ويوضح أهمية تكوين أدوات نقدية للتنقيب عن مواضع الاتصال والانفصال في التاريخ والحضارة معاً. وإذا كانت العلاقات بين العناصر أهم من العناصر ذاتها ، فإن مصادر المعرفة أهم من المعرفة نفسها ، لأن المصادر هي المنابع ، ومنبع المعرفة هو أصلها الذي يحدد طبيعتها الحياتية ومسارها الوجودي . وتأثير العلاقات الاجتماعية لا يكمن في المظهر الخارجي ، أو الحركة الوهمية النابعة من الوعي الزائف ، وإنما يكمن في الرموز التي تحملها العلاقات الاجتماعية ، وهذه الرموز هي الحاضنة الشرعية للمعايير الفكرية دائمة التفاعل ، والقوة المحركة لفلسفة التاريخ كآثر ثقافي وراث حضاري . وكما أن فلسفة التاريخ لا تنفصل عن إرادة المعرفة ، كذلك سلطة الوعي لا تنفصل عن إرادة السيطرة . وهذه السيطرة لا تعني تأسيس العلاقات الاجتماعية على القهر واستغلال نقاط ضعف الآخرين ، وإنما تعني التحكم بمسارات الوعي في الواقع المعاش من أجل الكشف عن الحقائق الكامنة في بنية الفعل الاجتماعي ، بوصفه الطريق الفكري إلى تحليل الدلالات الذهنية ، وتأويل السلوكيات الواقعية ، من أجل توظيف الغرائز والرغبات في كيان الإنسان وكيونته _ دليلاً ودلالة ومدلولاً _ ، للمحافظة على اتزانهِ وتوازنهِ ، وليس لتحويلهِ إلى ذئب لأخيه الإنسان .

٢

فلسفة التاريخ تمثل مرحلة عابرة للزمان والمكان ، وتؤسس لمعرفة جديدة بهوية الإنسان الوجودية ، وسلطة المجتمع العقلانية ، التي تُعاد صياغتها باستمرار كي تتلاءم مع إفرازات العقل الجمعي ، وتنسجم مع المصالح الفردية والجماعية . والإنسان عندما يُوظف فلسفة التاريخ لفهم عناصر هويته ، واستيعاب مكونات سلطة المجتمع المحيطة به من كل الجوانب ، فإنه سيغدو إنساناً جديداً ، قادراً على تجديد إنسانيته باستمرار ، ليس بمعنى تغيير جلده ومبادئه ، ولكن بمعنى تحويل أنساق حياته إلى آلية للتفكير الإبداعي ، وليس الاستهلاك المادي ، وتحويل الظواهر

الثقافية إلى سياسات اجتماعية فعّالة ، تُساهم في تكوين هيكل معرفي تنظمي للوظائف الدلالية للغة، والأحلام المكتوبة للإنسان، والتأثيرات الظاهرية للآلة. وعملية التنظيم ليست دفناً للنار تحت الرماد ، وإنما هي خطوة أولى لتجميع الأضداد والتناقضات ، ثم صهرها في بوتقة الوعي الخلاصي لصناعة منظومة معرفية وجودية منطقية متماسكة ، تُفجّر الطاقة الرمزية في اللغة ، وتحرّر أحلام الإنسان من المأزق الوجودي ، وتمنع سيطرة الآلة الميكانيكية على الشعور الإنساني .

٣

اللغة _ إنسانياً وشعورياً ورمزياً وزمنياً وحضارياً _ هي التلخيص الفلسفي للوجود ، والوجود هو الامتحان الحقيقي للفعل والوعي معاً، والفعل الاجتماعي مُعلّق بشرط الوعي الخلاصي ، وإذا وَقَعَ الشرط وَقَعَ المشروط، أي إنَّ الوعي الخلاصي إذا تَكَرَّسَ على أرض الواقع كخريطة طريق لإنقاذ الإنسان والمجتمع ، فإنَّ الفعل الاجتماعي سَيَتَكَرَّسُ في المجالين الرمزي والحسي كمنظور للحياة بكلّ تفاصيلها . والفعل تابع للوعي ، وهذه التبعية ليست علاقة زمنية فحسب، بل هي أيضاً صيغة عقلانية لضمّان التماسك الداخلي في البناء الاجتماعي، وربط الشكل الخارجي بهوامش المجتمع، من أجل نقلها إلى المركز ، بحيث يُصبح المجتمع الإنساني حُلماً جماعياً يتشارك الأفراد في صياغته ، وليس كابوساً يُطارِد الأفراد فيَهْرُبُونَ منه . وهذا من شأنه تحقيق التكامل بين البنية والهوية ، وتفعيل الانسجام بين الرمزية والماهية ، فيُصبح الإنسان قادراً على التعبير عن أحلامه بلا كُتْ ولا خَوْف، ويُصبح المجتمع قادراً على تحويل البيئة المحصورة بين الأضداد والمصالح المتضاربة ، والمُحاصرة بالوعي الزائف ، إلى نظام معرفي ديناميكي ، يُعيد رُوح التاريخ إلى جسد الحضارة، فيتخلّص التاريخ من ثنائية (الضحيّة / الجلّاد)، وتتخلّص الحضارة من ثنائية (الغنيمة / الرهينة) .

*

الوعي الثقافي والفعل الاجتماعي والعقل الجمعي

١

التمييز بين الوعي الثقافي والفعل الاجتماعي لا يعني إيجاد فروقات ظاهرية بين طبيعتهما، أو اكتشاف اختلافات سطحية بين مسارهما، وإنما يعني تكوين إطار معرفي يشمل على مكونات السلوك الإنساني، ويحدد طريق الإنسان في المجتمع، وطريقة المجتمع في التعامل مع تأويل الأحداث التاريخية، وكيفية توظيفها في الواقع اليومي، والعناصر المنبودة، والأحلام المنسية، والذكريات المكتوبة، والتفاصيل العابرة، مما يؤدي إلى نقل الهامش والمهمش من الأطراف إلى مركز الوجود المسيطر على الوعي والفعل معاً. وثنائية (التأويل/ التوظيف) في السياق التاريخي تكشف الفرق بين الوعي الثقافي والفعل الاجتماعي باستخدام آليات لغوية تدمج الخبرات مع المعارف، وتبكر أدوات فكرية قادرة على التفاعل مع جوهر الأشياء إبداعياً لا ميكانيكياً. وإذا كان الوعي هو الأساس الفلسفي للفعل، فإن الثقافة هي القاعدة الأساسية للمجتمع، والهوية المتماسكة للإنسان الواعي الذي يمارس وجوده المعنوي والمادي لإكمال الثغرات في شخصيته المركزية، وتحقيق الكمال في سلطته الاعتبارية، بوصفها طريقاً لخلاص المعنى الحياتي من ضغط اللحظة الآنية، وتخليص الحضارة المادية من النزعة الاستهلاكية، وانعتاق بنية التفكير من المصلحة الضيقة، وتحرير رمزية اللغة من التفسير الأحادي للتاريخ. إذ إن التاريخ كيان قائم على التفاعلات المعنوية والصراعات المادية، ومفتوح على احتمالية التأويلات وتعدد التجارب الحياتية فردياً وجماعياً. والتاريخ ككيان يُعاد بناؤه باستمرار في العلاقة المصيرية بين الوعي الثقافي والفعل الاجتماعي. ومن أجل ضمان الاستمرارية في عملية بناء التاريخ، ينبغي تحويل كيانه السلطوي إلى كينونة فلسفية تحتوي على القواعد السلوكية والتحليلات اللغوية، لفهم تركيب المجتمع (الوصول إلى الجذور العميقة للعلاقات الاجتماعية)، وربط تفاصيل الحياة اليومية بالشعور الإنساني القائم على الخبرة القصدية لا البراءة الساذجة.

٢

الإنسان يبني سلوكه الحياتي استناداً إلى تحليله الخاص لمكونات ذاته وعناصر البيئة المحيطة به، ويؤسس منظومته الشعورية وفق زاوية رؤيته للطبيعة، ويدفع علاقاته الاجتماعية باتجاه سلطة العناصر القوية في المجتمع للحفاظ على مصلحته الشخصية، ووفقها يتم بناء الهوية

الوجودية لشخصية الإنسان ذاتيًا وموضوعيًا. وهذه الشخصية حاملة للرموز اللغوية والاجتماعية التي تتجلى في الأنظمة المعرفية، التي تساعد العقل الجمعي على إعادة تفسير العالم ، ومن ثم تفسير انعكاسات الزمان على المكان ، أي : تفكيك صراع الهويات في الماضي والحاضر والمستقبل اعتمادًا على ماهية البناء الاجتماعي في الواقع المعاش . والإنسان لا يملك إلا اللحظة الآنية ، لذلك ينبغي أن تكون نقطة الانطلاق نحو تحليل الذات وما يحيط بها من أشكال اجتماعية متغيرة ، وظواهر ثقافية متبدلة، ومعايير فكرية نسبية. والإنسان في سباق مع الزمن الخارجي كي يكتشف زمنه الداخلي ، ويستفيد من الحاضر ، لأنه سينقضي ، ويصبح ماضيًا خارجًا عن السيطرة ، وضاعًا على المستقبل .

٣

سيطرة العقل الجمعي على العلاقات الاجتماعية لا تؤدي بالضرورة إلى صناعة مجتمع عقلائي، فلا بد من ربط إفرات الزمان والمكان بتراكيب الوعي الثقافي ، ودمج وظائف الأنظمة المعرفية مع تأثيرات الفعل الاجتماعي . والعقل الجمعي لا يستطيع أن يصنع مجتمعًا عقلائيًا من الفراغ ، ولا يقدر أن يبني منظومة فكرية حرة من العدم ، وبالتالي يجب التنقيب عن الجذور العميقة للعلاقات الاجتماعية ، وبناء الهوية الوجودية للإنسان والمجتمع عليها . وكما أن الطبيعة لا تقبل بوجود جذور في الهواء ، كذلك المجتمع العقلاني لا يقبل بوجود عقل جمعي بلا سلطة معرفية . والعقل الجمعي المسلح بالسلطة المعرفية هو القادر على بناء الإنسان والمجتمع معًا . والوعي الثقافي المدعوم بالفعل الاجتماعي هو القادر على صناعة التاريخ والحضارة معًا .

*

الفعل الاجتماعي والتجانس المركزي والمناهج اللغوية

١

التداخل بين الظواهر الثقافية والعلاقات الاجتماعية يُؤدّي إلى تكوين مصادر جديدة للمعرفة، وهذه المصادر تُمثّل تأسيساً للنزعة التّقديّة لأنماط الاستهلاكية في المجتمع ، وتُجسّد وعياً بالصّراع الدائر بين تفاصيل حياة الإنسان المُتَشَطِّية (الحنين إلى الماضي الذي لا يَمُضي، والفرق في الحاضر الذي يتمّ تفرّغه من معناه وجَدّواه ، والخوف من المُستقبل الذي تتمّ أدلجته كَمَنفى للروح والجسد) . ولا يُمكن للإنسان أن يكون هُويّةً للوعي التاريخي إلا بالتخلّص من الخوف الزمني والقلق المكاني ، ولا يُمكن للمجتمع أن يكون سُلطةً للمعنى الحضاري إلا بالتخلّص من اغتراب الكيان واستلاب الكينونة . وإذا كان الإنسان يستمد شرعية وجوده من قدرته على الاعتناق من حُطام الروح وأنقاض الجسد ، فإنّ المجتمع يستمد شرعية وجوده من قدرته على التحرّر من انكسار الذات وغربة الشعور. وهذا يعني أنّ الإنسان والمجتمع يُكوّنان معاً تاريخاً للأحلام المُشتركة يمنع تحوّل المنطق إلى ضده ، ويمنع انتقال العقلانية إلى نقيضها ، تحت ضَغْط تضارب المصالح الفردية والجماعية ، وإفرازات البيئة الحياتيّة تاريخياً وحضارياً ، وتأثيرات الطبيعة الوجودية للأشياء والعناصر . والخطر الحقيقي الذي يهدّد البناء الاجتماعي هو تحوّل منطق التاريخ إلى نمط استهلاكي غير منطقي ، وتحوّل عقلانيّة الحضارة إلى غريزة شهوانيّة غير عقلانية . والتاريخ والحضارة يُشكّلان منظومةً فلسفيّةً مُوحّدةً في الشعور والإدراك الحسيّ ، ومُوحّدةً للانعكاسات الاجتماعية القصديّة والعفويّة في الزمان والمكان . وكلّ توليد للوعي الخلاصي في التاريخ والحضارة هو بالضرورة تأسيسٌ للمعنى الإنساني في الظواهر الثقافية والعلاقات الاجتماعية . والثقافة هي إعادة ممارسة التاريخ الإبداعي من منظور أخلاقي ، والمُجتمع هو إعادة تكوين الجوهر الوجودي في بنية العقل الجمعي المُسيطر على تحولات الفعل الاجتماعي .

٢

إذا صَنَعَ الفعل الاجتماعي التجانس المركزي في شخصية الفرد الإنسانية، فإنّ بنية العقل الجمعي سوف تتنقل من تأويل أنساق التاريخ إلى تغيير أنماط المجتمع ، ممّا يُؤدّي إلى تفعيل وسائل التواصل بين المحتوى والشكّل ، وتجسيد المشروع الإنساني المُتكامل في الأحداث

اليومية القادرة على تكوين تصوّر ثقافي للذات والعالم ، من أجل تخليص التجارب الحياتية من التناقضات الداخلية ، وتطهير فلسفة التاريخ من المسلمات الافتراضية ، بحيث تصبح الحياة إطاراً معرفياً للفكر الخلاق والوجود الفعّال ، ويصبح التاريخ هوية جامعة للسيّاقات العقلانية والتشظّيات الواقعية . وينبغي الحفاظ على الفعل الاجتماعي كمشروع للخلاص يُعرف بذاته وليس بأضداده ، وكفكرة مصيرية تتوالد من ذاتها ، وليس كأيدولوجية مُسيّسة يُعاد تشكيلها من أجل إقحام الأفراد والجماعات في الانتماء المصلحي النفعي . والفعل الاجتماعي ليس حدثاً عابراً في تفاصيل الواقع المُعاش ، وإنما هو نسقٌ فلسفي عميق يَحْمِل خصائص تاريخ المُجتمع داخلياً وخارجياً ، ويُفرز مناهج لغوية تَجَمّع بين تشخيص الأحلام الإنسانية المكتوبة ، وبين تكوين آليات تفسيرها وأدوات توظيفها .

٣

المناهج اللغوية لا يقتصر دورها على التأثير في الأحلام المكتوبة والعناصر المهمّشة والحيوات المنسية . إنّ هذه المناهج تنبع من اللغة كجسد فلسفي ، ونظام تواصلية ، ومسار رمزي ، وتحوّل الأحداث اليومية إلى ظواهر ثقافية مُتجانسة ومُتكاملة ، اعتماداً على الطبيعة الأخلاقية للفعل الاجتماعي ، واستناداً إلى الجذور الحضارية ، والسياسات الإنسانية ، والهويّات التاريخية ، والماهيات الفكرية . واللغة هي سلطة المعرفة . ومع أنّ المعرفة نسبية وغير يقينية ، إلا أنّ الطريق إلى المعرفة هو اليقين ، والعمل أكثر أهمية من النتيجة ، لأنّ العمل تحت سيطرة الإنسان ، لكنّ النتيجة خارج سيطرته . وكلّ إنسان مُتأكّد أنّه يسير في طريقه ، لكنه غير مُتأكّد من الوصول إلى هدفه . وهذا يعني أنّ الطريق الحياتي هو الطريقة الوجودية ، وأنّ الإنسان يُؤسّس مصيره أثناء اختيار مساره. وهذا يفرض على الإنسان أن يبنّي تصوّرات صحيحة حول نفسه، وطبيعة بنيته الوظيفية في الحياة، لكيلا يُمارس الماضي في الحاضر، ولا يتقمّص أقدار الموت في حياته، ولا يلعب دور الضحية في المسرحية، ولا يبنّي مجدّ أعدائه على خطّاه ، ولا يترك الآخرين يصعدون على ظهره ، لأنّ الانحناء شديد الخطورة ، فقد لا تأتي الفرصة للنّهوض مرّة أخرى .



رمزية اللغة وسيطرة الإنسان على الطبيعة

١

وظيفة رمزية اللغة هي إيجاد الهويات المُتَشَبِّهة في العلاقات الاجتماعية ، وتحويل التجارب الشخصية إلى مفاهيم ثقافية مركزية في البناء الشعوري للفرد، والسلطة الاعتبارية للجماعة، والمنهج التقدي للشرعية التاريخية، والمعيار الإنساني للمشروعية الحضارية. ووظيفة رمزية اللغة لا تنفصل عن مهمة الظواهر الثقافية في المجتمع ، وهي إيجاد نظام أخلاقي متكامل يعمل على تطوير الأفكار الإبداعية ، وتعزيز تأقلم الفرد والجماعة مع تقلبات الواقع وأزماته، وتفكيكها معنوياً ومادياً، وتأويلها شكلاً ومضموناً، من أجل تحديد تأثيراتها على العقل الجمعي ، الذي يمثل خلاصاً معرفياً قائماً بذاته ، ومسيطرًا على البنية الوظيفية للهوية الاجتماعية بوصفها محاولة لتحرر شخصية الفرد الإنسانية من قيود البيئة وضغوطات الطبيعة ، ومهيمنًا على مركزية الوعي في الواقع بوصفها صيرورة تاريخية تكشف الأنساق الكامنة والعناصر المكبوتة في الحياة اليومية ، على المستويين الفردي والمجتمعي. وإذا كانت صيرورة التاريخ تتجسد في رمزية اللغة وعياً وإدراكاً وإرادة ، فإن الحياة اليومية تتجسد في بنية الفعل الاجتماعي فكراً وممارسةً وتطبيقاً ، مما يؤدي إلى تفعيل الظواهر الثقافية كنظام عقلائي متجاوز لسياقات التفكير الاستبدادية ، وكمنظومة حضارية حاملة لماهية الإنسانية . واتخاذ النظام العقلائي والمنظومة الحضارية يمنع فصل الوعي عن الواقع ، ويردم الفجوة بين صناعة الثقافة وتعقيدات الحياة اليومية . وكل نظام عقلائي يحتاج إلى أدوات تنقيب عن آثار سلطة المعرفة في العلاقات الاجتماعية ، وكل منظومة حضارية تحتاج إلى آليات تفسير لرمزية اللغة في التجارب الشخصية والثقافة المتجانسة .

٢

سيطرة العقل الجمعي على رمزية اللغة شكلياً وموضوعياً، وسيطرة الإنسان على الطبيعة معنوياً ومادياً ، تُحددان المفهوم الفلسفي للسيطرة ، وتساهمان في تحليل النسيج الاجتماعي ، واكتشاف عناصره الأولية ، واستخراج أنويته الداخلية ، فتتكسّر الإرادة الإنسانية كميّار حقيقي للوجود العابر للحدود ، وتصبح الشرعية التاريخية اكتشافاً دائماً لسلطة المعرفة ، وتحليلاً عميقاً لوظيفة الهوية ، وتجسيذاً منهجياً لماهية الحضارة . وإذا كان المجتمع يُكَيّف ذاته مع إفرازات سلطة المعرفة لإعادة بناء هويته باعتبارها حالة خلاص، وليست نسفاً استهلاكياً ، فإن الإنسان

يُؤَسَّسُ ثِقَافَتَهُ عَلَى نَمَطِ التَّفَكِيرِ وَالْفِعْلِ الاجتماعي ، لربطِ مَصْلَحَتِهِ بتفاصيل العَالَمِ الْمُتَغَيِّرِ مِنْ حَوْلِهِ . ونمطُ التفكير لا ينفصل عن حُرِّيَةِ الذاتِ ضمنِ النظامِ الأخلاقي المُتكامِلِ ، والفعلُ الاجتماعي لا ينفصل عن التَّحَرُّرِ مِنْ ضَغْطِ اللحظة الآنيَّةِ . والتفكيرُ الذي يَسْتَطِيعُ توليدَ الفعلِ ، يَسْتَطِيعُ إنشاءَ تاريخٍ جديدٍ للمُجْتَمَعِ يَقُومُ عَلَى الأفكارِ الإبداعيةِ ، وَلَيْسَ التقسيمُ الزمني لمراحل الواقعِ المُعَاشِ .

٣

للإنسانِ تاريخان : تاريخٌ مَعْنَوِي (دِينَامِيكِي) ناتج عن حركة الأفكار في الذهن ، وانعكاسها على الظواهر الثقافية في المجتمع ، وتاريخٌ مَادِي (مِيكَانِيكِي) ناتج عن حركة الزمن في الطبيعة ، وانعكاسها على مسار الأحداث اليومية. واندماجُ التاريخين معًا هو الطريق إلى اكتشافِ رُوحِ المَكَانِ في الحضارة ، والمكانُ هنا لَيْسَ تُرابًا وَحِجَارَةً ، وإنما مَنظُومَةٌ فلسفية حاملة لأشواق الإنسان وذِكْرِيَّاتِهِ . وَرُوحُ المَكَانِ هي السُّلْطَةُ والمَاهِيَّةُ اللتان تَبْقَيَانِ بعد اندثار المَكَانِ . وَسِحْرُ الزمن في التاريخ والحضارة لا يأتي من حركة عقارب الساعة ، وإنما يأتي من اكتشافِ الإنسان للأحلام الكامنة في أعماقه ، وَتَفَاعُلُهُ مَعَ جَسَدِ المُجْتَمَعِ ، وَتَجَسُّدِ رمزية اللغة في المُجْتَمَعِ .

٤

للمُجْتَمَعِ طبيعتان : طَبِيعَةٌ جَمَالِيَّةٌ (فِطْرِيَّةٌ) ناتجة عن الحُرِّيَةِ الاجتماعية ، وتأثيراتها في الوجدانِ الشَّعْبي ، والمَاضِي المُسْتَعَاد ، والخُلُمُ المُسْتَعَار . وطَبِيعَةٌ ثَقَافِيَّةٌ (مُعَقَّدَةٌ) ناتجة عن صِنَاعَةِ الوَعْيِ في فلسفة البناء الاجتماعي الممتدة من قُوَّةِ الإرادة الإنسانية إلى المعايير الأخلاقية المُوجَّهَةِ للسلوكِ الفردي والإدراكِ الجَمَاعِي . واندماجُ الطَبِيعَتَيْنِ معًا هو الطريقُ إلى استخراجِ العناصرِ الجوهرية من الأفكار البسيطة والآمالِ المكبوتة ، واكتشافِ الفردِ لِثَرَاتِهِ الشخصي الضائع في ضجيجِ الحياة اليومية . وهذا الثَّرَاثُ لَيْسَ بِحَثٍّ عن مَجْدٍ وَهَمِي في سُلْطَةِ الزمن المَاضِي ، وإنما هو كَيَانٌ وُجُودِي ومنهج اجتماعي يَجْعَلُانِ الفردَ يُضِيءُ ولا يَحْتَرِقُ ، وَيُضَحِّي مِنْ أَجْلِ المُجْتَمَعِ ، وَلَكِنْ لا يَكُونُ ضَحِيَّةً لَهُ .

*

التاريخ والأشكال الثقافية وسلطة المعرفة

١

العلاقات الاجتماعية لا ترفض التاريخ ، وإنما تُعيد صياغته وفق أشكال ثقافية تتلاءم مع مصادر المعرفة المتجددة في الوعي والواقع، ووصولاً إلى قاعدة البناء الاجتماعي التي يتم تأسيسها باستمرار على الوعي بالواقع، كنظام فلسفي توحيدي للأحلام الإنسانية ، والأفعال المنطقية ، والأشياء المُهمَّشة ، والذكريات المُنسية . وكلُّ نظامٍ فلسفي هو بالضرورة منظومةٌ لغوية رمزية تُحدِّد الأدوار الاجتماعية التي يقوم بها العقل الجمعي ، بوصفه شرعيةً أخلاقيةً وسلطةً ثقافيةً تُمثِّلان محاولةً لتفكيك عناصر الزمن الحاضر لمَسَارَاتِ الفرد الوجودية ، وإنجازات المجتمع الحضارية ، من أجل الربط بين فلسفة التاريخ والأحداث اليومية ، واعتبار طريقة التنقيب عن معنى للحياة طريقاً للخلاص ، وليس عبئاً على كاهل اللغة ، أو أداة اضطهاد للأفكار الإبداعية ، أو آلية قمع للتفاعلات الاجتماعية . والبحث عن الحياة في تفاصيل المجتمع الاستهلاكي يُمثِّل حياةً جديدةً ، وهذا يعني أن شخصية الفرد الإنسانية ليست خطأً أحاديًا ، وإنما هي شبكة مُعقدة تنتشر في عملية الانتقال من طبيعة الهوية إلى ماهية المرجعية الحاكمة على الهوية. وإذا كانت المعرفة لا تُوجد بمَعزِل عن السلطة المسيطرة عليها، فإنَّ الهوية لا تُوجد بمَعزِل عن المرجعية الحاكمة عليها.

٢

الأشكال الثقافية هي جَسَدُ المجتمع المُتحرِّر من الاغتراب والاستلاب، والتجسيد الواعي للعقلانية النابعة من المنفعة العامة ، وليس تضارب المصالح الشخصية . والأشكال الثقافية تُؤسِّس فلسفةً جديدةً للزمن في الذات الإنسانية ، وتُكرِّس معنى المسؤولية الاجتماعية في جوهر الحياة العملية ، ممَّا يُؤدِّي إلى صناعة شروط التوازن بين الحقيقة المعرفية المطلقة والمصلحة المادية النسبية ، ضمن الشرعية الأخلاقية القادرة على توفير الغطاء للفعل الاجتماعي ، والدفع به باتجاه تغيير التأمُّلات الوجودية حول الإنسان والبيئة والطبيعة، وليس الاكتفاء بتفسير التأمُّلات الوجودية ، وتوظيفها في الوقائع التاريخية والأحداث اليومية، للسيطرة عليها وتفريغها من المحتوى الإنساني ، والأسئلة المصيرية . وإذا كانت الفلسفة تنبع من زاوية رؤية الإنسان لذاته المُتَشَطِّية ، وعوالمه المُتكاثره ، وأحلامه الكامنة في الوعي الحقيقي لا الزائف ، فإنَّ الثقافة تنبع من طريقة تعامل الإنسان مع إفرازات النظام الاستهلاكي الميكانيكي المُنغلق على نفسه، والمُغلق أمام حرية الفكر.

ووظيفَةُ الفِعْلِ الاجتماعي في المَسَارِ اللغوي والسِّيَاقِ المعرفي هي دُمُجُ الفلسفة والثقافة لإعادة تأسيس العقل الجَمْعِي على الإبداع لا الاتِّباع، ودُمُجُ شخصية المُجتمع وإرادة الإنسان في كينونة الحضارة القائمة على العقلانية لا الدَّمَاءِ.

٣

سُلْطَةُ المعرفة هي التَّجَلِّي الحقيقي للهَوِيَّةِ الإنسانية في مُجتمعٍ ضاغِطٍ عليها، وعَالَمٍ مُتَحَكِّمٍ بها . والهَوِيَّةُ الإنسانية تُحتاج إلى مُجتمعٍ حَيٍّ وَحُرٍّ يَحْمِلُهَا شِعَارًا وَمُضْمُونًا ، مَظْهَرًا وَجَوْهَرًا ، ويتعامل معها باعتبارها قاعدةً للبناء الاجتماعي ، وليس شيئًا هامشيًا ضائعًا في تفاصيل النظام الاستهلاكي الميكانيكي . وإذا كَانَ الخَوْفُ مِنَ الإطارِ الزَّمَنِيِّ (الحاضر والمستقبل) يُعْطِلُ قُدْرَةَ الإنسان على التفكير ، فَإِنَّ الخَوْفَ مِنَ الإطارِ المَكَانِيِّ (المَكَانِ والمَكَانَةِ) يُعْطِلُ قُدْرَةَ المُجتمع على التَّقَدُّمِ . ولا بُدَّ أن يقوم الفِعْلُ الاجتماعي بتشكيل أنساقٍ واعية مُتَّصِلَةٌ بالواقع ، وَغَيْرُ مُتَعَالِيَةٍ عليه ، مِنْ أَجْلِ تأسيسِ الفِكرِ النَّقْدِيِّ القادر على تخليص الإنسان والمُجتمع من الخَوْفِ بِمُواجهته وافتحامه ، والإجابة عن الأسئلة الوجودية المصيرية ، وعدم التَّهَرُّبِ مِنْهَا . والفِكرُ النَّقْدِيُّ مُرتَبِطٌ بالأشكال الثقافية ، ولا يَنْفَصِلُ عنها ، وهذا يَتَطَلَّبُ تحرير الفلسفة مِنَ العُزْلَةِ والانعزال ، وربطها بالعلاقات الاجتماعية في كُلِّ مراحل تَشَكُّلِهَا، الأمرُ الذي يُعيد الفلسفة إلى الحياة ، والحياة إلى الفلسفة ، وَيَمْنَحُهَا الشرعيةَ والحيويةَ والفاعليةَ ، مِمَّا يَعْنِي تعزيزَ الفِكرِ النَّقْدِيِّ ، وتفعيلِ الأشكال الثقافية ، لأنَّ الفلسفةَ هي حقيقةُ المَعْنَى التي تَكْشِفُ آليَّاتِ الهَيْمَنَةِ على تأثيرات العقل الجَمْعِيِّ، وهذا الكَشْفُ يُسَاهِمُ في تَوَلِيدِ نَفْدٍ مُسْتَمِرٍّ لعلاقة الإنسان بِنَفْسِهِ وَمُحِيطِهِ ، وتأسيسِ نشاطٍ عقلائي يَكُونُ حَاجَزَ الزاويةِ في البناء الاجتماعي ، وإطارًا جامِعًا للمعرفة والمصلحة .

*

تَحَوُّلاتُ المعنى الوجودي في أنساق الحياة

١

اكتشافُ المعنى الوجودي في العلاقات الاجتماعية يحتاج إلى تكوين آليات لغوية لتحليل بُنية التاريخ ، ونَقْلُها من الإطار الزمني التجريدي إلى المنهج المعرفي التوليدي، لأنَّ الزمن ليس مقصودًا لذاته ، بل هو جَسْرٌ نَحْوَ الحقائق الشُّعورية ، والتفاعلات الرمزية ، والثقافة الواعية ، ومصادر المعرفة . والزمنُ — كَجَوْهَرٍ فِكْري وجَسْرٍ حَياتي — هو التَّجَلِّي الحقيقي لعلاقة الإنسان بِنَفْسِهِ العميقة ، والانعكاسُ المنطقي لعناصر المكان التي تتجدد في صيرورة التاريخ ، لتُصبح زمنًا داخلَ الزمن . وهذا التداخلُ ضروري لجعل المعنى الوجودي حاضرًا في كَيانِ الإنسان ، وكيونته المُجتمع ، وجسد التاريخ ، وروح الحضارة . وإذا كانت العلاقات الاجتماعية هي الحاجز الفلسفي بين الذاكرة الإبداعية والتجربة الواقعية ، فإنَّ الآليات اللغوية هي الوَعْي المركزي الذي يستعيد الإنسان من مَتَاهة الغِيَاب، ويَمْنَعُ فَصْلَ هُويَّةِ المُجتمع عن ماهيَّة الثقافة . وغِيَابُ الإنسان تَغْيِيبٌ لمفهوم الحُرِّيَّة عن الذات والموضوع، لأنَّ الإنسان كُلُّ لا يَتَجَزَّأ، وحياة الإنسان لا تَنفصل عن مفهوم الحُرِّيَّة وقيمة التَّحَرُّر ، ومصادر المعرفة لا تَنفصل عن شروطها الواقعية وخصائصها الوجودية ، وإذا ثَبَتَ الشَّيْءُ ثَبَتَ لوازمه . والمعنى الوجودي — فلسفيًا واجتماعيًا — هو الطريقُ إلى تأسيس منهج نَقْدِي فَعَالٍ في حُقُول المعرفة ، وهذا من شأنه علاج إشكاليَّة غُربة الإنسان في منظومة المجتمع الاستهلاكية ، وحلُّ مُشكلة التناقض بين الأحلام الفردية والطُمُوحات الجماعية، وَسَدُّ الفَجْوَةِ بين واقعية الفِكر ورمزية اللغة . وإذا صارت حُقُولُ المعرفة أحداثًا يومية مُعاشة يتمُّ التفاعل معها والانفعال بها، فإنَّ فلسفةً عميقةً سَتَظْهَرُ في العلاقات الاجتماعية، يَوْصِفُهَا شَبَكَةٌ لامتناهيَّة من الدَّلالات النظرية والمُمَارَسات العملية. وشرعية الفلسفة مُستمدة من تفاصيل الواقع اليومي، وليس من تقليد الفلسفات الأخرى ، وهذا يدل على أهمية نقل المعنى الوجودي من المُحاوَلات التأويلية إلى المنهج النَّقْدِي، ومن المنهج النَّقْدِي إلى الرُّؤية الشُّمولية القادرة على تحويل المنظور الذهني إلى نظرية واقعية، والماهيَّة الثقافية إلى هُويَّة وجودية ، والكيوننة الحياتية إلى سُلْطة معرفية ، والبناء اللغوي إلى بُنية وظيفية .

٢

المعنى الوجودي مُرتبط بالأنظمة الاجتماعية والظواهر الثقافية، وهذا الارتباط يُقدِّم تفسيرات منطقية لرمزية اللغة في الروابط بين عوامل تكوين أنسجة المُجتمع وشروط تكريس مصادر المعرفة.

والمُجتمع كينونة وجودية، والمعرفة سُلطة نَقْدِيَّة ، والتلاحم بين المُجتمع والمعرفة يُؤلّد نسقاً زمنياً عابراً لحدود المكان ، وقادراً على تحويل دَوَر الفلسفة من رمزية اللغة إلى التفاعلات الرمزية في العلاقات الاجتماعية ، ممّا يُساهم في إنشاء قاعدة أخلاقية يقوم عليها الفِعل الاجتماعي باعتباره القُوَّة الضاربة للعقل الجمعي ، وأيضاً ، تحويل وظيفة التُّراث من الفاعلية التاريخية إلى الفاعلية الحضارية ، ممّا يُؤدّي إلى صناعة الوَعْي الذي يُوازن بين المِعيَّار الأخلاقي وشخصية الفرد الإنسانية ، ويمنع تحوُّل الإنسانية إلى شيءٍ زائد عن الحاجة ، أو سلعةٍ في منظومة العرض والطلب . وكلّما تَكَرَّس التَّمَاهي بين العقل الجمعي والآليات اللغوية الناقدة له ، انتشرت إفرازاتُ الذكرة الإبداعية في الوَعْي التاريخي والحضاري، كإطارٍ جامع لفلسفة الماضي المنعكسة على سياقات الواقع الراهن . وتأويلُ الوَعْي التاريخي والحضاري لُغويّاً واجتماعيّاً وفلسفيّاً في غاية الأهمية ، لأنَّه الضَّمانة الأكيدة لمنع تحوُّل الشُّعور الإنساني إلى أداة ميكانيكية ، ومنع تحوُّل الإنسان إلى آلة ، ومنع هيمنة الآلة على الإنسان والطبيعة .

٣

المعنى الوجودي لَيْسَ شكلاً ثابتاً أو بُنيةً مُتَحَجِّرةً ، وإنّما هو جَسَدٌ سائلٌ يحتاج إلى تجسيد في المنهج النّقدي والعقل الجمعي ، لحماية العلاقات الاجتماعية من التَّحوُّل إلى أوهام تائهة بين الهُويَّة والماهيَّة. ومع أنَّ الهُويَّة والماهيَّة محكومتان بِسِيَّاقٍ تاريخي ونسقي حضاري ، إلا أنَّهما حاكمتان على الوسائل والغايات ، وهذا يَغني أنَّ لهما تأثيراً كبيراً في المضمون الإنساني للظواهر الثقافية ، وطريقة تكوين المعايير الأخلاقية في البناء الاجتماعي ، ممّا يُؤسِّس حالة توازن ديناميكي بين النسق الفكري (الحقيقة والمنهج)، والنسق الواقعي (النظرية والممارسة) ، والنسق الاجتماعي (المعرفة والمصلحة) ، والنسق الثقافي (الذات والموضوع) ، ممّا يُنقّي الوقائع التاريخية من الوَعْي الزائف، ويُطهِّر التُّراث من التأويل المصلحي المُعرَض . وإذا كانت الهُويَّة لا تَنفصل عن التُّراث الرُّوحي والمادي ، فإنَّ الماهيَّة لا تَنفصل عن الرمزية اللغوية والاجتماعية ، وهذا يَغني استحالة اختزال الوجود الإنساني في المُسلِّمات الافتراضية ، والأحكام المُسبَّقة ، والقوالب الجاهزة. فالوجود الإنساني نهْرٌ دائمُ الجريان ، وليس كتلةً أُسمنتية محصورة في الأطر الزمنية والحدود المكانية . وكلُّ وجودٍ يَشُقُّ مَعْنَاهُ ، كما يَشُقُّ النهرُ مَجْراه . وهذا يُؤلّد نقداً مُستمرّاً للتاريخ ، ويمنعه من التَّحوُّل إلى أُسطُورة مُتعالية ، كما يُؤلّد نقداً مُستمرّاً للحضارة ، ويمنعها من التَّحوُّل إلى أيقونة مُقدَّسة .

الوجود والثقافة والمعرفة

١

الرابطة الوجودية بين الظواهر الثقافية ومصادر المعرفة تمثل منظومة اجتماعية حاضنة للتفاعلات الرمزية المسيطرة على علاقة الفرد بنفسه وبيئته ومجتمعه. والتفاعلات الرمزية جوهر أخلاقي متجانس، ونسيج متشابه من الصور الذهنية والأحداث الواقعية، يؤدي إلى إنتاج آليات لغوية قائمة على تأويل تفاصيل الواقع المعاش، وتفكيك أدوات الهيمنة السلطوية على الوقائع التاريخية، واستنباط المعاني الكامنة في السلوكيات الفردية والمصالح الجماعية، وصناعة عوالم فكرية قادرة على صهر الماضي والحاضر والمستقبل في بوتقة واحدة، وفتح الزمن على جميع التفسيرات للمعنى الحاكم على السياق الاجتماعي، والمحكوم بطبيعة السلوك الإنساني، والمتحكم بشروط إنتاج المعرفة في العناصر التاريخية المحيطة بشخصية الفرد الإنسانية، باعتبارها كياناً حياتياً مركزياً، وكيونة لغوية متجددة. وإذا كان التاريخ - كوعي خلاصي وإدراك رؤيوي وإرادة إنسانية - توليداً مستمراً لفلسفة السلطة في المعرفة جسدياً ومعنوياً، فإن اللغة - كسلوك مجتمعي ومضمون إبداعي ومشروع تحرري - إعادة صناعة للنواة الأساسية لهوية المجتمع روحياً ومادياً. وعندما يتحرك التاريخ باتجاه اللغة، فإن تفاصيل الحياة الملموسة تصبح مركزاً متجذراً يستعيد الهوامش، ومنهجاً عقلياً يُحرر السياق الاجتماعي من الكبت، وزمناً متشعباً يعيد العناصر المنسية إلى ذاكرة المجتمع، بوصفها فعلاً وفاعلياً وتفاعلاً. وعندما تتحرك اللغة باتجاه التاريخ، فإن تعقيدات المشاعر الإنسانية تصبح جوهرًا فلسفيًا يُولد الأسئلة المصيرية في التراث، ومنظومة معرفية تركز مركزية الذات في الذكريات، ومرجعية رمزية تحلل الدور الحضاري للمنطق اللغوي والعقل التاريخي.

٢

الوجود صناعة مستمرة للخبرات العملية، والثقافة إنتاج دائم للأسئلة المصيرية، والمعرفة تشييد متواصل للبناء الاجتماعي. وهذه الأركان الثلاثة (الوجود والثقافة والمعرفة)، تمثل نظاماً محورياً لا يتعالى على التاريخ، ولا يُقيم قطيعة مع أنساقه، وإنما يؤسس مناهج اجتماعية للكشف عن الشروط الضرورية لتوظيف الأفكار الإبداعية في عملية تفسير مصادر المعرفة، من أجل دمجها مع الآليات اللغوية التي تُساعد العقل الجمعي على تحويل الوعي الحضاري إلى تاريخ مشترك بين

ماهية الوجود الحي والحر (طبيعة الفرد وهويته المجتمع) وماهية النشاط الواقعي والعقلي (دينامية الحياة اليومية والصيرورة الزمنية المكانية) . وإذا كانت الظروف المعيشية تؤثر في تراكيب الهوية والماهية سلبيًا وإيجابيًا ، فإنَّ العقل الجمعي يؤثر في تفاصيل الحياة اليومية ، ويستطيع منح الشرعية لها أو نزعها عنها . والامتحان الحقيقي لا يكمن في قدرة الفرد على تغيير مجتمعه ، وإنما يكمن في قدرة الفرد على تغيير نفسه، من أجل إعادة بناء مجتمعه ، باعتباره هوية وجودية قائمة بذاتها ، ومتفاعلة مع العناصر المحيطة بها ، ومتجانسة على صعيد البنية التحتية والبنية الفوقية ، ومندمجة مع عملية تحويل الظواهر الثقافية ومصادر المعرفة من الكيان إلى الكينونة، ومن الذات إلى الطبيعة ، ومن النظرية إلى التطبيق . والمجتمع ليس مرحلة زمنية عابرة ، وإنما هو زمن متجدد ومتكاثر يلد نفسه بنفسه، لذلك كانت العلاقات الاجتماعية حاضنة للأزمنة المختلفة. وكما أنَّ الروابط بين الأشياء أهم من الأشياء ذاتها ، كذلك العلاقات بين الأزمنة أهم من الأزمنة ذاتها .

٣

الثقافة تطهر الوجود من الوعي الزائف ، والمعرفة تنقي الوجود من الإدراك الوهمي ، مما يؤدي إلى منع العلاقات الاجتماعية من إنتاج ذاتها ضمن المسلمات الافتراضية المغرصة ، والمصالح الشخصية الضيقة . وكل تطهير للوجود ثقافيًا ومعرفيًا يؤدي — بالضرورة — إلى تطهر في العلاقات الاجتماعية شكلاً ومحتوى ، وهذه العملية لا تقوم على الآلية الميكانيكية ، بل تقوم على القصديّة الواعية، التي تستطيع تحرير الفرد من المآزق الوجودي في بيئة معقدة وعالم مركب. والمآزق الوجودي هو النتيجة الحتمية لخوف الفرد من نفسه ومستقبله ، وعدم رضاه عن أدائه الحياتي . وهذا يعني انفصال الفعل الاجتماعي عن فاعليته المعرفية ، فتصبح حياة الفرد حركة محصورة بين الحدود الزمنية والمكانية بلا أثر ولا تأثير ، وتصبح السلطة الاعتبارية للفرد مجرد دوران في حلقة مفرغة ، وعندئذ يعجز عن الانطلاق من تغيير نفسه إلى تغيير مجتمعه . لذلك ، يجب على الفرد — إذا أراد أن يكون فاعلاً في الأحداث اليومية — أن يحول عقله إلى أداة لصناعة المفاهيم الجديدة، التي تقدر على توليد المعنى لا نسجه ، وإبداع المفاهيم لا تقليدها ، ومواجهة الواقع لا الهروب منه .



اللغة والعقل الجمعي في فلسفة حركة التاريخ

١

الرّمزية اللغوية في العلاقات الاجتماعية تُمثّل شبكة من الأفكار الإبداعية والتجارب الوجودية والظواهر الثقافية، وهذه الشبكة تُساهم في إعادة تعريف مصادر الوعي في حقول المعرفة، ونقل شخصية الفرد من البراءة إلى الخبرة، وتحويل التفاعل الاجتماعي من تراكيب الفطرة الإنسانية إلى عناصر المنهج العلمي والعملية، الذي يقوم على تحليل دور المجتمع في فلسفة حركة التاريخ ومنطق العقل الجمعي . وكلّ منهج فعّال هو بالضرورة ثورة لغوية تُغيّر طريقة تفكير الفرد، بحيث يندمج الوعي مع الأحداث اليومية، ولا يتعالى عليها، ولا ينفصل عن السياقات الحضارية الموجودة في البناء الاجتماعي والبنية الوظيفية للواقع المعاش. والثورة اللغوية غير محصورة في نطاق طبيعة الألفاظ ومركزية المعاني، وغير محدودة في إطار إشارات التفاهم ودلالات التواصل . إنّ الثورة اللغوية حياة قائمة بذاتها ، ومُكمّلة بنفسها، وهي هيكل معرفي عابر للحواجز الزمنية ، ونظام اجتماعي مُتجاوز للحدود المكانية. والمجتمع القائم على ثنائية (الرّمزية اللغوية / الثورة اللغوية) لا يؤكّد في الفراغ ، ولا يؤسّس للعدم، لأنّ اللغة هي القوّة الدافعة للعلاقات الاجتماعية، والمُحرّك الأساسي للفكر والإبداع ، والرافعة الحقيقية للمعايير الأخلاقية. وهذه الحركة الدؤوبة اجتماعياً وفكرياً وأخلاقياً تجعل هويّة المجتمع مُتماسكة ، ولا تُحيل إلى غائب ، وإنّما تستعيد التجارب الحياتية من الغياب ، وتسترجع أحلام الفرد من الاستلاب .

٢

تاريخ العلاقات الاجتماعية ليس رُجوعاً إلى الزمن الماضي أو هروباً من المكان الحاضر ، وإنّما هو خطّاب وجودي يُعاد تشكيله باستمرار كواقع محسوس يُنقّب عن سلطة المجتمع في ماهية الفرد، ويكشف حقيقة اللغة في عملية إعادة إنتاج المعرفة، باعتبارها تأسيساً للمعنى الإنساني في مواجهة قسوة الأحداث اليومية ، وخشونة الوقائع التاريخية . وهذا التأسيس يُؤدّي إلى تحويل مصادر الوعي إلى منظومة من الأسئلة المصيرية ، من أجل اختبار الماضي لا تقدّيسه ، وتفسير الحاضر لا تحنيطه . وبالتالي ، تنتقل العلاقات الاجتماعية من حالة الأسطورة إلى بنية المُساءلة ، وتنتقل الظواهر الثقافية من وُضعية الأيقونة إلى مشروعية التأويل ، ممّا يكسر وصاية المادية الاستهلاكية على اللغة والمجتمع ، ويصنع هويّة معرفية خالية من التناقض ، وذات طبيعة

إنسانية بعيدة عن المصالح الشخصية الضيقة ، والتفسير المُغرض لمسارات التاريخ في العقل الجمعي والتجارب الوجودية والتفكير الأخلاقي . وإذا كان الكيان الإنساني هو النظام الجامع لئنية الفعل الاجتماعي ومضمونها وتأويلها ، فإن الكينونة المجتمعية هي المنظومة الجامعة للظروف المادية زمنياً ومكانياً ، والرؤية الفلسفية لهذه الظروف ضمن شروط بناء التاريخ في الحضارة ، وعوامل قيام الحضارة في فلسفة حركة التاريخ . وهذا التداخل من شأنه إعادة تفسير محاولات سيطرة الفرد على ذاته ومحيطه ، وهيمنة المجتمع على مساره ومصيره . والتحدّي الأبرز في هذا السياق يتجلى في كيفية منع الآلة من السيطرة على الفرد (حماية الشعور الإنساني من التحوّل إلى نظام ميكانيكي) ، ومنع المجتمع من استنزاف موارد الطبيعة لتحقيق رفاهيته ، وتكريس سلطته ، وتعزيز سيطرته .

٣

اللغة تمنع العقل الجمعي من التحوّل إلى أداة لقمع أحلام الفرد ، ممّا يؤدي إلى صناعة نظام اجتماعي قائم على القيم العقلانية والوعي التقدي . واللغة تحافظ على التوازن بين المجتمع والطبيعة ، ممّا يؤدي إلى تكوين بيئة إبداعية قائمة على المعايير الأخلاقية والتعبير الجمالية . وإذا كان الهدف من النظام الاجتماعي هو دمج هوية الفرد مع سلطة اللغة ، فإن الهدف من الوعي التقدي هو تحرير إنسانية الفرد من الخوف ، وإعادة تشكيل ملامح شخصيته الوجودية بحيث تصبح آلية معرفية للانعقاد من تسليع الكيان الإنساني (تحوّل إلى سلعة ضمن ثنائية العرض والطلب) ، والتحرّر من الرابطة النفعية المادية التي تجعل البناء الاجتماعي شيئاً قابلاً للبيع والشراء . ولا يمكن للمجتمع أن يترك بصمة مؤثرة في فلسفة حركة التاريخ إلا إذا تمّ بناء العلاقات الاجتماعية وفق منطق اللغة، وليس منطق السوق، وهذا يتطلب حماية شخصية الفرد الإنسانية من أثر الاغتراب وتأثير الاستلاب ، وتحليل البنية الوظيفية الجوهرية في الأنساق اللغوية والسيقات الواقعية ، ممّا يمنح الفرد القدرة على تجاوز الواقع ، من أجل صناعة واقع جديد قائم على الوعي الحقيقي لا الزائف . والوعي الحقيقي لا يتكرّس كهوية وسلطة وشرعية ، إلا إذا نجح في انتشار الأفكار الإبداعية المقموعة في أعماق الذاكرة الوجودية للفرد والمجتمع . وهذا يحقق التجانس في الحراك المجتمعي وحركة التاريخ معاً ، ويحمي المعنى من الغياب ، ويخرس العقل الجمعي من الغيبوبة .

فلسفة اللغة وتحرير الفعل الاجتماعي

١

الفعل الاجتماعي _ على الصعيدين التاريخي والرمزي _ يُمثّل توليداً مُستمراً للفكر والشعور ، وهذا يُؤدّي إلى صناعة إطار مرجعي يشتمل على تفاعلات اللغة مع شخصية الفرد الإنسانية ، ويُساهِم في تكوين فهم عميق للعلاقة التبادلية بين مضامين الوعي الواقعي وتراكيب العوالم الذهنية، التي يبتكرها الفرد لإيجاد بناء اجتماعي خيالي يُوازي الواقع المادي ، ويتعالى عليه. والانفصال بين الواقع الذي يعيش فيه الفرد ، والواقع الذي يعيش في الفرد ، هو نتيجة طبيعية لضغط الأنساق الاستهلاكية الخشنة على السلوك الفردي والطموح الجماعي. وهذا الضغط يدفع الفرد والجماعة إلى إنشاء تفسيرات مُتنوّعة للحياة، وتأويلات مُتعدّدة لبُنية اللغة، ضمن السياق الاجتماعي ، بحثاً عن معنى لمركزية الفكر وجوهر الشعور . وإذا كان الدافع الإنساني _ فردياً وجماعياً _ يُعيد تشكيل الواقع المادي استناداً إلى رمزية اللغة وخصائص الفعل الاجتماعي ، فإنّ العقل الجمعي يُعيد تكوين مصادر المعرفة اعتماداً على المصالح الشخصية والمنافع العامة ، أي إنّ المجتمع _ بكلّ هياكله الوجودية وآلياته اللغوية وأدواته الاجتماعية _ يُطوّر المعرفة كي تخدم شرعية النسق الحياتي الذي يقوم على البنية اللغوية والفعل الاجتماعي . وهذا يعني انتقال المعرفة من القوّة الذاتية المُكتملة بنفسها إلى الفاعليّة المركزية في العلاقات الاجتماعية، وتحوّل هويّة اللغة (وسيط تواصلي) إلى سلطة اجتماعية (وسط إبداعي) .

٢

فلسفة اللغة تُحرّر الفعل الاجتماعي من الوعي الزائف ، وهذا يُكرّس العقلانية كنزعة إنسانية عابرة للحدود الزمنية والحواجر المكانية، ويُجذّر الثقافة كتيّار معرفي مُتجاوِز للصراعات التاريخية، التي تدفع الفرد إلى تكوين رؤية أُحادية ضيقة ، واحتكار تفاصيل الحياة اليومية ، والسيطرة عليها ، وأدلجتها فكرياً وعملياً ، واستغلالها لتثبيت الذات كمرجعية أساسية ، وجعل الآخرين يدورون في فلكها. وهذا يعني أنّ الفرد يعتبر كيانه هو مركز الحقيقة ، وكلّ العناصر الخارجة عن مسارات كيانه أطرافاً عابرةً ، ويعتبر كينونته هي متنّ الوجود ، وكلّ العوامل الخارجة عن حدود كينونته هوامش تابعة . وتكريس الفرد لذاته _ كيّاناً وكينونةً وهويّةً وسلطةً _ ، وإلغاء ما سوى ذاته ، ونفْي ما عداها ، وإقصاء كلّ ما يُعارضها ، من شأنه حشّر الفرد في الزاوية الضيقة ، ودفعه إلى الانكماش على نفسه ، والتّفوّع عليها ، ورفض إنجازات الآخرين جُملةً وتفصيلاً ، وهذا لا يُؤدّي

إلى التَّطَرُّفِ فَحَسْبُ ، بَلْ أَيْضًا يَقُودُ الْفَرْدَ إِلَى تَدْمِيرِ نَفْسِهِ بِنَفْسِهِ ، لَأَنَّ قُوَّةَ الْآرَاءِ كَامِنَةٌ فِي تَنَوُّعِهَا ، وَشَرْعِيَّةُ الْوُجُودِ الْإِنْسَانِي مُسْتَمْدَةٌ مِنْ تَعَدُّدِ الشَّخْصِيَّاتِ وَتَلَافُحِ الْأَفْكَارِ . وَجُمُودُ الْفَرْدِ ذَاتِيًّا وَفِكْرِيًّا سَيُنْتِجُ سُلْطَةً وَهْمِيَّةً تَحْتَكِرُ الْحَقِيقَةَ ، وَتَتَحَدَّثُ بِاسْمِ عُنَاصِرِ الطَّبِيعَةِ . وَالْفَرْدُ إِذَا أُلْغِيَ الْآخَرِينَ ، فَهُوَ يُلْغِي نَفْسَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُ ، وَإِذَا رَفَضَ الْحَضَارَةَ فَهُوَ يَشْتَطِبُ تَارِيخَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَدْرِي . وَغُدُوبَةُ الْمَاءِ نَابِعَةٌ مِنْ جَرَيَانِهِ ، وَإِذَا اسْتَقَرَّ صَارَ آسِنًا .

٣

لَا يُمَكِّنُ تَحْقِيقَ التَّحَرُّرِ الْإِنْسَانِي إِلَّا ضَمْنُ الْإِطَارِ الْأَخْلَاقِيِّ ، وَهَذَا مِنْ شَأْنِهِ رَأْبُ الصِّلَعِ بَيْنَ اللُّغَةِ كَهَوِيَّةٍ وَجُودِيَّةٍ وَالثَّقَافَةِ كَتَيَّارٍ مَعْرِفِيٍّ . وَإِذَا كَانَ الْفِعْلُ الْجَمَاعِيُّ يَسْتَمِدُّ شَرْعِيَّتَهُ مِنَ اللُّغَةِ وَالثَّقَافَةِ ، فَإِنَّ التَّارِيخَ يَسْتَمِدُّ طَاقَتَهُ مِنْ عَمَلِيَّةِ الْبَحْثِ الدُّوْبِ عَنْ مَعْنَى الْأَشْيَاءِ وَمَنْطِقِ الْعِلَاقَاتِ . وَالْمُجْتَمَعُ يَعْتَمِدُ عَلَى الْقِيَمِ الْأَخْلَاقِيَّةِ وَالرَّمُوزِ اللُّغَوِيَّةِ وَالظَّوَاهِرِ الثَّقَافِيَّةِ ، مِنْ أَجْلِ إِعَادَةِ صِيَاغَةِ التَّأْوِيلَاتِ اللُّغَوِيَّةِ فِي فِلْسَفَةِ الْأَنْسَاقِ التَّارِيخِيَّةِ . وَلَا يُوجَدُ تَارِيخٌ بِدُونِ فِعْلٍ جَمَاعِيٍّ ، وَلَا تُوجَدُ فِلْسَفَةٌ بِدُونِ رَمْزِيَّةٍ لُّغَوِيَّةٍ . وَاللُّغَةُ تَعْتَمِدُ عَلَى الْمَعَانِي الْإِبْدَاعِيَّةِ وَالصُّوَرِ الذَّهْنِيَّةِ وَالْوَعْيِ الْوَاقِعِيِّ ، مِنْ أَجْلِ إِعَادَةِ صِنَاعَةِ شَخْصِيَّةِ الْفَرْدِ الْإِنْسَانِيَّةِ فِي الْبُنْيَةِ الْوُظُفِيَّةِ لِلسُّلُوكِ الْفَرْدِيِّ وَالْجَمَاعِيِّ . وَلَا يُوجَدُ سُلُوكٌ بِدُونِ هَوِيَّةٍ جَمَاعِيَّةٍ ، وَلَا تُوجَدُ شَخْصِيَّةٌ بِدُونِ سُلْطَةٍ اعْتِبَارِيَّةٍ .

٤

الْبُعْدُ الْجَمَاعِيُّ لِفِلْسَفَةِ اللُّغَةِ يَحْفَظُ التَّوَازْنَ بَيْنَ النِّظَامِ الْوَاقِعِيِّ الْعَمَلِيِّ (الْمَوْضُوعِ الثَّقَافِيِّ وَالْمَضْمُونِ الْإِنْسَانِيِّ) وَالنِّظَامِ الشَّخْصِيِّ الْعِلْمِيِّ (الشُّعُورِ النَّفْسِيِّ وَالْإِدْرَاكِ الْحِسِّيِّ) ، مِمَّا يُؤَدِّي إِلَى تَحْلِيلِ أبعادِ الْوَعْيِ الْوَاقِعِيِّ فِي الْفِعْلِ الْجَمَاعِيِّ ، وَدَمْجِهِمَا مَعًا فِي الظَّوَاهِرِ الثَّقَافِيَّةِ ، مِنْ أَجْلِ تَكْوِينِ مُجْتَمَعٍ دِينَامِيكِيٍّ مُتَحَرِّرٍ مِنَ الْأَوْهَامِ ، وَمُنْفَتِحٍ عَلَى التَّأثيرَاتِ الْحَيَاتِيَّةِ الْمُتَبَادَلَةِ بَيْنَ الْفَرْدِ وَبَيْنَتِهِ مِنْ جِهَةٍ ، وَبَيْنَ اللُّغَةِ وَالتَّارِيخِ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى . وَالتَّحَرُّرُ مِنَ الْأَوْهَامِ يُؤَدِّي إِلَى مُسَاءَلَةِ الْأَنْسَاقِ الْجَمَاعِيَّةِ ، وَالبَحْثِ فِي كَيْفِيَّةِ نُشُوتِهَا وَتَشَكُّلِهَا ، وَعَدَمِ اعْتِبَارِهَا مُسَلِّمَاتٍ فَوْقَ النِّقْدِ وَالنَّقْضِ ، وَعَدَمِ تَصْنِيفِهَا كَأَيْقُونَاتٍ مُقَدَّسَةٍ ، لَأَنَّ الْأَنْسَاقَ الْجَمَاعِيَّةَ صِنَاعَةُ إِنْسَانِيَّةٍ تَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ الْمَاهِيَّاتِ وَالْهَوِيَّاتِ . وَإِذَا كَانَ الْعُنْصُرُ الْجَمَاعِيُّ مُتَغَيِّرًا فِي الْوَقْعِ الْمُعَاشِ وَالْأَحْدَاثِ الْيَوْمِيَّةِ ، وَلَا يَتِمَّتْ بِالثَبَاتِ وَالْدَّيْمُومَةِ ، فَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى خُضُوعِهِ لِصَرِيرَةِ التَّارِيخِ الَّتِي تَتَأَثَّرُ - سَلْبًا وَإِيجَابًا - بِالتَّأْوِيلَاتِ اللُّغَوِيَّةِ الْمُخْتَلِفَةِ . وَالتَّارِيخُ يَمْلِكُ أَوْلَوِيَّةً عَلَى اللُّغَةِ فِي بُنْيَةِ الْفِعْلِ الْجَمَاعِيِّ ، وَاللُّغَةُ تَمْلِكُ أَسْبَقِيَّةً عَلَى التَّارِيخِ فِي جَوْهَرِ الْفِكْرِ الْإِنْسَانِيِّ .

البناء الاجتماعي والعقل الجمعي وتحرير الإنسان

١

الأنساق الفلسفية في البناء الاجتماعي نابعة من الهوية الوجودية للفرد في رحلة بحثه عن ذاته وحياته . ورحلة البحث ليست انتقالاً ميكانيكياً في الزمان والمكان ، بل هي انتقال ديناميكي في تأثيرات سلطة العقل الجمعي في مصادر التاريخ وقواعد المعرفة . وهذه التأثيرات مرتبطة بجذور المشروع الحضاري للمجتمع ، وقدرته على توحيد الذات والموضوع في منطق اللغة الرمزي الذي يتحكم بالعلاقات الاجتماعية ، وانعكاساتها على الأحداث اليومية والوقائع التاريخية. وسلطة المجتمع المعرفية لا تتجذر في الإدراك الحسي والوعي الفعّال ، إلا باعتماد التفكير النقدي في الواقع المعاش ، وتحرير الظواهر الثقافية من قيود الأحكام المسبقة والقوالب الجاهزة. وإذا كانت المعرفة تكتسب شرعيتها من صيرورة التاريخ ومركزية الوجود، فإن الهوية تستمد سلطتها من الترابط المصيري بين منطق اللغة الرمزي وأشكال الحياة اليومية . ولا يمكن أن تتحول صيرورة التاريخ إلى حالة خلاص مستمرة في المجتمع إلا بصهر المعرفة في الهوية ، وتدوين التجارب الشخصية في الأفكار الإبداعية الجماعية . وهذا من شأنه تطهير البناء الاجتماعي من الوعي الزائف ، وتحقيق التجانس بين المضمون العميق لشخصية الفرد الإنسانية ، والبنية الجذرية لعملية صناعة الثقافة .

٢

العقل الجمعي لا يقدر على تحويل منطق اللغة الرمزي إلى هوية معرفية للمجتمع والتاريخ ، إلا بتوظيف الوعي الواقعي في بنية الفعل الاجتماعي، لأن الوعي هو القوة الدافعة للفعل. والوعي والفعل مرتبطان بالتغيرات النفسية التي تطرأ على حياة الفرد الداخلية والخارجية . وجميع هذه العناصر مجتمعة تشكل النسيج المعرفي، والتكوين الشعوري ، والتطبيق العملي . وبالتالي ، يصبح المجتمع شبكة من زوايا الرؤية المتنوعة والمتكاملة ، وحاضنة للظواهر الثقافية ، والآليات اللغوية القادرة على تفسيرها وتوظيفها . وإذا صار الواقع المعاش أداة فكرية للنهضة والإبداع ، فإن التاريخ سيصبح رافعة للوعي بكل أشكاله وانعكاساته ، وهذا يساهم في السيطرة على المعنى الوجودي المتشظي في العلاقات الاجتماعية ، والمعايير الأخلاقية ، مما يؤدي إلى تحرير الإنسان من ضغط الاغتراب الذاتي ، ومآزق الخلاص الفردي ، وقيود الاستهلاكية المادية، وهيمنة الآلة على الطبيعة .

تحرير الإنسان تجسيداً للهوية الوجودية في السلطة المعرفية ، التي تمثل منظومة من الشروط الضرورية لإعادة إنتاج الإنساق الفلسفية في البناء الاجتماعي والبنية الثقافية ، من أجل بناء ماهية الإنسانية على السياقات التاريخية القائمة على التقدير البناء ، وليس التقديس المصلحي . والتاريخ الحقيقي هو الكيان الواقعي الذي يستطيع الصمود في روح الزمان وجسد المكان اعتماداً على قوته الذاتية بلا إسناد خارجي ومصالح مُغرِضة . وكل تاريخ يستمد وجوده من عوامل خارجية دخيلة ، وأنماط تفكير استبدادية، سوف يتفكك وينهار بسبب التناقض بين الإدراك الحسي والوعي الفعّال ، والتعارض بين الواقع المادي والتأويل اللغوي . ويجب أن يكون التاريخ تطهراً دائماً من الأحلام المكبوتة والأفكار المقموعة ، وتطهيراً مستمراً للعلاقات الاجتماعية من الوعي الزائف والوهم النفعي المصلحي الذي يُكرّر ذاته ، ويعيد نفسه وفق أشكال استهلاكية مادية تضغط على ذاكرة الفرد ، وتضعف شخصيته ، وتسلب حرّيته وإنسانيته ، وتُحطّم مركزيته في الطبيعة والوجود .

البناء الاجتماعي ليس كتلةً أسمنتية جامدة ، وإنما هو كينونة متماهية مع منطق اللغة الرمزي ، ومنظومة متفاعلة مع السياق التاريخي للفرد والمجتمع ، ومنهجية مُندمجة مع عملية صناعة الوعي الفعّال . والبناء الاجتماعي يمزج التجارب الشخصية بمصادر المعرفة، ويحوّل العوامل النفسانية إلى معايير أخلاقية قابلة للتطبيق على أرض الواقع ، مما يُنتج بيئة خصبة لملائمة للأفكار الإبداعية ، ويدفع باتجاه توليد ظواهر ثقافية ملتصقة بتفاصيل الحياة ، وغير منفصلة عنها ، ولا متعالية عليها، فتصير الثقافة _ الشعبية والتخيلية _ حلاً عملياً للواقع الإنساني المأزوم ، وليست جزءاً منه . وهذا يستلزم أن يكون البناء الاجتماعي قادراً على تجاوز ذاته ، وتجاوز عناصر البيئة المحيطة به . وهذا التجاوز الدائم للذات والمحيط يؤدي إلى توليد الأفكار الإبداعية بشكل مستمر ، وكلما تولدت أفكاراً إبداعية ، انبثقت تأويلات جديدة للتاريخ ، مستقلة بذاتها ، وغير خاضعة للأدلة السياسية . وهذه التأويلات لا تختزع تاريخياً ذهنياً بعيداً عن الواقع ، وإنما تقوم بدمج الهوامش مع المركز، لتكوين صورة شاملة بكل الزوايا والأبعاد ، مما يؤدي إلى تحليل دور الفرد في التاريخ باعتباره إنساناً فاعلاً في الزمان والمكان ، وصانعاً للحدث ، ومكتشفاً للحلم ، وليس شخصاً مجهولاً بلا هوية، ومستلباً بلا شرعية ، ومنسياً بلا ذاكرة . إن الفرد مثل التاريخ ، كلاهما يُجسد فلسفة الوجود في رحلة البحث عن المعنى .

البناء الاجتماعي والبنى الوظيفية والوعي الحقيقي

١

قواعد البناء الاجتماعي تمتاز بِقُدْرَتِها على تجاوز ذاتها ، وتوليد الظواهر الثقافية في عالمٍ شديد التعقيد ودائم التغير. وكلما تجددت هذه القدرة في صيرورة التاريخ، وشروط التنوع الإنساني ، تجدد الفعل الاجتماعي كحالة خلاصٍ ووعيٍ بالذات ، يُعاد تشكيله ضمن الأنساق العقلانية ، ليُصبح بحثًا عن الذات ، يُعاد تكوينه ضمن التحولات المعرفية، ليُصبح صنعًا للذات . وهذا المسار الوجودي : الوعي بالذات ، البحث عن الذات، صنع الذات ، هو الذي يُحدد طبيعة العلاقات الاجتماعية كقيم حياتية ومعايير أخلاقية ، تُنقى المجتمع من التناقض بين الهويات الثقافية ، وتظهر رمزية اللغة من التعارض بين الأحلام المكبوتة . وإذا استطاع المجتمع تجاوز الوهم المتمركز حول التاريخ ، فإن ضغط الأحداث اليومية على العقل المُتغلق سيُزول ، وبالتالي يُصبح العقل مُنفتحًا على أشكال التأويل اللغوي للظواهر الثقافية ، وإذا استطاعت اللغة تجاوز الفكر المتمركز حول الذات ، فإن قيود المادية الاستهلاكية على الوعي الزائف ستكسر ، وبالتالي يُصبح الوعي مُتحررًا من سلطة الأحداث التاريخية الخاضعة للأدلة السياسية .

٢

البنى الوظيفية في المجتمع لا تُحدد كيفية تفكير الأفراد فحسب ، بل أيضًا تُحدد ماهية العلاقة المصرية بين الفعل الاجتماعي القادر على ترسيخ مصادر المعرفة ، وبين المفعول التاريخي القادر على صناعة التعددية الثقافية . وهذا يعني أن التاريخ يتوالد ويتكاثر ، ويتخذ أشكالًا ثقافية مُتعددة ، تتلاءم مع شخصية الفرد الإنسانية ، وهويته الإبداعية ، اللتين تهديان إلى تأسيس منظومة اندماجية واعية ، تشتمل على تحليل عميق لمفهوم الزمن في السياقات الحضارية للفرد والجماعة ، وتحتوي على تفسير دقيق لجوهر الثورة اللغوية في قواعد البناء الاجتماعي، مما يؤدي إلى تحرير المجتمع من الوعي الزائف، وتحرير الطبيعة من السياسة المُغرصة. وهذه العملية المُزدوجة تكشف كيفية سيطرة المُسلّمات الافتراضية على المجتمع للتحكم بأنساقه الحياتية ، كما تكشف كيفية سيطرة الآلات الميكانيكية على الطبيعة لاستنزاف مواردها، وبذلك يُصبح المجتمع والطبيعة ضحيّتين لأحلام الفرد المُستحيلة، وطَمَعه في الخلود، ونزعه الاستهلاكية القاسية ، وسلطته المُتوحّشة القائمة على غرور القوة وحُبّ الامتلاك والسيطرة .

الأفكار المركزية النابعة من الوعي الحقيقي لا الزائف ، تمثل الأساس الثقافي للفعل الاجتماعي ، وتُجسّد معالم النقد الذاتي ، وتفتح آفاقاً لغوية لتأويل شخصية الفرد الإنسانية ، وإيجاد أجوبة منطقية عن أسئلة التاريخ المعقّدة . وهذا يقود إلى تفعيل الحقائق الشعورية في تفاصيل الأحداث اليومية ، وتكريس الأحلام الوجودية في شروط التنوّع الإنساني . وإذا استطاع الفرد حماية إنسانيته من استثمار التّوحّش واحتكار الخلاص واستنزاف الطبيعة، فإنّه سيعيد بناء حياته بشكل منهجي لا عشوي ، وبصورة إبداعية ، وليست مُجرّد تحصيل حاصل . وهذا يدفع الفرد إلى اكتشاف حقول معرفية جديدة في أعماق كيانه الإنساني ، وتحرير صيرورة التاريخ من ثنائية (المأساة / المهزلة) ، وتخليص الذاكرة المجتمعية من التجارب الشخصية المؤلمة التي يُراد تعميمها لتصبح هي القاعدة لا الاستثناء . وإذا نجح الفرد في التعامل مع سلطة اللغة كمصدر للمعرفة ومنبع للقوّة، فإنّه سيصبح قادراً على تحليل ماهيّة العلاقات السلطوية في الظواهر الثقافية، وتفسير جوهر المعايير الأخلاقية في البيئة المعاشة. وإذا وصل الفرد إلى الأساس الفلسفي للعناصر المحيطة به، وصل إلى حقيقة ذاته، وبدأ عملية البحث في ذاته عن الأحلام المكيوتة، والأفكار المَقمّوعة، والذكريات السجينة ، وتعامل معها كبنى وظيفية في ضوء آليات التأويل اللغوي ، وأدوات السلطة الاجتماعية ، وإستراتيجيات الوعي الحقيقي ، بوصفه تاريخاً للتحرير داخل تاريخ الهيمنة ، وهويّة للتعبير داخل هويّة الكُت ، وخطاباً لليقين داخل خطاب الشك .

*

الجوهر التاريخي للفرد والكيونة الحضارية للمجتمع

١

التَّصَوُّرُ الإنساني عن الجَوْهَرِ التاريخي للفرد ، والتحليل اللغوي للكيونة الحضارية للمجتمع ،
يُمَثِّلان مَرَجَعًا أساسيًا في مصادر المعرفة التي تتغلغل في التجارب الحياتية والظواهر الثقافية ،
ويُشَكِّلان بُنيةً وظيفيةً للأحداث اليومية على الصَّعِيدَيْنِ الشَّخْصِيِّ والفِكْرِيِّ. وإذا كانت رمزية اللغة
تَتَبَلَّور في قواعد الفعل الاجتماعي، فإنَّ فلسفة التاريخ والحضارة تَتَشَكَّل في وَعْيِ الفرد وشُعوره
وإدراكه ، بحيث يُصْبِح الزَّمَنُ نظامًا مُنْفَتِحًا على الذات والعناصر المُحيطة بها بلا قطيعة وجودية
مع الماضي ، ومَسَارًا مَفْتُوحًا على سُلْطَةِ المَعْنَى باعتبارها مُحاولَةً لتفسير الواقع المُعاش بلا
انفصال اجتماعي عَنِ العقلانية. والزَّمَنُ لا يُبَدِّل جِلْدَه، وَلَكِنَّه يَتَجَاوَز الحُدُودَ المَكَائِيَّةَ لِيَقْدَمَ رُؤْيَا
جديدةً للواقع والمعرفة ، مِمَّا يُسَاهِم في تَكْرِيسِ تَأَقُّلِ الوَعْيِ مع الثَّرَاث ، وتعزيزِ تَكْيُفِ سُلْطَةِ
المَعْنَى مع مصادر المعرفة ، وتحقيقِ الانسجام بين اللغة والهَوِيَّة ، بِوَصْفِهِمَا صِيَاغَةً فلسفيةً جديدةً
للمعايير الوجودية التي تُحدِّد معالم البناء الاجتماعي داخل جَسَدِ الفرد وجَسَدِ المُجتمع ، مِمَّا
يَحْمِي الفرد مِنَ العَيْشِ مُنْفِيًا في لُغَتِهِ، وَيَحْمِي اللغة مِنَ الوَعْيِ الزائِف الذي يُفَسِّرُ الوقائع التاريخية
اعتمادًا على حقيقة السُّلْطَةِ، وَلَيْسَ سُلْطَةُ الحَقِيقَةِ . وَكُلُّ أدْلَجَةٍ سياسية للتاريخ سَتَدْفَعُ الفردَ إلى
الغُرْبَةِ في عُقْدَةِ الشُّعُورِ بالذَّنْبِ ، وَتَدْفَعُ المُجْتَمَعَ إلى الاغتراب في عُقْدَةِ الشُّعُورِ بِالنَّقْصِ .

٢

طريقُ الفرد في الحياة هو طريقته في تأويل الأحداث اليومية ، وَاتِّخَاذُ الطريقِ والطريقةِ _ وَعْيًا
وَفِكْرًا وَمُمَارَسَةً _ يَكْشِفُ الواقعَ المُغَيَّبَ في صِرَاعِ المصالح ، وَصِدَامِ الأهواء ، وَيُوضِّحُ
المَسْكُوتَ عنه في تاريخ الفرد والمُجتمع ، وَيَدْفَعُ رمزية اللغة إلى التنقيب في الذاكرة لِصَهْرِ
الأضداد في رُؤْيَا نَقْدِيَّةٍ مُتَماسِكةٍ للحضارة. وفلسفة الحضارة لا تَظْهَرُ في المُنْجَزَاتِ المَادِيَّةِ
والصَّنَاعَاتِ التكنولوجية، وَإِنَّمَا تَظْهَرُ في كَيْفِيَّةِ تحقيق الاندماج الاجتماعي في جَسَدِ الزَّمَنِ وَرُوحِ
المكان . وهذه الكَيْفِيَّةُ تُؤَثِّرُ في طبيعة الفعل الاجتماعي الحامل للأفكار الإبداعية ، والنَّاقِلِ
للظواهر الثقافية . وَرَغْمَ الاختلاف الجوهري بين جسد الزمن كهُويَّةٍ وجودية ، وَرُوحِ المكان
كسُلْطَةِ حياتية ، إِنْهُمَا قَادِرَانِ على ابتكار فضاء عقلائي يَحْتَضِنُ آليَّاتِ التأويل اللغوي لقواعد
المنهج الاجتماعي ، باعتبارها أسئلةً مصيريةً باحثةً عَنِ أجوبة منطقيَّة ، وإشكالياتٍ معرفية باحثة

عن حُلُولٍ عمليّة، ومرجعياتٍ فلسفية باحثة عن هُويّة واقعية في عالمٍ شديد التعقيد ، ودائم التغيّر، يقوم على أنساق العوالم الافتراضية، والقطعية بين الماضي والحاضر، وهيمنة الآلة على الطبيعة، والانفصال بين الأشواق الإنسانية الروحية والنظم الاستهلاكية المادية .

٣

الجَوْهَرُ التاريخي للفرد يُعيد تعريفَ ماهيّة السُّلطة في العلاقات الاجتماعية ، والكيونة الحضارية للمجتمع تُعيد تعريفَ مفهوم الهوية في مصادر المعرفة. والفرد ليس كياناً معزولاً عن التجارب الحياتية ، وإنما هو تجسيدٌ للوعي الآنيّ المُفتّح على المُستقبل . والمُجتمع ليس حِقبةً زمنيةً مَحصورةً في أشكال السَّيطرة ، وإنما هو توليدٌ للفكر العقلاني المُفتّح على اللغة . وثنائِيّة (تجسيد الوعي / توليد الفكر) تُؤدّي إلى تفسير التَّمط الحياتي ، وتخليل النَّسق الثقافي ، فَتُصْغِرُ أحلام الفرد في أعماق الحياة ، ويبرز الرَّمز كخطابٍ لغوي رمزي يتعامل مع التاريخ كأداة لتشكيل الوعي بالحضارة ومكوّناتها الوجودية ، ويتعامل مع الحضارة كآليّة للبحث في ماهيّة التاريخ عن الشُّروط الاجتماعية للمعرفة . وإذا كان الوعي يُحلّل شخصية الفرد الإنسانية كبُعد تاريخي مُتجذّر في التجارب الحياتية ، فإنّ اللغة تُحلّل العلاقات الاجتماعية كرموز مُستقرة في البيئة والطبيعة ، فيظهر الفرد كفاعلٍ إنساني يملك سيادةً على الواقع المُعاش ، ويُساهم في نقده، ويُشكّل أبعاد الوعي بالهوية ، ومعالم الشعور بالسلطة . والهوية هي سلطة التراكمات التاريخية المُتحرّكة بالمسار، والسلطة هي هوية المعايير الفكرية المُتحرّكة بالمصير .

*

التفكير والسلوك والتأويل اللغوي لأحداث التاريخ

١

التحوُّلات في التفكير والسلوك مُرتبطة بطريقة التأويل اللغوي لأحداث التاريخ ، وزاوية الرؤية للجوهر الإنساني في البناء الاجتماعي ، وأسلوب التعامل مع مصادر المعرفة كمًّا وكيفًا . وإذا استطاعت رمزية اللغة استيعاب التحوُّلات في التفكير والسلوك ، والتَّكْيُفَ مع أبعادها المعنوية ، والتَّأَقُّلَ مع دلالاتها المادية ، فإنَّ الوَعْيَ سَيَرِدُ الفَجْوةَ بين الحُلُمِ الفردي والعقلِ الجمعي ، والواقعِ المُعاشِ والعالمِ الافتراضي ، والمعنى الوجوديِّ والتَّجربة الشخصية . وهذه الفَجْوةُ نتيجةٌ طبيعية لغياب اليقين في تعقيدات الحياة المُعاصرة ، التي تضغط على العلاقات الاجتماعية ، وتعيد تشكيلها في الهُوِيَّاتِ المُتَشَطِّطَةِ التي تجعل الإنسان عاجزًا عن إدراك حقيقة ذاته في الأحداث المُتسارعة ، والعوالم المُعقَّدة ، والأفكارِ المُتغيِّرة . وإذا كانت مَشروعِيَّةُ التواصل الاجتماعي تُقُومُ على الفَهْمِ المُتبادِلِ والمصالح المشتركة ، فإنَّ شرعية الذات الإنسانية تُقُومُ على تَخْطِي الصُّورِ التاريخية النمطية ، وكسر القوالب الفكرية الجاهزة ، وتجاوز الأحكام المعرفية المُعلَّبة ، وهذا يَتطلَّبُ تكريس الوَعْيَ بالذات والعناصر المُحيطة بها كأداة لتوليد أنساق المعرفة في المُجتمع ، يوصُفه بُنيَّةُ إبداعِيَّةٍ مُتجدِّدة ، وقادرة على صناعة الأحلام ، وتطبيقها على أرض الواقع ، وليس بُنيَّةً جامدة تُفرِّز الوَعْيَ الزائف لحماية وجودها الوهمي .

٢

الانقطاعات المعرفية في مسار التاريخ ناتجة عن حالة اللايقين المُسيطرة على مُكوِّنات الظواهر الثقافية ، والانقسامات الوجودية في بُنية المُجتمع ناتجة عن توظيف العقل كأداة لتكريس الأدلجة السياسية ، وليس توليد الفكر الإبداعي ، وبالتالي ، تَعَجُّز العلاقات الاجتماعية عن تكوين شخصية الفرد الإنسانية ، وتَعَجُّز رمزية اللغة عن تكوين منظومة القيم الحضارية . وهذا العَجْزُ المُزدوج يجعل العقل المُتمركز على المُسلَّمات الافتراضية ، والمُنعلق أمام صيرورة التاريخ وحتمية المُواجهَةِ مع الوَهم ، مُتصادِمًا مع ذاته ، وغير مُتصالح مع كينونة الفعل الاجتماعي . ولا بُدَّ أن يَكُون العقلُ طاقةً توليديَّةً للمناهج الفلسفية الاجتماعية القادرة على نقد آليات الهيمنة في الأنظمة الاستهلاكية ، وكشف التناقضات في المعرفة التكنولوجية التي ترمي إلى استنزاف موارد الطبيعة ، وليس تنظيمها والاستفادة منها . والعِلْمُ إذا لم يَقُمْ على قيم إنسانية ومعايير أخلاقية ، فإنه سَيَتحوَّل إلى وحش يَفْرِض سيطرة الآلة الميكانيكية على الإنسان والطبيعة معًا .

التجانس في العلاقات الاجتماعية من شأنه تكوين هوية سلوكية إبداعية ، عارفة بذاتها، وجامعة لمكوناتها ، وواعية بأبعادها. والتجانس لا يعني التطابق وعدم الاختلاف، بل يعني توظيف المناهج العقلانية واقعيًا واجتماعيًا وتكامليًا ، بحيث لا تحدث فوضى في سلطة المجتمع الاعتبارية ، ولا يحدث اضطراب في شخصية الفرد الإنسانية ، مما يساهم في تفجير الطاقة الرمزية في اللغة كمشروع وجودي للخلاص من الوعي الزائف ، وتخليص أحلام التغيير للأفضل من قيود المصالح الشخصية الضيقة . والتجانس في العلاقات الاجتماعية يساهم في تأسيس منظومة التفكير بعيدًا عن ضغط اللحظة الآنية ، والتفكير يقود المعايير الأخلاقية إلى بناء السلوك الذي يوازن بين الشعور والوعي ذهنيًا وواقعيًا ، والسلوك يفعل عملية التأويل اللغوي لأحداث التاريخ. وكل ثورة في اللغة لفظًا ومعنى ، ستؤدي - بالضرورة - إلى تحويل المجتمع إلى طاقة أخلاقية وإنسانية، تقوم على التحرر والتحرير، التحرر من هيمنة الأنساق اللاعقلانية على أحداث التاريخ ، وتحرير سلطة المجتمع الاعتبارية وشخصية الفرد الإنسانية من ثنائية الاستلاب والاعترا ب .

وظيفة الظواهر الثقافية في المجتمع هي منع العلاقات الاجتماعية من التشتت (التحوّل إلى علاقات آلية ميكانيكية في موضع العرض والطلب) ، ومنع أحداث التاريخ من التسلّع (التحوّل إلى سلع خاضعة للبيع والشراء وفق منطق سيادة السوق) . وهذا المنع - على المستويين الاجتماعي والتاريخي - في غاية الأهمية ، لأنه يكشف آليات التحكم بمصادر المعرفة ، وكيفية توظيفها في أنظمة المجتمع الداخلية والخارجية ، على صعيد النظرية والممارسة ، مما يساهم في تأسيس نقد ثقافي للوهم الاجتماعي الذي يتجسد في الجوهر والمظهر على حد سواء، ويجعل المعنى اللغوي انعكاسًا لحالة الالاقين في إرادة المعرفة وأنسنة الوعي . ولا بد أن يقوم المجتمع على اليقين لا الشك ، من أجل توليد التفكير الإبداعي ، وتحليل بنية السلوك ، والحفر في أعماق اللغة ، للوصول إلى منطق التاريخ - ثقافيًا واجتماعيًا - ، وهذا يحدد فلسفة أحداث التاريخ ، وطبيعة تأثير السلطة التي تقف وراءها .



الحراك الاجتماعي والوجود والوعي والتاريخ

١

الحراك الاجتماعي هو التّواءُ المركزي لوجود الإنسان ، التي تُمثّل منظومةً معرفيةً قائمةً على العقلانية والوعي بالتغيّرات الجذرية في الواقع المُعاش ، وتحقيق مصالح المُجتمع أفرادًا وجماعات . وهذه المصالح لا تنفصل عن التّزعة الإنسانية التي تُحرّر العقل الجمعي من الخوف ، وتُخلّص الفعل الاجتماعي من التناقض بين الخيال والحقيقة . وإذا كان المُجتمع يستمد شرعيته من كُون الإنسان فاعلاً للأحداث ، وصانعاً للأشياء ، فإنّ الوعي يستمد فلسفته من كُون المُجتمع مصدرًا للمعرفة ، وطريقة لاستعادة التاريخ ككيان فكري لا أيديولوجية استهلاكية ، ممّا يُبرز قيمة الحياة _ على الصّعيدين الشّخصي والجماعي _ بوصفها سلسلةً منطقيةً من التفاعلات الاجتماعية الرمزية التي ترمي إلى ابتكار حلول إبداعية للمشكلات اليومية ، وتغيير أسلوب التعامل مع موارد الطبيعة ، بحيث يتم الاستفادة منها لا استنزافها . وهذا لا يتأتّى إلا بدمج إفرات العقل الجمعي مع انعكاسات الفعل الاجتماعي ضمن سياق عقلائي يُعيد الاعتبار لوجود الإنسان كشخصية فاعلة وهويّة فعّالة ، ويُعيد الاعتبار لمركزية المُجتمع كسلطة حرّة وكيّونة مالكة لمسارها ومصيرها .

٢

اكتمال الوعي في الحراك الاجتماعي يمنح الإنسان القدرة على تأسيس المعايير الأخلاقية في الأحداث اليومية ، وصناعة الأنساق الحياتية في مصادر المعرفة ، ممّا يدفع باتجاه تكوين حالة من التكامل بين الحياة والمعرفة ، تُخرج الواقع المُعاش من السلبية ، وتعيد بناءً على قاعدة وجودية صلبة تتكوّن من الفعل الاجتماعي العقلاني ، وتغيير زوايا الرؤية للأشياء ، وأنسنة النظام الاستهلاكي المادي الذي وُضع قيودًا على الإنسان ، وشلّ قدرته على الفعل والتغيير . وإذا تحرّر الإنسان من قيوده ، فسوف يصبح قادرًا على تحقيق التوازن بين الرّغبة والإرادة، ممّا يحميه من الوعي الزائف، والشّعور بالغرابة نفسيًا واجتماعيًا، الذي ينتج عن غرق الإنسان في قوالب الفكر التاريخي المؤدّج سياسيًا، والعاجز عن تأويل الماضي ، ومؤاكلة الحاضر ، وافتحام المستقبل. وهذا يوضّح أهمية تكريس الفكر التاريخي داخل البنية الوظيفية للإنسان في المُجتمع والطبيعة ، كي يصبح التاريخ جسدًا للفعل الاجتماعي ، وتجسيدًا للحلم الواقعي ، ووعيًا مُتجددًا يُؤدّي إلى معرفة الإنسان بذاته ومُجتمعِهِ وكيفية تحليل وجوده المعنوي والمادي ، وهذا يساهم في دمج

الزمان والمكان معاً في الفكر التاريخي ، وتحويل التاريخ إلى بوابة للمستقبل ، وليس عقبة في طريق المستقبل .

٣

قواعد البناء الاجتماعي المُتَحَكِّمَةُ بِمَسَارِ الإنسانِ تاريخياً وحضارياً ، تُحدِّد آلياتِ التأويل اللغوي للمعرفة والمصلحة ، وتُحدِّد ماهية العلاقة بين التاريخ المنسي في داخل الإنسان ، والتاريخ المُهْمَّش في داخل المجتمع ، وإذا كان المعنى الحياتي يَظْهَر ويختفي تبعاً لإفرازات العقل الجمعي ، واعتماداً على مَصَادِر المعرفة ، واستناداً إلى شبكة العلاقات الاجتماعية ، فإن التأويل اللغوي يَظْهَر ويختفي تبعاً لأنساق الوعي ، واعتماداً على التراث الحضاري ، واستناداً إلى الأفكار المقموعة . والظهور والاختفاء في ثنائية (المعنى الحياتي / التأويل اللغوي) لا يُمكن السيطرة عليهما إلا بإعادة الوجود إلى الوعي ، وإعادة الوعي إلى التاريخ . وإذا كان التاريخ حَلَقَاتٍ مُتَّصِلَةٍ لُغَوِيًّا ، باعتبار أن اللغة هي التي تَمْنَح التاريخ معناه وجدواه ، وتَحْمِي وجود الإنسان من القطيعة المعرفية ، فإن الحضارة دوائر مُتَشَابِكَةٌ معرفياً ، باعتبار أن المعرفة هي التي تَمْنَح الحضارة هُويَّتَها وسلطَنتَها ، وتَحْمِي الحَرَكَ الاجتماعي من الانفصال اللغوي .

٤

الحَرَكَ الاجتماعي يَحْمِي وجودَ الإنسان من الأحلام المكبوتة والذكريات المتصارعة والأحزان الكامنة ، ويَحُلِّل أنظمة الفكر المُهيمنة على مسارات التاريخ . وإذا كانت السلطة الاجتماعية هي القوَّة المؤلِّدة لمصادر المعرفة ، التي تَحْكُم طبيعة التأويل اللغوي القائم على البرهان ، وتَتَحَكَّم بالعقل الموضوعي القائم على الاستدلال ، فإنَّ الهُويَّة الإنسانية هي الفاعليَّة التنظيمية للعلاقات الاجتماعية ، التي تُسَيِّطِر على سياقات الوعي القائم على التَحَرُّر ، وتُهيِّمُ على السلوك الوظيفي القائم على التاريخ . ومُهِمَّةُ الإنسان في المجتمع أن يَمْنَعَ الوعي من العيش خارج الحرية ، ويَمْنَعَ التاريخ من العيش خارج اللغة ، وهذا الأمر في غاية الأهمية ، لأنَّ يَحْوُل وجودَ الإنسان من فلسفة الاتِّباع إلى فلسفة الإبداع ، وينتقل التفاعلات الاجتماعية الرمزية من نمط الاستهلاك المادي إلى نَسَقِ التوليد الفكري ، فَيَتَأَسَّس واقعٌ جديدٌ يُوازِن بين السُّلطة والهُويَّة ، ويَتَكَرَّس فِكْرٌ جديدٌ يُوازِن بين الوعي واللغة .



صناعة الثقافة وفلسفة البناء الاجتماعي

١

صناعة الثقافة انعكاسٌ لفلسفة البناء الاجتماعي التي تُفسّر مصادر المعرفة ، وتوظّفها في السلوك الحياتي والتاريخ الشخصي والوعي الجماعي ، من أجل تكوين أفكار إبداعية تمتاز بالحرية والحيوية ، وتفكّك الظروف التاريخية اعتماداً على النقد الثقافي ، ثمّ تركّبها استناداً إلى الرمزية اللغوية المُتحرّرة من الأدلجة المُعرّضة والمثاليّة الوهميّة . وهذا يكشف نقاط الاتصال والانفصال في المسار التاريخي ، كما يكشف معالم القطيعة المعرفية بين الماضي والحاضر . وإذا كانت الظروف التاريخية لا يمكن تكييفها ثقافياً ومعرفياً إلا بتفكيكها وتركيبها ، فإنّ الأحداث اليومية لا يمكن تأصيلها اجتماعياً ولغوياً إلا بتشخيصها ونقدها ، ممّا يُؤدّي إلى تكوين ظواهر ثقافية جديدة في بنية التاريخ الذي يُعاد تشكيله باستمرار ، وإبراز إمكانيات توليدية في بناء اللغة التي يُعاد تأويلها دائماً . وإعادة تشكيل التاريخ وتأويل اللغة تمثّل خطوة أساسية على طريق تطوير الفكر الإنساني الحضاري ، وتحريره من الضغوطات الماديّة والتناقضات الشعورية التي يُمليها سياق الفعل الاجتماعي المُتَشَطّي بسبب تكاثر زوايا الرؤية المُحيطة بشخصية الفرد الإنسانية . ومن أجل حماية الفرد والمجتمع من التَشَطّي والفوضى وتضارب المصالح ، لا بدّ من إنشاء هويّة ثقافية متماسكة تحتضن الأحلام المَقموعة في الوقائع التاريخية المسكوت عنها ، وتستعيد الأفكار الكامنة في أعماق التاريخ السحيقة ، وتخلّص الذكريات الغامضة من الغربة في المكان ، والاعتراب عن الزمان . وكلّ هويّة ثقافية هي سلّطة معرفية تتجاوز القوالب الفكرية الجاهزة ، والأنماط الحياتية السائدة ، وتؤسّس قواعد الخيال الاجتماعي لانتشال الحلم الإنساني الحضاري من قاع الواقع المادي الاستهلاكي . والخيال الاجتماعي لا يكون شرعياً وفِعْلاً إلا إذا سيطر على الانفجارات الفكرية في طاقة اللغة ، ونَقَلَ فلسفة البناء الاجتماعي من الكيان المُخدود إلى الكينونة العابرة للحدود .

٢

صناعة الثقافة لَيْسَتْ نَسَقاً اجتماعياً قائماً على وَضْع دَلالات اللغة في أَقْصى مَدَاها المعنوي والمادي فَحَسْب ، بل هي أيضاً نَسَقٌ وجودي قائم على الربط بين العلاقات الاجتماعية ، باعتبارها منظومة أخلاقية حيّة وحيوية ، ذات أبعادٍ نَفْسِيّة ، ودَلالاتٍ واعية ، ومضامين إنسانية ، حيث تتداخل فيها الأزمنة والأمكنة ، بحيث يُصبح الماضي قُوّة دافعة للحاضر ، ويصبح الحاضر

فلسفة للمستقبل ، ويصبح المستقبل تأويلاً مستمراً للماضي ، من أجل فتحه على كافة الاحتمالات، وتكريسه كبنية حضارية متجددة لا كتلة زمنية جامدة. وهكذا يتحرر الفرد من العقد التاريخية التي تشكل عقبة في طريقه الوجودي وطريقته المعرفية . وإذا نجحت العلاقات الاجتماعية في صياغة فلسفة جديدة للزمان والمكان ، فإن اللغة سوف تتحرر من التصور الجمالي الهلامي ، لتصبح مصنعاً لإنتاج الفعل الاجتماعي ، وتوظيفه في مصادر المعرفة لمواكبة تطور الوعي الإنساني ، الذي يبرز دور الثقافة التحريري لشخصية الفرد وسلطة المجتمع ، ويمنح العقل الجمعي القدرة على الاستفادة من رموز اللغة للتنقيب عن حلم الفرد في تفاصيل السلوك الحياتي، ومنع استخدام الوعي الزائف كبنية اجتماعية لقمع حرية التعبير ، والسيطرة على أشكال تأويل التاريخ ، والاستحواذ على أنماط التنظيم الاجتماعي .

٣

صناعة الثقافة تُقدّم للمجتمع مشروعاً وجودياً لتحرير الإنسان من الخوف ، وجعله قادراً على التفاعل الإيجابي مع الأحداث اليومية ، بحيث يصبح الشعور والوعي والإرادة منظومة واحدة لتأويل التاريخ وتفسير الواقع داخل كيان الإنسان ، بوصفه فاعلاً أساسياً في السلوك الحياتي على الصعيدين المعرفي والوجودي، وصانعاً لجوهر الفعل الاجتماعي على المستويين اللغوي والثقافي ، مما يحمي الهوية الشخصية للإنسان من الوعي الزائف والاعترا ب عن الذات ، ويحمي السلطة الاعتبارية للمجتمع من المسلمات الافتراضية وانكسار الحلم الجماعي . وإذا كانت العلاقات الاجتماعية هي محصلة تصورات الإنسان عن كيانه وبيئته ، فإن الهوية الشخصية للإنسان هي مجموع زوايا الرؤية لطبيعة الأشياء وعالم الأفكار، وهذا الترابط المصيري يُحدّد أشكال الظواهر الثقافية وإشكالاتها ، ويكوّن المعايير الأخلاقية الحاكمة على فلسفة البناء الاجتماعي ، التي تجعل صناعة الثقافة شبكة معرفية متجانسة ، وفلسفة جديدة للواقع والتاريخ ، ومرجعية نقدية توازن بين الرمز اللغوي وما يرمز إليه ، وتساوي بين الفعل الاجتماعي وحرية التعبير في ضوء تعقيدات الحياة المعاصرة. وكما أنّ تحرير الإنسان لا يصبح واقعاً حيوياً إلا عن طريق الفعل الاجتماعي، كذلك تحرير الثقافة لا يصبح تاريخاً متجدداً إلا عن طريق الرمز اللغوي. والفعل الاجتماعي والرمز اللغوي يتجسّدان في الفكر كنظام إبداعي عضوي يؤسّس مركزية الإنسان في الحضارة، ولا يستعير مسارات الوعي الزائف لتحقيق مصالح شخصية ، ولا يستعيد مصائر الآخرين في الماضي لأدلجة العقد التاريخية في الحاضر .

تاريخ العلاقات الاجتماعية والواقع والعقلانية

١

البُعدُ المعرفي لتاريخ العلاقات الاجتماعية يُمثّل نقداً للواقع، وصياغةً جديدةً له، وهذا يجعل الواقع تنظيمًا عقليًا لخصائص السلوك اليومي على الصعيدين الفردي والجماعي، وتجسيدًا لجوهر الظواهر الثقافية على الصعيدين التّحتي والفوقي، وتفاعلاً بين النظرية والممارسة على الصعيدين الوجودي والحضاري. وإذا تركز الوعي النقدي في بنية الواقع المعاش، فإن العناصر العقلانية سوف تتكرس في مصادر المعرفة، باعتبارها حاكمة على الواقع المعاش، ومُتغلغلة فيه، ومُسيطرة على السّياقات الفكرية المُنبثقة عنه، وهذا يمنع تاريخ العلاقات الاجتماعية من إلغاء ذاته بذاته، كما يمنع حضارة الاستهلاك المادية القائمة على الآلة الميكانيكية من الانقلاب على الشعور الإنساني والعقل الجمعي. وإذا استطاع المجتمع أن يُحوّل فلسفة السلوك اليومي من أداة وجودية حياتية إلى آلية لغوية إبداعية، فإن الفعل الاجتماعي سيُصبح مشروعاً للنهضة الثقافية، وتحريراً مُستمراً لطبيعة الإنسان من هيمنة اللحظة الآنية، لأنّ بنية الفعل خاضعة لبناء المجتمع، كما أنّ شرعية الفعل ناتجة عن الإدراك والإرادة الكامنين في السلوك اليومي. والإشكالية المركزية في تاريخ العلاقات الاجتماعية هي غرق المجتمع في الحنين المُزمن إلى ماضٍ لا يمضي، وهذه الإشكالية ذات طبيعة انسحابية، أي إنّها غير محصورة في الواقع المعاش معني ومبني، بل تنسحب على أحلام الفرد وطموحات الجماعة، وتؤثر على مسار الوعي القصدي في النظام الاجتماعي، وهذا يخلط زوايا الرؤية للأحداث، فتُصبح الرؤية مُشوَّشة، ويُعجز المجتمع عن تشخيص مُشكلاته المصيرية. وإذا غاب التشخيص الدقيق غاب الدواء الفعّال، وهذا يجعل الفرد ينظر إلى نفسه كضحية، ويعتبر التاريخ مأساة. وفلسفة الضحية تقوم على استعارة الأقنعة كمحاولة للهروب من الذات، واستعادة التاريخ كمحاولة للهروب من الحاضر. والحنين إلى الماضي لا يعني بالضرورة أنّه جميل ومشرق وخالي من العيوب، ولكنه بالتأكيد يعني أنّه أقلّ سوءاً من الحاضر، وهذه المُقارنة شديدة الخطورة، لأنّها تُخضع المراحل الزمنية لمعايير نسبية، لا تقوم على عوامل موضوعية وأسس منطقية، وإنّما تقوم على أحاسيس وانطباعات. والإحساس بالفرح أو الحزن يُقدّم تفسيراً عاطفياً لفلسفة التاريخ، يتعارض مع البنية العقلانية المُسيطرة على ماهية الأشياء، ويتصادم مع قواعد التأويل اللغوي المُهيمنة على سلطة المعنى، ويتضارب مع مركزية الظواهر الثقافية المُتَحَكِّمة بالهوية الإنسانية.

العقلانية _ كنظامٍ حَيَاتِي وَمَنْظُومَةٍ مَصْلَحِيَّةٍ _ هي القادرة على تحرير المُجْتَمَع مِنَ الوَعْيِ الزائِفِ ، وسيطرة التكنولوجيا المادية على الشعور الإنساني. ومع هذا، فالعقلانية لَيْسَتْ كُتْلَةً جامدةً ، أو لائحة تعليمات جاهزة، أو خُطَّة مرسومة مُسَبِّقًا ، إِنَّ العقلانية ثَوْرَةٌ وُجُودِيَّة تَتَغَيَّر اعتمادًا على رمزية اللغة وكيفية تأويلها في الأنساق الحضارية ، وَتَتَبَدَّل استنادًا إلى البنية الوظيفية للنقد الاجتماعي في حياة الفرد والجماعة ، وَتَتَقَلَّب تَبَعًا لِلإِطَارِ المعرفي الحاضر للمعايير الأخلاقية . وهذا يَفْرِضُ على تاريخ العلاقات الاجتماعية أَنْ يَصْغُلَ العقلانية باستخدام التفاعل الرمزي بين النَّسَقِ اللغوي والفعل الاجتماعي ، وَأَنْ يُنَقِّيَ الواقعَ مِنْ أَشْكَالِ الوَهْمِ الداخلي والخارجي . وَثَنَائِيَّةُ (صَقْلُ العقلانية / تنقية الواقع) سَتَمْنَحُ الفردَ القُدْرَةَ على التعامل مع عناصر الطبيعة والمُجْتَمَعِ بعيدًا عن مِصْيدةِ الأدلجة المُغْرِضَةِ ، وَتَمْنَحُ المُجْتَمَعُ القُدْرَةَ على التعامل مع الشرعية المركزية لرمزية اللغة بعيدًا عَنِ فَخِّ الشُّعَارَاتِ الفارغة . واندماجُ العقلانية مع الواقع سَيُنْتِجُ واقعًا جديدًا قادرًا على ضَبْطِ نِسْبِيَّةِ الأفكارِ الإبداعية ، وتوظيفها في مركزية الظواهر الثقافية ، وانتشال شخصية الفرد الإنسانية مِنَ القطيعة المعرفية بين الماضي والحاضر ، مِمَّا يَدْفَعُ بِاتِّجَاهِ تحقيقِ الانسجامِ بين طبيعة اللغة وطبيعة الفرد ، باعتبار أَنَّ اللغة حاكمة على تفسير الثقافة ، والفرد حاكم على تأويل الزمن . وكما أَنَّ العلاقات الاجتماعية تتأسَّس على المعايير الأخلاقية ، كذلك الوَعْيُ النَّقْدِي يتأسَّس على فلسفة التاريخ . وفلسفةُ التاريخ لا قِيَمَةٌ لها بذاتها ، وإنما تَتَضَحُّ قِيَمَتُهَا بِقُدْرٍ مَا يُضْفِي عليها المُجْتَمَعُ القِيَمَةَ . وهذه القِيَمَةُ تُمَثِّلُ تَأْسِيسًا واقعيًا للظواهر الثقافية ، بِوَصْفِهَا سِيَّاسَةً لِلوُجُودِ الإنساني ، وَلَيْسَتْ وُجُودًا لِلسِّيَّاسَةِ النَّفْعِيَّةِ . والوُجُودُ الإنساني يَسْتَمِدُّ مَعْنَاهُ العميقَ مِنْ قُدْرَتِهِ على تحويل رمزية اللغة إلى آلِيَّةٍ معرفية للسيطرة على القُوَضَى في الشعور والوَعْيِ والإدراك والإرادة ، وهذه القُوَضَى ناتجة عن إعادة تأويل فلسفة التاريخ بشكل يَكْرُسُ مَنْطِقَ القُوَّةِ لا قُوَّةَ الْمَنْطِقِ، وَيَخْدِمُ الغالبَ لا المَغْلُوبَ ، وَيُظْهِرُ الْمُنتَصِرَ ، وَيُخْفِي المَهْزُومَ . ولا يُمَكِّنُ للمُجْتَمَعِ أَنْ يُحوِّلَ سُلْطَتَهُ الاعتبارية إلى نظامٍ حَيَاتِيٍّ — حِسِّيًّا وَحَرَكِيًّا — إِلَّا بِنَقْلِ الوجود الإنساني مِنَ الْحَيَوِيَّةِ العقلانية إلى الحُرِّيَّةِ الفاعلة . ولا مَعْنَى للحَيَوِيَّةِ بلا عقلانية ، ولا مَعْنَى للعقلانية بلا حُرِّيَّة ، ولا مَعْنَى للحُرِّيَّةِ بلا فِعْلٍ على أرض الواقع . وهذه الروابطُ المُتَشَابِكَةُ تُمَثِّلُ الأساسَ الفكري للنظام الاجتماعي المُتَماسِكِ في مُوَاجَهَةِ القُوَضَى المُنتَشِرَةِ في تفسيرِ العلاقات الاجتماعية ، وتأويلِ فلسفة التاريخ .

الأساس الفلسفي لمنهج التحليل الاجتماعي

١

منهج التحليل الاجتماعي ليس أداة للسيطرة على الإنسان، وإنما هو آلية فكرية لتحرير الإنسان من سطوة الأحلام المَقموعة ، والصّراعات الشّعورية المَكبوتة ، ممّا يُؤدّي إلى الحِفاظِ على حيويّة الروابط الوجودية بين الإنسان والبيئة المُحيطة به ، وتفعيل العلاقات المصرية بين العقل الجمعي والوعي القصدي ، بوصفها قواعد رافعة للبناء الاجتماعي ، وأنساقاً ثقافية تحمي المجتمع من الاغتراب عن طبيعته الإنسانية ، وهويته الحضارية ، وسلطته المعرفية . ولا يمكن للإنسان أن يبني أبعاد شخصيته على قواعد البناء الاجتماعي ، إلا إذا عقدَ مُصالحةً بين حُرّيته الإبداعية وسلطة المجتمع المعرفية ، وصنّع تاريخاً شخصياً لأحلامه وشعوره ووعيه ، يحفظ التوازن بين المعايير الأخلاقية والأنساق الثقافية ، لكيلا يحدث تآكلٌ في شخصية الفرد الإنسانية ، أو انحسارٌ في مصادر المعرفة التي تتحكّم بالترابط المادي بين مُكوّنات الطبيعة ، والتواصل الروحي بين عناصر التاريخ .

٢

تحرير الإنسان لا ينفصل عن حُرّيّة المجتمع والإنسان والمجتمع لا يستطيعان إدراك جوهر الوجود واقعيًا وذهنيًا إلا بتحويل الأشكال البدائية للوعي الإنساني إلى تيّارات فكرية قادرة على طرح الأسئلة المصرية ، والجمع بين المصلحة الشخصية والمنفعة الجماعية ، ضمن فلسفة الفعل الاجتماعي الذي يُعيد الاعتبار لإنسانية الإنسان ، عن طريق تكريس الأحداث اليومية والوقائع التاريخية كإحساسٍ مُتجدّد بقيمة الذات ، وليس وسيلةً لخداع الذات . وهذا يعني أن العلاقات الاجتماعية لا تُصبح أنظمةً حياتيةً فعّالةً إلا إذا امتلك الإنسان القدرة على صناعة الحاضر، وعدم الهروب من الماضي، وامتلك المجتمع السيادة على مساره جوهريًا وشكليًا . وعملية خداع الذات هي محاولة يائسة للإفلات من الحواجز الزمنية والحدود المكانية، لأن الإنسان لا يتحرّك في الفراغ ، ولا يؤلّد أفكاره من العدم . إن الإنسان كائنٌ خاضعٌ لأنماط الحياة التي يُفرزها الزمن ، وكيونةٌ تابعةٌ للتنوّع الثقافي الذي يُفرزه المكان . وبالتالي ، مُواجهَةُ الذات أفضل من خداعها ، وإيجاد أجوبة وجودية منطقية عن الأسئلة المصرية أكثر جدوى وأهمية من الالتفاف على الحقيقة، والتهرّب من التحديات .

الأساس الفلسفي لمنهج التحليل الاجتماعي يقوم على زُكْنَيْن : تحرير الإنسان وحرية المجتمع ، وهذا يتضمن انتقال الأحلام الفردية والطموحات الجماعية من قبضة الزمن إلى أفق التضامن الاجتماعي ، ومن حيز المكان إلى فضاء التفاعل الرمزي بين اللغة والفعل ، ومن دوافع الغريزة إلى سيادة المعايير الأخلاقية . وعملية الانتقال لا تحدث بمعزل عن العقل الجمعي ، لأنه أساس التجانس الثقافي ، ومنبع التواصل اللغوي ، ومصدر الشعور والوعي . والعقل الجمعي يمارس سلطة المعرفة في العلاقات الاجتماعية لتخليصها من الهيمنة والتبعية ، ويضع الشروط لتحقيق المصلحة المشتركة بين الإنسان والمجتمع . وهذه الشروط مترابطة مع بنية الواقع المعاصر ، الذي يُقدّم فهمًا جذريًا لمنظومة التقدير والنقض الخاصة بالسباق الزمني الذي نشأت فيه فلسفة الفعل الاجتماعي ، التي تحمي الأحداث اليومية والوقائع التاريخية من التحول إلى سلع ثقافية للاستهلاك الأيديولوجي . وإذا كان الفعل الاجتماعي يُفسّر الواقع المعاصر ويُغيّره ، باعتباره كيانًا فكريًا احتماليًا ، وليس شيئًا حتميًا ، فإن سلطة المجتمع المعرفية تُفكك شخصية الإنسان وتتركها ، باعتبارها ماهية وجودية نسبية ، وليست حقيقة مطلقة ، مما يؤدي إلى إعادة بناء شخصية الإنسان من منظور واقعي ، يتعامل مع حيوية العقل الجمعي كأداة للإنقاذ ، وليس عبئًا ثقيلًا يتم التخطيط للتخلص منه ، ويؤدي - كذلك - إلى إعادة بناء التنظيم الاجتماعي من مُنطلق عقلائي ، يتعامل مع انفجار الطاقة الرمزية اللغوية كآلية للخلاص ، وليس شعارات زئانة يتم المتاجرة بها لتحقيق مكاسب شخصية . واتخاذ المنظور الواقعي مع المنطلق العقلائي يساهم في اكتشاف جذور الحلم الإنساني الذي تعيش فيه الأنساق الثقافية ، ويعيش فيها ، كما يساهم في منع المجتمع من التحول إلى هجرة وجودية مستمرة من الأحلام الوردية إلى الكوايس المزعجة .

*

الخيالُ الإبداعي وإرادة المعرفة والجوهر الوجودي

١

سلوك الفرد اليومي ليس تجربة ثقافية شخصية فحسب ، بل هو أيضاً تيارٌ فكري يربط الواقع المادي بالخيال الإبداعي ، ويحدد معالم الوعي الحقيقي في تفاصيل الفعل الاجتماعي الذي يكشف تأثيرات العقل الجمعي في الدافع النفسي والإدراك الحسي ، ويوضح طبيعة الجوهر الوجودي في المعايير الأخلاقية ، ويسيطر على ماهية التفاعل الرمزي في اللغة والبيئة ، ويُعيد إنتاج هوية الزمكان (الزمان - المكان) في التاريخ والحضارة . والفعل الاجتماعي لا يستطيع تجاوز العقبات الحياتية المتعلقة بمشاعر الأفراد المتضاربة ، ونظم المجتمع الاستهلاكية ، إلا بإعادة تأويل الأنماط الثقافية في جسد التاريخ بحيث تصبح قوة دافعة لإرادة المعرفة ، وإعادة تشكيل أنساق الماضي بحيث يصبح نواة مركزية لأنسنة الحضارة . واندماج إرادة المعرفة مع أنسنة الحضارة يفكك آليات الهيمنة التي يُوظفها أصحاب المصالح الشخصية ، للاستحواذ على سلطة التاريخ والحضارة ، وتحويل هذه السلطة إلى كيان قمعي يُجرد العلاقات الاجتماعية من حيوية الفكر وحرية التفكير ، مما يؤدي إلى احتكار عناصر البيئة المعاشة للخيال الإبداعي ، واختزال الوعي الحقيقي في نظم المجتمع الاستهلاكية ، وهذا سبب غربة الفرد في ذاته ، واغترابه عن حياته .

٢

الوعي الحقيقي في الفعل الاجتماعي ، وإرادة المعرفة في التجربة الثقافية للفرد ، يكشفان كيفية تحوّل الأنماط الثقافية إلى بُنى وظيفية عضوية في كينونة المجتمع المتحرّرة من أدلجة التاريخ ، التي تُساهم في تزييف الوعي ، وتفتيت الجوهر الوجودي ، وإزالة اليقين من العلاقات الاجتماعية ، مما يجعل شرعية المجتمع قائمة على الشكوك والشبهات ، فتكسر شخصية الفرد الإنسانية ، وتنهار المنجزات الحضارية في المجتمع ، وينتقل العقل الجمعي من الحتمية إلى الاحتمالية ، فيعجز الفرد عن تحقيق ذاته ، ويعجز المجتمع عن إيجاد هويته . وهذا العجز على الصعيدين الفردي والجماعي يؤثر سلباً على قدرة اللغة على تفسير الأحداث اليومية ، وتأويل الوقائع التاريخية ، لأن كيان الفرد وكونه المجتمع مُرتبطان مع اللغة واقعياً ورمزياً . وكل إشكالية وجودية في البناء الاجتماعي تُمثل انقطاعاً معرفياً في بنية اللغة . وكل انكسار في الفعل الاجتماعي

يُمَثِّلُ صَدْعًا فِي فاعليَّةِ العقلِ الجَمْعِيِّ ، لذلك لا بُدَّ أن يتحرَّرَ الفردُ من صورةِ الصَّحِيَّةِ كي يُصبحَ
وُجُودُهُ فلسفةً بِناءٍ لا هَدْمٍ ، ولا بُدَّ أن يتحرَّرَ المُجتمَعُ من مَبْدَأِ التمرکز حول الذات كي يَنْتَقِلَ إلى
آفاقِ التَّنَوُّعِ الثقافي .

٣

الجَوْهَرُ الوجودي هو الفِكرُ الاجتماعي الذي تَمَّ تَطْهِيْرُهُ من صِرَاعِ المصالح الشخصية ،
وتَنَقِّيَّتِهِ من صِدَامِ الهُويَّاتِ المعرفية . وكما أنَّه لا يُوْجَدُ وجودٌ بلا جَوْهَرٍ ، كذلك لا يُوْجَدُ مُجتمَعٌ
بلا فِكرٍ . وهذا الترابطُ يُوَضِّحُ أهميةَ الفِكرِ في حمايةِ الوجودِ من الوَهْمِ ، وحمايةِ المُجتمَعِ من
الغِيَابِ ، لأنَّ الفِكرَ هو السُّلْطَةُ التي تَمْنَحُ الشرعيةَ للكياناتِ الحياتيةِ والسِّيَاقَاتِ اللغويةِ ، فالفردُ
يُفَكِّرُ كي يَحْيَا ، ويُفَكِّرُ كي يَتَكَلَّمَ ، وهذا يَعْنِي استحالةَ خُرُوجِ الحياةِ واللغةِ عن دائرةِ التفكيرِ .
لذلك ، كُلُّ إقصاءٍ لمركزيةِ الحياةِ يُمَثِّلُ تَكْرِيسًا للوَعْيِ الزائفِ ، وكُلُّ استبعادٍ لرمزيةِ اللغةِ يُمَثِّلُ
تَجْدِيرًا للقطيعةِ في أنساقِ التاريخِ . وإذا كانت شخصيةُ الفردِ الإنسانيةُ تُعيدُ إنتاجَ ذاتها اعتمادًا
على فلسفةِ المعْنَى في منظومةِ الخَيَالِ الإبداعيِ ، فإنَّ دائرةَ التفكيرِ تُوسِّعُ نَفْسَهَا استنادًا إلى ثَوْرَةٍ
اللغةِ في الحُقُولِ المعرفيةِ ، وهذا يَعْنِي ضرورةَ زراعةِ الخَيَالِ الإبداعيِ في الحُقُولِ المعرفيةِ ، لِكَيْلا
يُصبحَ نَسَقًا هَلامِيًّا سابحًا في الفراغِ ، بلا قاعدةٍ اجتماعيةٍ فَعَّالةٍ ، ولا أرضيةٍ سلوكيةٍ أخلاقيةٍ .

٤

إرادةُ المعرفةِ تَدْفِعُ العلاقاتَ الاجتماعيةَ إلى التعاملِ معَ الخَيَالِ الإبداعيِ كعمليةٍ صَهْرٍ
للمراحل الزمنيةِ ، حيث يتمُّ اكتشافُ الماضي كحركةٍ فاعلةٍ في الحاضرِ ، وتحليلُ الحاضرِ كبنيةٍ
وظيفيةٍ قائمةٍ على التفكيرِ النَّقْديِ ضمنَ تأويلِ اللغةِ وصيرورةِ التاريخِ . واللغةُ والتاريخُ يَكُونَانِ
فلسفةَ الجَوْهَرِ الوجوديِ ، ويُوظَّفَانِ في الخَيَالِ الإبداعيِ ، يوصِفُهُ تفاعلاً معَ الأشواقِ الرُّوحيةِ
للفردِ وعناصرِ الواقعِ الماديِ . وهذا التفاعلُ حَاكِمٌ على المعْنَى ، ومَحْكُومٌ بالقَصْدِيَّةِ . أي إنَّ له
مسارًا ومَصِيرًا خَالِيَيْنِ مِنَ العَبَثِ والصُّدْفَةِ . ومُهِمَّةُ هذا التفاعلِ هي التنقيبُ عن الأنظمةِ المعرفيةِ
في إفرازاتِ البيئةِ المَعاشَةِ ، باعتبارها مَوْرُوثًا ثقافيًّا غَيْرَ مُكْتَمَلٍ ، وتاريخًا حاضِرًا في الغِيَابِ .

*

طبيعة الإنسان والواقع الاجتماعي والمنهج الفلسفي

١

القاعدة الثقافية الحاملة للعلاقات الاجتماعية تُكوّن أنساقاً لغويةً رمزيةً تُفسّر طبيعة الإنسان ، اعتماداً على الرابطة بين الدوافع النفسية ومعايير الإدراك . وتفسّر طبيعة الإنسان هو تفسير للواقع الاجتماعي ، وكلّما تکرّست عملية التفسير إنسانياً وواقعياً واجتماعياً ، اتّصحت معالم الوعي المسيطر على التنوع الثقافي ، والسلوك اليومي ، والتواصل الحضاري . وهذا يدلّ على أنّ الهدف من عملية التفسير هو الوصول إلى الوعي ، وحمايته من الغياب والتغييب ، لأنّ حضور الوعي هو الضمانة لدمج القاعدة الثقافية مع قاعدة البناء الاجتماعي ، واستخراج تاريخ التجارب الحياتية من أعماق الإنسان . وهذا من شأنه إحداث توازن بين حضور الوعي وحضور التاريخ ، ومنع العلاقات الاجتماعية من عزل الثقافة ، ومنع الثقافة من تحويل اللغة إلى هيكل اجتماعي مُحنّط في مُتحف التاريخ . والغاية من العلاقات الاجتماعية هي تعميم الظواهر الثقافية ، وتحديد المعاني الوجودية ، وتفعيل التبادل المعرفي ، وتعزيز وسائل الاتصال والتواصل ، والغاية من الثقافة هي تفجير الطاقة الرمزية في اللغة ، وتأويل الواقع الاجتماعي معرفياً لا مصلحياً ، وتحويل السلوك اليومي إلى محاولة مُستمرة للتطهر من العقْد النفسية في طبيعة الإنسان ، والعقد التاريخية في البناء الاجتماعي .

٢

لا يُوجد بناء اجتماعي بدون بُنية أخلاقية واعية ، وقادرة على تحويل مصادر المعرفة إلى فاعلية للتغيير في مركزية الوعي في البيئة المُعاشة وماهيّة الوجود وهويّة المعنى الإنساني ، وهذا التغيير لا يعني إقامة قطعة مع التراث الفكري والزمن الماضي ، وإنما يعني فتح الزمن على إفرازات التاريخ وإسهامات الحضارة ، بحيث يصبح الزمن منهجاً فلسفياً لتوليد الوعي في الفضاء الإبداعي للعلاقات الاجتماعية ، واكتشاف الرموز اللغوية في الدوافع النفسية ومعايير الإدراك . ووظيفة المنهج الفلسفي تتجلى في تحديد أبعاد الواقع الاجتماعي ذي الطبيعة المُزدوجة (الكيان المادي الواقعي والكيان المعنوية الحاملة) ، ممّا يساهم في فحص الأنساق التراثية الكامنة في الثقافة ، والتعامل مع اللغة كمنظومة وجودية تُزيل التعارض بين الشعور الإنساني في تاريخ الوعي ، وبين الآلة الميكانيكية في حضارة الاستهلاك، وتضع حدّاً فاصلاً بين الصراع في التاريخ (استنزاف

التاريخ) وبين الصراع على التاريخ (احتكار التاريخ) . وإذا كان التاريخ له فلسفته الخاصة، فإن اللغة لها منطقها الخاص ، ولا يمكن الجمع بين نظام التاريخ ومنظومة اللغة إلا بتفعيل ذاكرة منهج التحليل الاجتماعي ، حيث يقوم المجتمع باكتشاف جدوى بقائه وشرعية حياته في الحاضر والماضي معاً ، بلا انقطاع زمني ، ولا قطيعة معرفية . والزمن المتصل يعني بحثاً مستمراً عن المعنى الوجودي للإنسان والمجتمع والبيئة ، بلا قوالب جاهزة ، ولا أحكام مسبقة . والمعرفة المتواصلة تعني إنتاجاً مستمراً للوعي والإدراك والمسؤولية ، بلا قمع فكري ، ولا عقد نفسية أو تاريخية .

٣

إذا كان الإنسان ابن الواقع الاجتماعي ، فإن الفلسفة ابنه رمزية اللغة ، وهذا النسيج المعرفي المتشابك يؤسس المفاهيم العقلانية في زوايا الرؤية للتاريخ ، ويكرس التحولات الفكرية والاجتماعية كمعايير وجودية تُعيد صياغة العلاقة بين الذات والموضوع ، والنظرية والتطبيق ، والشكل والمضمون ، والهوية والماهية ، من أجل منع الوعي الزائف من إنتاج المعنى التاريخي في الحضارة ، ومنع الوهم المؤذلق من تفتيت الفعل الحضاري في التاريخ . وهذا يؤدي إلى تحقيق التوازن بين الفعل الاجتماعي والفعل الحضاري . وهذان الفعلان ينقلان التجارب الشخصية للأفراد من الصيغة الوجدانية إلى الصيغة الثقافية ، ويحولان البناء الاجتماعي من هيكل تراتبي جامد إلى فضاء إبداعي سائل ، يحتضن الأحلام الفردية والطموحات الجماعية ، ويبنى سلطة المجتمع فكراً وأخلاقاً ، خيلاً وواقعاً ، تأصيلاً علمياً وتطبيقاً عملياً . ولا يمكن أن تكتمل سلطة المجتمع إلا إذا اكتملت شخصية الفرد الإنسانية ، لأن شخصية الجزء هي أساس سلطة الكل .

*

مركزية الثقافة وسلطة الفكر الإنساني

١

مركزية الثقافة في البناء الاجتماعي تمنح الفرد القدرة على تقييم الوضع المعرفي للمجتمع، وتقوم الأنساق الوجودية التي تربط بين الوعي والهوية، وتظهرهما في سلطة الفكر الإنساني القادر على نقد الواقع الاجتماعي على صعيد النظرية والممارسة، وكشف وهم المعرفة الذي يجعل العلاقات الاجتماعية تلغي ذاتها بذاتها. وسلطة الفكر الإنساني ليست منظومة استبدادية تنطوي على بذرة انهيارها في داخلها، أو بنية وظيفية تحتوي على أشكال اجتماعية متناقضة وغير منطقية، وإنما هي سلطة عقلانية تُعيد تشكيل الحلم الإنساني في البيئة الواعية والتاريخ المعاش، من أجل تحديد معالم المصير المشترك بين أفراد المجتمع باعتبارهم صنّاعاً لفلسفة الأحداث اليومية، وليسوا أدوات يتم تحريكها والتلاعب بها من وراء الستار، وهذا الأمر في غاية الأهمية، لأنه يحمي الكيان الإنساني والكيونة المجتمعية من غربة الوعي، والاعتراب عن الذات الفاعلة فردياً وجماعياً، مما يدفع الفعل الاجتماعي إلى حماية مركزية الثقافة، بوصفها مشروعاً معرفياً يُحرر الوجود من الوعي الزائف والشعور الوهمي، وهذا يضمن توليداً مستمرّاً لأنساق التاريخ، مُنفَعلاً بالتجارب الحياتية الذاتية (الجزئية) والعامة (الكُلّية)، ومُتَفَاعِلاً مع منطق اللغة الرمزي، وعابراً للمراحل الزمنية، ومُتَجَاوِزاً للإفرازات السلبية لدوافع السلوك المرتبطة بالمصلحة الشخصية الضيقة.

٢

مركزية الثقافة ليست بُؤرة لاستقطاب المعاني المُستهلكة، والنظريات المُجرّدة، والشعارات الفارغة، وإنما هي مركزية وجودية تُعيد إنتاج الزمن واكتشاف المكان، ونظام فلسفي مُتمركز حول الشرعية الإنسانية في أعماق المجتمع والتاريخ والحضارة. وهذا النظام الفلسفي يُحافظ على ماهيته وحيويته رغم كُلّ الضغوطات المادية الاستهلاكية، لأنه قائم على ركنين: نقد الواقع الاجتماعي، وكشف وهم المعرفة. وهذان الركنان يُحدّدان طبيعة رؤية الفرد للأنا والآخر، ممّا يُساهم في توحيد مصادر المعرفة المُبعثرة في مناهج التحليل الاجتماعي، ونقل الوعي الحضاري من التمرکز حول الذات إلى الانطلاق نحو فضاءات الهوية الإنسانية الجامعة، ومن الانغلاق العقلي إلى الانفتاح على أنساق التفكير النقدي الإبداعي، ومن التقوقع في البيئة المحصورة إلى

الزمن الوجودي المفتوح المُتحرّر من التَّحَيُّزِ المُسَبِّقِ والأنماطِ الثقافية المُتَحَجِّرة . ولا يُمكن إعادةُ
البريق إلى التجارب الحياتية إلا بإعمال آليّات التحليل النَّفْسيِّ لشخصية الفرد الإنسانية داخل
اللغة وخارجها ، ولا يُمكن إعادةُ المعنى إلى الحُلُمِ الإنساني إلا بتكوين أدوات التحليل التاريخي
لِسُلْطةِ المُجتمع الاعتبارية داخل المكان وخارجه .

٣

مركزيّة الثقافة _ بما تَمْلِكُهُ مِنْ رُحْمٍ فِكْري ووَغْيٍ حضاري _ قادرةٌ على فتح اللغة على جُذور
المُجتمع العميقة . وسُلْطةُ الفِكرِ الإنساني _ بما تَمْلِكُهُ مِنْ نَسَقٍ عقلائي ورمزية لُغوية _ قادرةٌ
على تشكيل المَوروث الثقافي كسياسة حضارية . وهاتان الحقيقتان تُساهِمَانِ في تحريرِ إرادة
الإنسان مِنْ تَسَاوُعِ الأحداث اليومية ، وتَعَارُضِ الوقائع التاريخية ، وتحقيقِ التناغم بين نقدِ الواقع
الاجتماعي وفحصِ المَوروث الثقافي ، وتحقيقِ الانسجام بين كشفِ وَهْمِ المعرفة ومناهج التحليل
الاجتماعي، وبالتالي تُصبح المعاييرُ الأخلاقيةُ قوانينَ تاريخية، وتُصبح القوانينُ التاريخيةُ مرجعياتٍ
حياتية لتطهيرِ الحُلُمِ الإنساني مِنْ الوَهْمِ ، وتنقيةِ الأزماتِ المعرفية مِنْ غُرورِ القُوَّةِ ، وانتشالِ
الأنساق الثقافية مِنْ مَصِيدَةِ اللحظة الآنيّة ، وتخليصِ العلاقة بين الإنسان والطبيعة مِنْ هَيْمَةِ الآلةِ
الميكانيكية ، ومَا تُفَرِّزُهُ مِنْ شُعُورٍ صِنَاعِي مُخَادِعٍ ووَغْيٍ مادي زائف ، يَصِيرَانِ معَ مُرُورِ الزمن
حَاجِزًا بين هُويّةِ الفرد الحاملة وسُلْطةِ المُجتمع الضاغطة ، مِمَّا يجعل الفردَ عاجزًا عن تحليل
مُكوّناتِ ذاتِهِ وعناصرِ بيئته ، ويجعل المُجتمعَ عاجزًا عن تفسيرِ أُسُسِ تاريخه وأركانِ حضارته .

*

الحقيقة الإنسانية والواقع اليومي والرمزية اللغوية

١

البناء الاجتماعي ليس كياناً وهمياً يُفَرِّز علاقات اجتماعية ميكانيكية ، ويُنتج أنساقاً ثقافية جامدة تقوم على الوعي الزائف، إنَّ البناء الاجتماعي هو الحاضنة الشرعية لوجود المجتمع معنوياً ومادياً، والمرجعية الفكرية القادرة على إعادة أحلام الفرد إلى الحياة ، وتشكيل الهوية الفردية والجماعية التي لا تكتفي بذاتها ، بل تسعى إلى التواصل مع مصادر المعرفة التي تُحدّد أبعاد سلطة المجتمع ، والتفاعل مع التجارب الحياتية التي تُحدّد معالم شخصية الفرد . وإذا كانت مصادر المعرفة تتأسس على عقلانية الواقع اليومي ، فإنَّ التجارب الحياتية تتأسس على رمزية الدلالات اللغوية . وهذا التشابك المعرفي مع الواقع واللغة يحمي العقل الجمعي من العيش خارج التاريخ ، ويحمي التاريخ من العيش خارج فلسفة الوعي . والوعي إذا اتَّصف بالحياة ، والحيوية ، والحرية في ذاته ، والتحرُّر من عناصر المنظومة الاستهلاكية المحيطة به ، سيَتحوَّل إلى رافعة لفلسفة اللغة ، لأنَّ اللغة تستمد وجودها من الوعي لا العيوبية المعرفية ، وتكتسب شرعيتها من الخلاص التاريخي لا الهروب من الزمن .

٢

مركزية اللغة في البناء الاجتماعي ذات طبيعة عابرة للزمن ، وغير خاضعة للتجنيس المكاني ، لأنَّ اللغة تدفّق معرفي مستمر أفقياً وعمودياً، وانفجار رمزي متواصل على صعيد الألفاظ والمعاني . وشباب اللغة الدائم هو الضمانة الأكيدة لحماية العلاقات الاجتماعية من التشتُّو (تحوُّل العلاقات الشخصية بين الأفراد إلى علاقات آلية بين الأشياء) . وإذا صار الفرد شيئاً هامشياً في المجتمع ، وعُنُصراً مُعْتَرِياً عن ذاته ومحيطه ، فإنَّ الفعل الاجتماعي سيخرج من فلسفة التاريخ، ويتشظى بين الأفكار الذهنية والإدراك الحسي. وهذا التشظى شديد الخطورة ، لأنَّه يُدخل المجتمع في مآهة رُود الأفعال والمواقف الارتجالية ، بلا تخطيط ولا تنظيم . وكلُّ خلل في البناء الاجتماعي هو بالضرورة خلل في منطق اللغة الرمزي ، وإذا غاب اليقين عن العلاقات الاجتماعية، فإنَّ شرعية المجتمع ستصبح وهمًا مُكرَّساً بفعل الأمر الواقع، ومُعتمداً على عوامل مصلحية مؤقتة ، بلا مبادئ عقلانية ذاتية، ولا جذور تاريخية ضاربة في الأعماق . وكلُّ شجرة تعتمد في الثبات على غير جذورها، ستسقط مع هبوب الرياح .

لا معنى للوعي خارج عملية التفاعل التقدي مع الأنساق الثقافية التحررية لا الفوضوية ، ولا قيمة للفكر خارج نطاق الفعل الاجتماعي القائم على قوة المنطق لا منطق القوة . وهذان المبدآن يُحدّدان طبيعة الحقيقة الإنسانية القائمة على العقلانية لا الاضطهاد ، ويكوّنان ماهية الواقع اليومي القائم على الاختيار لا الاضطرار ، ويصنعان هوية الرمزية اللغوية القائمة على التمهيص لا التقديس . وهذا يعني أنّ قواعد البناء الاجتماعي هي : الحقيقة الإنسانية ، والواقع اليومي ، والرمزية اللغوية . وهذه القواعد الثلاث تتبادل الأدوار فيما بينها ، لأنّ البناء الاجتماعي ليس كتلة أسمنتية أو إطاراً حجرياً أو شكلاً ثابتاً ، وإنما هو بناء وجودي يمتاز بالحركة والمرونة والانطلاق ، والقدرة على تعديل الأنساق الثقافية ، والقوالب الفكرية ، والسيقات الزمنية ، والتجارب الحياتية ، وتغيير زوايا الرؤية للأحداث اليومية والوقائع التاريخية . وكلّ بناء اجتماعي هو بالضرورة بُنية معرفية ، وسيظلّ الوعي عنصراً أساسياً في تكوين الفعل الاجتماعي في البيئة المعاشة ، وإعادة إنتاج النظام اللغوي ليصير دليلاً على الحقيقة الإنسانية ، ودلالة على تجاوز الفرد لذاته في رحلته لاكتشاف وجوده في المجتمع ، ووجود المجتمع في التحوّلات الحضارية محلياً وعالمياً .

الوعي التقدي في المجتمع ليس نسقاً أحادياً ، وإنما هو شبكة معقّدة من العلاقات الاجتماعية ، والمعايير العقلانية ، والأنساق الثقافية . وهذه الشبكة تُؤسّس مناهج لغوية قادرة على تفسير الرابطة بين المعرفة والمصلحة من جهة ، وبين التاريخ والسلطة من جهة أخرى . وهذا يدلّ على أنّ التأويل اللغوي هو الحكم بين عناصر البناء الاجتماعي ، والحاكم على إفرازات الواقع اليومي ، لأنّ اللغة وحدها هي القادرة على تخليد اللحظة الآنية ، ونقلها عبر مراحل الزمن . وكلّ مجتمع خارج اللغة يُعتبر وهمّاً لا هوية له ولا ماهية ، وكلّ واقع خارج اللغة يُعتبر فراغاً لا كيان له ولا كينونة ، ممّا يُشير إلى أنّ اللغة هي المرجعية الوجودية التي تُقدّم الحقيقة الإنسانية أو تسلبها ، والشرعية المعرفية التي تُفسّر الفعل الاجتماعي كنقطة توازن بين العقل الجمعي والسلوك الأخلاقي .



الفعل الاجتماعي والفكر النقدي والحداثة والتراث

١

الفعل الاجتماعي ليس زمنًا متَّحَجِّراً في الظواهر الثقافية والقوالب التاريخية ، وإنما هو تجديد فكري حقيقي ومؤثّر في مفاهيم المجتمع وحقول المعرفة ، وكلُّ تجديد فكري يُمثّل آليّة لإعادة إنتاج التفاعلات الرمزية في لغة الفرد الإبداعية ، وهويته المركزية ، وسلطته الاعتبارية . وإذا تَكَرَّسَ الفعل الاجتماعي كأداة تفسيرية للأحداث اليومية والسلوكيات الأخلاقية ، فإنَّ وعي الفرد بذاته وعناصر البيئة المحيطة به ، سيَصير قوَّة دافعة لأشكال العلاقات الاجتماعية ، ومؤلِّدة لرموز البنى اللغوية ، ومُنظِّمة للمعايير الأخلاقية . وهذا يدلُّ على أنَّ الوَعْي هو أساس الفعل الاجتماعي ، وكلاهما مُندمج مع عملية تحرير الظواهر الثقافية من عبء المصالح الشخصية ، وعملية تخلص القوالب التاريخية من ضَغْطِ التأويلات المُغرِضة . وإذا كان المجتمع هو ذاكرة الأحلام الفردية التي تُعيد تشكيل سلطة البناء الاجتماعي ، وترسيخ إنسانيَّة الواقع التي لا يُمكن أدلجتها مصلحيًا ، ولا تفكيكها تاريخيًا ، فإنَّ فلسفة المجتمع هي تجسيد ذاكرة الأحلام الفردية في بُنية السِّيَاق الحضاري لِثَوْرَةِ اللغة وحركة التاريخ ، وهذا التشابك المعرفي بين المجتمع وفلسفته يجعل جَوْهَر الفعل الاجتماعي إطارًا مرجعيًا لِمَنْطِقِ اللغة الرمزي ، ومنهج العقل الجمعي ، ممَّا يُؤدِّي إلى تجذير الفكر النقدي ، وتَكْيِيفِ فلسفة الحداثة مع فلسفة التراث ، بدون عوامل خارجية ضاغطة ، ولا عمليات تَلْفِيقِ اصطناعية على الصَّعِيدَيْنِ الزَّمَنِيِّ وَالْإِيدِيُولُوجِيِّ .

٢

الفعل الاجتماعي القائم على الوَعْي قادرٌ على تكوين منظومة مُزدَوِجَةٍ من فلسفة الحداثة وفلسفة التراث ، بشكل طبيعي وانسيابي وسلس ، لأنَّ الوَعْي طاقة ذاتية في تفاصيل المجتمع ، وليس غُنْصَرًا دَخِيلًا أو كِيَانًا مُسْتَوَرَّدًا أو كِينونَةً غريبةً ، وهذا يعني أنَّ الفعل الاجتماعي والوَعْي مُتَجَانِسَان ، وتَجْمَعُهُمَا رَابِطَةٌ وَجُودِيَّةٌ وَاحِدَةٌ ، وغايةً مَصِيرِيَّةٌ مُشْتَرَكَةٌ ، وَبِتَحَرُّكٍ فِي نَفْسِ الْإِتِّجَاهِ ضِمْنَ تَيَّارٍ معرفي مُتَمَاسِكٍ بلا انقسامٍ معنوي ولا انكسارٍ مادي ، ممَّا يَمْنَعُ التَّعَارُضَ بَيْنَ الْحَدَاثَةِ وَالتَّوَارِثِ ، وَيَمْنَعُ التَّصَادُمَ بَيْنَ فَلَاسَفَتَيْهِمَا عَلَى صَعِيدِ الشَّكْلِ وَالْمَضمُونِ . والفعل الاجتماعي عملية حَفَرٍ فِي الْفِكْرِ النُّقْدِيِّ وَالظَّاهِرِ الثَّقَافِي ، وَالوَعْيُ عَمَلِيَّةٌ حَفَرٍ فِي الْبُنَى اللُّغَوِيَّةِ وَأَنْمَاطِ الْحَيَاةِ . وهذا النشاطُ الْإِنْسَانِي يُمَثِّلُ شَبَكَةً مِنَ الْعِلَاقَاتِ الاجتماعية ، وَنَسِيجًا مِنَ الْخِبَرَاتِ الْحَيَاتِيَّةِ . وكلُّ

نشاط إنساني يتركز على التجانس بين عناصر البيئة المُعاشة، ويعتمد على التفاعل الواقعي مع مصادر المعرفة، ويستند إلى الأدوات المنهجية التي تُوظف رمزية اللغة في تأويل السِّياق التاريخي للعقل الجمعي، وتحليل المسار الحضاري للفرد والجماعة، مما يشير إلى أن النشاط الإنساني نظام فكري مُندمج مع البيئة والتاريخ والحضارة، وفق آليات عقلانية تسعى إلى التُّهوض بالواقع، وليس الهيمنة عليه، وتسعى إلى تحرير هوية المجتمع الإبداعية من سلطة اللحظة الآنية، وليس احتكار الأحلام الفردية لصناعة وعي زائف وشعور مُخادع وإنجازات وهمية.

٣

الفعل الاجتماعي يُؤسس أركان الفكر النقدي لتحرير التراث من أوهام الحداثة، وتحرير الحداثة من تقديس التراث، مما يجعل الفرد يُمارس سلطته اللغوية في سياقات الحداثة ومجالات التراث، اعتماداً على طرح الأسئلة المصيرية، والبحث عن أجوبة منطقية مهما كانت صادمة، والأساس الفلسفي للأسئلة المصيرية مُتمركز في بنية الفعل الاجتماعي، من أجل اكتشاف الحقيقة، وليس التحايل عليها، أو الالتفاف حولها. وهذا ينقل الظواهر الثقافية من الفعل الاجتماعي إلى الفاعلية الوجودية، وينقل الأحلام الفردية من المصالح الشخصية إلى الكينونة المعرفية، مما يُحرر الفرد من الاغتراب الروحي في الأحداث اليومية، ويُحرر المجتمع من الغربة الزمنية في الوقائع التاريخية، وبالتالي، يتكون تصوّر فلسفي لصورة الماضي في الحاضر، وانعكاس الحاضر على الماضي، وهذا التّصوّر الفلسفي مُرتبط بشكل وثيق مع التحليل النفسي للحداثة والتراث، وكيفية توظيفهما بشكل تكاملي في تفاصيل الحياة، بحيث يصبح الفعل الاجتماعي نظاماً توليدياً للفكر النقدي، ويصبح الفكر النقدي إطاراً تنظيمياً للفعل الاجتماعي.

*

الزمن المعرفي والمناهج الاجتماعية الإبداعية

١

هَيْمَنَةُ الأنساق التاريخية على الظواهر الثقافية ، وسيطرة فلسفة القوة على العلاقات الاجتماعية ، تُعْتَبَران منظومةً واحدةً ومُوَحَّدَةً للعناصر الفكرية المنسوبة في البناء الاجتماعي. وإذا كَانَ الوَعْيُ تشخيصاً للحاضر مَعْنَى وَمَبْنَى ، فإنَّ اللغة تشخيص للواقع إدراكاً وحسّاً . والوَعْيُ واللغة ينطلقان مِنْ فَيُودِ اللحظة الآتية إلى فضاءات التاريخ والحضارة ، لصناعة زَمَنٍ معرفي عابرٍ للتَّجَنُّسِ ، ومُتَجَاوِزٍ للحدود ، وقادرٍ على إيجاد رابطة منطقية بين فلسفة القوة وسلطة المعرفة ، ممَّا يَدْفَعُ باتجاه توليد مفاهيم تُحَلِّلُ الصَّرَاعَ بين الفرد وذاته ضمن البنى الوظيفية في المجتمع . وتوليد المفاهيم يَعْنِي بالضرورة تأسيس مناهج اجتماعية إبداعية ذات طابع خلاصي تحريري للأحداث اليومية مِنْ سَطْوَةِ آليات الوَعْيِ الزائف ، وتأثير أدوات القمع الفكري ، وهذا يُؤَدِّي إلى تحويل الفعل الاجتماعي إلى معيار أخلاقي في جوهر الطبيعة الإنسانية للفرد والمجتمع ، وتحويل الظواهر الثقافية إلى مُمارَسات وجودية فعَّالة تُوظَّفُ الأنساق التاريخية في الحُلمِ الفردي والمصلحة العامة ، ممَّا يَضْمَنُ تحقيق التجانس بين الماضي والحاضر ، وإعادة تأسيسهما على الزمن المعرفي ، بوصفه وَعْيًا إبداعيًا مُتَجَدِّدًا ، وتَفْجِيرًا مُسْتَمِرًّا للطاقة الرمزية في اللغة من أجل تحقيق اندماج الفرد في ذاته ومُحيطه ، واندماج المجتمع في تاريخه وحضارته. وعملية الاندماج الفردية والجماعية قائمة على ثنائية (التقييد / التَّحْيِيد) ، تقييد العلاقات الاجتماعية الناتجة عن تكريس الوَعْيِ الزائف ، وهذا يُؤَدِّي إلى امتلاك المجتمع لِمَسَارِهِ وَمَصِيرِهِ ، وتحييد التناقضات الشعورية الناتجة عن تأويل اللغة الوهمي، وهذا يُؤَدِّي إلى تحقيق التوازن بين إنتاج سلطة المعرفة وامتلاك سلطة القرار ، وهاتان السُلْطَتَانِ تُحَدَّدَانِ ماهية البناء الاجتماعي ، وقدرته على التَّكْيُفِ مع ضغط الأنساق التاريخية ، والتأقلم مع تجاذبات مراكز القوى في الظواهر الثقافية .

٢

التَّكْيُفُ في الأنساق التاريخية المرتبطة بوعْيِ الفرد وثقافة المجتمع ، يُمثِّلُ خُطْوَةً أساسية في اتجاه فَهْمٍ مركزية الذات الإنسانية في الوجود ، التي يُعاد تشكيلها عقلاً في الإطار الاجتماعي ، وتأويلها رمزياً في الإطار اللغوي ، وتكريسها واقعياً في الإطار الحضاري، مِنْ أَجْلِ الحِفَاطِ على كِيَانِ الفرد وكيونته المجتمع كَمَصْدَرَيْنِ لشرعية الحياة اليومية بلا قطيعة معرفية ، ومشروعية سلطة

الوَعْي بلا حواجز نَفْسِيَّة . وهذا من شأنه نقل التجارب الحياتية من الحَيِّز الشخصي إلى المَجَال العام، وتوظيفها في شبكة العلاقات الاجتماعية لإيجاد هُويَّةٍ مُشْتَرَكَةٍ بين المعايير الأخلاقية والقيم الوجودية المُطلَّقة، وجامعةٍ للقواعد التفسيرية الخاصَّة برمزية اللغة الحاملة للتُّراثِ الرُّوحي للفرد والمُجتمع . وإذا انتقل التفسير اللغوي من النَّسق الثقافي التُّخْبُوي إلى النظام الاجتماعي العام ، فإنَّ البُنى الوظيفية في المُجتمع ستُصبح قادرةً على فَتْحِ مَعْنَى الحياة أمام إفراسات العقل الجمعي، بحيث يُصبح مَعْنَى الحياة زمناً داخل الزمن ، وَصَوْتاً لِمَنْ لا صَوْت له . والتاريخ لا يُصبح طاقةً توليديةً للأفكار التَّفْديَّة إلا إذا دَمَجَ مَعْنَى الحياة مع العقل الجمعي ضِمْنَ بُنية لغوية مُتماسكة تُنقِذ الفرد من أزماته ، ولا تَكُون عِبْئاً عليه .

٣

المناهج الاجتماعية الإبداعية تُمثِّل ظواهر ثقافية ذات امتداد عميق في الأنساق التاريخية ، وَحُقُولاً معرفيةً حاضنةً لِسُلْطَةِ الوَعْي وآلياتِ إنتاجه وأدواتِ توظيفه . وهذه المناهج لَمْ تَتَشَكَّل بِمَعزِلٍ عن فلسفة القُوَّة في العلاقات الاجتماعية، وَلَمْ تَتَكَوَّنْ خارج السِّياقات الحضارية للمُجتمع. إنَّ هذه المناهج تُجسِّدُ مركزية الوجود الإنساني القادر على استرجاع العناصر الفكرية المُنسِية في البناء الاجتماعي، وانتشال الأحلام الفردية المَقموعة من أعماق النظام الاستهلاكي القاسي ، واستعادة عناصر التاريخ المُهمَّشة من قُبْضَةِ الوَعْي الزائف الذي يُغَلِّف الزَّمَنَ المعرفي بالأقنعة . والزَّمَنُ المعرفي لَيْسَ بُنيةً وجوديةً فَحَسْب ، بَلْ هو أيضاً حاضنةً لرمزية اللغة وتأثيرها في الوَعْي ، وتأثير الوَعْي في دلالات الألفاظ والمعاني . والزَّمَنُ المعرفي لَيْسَ تجسيداً للأحداث اليومية والوقائع التاريخية، باعتبارها تجارب ثقافية مُتذبذبة بين الماضي والحاضر ، وإنَّما هو تجسيدٌ لِجَوْهر الطبيعة الإنسانية للفرد والمُجتمع ، التي تَحَرَّزَتْ من الأعراض الوَهْمِيَّة ، وَتَخَلَّصَتْ من الأعراض المَصْلَحِيَّة .

*

أركان جَوهَر الوجود الإنساني

١

الروابط الاجتماعية بين الأفراد تُمثِّل أنساقًا تاريخيةً كامنةً في بُنيةِ الفعل الاجتماعي ، ومُتَجَسِّدَةً في الوَعْيِ المُسيطر على مصادر المعرفة ، وهذه الأنساقُ تحتاج إلى آلياتٍ لغويةٍ لتحليلِ مَعْنَاهَا ، وبيانِ جَدْوَاهَا ، وتكريسِ شرعيتها ، مِمَّا يُسَاهِم في تَوْظِيفِ البُعْدِ التاريخي في المُجْتَمَع ، لَيْسَ مِنْ أَجْلِ إِعَادَةِ الحَاضِرِ إلى المَاضِي ، بَلْ مِنْ أَجْلِ تَحْوِيلِ الحَاضِرِ إلى وَعْيٍ بالمَاضِي ، وامتلاكِ الظواهر الثقافية التي تُعَرِّي الأزمنةَ مِنَ الوَعْيِ الزائف ، وتُجَرِّد التفاعلات الاجتماعية الرمزية من أوهام الهَيْمَنَةِ . وهذه التفاعلاتُ لَيْسَتْ تَوَاصُلًا ميكانيكيًا بين الأفراد، أَوْ تَبَادُلًا آليًا بين عناصر البيئة المَعاشة ، وإنما هي تفاعلات قائمة على الشُّعُورِ الواعي، والإدراكِ الحِسِّي ، وَمَنْطِقِ اللغة ، وهذا يَحْمِي مَرَكِزِيَّةَ الوجودِ الإنساني من القطيعة المعرفية ، وَيُحَقِّق الانسجامَ بَيْنَ إِفْرَازَاتِ العَقْلِ الجَمْعِي وتأثيراتِ تاريخ الأفكار. وكُلُّ التفاعلاتِ المُتَجَدِّرة في البِنَاءِ الوجودي للمُجْتَمَع وبُنيةِ الفعل الاجتماعي تُمثِّل مناهجَ نَقْدِيَّةً لا يُمكن عَزْلُهَا عن السِّيَاقِ الحضاري للفرد والجماعة ، وتُمَثِّل مَرَجِعِيَّاتٍ فكرية لا يُمكن إبعادها عن دَلالاتِ التأويل اللغوي لتجارب الأفراد الحياتية ، التي تَتَمَرَّكُزُ حَوْلَ هَوِيَّةِ المَعْنَى الإنساني ، وعلاقةِ الوَعْيِ بِسُلْطَةِ المعرفة كَنَسَقٍ وُجُودِي مُلتَزِمٍ بالمعايير الأخلاقية ، ومُتَجَاوِزٍ لِحُدُودِ التَّوْظِيفِ المَصْلَحِي للثقافة والتاريخ والحضارة .

٢

لا مَعْنَى للمَاضِي خارجَ حُقُولِ المَعْرِفَةِ ، ولا جَدْوَى مِنَ الحَاضِرِ خارجَ الفعل الاجتماعي ، وهذا يدلُّ على أَنَّ الرَّمْنَ لَيْسَ نِظَامًا فِكْرِيًّا قائمًا بذاته ، ولا يُكُونُ نَفْسَهُ بِنَفْسِهِ ، وإنما هو وعاء حَاضِنٌ للتفاعلات الاجتماعية الرمزية ، يَدْفَعُ تاريخَ الأفكارِ إلى التمرکز حول الذات الإنسانية ، بِهَدَفِ نَقْدِهَا وتحليلها ، وَلَيْسَ تَقْدِيسُهَا وَتَحْنِيطُهَا . ومنظومَةُ (النَقْدُ / التَحْلِيل) تَمْنَحُ شَخْصِيَّةَ الفرد الإنسانيةَ القُدْرَةَ على صِنَاعَةِ مَا هِيَّتُهَا وتكوينِ رَمَازِيَّتِهَا ، في عَالَمٍ مَادِي شديدِ التعقيد ذي طَبِيعَةٍ أَيْدِيُولُوجِيَّةٍ ، تَقُومُ على تَوَلِيدِ مَعَانِي الأشياءِ حَسَبَ المَصَالِحِ المُتَغَيِّرَةِ ، وَلَيْسَ حَسَبَ حَقِيقَةِ الأشياءِ . لذلك _ في أحيان كثيرة _ تَضِيعُ حَقِيقَةُ الأشياءِ في الوَعْيِ الزائف ، وتَدُوبُ صَيْرُورَةُ التاريخ في ضَغْطِ المَصَالِحِ الصُّيْقَةِ التي تُعيد تأويلَ الرَّمَنِ لتكريسِ اللحظةِ الآتِيَّةِ خَوْفًا مِنَ

المُستقبل ، وتَغيب القِيمُ الإنسانية في التَّزعة الاستهلاكية المادية التي تُجَرِّد السُّلوكيات اليومية من المَعْنى لتكريس الغيبوبة المَعْرِفِيَّة خَوْفًا من الوَعْيِ الفاعل في البيئة الاجتماعية ، والمنفعل بالأحداث اليومية والوقائع التاريخية ، والمتفاعل مع تجارب الأفراد الحياتية .

٣

جوهر الوجود الإنساني يقوم على ثلاثة أركان رئيسية : الدلالة الرمزية في كينونة اللغة ، وتاريخ الأفكار في كيان الفرد ، وسلطة المعرفة في هوية المجتمع . وهذه الأركان تُقدِّم تفسيرًا منطقيًا للذات الإنسانية في تجلياتها الزمنية ، وانعكاساتها الروحية ، وأبعادها المادية ، وتُحافظ على العقل الجمعي كمنظومة متجانسة ، وتُكرِّس المنظور الحضاري في اللغة والهوية كوحدة متماسكة . وكلُّ ركنٍ من هذه الأركان يُمثِّل مرجعيةً نقديةً تُنقِذ الظواهر الثقافية من المآزق الحياتي للفرد والجماعة ، من أجل نقل سلطة المعرفة من الشك إلى اليقين ، وتُخلص التفاعلات الاجتماعية الرمزية من إشكاليات البيئة المَعاشة ، من أجل نقل هوية المجتمع من الاغتراب الوجودي إلى صناعة الفعل الاجتماعي في تفاصيل الحياة اليومية . ومنظومة (الإنقاذ / التخليص) في الثقافة والمجتمع تُحدِّد طبيعة المسار العقلائي القادر على تجاوز تناقضات الذات والهوية في التزعة الاستهلاكية المادية ، وهذا من شأنه إنزال تاريخ الأفكار من بُرجه العاجي إلى حقول المعرفة ذات التماس المباشر مع الواقع الاجتماعي ، وتحليل الأنساق التاريخية كآليات للتحرُّر من ضغوط المصالح الضيقة ، وإعادة إنتاج الرمزية اللغوية للربط بين الشكل والمضمون من جهة ، والذات والموضوع من جهة أخرى . وكلُّما انصهرت الرمزية اللغوية في البناء الاجتماعي والوجود الإنساني ، أعاد الوَعْي إنتاج الماضي بوصفه قُوَّة دافعة للإبداع ، وليس سَيْفًا مُصلِّتًا على الرِّقاب . وإعادة إنتاج الماضي لا تعني تزويره ، أو صناعته ذهنيًا بشكل يُخالف الحقيقة ، وإنما تعني غرْبلة أنساقه ، وفصل المَرجعيات الفكرية عن المراحل الزمنية ، من أجل التمييز بين جوهر الوجود الإنساني الصافي ، والعناصر الدخيلة عليه ، والتفريق بين سلطة المعرفة القائمة بذاتها ، والوَعْي الزائف الذي تمَّ تجذيره في سلطة المعرفة بفعل عوامل خارجية ، لتحقيق مصالح شخصية ومنافع ذاتية . ولا يُمكن فهم الحاضر كفلسفة للوجود الإنساني إلا إذا استطاع العقل الجمعي التمييز بين عناصر الماضي التي حَدَّتْ وانقَضَتْ ، وعناصر الماضي التي تَجَدَّد في وعْي الفرد ، وتنعكس في الحاضر .

التحوّلات الفكرية في العلاقات الاجتماعية

١

التحوّلات الفكرية في العلاقات الاجتماعية ليست انعكاساً ساذجاً لحركة الأفراد في تفاصيل الحياة اليومية، وإنما هي تحوّلات ناتجة عن التحليل النقدي لجذور المجتمع في أعماق الوعي التاريخي، وتعقيدات النسق الحضاري. والتحليل النقدي هو الضمانة الأكيدة لحفظ كيان المجتمع من الفوضى، وحماية كينونة التاريخ من التشطّي، لأنّ مفهوم التحليل قائم على تفكيك الفكر إلى عوامل أولية، وإعادته إلى أنوثته الداخلية، ومفهوم النقد قائم على كشف الشغرات في جذور المجتمع المخفية، وكيانه الظاهري. والارتباط العضوي بين التحليل النقدي والتحوّلات الفكرية يمثّل منظوراً وجودياً لشخصية الفرد وهويّة المجتمع، وكيفية ربطهما معاً في مركزية الذات، والانطلاق منها نحو سلطة المعرفة المهيمنة على العلاقات الاجتماعية. وإذا كانت سلطة المعرفة تولّد آليات لغوية لمساعدة العقل الجمعي على التّحكّم بعناصر الواقع المُعاش، فإنّ العلاقات الاجتماعية تُطوّر أدوات فكرية لتحقيق المصالح الذاتية والجماعية كماً وكيفاً، ممّا يساهم في إعادة صياغة طبيعة الفرد في مساره الحياتي معنوياً ومادياً، وإعادة تشكيل البناء الاجتماعي في الواقع المتغيّر ثقافياً ورمزياً. ولا يمكن اختزال التحوّلات الفكرية في قوالب جاهزة، وأنماط مُعدّة مُسبقاً، ولا يمكن السيطرة عليها بدقّة، أو التنبؤ بمآلها وتأثيرها، لأن هذه التحوّلات مثل الانفجارات اللغوية في الوعي التاريخي للحضارة، والمنظور الثقافي للمجتمع. وإذا كان الفكر يستمد شرعيته من قدرته على توليد المفاهيم من الواقع المُعاش، فإنّ اللغة تستمد ماهيّتها من قدرتها على تفجير الطاقة الرمزية الحاملة للألفاظ والمعاني. وهويّة الفكر وكينونة اللغة تُعيدان تأويل تفاصيل الحياة اليومية التي يهيمن عليها الغتراب، بحيث تُصبح هذه التفاصيل قوّة دافعة للتجارب الشخصية التي تُشير إلى أحلام الفرد المكبوتة وذكرياته الكامنة، ورافعة للوجود الثقافي في الهياكل الاجتماعية المنسيّة. وبدون تحليل العناصر المكبوتة والكامنة والمنسيّة في أعماق الفرد والمجتمع، لن يكون هناك تأويل لغوي حقيقي لإفرازات سلطة المعرفة في القيم الاستهلاكية والمعايير الأخلاقية، لأنّ التأويل قائم على الرّموز، والرّموز لا توجد على السطح، فهي حاملة للهويّات المركزية والماهيّات الأساسيّة، لذلك تستقر الرّموز في أعماق الوجود الإنساني الفردي والجماعي، وهي بحاجة إلى تنقيب مُستمر، وتوظيف دائم في النّزعة الإنسانية المُتَحكّمة بأبعاد البناء الاجتماعي باطنياً وظاهرياً.

التَّحَوُّلاتُ الفِكريةُ هي سِلْسِلَةٌ مِنَ التَّأويلاتِ الرمزية اللغوية لِثَبَتِةِ الواقعِ، والفاعليَّةِ اللغوية، والسُّلوكِ اليومي، ومَسَارَاتِ حَيَاتِيَّةٍ تَجْمَعُ بَيْنَ الفِعْلِ الاجتماعي والعَقْلِ الجَمْعِيِّ، اللَّذِينَ يُسَيِّطِرَانِ على شخصية الفرد الإنسانية، وَيَتَحَكَّمَانِ بِتَأثيراتِ سُلْطَةِ المُجْتَمَعِ على مَصَادِرِ المعرفة. وإذا كَانَ الهدفُ مِنَ الفِعْلِ الاجتماعي هو إعادةُ صِنَاعَةِ الذاتِ، وتحليلِ الوَعْيِ التاريخي المُتَمَرِّكِ حَوْلَهَا، فَإِنَّ مُهِمَّةَ العَقْلِ الجَمْعِيِّ هي إعادةُ الفردِ مِنَ الغِيَابِ فِي الأنظمةِ الاستهلاكيةِ الماديَّةِ، إلى الحُضُورِ فِي الأنساقِ الإنسانيَّةِ المُبدِعةِ، وإعادةُ العلاقاتِ الاجتماعيةِ مِنَ الاغترابِ فِي الإدراكِ الوَهْمِيِّ القائمِ على المَشَاعِرِ الميكانيكيةِ، إلى الطاقةِ الرمزية اللغوية القائمةِ على العقلانية، التي تَنْقُلُ التَّكْوِينَ الثقافيَّ للفردِ مِنَ البُنى المُجَرَّدَةِ الهَلَامِيَّةِ إلى الواقعِ، مِنْ أَجْلِ تَغْيِيرِهِ إلى الأَفْضَلِ.

الواقعُ المُؤَلَّمُ أَفْضَلُ مِنَ الوَهْمِ اللذيدِ، لِأَنَّ الأَلَمَ يَكْشِفُ موَاطِنَ الخَلَلِ، وَيُجْبِرُ الفردَ على البحثِ عَنِ علاجٍ مِنْ أَجْلِ التَّخَلُّصِ مِنَ المَعَانَاةِ، والشُّعُورِ بالرَّاحَةِ. وكذلك مُوَاجَهَةُ الأحداثِ اليوميةِ الصادمةِ أَفْضَلُ مِنَ الهُرُوبِ مِنْهَا، لِأَنَّ مُوَاجَهَتَهَا تَكْشِفُ التَّحَوُّلاتِ الفِكريةِ فِي العلاقاتِ الاجتماعيةِ، وتُظْهِرُ أَهْمِيَّةَ الغَوْصِ فِي أعماقِ الوَعْيِ التاريخي مِنْ أَجْلِ تَجْدِيرِ شخصيةِ الفردِ فِي الظواهرِ الثقافيةِ كَيَانًا وَكَيُونَةً، وترسيخِ هُويَّةِ المُجْتَمَعِ فِي مَنَاطِقِ اللغةِ الرمزيَّةِ تَصَوُّرًا وَتَحَقُّقًا، مِمَّا يُؤَدِّي إِلَى تَعَدُّدِ زَوَايا الرُّؤْيَا لِلواقعِ اليوميِّ والوقائعِ التاريخيةِ، والوصولِ إِلَى مَنْظُورٍ لُغَوِيٍّ جَدِيدٍ، يَعْتَمِدُ عَلَى تَأْوِيلِ أَحْلَامِ الفردِ المَكْبُوتَةِ ضِمْنَ الانقطاعاتِ المعرفيةِ فِي التاريخِ، بِوصْفِهِ فلسفَةً لِمركزيةِ الذاتِ فِي الوجودِ، ومركزيةِ الزَمَنِ فِي الحضارةِ. وهذه الفلسفةُ لَيْسَتْ نِظَامًا آليًّا جامدًا، وَإِنَّمَا هي مَنْظُومَةٌ حَاضِنَةٌ لِلصَّرَاعَاتِ والتناقضاتِ، ومَفْتُوحَةٌ عَلَى كَافَّةِ الاحتمالاتِ والتأويلاتِ. والتاريخُ لَيْسَ مَرَحَلَةً زَمَنِيَّةً مَضَتْ وانْقَضَتْ، أَوْ أَرْشِيفًا مُغْلَقًا فِي مِلَفَّاتِ الغُبَارِ، إِنَّ التاريخَ يُؤَلِّدُ باستمرارٍ، وتُعَادُ كتابتُهُ دَائِمًا، وَيَتِمُّ تَأْوِيلُهُ بِشَكْلِ مُتَوَاصِلٍ فِي اللغةِ القادرةِ عَلَى مَنَحِ الحَيَاةِ والحُرِّيَّةِ لِلأنساقِ الثقافيةِ. والتاريخُ هو نِظَامُ التَّنْقِذِ الاجتماعيِّ العابرُ لِلزَمَانِ والمكانِ، والعَصِيَّ عَلَى التَّجَنُّيسِ. ووظيفَةُ التَّحَوُّلاتِ الفِكريةِ فِي العلاقاتِ الاجتماعيةِ تتجَلَّى فِي رِبْطِ شخصيةِ الفردِ الإنسانيةِ بِسُلْطَةِ التاريخِ الوجوديةِ، بحيثُ تُصْبِحُ إنسانيَّةُ الفردِ فلسفَةً للتاريخِ، ويُصْبِحُ وُجُودُ التاريخِ وُجُودًا لِلإنسانيةِ، يُوجَدَانِ مَعًا، وَيَغْيِيَانِ مَعًا، وَلَا يُمَكِّنُ الفِصْلُ بَيْنَهُمَا.

أبعاد البناء الاجتماعي كفضاء معرفية

١

تاريخ البناء الاجتماعي هو وعي مستمر بالحاضر والحضارة، وتأسيس عقلائي لأشكال المعرفة التي تتماهى مع مناهج تحليل الذات ، وأنماط تفسير البيئة ، وطرائق تأويل العالم . وأشكال المعرفة ليست كيانات جامدة في حلقة حياتية مفرغة ، وإنما هي أشكال وجودية تُعاد هيكلتها لتحرير الفكر من النظام الاستهلاكي ، ويُعاد توظيفها لتحقيق التوازن بين الأنساق الثقافية ، مما يدفع باتجاه تكوين تصوّرات مُنتجة للفكر والثقافة بعيداً عن المصالح الشخصية الضيقة، ونزعة التمرکز حول الوعي الزائف. وأكبر تهديد لأشكال المعرفة هي العلاقات الاجتماعية القائمة على تسليع شخصية الإنسان ، والتعامل معها كشيء محصور بين العرض والطلب . والمعرفة لا تتجدر في المجتمع كهُوية تاريخية وخطاب حضاري إلا إذا صارت رمزية اللغة طبيعة ذاتية للأحداث اليومية ، وإطاراً مرجعياً للصراعات داخل النفس الإنسانية ، ومنظوراً فلسفياً للزمن المفتوح ، باعتباره ماضياً لا يمضي ، وحاضراً لا يغيب ، ومستقبلاً لا يخاف منه .

٢

البناء الاجتماعي لا يُقدّم خلاصاً مجانياً للفرد والجماعة ، وحركة التاريخ لا تُقدّم مستقبلاً مُشرقاً للهاربين من الماضي ، والناتئين في الحاضر . إن البناء الاجتماعي وحركة التاريخ كيانان متكاملان ، وعابران للحدود ، وحاكمان على التجارب الشخصية والتحوّلات الوجودية ، ومحكومان بالأنساق الثقافية وأشكال المعرفة ، وهذا يعني أن تاريخ الأفكار خارج الثقافة يُعتبر وهمًا ، وأن الفعل الاجتماعي خارج المعرفة يُعتبر زيفًا . وإذا كانت هويّة الفرد وسلطة الجماعة تتشكّلان في نسق عالمي مُعقّد ، فإن العقل الجمعي وإدراك الواقع يتشكّلان في نسق لغوي مُتشابك . والعالم واللغة يحتاجان إلى تأويل مستمر ضمن تفاصيل الحياة التي تمثّل كلاً لا يتجزأ ، وذاكرة لا تتشظى، واكتشافاً جديداً لنقاط التشابه بين الحراك الفكري وحركة التاريخ ، اللذين يُكوّنان ماهية الجوهر الإنساني ضمن الهوية والسلطة. وعملية التأويل تمثّل مصدراً معرفياً يمنع الانفصال بين مركزية اللغة والتجارب الشخصية، وهذا الأمر في غاية الأهمية، لأن الفرد ينطلق نحو اللغة لاكتشاف ذاته، وتكريس شرعيته، والذات والشرعية تبتقان من التجارب الشخصية ، إذ إنها تُجسّد صيرورة التاريخ الفردي في الواقع ، وتعكس الحياة الفكرية والعملية بكل نجاحاتها

واخفاقاتها في الحياة . لذلك ، كُلُّ تجربةٍ شخصيةٍ بِمَثَابَةِ بَصْمَةٍ إنسانيةٍ في رُوحِ التاريخِ وجسدِ اللغةِ، وكما أنَّ الفردَ لا يستطيعُ تغييرَ بَصْمَتِهِ ، كذلك المُجتمعُ لا يستطيعُ تغييرَ تاريخِهِ. وكما أنَّ اللغةَ لا تستطيعُ تغييرَ حُرُوفِها ، كذلك الهُويَّةُ لا تستطيعُ تغييرَ خصائصِها .

٣

رمزيةُ اللغةِ قادرةٌ على توسيعِ أبعادِ البناءِ الاجتماعي ، وتجذيرِ الفكرِ النَّقدي في الأحداثِ اليومية والوقائعِ التاريخية ، وإزالةِ التناقضِ بين الفردِ كذاتٍ إبداعيةٍ ، والمُجتمعِ كذاتٍ سُلطويةٍ ، وهذا يُساهم في إنشاءِ تفسيرٍ عقلائي مُتعدِّدٍ الوُجوه للظواهر الاجتماعية ، التي تتبادلُ الأدوارَ معِ الأنساقِ الثقافية . ورمزيةُ اللغةِ كائنٌ حيٌّ لَهُ هُويَّةٌ الوجودية وسلطته المعرفية، وهذا يدلُّ على استحالةِ تفسيرِ السِّيَاساتِ المُهمِّمةِ على العلاقاتِ الاجتماعية إلا مِنْ خِلالِ اللغةِ ، ولا يُوجدُ مُجتمعٌ خارجُ اللغةِ ، ولا تُوجدُ لغةٌ خارجُ الرُّموزِ . وكُلُّ تأويلٍ لُغوي هُوَ بالضرورةِ علاقةٌ سُلطةٍ تشتمل على تحوُّلاتٍ الوُعي الرامية إلى إدراكِ السُّلوكِ الإنساني ، وتحتوي على آلياتٍ إعادة إنتاجِ الفكرِ والثقافةِ بعيداً عن الصِّدامِ بَيْنَ الأنماطِ الاستهلاكية والأدلجةِ المصلحية، وتتضمَّن التفاعلاتِ بَيْنَ الفعلِ الاجتماعي والعقلِ الجمعي . وأبعادُ البناءِ الاجتماعي لَيْسَتْ حواجزَ بوليسيةً بَيْنَ المُقدَّسِ والمُدنَّسِ ، وإنما هي فضاءاتٌ معرفية تُفجِّرُ الطاقاتِ الإبداعية في الفردِ والمُجتمع ، وتدفعهما إلى تحريرِ السُّلوكِ الإنساني مِنَ الصِّراعاتِ، وإنقاذِ العلاقاتِ الاجتماعية مِنَ الصِّداماتِ، وعدمِ الغرقِ في معاركِ جانبيةٍ عشيةٍ تُمزِّقُ النسيجَ الاجتماعي ، وتُبْعِثُ الجُهودَ ، وتُهدِرُ الطاقاتِ . والوقتُ الذي يَقْضِيهِ الفردُ في تبريرِ أخطائه يَكْفِي لإصلاحها، والوقتُ الذي يَقْضِيهِ المُجتمعُ في البُكاءِ على الأطلال يَكْفِي لإعادةِ البناءِ ، والوقتُ الذي يَقْضِيهِ الفكرُ الإنساني في تفسيرِ العالَمِ يَكْفِي لِتغييرهِ ، والوقتُ الذي يَقْضِيهِ الفلسفةُ في تحليلِ الظلام يَكْفِي لِإضاءةِ الشُّمُوعِ .

*

المنهج الاجتماعي والثقافة والزمن واللغة

١

المنهج الاجتماعي الكامن في الأنساق الثقافية يُمثّل كياناً فلسفياً يُعاد إنتاجه باستمرار في التجارب الشخصية للفرد ، من أجل تحويل صيغة الوعي إلى فعل اجتماعي ، ونقل إرادة المعرفة من الدّهن إلى الواقع . وكلّما تَكَرَّست التجارب الشخصية للفرد كسلطة وجودية واعية بذاتها ، وواعية بالعناصر المحيطة بها، تَجَدَّرت الأحداث اليومية كسياق إنساني عقلائي يُنتج نفسه بنفسه، ويُعيد تأويل الجَوهَر التَّقدي للعلاقات الاجتماعية ضمن الشُّروط التاريخية الرّامية إلى تأسيس السُّلوك الحياتي انطلاقاً من منظور لُغوي إبداعي ، يتعامل مع ماهية الأفكار كآلية للتصالح مع المجتمع دون التخلّي عن النّقد البناء ، ويتعامل مع هوية الزّمن كأداة لاكتشاف الخصائص المعرفية في أشكال الوجود ومضامين الحضارة دون التخلّي عن البيئة المعاشة . وإذا كان الواقع يُكوّن أنساقه الثقافية لمقاومة غربة الفرد في ذاته ، واغترابه عن محيطه ، فإنّ الزّمن يُكوّن تفاعلاته الرمزية لمقاومة المشاعر الاصطناعية ، والحياة الاستهلاكية الميكانيكية . واللغة تقوم بتوحيد الواقع والزّمن في البناء الاجتماعي لتحقيق التوازن بين ذاتية الفرد وموضوعية التاريخ من جهة ، وبين حتمية العقل الجمعي واحتمالية التأويل اللغوي للتفاعلات الرمزية من جهة أخرى . كما تقوم اللغة بتعبئة العلاقات الاجتماعية من أنماط الهيمنة والاضطهاد ، إذ إنّ اللغة تُمثّل فاعلية وجودية قادرة على كشف أشكال المعنى المضمّر في إرادة المعرفة ، وإظهار المسكوت عنه في الأحداث اليومية، واستدعاء المكبوت في ذاكرة المجتمع ، واستحضار المقموع في الوقائع التاريخية، وإبراز المهْمَش في الهوية الحضارية ، واستعادة المنسي في الأنساق الثقافية ، لتحليل الرابطة بين البناء الاجتماعي وبُنية الوعي كمّاً وكيفاً ، وتفسير المنظومة الأخلاقية بين فعل الحرية وحكم الضرورة .

٢

المنهج الاجتماعي المتمركز في البنية الزمنية يُقدّم تصوّرات نظرية في مركزية اللغة في الوجود الحيّ والحرّ، ويُقدّم تصوّرات تطبيقية في البنى الوظيفية لمصادر المعرفة في الحياة اليومية ، والآليات الفكرية المتحكّمة بمسارها ومصيرها. واللغة هي ثورة مستمرة في الوعي والإدراك والواقع لمساعدة الفرد على التّكيف مع إفرازات النظام الاستهلاكي المادي ، ومساعدة المجتمع على التّأقلم مع تأثيرات التجارب الشخصية ، والشُّروط التاريخية ، والأنساق الثقافية . والفرد يتنقل من

وَعِيَهُ بذاته إلى وَعِيِهِ بِمُجْتَمَعِهِ ، وَيَعْتَمِد على تفاصيل حياته الْخَاصَّة لِإصدار أَحْكام على طبيعة البناء الاجتماعي . وهذا يَعْنِي أَنَّ زوايا الرُّؤية للأشياء في الوَعْيِ الفردي الْجُزْئِي تُحَدِّد ماهيَّة الْعَقْلِ الْجَمْعِيِّ الْكُلِّي ، وَأَنَّ الْمَصْلَحَة الْعَامَّة هي مَجْموع المصالح الشخصية ، وَأَنَّ مركزية الْمُجْتَمَع في التاريخ والحضارة هي حَصِيلَة الْأَحْلَام الْفَرْدِيَّة الْبَسِيطَة ، وَأَنَّ العنصر الْوُجُودِيَّة الْمُنْسِيَّة في كَيْنُونَة الفرد الذاتية تُؤَثِّر بِشكْل لا واعي على أنماط الحياة ، لذلك ، كَانَ الْوَاقِع انعكاسًا لِقُوَّة الْخِيَال في تَفْسِير الْفِعْل الاجتماعي ، وَتَغْيِير مَصَادِر الْمَعْرِفَة ، وَكَانَ الزَّمَن رِحْلَةً فِكْرِيَّة مِنْ سُلْطَة الْمَعْنَى الْإِنْسَانِي إلى فضاءات التَّأْوِيل اللغوي رمزيًا وسلوكيًا وقيميًا .

٣

الْمَنْهَج الاجتماعي الْمُسْتَقَر في التَّأْوِيل اللغوي يُؤَسِّس شرعية وجوده في الْمُجْتَمَع اعتمادًا على الْجَمْع بَيْن الْفِعْل الاجتماعي وَالْمَسْئُولِيَّة الْأَخْلَاقِيَّة، مِمَّا يُسَاهِم في تحقيق الوَعْيِ داخل الأنساق الثقافية باعتبارها تفاعلات ناتجة عَنِ الْعَقْلِ الْجَمْعِيِّ الذي لا يَعِيش خَارِجَ الزَّمَن واللغة . وحركة الزَّمَن تَكْتَسِب مَفْهُومَهَا مِنْ رمزية اللغة ، بِوَصْفِهَا فضاءً حَاضِنًا لِتَارِيخِ الْأَفْكَارِ، وَخَفَلًا مَعْرِفِيًا مُنْدَمِجًا مَعَ التَّحَوُّلاتِ الْجَذَرِيَّة في بُنْيَة الْعِلَاقَات الاجتماعية. وَرَمْزِيَّةُ الْلُغَةِ الْمُتَمَرِّكَةُ في تفاصيل الْوَاقِعِ الْمُعَاشِ تَقْدِر على تَحْوِيلِ الزَّمَن إلى كَائِن ثقافي مِنْ لَحْمٍ وَدَمٍ ، وهذا يَعْنِي انْتِقَالَ طَبِيعَةِ الْمُجْتَمَع مِنْ هُويَّةِ الْفَلَسَفَةِ إلى فِلَسَفَةِ الْهُوِيَّةِ ، فَيُصْبِح الْوَعْيُ لُغَةً مُتَجَدِّدَةً في الْأَحْدَاثِ الْيَوْمِيَّةِ ، وَتُصْبِح الْلُغَةُ وَعْيًا مُسْتَمَرًّا في التَّغْلِبَاتِ الْحَضَرِيَّة . وَتَبَادُلُ الْأَدْوَارِ بَيْنَ الْوَعْيِ وَاللُّغَةِ يَدْفَعُ بِاتِّجَاهِ تَكْوِينِ تَصَوُّرَاتٍ إِبْدَاعِيَّةٍ حَوْلَ مَاهِيَّةِ الزَّمَنِ الْمُنْفَعِلِ بِالْعَقْلِ الْجَمْعِيِّ، وَالْمُتَفَاعِلِ مَعَ الْفِكْرِ الْإِنْسَانِي، وَالْمُتَجَاوِزِ لِدَاتِهِ وَوُجُودِهِ ، وَصُورًا إِلَى الْحَقِيقَةِ الَّتِي مُفَادَاهَا أَنَّ الزَّمَنَ لَيْسَ جَسَدًا لِسُلْطَةِ الْمَعْرِفَةِ فَحَسْبُ ، بَلْ هُوَ أَيْضًا تَجَسُّدٌ لِلْمَنْهَجِ الاجتماعي في أَحْلَامِ الْفَرْدِ وَطُمُوحَاتِ الْمُجْتَمَعِ .

*

الأدوار الحياتية للنظام الوجودي في اللغة

١

النظام الوجودي في اللغة مُرتبطٌ بِمركزيةِ الوُعيِ الإنسانيِ زمنيًا ومكانيًا ، وهذا النظامُ لَيْسَ كُتلةً فلسفيةً جامدةً ، وإنما هو حركةٌ اجتماعيةٌ يَتَزَاوَجُ فيها تاريخُ الأفكارِ معَ الأحداثِ اليَوْمِيَّةِ ، مِنْ أَجْلِ تَتَبُّعِ آثارِ الزَّمَنِ عَلَى جَسَدِ المَكَانِ ، وعناصرِ البيئةِ ، وطبيعةِ الإنسانِ ، وسلطةِ المُجتمعِ ، باعتبارِ أنَّ الزَّمْنَ لَا يُمكنُ مَعْرِفَةُ ماهِيَّتِهِ عِبرَ الإِمسَاكِ بِهِ ، وَتَقْيِيدِهِ ، وإنما تُعرَفُ ماهِيَّتُهُ عَنْ طَرِيقِ تَتَبُّعِ آثارِهِ . وكما أَنَّ آثارَ الزَّمَنِ تَدُلُّ عَلَيْهِ ، كذلكِ تَأْوِيلُ اللغةِ يَدُلُّ عَلَيْهَا . والِبِنَاءُ الزَّمَنِي هو أَرشِفٌ يَحْوِي أَحلامَ الإنسانِ المَكبُوتَةِ فِي دَاخِلِهِ ، وَيَشْمَلُ خِصائِصَ المُجتمعِ المُستَقَرَّةِ فِي أعماقِهِ . والِبْنِيَّةُ اللُغويةُ هِيَ هُويَّةٌ تَحْوِي مَصَادِرَ المَعْرِفَةِ المُتمركِزةِ فِي السُّلُوكِ ، وَتَشْمَلُ العِلاقاتِ الاجتماعيةِ المُتَجَدِّدةِ فِي الثقافةِ . والمَنْظُومَةُ المُجتمعيةُ المُتَكَوِّنَةُ مِنَ البِنَاءِ الزَّمَنِي والِبْنِيَّةِ اللُغويةِ تُسَاهِمُ فِي بَلُورَةِ الرُّؤْيِ الفِكْريَةِ الَّتِي تَتَحَكَّمُ بِالتفاعِلاتِ الرِمزيةِ فِي اللغةِ والِبْنِيَّةِ ، مِمَّا يُؤَدِّي إِلَى إِعادةِ اكْتِشافِ الإنسانِ لِشخصِيَّتِهِ كَوَحْدَةٍ تاريخيةٍ عابِرةٍ لِلماضِي والحَاضِرِ ، وإِعادةِ تَأْوِيلِ المُجتمعِ لِسلطَتِهِ كَصِيغَةٍ حَيَاتِيَّةٍ مُتَدَفِّقَةٍ فِي الوُعيِ والشُّعُورِ والإِدراكِ . وَإِذا كانَ الزَّمَنُ يُمَثِّلُ هَيْكَلًا نَظْمِيًّا لعِناصرِ النظامِ الوجوديِ فِي اللغةِ ، فَإِنَّ اللغةَ تُمَثِّلُ تَجْربَةً ثقافيةً تُبْنِي القَواعِدَ المادِيَّةَ الحامِلَةَ لِلقيَمِ الأخلاقيةِ المُطلَقَةِ ، الَّتِي لَا يَتِمُّ التَلاعُبُ بِهَا لِتحقيقِ مِصالحِ شَخصيةٍ ، وَلَا يَتِمُّ إِخضاعُها لِنسِبيَّةِ العِلاقاتِ الاجتماعيةِ الَّتِي يُطَوِّرُها الأَفْرادُ لِثَباتِ وجودِهِمْ فِي الزَّمَنِ ، وَتكريسِ شرعِيَّتِهِمْ فِي المَكَانِ .

٢

كُلُّ نَسَقٍ لُغويٍ هُوَ بِالصَّرُورَةِ وَعِيٌّ مُتَجَدِّدٌ فِي الفِعْلِ الاجتماعيِ ، وَأَساسٌ مَعْرِفيٌّ لِلبِنَى الوظيفيةِ الثقافيةِ ، الَّتِي تُحوِّلُ شَخصيةَ الفَرْدِ الإنسانيَّةَ إِلَى كَينُونَةٍ سائِلَةٍ فِي صَيْرُورَةِ التاريخِ ، فَالشَّخصيةُ لَيْسَتْ بَعْدًا وَجُودِيًّا أَحاديثًا ، وَلَكِنَّها شَبَكَةٌ حَيَاتِيَّةٌ مُعَقَّدَةٌ ، وَنَسِيجٌ مُتَشابِكٌ مِنْ آليَّاتِ التَأْوِيلِ اللُغويِ ، وَأَدواتِ صِناعَةِ الواقعِ الإِبداعيِ القادرِ عَلَى مُواجهةِ النِّزْعَةِ الاستهلاكيةِ القاسيةِ . وَفِي حَقِيقَةِ الأمرِ ، إِنَّ الفَرْدَ يَمْتَلِكُ عِدَّةَ شَخْصِيَّاتٍ ، وَوظيفَةُ الفِعْلِ الاجتماعيِ هِيَ اخْتِبارُ هَذِهِ الشَّخصِيَّاتِ بِواسِطَةِ التجاربِ الحياتيةِ ، وَصُلوًا إِلَى الشَّخصيةِ المَركَزِيَّةِ الفَعَّالَةِ فِي مَناهِجِ النِّقْدِ الذَّاتِي ، وَالْمُتَفَاعَلَةِ مَعَ سُلْطَةِ المُجتمعِ الَّتِي تُوازِنُ بَيْنَ الفِكرِ والعاطفةِ . وَإِذا كانَ الفِكرُ يُحدِّدُ

طَبِيعَةُ الْفَرْدِ إِنْسَانِيًّا وَثَقَافِيًّا ، فَإِنَّ الْعَاطِفَةَ تُحَدِّدُ مَا هِيَ الْعِلَاقَاتِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ شُعُورِيًّا وَسُلُوكِيًّا ، وَهَذَا التَّرَابُطُ الْمَصِيرِي بَيْنَ الْفِكْرِ وَالْعَاطِفَةِ يَمْنَعُ الْفَرْدَ مِنَ الْانْسِحَابِ مِنَ الْحَيَاةِ ، وَالْعَرَقِ فِي الذَّاتِ ، كَمَا يَمْنَعُ الْمُجْتَمَعَ مِنَ الْهُرُوبِ مِنَ الْوَعْيِ ، وَالْعَرَقِ فِي الْمَاضِي .

٣

الرُّمُوزُ الْحَاكِمَةُ عَلَى عَمَلِيَةِ التَّأْوِيلِ اللَّغْوِيِّ فِي الْأَحْدَاثِ الْيَوْمِيَّةِ وَالْوَقَائِعِ التَّارِيخِيَّةِ ، تَنْقُلُ الْأَنْسَاقَ الثَّقَافِيَّةَ مِنَ التَّمَرُّكِزِ حَوْلَ الذَّاتِ إِلَى اقْتِحَامِ الذَّاتِ ، وَمِنْ تَحْلِيلِ الْأَشْيَاءِ السَّطْحِيَّةِ فِي الْحَيَاةِ إِلَى الْغَوْصِ فِي أَعْمَاقِ مَعْنَى الْحَيَاةِ ، وَمِنْ تَفْسِيرِ الشُّعُورِ الْإِنْسَانِيِّ الْيَوْمِيِّ كَالْيَتِيَّةِ رُؤْيِيَّةً إِلَى تَغْيِيرِهِ ، وَتَحْوِيلِهِ إِلَى تَجَرِبَةٍ حَيَاتِيَّةٍ إِبْدَاعِيَّةٍ تَتَعَامَلُ مَعَ الْحَاضِرِ كَعَمَلِيَّةٍ تُولِّدُ مُسْتَمِرَّةً لَتَارِيخِ الْأَفْكَارِ ، وَلَيْسَ إِعَادَةُ إِنْتَاجِ الْمَاضِي وَفَقْ مَقَاسَاتِ قَوَالِبِ الْحَاضِرِ . وَتَارِيخُ الْأَفْكَارِ هُوَ انْقِلَابٌ مُسْتَمِرٌّ عَلَى الْوَهْمِ ، وَفَحْصٌ مُتَوَاصِلٌ لِلْمُسْلَمَاتِ الْإِفْتِرَاضِيَّةِ ، وَكَسْرٌ دَائِمٌ لِلْقَوَالِبِ الْجَاهِزَةِ وَالْأَنْمَاطِ الْمُعَدَّةِ مُسَبِّقًا ، الَّتِي كَرَّسَتْهَا إِفْرَازَاتُ سِيَاسَةِ الْأَمْرِ الْوَاقِعِ لِلْحِفَاطِ عَلَى الْمَصَالِحِ الشَّخْصِيَّةِ وَالْمَنَافِعِ الْوَقْتِيَّةِ . وَتَارِيخُ الْأَفْكَارِ يَصْنَعُ زَمَنًا خَاصًّا بِهِ فِي هِيََاكِلِ الْمُجْتَمَعِ ، وَيُحَرِّزُ الْوَعْيَ مِنَ اغْتِرَابِ الذَّاتِ ، وَيُخَلِّصُ مَا هِيَ الْعِلَاقَاتِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ مِنَ الشُّعُورِ بِالْعُزْلَةِ وَالْقَطِيعَةِ مَعَ الْمَاضِي ، وَيَنْقُلُ بُنْيَةَ الْوُجُودِ الْإِنْسَانِيِّ مِنْ إِطَارِ الْأَحْدَاثِ الْيَوْمِيَّةِ الْمِيكَانِيكِي إِلَى فِضَاءِ إِرَادَةِ الْمَعْرِفَةِ الدِّينَامِيكِي ، مِمَّا يُؤَدِّي إِلَى تَأْسِيسِ هُويَّةٍ لِلْفِعْلِ الْاجْتِمَاعِيِّ قَادِرَةٍ عَلَى تُولِيدِ نَفْسِهَا مِنْ نَفْسِهَا ، وَتَجَاوُزِ التَّفَاعُلَاتِ الرَّمْزِيَّةِ فِي اللُّغَةِ وَالْبِيئَةِ ، مِنْ أَجْلِ مُسَاعَدَةِ الْفَرْدِ عَلَى التَّكْيُفِ مَعَ آثَارِ الزَّمَنِ فِي شَكْلِ الْمُجْتَمَعِ وَمَضْمُونِهِ ، وَالتَّأَقُّلِ مَعَ تَأْثِيرِ التَّغْيِيرَاتِ التَّارِيخِيَّةِ فِي هِيََاكِلِ الْمُجْتَمَعِ وَالبُنَى الْوُظُفِيَّةِ الثَّقَافِيَّةِ . وَكُلُّ فَرْدٍ لَهُ كَيْنُونَةٌ ذَاتُ امْتِدَادٍ مَعْرِفِيٍّ فِي النِّظَامِ الْوُجُودِيِّ لُغَوِيًّا وَاجْتِمَاعِيًّا ، وَهَذِهِ الْكَيْنُونَةُ تُحَدِّدُ مَوْقِعَ الْفَرْدِ دَاخِلَ الْحَيَاةِ ، بِاعْتِبَارِهَا شَرْعِيَّةً لَتَارِيخِ الْأَفْكَارِ ، وَلَيْسَتْ نَزْعَةً اسْتِهْلَاقِيَّةً لِلْهُرُوبِ مِنَ النَّقْدِ الذَّاتِي . وَإِذَا كَانَتْ كَيْنُونَةُ الْفَرْدِ لَا تَنْفَصِلُ عَنِ الشُّرُوطِ التَّارِيخِيَّةِ ، فَإِنَّ شَخْصِيَّتَهُ لَا تَنْفَصِلُ عَنِ الْمَعَايِيرِ الْأَخْلَاقِيَّةِ ، وَهَذَا يَعْنِي أَنَّ الْفَرْدَ — إِذَا أَرَادَ أَنْ يُصْبِحَ فَاعِلًا فِي التَّارِيخِ وَمُنْفَعِلًا بِهِ وَمُتَفَاعِلًا مَعَهُ — يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَعُودَ إِلَى ذَاتِهِ لِلانْطِلَاقِ نَحْوَ الْعُنَاصِرِ الْمُحِيطَةِ بِهَا ، لِأَنَّ الذَّاتَ هِيَ أَسَاسُ التَّأْوِيلِ اللَّغْوِيِّ ، وَمَرْجِعِيَّةُ الْفِعْلِ الْاجْتِمَاعِيِّ ، وَمَنْبُعُ الْأَخْلَاقِ .

*

الجذور الفلسفية للأنظمة الاجتماعية

١

الأنظمة الاجتماعية المرتبطة بتاريخ الأفكار قائمة على دلالات اللغة تواصلًا وثقافيًا ورمزيًا ، وهذا يعني أن اللغة تمثل شرعية الجوهر الوجودي للمجتمع ، وتُجسّد مشروعية الفعل الاجتماعي الذي يتركز على المعايير الأخلاقية في تفاصيل الحياة اليومية، مما يساهم في تكوين منهج تحليلي للرابطة المصيرية بين الوعي بالماضي وإدراك الحاضر ، ومساعدة الفرد على أن يكون نفسه بعيدًا عن متاهة الأقنعة وشطأيا الأزمنة . وإذا كان طريق الفرد نحو تحقيق نفسه يمرّ عبر استعادة أحلامه المقموعة ، فإنّ طريق المجتمع نحو الاندماج الثقافي يمرّ عبر تفجير طاقة اللغة . وهذان الطريقتان يحميّان الفكر الإنساني من التناقضات الحياتية الناتجة عن أنماط الاستهلاك المادي ، ويؤدّيان إلى تشييد مصادر المعرفة على قواعد البناء الاجتماعي ، بحيث تُصبح المعرفة سلطة حاكمية على البنى الوظيفية في مراحل التاريخ ، التي يتمّ تحليلها وفق الرّمزية اللغوية ، والدّيناميّة النقديّة ، والعقلانية المُفتّحة ، وهذا يدفع باتجاه إعادة صياغة العلاقات الاجتماعية ، كي تُصبح مُنسجمة مع فلسفة تحرير الفرد من الخوف ، ومُتوائمة مع شخصية الفرد الإنسانية ، بوصفها شبكة معرفية لتوليد التاريخ بشكل مستمر ، وكلّ ولادة جديدة للتاريخ على الصّعيدين اللغوي والشّعوري ، تمثل هويّة جديدة للفعل الاجتماعي ، باعتباره بصمّة وجودية في إفرازات الواقع المُعاش ، وليس أداة للهيمنة على كينونة الوعي الحرّة ، وبيئة التفكير الحيّة .

٢

الجذور الفلسفية للأنظمة الاجتماعية مُتداخلة مع الفكر الإنساني ، ليس بوصفه إفرازًا ميكانيكيًا للأحداث اليومية والوقائع التاريخية ، بل بوصفه قوّة دافعة للعقل الجمعي القادر على تحويل سلطة المعرفة إلى صناعة للواقع ، الذي تُكتشف فيه الرّمزية اللغوية آثار التفاعلات الثقافية بين تاريخ الأفكار وجغرافيا الحلم الإنساني من جهة ، وبين جسد المعنى الوجودي وتجسيد هويّة المجتمع من جهة أخرى . وإذا تغلّلت الرّمزية اللغوية في البناء الاجتماعي ، واندمجت مع الشّعور والإدراك، فإنّها ستؤسّس مناهج نقدية قادرة على تحويل التجارب الشخصية إلى اكتشاف دائم لِمَاهِيّة الفرد كذات إبداعية في الظواهر الثقافية ، وكوجود مُتحرّر من الانقطاعات التاريخية الناتجة عن المصالح الشخصية وسياسة الأمر الواقع . وإذا كان التحرُّر بُورّة مركزية للإبداع في

الذاكرة الجَمْعِيَّة والمَصِير المُشْتَرَك للأفراد، فَإِنَّ الإبداعَ إعادةُ تكوينٍ لِمَنْظُومَةِ التَّخَرُّرِ مِنْ مَنْظُورِ العقلِ الجَمْعِيِّ وَمَنْطِقِ اللُّغَةِ . وهذا التشابكُ يُوضِّحُ الدَّورَ الوظيفي للفرد والمُجتمع في بُنية التاريخ العميقة ، لَيْسَ باعتباره مَاضِيًّا لا يَمْضِي فَحَسْبُ، بَلْ -أَيْضًا- باعتباره كَيُونَةً مُتَشَطِّبَةً لا تَنْتَهِي، وصِرَاعًا مُسْتَمِرًّا على تأويلِ اللُّغَةِ والواقع .

٣

جَوْهَرُ الأنظمةِ الاجتماعيةِ يَسْتَمِدُّ أهميته مِنْ قُدْرَتِهِ على التمييزِ بَيْنَ المَعْرِفَةِ والمَصْلَحَةِ ، وتَوْظِيفِهِمَا ضِمْنَ مَسَارَاتِ العقلِ الجَمْعِيِّ المُتَحَكِّمِ بِالتَّنَوُّعِ الثقافي ، والمُسيطرِ على تأثيراتِ الفِعْلِ الاجتماعي ، والمُهيِمِ على آليَّاتِ التأويلِ اللغوي داخلِ هُويَّةِ المُجتمع . والعقلُ الجَمْعِيُّ لَيْسَ انعكاسًا آليًّا لِسُلْطَةِ المَعْرِفَةِ ، وإنَّما هو إعادةُ إنتاجٍ لهذه السُّلْطَةِ بَيْنَ تأثيراتِ الفِكرِ الإنساني وتفاصيل الحياة اليومية ، مِنْ أَجْلِ بناءِ مراحل العملية الإبداعية على اللُّغَةِ والذاكرة ، باعتبارهما تحليلًا مُزْدَوَجًا لِصُورَةِ المُجتمع وانعكاسه في الأفراد . وإذا كانَ تاريخُ الأفكارِ تحقيقًا لُجُودِ الفردِ نفسِيًّا وسلوكِيًّا ، فَإِنَّ العقلَ الجَمْعِيَّ تحقيقٌ للواقعِ المُعاشِ مَعْنًى وَمُبْنًى . وَيَنْبَغِي عَدَمُ وَضْعِ حَدِّ فلسفي فاصلٍ بَيْنَ وُجُودِ الفردِ والواقعِ المُعاشِ ، فَكِلَاهُمَا يَنْتَمِيَانِ إِلَى وَعْيٍ مُشْتَرَكٍ بِالزَّمَنِ وإِرَادَةٍ المَعْرِفَةِ ، وَيَكْشِفَانِ كَيْفِيَّةَ انبعاثِ الرِّمَازِيَّةِ اللُّغَوِيَّةِ فِي الفِكرِ الإنساني ، مِمَّا يُؤَدِّي إِلَى تَكْوِينِ فَهْمٍ لَتَعْقِيدَاتِ الحَاضِرِ ضِمْنَ مَرَكِزِيَّةِ الوَعْيِ بالماضي ، وتفكيكِ أنساقِ المَاضِي ضِمْنَ مَرَجِعِيَّةِ إدراكِ الحَاضِرِ .

*

الحضور الفكري والوجود العملي والذاكرة الجمعية

١

تُمثِّل الروابطُ الاجتماعية بين الأفراد هياكلَ معرفيةً تستمد مشروعيتها حضورها الفكري من سلطة الظواهر الثقافية ، وتستمد شرعية وجودها العملي من هوية الفعل الاجتماعي الذي يتم تكريسُه على أرض الواقع سببًا وغايةً . وبُنية المجتمع الوظيفية التي تتكوّن من الحضور الفكري والوجود العملي لا تمتاز بالكثافة اللغوية الرمزية فحسب ، بل أيضًا تمتاز بسبيلة المعاني الشعورية المستمدة من صيرورة التاريخ ، بوصفه وعيًا متجددًا يتحوّلات شخصية الفرد الإنسانية زمنيًا ومكانيًا . وإذا كان الزمن هو فلسفة مصادر المعرفة ، فإن المكان هو كينونة الحياة الواقعية، وهذا الارتباط الوثيق بين الشعور والوعي من جهة، وبين المعرفة والواقع من جهة أخرى، يجسّد جوهر البناء الاجتماعي في مسارات التاريخ المتشابكة مع إفرازات البيئة معنويًا وماديًا، ويؤسّس التجربة التّقدّية في الأحداث اليومية فرديًا وجماعيًا ، ويستعيد مركزية الوعي الحضاري من أشكال الغياب التي تتكاثر في الأنظمة الفكرية ، والمعايير الأخلاقية، والأنماط السلوكية، والنماذج الاستهلاكية ، مما يؤدّي إلى تكريس الحقائق الاجتماعية كزوايا رؤية للنساق الثقافية ، فيصبح المجتمع توظيفًا مستمرًا للثقافة، ليس بوصفها إجراءً روتينيًا، بل بوصفها إعادة اكتشاف للإنسان بكل إنجازاته المكشوفة ، وأحلامه المكبوتة ، وتصبح الثقافة تأويلًا دائمًا للمجتمع، ليس بوصفه تجمّعًا سكانيًا، بل بوصفه إعادة اكتشاف للحياة بكل تفاصيلها العميقة ، وأسرارها الدقيقة . وكلّما تعمّقت الصلة بين المجتمع والثقافة ، تجذّرت العلاقة بين مركزية الوعي ومصدرية المعرفة ، لأن الوعي هو الحامل لشرعية المجتمع فكريًا وسلوكيًا ، والمعرفة هي الرافعة لوجود الثقافة نصًا وروحًا .

٢

الدافع الجوهري للأفكار في المجتمع مرتبطٌ بعمق الذاكرة الجماعية في تقاطعات الحياة الواقعية مع الوعي والإدراك والسلوك . والذاكرة الجماعية تحمي التراث الحضاري من التدمير الذاتي، كما تحمي إنسانية الفرد من تشظي الهويات الناتج عن ضغط النظام الاستهلاكي القاسي . ولا يمكن للروابط الاجتماعية بين الأفراد أن تتجدد في السلوك اليومي إلا إذا صار الفعل الاجتماعي نسقًا عقليًا متّزنًا ومتوازنًا بلا أحلام مكبوتة ولا ذكريات مقموعة ، وكل فعل اجتماعي هو ابن شرعي للمرجعية الثقافية ، وكل نسق عقلي هو إفراز طبيعي للذاكرة الجماعية . وجدور

الفعل الاجتماعي ضاربة في تاريخ الأفكار الذي يُساهم في بناء المجتمع المُتجانس ثقافيًا وحضاريًا وأخلاقيًا ، وتأثيراتُ الذاكرة الجمعيّة مُتغلغلة في مصادر المعرفة التي تُساهم في تأسيس هويّة الفرد ككيان مُتصالح مع إنسانيته ، وقادر على تحقيق مصلحته . وبين المصلحة والمصلحة تتعرّز قدرة الفرد على تأكيد ذاته في اللغة ، وتكريس وجوده في الواقع ، وهذا يحمي الفرد من الاغتراب اللغوي والغربة الثقافية ، وبذلك تُصبح اللغة رمزًا وتواصلًا خريطة طريق تُفضي إلى صناعة التجارب الإبداعية شخصيًا وجماعيًا ، ممّا يُؤدّي إلى إحداث حالة توازن بين هويّة الفعل الاجتماعي وسلطة الظواهر الثقافية . وأيضًا ، يُصبح الواقع معرفيًا وماديًا بوصلة تُرشّد تاريخ الأفكار إلى مركزية الوعي الحضاري حسًا وحدسًا ، ممّا يُؤدّي إلى إحداث حالة استقرار بين الحضور الفكري والوجود العملي .

٣

الإشكالية الحقيقية في الروابط الاجتماعية هي اتّساع الهوة بين الحضور الفكري والوجود العملي ، وهذا مرّدّه إلى ضغط سلطة المجتمع على كينونة الفرد، فَيبدأ الفرد في البحث عن ذاته خارج ذاته ، وهذا أمرٌ شديد الخطورة ، لأنّه يعني أنّ الفرد مُقتنع أنّه غُضِرَ هامشي ، ووجوده وهمي، وكونه هلاميّة، ولا يملك مساره ومصيره، لذلك يبحث عن شرعية وجوده خارج وجوده . وإذا سيطرت عقدة الشعور بالنقص على الفرد فإنّه سوف يسعى إلى عوامل خارجية تمنحه الكمال، وتشعره بأهمية وجوده ، وجذوى حياته ، والعوامل الخارجية زائلة وليست مجانية ، لذلك يُضطر الفرد إلى التفريط بحريته ومصلحته ومستقبله بحثًا عن وجود مؤقت في الحاضر ، ومن يضع مصيره في أيدي الآخرين فلا بدّ أن يلعبوا به ، ويمتصّوه حتى الرّمق الأخير . ووجود الفرد لا يتأسس على المصالح المتضاربة ، والخيارات الثقافية الانتقائية ، وإنما يتأسس على مركزية الوعي في حقول المعرفة ، وكيفية توظيف إفرات الذاكرة الجمعية في مراحل التاريخ ، وعدم تحويل اللايقين إلى يقين ، وعدم اختراع تناقضات وهمية بين الحياة والحريّة . والمجتمع ليس دوائر مُغلقة ، بل هو أنظمة مفتوحة ، وهذا يعني أنّ الحضور الفكري هويّة لتجدير الانتماء إلى المعرفة كحالة خلاص ، وأنّ الوجود العملي كيانٌ لإزالة الحدود بين سلطة المجتمع وكونه الفرد .

*

فلسفة الظواهر الاجتماعية وتاريخ الأفكار

١

تَنبُع أهمية فلسفة الظواهر الاجتماعية من قُدرتها على تحليل طبيعة الأحداث اليومية ، وتفسير ماهية التقاطعات التاريخية مع الواقع المُعاش ، وهذه الفلسفة غير مَحْصُورَة في بُنية المُجتمع التَّحتية وبنائه الفُوقِي ، بَلْ تَتَعَدَّى إلى دَلالات اللغة كإطارٍ مَعْرِفي ومَرَجِيَّةٍ رمزية ، وهذا يدلُّ على الترابط بين المُجتمع واللغة ، يَوْصِفُهُمَا كِيَانَيْنِ مُتَدَمِّجَيْنِ شُعُورِيًّا وإنْسَانِيًّا ، ويُشْكَلَانِ مَنظُورًا وُجُودِيًّا لتأويل تاريخ الأفكار منهجيًّا ومنطقيًّا ، وتوضيح كيفية تفاعله مع رؤية الفرد لذاته ومُحيطه ، مِمَّا يُؤدِّي إلى استخراج الأحلام المَقْمُوعَة من مَسَارَاتِ الزمن المُتَشَابِكَة ، واسترجاع الوَعْيِ الإبداعِي من مَنَاهَاتِ المَكَانِ العميقة . وهَاتَانِ العَمَلِيَّتَانِ تُسَاهِمَانِ في نَقْلِ الهُويَّةِ المعرفية من كَيُونَةِ الفرد الفاعلة إلى الفِعْلِ الاجتماعي ، وهذا يَضْمَنُ الانتقالَ السَّلِسَ لتاريخ الأفكار من الدَّهْنِ التَّجْرِيدِي إلى التَّطْبِيقِ العملي ، وَمِنِ الدَّلَالَةِ اللُّغَوِيَّةِ إلى السُّلُوكِ الأخلاقي ، وَمِنِ الجُمُودِ الحَضَارِيِّ إلى الحَرَكَاتِ الحَيَاتِيَّةِ . وَإِذَا تَجَدَّرَ تاريخُ الأفكارِ في فلسفة الظواهر الاجتماعية رُوحًا وَنَصًّا ، فَإِنَّ الأنساقَ الثقافية سَيُعَادُ تَشْكِيلُهَا لِإِنْقَاذِ الفردِ مِنَ المَآزِقِ الوجودِي ، وإنهاء الصَّرَاعِ بَيْنَ مَصَادِرِ المَعْرِفَةِ والتَّجَارِبِ الواقعية ، الأمر الذي يَدْفَعُ بِاتِّجَاهِ تَحْوِيلِ البناءِ الاجتماعي إلى جَوْهَرِ إنساني على تماسٍ مُباشرٍ مع العَقْلِ الجَمْعِيِّ ، والوَعْيِ الإبداعِي . وَإِذَا كَانَ وُجُودُ الإنسانيَّةِ سَابِقًا على وُجُودِ المُجتمعِ ، فَإِنَّ الهُويَّةَ المعرفية سَابِقَةً على سُلْطَةِ الظواهر الاجتماعية . واندماجُ الإنسانيَّةِ مع المَعْرِفَةِ يُؤَسِّسُ للتفاعلات الرمزية بين المُجتمعِ واللغة في صِيُورَةِ التاريخ ، وتفاصيلِ الحياة اليومية ، وَتَحْوُلَاتِ الشُّعُورِ والإدراكِ .

٢

الْبِنَاءُ الاجتماعي والِبِنَاءُ اللُّغَوِي مُرتبطان بانعكاساتِ الوَعْيِ الإبداعِي على مَاهِيَّةِ الذاتِ الإنسانيَّةِ ، وطبيعةِ الواقعِ الرمزية ، وهذا الارتباطُ يُشِيرُ إلى التجانسِ بَيْنَ مُكَوِّنَاتِ المُجتمعِ وعناصرِ اللغة ، حَيْثُ إِنَّ المُجتمعَ يُكْرَسُ رمزيَّةُ اللغةِ في تاريخ الأفكار بما يُفَرِّزه من ظواهر اجتماعية وأنساق ثقافية ومعايير أخلاقية ، واللغة تُجَدَّرُ مركزية المُجتمعِ في مصادر المعرفة بما تُفَرِّزه من هُويَّاتٍ عقلانية ، وآليَّاتٍ تأويلية ، وَسِيَّاقَاتٍ حياتية . والمُجتمعُ واللغة كِلَاهُمَا يُكُونَانِ القَاعِدَةَ الحَامِلَةَ للعقلِ الجَمْعِيِّ ، الذي يَحْمِي الفردَ مِنْ تَزْوِيرِ إِرَادَتِهِ وَتَزْيِيفِ وَعْيِهِ ، وَيُشْكَلَانِ

الإطار الجامع للتراث الحضاري الذي يتخذ أشكالاً مختلفة في المناهج النقدية ، ويتخذ صوراً متنوعة في الأحداث اليومية . وإذا أردنا فهم الماضي الذي يُعاد توليده في الحاضر ، فلا بُدَّ من تحليل تاريخ الأفكار من خلال تأثيرات المآزق الوجودي للفرد والجماعة في الواقع المعاش ، لأنَّ كُلَّ مآزق يكشف كيفية العلاج ، وكلُّ مشكلة تُحدّد طبيعة الحل ، وهذا يعني استحالة فصل الذات الإنسانية ككيّونة حيّة وحرّة وواعية عن ضغوطات النظام الاستهلاكي القاسي ، الذي يقتل الفرد من هويّته الوجودية داخل اللغة ، وينزعه من سلطته الاعتبارية داخل المجتمع ، ويجتثه من مكانته الجذرية داخل التاريخ ، ممّا يُجبر الفرد على الهروب من وجهه الحقيقي بحثاً عن وعي مُخادع في الأقنعة المزيفة ، ويُجبر الفرد — أيضاً — على الفرار من ذاته العميقة بحثاً عن سعادة وهمية في الشّعارات السطحية .

٣

المجتمع لغة معرفية قائمة على التواصل المتبادل وتحقيق المصلحة المشتركة ، واللغة مجتمع رمزي قائم على الظواهر الاجتماعية وتاريخ الأفكار ، وهذا التشابك يجعل العلاقة بين الفعل الاجتماعي والعقل الجمعي مُرتبطة بالدلالة اللغوية والسلوك الأخلاقي، وقابلة للتحوّل إلى نقد اجتماعي بناءً يُنقذ الفرد من الوعي المُخادع الناتج عن القطيعة المعرفية في النسيج الاجتماعي ، ويُنقذ المجتمع من النزعة الاستهلاكية الناتجة عن الانفصال الفكري في الأحداث اليومية . وهذا الإنقاذ المُزدوج لا يعني إخراج الفرد من المجتمع ، ولا يعني إخراج المجتمع من التاريخ، وإنما يعني تكوين شخصية الفرد الإنسانية اعتماداً على الوعي الإبداعي بمُعزّل عن الصراع بين سلطة المعرفة ومعرفة السلطة، وتكوين هويّة المجتمع المتنوعة اعتماداً على الأنساق الثقافية بمُعزّل عن الصراع بين قوّة المنطق ومنطق القوّة. وفلسفة الظواهر الاجتماعية تقوم على ركنين : شخصية الفرد وهويّة المجتمع ، والاندماج بينهما حتمي ومصيري ، لأنَّ الجزء ليس له معنى ولا جدوى بدون الكلّ ، وهذا الاندماج يتمّ داخل تاريخ الأفكار ، ليس بوصفه زمناً ذهنياً عابراً ، بل بوصفه واقعاً قائماً بذاته ، وحياةً مُكتملةً بنفسها .

*

اللغة والفرد والمجتمع والوعي الثقافي

١

تُمثِّل رَمَزيَّةُ اللُّغةِ تَصَوُّراً وَجُودِيّاً عَنْ كَيانِ الفردِ وَكَيونَةِ المُجتمَعِ ، وتُشكِّلُ مِنْهَجاً مَعْرِفِيّاً لِتَحْلِيلِ العِلاقاتِ الاجتماعيَّةِ في صَيرورةِ التاريخِ المُتوالِدِ باستمرارٍ ، وتُفسِّرُ مَصادرَ الوَعْيِ الثقافيِّ في أَشكالِ التفكيرِ الإبداعيِّ ، ممَّا يُؤدِّي إلى جَعْلِ الواقعِ المُعاشِ كائناً حَيّاً مُتَفَرِّداً بِذاتِهِ ، وَفِعْلاً اجتماعيًّا مَنظُوراً إِلَيْهِ مِنْ خِلالِ إرادةِ المَعْرِفةِ المُتَحَرِّرةِ لا سُلْطَةِ المِصالحِ الشَّخصيَّةِ الضَّيِّقةِ . والوَعْيُ الثقافيُّ لا يَتَكَيَّرُ كَنَسَقٍ إنسانيٍّ لِخِلاصِ الفردِ مِنَ الأحلامِ المَكبُوتَةِ ، وتَخْلِيصِ المُجتمَعِ مِنَ الضَّغْطِ الاستهلاكيِّ ، إِلا إِذا تَمَّ النَظَرُ إلى رَمَزيَّةِ اللُّغةِ مِنَ الدِخالِ لا الخِارجِ ، وهذا يَسْتَلْزِمُ تَحْويلَ البِنااءِ الاجتماعيِّ الحاضِنِ لِتفاصيلِ الحِياةِ اليوميَّةِ إلى بُنيةٍ لُغويَّةٍ حاضِنةٍ لِإِفرازاتِ العقلِ الجَماعيِّ وتأثيراتِ الهُويَّةِ الجامِعةِ ، الأمرُ الَّذي يَجْعَلُ العِلاقاتِ الاجتماعيَّةِ تَيَّاراتٍ فِكْريَّةً مُتَحَرِّرةً مِنَ الوُهمِ والأدْلجَةِ المُغرِضَةِ ، ومُندمِجَةً مَعَ اللُّغةِ والثَّقافةِ ، باعْتِبارِهِما نِظاماً واحداً في الزمانِ والمكانِ ، ومُوحِّداً لِلآليَّاتِ السُّلوكيَّةِ التي تُنتِجُ المَعْرِفَةَ وتُوظِّفُها خِارجَ القِوالبِ الجامِدةِ ، ومُولِّداً لِمَفاهِيمَ جَديدةٍ تُعيدُ صِياغَةَ المَعْنى الوُجوديِّ — ذَهيّاً وَحِياتيّاً — مِنْ مَنظورِ إبداعيٍّ لا وَظِيفيٍّ . وَكَيانُ الفردِ لا يَكْتَسِبُ الشَّرعيَّةَ الثَّقافيَّةَ إِلا إِذا تَأَسَّسَ — إدْراكاً كَوْنِيّاً وسلوكاً إيجابيّاً وواقِعاً مَلْمُوساً — على قِواعدِ البِنااءِ الاجتماعيِّ . وَكَيونَةُ المُجتمَعِ لا تَكْتَسِبُ المَشروعيَّةَ التاريخيَّةَ إِلا إِذا تَأَسَّسَتْ — سِياقاً تحريريّاً وفِكْراً فاعِلاً ونَقْداً مِنْهَجِيّاً — على أُسُسِ البُنيةِ اللُغويَّةِ . وتَظَلُّ مَرَجِعيَّةُ المَعْنى الوُجوديِّ هِيَ المَذاكَرةُ الجَماعيَّةُ التي تَحْمِي كَيانَ الفردِ مِنَ الأحكامِ الثَّقافيَّةِ المُسَبِّقَةِ ، وتَحْمِي كَيونَةَ المُجتمَعِ مِنَ المُسَلِّماتِ التاريخيَّةِ التي فَرَضَتْها سُلْطَةُ الأمرِ الواقِعِ .

٢

رَمَزيَّةُ اللُّغةِ تُحَلِّلُ أبعادَ هُويَّةِ الفردِ في فِضاءاتِ الفِعلِ الاجتماعيِّ ، وتَكشِفُ أركانَ سُلْطَةِ المُجتمَعِ في تأثيراتِ التَّفكيرِ النَّقْديِّ . وَهذهِ المَنظومةُ المُترابِطةُ (التَّحْلِيلُ — الهُويَّةُ / الكَشْفُ — السُّلْطَةُ) تُعيدُ تَكوينَ زواياِ الرُّؤْيَةِ الفِلسَفيَّةِ لِلأحداثِ اليوميَّةِ والواقِعِ التاريخيِّ ، بِحيثِ يُصبحُ المَاضِي والحاضِرُ نَسَقاً فِعْليّاً مُتَجانِساً ، ومُمارَسةً حِياتيَّةً مُتفاعِلةً مَعَ الوَعْيِ الثقافيِّ ، وتَجاوُزاً مُستَمِراً لِإيقاعِ الحِياةِ الرَتيبةِ . وَهذا التَّجاوُزُ المُستَمِرُّ لا يَعبُرُ تَجرِيدَ اللُّغةِ مِنْ رَمَزيَّتِها ، أو إقامَةَ قِطِيعَةٍ مَعْرِفيَّةٍ بَيْنَ المَاضِي والحاضِرِ ، وإنَّما يَعبُرُ صَهْرَ المَراحِلِ الزمَنيَّةِ دُونَ القَفْرِ في المَجهولِ ، أو

الغرق في الفراغ ، أو السقوط في العدم ، بحيث يصبح المعنى الوجودي نظامًا ديناميكيًا قادرًا على تحويل إفرازات العقل الجمعي إلى مصادر معرفية ، وظواهر اجتماعية ، وشروط تاريخية تؤدي إلى توليد الأنساق الحضارية _ كمًا وكيفًا _ في الوعي الثقافي ، وتكريس الوعي الثقافي في الواقع المعاش ، بوصفه انقلابًا على الأحكام المسبقة والمسلمات الافتراضية ، ونفياً لها من حيز الزمان والمكان ، وليس إثباتاً لها في الشعور والإدراك والمجتمع ، وتصبح العلاقات الاجتماعية منتجات ثقافية مرنّة لا كيانات متحجرة أو أيقونات مقدّسة . وشخصية الفرد الإنسانية ليست أسطورة تُفسّر نفسها بنفسها ، وإنما هي طريقٌ إلى اكتشاف الأحلام المكمّوتة ، وطريقة لتوظيف أشكال التفكير الإبداعي في البناء الاجتماعي . وسلطة المجتمع الاعتبارية ليست أيقونة تستمد شرعيتها من ذاتها ، وإنما هي تجذيرٌ لضرورة التاريخ بين الأنماط الاستهلاكية والأنساق الحضارية ، وإعادة اكتشاف لزوح الزمان في جسد المكان .

٣

المجتمع لا يتعامل مع اللغة كبنية رمزية فحسب ، بل أيضاً يتعامل معها كنظام معرفي ، وكتلة اجتماعية ، وتجسيد للوعي الثقافي في كيان الفرد وكيونة المجتمع . وكما أنّ اللغة لا يمكن حصرها في رمزيّتها ، كذلك الفرد والمجتمع لا يمكن حصرهما في الوعي الثقافي، ممّا يدلّ على أنّ العلاقات الاجتماعية _ فردياً وجماعياً _ عبارة عن دوائر مفتوحة على كافّة الاحتمالات ، وليست أنساقاً مُغلقة على نفسها ، ومُتقوّعة على ذاتها ، ومُكتنفة بوجودها . وهذه الأنساق غير المكتملة تجعل أشكال التفكير الإبداعي ذات طبيعة انسيابية ، ومُتماهية مع مناهج النقد الاجتماعي التي يُعاد تأويلها في إفرازات العقل الجمعي ، ويُعاد توظيفها في انعكاسات هوية الفرد على سلطة المجتمع ، بحيث يصبح من المستحيل فصل الهوية الفردية عن السلطة الجماعية ، وهذا التلازم الحتمي يدفع باتجاه رؤية اللغة من منظور خلاصي ، ورؤية الفرد من منظور إنساني ، ورؤية المجتمع من منظور معرفي ، ورؤية الوعي الثقافي من منظور تاريخي .

*

التنوع الثقافي والنزعة الإنسانية والتأويل اللغوي

١

التنوع الثقافي في العلاقات الاجتماعية يُعتبر انعكاساً طبيعياً للنزعة الإنسانية ، وتجسيدا للمنهج النقدي في بنية الواقع المعاش وبناء السلوك المعرفي ، وتحريراً لتاريخ الأفكار من الوعي الزائف ومنطق القوة . والتنوع الثقافي ليس روابطاً حياتية مُتعارضة ، أو أنظمةً مادية مُتضاربة ، أو مصالح شخصية مُتناقضة ، وإنما هو كيان وجودي مُنفتح على سياقات حُرّية التفكير ، ومُتفاعل مع القيم الأخلاقية التي تُخلّص الإنسان من قيود المصالح الشخصية الضيقة . وكلُّ تنوع في مرجعية الثقافة هو بالضرورة تحريرٌ لمركزية الإنسان في الواقع المعاش والوجود الحياتي . واندماج مرجعية الثقافة مع مركزية الإنسان يُؤلّد أنساق الفعل الاجتماعي ، ويوظّفها في الأحداث اليومية ، ويربطها مع إفرازات العقل الجمعي ، ممّا يُؤدّي إلى التوفيق بين هويّة الإنسان وسلطة الثقافة ، وانسجام الفعل الواقعي مع التصوّر الذهني ، ومنع الصدام بين إرادة المعرفة والوعي الفعّال . وإذا كانت هويّة الإنسان مُتجذّرة في الفكر التاريخي حسّاً وإدراكاً ، فإنّ سلطة الثقافة مُترسّخة في كينونة اللغة نصّاً وروحاً ، وهذا النسيج العقلائي المُتشابك من شأنه تحقيق التوازن بين المجتمع كجسد وجودي ، والمعرفة كوظيفة حياتية . ولا يُمكن للواقع المعاش أن ينتقل من الوهم الاستهلاكي إلى الحلم الإبداعي ، إلا إذا انتقل المجتمع من الجسد الوجودي إلى تجسيد العلاقات الاجتماعية في الوعي الفعّال وقوّة المنطق ، وانتقلت المعرفة من الوظيفة الحياتية إلى توظيف النزعة الإنسانية في مرجعية الثقافة وحُرّية التفكير . وكلُّ جسد وجودي لا يتحوّل إلى تجسيد للحقيقة سيّهار ، وكلُّ وظيفة حياتية لا تتحوّل إلى توظيف للمعنى ستسقط .

٢

التنوع الثقافي يستمد شرعيّته من امتلاكه لآليات التأويل اللغوي ، ويكرّس سلطته اعتماداً على مصادر المعرفة الظاهرة في الواقع المعاش ، والباطنة في الشُّعور ، ويؤسّس مرجعيّته استناداً إلى تأثير تاريخ الأفكار في الفعل الاجتماعي . وكلُّ هذه العوامل مُجتمعة تمنح التنوع الثقافي القدرة على تحليل بنية هويّة الإنسان ، بوصفها تحديداً لشخصية الإنسان وأبعادها المعنوية والمادية ، وتعبيراً عن مركزيته في العلاقات الاجتماعية . وهويّة الإنسان هي المِعارُ الوجودي الذي يكشف مواطن الاتصال والانفصال في مسارات التاريخ وسياقات الحضارة ، ويوازن بين آليات

سُلطة المعرفة وآليات التأويل اللغوي . وهذا التلازم المصيري بين المعرفة واللغة يعني أنَّ المعرفة بلا لغة كُنْلة هُلامية سباحة في الفراغ ، وأنَّ اللغة بلا معرفة منظومة عشية غارقة في العدم . وكلُّما كانت الرابطة بين المعرفة واللغة أقوى ، كان تحليل ماهية السُلطة في العلاقات الاجتماعية أكثر دقَّة وانضباطاً ، وهذا يُساهم في تشخيص الإشكاليات الحياتية التي تضغط على المنهج النقدي ، وتحديد الأنماط الاستهلاكية التي تُهمَّش مرجعية الثقافة ، وكشف المُسلَّات الافتراضية التي تُهدِّد مركزية الإنسان ، وتفكيك المصالح الشخصية التي تُشوِّه الفكر التاريخي . وكلُّ محاولة للفصل بين المعرفة واللغة تُمثِّل تحطيماً لآليات التأويل اللغوي، وهذا يجعل المجتمع عاجزاً عن استيعاب تاريخ الأفكار. وكلُّ محاولة للفصل بين ماهية السُلطة والعلاقات الاجتماعية تُمثِّل تفتيتاً للواقع المُعاش ، وهذا يجعل الإنسان عاجزاً عن التحرُّر من الخوف .

٣

التنوع الثقافي يُؤسِّس المنهج النقدي في مركزية العقل الجمعي . ومهمته المنهج النقدي هي البحث عن المعنى. وهذا المعنى ليس هوية عابرة، أو سُلطة مؤقتة . إنَّ المعنى هو كينونه الوجود القائمة بذاتها ، والمكتفية بنفسها . والمعنى هو تحرير الهوية من الوعي الزائف ، وروح المجتمع التي تُوظف النزعة الإنسانية في التأويل اللغوي . وكلُّما اقترب الإنسان من اللغة اقترب من معنى حياته الكامن في تاريخ الأفكار ، ممَّا يُؤدِّي إلى تكريس اللغة كعملية تحرير للمعنى ، وليس حشر المعنى في قوالب لغوية جامدة أو كتل فكرية متحجرة . وتحرير المعنى هو إعادة رسم لدور الثقافة في طبيعة الإنسان ، وإعادة صياغة للتأويل اللغوي في الفعل الاجتماعي ، ممَّا يُكوِّن منظوراً فلسفياً جديداً حول طبيعة التنوع الثقافي ، يُفقد إلى دمج تاريخ الأفكار مع الوعي الفعَّال لإنتاج الحلم الإبداعي _ فزدياً وجماعياً _ بشكل عابر للحدود بين الزمان والمكان من جهة ، وبين الإنسان واللغة من جهة أخرى .

*

أهمية الترابط بين الفكر التاريخي والرمزية اللغوية

١

تتجلى أهمية الترابط بين الفكر التاريخي والرمزية اللغوية في قدرته على تحويل العلاقات الاجتماعية إلى حقول معرفية ، وتحويل الظواهر الثقافية إلى مناهج نقدية ، مما يؤدي إلى تكريس العقل الجمعي كسلطة وجودية ذات أبعاد فكرية ، وتجذير بنية المجتمع كهوية إنسانية ذات دلالات أخلاقية . واتحاد العقل الجمعي مع بنية المجتمع يعزز الروابط بين أثر الفعل الاجتماعي في الواقع المعاش ، وبين تأثير الحياة الواعية في الشعور والإدراك . واندماج السلطة الوجودية مع الهوية الإنسانية يساهم في تحرير التجارب الشخصية الحياتية من الأحلام المكبوتة ، وتخليص مكونات التراث الجماعي من الطموحات المقموعة . وإذا كان الفكر التاريخي يجسد شروط الوعي بزمان توليد المعرفة معنى ومبنى ، فإن الرمزية اللغوية تجسد إفرازات البناء الاجتماعي في مسارات توظيف المعرفة كمًا وكيفًا ، الأمر الذي يدفع الظواهر الثقافية والمناهج النقدية باتجاه تفسير الآليات الفكرية المسيطرة على مضامين المجتمع المالك لمساره ومصيره ، وتحليل الظروف النفسية التي شكّلت تاريخ الفرد وصورته الطبيعية غير المصنوعة في قوالب الوعي الزائف ، وغير المحكومة بسياسة الأمر الواقع . وإذا كانت حياة الفرد قائمة على المعرفة كإرادة وسلطة ، فإن حرّيته قائمة على تجاوز الهويات الوهمية الناتجة عن الأحكام المسبقة ، والمسلّمات الافتراضية ، والأيدولوجيات المغرضة ، والمصالح الشخصية . وكلُّ هوية وهمية هي بالضرورة هوية قاتلة للوعي والشعور والإدراك . والتلازم بين الحياة والحرية ليس مفهومًا فلسفيًا هلاميًا ، وإنما هو رابطة مصيرية بين الكيان والكينونة ، فالحياة شرعية كيان الفرد ، والحرية أساس كينونة الفرد .

٢

الرمزية اللغوية تكشف طبيعة الفكر التاريخي المهيمن على الفعل الاجتماعي ، فاللغة هي التأسيس الوجودي للفكر ، والفكر هو القوة الدافعة للفعل . وهذا المسار (اللغة ، الفكر ، الفعل) يوسع زوايا الرؤية لمفهوم المجتمع ومراحل تكوّنه المعنوي وأطوار تشكّله المادي ، ويتنشل الفرد من الرؤية الأحادية للأحداث اليومية ، ويُنقذ العلاقات الاجتماعية من المصالح الشخصية المتعارضة . وإذا كان الفرد لا يستطيع العيش خارج المجتمع ، فإن التاريخ لا يُقدّر على التشكّل

خارج الحضارة . وهذا يعني أنَّ الفرد والتاريخ مَحْصُوران في هُويَّة إنسانية مُشْتَرَكَة ، ويُعيدان اكتشافَ إرادة المعرفة كمنظومة مُتجانسة في العلاقات الاجتماعية، ويُشكِّلان نَسَقًا زمنيًا عابرًا للحدود المُصْطَنعة بين الظواهر الثقافية التي تمتاز بالسُّيولة وعدم الثَّبات ، حيث يُعاد تكوينها باستمرار على الصَّعيدين الواقعي والنظري ، وهكذا ، تتأسَّس بُنية ثقافية ديناميكية داخل صيرورة التاريخ ، وتُصبح رمزيَّة اللغة قادرةً على التَّنقيب عن آثار القطيعة المعرفية داخل العالم الداخلي للفرد والمُجتمع على حدٍّ سواء. وهذا من شأنه تحديدُ مواضع الانفصال في جَوهَر الوجود الإنساني (الجُزئي والكلِّي) فِكْرًا ومُمارَسةً، تمهيدًا لِردِّم الثَّغرات في الوَعْي الزَّمني الرابط بين سَطوة الماضي وسلْطة الحاضر، وهذه الغاية هي الضَّمانة الأكيدة لِتحويل الفِكر التاريخي إلى فِكر نَقْدي قابل للتطبيق في العلاقات الاجتماعية، والواقع المُعاش، والتجارب الشَّخصية ، والتُّراث الجَماعي .

٣

الوجود الإنساني لَيْسَ كُتلةً صَمَاء ، وإنَّما هو نظامٌ معرفي حاضن لمظاهر الفِكر التاريخي ، وأشكال الرمزية اللغوية . ولا معنى للوجود بلا فِكر ، ولا فائدة من الإنسانية بلا لُغة ، وهذا يعني أنَّ الفرد لا يَسْتَطِيع اكتشافَ ذاتِهِ العميقة وأحلامِهِ المَكبوتة خارجَ الفِكر واللغة ، ولا يَقْدِر على تأكيد كَيْنُونَتِهِ وسلْطَتِهِ خارجَ المُجتمع والتاريخ ، وهاتان الحقيقتان تدفعان الفرد إلى تطوير العلاقات الاجتماعية ، لَيْسَ بِوَصْفِهَا أنماطًا واقعية جامدة، بَلْ بِوَصْفِهَا أنساقًا حياتية إبداعية تُعيد تشكيل الوَعْي الزَّمني ، بِحَيْثُ يُصبح الماضي ذاكرةً جَمْعِيَّةً تَمْنَعُ الصَّدَامَ بين الفِكر التاريخي والفِكر النَقْدي ، ويُصبح الحاضر هُويَّةً إنسانيةً تَمْنَعُ التعارضَ بين التجارب الشَّخصية الحياتية ومُكوّناتِ التُّراث الجَماعي . وانصهارُ الهُويَّة الإنسانية في الذاكرة الجَمْعِيَّة يُؤلِّدُ زَمَنًا معرفيًا مُتَوَاصِلًا لا فواصل فيه ولا ثَغرات ، يُعيد تشكيلَ صيرورة التاريخ بِحَيْثُ تُصبح منظومة لُغوية تأويلية تُوازِن بين تأثيراتِ العَقْل الجَمْعِي وإفرازاتِ البناء الاجتماعي ، وتُحقِّق التكاملَ بين حياة الفرد وخُرَيْتِهِ ، وتَحْمِي المُجتمع من الاغتراب والاستلاب . وَبِعَبارةٍ أُخْرَى ، إنَّ اللغة تأويلٌ مُستمر للتاريخ ، تُوازِن بين العَقْل الجَمْعِي كأداةٍ وآليَّةٍ وبين البناء الاجتماعي كَفِعْلٍ وتَفَاعُلٍ ، وتربط حياة الفرد بِخُرَيْتِهِ بشكل نهائي وحاسم ، وتَمْنَعُ الهُويَّة من التَّحَوُّل إلى هاوية .

*

تحولات الفعل الاجتماعي في المسار الحياتي

١

وظيفة الفعل الاجتماعي لا تُحدّد تقاطع الماضي والحاضر في تاريخ الأفكار فَحَسْب ، بل أيضاً تُحدّد طبيعة تفكير الفرد في المجتمع، وهذا يدلُّ على أنَّ المسارَ الحياتيَّ -فَرْدِيًّا وَجَمَاعِيًّا - هو خَلِيطٌ وُجُودِي مِنَ الْفِعْلِ وَالزَّمَنِ والتفكير . والعلاقة بين هذه العناصر تَبَادُلِيَّة لا تَرَائِيَّة ، أي إنها دائمة التَّبَدُّل والتَّغْيِير ، ويُعادُ تشكيّلها وصيّاغَتُها باستمرار ، وَلَيْسَتْ مَنظُومَةً جامدةً يَجِدُ كُلُّ عُنْصَرٍ نَفْسَهُ مُرتَبطاً بالذي يَلِيهِ . وكما أنَّ الماء يأخذ شكلَ الإناءِ الذي يُوضَع فيه ، كذلك هذه العناصر تأخذ شكلَ البناءِ الاجتماعي الذي تُوضَع فيه ، وهذا يُساهم في تحليل أبعاد شخصية الفرد على الصَّعِيدَيْن الأخلاقي والقيمي ، وتفسير معالم هُويَّة المجتمع على المُستَوَيْن الإنساني واللغوي ، وإدراك الأهمية الفكرية للفرد والمجتمع . وإذا كانت شخصية الفرد هي رحلة البحث عن المعنى لإيجاد أجوبة منطقية عن أسئلة الوجود ، فَإِنَّ هُويَّة المجتمع هي مَرَكِزُة المعرفة في طبيعة التاريخ التي تُفَرِّزُ تأويلاتٍ جديدة للواقع المُعاش ، ممَّا يُؤدِّي إلى إعادة بناء الوُعي خارج حدود البيئة الصَّيِّقة ، وإعادة تفسير الزَّمن خارج إطار المصالح الشخصية العابرة . وإذا نَجَحَ الْفِعْلُ الاجتماعي في تحديد حَجْم الثَّغَرَات الوجودية في الوُعي ، وَكَشَفَ مَسَارَات القطيعة المعرفية في الزَّمن ، فَإِنَّ الْفِعْلَ الاجتماعي سَيُصْبِحُ فَاعِلِيَّةً حَيَاتِيَّةً تَمْنَعُ النظامَ الاستهلاكي القاسي من اقتلاع شخصية الفرد وهُويَّة المجتمع من التاريخ . وَكُلُّ فِعْلٍ لا يُصْبِحُ إرادةً للحياة سَيَتَحَوَّلُ إلى وَهْم ، وَكُلُّ شَخْصِيَّةٍ لا تُصْبِحُ تَشْخِصًا للمعنى سَتَتَحَوَّلُ إلى قِنَاع ، وَكُلُّ هُويَّةٍ لا تُصْبِحُ أَفْقًا نَفْدِيًّا سَتَتَحَوَّلُ إلى فَرَاغ .

٢

بُنيَّة الفعل الاجتماعي لا تَنفَصِلُ عَنِ وُعي الفرد بِالزَّمَنِ المعرفي الذي يَتَجَسَّدُ في تاريخ الأفكار حيناً ، وَحيناً آخَرُ يَتَجَسَّدُ في الأحلام المَنَسِيَّة على هوامش تاريخ الأفكار . وَعَدَمُ الانفصالِ يَعْنِي أَنَّ التَّرابِطَ بَيْنَ الْفِعْلِ الاجتماعي وَوُعي الفرد لَيْسَ إِجْرَاءً آليًّا تَلْقَائِيًّا ، وَإِنَّمَا هُوَ عَلاَقَةٌ قَصْدِيَّة ذات طبيعة إنسانية تُعيد الفرد إلى الواقع المُعاش ، وَتَحْمِيهِمَا مِنَ الاغترابِ ، وَتُعيد المجتمع إلى النَّسَق الثقافي ، وَتَحْمِيهِمَا مِنَ الاستلاب . وَالزَّمَنُ المعرفي لَيْسَ نَوَاةً مَرَكِزِيَّةً تَدُورُ حَوْلَهَا تفاصيلُ البناءِ الاجتماعي بشكلٍ ميكانيكي ، وَإِنَّمَا هُوَ جَسَدٌ سَائِلٌ يَتِمُّ تَكثِيفُهُ فِكْرِيًّا

وتاريخياً وثقافياً وأخلاقياً ، من أجل توظيفه في شخصية الفرد وهويته المجتمع ، وهذا يؤدي إلى تفعيل إرادة المعرفة في الحياة العملية ، وتأكيد القدرة الإنسانية على حرية التعبير والتحرر من الخوف ، وبناء علاقات اجتماعية قادرة على التماسك تحت ضغط النظام الاستهلاكي القاسي . ولا يمكن أن يصبح تاريخ الأفكار (المركزي والهامشي) صيرورة حياتية ، وتفسيراً لغوياً دائماً ، وتجسيدا أخلاقياً مستمراً ، إلا إذا اندمج الفعل الاجتماعي مع الزمن المعرفي ضمن العقل الجمعي الباطني والظاهري ، ومنطبق اللغة الرمزي والتواصل . وهذه التراكيب الوجودية تمثل منهجاً نقدياً ، وشبكة معنوية متكاملة ، ونسيجاً مادياً مفتوحاً على حتمية المعنى الإنساني ، واحتتمالات التأويل الاجتماعي . ولا يوجد فعل يتكسر خارج الزمن ، ولا يوجد زمن يتحرك في العدم ، ولا شرعية للمجتمع خارج إطار المعرفة ، ولا جدوى من المعرفة في مجتمع عاجز عن التغيير .

٣

ماهية الفعل الاجتماعي تقوم على ثلاثة أسس : عقلنة الواقع المعاش (إضفاء شكل عقلائي عليه) ، وتحويل المسار الحياتي إلى نسق ثقافي ، واكتشاف الطبيعة الإنسانية في شخصية الفرد وهويته المجتمع . وهذه الأسس تفتح آفاقاً جديدة لتأويل تاريخ الأفكار ضمن اللغة بأبعادها الرمزية والعقلانية والعاطفية ، وتأويل دلالات اللغة ضمن تاريخ الأفكار بأبعاده الفعلية والزمنية والفكرية . وهذه الآفاق الجديدة تؤسس مناهج نقدية قادرة على تجذير العلاقات الاجتماعية معرفياً ووجدانياً وإبداعياً _ في السياق الواقعي ، مما يؤدي إلى ربط تسلسل المجتمع الهرمي مع حرية الفرد في التفكير والتعبير ، وهذا الأمر شديد الأهمية ، لأنه يدفع الفرد باتجاه نقد الذات لمعرفة نقاط قوته ونقاط ضعفه ، وإعادة رسم مساره بحثاً عن موقع في البناء الاجتماعي ، كما يدفع المجتمع باتجاه تطوير مصلحته للتحرر من التبعية والإملاءات . وتطوير المصلحة مرتبط بإرادة المعرفة في الحياة الفكرية ، ومركزية الوعي الحضاري في الحياة العملية ، لأن المعرفة أساس المصلحة ، يوجدان معاً ، ويعيان معاً ، ولا يستطيع المجتمع أن يطور مصلحته ، ويرسخ معرفته ، إلا إذا أكد سلطته ، وهذا لا يتأتى إلا بالتوافق بين شخصية الفرد وهويته المجتمع ضمن تحولات الفعل الاجتماعي في المسار الحياتي .

*

5.....	مُقَدِّمَة
	الفلسفة الروحية هي الحياة الحقيقية [7] متى تنتهي غربة الروح ؟ [9] البحث عن اللمعان في زمن الانطفاء [11] الحزن ومعنى الحياة [13] فلسفة الحزن [15] الانتحار التدريجي في ممالك الخديعة [18] البحث عن منبع نهر الحياة [20] احذر أن تموت قبل الموت [22] قانون الذاكرة وذاكرة القانون [24] رحلة الإنسان إلى أعماقه السحيقة [26] طبيعة الحلم الإنساني في المجتمع المادي [27] الإحساس بالذكريات والموت والزمن [29] الروح في الجسد والذكريات [31] الأركان الثلاثة لتحقيق حلم الإنسان [33] الزمن والفكر والتاريخ [34] علاقة الزمن الفلسفي باللغة [36] تأويل الفعل الاجتماعي لغويًا وزمنيًا [38] فلسفة التاريخ الاجتماعية [40] الحتمية الاجتماعية والاحتمالية الثقافية [41] اقتحم الخوف كُرْبَان السفينة [43] الوجود والشعور في حياة الفرد والمجتمع [44] الفرق بين المغامرة والمقاومة في الفكر الاجتماعي [46] البنى الاجتماعية والسيطرة على عنصر المفاجأة [49] النظام الاجتماعي بين الفردية والإنسانية [51] رحلة البحث عن الخلاص الجماعي [54] تحقيق الحلم الإنساني في المجتمع الاستهلاكي [56] السلوك الاجتماعي والفكر الإنساني [58] فشل السياسة المحصورة بين الرهائن والغنائم [61] الظواهر العقلية الإنسانية وتحليل التراث [64] وظيفة النظريات الاجتماعية في الحياة [66] قدرة الشعور على توليد الزمان وصناعة المكان [69] الحضارة الباحثة عن المجد الوهمي [72] الحرية سلاح ذو حدين [76] صناعة التاريخ بين الجذور والأغصان [79] الشخصية الإنسانية وإعادة تدوير المشاعر [81] الفرق الجوهرية بين اللغة والإنسان [83] البحث عن التاريخ السري للأحداث [85] البحث عن الجندي المجهول في العلاقات الاجتماعية [87] الجرثومة الصغيرة والجرثومة الكبيرة [89] تاريخ الأمم والشعوب ومصيصة الحضارة [92] الصيد الحقيقي لا يصبح فريسة [94] الحتمية والاحتمالية في فلسفة المجتمع الإنساني [96] متى تكتشف الحضارة سرَّ الإنسان ؟ [98] الضوء الاجتماعي والمصير المشترك [101] السلوك والوجود والنظام [103] العلاقة بين الإنسان العادي والفيلسوف [105] اللاعب والملعوب به [107] فلسفة التنازلات في العلاقات الاجتماعية [109] الإنسان والفكر والأخلاق [111] خطورة

الموت في الحياة [113] دور الحب في بناء الأنظمة السياسية [115] الرموز في تاريخ المجتمع وطبيعة اللغة [117] إنقاذ الفرد والمجتمع من الفراغ الموحش [119] الفرد والمجتمع في مواجهة التناقضات والصراعات [121] رحلة الإنسان المصرية بين الحلم والموت [123] الكون والكائن والكيان والكينونة [125] خطورة تحوّل الإنسان إلى مقبرة مُتنقلة [127] التزامن والتعاقب في حياة الإنسان والمجتمع [129] التاريخ المنسي في أعماق الإنسان [131] التحدي المصري أمام السلوك الاجتماعي [133] الفرق بين الرّبان وفترة السفينة [134] الفعل والمعنى واللّوعي [136] الانتقال من الأوهام اللذيذة إلى الحياة الحقيقية [138] حماية الإنسان من السقوط خارج التاريخ [140] علاقة الحاضر بالماضي في فلسفة التاريخ [142] الأدوات الفلسفية في اللغة [144] أهمية الخيال في التفاعل الاجتماعي [146] التوفيق والتلفيق والهوية الاجتماعية [148] الموضوع الاجتماعي والذات الإنسانية [150] الاختراع والاكتشاف في حياة الإنسان الاجتماعية [152] الحرب الأهلية داخل الإنسان [154] الأنساق والمعنى والمجتمع الجديد [156] المعنى المعرفي والرمز الفكري [158] الواقعية والمجتمع الكامل [160] التاريخ والجغرافيا في التفاعل الرمزي الاجتماعي [162] التناقضات الاجتماعية والمراحل الزمنية [164] السيطرة على التحولات الاجتماعية [166] دور القوة الناعمة في بناء المجتمع [168] تحويل التاريخ إلى ظاهرة ثقافية [170] الثقافة والمثقف وتغيير المجتمع [172] الأخلاق والأفكار والتفاعلات الاجتماعية الرمزية [174] الضغط الحياتي والجوهر الاجتماعي [176] لغة المجتمع الرمزية [178] الغربة والاغتراب والزمان والمكان [180] سيادة الإنسان على الأشياء والعناصر [182] السلطة المعرفية والعلاقات الاجتماعية [184] المنظور العقلاني في الثقافة والمجتمع واللغة [186] الثقافة والتاريخ والبناء الاجتماعي [188] الوعي المعرفي والقوة الذاتية [191] العلاقات الاجتماعية والتحديات الوجودية [193] مركزية السؤال في حياة الإنسان [195] جسد المجتمع وروح الإنسان [197] التجانس الاجتماعي والتكامل الإنساني [199] الكينونة اللغوية والكيان الإنساني [201] معالم طريق الإنسان في الحياة [203] المعنى الإنساني وسلطة المعرفة [205] التفسير الاجتماعي والتأويل اللغوي [207] الاستعارة والاستعادة في البناء الاجتماعي [209] المبادئ الأخلاقية في التاريخ والمجتمع [212] الخيال واللغة وأنساق المجتمع [214] الزمن المفتوح وفلسفة الوعي بالتاريخ [216] المعنى الاجتماعي بين التوليد والتجريد [218] رحلة المجتمع من الثقافة إلى التاريخ [220] التحديات الزمنية أمام

وجود الإنسان [222] الإنسان الضائع في متاهة الحضارة [224] اللغة بين النظام الرمزي والمنظومة الاجتماعية [226] تفسير التاريخ والمعنى الوجودي للحياة [228] عناصر المجتمع الفلسفية [230] تاريخ المعنى في داخل الإنسان [232] الأثر الاجتماعي والمؤثر الإنساني [234] خطورة انفصال الوعي عن الإرادة [236] الحقيقة والمعاني المعرفية في المجتمع [238] دور الظواهر الثقافية في المجتمع [240] الفكر والعاطفة في التاريخ والمجتمع [242] ضرورة إعادة تفسير التاريخ [244] حماية مسار التاريخ من القطيعة المعرفية [247] مصادر المعرفة في العلاقات الاجتماعية [249] السلوك الاجتماعي والبناء الثقافي [251] بُنية المجتمع الإنساني والنظام الاجتماعي [253] البنى الثقافية والتجارب الإنسانية [255] التحولات الاجتماعية والنظم الثقافية في ضوء التاريخ [257] فلسفة الوعي والتاريخ الفكري [259] الزمان والمكان والتعبير عن الوعي [261] المنظور الاجتماعي الثقافي وسلطة المعرفة [263] الروابط الاجتماعية والمعنى الوجودي للأشياء [265] الدافعية والفاعلية والتفاعلات الاجتماعية [267] السلوك الاجتماعي وثقافة الحياة اليومية [269] اللغة في سياق الفعل الاجتماعي [271] العلاقات الإنسانية وقوانين البناء الاجتماعي [273] الظاهرة الثقافية والجوهر اللغوي [275] التفاعل اللغوي والهوية الإنسانية [277] العلاقات الاجتماعية والجوهر الإنساني والنظام المعرفي [279] التجارب العقلانية والفلسفة الاجتماعية النقدية [281] النشاط الفكري في بنية العلاقات الاجتماعية [283] تحول الأنماط الثقافية في المجتمع [285] التفاعل الرمزي وتصور الفرد عن ذاته ومُحيطه [287] الطاقة الرمزية في اللغة وتغيير المجتمع [289] التحليل الفلسفي للروابط الإنسانية في المجتمع [291] المجتمع والثقافة والهوية الإبداعية [293] فلسفة جديدة للبنى الزمنية المعرفية [295] الكينونة الإنسانية وسلطة المجتمع والرموز اللغوية [297] الثقافة في تجلياتها الزمنية والمكانية [299] تحول التجارب الاجتماعية إلى ظواهر ثقافية [301] فلسفة المعرفة في المجتمع والثقافة واللغة [303] سلطة المجتمع وفلسفتها الحياتية [305] الوعي باللغة وإدراك الرموز الثقافية [307] العلاقات الاجتماعية على الصعيدين اللغوي والوجودي [309] تأثير السلطة المعرفية على الفرد والمجتمع [311] اللغة والفعل الاجتماعي والنظام الأخلاقي [313] العلاقات الاجتماعية بين النظام الحياتي والمنظومة الحضارية [316] التحولات التاريخية في البنى الاجتماعية [318] نظام التاريخ في الوجود والثقافة [320] الأنساق الثقافية ومعالَم التراث الفكري [322] البناء الاجتماعي والبحث عن الحقيقة [324]

إنسانية الفرد والفعل الاجتماعي [326] الظواهر الثقافية وسلطة المجتمع في التاريخ واللغة [328] وظيفة الفلسفة في الروابط الإنسانية والحراك الاجتماعي [330] الخصائص الفلسفية للبناء الاجتماعي [332] العوامل الحضارية ومركزية الفعل الاجتماعي [334] فلسفة التاريخ وهوية الزمن [336] المنهج النقدي في الروابط الإنسانية [338] التنوع الثقافي في بُنية العلاقات الاجتماعية [341] فلسفة الظواهر الثقافية والهوية الوجودية للإنسان [344] البناء الاجتماعي وفلسفة التاريخ [347] الجوهر الأساسي للأنساق الثقافية [349] المجتمع واللغة والتاريخ من منظور فلسفي [351] المنهج الاجتماعي وتاريخ الأفكار الكامنة [353] مركزية الوعي الوجودي في البناء الاجتماعي [355] فلسفة التاريخ في التفاعلات الرمزية للعلاقات الاجتماعية [357] الوعي الثقافي والفعل الاجتماعي والعقل الجمعي [359] الفعل الاجتماعي والتجانس المركزي والمناهج اللغوية [361] رمزية اللغة وسيطرة الإنسان على الطبيعة [363] التاريخ والأشكال الثقافية وسلطة المعرفة [365] تحولات المعنى الوجودي في أنساق الحياة [367] الوجود والثقافة والمعرفة [369] اللغة والعقل الجمعي في فلسفة حركة التاريخ [371] فلسفة اللغة وتحرير الفعل الاجتماعي [373] البناء الاجتماعي والعقل الجمعي وتحرير الإنسان [375] البناء الاجتماعي والبنى الوظيفية والوعي الحقيقي [377] الجوهر التاريخي للفرد والكيونة الحضارية للمجتمع [379] التفكير والسلوك والتأويل اللغوي لأحداث التاريخ [381] الحراك الاجتماعي والوجود والوعي والتاريخ [383] صناعة الثقافة وفلسفة البناء الاجتماعي [385] تاريخ العلاقات الاجتماعية والواقع والعقلانية [387] الأساس الفلسفي لمنهج التحليل الاجتماعي [389] الخيال الإبداعي وإرادة المعرفة والجوهر الوجودي [391] طبيعة الإنسان والواقع الاجتماعي والمنهج الفلسفي [393] مركزية الثقافة وسلطة الفكر الإنساني [395] الحقيقة الإنسانية والواقع اليومي والرمزية اللغوية [397] الفعل الاجتماعي والفكر النقدي والحداثة والتراث [399] الزمن المعرفي والمناهج الاجتماعية الإبداعية [401] أركان جوهر الوجود الإنساني [403] التحولات الفكرية في العلاقات الاجتماعية [405] أبعاد البناء الاجتماعي كفضاءات معرفية [407] المنهج الاجتماعي والثقافة والزمن واللغة [409] الأدوار الحياتية للنظام الوجودي في اللغة [411] الجذور الفلسفية للأنظمة الاجتماعية [413] الحضور الفكري والوجود العملي والذاكرة الجمعية [415] فلسفة الظواهر الاجتماعية وتاريخ الأفكار [417] اللغة والفرد والمجتمع والوعي الثقافي [419] التنوع الثقافي والنزعة الإنسانية

والتأويل اللغوي [421] أهمية الترابط بين الفكر التاريخي والرمزية اللغوية [423] تحولات	
الفعل الاجتماعي في المسار الحياتي [425]	
427.....فهرس	
432.....صَدَرَ للمؤلف	

صَدَرَ لِلْمُؤَلَّفَةِ

الدراسات الدينية :

- ١_ حقيقة القرآن . ٢_ أركان الإسلام . ٣_ أركان الإيمان . ٤_ النبي مُحَمَّد ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ . ٥_ دراسات منهجية في القرآن والسُّنَّة . ٦_ العلوم والفنون في القرآن . ٧_ العمل في القرآن . ٨_ العلاقات الأخلاقية في القرآن . ٩_ العلاقات المالية والقضائية والسياسية والاقتصادية في القرآن . ١٠_ الدَّعوة الإسلامية . ١١_ دراسات منهجية في القرآن والتوراة والإنجيل . ١٢_ الإنسان والعلاقات الاجتماعية . ١٣_ بحوث في الفكر الإسلامي . ١٤_ منهج الكافرين في القرآن . ١٥_ التناقض في التوراة والإنجيل . ١٦_ صورة اليهود في القرآن والسُّنَّة والإنجيل . ١٧_ عقائد العرب في الجاهليَّة .

الأدب والثقافة والفكر :

- ١٨_ فلسفة المُعلَّقات العشر . ١٩_ النظام الاجتماعي في القصيدة (المأزق الاجتماعي للثقافة . كلام في فلسفة الشَّعر) . ٢٠_ صرخة الأزمنة (سِفْر الاعتراف) . ٢١_ مشكلات الحضارة الأمريكية . ٢٢_ حياة الأدباء والفلاسفة العالميين . ٢٣_ خواطر في زمن السراب .

الشَّعر :

- ٢٤_ الأعمال الشعرية الكاملة (مجلد واحد)
- ٢٥_ سيناميس (الساكنة في عيوني)

الرواية :

- ٢٦_ أشباح الميناء المهجور
- ٢٧_ جبل التنظيف